



فتح القدير

أبحامع بين في الرواية والدراية
من علم التفسير

تأليف

الإمام الشوكاني

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الصنعاني

المولود بصنعاء سنة ١١٧٣ هـ والمتوفى بهما سنة ١٢٥٠ هـ

رحمته الله تعالى

المجلد الثاني

من إصدارات

دار إحياء التراث العربي والادب العربي في بيروت

أمانة العامة العربية السعودية

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

طَبْعَةٌ خَاصَّةٌ لـ

وِزَارَةِ الشُّؤْنِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْأَوْقَافِ وَالْإِسْعَوَةِ وَالْإِسْتِثْنَاءِ

الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

قَامَتْ بِالْإِشْرَافِ عَلَى الطَّبَاعَةِ

دَارُ النُّوَادِرِ

شَرِكَةُ دَارِ النُّوَادِرِ الْكُوَيْتِيَّةِ - ذ.م.م. - الْكُوَيْتِ

الكويت - حولي - ص . ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

كِتَابُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
(قرآن کریم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المائدة (١)

هي مائة وثلاث وعشرون آية

قال القرطبي : هي مدنية بالإجماع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : المائدة مدنية . وأخرج أحمد والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن جابر بن نفير قال : حججبت فدخلت على عائشة ، فقالت لي : يا جابر تقرأ المائدة ؟ فقلت نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرّموه . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عبد الله بن عمرو قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح . وأخرج أحمد عنه قال : أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها . قال ابن كثير : تفرد به أحمد . قلت : وفي إسناده ابن لهيعة . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة والطبراني وأبو نعيم في الدلائل والبيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده والبغوي في معجمه وابن مردويه والبيهقي في دلائل النبوة عن أم عمرو بنت عيسى عن عمها نحوه أيضا . وأخرج أبو عبيد عن محمد بن كعب القرظي نحوه . وزاد أنها نزلت في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة . وهكذا أخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس بهذه الزيادة وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : المائدة من آخر القرآن تنزيلا ، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها . وأخرج أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ عن أبي ميسرة عمر بن شرحبيل قال : لم ينسخ من المائدة شيء . وكذا أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عنه . وكذا أخرجه عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي . وكذا أخرجه عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن المنذر عن الحسن البصري . وأخرج عبد بن حميد

(١) (تنبيه) جرى المفسر رحمه الله في ضبط ألفاظ القرآن في تفسيره هذا على رواية نافع مع تعرضه لقراءات السبع وأثبتنا القرآن على

رسم المصحف المباني .

وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر عن الشعبي قال : لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد) . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : نسخ من هذه السورة آيتان ، آية القلائد . وقوله (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) . وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في خطبته سورة المائدة والتوبة ، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال : ولما رجع صلى الله عليه وآله وسلم من الحديبية قال : يا على أشعرت أنها نزلت على سورة المائدة ؟ ونعمت الفائدة « قال ابن العربي هذا حديث موضوع لا يحل لمسلم اعتقاده وقال ابن عطية هذا عندى لا يشبه كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) .

هذه الآية التي افتتح الله بها هذه السورة إلى قوله (إن الله يحكم ما يريد) فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدة : منها الوفاء بالعقود ، ومنها تحليل بهيمة الأنعام ، ومنها استثناء ما سئل مما لا يحل ومنها تحريم الصيد على المحرم ، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم . وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له : أيها الحكميم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة ، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا . قوله (أوفوا بالعقود) يقال أوفى ووفى لغتان وقد جمع بينهما الشاعر فقال :

أما ابن طوف فقد أوفى بدمته كما وفى بقلاص النجم حاديا

والعقود : العهود ، وأصل العقود الربوط ، واحدها عقد ، يقال عقدت الحبل والعهد ، فهو يستعمل في الأجسام والمعاني ، وإذا استعمل في المعاني كما هنا أفاد أنه شديد الإحكام ، قوى التوثيق ، قيل المراد بالعقود هي التي عقدها الله على عباده وألزمهم بها من الأحكام ؛ وقيل هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات والأولى شمول الآية للأمرين جميعا ، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض . قال الزجاج : المعنى أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض انتهى . والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله ، فإن

خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل . قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) الخطاب للذين آمنوا . والبيمة : اسم لكل ذى أربع ، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعقلها ، ومنه باب مبهم : أى مغلق ، وليل بهم ، وبهية للشجاع الذى لا يدرى من أين يؤتى ، وحلقة مبهم : لا يدرى أين طرفاها . والأنعام : اسم للإبل والبقر والغنم ، سميت بذلك لما فى مشيها من اللين ؛ وقيل بهيمة الأنعام : وحشيتها كالظباء وبقر الوحش والحمر الوحشية وغير ذلك ، حكاه ابن جرير الطبرى عن قوم ، وحكاه غيره عن السدى والربيع وقتادة والضحاك . قال ابن عطية : وهذا قول حسن ، وذلك أن الأنعام هى الثمانية الأزواج ، وما انضاف إليها من سائر الحيوانات يقال له أنعام مجموعة معها ، وكأن المفترس كالأسد ، وكل ذى ناب خارج عن حد الأنعام ، فبهيمة الأنعام هى الراعى من ذوات الأربع ؛ وقيل بهيمة الأنعام : مالم تكن صيدا ، لأن الصيد يسمى وحشا لا بهيمة ؛ وقيل بهيمة الأنعام : الأجنة التى تخرج عند الذبح من بطون الأنعام فهى تؤكل من دون ذكاة . وعلى القول الأول أعنى تخصيص الأنعام بالإبل والبقر والغنم تكون الإضافة بيانية ، ويلحق بها ما يحل مما هو خارج عنها بالقياس ، بل وبالنصوص التى فى الكتاب والسنة كقوله تعالى - قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة - الآية ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « يحرم كل ذى ناب من السبع ومخاب من الطير » فإنه يدل بمفهومه على أن ما عداه حلال ، وكذلك سائر النصوص الخاصة بنوع كما فى كتب السنة المطهرة . قوله (إلا ما يتلى عليكم) استثناء من قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) أى إلا مدلول ما يتلى عليكم فإنه ليس بحلال . والمتلو : هو ما نص الله على تحريمه ، نحو قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) الآية ، ويلحق به ما صرحت السنة بتحريمه ، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به إلا ما يتلى عليكم الآن ، ويحتمل أن يكون المراد به فى مستقبل الزمان ، فيدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ويحتمل الأمرين جميعا . قوله (غير محلى الصيد) ذهب البصريون إلى أن قوله (إلا ما يتلى عليكم) استثناء من بهيمة الأنعام وقوله (غير محلى الصيد) استثناء آخر منه أيضا ، فلا استثناءان جميعا من بهيمة الأنعام ، والتقدير : أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم إلا الصيد وأنتم محرمون ؛ وقيل الاستثناء الأول من بهيمة الأنعام ، والاستثناء الثانى هو من الاستثناء الأول ، ورد بأن هذا يستلزم إباحة الصيد فى حال الإحرام ، لأنه مستثنى من المحظور فيكون مباحا ، وأجاز الفراء أن يكون (إلا ما يتلى) فى موضع رفع على البدل ، ولا يميزه البصريون إلا فى النكرة وما قاربها من الأجناس . قال : وانتصاب (غير محلى الصيد) على الحال من قوله (أوفوا بالعقود) وكذا قال الأخفش ، وقال غيرهما : حال من الكاف والميم فى (لكم) والتقدير : أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد : أى الاصطياد فى البر وأكل صيده . ومعنى عدم إحلالهم له تقرير حرمة عملا واعتقادا وهم حرم : أى محرمون بوجهة (وأنتم حرم) فى محل نصب على الحال من الضمير فى (محلى) ومعنى هذا التقيد ظاهر عند من يخص بهيمة الأنعام بالحيوانات الوحشية البرية التى يحل أكلها كأنه قال : أحل لكم صيد البر إلا فى حال الإحرام ، وأما على قول من يجعل الإضافة بيانية فالمعنى : أحلت لكم بهيمة هى الأنعام حال تحريم الصيد عليكم بدخولكم فى الإحرام لكونكم محتاجين إلى ذلك ، فيكون المراد بهذا التقيد الامتنان عليهم بتحليل ما عدا ما هو محرم عليهم فى تلك الحال . والمراد بالحرم من هو محرم بالحج أو العمرة أو بهما ، وسمى محرما لكونه يحرم عليه الصيد والطيب والنساء ، وهكذا وجه تسمية الحرم حرما ، والإحرام إحراما . وقرأ الحسن والنخعي ويحيى بن وثاب « حرم » بسكون الراء وهى لغة تميمية يقولون فى رسل رسل وفى كتب كتب ونحو ذلك . قوله (إن الله يحكم ما يريد) من الأحكام المتألفة لما كانت العرب تعتاده ، فهو مالك الكل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه . قوله (يا أيها الذين آمنوا

لا تحلوا شعائر الله (الشعائر جمع شعيرة على وزن فعيلة . قال ابن فارس : ويقال للواحدة شعارة وهو أحسن ، ومنه الإشعار للهدى . والمشاعر : المعالم ، واحداً مشعر ، وهى المواضع التى قد أشعرت بالعلامات ؛ قيل المراد بها هنا جميع مناسك الحج : وقيل الصفا والمروة ، والهدى والبدن . والمعنى على هذين القولين : لا تحلوا هذه الأمور بأن يقع منكم الإخلال بشيء منها أو بأن تحولوا بينها وبين من أراد فعلها . ذكر سبحانه النهى عن أن يحلوا شعائر الله عقب ذكره تحريم صيد المحرم ؛ وقيل المراد بالشعائر هنا فرائض الله ، ومنه - ومن يعظم شعائر الله - ؛ وقيل هى حرمة الله ، ولا مانع من حمل ذلك على الجميع اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولا بما يدل عليه السياق . قوله (ولا الشهر الحرام) المراد به الجنس ، فيدخل فى ذلك جميع الأشهر الحرم وهى أربعة ، ذو القعدة ، وذو الحجة ومحرم ، ورجب : أى لا تحلوا بالقتال فيها ؛ وقيل المراد به هنا شهر الحج فقط . قوله (ولا الهدى) هو ما يهدى إلى بيت الله من ناقة أو بقرة أو شاة ، الواحدة هدية . نهاهم سبحانه عن أن يحلوا حرمة الهدى بأن يأخذوه على صاحبه أو يحولوا بينه وبين المكان الذى يهدى إليه ، وعطف الهدى على الشعائر مع دخوله تحتها لقصد التنبيه على مزيد خصوصيته والتشديد فى شأنه . قوله (ولا القلائد) جمع قلادة ، وهى ما يقلد به الهدى من نعل أو نحوه . وإحلالها بأن تؤخذ غصبا ، وفى النهى عن إحلال القلائد تأكيد للنهى عن إحلال الهدى ؛ وقيل المراد بالقلائد المقلدات بها ، ويكون عطفه على الهدى لزيادة التوصية بالهدى ، والأول أولى ؛ وقيل المراد بالقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمانة لهم ، فهو على حذف مضاف : أى ولأصحاب القلائد . قوله (ولا آمين البيت الحرام) أى قاصديه من قولهم أمنت كذا : أى قصده . وقرأ الأعمش «ولا آمى البيت الحرام» بالإضافة . والمعنى : لا تمنعوا من قصد البيت الحرام لحج أو عمرة أو ليسكن فيه ؛ وقيل إن سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتصرون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فنزل (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) إلى آخر الآية فيكون ذلك منسوخاً بقوله - اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - ، وقوله - فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا - ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «لا يحجن بعد العام مشرك» . وقال قوم : الآية محكمة وهى فى المسلمين . قوله (يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً) جملة خالية من الضمير المستتر فى (آمين) قال جمهور المفسرين : معناه يبتغون الفضل والأرباح فى التجارة ، ويبتغون مع ذلك رضوان الله ؛ وقيل كان منهم من يطلب التجارة ، ومنهم من يبتغى بالحج رضوان الله ، ويكون هذا الابتغاء للرضوان بحسب اعتقادهم وفى ظنهم عند من جعل الآية فى المشركين ؛ وقيل المراد بالفضل هنا الثواب لا الأرباح فى التجارة . قوله (وإذا حلتم فاصطادوا) هذا تصريح بما أفاده مفهوم (وأنتم حرم) أباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذى حرم لأجله ، وهو الإحرام . قوله (ولا يجرمكم شأن قوم) قال ابن فارس : جرم وأجرم ولا جرم بمعنى قولك لا بد ولا محالة ، وأصلها من جرم أى كسب ، وقيل المعنى : لا يحملنكم قاله الكسائى وثعلب وهو يتعدى إلى مفعولين يقال جرمنى كذا على بغضك : أى حملنى عليه ومنه قول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا

أى حملتهم على الغضب . وقال أبو عبيدة والفراء : معنى (لا يجرمكم) لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتلوا الحق إلى الباطل ، والعدل إلى الجور والجريمة والجحارم بمعنى الكاسب ، ومنه قول الشاعر :

جريمة ناهض فى رأس نيق يرى لعظام ما جمعت صليبا

معناه كاسب قوت . والصليب : الدوك ، ومنه قول الآخر :

يا أيها المشتكى عكلا وما جرمت إلى القبائل من قتل وإيثار

أى كسبت ، والمعنى فى الآية : لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم أولا يكسبنكم بغضهم اعتداءكم للحق إلى الباطل ، ويقال جرم يجرم جرماً : إذا قطع . قال على بن عيسى الرمانى : وهو الأصل ، فجرم بمعنى حمل على الشيء لقطعه من غيره ، وجرم بمعنى كسب لا نقطاعه إلى الكسب ، ولا جرم بمعنى حق لأن الحق يقطع عليه قال الخليل : معنى - لاجر - أن لهم النار - لقد حق أن لهم النار . وقال الكسائى : جرم وأجرم لغتان بمعنى واحد : أى اكتسب . وقرأ ابن مسعود (لا يجرمنكم) بضم الباء ، والمعنى : لا يكسبنكم ولا يعرف البصريون أجرم ، وإنما يقولون جرم لا غير . والشأن : البغض . وقرئ بفتح النون وإسكانها ، يقال شئت الرجل أشنوه شناء ومشناً وشناً نا كل ذلك : إذا أبغضته ، وشأن هنا مضاف إلى المفعول : أى بغض قوم منكم لا بغض قوم لكم . قوله (أن صدوكم) بفتح الهزة مفعول لأجله . أى لأن صدوكم . وقرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهزة على الشرطية ، وهو اختيار أبى عبيد ، وقرأ الأعمش (إن يصدوكم) والمعنى على قراءة الشرطية : لا يحملنكم بغضهم إن وقع منهم الصد لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء عليهم . قال النحاس : وأما إن صدوكم بكسر إن ، فالعلماء الجلة بالنحو والحديث والنظر يمنعون القراءة بها لأشياء : منها أن الآية نزلت عام الفتح سنة ثمان ، وكان المشركون صدوا المؤمنين عام الحديبية سنة ست ، فالصد كان قبل الآية ، وإذا قرئ بالكسر لم يجوز أن يكون إلا بعده كما تقول : لا تعط فلاناً شيئاً إن قاتلك ، فهذا لا يكون إلا للمستقبل وإن فتحت كان للماضى ، وما أحسن هذا الكلام . وقد أنكر أبو حاتم وأبو عبيدة شأن بسكون النون . لأن المصادر إنما تأتى فى مثل هذا متحركة وخالفهما غيرهما فقال : ليس هذا مصدراً ، ولكنه اسم فاعل على وزن كسلان وغضبان . ولما نهاهم عن الاعتداء أمرهم بالتعاون على البر والتقوى : أى ليعن بعضكم بعضاً على ذلك ، وهو يشمل كل أمر يصدق عليه أنه من البر والتقوى كائناً ما كان ؛ قيل إن البر والتقوى لفظان لمعنى واحد ، وكرر للتأكيد . وقال ابن عطية : إن البر يتناول الواجب والمندوب ، والتقوى تختص بالواجب ، وقال الماوردى : إن فى البر رضا الناس وفى التقوى رضا الله ، فمن جمع بينهما فقد تمت سعادته ثم نهاهم سبحانه عن التعاون على الإثم والعدوان ، فالإثم : كل فعل أو قول يوجب إثم فاعله أو قائله ، والعدوان : التعدى على الناس بما فيه ظلم ، فلا يبقى نوع من أنواع الموجبات للإثم ولا نوع من أنواع الظلم للناس الذين من جلتهم النفس إلا وهو داخل تحت هذا النهى لصدق هذين النوعين على كل ما يوجد فيه معناه ، ثم أمر عباده بالتقوى وتوعد من خالف ما أمر به فتركه أو خالف ما نهى عنه ففعله بقوله (إن الله شديد العقاب) .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله (أو فوا بالعقود) قال : ما أحل الله وما حرّم وما فرض وما حذر فى القرآن كله لا تغدروا ولا تنكثوا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : هى عقود الجاهلية الحلف . وروى عنه ابن جرير أنه قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول « أو فوا بعقد الجاهلية ولا تحدثوا عقداً فى الإسلام » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) قال : الإبل والبقر والغنم . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر فى قوله (أحلت لكم بهيمة الأنعام) قال : ما فى بطونها ، قلت : إن خرج ميتاً آكله ؟ قال نعم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله (إلا ما يتلى عليكم) قال : الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به إلى آخر الآية ، فهذا ما حرّم الله من بهيمة الأنعام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (لا تحلوا شعائر الله) قال : كان المشركون يحجون البيت الحرام ويهدون الهدايا ويعظمون حرمة المشاعر وينحرون فى حجهم ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فقال الله (لا تحلوا

شعائر الله) وفي قوله (ولا الشهر الحرام) يعني : لاتستحلوا قتالا فيه (ولا آمين البيت الحرام) يعني من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون جميعا ، فهي الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا حج البيت أو يتعرضوا له من مؤمن أو كافر ، ثم أنزل الله بعد هذه الآية - إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا - وفي قوله (يبتغون فضلا) يعني أنهم يرضون الله بحجهم (ولا يجرمكم) يقول : لا يحملنكم (شأن قوم) يقول عداوة قوم (وتعاونوا على البر والتقوى) قال : البر ما أمرت به ، والتقوى ما نهيت عنه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : شعائر الله ما نهى الله عنه أن تصيبه وأنت محرم ، والهدى : ما لم يقلد والقلائد مقلدات الهدى (ولا آمين البيت الحرام) يقول : من توجه حاجا . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (لاتحلوا شعائر الله) قال : مناسك الحج . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فرهبهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نصدت هؤلاء كما صدتنا أصحابنا ، فأنزل الله (ولا يجرمكم) الآية . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه عن وابصة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له « البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب ومسلم والترمذي والحاكم والبيهقي عن النواس بن سمعان قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن البر والإثم ، فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس » . وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن حبان والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الإثم ، فقال : « ما حاك في نفسك فدعه » . قال فما الإيمان ؟ قال : من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن » .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقِيمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَثْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) .

هذا شروع في المحرمات التي أشار إليها سبحانه بقوله (إلا ما يتلى عليكم) . والميتة قد تقدم ذكرها في البقرة ، وكذلك الدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وما هنا من تحريم مطلق الدم مقيد بكونه مسفوحا كما تقدم حلا للمطلق على المقيد ، وقد ورد في السنة تخصيص الميتة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « أحل لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالخوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال » أخرجه الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وفي إسناده يقال ، ويقويه حديث « هو الطهور ماؤه والحل ميتته » وهو عند أحمد وأهل السنن وغيرهم وصححه جماعة منهم ابن خزيمة وابن حبان ، وقد أطلنا الكلام عليه في شرحنا للمتن . والإهلال رفع الصوت لغير الله كأن يقول بسم اللات والعزى ونحو ذلك ، ولا حاجة بنا هنا إلى تكرير ما قد أسلفناه فيه مالا يحتاج الناظر فيه إلى غيره . (والمخنقة) هي التي تموت بالخنق : وهو حبس النفس سواء كان ذلك بفعلها كأن تدخل رأسها في حبل أو بين

غودين ، أو بفعل آدمى أو غيره ، وقد كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة ، فإذا ماتت أكلوها . (والموقوذة) هي التي تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية ، يقال وقذه يقذه وقذا فهو وقيد ، والوقد شدة الضرب ، وقلائ وقيد : أى مشخن ضربا ، وقد كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لأنهم حتى تموت ثم يأكلونها ، ومنه قول الفرزدق :

شغارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوادم الأظفار

قال ابن عبد البر : واختلف العلماء قديما وحديثا في الصيد بالبندق والحجر والمعراض ، ويعنى بالبندق قوس البندقة ، وبالمعراض السهم الذى لاريش له أو العصا التي رأسها محدد ، قال : فمن ذهب إلى أنه وقيد لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته على ما روى عن ابن عمر ، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأصحابه والثوري والشافعي وخالفهم الشاميون في ذلك . قال الأوزاعي في المعراض كله خرق أو لم يخرق ، فقد كان أبو الدرداء وفضالة بن عبيد وعبد الله بن عمر ومكحول لا يرون به بأسا . قال ابن عبد البر : هكذا ذكر الأوزاعي عن عبد الله بن عمر ، والمعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع ، قال : والأصل في هذا الباب والذي عليه العمل وفيه الحجة حديث عدى بن حاتم ، وفيه « ما أصاب بعرضه فلا تأكل فإنه وقيد » انتهى .

قلت : والحديث في الصحيحين وغيرهما عن عدى قال : « قلت يا رسول الله إنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب فقال : إذا رميت بالمعرض فخرق فكله ، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله » فقد اعتبر صلى الله عليه وآله وسلم الحرق وعدمه ، فالحق أنه لا يحل إلا ما خرق لا ما صدم ، فلا بد من التذكية قبل الموت وإلا كان وقيدا . وأما البنادق المعروفة الآن : وهي بنادق الحديد التي تجعل فيها البارود والرصاص ويرمى بها ، فلم يتكلم عليها أهل العلم لتأخر حدوثها ، فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المائة العاشرة من الهجرة ، وقد سألتى جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حيا . والذي يظهر لى أنه حلال لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح السابق « إذا رميت بالمعراض فخرق فكله » فاعتبر الحرق في تحليل الصيد . قوله (والمتردية) هي التي تردى من علو إلى أسفل فتموت من غير فرق بين أن تردى من جبل أو بر أو مدفن أو غيرها ، والتردى مأخوذ من الردى وهو الهلاك وسواء تردت بنفسها أو ردها غيرها . قوله (والنطيحة) هي فعيلة بمعنى مفعولة ، وهي التي تنطحها أخرى فتموت من دون تذكية . وقال قوم أيضا : فعيلة بمعنى فاعلة ، لأن الدابتين تتناطحان فتموتان ، وقال : نطيحة ولم يقل نطيع مع أنه قياس فعيل ، لأن لزوم الحذف مختص بما كان من هذا الباب صفة لموصوف مذكور فإن لم يذكر ثبتت التاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية . وقرأ أبو ميسرة « والمنطوحة » . قوله (وما أكل السبع) أى ما افترسه ذوناب كالأسد والثمر والذئب والضبع ونحوها ، والمراد هنا ما أكل منه السبع ، لأن ما أكله السبع كله قد فنى ، ومن العرب من يخص اسم السبع بالأسد ، وكانت العرب إذا أكل السبع شاة ، ثم خلصوها منه أكلوها ، وإن ماتت ولم يذكروها . وقرأ الحسن وأبو حيوة « السبع » بسكون الباء ، وهي لغة لأهل نجد ، ومنه قول حسان في عتبة بن أبي لهب

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع

وقرأ ابن مسعود « وأكيلة السبع » . وقرأ ابن عباس « وأكيل السبع » . قوله (إلا ما ذكيتم) في محل نصب على الاستثناء المتصل عند الجمهور ، وهو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقا ، وفيه حياة ، وقال المدنيون : وهو المشهور من مذهب مالك ، وهو أحد قولى الشافعي أنه إذا بلغ السبع منها إلى مالا حياة معه فإنها

لأنه كل . وحكاه في الموطأ عن زيد بن ثابت ، وإليه ذهب إسماعيل القاضي ، فيكون الاستثناء على هذا القول منقطعا : أي حرمت عليكم هذه الأشياء ، لكن ما ذكيتم فهو الذي يحل ولا يحرم ، والأول أولى . والذكاة في كلام العرب الذبح ، قاله قطرب وغيره . وأصل الذكاة في اللغة : التمام : أي تمام استكمال القوة ، والذكاة حدة القلب والذكاة سرعة الفطنة ، والذكاة ما تذكى منه النار ، ومنه أذكى الحرب والنار : أوقدتهما ، وذكاة اسم الشمس والمراد هنا : إلا ما أدر كنتم ذكاته على التمام ، والتذكية في الشرع : عبارة عن إنهار الدم ، وفري الأوداج في المذبوح والنحر في المنحور والعقر في غير المقدور مقروننا بالقصد لله ، وذكر اسمه عليه . وأما الآلة التي تقع بها الذكاة ، فذهب الجمهور إلى أن كل ما أنهر الدم . وفري الأوداج فهو آلة للذكاة ما خلا السن والعظم ، وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة . قوله (وما ذبح على النصب) قال ابن فارس : النصب حجر كان ينصب فيعبد ويصب عليه دماء الذبائح ، والنصاب حجارة تنصب حوالى شفير البئر فتجعل عضائد . وقيل النصب : جمع واحده نصاب ، كحمار وحرر . وقرأ طلحة بضم النون وسكون الصاد . وروى عن أبي عمرو بفتح النون وسكون الصاد . وقرأ الجحدري بفتح النون والصاد ، جعله اسما موحدا كالجبل والجمل ، والجمع أنصاب كالأجبال والأجمال قال مجاهد : هي حجارة كانت حوالى مكة يذبحون عليها . قال ابن جريج : كانت العرب تذبح بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت ويشرجون اللحم ويضعونه على الحجارة ، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال ، فأنزل الله (وما ذبح على النصب) والمعنى : والنية بذلك تعظيم النصب لا أن الذبح عايبا غير جائز ، ولهذا قيل إن «على» بمعنى اللام : أي لأجلها . قاله قطرب ، وهو على هذا داخل فيما أهل به لغير الله ، وخص بالذكر لتأكيد تحريمه ولدفع ما كانوا يظنون من أن ذلك لتشريف البيت وتعظيمه . قوله (وأن تستقسموا بالأزلام) معطوف على ما قبله : أي وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام . والأزلام قداح الميسر واحدها زلم ، قال الشاعر :

• بات يقاسيها غلام كالزرم • ليس براعى لابل ولا غم • ولا يجزار على لحم وضم •

وقال آخر : فلئن جذيمة قتلت ساداتها فنساؤها يضربن بالأزلام

والأزلام للعرب ثلاثة أنواع : أحدها مكتوب فيه افعل ، والآخر مكتوب فيه لاتفعل ، والثالث مهمل لاشيء عليه فيجعلها في خريطة معه ، فإذا أراد فعل شيء أدخل يده وهي متشابهة فأخرج واحدا منها ، فإن خرج الأول فعل ما عزم عليه ، وإن خرج الثاني تركه ، وإن خرج الثالث أعاد الضرب حتى يخرج واحدا من الأولين . وإنما قيل لهذا الفعل استقسام لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق وما يريدون فعله كما يقال استسقى : أي استدعى السقى ، فلاستقسام : طلب القسم والنصيب . وجملة قداح الميسر عشرة ، وقد قدّمنا بيانها ، وكانوا يضربون بها في المقامرة ، وقيل إن الأزلام كعاب فارس والروم التي يتقامرون بها ، وقيل هي الشطرنج ، وإنما حرّم الله والاستقسام بالأزلام لأنه تعرض لدعوى علم الغيب وضرب من الكهانة . قوله (ذلكم فسق) إشارة إلى الاستقسام بالأزلام أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا . والفسق : الخروج عن الحد ، وقد تقدّم بيان معناه ، وفي هذا وعيد شديد ، لأن الفسق هو أشد الكفر لاما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر . قوله (اليوم يثس الذين كفروا من دينكم) المراد اليوم الذي نزلت فيه الآية ، وهو يوم فتح مكة ثمان بقين من رمضان سنة تسع وقيل ، سنة ثمان ، وقيل المراد باليوم الزمان الحاضر وما يتصل به ، ولم يرد يوما معينا ويثس فيه لغتان يثس بياءين يأسا ، وأيس يأسا وإياسا . قاله النضر بن شميل : أي حصل لهم اليأس من

إبطال دينكم وأن يردوكم إلى دينهم كما كانوا يزعمون (فلا تخشوهم) أى لا تخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطلوا دينكم (واخشون) فأنا القادر على كل شيء إن نصرتكم فلا غالب لكم ، وإن خذلتكم لم يستطع غيرى أن ينصركم . قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) جعلته كاملاً غير محتاج إلى إكمال لظهوره على الأديان كلها وغلبته لها ولكمال أحكامه التى يحتاج المسلمون إليها من الحلال والحرام والمشتبه ، ووفى ما تضمنه الكتاب والسنة من ذلك ، ولا يفتنى ما يستفاد من تقديم قوله (لكم) . قال الجمهور المراد بالإكمال هنا : نزول معظم الفرائض والتحليل والتحريم . قالوا : وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير كآية الربا وآية الكلاله ونحوهما . والمراد باليوم المذكور هنا هو يوم الجمعة ، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر ، هكذا ثبت في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب ، وقيل إنها نزلت في يوم الحج الأكبر . قوله (وأتممت عليكم نعمتى) يكمل الدين المشتغل على الأحكام ويفتح مكة وقهر الكفار وإياسهم عن الظهور عليكم كما وعدتكم بقولى (ولأتم نعمتى عليكم) . قوله (ورضيت لكم الإسلام ديناً) أى أخبرتكم برضاى به لكم فإنه سبحانه لم يزل راضياً لأمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالإسلام فلا يكون لاختصاص الرضا بهذا اليوم كثير فائدة إن حملناه على ظاهره ، ويحتمل أن يريد رضيت لكم الإسلام الذى أنتم عليه اليوم ديناً باقياً إلى انقضاء أيام الدنيا . وديننا متصب على التميز ، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً . قوله (فن اضطر في غمصة) هذا متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض : أى من دعت الضرورة (في غمصة) أى مجاعة إلى أكل الميتة وما بعدها من المحرمات . والخمص : ضمور البطن ، ورجل خميص وخمسان ، وامرأة خميص وخمسانة ، ومنه أخمص القدم ، ويستعمل كثيراً في الجوع ، قال الأعشى :

تبيتون في المشتاء ملأى بطونكم وجاراتكم غرثى بين خمائصا

قوله (غير متجانف) الجنف : الميل ، والإثم : الحرام : أى حال كون المضطر في غمصة غير مائل للإثم ، وهو بمعنى غير باغ ولا عاد ، وكل مائل فهو متجانف وجنف . وقرأ النخعي ويحيى بن وثاب والسلمي «متجنف» (فإن الله غفور رحيم) به لا يؤاخذ به بألحائه إليه الضرورة في الجوع مع عدم ميله بأكل ما حرم عليه إلى الإثم بأن يكون باغياً على غيره أو متعدياً لما دعت إليه الضرور حسبما تقدم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي أمامة قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قومي أَدْعُوهم إلى الله ورسوله وأعرض عليهم شعائر الإسلام ، فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعة دم واجتمعوا عايتها يأكلونها ، قالوا : هلم يا صدى فكل قالت : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم ، لما أنزل الله عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ قال : فتلوت عليهم هذه الآية (حرمت عليكم الميتة) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (وما أهل لغير الله به) قال : وما أهل للطواغيت به (والمنخقة) قال : التى تخنق فتموت (والموقوذة) قال : التى تضرب بالخشب فتموت (والمتردية) قال : التى تردى من الجبل فتموت (والنطيحة) قال : الشاة التى تنطح الشاة (وما أكل السبع) يقول : ما أخذ السبع (إلا ما ذكيت) يقول : ذبحتم من ذلك ، وبه روح فكلوه (وما ذبح على النصب) قال : النصب أنصاب كانوا يذبحون ويهلون عليها (وأن تستقسموا بالأزلام) قال : هى القداح كانوا يستقسمون بها في الأمور (ذلكم فسق) يعنى من أكل ذلك كله فهو فسق . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله (وأن تستقسموا بالأزلام) قال : حصى بيض كانوا يضربون بها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في الآية قال : كانوا إذا أرادوا أمراً أو سفراً

يحملون إلى قدام ثلاثة يكتبون على واحد منها: أمرني ، وعلى الآخر: نهاني ، ويتركون الثالث مخللاً بينهما ليس عليه شيء ثم يجبلونها ، فإن خرج الذي عليه: أمرني مضوا لأمرهم ، وإن خرج الذي عليه: نهاني كفوا ، وإن خرج الذي: ليس عليه شيء أعادوها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (اليوم يثس الذين كفروا من دينكم) قال : يثسوا أن يرجعوا إلى دينهم أبدا . وأخرج البيهقي عنه في الآية قال : يقول يثس أهل مكة أن يرجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبدا (فلا تخشوهم) في اتباع محمد (واخشون) في عبادة الأوثان وتكذيب محمد فلما كان واقفا بعرفت نزل عليه جبريل وهو رافع يديه والمسلمون يدعون الله (اليوم أكملت لكم دينكم) يقول حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام (وأتممت عليكم نعمتي) قال : مني ، فلم يجمع معكم مشرك (ورضيت) يقول : اخترت (لكم الإسلام دينا) فكث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول هذه الآية أحدا وثمانين يوما ، ثم قبضه الله إليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد أتمه فلا ينقص أبدا ، وقد رضى به فلا يسخطه أبدا . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن طارق بن شهاب قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأي آية ؟ قالوا (اليوم أكملت لكم دينكم) قال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والساعة التي نزلت فيها ، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشية عرفة في يوم الجمعة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فن اضطر) يعني إلى ما حرم مما سمى في صدر هذه السورة (في محمصة) يعني في مجاعة (غير متجانف لإثم) يقول غير متعمد لإثم .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ
تَعْلُمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ
لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ (٥) .

هذا شروع في بيان ما أحله الله لهم بعد بيان ما حرمه الله عليهم ، وسيأتي ذكر سبب نزول الآية . قوله (ماذا) (ماذا أحل لهم) أي شيء أحل لهم ، أو ما الذي أحل لهم من المطاعم إجمالا ومن الصيد ومن طعام أهل الكتاب ومن نسائهم قوله (قل أحل لكم الطيبات) هي ما يستلذه آكله ويستطيعه مما أحله الله لعباده ، وقيل هي الحلال ، وقد سبق الكلام في هذا ، وقيل الطيبات : الذبائح لأنها طابت بالتذكية ، وهو تخصيص للعام بغير مخصص ، والسبب والسياق لا يصلحان لذلك . قوله (وما علمتم من الجوارح) هو معطوف على الطيبات يتقدير مضاف لتصحيح المعنى : أي أحل لكم الطيبات وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح . وقرأ ابن عباس ومحمد بن الحنفية « علمتم »

بضم العين وكسر اللام : أى علمتم من أمر الجوارح والصيد بها . قال القرطبي : وقد ذكر بعض من صنف في أحكام القرآن أن الآية تدل على أن الإباحة تناولت ما علمنا من الجوارح ، وهو يتضمن الكلب وسائر جوارح الطير ، وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع ، فدل على جواز بيع الكلب والجوارح والانتفاع بها بسائر وجوه المنافع إلا ما خصه الدليل : وهو الأكل من الجوارح : أى الكواشب من الكلاب وسباع الطير . قال : أجمعت الأمة على أن الكلب إذا لم يكن أسود وعلمه مسلم ولم يأكل من صيده الذى صاده وأثر فيه يجرح أو تنيب وصاد به مسلم وذكر اسم الله عند إرساله أن صيده صحيح يؤكل بلا خلاف . فإن انخرم شرط من هذه الشروط دخل الخلاف ، فإن كان الذى يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه ، وكالبازى والصقر ونحوهما من الطير فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد التعليم فهو جرح كاسب ، يقال جرح فلان واجرح : إذا اكتسب ، ومنه الجارحة لأنه يكتسب بها ، ومنه اجترأح السيئات ، ومنه قوله تعالى - ويعلم ما جرحتم بالنهار - . وقوله - أم حسب الذين اجترأوا السيئات - . قوله (مكليين) حال ، والمكلب : معلم الكلاب لكيفية الاصطياد ، والأخص معلم الكلاب وإن كان معلم سائر الجوارح مثله ، لأن الاصطياد بالكلاب هو الغالب ، ولم يكتف بقوله (وما علمتم من الجوارح) مع أن التكليب هو التعليم ، لقصد التأكيد لما لا بد منه من التعليم ، وقيل إن السبع يسمى كلبا فيدخل كل سبع يصاد به ، وقيل إن هذه الآية خاصة بالكلاب . وقد حكى ابن المنذر عن ابن عمر أنه قال : ما يصاد بالبزة وغيرها من الطير فما أدركت ذكاته فهو لك حلال ، وإلا فلا تطعمه . قال ابن المنذر : وسئل أبو جعفر عن البازى هل يحل صيده ؟ قال لا ، إلا أن تدرك ذكاته . وقال الضحاك والسدى (وما علمتم من الجوارح مكليين) هى الكلاب خاصة ، فإن كان الكلب الأسود بهما فكره صيده الحسن وقتادة والنخعي . وقال أحمد : ما أعرف أحدا يرخص فيه إذا كان بهما ، وبه قال ابن راهويه . فأما عامة أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلم ، واحتج من منع من صيد الكلب الأسود بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « الكلب الأسود شيطان » . أخرجه مسلم وغيره ، والحق أنه يحل صيد كل ما يدخل تحت عموم الجوارح من غير فرق بين الكلب وغيره وبين الأسود من الكلاب وغيره وبين الطير وغيره ، ويؤيد هذا أن سبب نزول الآية سؤال عدى بن حاتم عن صيد البازى كما سيأتى . قوله (تعلمونهم مما علمكم الله) الجملة فى محل نصب على الحال : أى مما علمكم الله مما أدركتموه بما خلقه فيكم من العقل الذى تهتلون به إلى تعليمها وتدريبها حتى تصير قابلة لإمساك الصيد عند إرسالكم لها . قوله (فكلوا مما أمسكن عليكم) الفاء للتفريع ، والجملة متفرعة على ما تقدم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح ، ومن فى قوله (مما أمسكن عليكم) للتبعض ، لأن بعض الصيد لا يؤكل كالجلد والعظم وما أكله الكلب ونحوه ، وفيه دليل على أنه لا بد أن يمسكه على صاحبه فإن أكل منه فإنما أمسكه على نفسه كما فى الحديث الثابت فى الصحيح . وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يحل أكل الصيد الذى يقصده الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال . وقال عطاء بن أبي رباح والأوزاعى : وهو مروى عن سلمان الفارسى وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة وعبد الله بن عمر ، وروى عن على وابن عباس والحسن البصرى والزهرى وربيعة ومالك والشافعى فى القديم أنه يؤكل صيده ، ويرد عليهم قوله تعالى (مما أمسكن عليكم) ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعدي بن حاتم « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » وهو فى الصحيحين وغيرهما ، وفى لفظ لهما « فإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه » . وأما ما أخرجه أبو داود بإسناد جيد من حديث أبى ثعلبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه » . وقد أخرجه أيضا بإسناد

جيد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . وأخرجه أيضا النسائي فقد جمع بعض الشافعية بين هذه الأحاديث بأنه إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدى بن حاتم ، وإن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه الانتظار وجاع فأكل من الصيد لجوعه لالكونه أمسكه على نفسه فإنه لا يؤثر ذلك ولا يحرم به الصيد ، وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني ، وحديث عمرو بن شعيب ، وهذا جمع حسن . وقال آخرون : إنه إذا أكل الكلب منه حرم لحديث عدى ، من غيره لم يحرم للحديثين الآخرين ؛ وقيل يحمل حديث أبي ثعلبة على ما إذا أمسكه وخلاه ، ثم عاد فأكل منه .

وقد سلك كثير من أهل العلم طريق الترجيح ولم يسلكوا طريق الجمع لما فيها من البعد ، قالوا : وحديث عدى ابن حاتم أرجح لكونه في الصحيحين . وقد قررت هذا المسلك في شرحي للمتنقي بما يزيد الناظر فيه بصيرة . قوله (واذكروا اسم الله عليه) الضمير في (عليه) يعود إلى (ما علمتم) أي سموا عليه عند إرساله ، أولما أمسكن عليكم : أي سموا عليه إذا أردتم ذكاته . وقد ذهب الجمهور إلى وجوب التسمية عند إرسال الجراح ، واستدلوا بهذه الآية ، ويؤيده حديث عدى بن حاتم الثابت في الصحيحين وغيرهما بلفظ « إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله » . وقال بعض أهل العلم : إن المراد التسمية عند الأكل . قال القرطبي : وهو الأظهر ، واستدلوا بالأحاديث التي فيها الإرشاد إلى التسمية وهذا خطأ ، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد وقت التسمية بإرسال الكلب وإرسال السهم ، ومشروعية التسمية عند الأكل حكم آخر ، ومسألة غير هذه المسألة فلا وجه لحمل ما ورد في الكتاب والسنة هنا على ما ورد في التسمية عند الأكل ، ولا ملجئ إلى ذلك ، وفي لفظ في الصحيحين من حديث عدى « إن أرسلت كلبك وسميت فأخذ فكل » . وقد ذهب جماعة إلى أن التسمية شرط وذهب آخرون إلى أنها سنة فقط ، وذهب جماعة إلى أنها شرط على الذاكر لا الناسي ، وهذا أقوى الأقوال وأرجحها قوله (واتقوا الله إن الله سريع الحساب) أي حسابه سبحانه سريع إتيانه وكل آت قريب . قوله (اليوم أحلّ لكم الطيبات) هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى ، وهي قوله (أحلّ لكم الطيبات) وقد تقدّم بيان الطيبات . قوله (وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم) الطعام : اسم لما يؤكل ، ومنه الذبائح ، وذهب أكثر أهل العلم إلى تخصيصه هنا بالذبائح . وفي هذه الآية دليل على أن جميع طعام أهل الكتب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وإن كانوا لا يذكرون على ذبائحهم اسم الله ، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله - ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - . وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال ، وإن ذكر اليهودي على ذبيحته اسم عزيز ، وذكر النصراني على ذبيحته اسم المسيح . وإليه ذهب أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس والزهري وربيعة والشعبي ومكحول . وقال علي وعائشة وابن عمر : إذا سمعت الكتابي يسمى غير الله فلا تأكل . وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى - ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - ويدل عليه أيضا قوله - وما أهلّ لغير الله به - وقال مالك : إنه يكره ولا يحرم . فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله . وأما مع عدم العلم فقد حكى الكيا الطبري وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية ، ولما ورد في السنة من أكله صلى الله عليه وآله وسلم من الشاة المصلية التي أهدتها إليه اليهودية ، وهو في الصحيح ، وكذلك الجراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خير وعلم بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في الصحيح أيضا وغير ذلك . والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود والنصارى . وأما المجوس ، فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نسائهم لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم ، وخالف في ذلك أبو ثور ، وأنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال أحمد

ابن حنبل : أبو ثوركاسمه ، يعنى فى هذه المسئلة ، وكأنه تمسك بما يروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مرصلا أنه قال فى المجوس : سنوا بهم سنة أهل الكتاب ، ولم يثبت بهذا اللفظ ، وعلى فرض أن له أصلا ففيه زيادة تدفع ما قاله ، وهى قوله غير آكل ذبائحهم ولا ناكح نسائهم . وقد رواه بهذه الزيادة جماعة ممن لا خبرة له بفن الحديث من المفسرين والفقهاء ، ولم يثبت الأصل ولا الزيادة ، بل الذى ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر ، وأما بنو تغلب فكان على بن أبى طالب ينهى عن ذبائحهم لأنهم عرب ، وكان يقول : إنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر ، وهكذا سائر العرب المنتصرة كتخوخ وجذام ونلم وعاملة ومن أشبههم . قال ابن كثير : وهو قول غير واحد من السلف والخلف . وروى عن سعيد بن المسيب والحسن البصرى أنهما كانا لا يريان بأسا بذبيحة نصارى بنى تغلب . وقال القرطبي : وقال جمهور الأمة إن ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بنى تغلب أو من غيرهم ، وكذلك اليهود . قال : ولا خلاف بين العلماء أن مالا يحتاج إلى ذكاة كالطعام يجوز أكله . قوله (وطعامكم حل لكم) أى وطعام المسلمين حلال لأهل الكتاب ، وفيه دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يطعموا أهل الكتاب من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمجازاة وإخبار المسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية . قوله (والمحصنات من المؤمنات) اختلف فى تفسير المحصنات هنا ، فقليل العفاف ، وقيل الحرائر . وقرأ الشعبي بكسر الصاد ، وبه قرأ الكسائي . وقد تقدم الكلام فى هذا مستوفى فى البقرة والنساء . والمحصنات مبتدأ ، ومن المؤمنات وصف له والخبر محذوف أى حل لكم ، وذكرهن هنا توطئة وتمهيدا لقوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) والمراد بهن الحرائر دون الإماء ، هكذا قال الجمهور ، وحكى ابن جرير عن طائفة من السلف أن هذه الآية تعم كل كتابية حرة أو أمة ، وقيل المراد بأهل الكتاب هنا الإسرائيليات ، وبه قال الشافعى ، وهو تخصيص بغير تخصيص . وقال عبد الله بن عمر : لا تحل النصرانية ، قال : ولا أعلم شركا أكبر من أن تقول ربها عيسى ، وقد قال الله - ولأنكحوا المشركات حتى يؤمنن - الآية ، ويحاج عنه بأن هذه الآية مخصصة للكتابيات من عموم المشركات فيبنى العام على الخاص . وقد استدل من حرّم نكاح الإماء الكتابيات بهذه الآية لأنه حملها على الحرائر ، وبقوله تعالى (فمن مملكت أيمانكم من فتيانكم المؤمنات) وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم وخالفهم من قال : إن الآية تعم أو تخص العفاف كما تقدم . والحاصل أنه يدخل تحت هذه الآية الحرة العفيفة من الكتابيات على جميع الأقوال إلا على قول ابن عمر فى النصرانية ، ويدخل تحتها الحرة التى ليست بعفيفة والأمة العفيفة ، على قول من يقول إنه يجوز استعمال المشرك فى كلا معنیه ، وأما من لم يجوز ذلك فلأن حمل المحصنات هنا على الحرائر لم يقل بجواز نكاح الأمة عفيفة كانت أو غير عفيفة إلا بدليل آخر ويقول بجواز نكاح الحرة العفيفة كانت أو غير عفيفة ، وإن حمل المحصنات هنا على العفاف قال بجواز نكاح الحرة العفيفة والأمة العفيفة دون غير العفيفة منهما . قوله (إذا آتيتموهن أجورهن) أى مهورهن وجواب إذا محذوف : أى فهن حلال ، وهى ظرف لخبر المحصنات المقدر : أى حل لكم قوله (محصنين) منصوب على الحال : أى حال كونكم أعفاء بالنكاح ، وكذا قوله (غير مسافحين) منصوب على الحال من الضمير فى محصنين أو صفة لمحصنين ، والمعنى : غير مجاهرين بالزنا . قوله (ولا متخذى أخدان) معطوف على (غير مسافحين) أو على (مسافحين) . (ولا) مزيدة للتأكيد ، والخدن يقع على الذكر والأنثى : أى لم يتخذوا معشوقات ، فقد شرط الله فى الرجال العفة وعدم المجاهرة بالزنا وعدم اتخاذ أخدان ، كما شرط فى النساء أن يكن محصنات (ومن يكفر بالإيمان) أى بشرائع الإسلام (فقد حبط عمله) أى بطل (وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقرأ ابن السميع : فقد حبط ، بفتح الباء اهـ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن أبي رافع : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره بقتل الكلاب في الناس ، فقالوا : يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله (يسألونك ماذا أحل لهم) الآية . وأخرج ابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج أيضا عن محمد بن كعب القرظي نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أن عدى بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالا يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة ، فنزلت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الشعبي : أن عدى بن حاتم الطائي أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله ، فذكر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (وما علمتم من الجوارح مكلين) قال : هي الكلاب المعلمة ، والبازي والجوارح يعني الكلاب والفهود والصقور وأشباهها . وأخرج ابن جرير عنه قال : آية المعلم أن يمسك صيده فلا يأكل منه حتى يأتي صاحبه . وأخرج عنه أيضا قال : إذا أكل الكلب فلا تأكل ، فإنما أمسك على نفسه . وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه ، وزاد : وإذا أكل الصقر فلا تأكل ، لأن الكلب تستطيع أن تضربه والصقر لا تستطيع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عنه في قوله (وطعام الذين أوتوا الكتاب) قال : ذبائحهم ، وفي قوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) قال : حل لكم (إذا آتيتموهن أجورهن) يعني مهورهن (محصنين) يعني تنكحونهن بالمهر والبينة (غير مسافحين) غير متغالين بالزنا (ولا متخذين أخدان) يعني يسرون بالزنا . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) قال : أحل الله لنا محصنتين محصنة مؤمنة ومحصنة من أهل الكتاب ، نساؤنا عليهم حرام ونساؤهم لنا حلال . وأخرج ابن جرير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « فتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة . وأخرج الطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : إنما أحلت ذبائح اليهود والنصارى من أجل أنهم آمنوا بالتوراة والإنجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) قال الحرائر . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : العفاف .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى
أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١) .

قوله (إذا قمتم) إذا أردتم القيام تعبيرا بالمسبب عن السبب كما في قوله - فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله -

وقد اختلف أهل العلم في هذا الأمر حتى إرادة القيام إلى الصلاة ، فقالت طائفة : هو عام في كل قيام إليها سواء كان القائم متطهرا أو محدثا ، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ ، وهو مروي عن علي وعكرمة .

وقال ابن سيرين : كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة . وقالت طائفة أخرى : إن هذا الأمر خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ضعيف ، فإن الخطاب للمؤمنين والأمر لهم . وقالت طائفة : الأمر للندب طلباً للفضل . وقال آخرون : إن الوضوء لكل صلاة كان فرضاً عليهم بهذه الآية ، ثم نسخ في فتح مكة . وقال جماعة : هذا الأمر خاص بمن كان محدثاً . وقال آخرون : المراد إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، فيعم الخطاب كل قائم من نوم . وقد أخرج مسلم وأحمد وأهل السنن عن بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله ، فقال : عمداً فعلته يا عمر ، وهو مروي من طرق كثيرة بألفاظ متفقة في المعنى . وأخرج البخاري وأحمد وأهل السنن عن عمرو بن عمار الأنصاري سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث ، فتقرر بما ذكر أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث ، وبه قال جمهور أهل العلم وهو الحق . قوله (فاغسلوا وجوهكم) الوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة ، وهو عضو مشتمل على أعضاء ، وله طول وعرض ، فحده في الطول من مبتدئ سطح الجبهة إلى منتهى اللحية ، وفي العرض من الأذن إلى الأذن ، وقد ورد الدليل بتخليل اللحية . واختلف العلماء في غسل ما استرسل ، والكلام في ذلك مبسوط في مواطنه . وقد اختلف أهل العلم أيضاً : هل يعتبر في الغسل لذلك باليد أم يكفي إمرار الماء ، والخلاف في ذلك معروف ، والمرجع اللغة العربية فإن ثبت فيها أن ذلك داخل في معنى الغسل كان معتبراً وإلا فلا . قال في شمس العلوم : غسل الشيء غسلاً إذا أجرى عليه الماء وذلك انتهى . وأما المضمضة والاستنشاق ، فإذا لم يكن لفظ الوجه يشمل باطن الفم والأنف فقد ثبت غسلها بالسنة الصحيحة ، والخلاف في الوجوب وعدمه معروف . وقد أوضحنا ما هو الحق في مؤلفاتنا . قوله (وأيديكم إلى المرافق) إلى للغاية ، وأما كون ما بعدها يدخل فيما قبلها فحل خلاف . وقد ذهب سيويه وجماعة إلى أن ما بعدها إن كان من نوع ما قبلها دخل وإلا فلا ؛ وقيل إنها هنا بمعنى مع . وذهب قوم إلى أنها تفيد للغاية مطلقاً ، وأما الدخول وعدمه فأمر يدور مع الدليل . وقد ذهب الجمهور إلى أن المرافق تغسل ، واستدلوا بما أخرجه الدارقطني والبيهقي من طريق القاسم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جده عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه ، ولكن القاسم هذا متروك وجده ضعيف . قوله (وامسحوا برءوسكم) قبل الباء زائدة ، والمعنى : امسحوا برءوسكم ، وذلك يقتضي تعميم المسح لجميع الرأس وقيل هي للتبعض ، وذلك يقتضي أنه يجزئ مسح بعضه . واستدل القائلون بالتعميم بقوله تعالى في التيمم (فامسحوا بوجوهكم) ولا يجزئ مسح بعض الوجه اتفاقاً ؛ وقيل إنها للإلصاق : أي الصقوا أيديكم برءوسكم ، وعلى كل حال فقد ورد في السنة المطهرة ما يفيد أنه يكفي مسح بعض الرأس كما أوضحناه في مؤلفاتنا ، فكان هذا دليلاً على المطلوب غير محتمل كاحتمال الآية على فرض أنها محتملة . ولا شك أن من أمر غيره بأن يمسح رأسه كان ممثلاً بفعل ما يصدق عليه مسمى المسح ، وليس في لغة العرب ما يقتضي أنه لا بد في مثل هذا الفعل من مسح جميع الرأس ، وهكذا سائر الأفعال المتعدية نحو اضرب زيداً أو اطعته أو ارجه ، فإنه يوجد المعنى العربي بوقوع الضرب أو الطعن أو الرجم على عضو من أعضائه ولا يقول قائل من أهل اللغة أو من هو عالم بها إنه لا يكون ضارباً إلا بإيقاع الضرب على كل جزء من أجزاء زيد ، وكذلك الطعن والرجم وسائر الأفعال ، فأعرف هذا حتى يتبين لك ما هو الصواب من الأقوال في مسح الرأس . فإن قلت : يلزم مثل هذا في غسل الوجه واليدين والرجلين . قلت : ملتزم

لولا البيان من السنة في الوجه والتحديد بالغاية في اليدين والرجلين بخلاف الرأس ، فإنه ورد في السنة مسح الكل ومسح البعض . قوله (وأرجلكم إلى الكعبين) قرأ نافع بنصب الأرجل ، وهي قراءة الحسن البصري والأعمش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزرة بالجهر . وقراءة النصب تدل على أنه يجب غسل الرجلين ، لأنها معطوفة على الوجه ، وإلى هنا ذهب جمهور العلماء . وقراءة الجهر تدل على أنه يجوز الاختصار على مسح الرجلين لأنها معطوفة على الرأس وإليه ذهب ابن جرير الطبري وهو مروى عن ابن عباس . قال ابن العربي : اتفقت الأمة على وجوب غسلهما وما علمت من رد ذلك إلا الطبري من فقهاء المسلمين والرافضة من غيرهم ، وتعلق الطبري بقراءة الجهر ، قال القرطبي : قد روى عن ابن عباس أنه قال : الوضوء غسلتان ومسحتان ، قال : وكان عكرمة يمسح رجله ؛ وقال ليس في الرجلين غسل ، إنما نزل فيهما المسح . وقال عامر الشعبي : نزل جبريل بالمسح . قال : وقال قتادة : افترض الله مسحتين وغسلتين . قال : وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح وجعل القراءتين كالروايتين ، وقواه النحاس ولكنه قد ثبت في السنة المطهرة بالأحاديث الصحيحة من فعله صلى الله عليه وآله وسلم وقوله غسل الرجلين فقط ، وثبت عنه أنه قال : « ويل للأعقاب من النار » وهو في الصحيحين وغيرهما فأفاد وجوب غسل الرجلين ، وأنه لا يجزئ مسحهما ، لأن شأن المسح أن يصيب ما أصاب ويخطئ ما أخطأ ، فلو كان مجزئاً لما قال « ويل للأعقاب من النار » وقد ثبت عنه أنه قال بعد أن توضأ وغسل رجله : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به . وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره أن رجلاً توضأ فترك على قدمه مثل موضع الظفر ، فقال له : ارجع فأحسن وضوءك . وأما المسح على الخفين فهو ثابت بالأحاديث المتواترة . وقوله (إلى الكعبين) الكلام فيه كالكلام في قوله (إلى المرافق) وقد قيل في وجه جمع المرافق وتثنية الكعب إنه لما كان في كل رجل كعبان ولم يكن في كل يد إلا مرفق واحد ثبتت الكعبان تنبيهاً على أن لكل رجل كعبين ، بخلاف المرافق فإنها جمعت لأنه لما كان في كل يد مرفق واحد لم يتوهم وجود غيره ، ذكر معنى هذا ابن عطية . وقال الكواشي : ثنى الكعبين وجمع المرافق ثنى توهم أن في كل واحدة من الرجلين كعبين ، وإنما في كل واحدة كعب واحد له طرفان من جانبي الزجل ، بخلاف المرفق فهي أبعد عن الوهم انتهى .

وبقي من فرائض الوضوء النية والتسمية ولم يذكر في هذه الآية ، بل وزدت بهما السنة ، وقيل إن في هذه الآية ما يدل على النية ، لأنه لما قال - إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم - كان تقدير الكلام : فاغسلوا وجوهكم لها ، وذلك هو النية المعبرة . قوله (وإن كنتم جنباً فاطهروا) أي فاغسلوا بالماء . وقد ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجنب لا يتيمم ألبتة بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالاً بهذه الآية ، وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنب مع عدم الماء ، وهذه الآية هي للواجد ، على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه ، وهو التراب . وقد صرح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور للأحاديث الصحيحة الواردة في تيمم الجنب مع عدم الماء . وقد تقدم تفسير الجنب في النساء . قوله (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط) قد تقدم تفسير هذا في سورة النساء مستوفى ، وكذلك تقدم الكلام على ملامسة النساء وعلى التيمم وعلى الصعيد ، ومن ثم قوله (منه) لابتداء الغاية ، وقيل للتبويض . قيل ووجه تكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام في أنواع الطهارة (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أي ما يريد بأمركم بالطهارة بالماء أو بالتراب التضييق عليكم في الدين ، ومنه قوله تعالى - وما جعل عليكم في الدين من حرج - ثم قال (ولكن يريد ليطهركم) من الذنوب ، وقيل من الحدث الأصغر والأكبر (وليتم نعمته عليكم) أي بالترخيص لكم في التيمم

عند عدم الماء أو بما شرعه لكم من الشرائع التي عرّضكم بها للثواب (لعلكم تشكرون) نعمته عليكم فتستحقون بالشكر ثواب الشاكرين .

وقد أخرج مالك والشافعي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن زيد بن أسلم في قوله (إذا قمتم إلى الصلاة) قال قمتم من المضاجع ، يعني النوم . وأخرج ابن جرير عن السدي مثله . وأخرج ابن جرير أيضا عنه يقول : إذا قمتم وأنتم على غير طهر . وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن في قوله (فاغسلوا وجوهكم) قال : ذلك الغسل الدلك . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير عن أنس أنه قيل له : إن الحجاج خطبنا فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم وأرجلكم ، وأنه ليس شيء من ابن آدم أقرب إلى الخبث من قدميه فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيهما . قال أنس : صدق الله وكذب الحجاج ، قال الله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما . وأخرج سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على غسل القدمين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (من حرج) قال : من ضيق . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله (وليتم نعمته عليكم) قال : تمام النعمة دخول الجنة ، لم يتم نعمته على عبد لم يدخل الجنة .

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) .

(نعمة الله) قيل هي الإسلام . والميثاق : العهد ، قيل المراد به هنا : ما أخذه على بني آدم كما قال - وإذا أخذ ربك من بني آدم - الآية . قال مجاهد وغيره : نحن وإن لم نذكره فقد أخبرنا الله به ، وقيل هو خطاب لليهود ، والعهد : ما أخذه عليهم في التوراة . وذهب جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم إلى أنه العهد الذي أخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة عليهم ، وهو السمع والطاعة في المنشط والمكروه ، وأضافه تعالى إلى نفسه لأنه عن أمره وإذنه كما قال - إنما يبايعون الله - ، وبيعة العقبة مذكورة في كتب السير ، وهذا متصل بقوله - أوفوا بالعقود . قوله (إذا قام سمعنا وأطعنا) أي وقت قولكم هذا القول ، وهذا متعلق بواثقكم ، أو بمحنوف وقع حالا : أي كائنا هذا الوقت . و (ذات الصدور) : ما تخفيه الصدور لكونها مختصة بها لا يعلمها أحد ، ولهذا أطلق عليها ذات التي بمعنى الصاحب ، وإذا كان سبحانه عالما بها فكيف بما كان ظاهرا جليا . قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين) قد تقدم تفسيرها في النساء ، وصيغة المبالغة في (قوامين) تفيد أنهم مأمورون بأن يقوموا

بها أتم قيام (فد) أى لأجله تعظيماً لأمره وطمعاً في ثوابه . والقسط : العدل . وقد تقدم الكلام على قوله (يجر منكم) مستوفى : أى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل وكنم الشهادة (اعدلوا هو) أى العدل المدلول عليه بقوله اعدلوا (أهرب للثوى) التى أمرتم بها غير مرة : أى أقرب لأن تتقوا الله ، أو لأن تتقوا النار . قوله (لهم مغفرة وأجر عظيم) هذه الجملة في محل نصب على أنها المفعول الثانى لقوله (وعد) على معنى وعدم أن لهم مغفرة ، أو وعدم مغفرة فوفقت الجملة موقع المفرد فأغنت عنه ، ومثله قول الشاعر :

وجدنا الصالحين لهم جزاء وجنات وعينا سلسيلا

قوله (أصحاب الجحيم) أى ملابسوها . قوله (إذ هم قوم) ظرف لقوله (اذكروا) أوللنعمة أو لمخلف وقع حالاً منها (أن ييسطوا) أى بأن ييسطوا . وقوله (فكف) معطوف على قوله (هم) وسبأى بيان سبب نزول هذه الآية ، وبه يتضح المعنى .

وقد أخرج ابن جرير والطبرانى في الكبير عن ابن عباس في قوله (إذ قلتم سمعنا وأطعنا) يعنى حين بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنزل عليه الكتاب قالوا آمنا بالنبي والكتاب وأقررنا بما في التوراة ، فذكرهم الله ميثاقه الذى أقرؤا به على أنفسهم وأمرهم بالوفاء به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : نعم الآلاء ، وميثاقه الذى واثقهم به قال الذى واثق به بنى آدم في ظهر آدم عليه السلام . وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن كثير في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) الآية . قال : نزلت في يهود خيبر ، ذهب إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستفتيهم في دية فهموا أن يقتلوه ، فذلك قوله (ولا يجر منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا) الآية . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى في الدلائل عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزل منزلاً ففرق الناس في العضاء يستظلون تحتها ، فعلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلاحه بشجرة . فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسله ، ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله ، قال الأعرابي : مرتين أو ثلاثاً من يمنعك منى ؟ والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : الله ، فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه فأخبرهم بصنيع الأعرابي وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه . قال معمر : وكان قتادة يذكر نحو هذا . ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسلوا هذا الأعرابي ، ويتأول (اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم) الآية . وأخرج الحاكم وصححه عنه بنحوه ، وذكر أن اسم الرجل غورث بن الحارث ، وأنه لما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «الله» سقط السيف من يده ، فأخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : من يمنعك منى ؟ قال : كن خير آخذ ، قال : فشهد أن لا إله إلا الله . وأخرجه أيضاً ابن إسحاق وأبو نعيم في الدلائل عنه . وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس : أن بنى النضير هموا أن يطرحوا حجراً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه ، فجاء جبريل فأخبره بما هموا ، فقام ومن معه ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم) الآية ، وروى نحو هذا من طرق عن غيره ، وقصة الأعرابي وهو غورث المذكور ثابتة في الصحيح .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ

لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا

حَسَنًا لَا كُفْرًا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دُخْلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ
بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا
قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ
عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) .

قوله (ولقد أخذ الله) كلام مستأنف يتضمن ذكر بعض ما صدر من بني إسرائيل من الخيانة . وقد تقدم بيان الميثاق الذي أخذه الله عليهم . واختلف المفسرون في كيفية بعث هؤلاء النقباء بعد الإجماع منهم على أن النقيب كبير القوم العالم بأمورهم الذي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها . والنقاب : الرجل العظيم الذي هو في الناس على هذه الطريقة ، ويقال نقيب القوم لشاهدهم وضمينهم . والنقيب : الطريق في الجبل هذا أصله ، وسمى به نقيب القوم لأنه طريق إلى معرفة أمورهم . والنقيب : أعلى مكانا من العريف ، فقيل المراد ببعث هؤلاء النقباء أنهم يعثوا أمنا على الاطلاع على الجبارين والنظر في قوتهم ومنعتهم فساروا ليختبروا حال من بها ويخبروا بذلك ، فاطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة وظنوا أنهم لا قبل لهم بها ، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني إسرائيل وأن يعلموا به موسى ، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فأخبروا قراباتهم ، ففسخ الخبر حتى بطل أمر الغزو وقالوا - اذهب أنت وربك فقاتلا - وقيل إن هؤلاء النقباء كفل كل واحد منهم على سيطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله ، وهذا معنى بعثهم ، وسيأتي ذكر بعض ما قاله جماعة من السلف في ذلك . قوله (وقال الله إني معكم) أي قال ذلك لبني إسرائيل ، وقيل للنقباء ، والمعنى : إني معكم بالنصر والعون ، واللام في قوله (لن أقمم الصلاة) هي الموطنة للقسم المخوف ، وجوابه (لا كفرن) وهو ساد مسد جواب الشرط . والتعزير : التعظيم والتوقير ، وأنشد أبو عبيدة :

وكم من ماجد لهم كسريم ومن ليث يعزر في الندى

أي يعظم ويوقر . ويطلق التعزير على الضرب والرد ، يقال عزرت فلانا : إذا أدبته ورددته عن القبيح ، فقوله (وعزرتهم) أي عظمتهم على المعنى الأول ، أو رددتهم عنهم أعداءهم ومنعتهم على الثاني . قوله (وأقرضتم الله قرضا حسنا) أي أنفقتم في وجوه الخير ، و (قرضا) مصدر محذوف الزوائد كقوله تعالى - وأنبأنا نباتا حسنا - أو مفعول ثان لأقرضتم . والحسن : قيل هو ما طابت به النفس ، وقيل ما ابتغى به وجه الله ، وقيل الحلال . قوله (فمن كفر بعد ذلك) أي بعد الميثاق أو بعد الشرط المذكور (فقد ضلّ سواء السبيل) أي أخطأ وسط الطريق . قوله (فيما نقضهم ميثاقهم) الباء سببية وما زائدة ، أي فبسبب نقضهم ميثاقهم (لعناهم) أي طردناهم وأبعدناهم (وجعلنا قلوبهم قاسية) أي صلبة لا تنعى خيرا ولا تعقله . وقرأ حمزة والكسائي « قسية » بتشديد الياء من غير ألف ، وهي قراءة ابن مسعود والنخعي ويحيى بن وثاب ، يقال درهم قسي تخفف السين مشددا للياء : أي زائفة ، ذكر ذلك أبو عبيد . وقال الأصمعي وأبو عبيدة : درهم قسي كأنه معرب قاس . وقرأ الأعمش « قسية » بتشديد الياء .

وقرأ الباقون (قاسية) (يحرقون الكلم عن مواضعه) الحملة مستأنفة لبيان حالهم أوحالية : أى يبدلون به غيره أو يتأولونه على غير تأويله . وقرأ السلمي والنخعي «الكلام» . قوله (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) أى لا تزال يا محمد تقف على خائنة منهم ، والخائنة : الخيانة ؛ وقيل هو نعت لمخوف ، والتقدير فرقة خائنة ، وقد تقع للمبالغة نحو علامة ونسابة إذا أردت المبالغة في وصفه بالخيانة ؛ وقيل خائنة معصية . قوله (إلا قليلا منهم) استثناء من الضمير في منهم (فاعف عنهم واصفح) قيل هذا منسوخ بآية السيف ؛ وقيل خاص بالمعاهدين . قوله (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم) الجار والمجرور متعلق بقوله (أخذنا) والتقديم للاهتمام ، والتقدير : وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم : أى في التوحيد والإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به . قال الأخفش هو كقولك أخذت من زيد ثوبه ودرهمه ، قرينة الذين بعد أخذنا . وقال الكوفيون بخلافه ؛ وقيل إن الضمير في قوله (ميثاقهم) راجع إلى بني إسرائيل : أى أخذنا من النصارى مثل ميثاق المذكورين قبلهم من بني إسرائيل ، وقال (من الذين قالوا إنا نصارى) ولم يقل ومن النصارى للإيذان بأنهم كاذبون في دعوى النصرانية وأنهم أنصار الله . قوله (فنسوا حظا مما ذكروا به) أى نسوا من الميثاق المأخوذ عليهم نصيبا وأفرا عقب أخذه عليهم (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء) أى ألصقنا ذلك بهم ، مأخوذ من الغراء : وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه يقال غرى بالشيء يغري غريا بفتح الغين مقصورا ، وغراء بكسرهما ممدودا : أى أولع به حتى كأنه صار ملتصقا به ، ومثل الإغراء التحرش ، وأغريت الكلب : أى أولعته بالصيد ، والمراد بقوله (بينهم) اليهود والنصارى لتقدم ذكرهم جميعا ؛ وقيل بين النصارى خاصة ، لأنهم أقرب مذكور ، وذلك لأنهم افرقوا إلى اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، وكفر بعضهم بعضا ، وتظاهروا بالعداوة في ذات بينهم . قال النحاس : وما أحسن ما قيل في معنى (أغرينا بينهم العداوة والبغضاء) إن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإيقاضهم ، فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبها وإيقاضها . قوله (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) تهديد لهم : أى سيلقون جزاء نقض الميثاق .

وقد أخرج ابن جرير عن أبي العالية في قوله (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) قال : أخذ موافقتهم أن يخلصوا له ولا يعبدوا غيره (وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) أى كفيلة كفلوا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من اليهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (اثني عشر نقيبا) قال : من كل سبط من بني إسرائيل رجال أرسلهم موسى إلى الجبارين فوجدوهم يدخل في كم أحداهم اثنان منهم ، ولا يحمل عنقود غنبيهم إلا خمسة أنفس منهم في خشية . ويدخل في شطر الرمانة إذا تزعج بها خمسة أنفس أو أربعة ، فرجع النقباء كلهم ينهى سبطه عن قتالهم إلا يوشع بن نون وكالب بن يافثة ، فأتيا أمرا الأسباط بقتال الجبارين ومجاهدتهم فعضوهم وأطاعوا الآخرين . فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما ، فتاهت بنو إسرائيل أربعين سنة يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا في تيههم ذلك ، فضرب موسى الحجر لكل سبط عينا حجرا لم يحملونه معهم ، فقال لهم موسى : اشربوا يا حمير ، فنهاه الله عن سبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (اثني عشر نقيبا) قال : هم من بني إسرائيل بعثهم موسى ليتفكروا إلى المدينة فجامعوا بحجة من فاكهتهم وقرر رجل ، فقال : اقدروا قوة قوم وبأسهم وهذه فاكهتهم ، فعند ذلك فثروا فقالوا لا نستطيع القتال (فاذهب أنت وربك فقاتلا) وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء الأسباط ، وأسماؤهم مذكورة في السفر الرابع من التوراة ، وفيه مخالفة لما ذكره ابن إسحاق . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وعزوتهم) قال : أعتموهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (وعزوتهم)

قال : نصرتموهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فما نقضهم ميثاقهم) قال : هو ميثاق أخذ الله على أهل التوراة فنقضوه . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (يحرقون الكلم عن مواضعه) يعني حدود الله ، يقولون إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه ، وإن خالفكم فاحذروا ، وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (ونسوا حظا مما ذكروا به) قال : نسوا الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) قال : هم يهود مثل الذي هموا به من النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم دخل عليهم حائطهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) قال : كذب وفجور ، وفي قوله (فاعف عنهم واصفح) قال : لم يؤمر يومئذ بقتلهم ، فأمره الله أن يعفو عنهم ويصفح ثم نسخ ذلك في براءة فقال - قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر - الآية . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم النخعي في قوله (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) قال : أغرى بعضهم ببعض بالخصومات والجدال في الدين .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٠) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١١) .

الآف واللام في الكتاب للجنس والخطاب لليهود والنصارى (قد جاءكم رسولنا) أي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حال كونه (يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) المنزل عليكم ، وهو التوراة والإنجيل : كآية الرجم وقصة أصحاب السبت المسوخين قرده (ويعفو عن كثير) مما تخفونه ، فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية ، فإن ما لم يكن كذلك لافائدة تتعلق ببيانه إلا مجرد افتضاحكم ؛ وقيل المعنى : إنه يعفو عن كثير فيتجاوز ولا يخبركم به ؛ وقيل يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم ، والجملة في محل نصب عطفا على الجملة الحالية : أعني قوله (يبين لكم) . قوله (قد جاءكم من الله نور) جملة مستأنفة مشتملة على بيان أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم قد تضمنت بعثته فوائد غير ما تقدم من مجرد البيان . قال الزجاج : النور محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل الإسلام . والكتاب المبين : القرآن ، فإنه المبين ، والضمير في قوله (يهدي به) راجع إلى الكتاب أو إليه وإلى النور لكونهما كالشيء الواحد (من اتبع رضوانه) أي ما رضى به الله ، و (سبل السلام) طرق السلامة من العذاب الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة ؛ وقيل المراد بالسلام : الإسلام (ويخرجهم من الظلمات) الكفرية (إلى النور) الإسلامي (ويهديهم إلى صراط مستقيم) إلى طريق يتوصلون بها إلى الحق لا عوج فيها ولا غفلة .

وقد أخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (رسولنا) قال : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير أيضا عن عكرمة قال : إن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه اليهود يسألونه عن الرجم فقال : أيكم أعلم ؟ فأشاروا إلى ابن صوريا ، فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى والذي رفع الطور بالمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذوا أفكل ، فقال : إنه لما كثر فينا جلدنا مائة جلدة وحالقتنا الرؤوس ، فحكم عليهم بالرجم ، فترلت هذه الآية . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (ويعفو عن كثير) يقول

عن كثير من الذنوب . وأخرج ابن جرير عن السدي قال (سبل السلام) هي سبل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه وابتعث به رسله : وهو الاسلام .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) .

ضمير الفصل في قوله (هو المسيح) يفيد الحصر ؛ قيل وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى ؛ وقيل لم يقل به أحد منهم ، ولكن استلزم قولهم (إن الله هو المسيح) لا غيره ، وقد تقدم في آخر سورة النساء ما يكفي ويغني عن التكرار . قوله (قل فمن يملك من الله شيئا) الاستفهام للتوبيخ والتفريع ، والملك ، والملك : الضبط والحفظ والقدرة ، من قولهم ملكت على فلان أمره ؛ أى قدرت عليه ؛ أى فمن يقدر أن يمنع (إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا) وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إله إلا الله ولا رب غيره ولا معبود بحق سواه ، ولو كان المسيح إلها كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شيء ، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها ، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في عموم من في الأرض لكون الدفع منه عنها أولى وأحق من غيرها ، فهو إذا لم يقدر على الدفع عنها أعجز عن أن يدفع عن غيرها ، وذكر من في الأرض للدلالة على شمول قدرته ، وأنه إذا أراد شيئا كان لا معارض له في أمره ولا مشارك له في قضائه (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) أى ما بين النوعين من المخلوقات . قوله (يخلق ما يشاء) جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته ، وأنه يقدر على كل شيء لا يستعصب عليه شيء . قوله (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتته لعزير حيث قالوا - عزير ابن الله - وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا - المسيح ابن الله - وقيل هو على حذف مضاف ؛ أى نحن أتباع أبناء الله ، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة والأمانى العاطلة ، فأمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد عليهم ، فقال (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) أى إن كنتم كما تزعمون ، فما باله يعذبكم بما تقرّفونه من الذنوب بالقتل والمسح وبالنار في يوم القيامة كما تقرّفون بذلك لقولكم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) فإن الابن من جنس أبيه لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب وأنتم تذبّون ، والحبيب لا يعذب حبيبه وأنتم تعذبون ، فهذا يدل على أنكم كاذبون في هذه الدعوى . وهذا البرهان هو المسمى عند الجدلّيين ببرهان الخلف . قوله (بل أنتم بشر ممن خلق) عطف على مقدّر يدل على الكلام ؛ أى قلستم حينئذ كذلك (بل أنتم بشر ممن خلق) أى من جنس من خلقه الله تعالى بحاسبهم على الخير والشر ، ويجازى كل عامل بعمله (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء

ولله ملك السموات والأرض وما بينهما (من الموجودات (وإليه المصير) أى تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعمان بن أضاء وبحري بن عمرو وشاس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما نخوفنا يا محمد (نحن أبناء الله وأحباؤه) كقول النصارى فأنزل الله فيهم (وقالت اليهود والنصارى) إلى آخر الآية . وأخرج أحمد في مسنده عن أنس قال « مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نفر من أصحابه وصبي في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول ابني ابني ، فسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها في النار ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا والله لا يلقي حبيبه في النار . وإسناده في المسند هكذا : حدثنا ابن أبي عدى عن حميد عن أنس فذكره . ومعنى الآية يشير إلى معنى هذا الحديث . ولهذا قال بعض مشايخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه ، فتلا الصوفي هذه الآية . وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لا والله لا يعذب الله حبيبه ، ولكن قد يبتليه في الدنيا » . وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) يقول : يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيغفر له ، ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذبه .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨) .

المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى . والرسول هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ويبين لكم) حال . والمبين هو ما شرعه الله لعباده وحذف للعلم به . لأن بعثة الرسل إنما هي بذلك . والفترة أصلها السكون ، يقال فتر الشيء : سكن ؛ وقيل هي الانقطاع . قاله أبو على الفارسي وغيره : ومنه فتر الماء : إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة ؛ وفتر الرجل عن عمله : إذا انقطع عما كان عليه من الجدة فيه ، وامرأة فاترة الطرف : أى منقطعة عن حدة النظر . والمعنى : أنه انقطع الرسل قبل بعثه صلى الله عليه وآله وسلم مدة من الزمان . واختلف في قدر مدة تلك الفترة وسيأتى بيان ذلك . قوله (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) تعليل لمحى الرسول بالبيان على حين فترة : أى كراهة أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم ، و« من » في قوله (من بشير) زائدة للمبالغة في نفي الحجى ، والفاء في قوله (فقد جاءكم) هي الفصيحة مثل قول الشاعر :
 • فقد جئنا خراسانا •

أى لا تعتذروا فقد جاءكم بشير ونذير ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم (والله على كل شىء قدير) ، ومن جملة مقدوراته إرسال رسوله على فترة من الرسل .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهود إلى الإسلام ، فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن خرملة ووهب بن يهودا : ما قلنا لكم

علما وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده ، فأنزل الله (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالحق الذي فرق الله به بين الحق والباطل فيه بيان وموعظة ونور وهدى وعصمة لمن أخذه به . قال : وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ستمائة سنة وما شاء الله من ذلك . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه قال كانت خمسمائة سنة وستين سنة . وقال الكلبي : خمسمائة سنة وأربعين سنة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانت خمسمائة سنة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كانت أربعمائة سنة وبضعا وثلاثين سنة . وأخرج ابن سعد في كتاب الطبقات عن ابن عباس قال : كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة ولم يكن بينهما فترة ، فإنه أرسل بينهما ألف نبى من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم ، وكان بين ميلاد عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم خمسمائة سنة وتسع وستون سنة ، بعث في أولها ثلاثة أنبياء كما قال الله تعالى - إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث - والذي عزز به شمعون وكان من الحواريين ، وكانت الفترة التي لم يبعث الله فيها رسولا أربعمائة سنة وأربعة وثلاثين سنة . وقد قيل غير ما ذكرناه .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَالًا يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَلَنَّا دُخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَلَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَلِئَلاَّ نَحْرَمَهُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) .

هذه الآيات متضمنة للبيان من الله سبحانه بأن أسلاف اليهود الموجودين في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم تمردوا على موسى وعصوه كما تمرد هؤلاء على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وعصوه ، وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ، وروى عن عبد الله بن كثير أنه قرأ (يا قوم اذكروا) يضم الميم وكذا قرأ فيها أشبهه ، وتقديره : يا أيها القوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء : أى وقت هذا الجعل ، وإيقاع الذكر على الوقت مع كون المقصود ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة ، لأن الأمر بذكر الوقت أمر بذكر ما وقع فيه بطريق الأولى ، وأمن عليهم سبحانه يجعل الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم ، لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم قوله (وجعلكم ملوكا) أى وجعل منكم ملوكا ، وإنما حذف حرف الجر لظهور أن معنى الكلام على تقديره ،

ويمكن أن يقال إن منصب النبوة لما كان لعظم قدره وجلالة خطره بحيث لا ينسب إلى غير من هو له قال فيه (إذ جعل فيكم أنبياء) ولما كان منصب الملك مما يجوز نسبته إلى غير من قال به كما تقول قرابة الملك نحن الملوك ، قال فيه (وجعلكم ملوكا) وقيل المراد بالملك : أنهم ملكوا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون ، فهم جميعا ملوك بهذا المعنى : وقيل معناه : أنه جعلهم ذوى منازل لا يدخل عليهم غيرهم إلا بإذن ؛ وقيل غير ذلك . والظاهر أن المراد من الآية الملك الحقيقي ، ولو كان بمعنى آخر لما كان للامتنان به كثير معنى . فإن قلت : قد جعل غيرهم ملوكا كما جعلهم . قلت : قد كثرت الملوك فيهم كما كثرت الأنبياء ، فهذا وجه الامتنان . قوله (وآتاكم ما لم يوت أحدًا من العالمين) أى من المن والسلوى والحجر والغمام وكثرة الأنبياء وكثرة الملوك وغير ذلك . والمراد عالمي زمانهم . وقيل إن الخطاب هاهنا لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو عدول عن الظاهر لغير موجب ، والصواب ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أنه من كلام موسى لقومه وخاطبهم بهذا الخطاب توطئة وتمهيدا لما بعده من أمره لهم بدخول الأرض المقدسة . وقد اختلف في تعيينها ؛ فقال قتادة : هي الشام ، وقال مجاهد : الطور وما حوله ، وقال ابن عباس والسدي وغيرهما : أريحاء . وقال الزجاج ، دمشق وفلسطين وبعض الأردن . وقول قتادة يجمع هذه الأقوال المذكورة بعده . والمقدسة : المطهرة ، وقيل المباركة (التي كتب الله لكم) أى قسمها وقدرها لم في سابق علمه وجعلها مسكنًا لكم (ولا تترددوا على أديباركم) أى لا ترجعوا عن أمرى وتركوا طاعتي وما أوجبه عليكم من قتال الجبارين جبنًا وفشلًا (فتقبلوا) بسبب ذلك (خاسرين) لخير الدنيا والآخرة (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين) قال الزجاج الجبار من الآدميين العاني . وهو الذى يجبر الناس على ما يريد ، وأصله على هذا من الإجبار وهو الإكراه ، فإنه يجبر غيره على ما يريد . يقال أجبره : إذا أكرهه ؛ وقيل هو مأخوذ من جبر العظم ، فأصل الجبار على هذا المصلح لأمر نفسه ، ثم استعمل في كل من جرت إلى نفسه نفعا بحق أو باطل ؛ وقيل إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه . قال الفراء : لم أسمع فعالًا من أفعل إلا في حرفين . جبار من أجبر . ودراك من أدرك . والمراد هنا : أنهم قوم عظام الأجسام طوال متعاضمون ؛ قيل هم قوم من بقية قوم عاد ؛ وقيل هم من ولد عيص بن إسحاق ؛ وقيل هم من الروم : ويقال إن منهم عوج بن عتق المشهور بالطول المفرط ، وعنق هو بنت آدم ، قيل كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعًا وثلاث ذراع . قال ابن كثير : وهذا شيء يستحيا من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا ثم لم يزل الخلق ينقص » ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافرًا ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب السفينة وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته . وهذا كذب واقتراء ، فإن الله ذكر أن نوحًا دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال - رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا - ، وقال تعالى - فأنجيناها ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين - وقال تعالى - لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم - . وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عتق وهو كافر ولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع ، ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عتق نظر والله أعلم ، انتهى كلامه .

قلت : لم يأت في أمر هذا الرجل ما يقتضى تطويل الكلام في شأنه ، وما هذا بأول كذبة اشتهرت في الناس ، ولنا بملزومين بدفع الأكاذيب التي وضعها القصاص ونفقت عند من لا يميز بين الصحيح والسقيم ، فكم في بطون دفاتر التفسير من أكاذيب وبلايا وأقاصيص كلها حديث خرافة ، وما أحق من لتمييز عنده لفن الرواية ولا معرفة به أن يدع التعرض لتفسير كتاب الله ، ويضع هذه الحماقات والأضحوكات في المواضع المناسبة لها من كتب

التقصا ص . قوله (فإن يخرجوا منها فلما داخلون) هذا تصريح بما هو مفهوم من الحملة التي قبل هذه الحملة لبيان أن امتناعهم من الدخول ليس إلا لهذا السبب . قوله (قال رجلان) هما يوشع وكالب بن يوفنا أو ابن قانيا ، وكانا من الاثنى عشر نقيبا كما مرّ بيان ذلك . وقوله (من الذين يخافون) أى يخافون من الله عزّ وجلّ ؛ وقيل من الجبارين أى هذان الرجلان من جملة القوم الذين يخافون من الجبارين ؛ وقيل من الذين يخافون ضعف بنى إسرائيل وجبنهم وقيل إن الواو في (يخافون) لبنى إسرائيل : أى من الذين يخافهم بنو إسرائيل . وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير « يخافون » بضم الياء : أى يخافهم غيرهم . قوله (أنعم الله عليهما) في محل رفع على أنه صفة ثانية لرجلان ؛ بالإيمان واليقين بخصوص ما وعدوا به من النصر والظفر (ادخلوا عليهم الباب) أى باب بلد الجبارين (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) قالوا هذه المقالة لبنى إسرائيل . والظاهر أنهما قد علما بذلك من خبر موسى . أو قالاه ثقة بوعد الله . أو كانا قد عرفا أن الجبارين قد ملئت قلوبهم خوفا ورعبا (قالوا) أى بنو إسرائيل لموسى (إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها) وكان هذا القول منهم فشلا وجبنا أو عنادا وجرأة على الله وعلى رسوله (فاذهب أنت وربك فقاتلا) قالوا هذا جهلا بالله عزّ وجلّ وبصفاته وكفرا بما يجب له ، أو استهانة بالله ورسوله ؛ وقيل أرادوا بالذهاب الإرادة والقصد ؛ وقيل أرادوا بالربّ هارون ، وكان أكبر من موسى . وكان موسى بطبعه (إنا هاهنا قاعدون) أى لا نبرح هاهنا لا نتقدّم معك ولا نتأخر عن هذا الموضع ؛ وقيل أرادوا بذلك عدم التقدم لعدم التأخر (قال) موسى (ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي) يحتمل أن يعطف وأخي على نفسي ، وأن يعطف على الضمير في (إني) أى إني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه ، قال هذا تحسرا وتحزنا واستجلابا للنصر من الله عزّ وجلّ (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) أى افصل بيننا : يعنى نفسه وأخاه وبين القوم الفاسقين وميزنا عن جملتهم ولا تلحقنا بهم في العقوبة ؛ وقيل المعنى : فاقض بيننا وبينهم ؛ وقيل إنما أراد في الآخرة . وقرأ عبيد بن عمير (فافرق) بكسر الراء (قال فلانها) أى الأرض المقدّسة (محرّمة عليهم) أى على هؤلاء العصاة بسبب امتناعهم من قتال الجبارين (أربعين سنة) ظرف للتحريم : أى أنه محرّم عليهم دخولها هذه المدّة لازيادة عليها . فلا يخالف هذا التحريم ما تقدّم من قوله (التي كتب الله لكم) فإنها مكتوبة لمن بقى منهم بعد هذه المدّة ؛ وقيل إنه لم يدخلها أحد من قال (إنا لن ندخلها) فيكون توقيت التحريم بهذه المدّة باعتبار ذراريهم ؛ وقيل إن (أربعين سنة) ظرف لقوله (يتيهون في الأرض) أى يتيهون هذا المقدار فيكون التحريم مطلقا . والموقت : هو التيه ، وهو في اللغة الحيرة ، يقال منه تاه يتبه تيهّا أو توها إذا تحير ، فالمعنى : يتحيرون في الأرض ؛ قيل إن هذه الأرض التي تاهوا فيها كانت صغيرة نحو ستة فراسخ كانوا يمشون حيث أصبحوا ويصبحون حيث أمسوا ، وكانوا سيارة مستمرين على ذلك لأقارلهم .

واختلف أهل العلم هل كان معهم موسى وهارون أم لا ؟ فقبل لم يكونا معهم ، لأن التيه عقوبة ؛ وقيل كانا معهم لكن سهل الله عليهما ذلك كما جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم . وقد قيل كيف يقع هذا لجماعة من العقلاء في مثل هذه الأرض اليسيرة في هذه المدّة الطويلة ؟ قال أبو على : يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا إلى المكان الذي ابتدءوا منه ، وقد يكون بغير ذلك من الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المحجزة الحارقة للعادة .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (وجعلكم ملوكا) قال : ملككم الخدم ، وكانوا أول من ملك الخدم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كانت له الزوجة والخدام والدار سمي ملكا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عنه

في الآية قال « الزوجة والخادم والبيت » . وأخرج الفرياني وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضا في قوله (وجعلكم ملوكا) قال : المرأة والخادم (وآتاكم مالم يوث أحدًا من العالمين) قال : الذين هم بين ظهرائهم يومئذ . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا » . وأخرج ابن جرير والزبير بن بكار في الواقفيات عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من كان له بيت وخادم فهو ملك » . وأخرج أبو داود في مراسيله عن زيد بن أسلم في الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « زوجة ومسكن وخادم » . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأله رجل : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ قال : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنياء ، قال : إن لي خادما . قال : فأنت من الملوكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (وجعلكم ملوكا) قال : جعل لهم أزواجا وخدما وبيوتا (وآتاكم مالم يوث أحدًا من العالمين) قال : المن والسلوى والحجر والغمام . وأخرج ابن جرير عن طريق مجاهد عن ابن عباس في الآية قال : المن والسلوى والحجر والغمام ، وقد ثبت في الحديث الصحيح « من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (ادخلوا الأرض المقدسة) قال : الطور وماحوله . وأخرج عنه أيضا قال : هي أريحاء . وأخرج ابن عساكر عن معاذ بن جبل قال : هي ما بين العريش إلى القنات . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : هي الشام . وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله (التي كتب الله لكم) قال : التي أمركم الله بها . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : أمر القوم بها كما أمرنا بالصلاة والزكاة والحج والعمرة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين ، فسار بمن معه حتى نزل قريبا من المدينة وهي أريحاء ، فبعث إليهم اثني عشر عينا من كل سبط منهم عين ليأتوه بخبر القوم . فدخلوا المدينة فرأوا أمرا عظيما من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم ، فدخلوا حائطا لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليحتني الثمار من حائطه ، فجعل يحتني الثمار فنظر إلى آثارهم فتبعهم ، فكلما أصاب واحدا منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة حتى التقط الاثني عشر كلهم فجعلهم في كفه مع الفاكهة . وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه فقال الملك قد رأيتم شأننا وأمرنا اذهبوا فأخبروا صاحبكم ، قال : فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم ، فقال : اكنموا عنا ، فجعل الرجل يخبر أباه وصديقه ويقول : اكنم عني ، فأشيع ذلك في لحسكهم ولم يكن منهم إلا رجلان يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهما اللذان أنزل الله فيهما (قال رجلان من الذين يخافون) وقد روى نحوه هذا مما يتضمن المبالغة في وصف هؤلاء وعظم أجسامهم ، ولا فائدة في بسط ذلك فغالبه من أكاذيب القصص كما قدّمنا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فافرق) يقول اقض . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه يقول : افصل بيننا وبينهم . وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله (فلأنها محرمة عليهم) قال : أبدا ، وفي قوله (يتبهون في الأرض) قال : أربعين سنة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : تاهوا أربعين سنة . فهلك موسى وهارون في التيه ، وكل من جاوز الأربعين سنة ، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون ، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى ، وهو الذي افتتحها وهو الذي قبل له اليوم يوم الجمعة ، فهموا بافتتاحها . فذنت الشمس للغروب ، فخشي أن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا ، فنادى الشمس إني مأمور وأنت مأمورة فوقف حتى افتتحها ، فوجد فيها من الأموال مالم ير مثله قط .

فقرَّبوه إلى النار فلم تأت ، فقال فيكم الغلول ، فدعاهم وس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً فباعهم والتصقت يد رجل منهم بيده ، فقال : الغلول عندك فأخرجه ، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ ، فوضعه مع القربان فأنت النار فأكلتها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : خلق لهم في إتيه ثياب لا تخلق ولا تدرن .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَشَيْنٌ بِسَطَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيْلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النََّادِمِينَ (٣١) .

وجه اتصال هذا بما قبله التنبيه من الله على أن ظلم اليهود ونقضهم المواثيق والعهود هو كظلم ابن آدم لأخيه . فالداء قديم ، والشر أصيل .

وقد اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين هل هما لصلبه أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى الأول . وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني ، وقالوا : إنهما كانا من بني إسرائيل فضرِبَ بهما المثل في إبانة حسد اليهود ، وكانت بينهما خصومة فتقربا بقربانين ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل . قال ابن عطية : وهذا وهم كيف يجهل صورة الدفن أحدهم من بني إسرائيل حتى يقتدى بالغراب ؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم : واسمهما قابيل وهايل ، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل ، لأنه كان صاحب زرع واختارها من أردل زرع ، حتى إنه وجد فيها سنبل طيبة ففركها وأكلها ، وكان قربان هايل كبشا لأنه كان صاحب غنم أخذه من أجود غنمه ، فتقبل قربان هايل فرفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام ، كذا قال جماعة من السلف ، ولم يتقبل قربان قابيل ، فحسده وقال لأقتلنك . وقيل سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى ، إلا شيئاً عليه السلام فلأنها ولدت منفرداً . وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر . ولا نحل له أخته التي ولدت معه ، فولدت مع قابيل أخت جميلة واسمها إقليا ، ومع هايل أخت ليست كذلك واسمها ليودا فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل : أنا أحق بأختي ، فأمره آدم فلم يأتمر وزجره فلم ينزجر ، فاتفقوا على القربان وأنه يزوجهما من تقبل قربانه . قوله (بالحق) متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر (وائل) أي تلاوة مطلبة بالحق . أو صفة لنبا : أي نبا متلبسا بالحق ، والمراد بأحدهما هايل وبالأخر قابيل ، و (قال لأقتلنك) استئناف بياني كأنه فلذا قال الذي لم يتقبل قربانه ؟ وقوله (قال إنما يتقبل الله من المتقين) استئناف كالأول كأنه قيل : فلماذا قال الذي تقبل قربانه ؟ وإنما للحصر : أي إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم ، وكأنه يقول لأخيه : إنما أتيت

من قبل نفسك لامن قبلى ، فإن عدم تقبل قربانك يسبب عدم تقواك . قوله (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى) أى لأن قصدت قتلى ، واللام هى الموطئة ، و (ما أنا بياسط) جواب القسم ساد مسد جواب الشرط ، وهذا استسلام للقتل من هايل ، كما ورد فى الحديث « إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم ، وتلا النبى صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية » قال مجاهد : كان الفرض عليهم حينئذ أن لا يسلم أحد سيفاً وأن لا يمتنع ممن يريد قتله قال القرطبي : قال علماؤنا : وذلك مما يجوز ورود التعبد به . إلا أن فى شرعنا يجوز دفعه إجماعاً ، وفى وجوب ذلك عليه خلاف . والأصح وجوب ذلك لما فيه من النهى عن المنكر . وفى الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع ، واحتجوا بحديث أبى ذر . وحمله العلماء على ترك القتال فى الفتنة وكف اليد عند الشبهة على ما بيناه فى كتاب التذكرة . انتهى كلام القرطبي . وحديث أبى ذر المشار إليه هو عند مسلم وأهل السنن إلا النسائي ، وفيه « أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال له : يا أبا ذر أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضاً كيف تصنع ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أقعد فى بيتك وأغلق عليك بابك ، قال : فإن لم أترك ، قال : فأنت من أنت منهم فكن فيهم . قال : فأخذ سلاحى ؟ قال : إذن تشاركهم فيما هم فيه . ولكن إن خشيت أن يردعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كى يوء بإثمه وإثمك » وفى معناه أحاديث عن جماعة من الصحابة سعد بن أبى وقاص وأبى هريرة وخباب بن الأرت وأبى بكر وابن مسعود وأبى واقد وأبى موسى . قوله (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار) هذا تعليل لامتناعه من المقاتلة بعد التعليل الأول وهو (إني أخاف الله رب العالمين)

اختلف المفسرون فى المعنى فقيل : أراد هايل إني أريد أن تبوء بالإثم الذى كان يلحقنى لو كنت حريصاً على قتلك . وإثمك الذى تحمته بسبب قتلى ؛ وقيل المراد بإثمى الذى يختص بى بسبب سيأتى فيطرح عليك بسبب ظلمك لى وتبوء بإثمك فى قتلى . وهذا يوافق معناه معنى ما ثبت فى صحيح مسلم من قوله صلى الله عليه وآله وسلم « يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم ، فيؤخذ من حسنات الظالم فتراد فى حسنات المظلوم حتى ينتصف ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتنطرح عليه » ، ومثله قوله تعالى - وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم - وقيل المعنى : إني أريد أن لا تبوء بإثمى وإثمك كما فى قوله تعالى - وألقى فى الأرض رواسى أن يمتد بكم - أى أن لا تمتد بكم . وقوله - يبين الله لكم أن تضلوا - أى أن لا تضلوا . وقال أكثر العلماء : إن المعنى (إني أريد أن تبوء بإثمى) أى بإثم قتلك لى (وإثمك) الذى قد صار عليك بذنوبك من قبل قتلى . قال الثعلبي : هذا قول عامة المفسرين وقيل هو على وجه الإنكار : أى أو إني أريد على وجه الإنكار كقوله تعالى - وتلك نعمة - أى أو تلك نعمة ، قاله القشيري ، ووجهه بأن إرادة القتل معصية . وسئل أبو الحسن بن كيسان كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار ؟ فقال : وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل ، وهذا بعيد جداً ، وكذلك الذى قبله . وأصل باء رجع إلى المباءة ، وهى المنزل - وباعوا بغضب من الله - أى رجعوا . قوله (فطوأت له نفسه قتل أخيه) أى سهلت نفسه عليه الأمر وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طوع يده سهل عليه ، يقال تطوع الشيء : أى سهل وانقاد وطوعه فلان له : أى سهله . قال الهروي : طوأت وطاوأت واحد ، يقال طاع له كذا : إذا أتاه طوعاً ، وفى ذكر تطويع نفسه له بعد ما تقدم من قول قاييل (لأقتلنك) وقول هايل (لتقتلنى) دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المفاولة . قوله (فقتله) . قال ابن جرير ومجاهد وغيرهما : روى أنه جهل كيف يقتل أخاه فجاءه إبليس بطائر أو حيوان غيره ، فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدى به قاييل ففعل ؛ وقيل غير ذلك مما يحتاج إلى تصحيح الرواية . قوله (فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه) قيل إنه لما

قتل أخاه لم يدر كيف يواريه لكونه أول ميت مات من بني آدم ، فبعث الله غرايين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثا عليه ، فلما رآه قاييل (قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى) فواراه ، والضمير المستكن فى (ليريه) للغراب ؛ وقيل لله سبحانه ، و (كيف) فى محل نصب على الحال من ضمير (يوارى) والجملة ثانى مفعولى يريه . والمراد بالسوءة هنا ذاته كلها لكونها ميتة ، و (قال) استئناف جواب سؤال مقدّر من سوق الكلام ، كأنه قيل : فإذا قال عند أن شاهد الغراب يفعل ذلك ؟ و (يا ويلتي) كلمة تحسر وتحزن ، والألف بدل من ياء المتكلم كأنه دعا ويلته بأن تحضر فى ذلك الوقت ، والويلة الهلكة ، والكلام خارج مخرج التعجب منه من عدم اهتدائه لمواراة أخيه كما اهتدى الغراب إلى ذلك (فأواري) بالنصب على أنه جواب الاستفهام ، وقرئ بالسكون على تقدير فأنا أواري (فأصبح من النادمين) على قتله ؛ وقيل لم يكن ندمه ندم توبة بل ندم لفقده ، لا على قتله ؛ وقيل غير ذلك .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن عباس قال « نهى أن تنكح المرأة أخاها توءمها ، وأن ينكحها غيره من إختوتها ، وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيفة وولد له أخرى قبيحة دميعة ، فقال أخو الدميعة : أنكحني أختك وأنكحك أختي ، فقال : لا ، أنا أحق بأختي ، فقربا قربانا ، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض ، وصاحب الحرث بصبرة من طعام فتقبل من صاحب الكبش ، ولم يتقبل من صاحب الزرع » . قال ابن كثير فى تفسيره : إسناده جيد ، وكذا قال السيوطى فى الدر المنثور . وأخرج ابن جرير عنه قال : كان من شأن بنى آدم أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقرب به الرجل ، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا لو قربنا قربانا ثم ذكرنا ما قرباه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله (لن بسطت إلى يدك) قال : كتب عليهم إذا أراد الرجل أن يقتل رجلا تركه ولا يمتنع منه . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) يقول : إني أريد أن تكون عليك خطيئتك ودمى فتبوء بهما جميعا . وأخرج ابن جرير عنه (بإثمي) : قال بقتلك إياي (وإثمك) ، قال : بما كان منك قبل ذلك . وأخرج عن قتادة والضحاك مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله (فطوأت له نفسه قتل أخيه) قال : شجعته على قتل أخيه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : زينت له نفسه . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله (فطوأت له نفسه قتل أخيه) فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه فى رءوس الجبال فأثاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له وهونائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات ، فتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرايين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثا عليه ، فلما رآه (قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سنّ القتل » . وقد روى فى صفة قتله لأخيه روايات الله أعلم بصحتها .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ

رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِن كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٢٦) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٩) .

قوله (من أجل ذلك) أى من أجل ذلك القاتل وجريته وبسبب معصيته ، وقال الزجاج : أى من جنايته قال : يقال أجل الرجل على أهله شرا بأجل أجلا إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذا . وقرأ أبو جعفر « من أجل » بكسر النون وحذف الهمزة ، وهى لغة . قال فى شرح الدرر : قرأ أبو جعفر منفردا « من أجل ذلك » بكسر الهمزة مع نقل حركتها إلى النون قبلها ، وقيل يجوز أن يكون قوله (من أجل ذلك) متعلقا بقوله (من النادمين) فيكون الوقف على قوله (من أجل ذلك) والأولى ما قدّمنا ، والمعنى : أن نبأ ابنى آدم هو الذى تسبب عنه الكتب المذكور على بنى إسرائيل ، وعلى هذا جمهور المفسرين . وخصّ بنى إسرائيل بالذكر لأن السياق فى تعداد جنائياتهم ، ولأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم فى قتل الأنفس ، ووقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء وقتلهم للأنبياء وتقديم الجار والمجرور على الفعل الذى هو متعلق به أعنى كتبنا : يفيد القصر : أى من أجل ذلك لا من غيره ، ومن لا ابتداء الغاية (أنه من قتل نفسا) واحدة من هذه النفوس (بغير نفس) أى بغير نفس توجب القصاص فيخرج عن هذا من قتل نفسا بنفس قصاصا . قوله (أو فساد فى الأرض) قرأ الجمهور بالجر عطفًا على نفس . وقرأ الحسن بالنصب على تقدير فعل محذوف يدل عليه أول الكلام تقديره : أو أحدث فسادا فى الأرض ، وفى هذا ضعف . ومعنى قراءة الجمهور : أن من قتل نفسا بغير سبب من قصاص أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . وقد تقرر أن كل حكم مشروط بتحقيق أحد شيئين فتنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما معا ، وكل حكم مشروط بتحقيقهما معا فتنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن تنقيض كل شيء مشروط بتنقيض شرطه .

وقد اختلف فى هذا الفساد المذكور فى هذه الآية ماذا هو ؟ فقيل هو الشرك ، وقيل قطع الطريق . وظاهر النظم القرآنى أنه ما يصدق عليه أنه فساد فى الأرض ، فالشرك فساد فى الأرض ، وقطع الطريق فساد فى الأرض ، وسفك الدماء وهتك الحرم ونهب الأموال فساد فى الأرض ، والبغى على عباد الله بغير حق فساد فى الأرض ، وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغویر الأنهار فساد فى الأرض ، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد فى الأرض ، وهكذا الفساد الذى سيأتى فى قوله (ويسعون فى الأرض فسادا) يصدق على هذه الأنواع ، وسيأتى تمام الكلام على معنى الفساد قريبا . قوله (فكأنما قتل الناس جميعا) اختلف المفسرون فى تحقيق هذا التشبيه للقطع بأن عقاب من قتل الناس جميعا أشد من عقاب من قتل واحدا منهم . فروى عن ابن عباس أنه قال : المعنى من قتل نبيًا أو إمامًا عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياء بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيى الناس جميعا . أخرج هذا عنه ابن جرير . وروى عن مجاهد أنه قال : المعنى أن الذى يقتل النفس المؤمنة متعمدا جعل الله جزاءه جهنم وغضب

عليه ولعمري وأعد له عذابا عظيما ، فلو قتل الناس جميعا لم يزد على هذا قال : ومن سلم من قتل فلم يقتل أحدا فكأنما أحيى الناس جميعا .

وقد أخرج نحو هذا عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال في تفسير هذه الآية : أوبق نفسه كما لو قتل الناس جميعا ، أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . وروى عن الحسن أنه قال : فكأنما قتل الناس جميعا في الوزر ، وكأنما أحيى الناس جميعا في الأجر . وقال ابن زيد : المعنى أن من قتل نفسا فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعا (ومن أحيها) أي من عفا عن وجب قتله ، حكاه عنه القرطبي . وحكى عن الحسن أنه العفو بعد القدرة : يعني أحيها . وروى عن مجاهد أن إحياءها : إنجاءها من غرق أو حرق أو هدم أو هلكة ، حكاه عنه ابن جرير وابن المنذر ، وقيل المعنى : أن من قتل نفسا فالمؤمنون كلهم خصماؤه ، لأنه قد وتر الجميع (ومن أحيها فكأنما أحيى الناس جميعا) أي وجب على الكل شكره . وقيل المعنى : أن من استحل واحدا فقد استحل الجميع لأنه أنكر الشرع . وعلى كل حال فالإحياء هنا عبارة عن الترك والإنقاذ من هلكة فهو مجاز ، إذ المعنى الحقيقي مختص بالله عز وجل . والمراد بهذا التشبيه في جانب القتل تهويل أمر القتل وتعظيم أمره في النفوس حتى ينزجر عنه أهل الجرة والحسرة وفي جانب الإحياء الرغبة إلى العفو عن الجناة واستنقاذ المتورطين في الهلكات . قوله (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) جملة مستقلة مؤكدة باللام الموطئة للقسم متضمنة للإخبار بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاءوا العباد بما شرعه الله لهم من الأحكام التي من أجلها أمر القتل ، وثم في قوله (ثم إن كثيرا منهم) للتراخي الرتبى والاستبعاد العقلى ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما ذكر مما كتبه الله على بني إسرائيل : أي إن كثيرا منهم بعد ذلك الكتب (في الأرض لمسرفون) في القتل . قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) قد اختلف الناس في سبب نزول هذه الآية ، فذهب الجمهور إلى أنها نزلت في العرنيين . وقال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي : لأنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يقطع الطريق ويسعى في الأرض بالفساد . قال ابن المنذر : قول مالك صحيح . قال أبو ثور محتجا بهذا القول : إن قوله في هذه الآية (إلا الذين تابوا من قبل أن تقتلوا وعليهم) يدل على أنها نزلت في غير أهل الشرك ، لأنهم قد أجمعوا على أن أهل الشرك إذا وقعوا في أيدينا فأسلموا أن دماءهم تحرم ، فدل ذلك على أن الآية نزلت في أهل الإسلام انتهى . وهكذا يدل على هذا قوله تعالى - قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر ما قد سلف - ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « الإسلام يهدم ما قبله » أخرجه مسلم وغيره ، وحكى ابن جرير الطبري في تفسيره عن بعض أهل العلم أن هذه الآية : أعني آية المحاربة نسخت فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العرنيين ، ووقف الأمر على هذه الحدود . وروى عن محمد بن سيرين أنه قال : كان هذا قبل أن تنزل الحدود : يعني فعله صلى الله عليه وآله وسلم بالعرنيين وبهذا قال جماعة من أهل العلم . وذهب جماعة آخرون إلى أن فعله صلى الله عليه وآله وسلم بالعرنيين منسوخ بنهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المثلة ، والنقائل بهذا مطالب ببيان تأخر النسخ ، وسيأتي سياق الروايات الواردة في سبب النزول . والحق أن هذه الآية تعم المشرك وغيره لمن ارتكب ما تضمنته ، ولا اعتبار بخصوص السبب ، بل الاعتبار بعموم اللفظ . قال القرطبي في تفسيره : ولا خلاف بين أهل العلم في أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام وإن كانت نزلت في المرتدين أو اليهود انتهى . ومعنى قوله مترتب : أى ثابت ، قبل المراد بمحاربة الله المذكورة في الآية هي محاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومحاربة المسلمين في عصره ومن بعد عصره بطريقين العبارة دون الدلالة ودون القياس ، لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه

بالمكلفين عند النزول فيحتاج في تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر ، وقيل إنها جعلت محاربة المسلمين محاربة الله ورسوله إكبارا لحربهم وتعظيما لأذيتهم ، لأن الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب . والأولى أن تفسر محاربة الله سبحانه بمعاصيه ومخالفة شرائعه ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقي ، وحكم أمته حكمه وهم أسوته . والسعى في الأرض فسادا يطلق على أنواع من الشر كما قدمنا قريبا . قال ابن كثير في تفسيره : قال كثير من السلف منهم سعيد ابن المسيب : إن قرص الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض ، وقد قال تعالى - وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد - انتهى

إذا تقرر لك ما قررناه من عموم الآية ومن معنى المحاربة والسعى في الأرض فسادا ، فاعلم أن ذلك يصدق على كل من وقع منه ذلك ، سواء كان مسلما أو كافرا ، في مصر وغير مصر ، في كل قليل وكثير ، وجليل وحقيق ، وأن حكم الله في ذلك هو ماورد في هذه الآية من القتل أو الصلب ، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، وألتنى من الأرض ، ولكن لا يكون هذا حكم من فعل أى ذنب من الذنوب ، بل من كان ذنبه هو التعدى على دماء العباد وأموالهم فيما عدا ما قد ورد له حكم غير هذا الحكم في كتاب الله أو سنة رسوله كالسرقة وما يجب فيه القصاص ، لأننا نعلم أنه قد كان في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم من تقع منه ذنوب ومعاص غير ذلك ، ولا يجرى عليه صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحكم المذكور في هذه الآية ، وبهذا تعرف ضعف ما روى عن مجاهد في تفسير المحاربة المذكورة في هذه الآية أنها الزنا والسرقة . ووجه ذلك أن هذين الذنوب قد ورد في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لهما حكم غير هذا الحكم .

وإذا عرفت ما هو الظاهر من معنى هذه الآية على مقتضى لغة العرب التي أمرنا بأن نفسر كتاب الله وسنة رسوله بها ، فلذلك أن تغتر بشيء من التفاصيل المروية ، والمذاهب المحكية ، إلا أن يأتيك الدليل الموجب لتخصيص هذا العموم أو تقييد هذا المعنى المفهوم من لغة العرب فأنت وذلك اعمل به وضعه في موضعه ، وأما ما عداه :

فدع عنك نهبا صيح في حجراته وهات حديثا ما حديث الرواحل

على أنا منذ ذكر من هذه المذاهب ما تسمعه . اعلم أنه قد اختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة ، فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وأبو ثور : إن من شهر السلاح في قبة الإسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله . وبهذا قال مالك وصرح بأن المحارب عنده من حمل على الناس في مصر أو في يمنية أو كابرهم على أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا دخل ولا عداوة . قال ابن المنذر : اختلف عن مالك في هذه المسألة فأثبت المحاربة في مصر مرة ونفى ذلك مرة . وروى عن ابن عباس غير ما تقدم فقال في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض . وروى عن أبي جازر وسعيد ابن جبير وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء على اختلاف في الرواية عن بعضهم ، وحكاها ابن كثير عن الجمهور . وقال أيضا : وهكذا عن غير واحد من السلف والأئمة . وقال أبو حنيفة : إذا قتل قتل وإذا أخذ المال لم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف ، وإذا أخذ المال وقتل فالسلطان مخير فيه : إن شاء قطع يده ورجله ، وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه . وقال أبو يوسف : القتل يأتي على كل شيء . ونحوه قول الأوزاعي . وقال الشافعي : إذا أخذ المال قطعت يده اليمنى وحسنت ، ثم قطعت رجله اليسرى وحسنت وعطى ، لأن هذه الحتابة

زادت على السرقة بالحراية؛ وإذا قتل قتل وإذا أخذ المال وقتل قتل وصلب . وروى عنه أنه قال : يصلب ثلاثة أيام . وقال أحمد : إن قتل قتل ، وإن أخذ المال قطعت يده ورجله كقول الشافعي ، ولا أعلم لهذه التفاصيل دليلاً لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله إلا ما رواه ابن جرير في تفسيره وتفرّد بروايته فقال : حدثنا علي بن مهمل ، حدثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبي حبيب : أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك نفر العرنيين وهم من بجيلة ، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام ؛ قال أنس : فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عن القضاء فيمن حارب ، فقال : من سرق وأخاف الطريق فاقطع يده لسرقته ورجله باضافته ، ومن قتل فاقطعه ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه . وهذا مع ما فيه من النكارة الشديدة لا يدري كيف صحته ؟ قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لشيء من هذه التفاصيل التي ذكرناها ما لفظه : ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده ثم ذكره . قوله (ويسعون في الأرض فساداً) هو إما منتصب على المصدرية ، أو على أنه مفعول له ، أو على الحال بالتأويل : أي مفسدين . قوله (أو يصلبوا) ظاهره أنهم يصلبون أحياء حتى يموتوا ، لأنه أحد الأنواع التي خير الله بينها . وقال قوم : الصلب إنما يكون بعد القتل ، ولا يجوز أن يصلب قبل القتل فيحال بينه وبين الصلاة والأكل والشرب . ويجاب بأن هذه عقوبة شرعها الله سبحانه في كتابه لعباده . قوله (أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) ظاهرة قطع إحدى اليدين وإحدى الرجلين من خلاف سواء كانت المقطوعة من اليدين هي اليمنى أو اليسرى ، وكذلك الرجلان ولا يعتبر إلا أن يكون القطع من خلاف إما بمعنى اليدين مع يسرى الرجلين أو يسرى اليدين مع يميني الرجلين ؛ وقيل المراد بهذا قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى فقط . قوله (أو ينفوا من الأرض) اختلف المفسرون في معناه ، فقال السدي : هو أن يطلب بالخيال والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه الحد أو يخرج من دار الإسلام هرباً . وهو محكى عن ابن عباس وأنس ومالك والحسن البصري والسدي والضحاك وقتادة وسعيد بن جبيرة والربيع بن أنس والزهرى ، حكاه الرماني في كتابه عنهم . وحكى عن الشافعي أنهم يخرجون من بلد إلى بلد ويطلبون لتقام عليهم الحدود ، وبه قال الليث بن سعد . وروى عن مالك أنه ينق من البلد الذي أحدث فيه إلى غيره ويحبس فيه كالزاني ، ورجحه ابن جرير والقرطبي . وقال الكوفيون : نفهم مجنهم ، فينق من سعة الدنيا إلى ضيقها . والظاهر من الآية أنه يطرد من الأرض التي وقع منه فيها ما وقع من غير سجن ولا غيره . والنق قد يقع بمعنى الإهلاك وليس هو مراداً هنا . قوله (ذلك لهم خزي في الدنيا) الإشارة إلى ما سبق ذكره من الأحكام ، والخزي : الذل والفضيحة . قوله (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة ، والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك ، وعليه عمل الصحابة . وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط للقصاص وسائر حقوق الأدميين بالتوبة قبل القدرة ، والحق الأول . وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة في الآية كما يدل عليه ذكر قيد (قيل أن تقدروا عليهم) قال القرطبي وأجمع أهل العلم على أن السلطان ولي من حارب فإن قتل محارب أخاً امرئ وأتاه في حال المحاربة ، فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء ، ولا يجوز حقن دمه .

وقد أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل) يقول : من أجل ابن آدم

الذى قتل أخاه ظلما . وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه قيل له في هذه الآية يعنى قوله (فكأنما قتل الناس جميعا) أهى لنا كما كانت لبني إسرائيل ؟ فقال : إى والذى لا إله غيره . وأخرج أبو داود والنسائي عن ابن عباس في قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) قال : نزلت في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله . وأخرج ابن جرير والطبراني في الكبير عنه في هذه الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد وميثاق ، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فخير الله نبيه فيهم : إن شاء قتل وإن شاء صلب وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأما النتي فهو الضرب في الأرض ، فإن جاء تائبا قد دخل في الإسلام قبل منه ، ولم يؤخذ بما سلف . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أن هذه الآية نزلت في الحرورية . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس أن نقرا من عكل قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلموا واجتروا المدينة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتوا إبل الصدقة ، فيشربوا من أبوالها وألبانها ، فقتلوا راعيها واستاقوها : فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طلبهم قافة ، فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ولم يحسمهم وتركهم حتى ماتوا . فأنزل الله (إنما جزاء الذين يحاربون) الآية . وفي مسلم عن أنس أنه قال إنما سمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعين أولئك لأنهم شملوا أعين الرعاة . وأخرج الشافعي في الأم وعبد الرزاق والقرطبي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال : إذا خرج المحارب فأخذ المال ولم يقتل قطع من خلاف ، وإذا خرج فقتل ولم يأخذ المال قتل ، وإذا خرج وأخذ المال وقتل قتل وصلب ، وإذا خرج فأخاف السبيل ولم يأخذ المال ولم يقتل نفي . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : من شهر السلاح في قبة الإسلام وأفسد السبيل فظهر عليه وقدر ، فإمام المسلمين مخير فيه : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله . قال (أو ينفوا من الأرض) يهربوا ويخرجوا من دار الإسلام إلى دار الحرب . وأخرج ابن جرير عنه قال : نفيه أن يطلب . وأخرج أيضا عن أنس نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان حارثة ابن بدر التيمي من أهل البصرة قد أفسد في الأرض وحارب ، فكلم رجلا من قريش أن يستأمنوا له عليا فأبوا فأتى سعيد بن قيس الهمداني ، فأتى عليا فقال : يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ؟ قال (أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ثم قال (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) فقال سعيد : وإن كان حارثة بن بدر ، قال : وإن كان حارثة من بدر ، قال : هذا حارثة بن بدر ، قد جاء تائبا فهو آمن ، قال نعم ، فجاء به إليه فبايعه ، وقبل ذلك منه وكتب له أمانا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَأْتُمُ بِخُرُجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٢٧) .

(ابتغوا) اطلبوا (إليه) لا إلى غيره ، و (الوسيلة) فعيلة من توسلت إليه : إذا تقربت إليه . قال عنزة :

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخصبي

وقال آخر :

إذا غفل الواثون عدنا لوصلنا وعاد التصابي بيننا والوسائل

فالوسيلة : القربة التي ينبغي أن تطلب وبه قال أبو وائل والحسن ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد . وروى عن ابن عباس وعطاء وعبد الله بن كثير . قال ابن كثير في تفسيره : وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لاختلاف بين المفسرين فيه . والوسيلة أيضا درجة في الجنة مختصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت عمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول . ثم صلوا على » فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وفي الباب أحاديث ، وعطف (وابتغوا إليه الوسيلة) على (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) يفيد أن الوسيلة غير التقوى ؛ وقبل هي التقوى ، لأنها ملاك الأمر وكل الخير فتكون الجملة الثانية على هذا مفسرة للجملة الأولى . والظاهر أن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب العباد بها إلى ربهم (وجاهدوا في سبيله) من لم يقبل دينه (لعلكم تفلحون) . قوله (إن الذين كفروا) كلام مبتدأ مسوق لزعج الكفار وترغيب المسلمين في امتثال أوامر الله سبحانه (لو أن لهم ما في الأرض) من أموالها ومنافعها ؛ وقيل المراد لكل واحد منهم ليكون أشد تهويلا ، وإن كان الظاهر من ضمير الجمع خلاف ذلك ، و (جميعا) تأكيد . وقوله (ومثله) عطف على ما في الأرض ، و (معه) في محل نصب على الحال (ليقتلوا به) ليجعلوه فدية لأنفسهم . وأفرد الضمير إما لكونه راجعا إلى المذكور أو لكونه بمنزلة اسم الإشارة : أي ليقتلوا بذلك ، و (من عذاب يوم القيامة) متعلق بالفعل المذكور (ما تقبل منهم) ذلك ؛ وهذا هو جواب لو . قوله (يريدون أن يخرجوا من النار) هذا استئناف بياني ، كأنه قيل : كيف حالهم فيما هم فيه من هذا العذاب الأليم ؟ فقيل يريدون أن يخرجوا من النار . وقرئ (أن يخرجوا) من أخرج ، ويضعف هذه القراءة (وما هم بخارجين منها) ومحل هذه الجملة أعني قوله (وما هم بخارجين منها) النصب على الحال ؛ وقيل إنها جملة اعتراضية .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وابتغوا إليه الوسيلة) قال : الوسيلة القربة . وأخرج الحاكم ومصححه عن حذيفة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (وابتغوا إليه الوسيلة) قال : تقرّبوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه . وأخرج مسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال : يريد الفقير ، فقلت لجابر يقول الله (يريدون أن يخرجوا من النار) وهم بخارجين منها قال : اتل أول الآية (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليقتلوا به) ألا لانهم الذين كفروا . وأخرج ابن جرير عن عكرمة : أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس : تزعم أن قوما يخرجون من النار

وقد قال الله تعالى (وما هم بخارجين منها) فقال ابن عباس : ويحك ، اقرأ ما فوقها هذه للكفار . قال الزمخشري في الكشف بعد ذكره لهذا : إنه مما لفتقته المجيرة . وبالله العجب من رجل لا يفرق بين أصح الصحيح وبين أكذب الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يتعرض للكلام على ما لا يعرفه ولا يدري ما هو ؟ وقد تواترت الأحاديث تواترا لا ينقضي على من له أدنى إلمام بعلم الرواية بأن عصاة الموحدين يخرجون من النار ، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة لأنه أنكر ما هو من ضروريات الشريعة ، اللهم غفرا .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) .

لما ذكر سبحانه حكم من يأخذ المال جهارا وهو المحارب ، عقبه بذكر من يأخذ المال خفية وهو السارق ، وذكر السارقة مع السارق لزيادة البيان لأن غالب القرآن الاقتصار على الرجال في تشريع الأحكام . وقد اختلف أئمة النحو في خبر السارق والسارقة هل هو مقدر أم هو فاقطعوا ؟ فذهب إلى الأول سيويه ، وقال تقديره : فيما فرض عليكم أو فيما يتلى عليكم السارق والسارقة : أي حكمهما . وذهب المبرد والزجاج إلى الثاني ، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، إذ المعنى : الذي سرق والتي سرقت ، وقرئ (والسارق والسارقة) بالنصب على تقدير اقطعوا ، ورجح هذه القراءة سيويه ، قال : الوجه في كلام العرب النصب كما تقول زيدا أضربه ، ولكن العامة أبت إلا الرفع ، يعني عامة القراء ، والسرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق والمصدر من سرق يسرق سرقا قاله الجوهري : وهو أخذ الشيء في خفية من الأعين ، ومنه استرق السمع ، وسارقه النظر . قوله (فاقطعوا) القطع معناه الإبادة والإزالة ، وجمع الأيدي لكراهة الجمع بين تثنيتين ، وقد بينت السنة المطهرة أن موضع اتطع الرسغ . وقال قوم : يقطع من المرفق . وقال الخوارج : من المنكب . والسرقة لا بد أن تكون ربع دينار فصاعدا ، ولا بد أن تكون من حرز كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة . وقد ذهب إلى اعتبار الربع الدينار الجمهور . وذهب قوم إلى التقدير بعشرة دراهم . وذهب الجمهور إلى اعتبار الحرز . وقال الحسن البصري إذا جمع الثياب في البيت قطع . وقد أطال الكلام في بحث السرقة أئمة الفقه وشرّاح الحديث بما لا يأتي التطويل به ها هنا بكثير فائدة . قوله (جزاء بما كسبا) مفعول له : أي فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعل محذوف : أي فجازواهما جزاء ، والباء سببية ، وما مصدرية : أي بسبب كسبهما ، أو موصولة : أي جزاء بالذي كسباه من السرقة . وقوله (نكالا) بدل من جزاء ؛ وقيل هو علة للجزاء : والجزاء علة للقطع ، يقال نكلت به : إذا فعلت به ما يجب أن ينكل به عن ذلك الفعل . قوله (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح) السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا السرقة : أي فمن تاب من بعد سرقة وأصلح أمره (فإن الله يتوب عليه) ولكن اللفظ عام فيشمل السارق وغيره من المذنبين ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وقد استدلت بهذا عطاء وجماعة على أن القطع يسقط بالتوبة ، وليس هذا الاستدلال بصحيح ، لأن هذه الحملة الشرطية لا تفيد إلا مجرد قبول التوبة ، وإن الله يتوب على من تاب ، وليس فيها ما يفيد أنه لا قطع على التائب . وقد كان في زمن النبوة يأتي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وجب

عليه حد طالباً عن الذنب الذي ارتكبه طالباً لتطهيره بالحد فيحدّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « للسارق بعد قطعه تب إلى الله » ، ثم قال تاب الله عليك . أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة . وأخرج أحمد وغيره ، أن هذه الآية نزلت في المرأة التي كانت تسرق المتاع ، لما قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد قطعها هل لي من توبة . وقد ورد في السنة ما يدل على أن الحدود إذا رفعت إلى الأئمة وجبت وامتنع إسقاطها . قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) هذا الاستفهام للإنكار مع تقرير العلم وهو كالعنوان لقوله (يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) أي من كان له ملك السموات والأرض ، فهو قادر على هذا التعذيب الموكول إلى المشيئة والمغفرة الموكولة إليها .

وقد أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (جزاء بما كسبنا نكالاً من الله) قال : لا ترثوا لهم فيه فإنه أمر الله الذي أمر به . قال : وذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : اشتدوا على الفساق واجعلوهم بدا يدا ورجلا رجلا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه) يقول : الحد كفارته . والأحاديث في قدر نصاب السرقة وفي سائر ما يتعلق بتفاصيل هذا الحد المذكورة في كتب الحديث فلا نطيل بذلك .

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَحْزِنِكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١٢) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (١٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٤) .

قوله (لا يحزنك) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي ، والحزن والحزن خلاف السرور ، وحزن الرجل بالكسر فهو جزن وحزين : وأحزنه غيره وحزنه . قال اليزيدي : حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . وفي الآية النهي له صلى الله عليه وآله وسلم عن التأثير لمسارعة الكفرة في كفرهم تأثرا بليغا ، لأن الله سبحانه قد وعده في غير موطن بالنصر عليهم ، والمسارعة إلى الشيء : الوقوع فيه بسرعة . والمراد هنا وقوعهم في الكفر بسرعة عند وجود فرصة . وآثر لفظ « في » على لفظ إلى للدلالة على استقرارهم فيه ، ومن في قوله (من الذين قالوا) بيانية ، والجملة مبينة للمسارعين في الكفر ، والباء في (بأفواههم) متعلقة بقالوا لا بآمنا ، وهؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم هم المنافقون (ومن الذين هادوا) يعني اليهود : وهو معطوف على (من الذين قالوا آمنا) وهو تمام الكلام . والمعنى : أن المسارعين في الكفر طائفة المنافقين وطائفة اليهود . وقوله (سماعون للكذب) خير مبتدأ محذوف : أي هم سماعون للكذب ، فهو راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين ، واللام في قوله (للكذب) للتقوية أو لتضمين السماع معنى القبول ؛ وقيل إن قوله (سماعون) مبتدأ خبره (من الذين هادوا) أي ومن الذين هادوا قوم (سماعون للكذب) أي قابلون لكذب رؤسائهم المخرفين للتوراة . قوله (سماعون لقوم آخرين) خبر ثان ، واللام فيه كاللام في « للكذب » ؛ وقيل اللام للتعليل في الموضعين أي سماعون لكلام رسول الله لأجل الكذب عليه ، وسماعون لقوم آخرين وجهوهم عيوننا لهم لأجل أن يبلغوهم ماسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (لم يأتوك) صفة لقوم : أي لم يحضروا مجلسك وهم طائفة من اليهود كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تكبرا وتمردا ؛ وقيل هم جماعة من المنافقين كانوا يتجنبون مجالس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الفراء : ويجوز سماعين كما قال - ملعونين أينما ثقفوا - . قوله (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) من جملة صفات القوم المذكورين : أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها ويتأولونه على غير تأويله . والمحرفون هم اليهود ؛ وقيل إن هذه الجملة خبر مبتدأ محذوف ؛ وقيل في محل نصب على الحال من (لم يأتوك) وقيل مستأنفة لا محل لها من الإعراب لقصد تعداد معانيهم ومثالبهم . ومعنى (من بعد مواضعه) من بعد كونه موضوعا في مواضعه ، أو من بعد وضعه في مواضعه التي وضعه الله فيها من حيث لفظه ، أو من حيث معناه . قوله (يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه) جملة حالية من ضمير يحرفون ، أو مستأنفة ، أو صفة لقوم ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والإشارة بقولهم (هذا) إلى الكلام المحرف : أي إن أوتيتم من جهة محمد هذا الكلام الذي حرّفناه فخذوه واعملوا به وإن لم تؤثروه بل جاءكم بغيره فاحذروا من قبوله والعمل به . قوله (ومن يرد الله فتنته) أي ضلّالته (فلن نملك له من الله شيئا) أي فلا تستطيع دفع ذلك عنه ولا تقلر على نفعه وهدايته ، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وظاهرها العموم ويدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولا أوليا ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا آمنا بأفواههم ومن الذين هادوا ، وهو مبتدأ وخبره الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم : أي لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق كما طهر قلوب المؤمنين (لهم في الدنيا خزي) بظهور نفاق المنافقين وبضرب الجزية على الكافرين وظهور تحريفهم وكنتمهم لما أنزل الله في التوراة . قوله (سماعون للكذب) كرّره تأكيدا لقيحه . ويكون كالقدمة لما بعده ، وهو أكلون للسحت ، وهما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المقدّر سابقا . والسحت بضم السين وسكون الحاء : المال الحرام ، وأصله الهلاك والشدة ، من سحته : إذا هلكه ، ومنه - فيسحتكم بعذاب - ، ومنه قول الفرزدق :
وعضّ زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو محلق

ويقال للحائى تحت : أى استأصل ، وسمى الحرام بمحتمل لأنه يسحت الطاعات : أى يذهبها ويستأصلها ، وقال الفراء : أصله كلب الجوع ، وقيل هو الرشوة ، والأول أولى ، والرشوة تدخل فى الحرام دخولا أوليا . وقد فسره جماعة بنوع من أنواع الحرام خاص كالمدينة لمن يقضى له حاجة ، وخلوان الكاهن ، وللتعميم أولى بالصواب . قوله (فإن جاموك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) فيه تحيير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين الحكم بينهم والإعراض عنهم .

وقد استدلت به على أن أحكام المسلمين غيرون بين الأمرين . وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والذى إذا ترفعوا إليهم . واختلفوا فى أهل الذمة إذا ترفعوا فيما بينهم ، فذهب قوم إلى التحيير ، وذهب آخرون إلى الوجوب ، وقالوا : إن هذه الآية منسوخة بقوله (وأن أحكم بينهم بما أنزل الله) وبه قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والزهري وعمر بن عبد العزيز والسدى : وهو الصحيح من قول الشافعى ، وحكاها القرطبي عن أكثر العلماء . قوله (وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) أى إن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلا سبيل لم عليك ، لأن الله حافظك وناصره عليهم ، وإن اخترت الحكم بينهم (فاحكم بينهم بالقسط) أى بالعدل الذى أمرك الله به وأنزله عليك . قوله (وكيف يحكمونك) وعندهم التوراة فيها حكم الله (فيه تعجيب له صلى الله عليه وآله وسلم من تحكيمهم إياه مع كونهم لا يؤمنون به ولا بما جاء به . مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم فى التوراة كالرجم ونحوه ، وإنما يأتون إليه صلى الله عليه وآله وسلم ويحكمونه طمعا منهم فى أن يوافق تحريفهم وما صنعوه بالتوراة من التغيير . قوله (ثم يتولون) عطف على يحكمونك (من بعد ذلك) أى من بعد تحكيمهم لك ، وجملة قوله (وما أولئك بالمؤمنين) لتقرير مضمون ما قبلها . وقوله (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) استئناف يتضمن تعظيم التوراة وتفخيم شأنها وأن فيها الهدى والنور ، وهو بيان الشرائع والتبشير بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وإيجاب اتباعه . قوله (يحكم بها النبيون) هم أنبياء بنى إسرائيل ، والجملة إما مستأنفة أو حالية ، و (الذين أسلموا) صفة مادية للنبيين ، وفيه إرغام لليهود المعاصرين له صلى الله عليه وآله وسلم بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام الذى دان به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل المراد بالنبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعبر عنه بلفظ الجمع تعظيما . قوله (للذين هادوا) متعلق بيحكمهم . والمعنى : أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا وعليهم . والربانيون العلماء الحكماء ، وقد سبق تفسيره ، والأخبار العلماء ، مأخوذ من التحيير وهو التحسين فهم يحبرون العلم : أى يحسنونه . قال الجوهري : الخبر واحد أخبار اليهود بالفتح وبالكسر والكسر أفصح ، وقال الفراء : هو بالكسر ، وقال أبو عبيدة : هو بالفتح . قوله (بما استحفظوا من كتاب الله) البناء للسببية واستحفظوا أمروا بالحفظ : أى أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل ، والجار والمجرور متعلق بيحكمهم : أى يحكمون بها بسبب هذا الاستحفاظ . قوله (وكانوا عليه شهداء) أى على كتاب الله والشهداء للرباء ، فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة ، والخطاب بقوله (فلا تخشوا الناس) لرؤساء اليهود ، وكذا فى قوله (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) والاشتراء الاستبدال ، وقد تقدم تحقيقه . قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) لفظ «من» من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل بكل من ولى الحكم ، وقيل إنها مخصصة بأهل الكتاب ، وقيل بالكفار مطلقا لأن المسلم لا يكفر بارتكاب الكبيرة ، وقيل هو محمول على أن الحكم بغير ما أنزل الله وقع استخفافا ، أو استحللا ، أو جحدا ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى من ، والجمع باعتبار معناها ، وكذلك ضمير الجماعة فى قوله (هم الكافرون) .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لا يغزلك الذين يسارعون في الكفر) قال : هم اليهود (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) قال : هم المنافقون . وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : إن الله أنزل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - الظالمون - الفاسقون) أنزلها الله في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية حتى اصططحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الدليلة فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل قتلته الدليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة ، فذلت الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ لم يظهر عليهم ، فقتلت الدليلة من العزيزة ، فأرسلت العزيزة إلى الدليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق ، فقالت الدليلة : وهل كان هذا في حين قط دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد ودية بعضهم تصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيا منكم لنا وفرقا منكم ، فلما إذ قدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا تعطيك ذلك ، فكانت الحرب تبيع بينهما ، ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهما ، ففكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد يعطيك منهم ضعف ما تعطيه منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيا وفهرا لم ، فلدسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يخبر لكم رأيه ، فإن أعطاكم ما تريدون حكمتوه ، وإن لم يعطكم حذرتموه ولم تحكموه ، فلدسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ناسا من المنافقين يختبرون لهم رأيه ، فلما جاءوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا ، فأنزل الله (يا أيها الرسول لا يغزلك) إلى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ثم قال فيهم : والله أنزلت وإياهم غنى . وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : أول مرجوم رجمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود زنى رجل منهم وامرأة ، فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبي ، فإنه نبي بعث بالتخفيف . فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله وقتلنا : فتيا نبي من أنبيائك ، قال : فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في المسجد وأصحابه ، فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في رجل وامرأة منهم زنيا ، فلم يكلمهم حتى أتى بيت مدراسهم . فقام على الباب فقال : أشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ قالوا : يحرم ونجبه ويحلد ، والتجبية : أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أفتيتهما ويطاف بهما وسكت شاب منهم فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم سكت أظ به للشدة فقال : اللهم إزدنا نجب فإننا نجد في التوراة الرجم ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فإول ما ارتخصم أمر الله ؟ قال : زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ، ثم زنى رجل في أسرة من الناس فأراد رجمه ، فحال قومه دونه ، وقالوا : والله لا نرجم صاحبنا حتى تنجي بصاحبك قومه ، فاصططحوا هذه العقوبة بينهم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فإني أحكم بما في التوراة ، فأمر بهما فرجا . قال الزهري : قبلنا أن هذه الآية نزلت فيهم (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم . وأخرجه ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في ستة من طريق أخرى عن أبي هريرة ، وذكر فيه أن الشاب المذكور هو عبد الله بن صوريا . وأخرج نحو حديث أبي هريرة أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث البراء بن عازب . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر : أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم : ما تجلدون في التوراة ؟ قالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها آية الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال عبد الله بن سلام : ارفع يلك ، فرفع يده فإذا آية الرجم ، قالوا صدق ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجما . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله في قوله (ومن الذين هادوا سماعون للكذب) قال : يهود المدينة (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) قال : يهود فذلك (يحرفون الكلم) قال : يهود فذلك يقولون ليهود المدينة (إن أوتيتهم هذا) الجلد (فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا) الرجم . وأخرج أبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عنه قال : زنى رجل من أهل فذلك ، فكتب أهل فذلك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدا ، وذكر القصة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (أكالون للسحت) قال : أخذوا الرشوة في الحكم وقضوا بالكذب . وأخرج عبد الرزاق والفرياني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : السحت الرشوة في الدين . قال سفيان : يعني في الحكم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود أيضا قال : من شفع لرجل ليدفع عنه مظلمة أو يرد عليه حقا فأهدى له هدية فقبلها فذلك السحت فقبل له : يا أبا عبد الرحمن إنا كنا نعد السحت الرشوة في الحكم ، فقال ذلك الكفر (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقد روى نحو هذا عنه من طرق . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : رشوة الحكام حرام . وهي السحت الذي ذكر الله في كتابه . وأخرج عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال : السحت الرشوة . وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن السحت فقال : الرشا ، فقبل له في الحكم ، قال : ذاك الكفر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن حمير قال : بابان من السحت يأكلهما الناس : الرشاء في الحكم ، ومهر الزانية . وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تحريم الرشوة ما هو معروف . وأخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : آيتان نسختا من سورة المائدة : آية القلائد ، وقوله (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخيرا : إن شاء حكم بينهم ، وإن شاء أعرض عنهم ، فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) قال : فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحكم بينهم بما في كتابنا . وأخرج نحوه في الآية الآخرة عنه أبو عبيدة وابن المنذر وابن مردويه . وأخرج عبد الرزاق عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أن الآيات من المائدة التي قال فيها (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) إلى قوله (المقسطين) إنما نزلت في الدية من بني النضير وقريظة ، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف يودون الدية كاملة ، وأن بني قريظة كانوا يودون نصف الدية ، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الحق في ذلك ، فجعل الدية سواه . وأخرج نحوه عنه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (وعندهم التوراة فيها حكم الله) يعني حدود الله فأخبره الله بحكمه في التوراة ، قال (وكتبنا عليهم فيها) إلى قوله (والجروح قصاص) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم (فليدين هادوا) يعني اليهود . وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : الذين أسلموا النبي ومن قبله من

الأنبياء يحكمون بما فيها من الحق . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : الربانيون والأخبار الفقهاء والعلماء . وأخرج عن مجاهد قال : الربانيون العلماء الفقهاء ، وهم فوق الأخبار . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : الربانيون العباد ، والأخبار العلماء . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الربانيون الفقهاء العلماء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : الربانيون هم المؤمنون . والأخبار هم القراء . وأخرج ابن جرير عن السدي (فلا تخشوا الناس) فتكتموا ما أنزلت (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) على أن تكتموا ما أنزلت . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) قال : لا تأكلوا السحت على كتابي . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ومن لم يحكم) يقول : من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال : إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه ، وإنه ليس كفر ينقل من الملة بل دون كفره . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء ابن أبي رباح في قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - هم الظالمون - هم الفاسقون) قال : كفر دون كفر وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . وأخرج سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما أنزل الله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - و- الظالمون - و- الفاسقون) في اليهود خاصة . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن حذيفة ، أن هذه الآيات ذكرت عنده (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - و- الظالمون - و- الفاسقون) فقال رجل : إن هذا في بني إسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة كلا . والله لتسلكن طريقهم قد الشراك . وأخرج ابن المنذر نحوه عن ابن عباس .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا

كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٨) وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّقِ اللَّهَ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (١٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) .

قوله (وكتبنا) معطوف على أنزلنا التوراة ، ومعناها فرصنا ، بين الله سبحانه في هذه الآية ما فرضه على بني إسرائيل : من القصاص في النفس ، والعين ، والأنف ، والأذن ، والسن ، والجروح . وقد استدل أبو حنيفة وجماعة من أهل العلم بهذه الآية فقالوا : إنه يقتل المسلم بالذي لأنه نفس . وقال الشافعي وجماعة من أهل العلم : إن هذه الآية خبر عن شرع من قبلنا وليس بشرع لنا . وقد قدمنا في البقرة في شرح قوله تعالى - كتب عليكم القصاص في القتل - ما فيه كفاية .

وقد اختلف أهل العلم في شرع من قبلنا هل يلزمنا أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى أنه يلزمنا إذا لم ينسخ وهو الحق . وقد ذكر ابن الصباغ في الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه . قال ابن كثير في تفسيره : وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية الكريمة انتهى .

وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا على المتن ، وفي هذه الآية توبيخ لليهود وتقرير لكونهم بخالفون ما كتبه الله عليهم في التوراة . حكاها هنا ، ويفاضلون بين الأنفس كما سبق بيانه ، وقد كانوا يقيدون بني النضير من بني قريظة ولا يقيدون بني قريظة من بني النضير . قوله (والعين بالعين) قرأ نافع وعاصم والأعمش وحمة بالنصب في جميعها على العطف . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بالنصب أيضا في الكل إلا في الجروح فبالرفع . وقرأ الكسائي وأبو عبيد بالرفع في الجميع عطفا على المحل ، لأن النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء . وقال الزجاج : يكون عطفا على المضمر في النفس ، لأن التقدير : إن النفس هي مأخوذة بالنفس ، فالأسماء معطوفة على هي . قال ابن المنذر : ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين . والظاهر من النظم القرآني أن العين إذا فقت حتى لم يبق فيها مجال للإدراك أنها تفقا عين الجاني بها ، والأنف إذا جدعت جميعها فإنها تجدع أنف الجاني بها ، والأذن إذا قطعت جميعها فإنها تقطع أذن الجاني بها ، وكذلك السن ؛ فأما لو كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين ، أو ببعض الأنف ، أو ببعض الأذن ، أو ببعض السن ، فليس في هذه الآية ما يدل على ثبوت القصاص .

وقد اختلف أهل العلم في ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته ، وكلامهم مدون في كتب الفروع . والظاهر من قوله (والسن بالسن) أنه لا فرق بين الثنايا والأنياب والأضراس والرباعيات ، وأنه يؤخذ بعضها ببعض ، ولا فضل لبعضها على بعض . وإليه ذهب أكثر أهل العلم ، كما قال ابن المنذر ، وخالف في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن تبعه ، وكلامهم مدون في مواظنه ، ولكنه ينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للسن المأخوذة من المجني عليه ، فإن كانت ذاهبة فما يليها . قوله (والجروح قصاص) أي ذوات قصاص . وقد ذكر أهل العلم أنه لا قصاص في الجروح التي يخاف منها التلف ، ولا فيما كان

لا يعرف مقدار عمقا أو طولا أو عرضا . وقد قدر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقادير معطومة . وليس هذا موضع بيان كلامهم ، ولا موضع استيفاء بيان ما ورد له أرش مقدّر . قوله (فمن تصدّق به فهو كفارة له) أى من تصدّق من المستحقين للقصاص بالقصاص . بأن عفا عن الجاني فهو كفارة للمتصدّق بكفر الله عنه بها ذنوبه . وقيل إن المعنى : فهو كفارة للجراح فلا يؤخذ بجنايته في الآخرة لأن العفو يقوم مقام أخذ الحق منه . والأول أرجح ، لأن الضمير يعود على هذا التفسير الآخر إلى غير مذكور . قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ضمير الفصل مع اسم الإشارة وتعريف الخبر يستفاد منها أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية . قوله (وقفنا على آثارهم بعيسى بن مريم) هذا شروع في بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة : أى جعلنا عيسى ابن مريم يفتقو آثارهم : أى آثار النبيين الذين أسلموا من بنى إسرائيل ، يقال قفيته مثل عقبته : إذا أتبعته ؟ ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به فيتعدى إلى الثاني بالياء ، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف ، وهو على آثارهم لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه ، وانتصاب (مصدقا) على الحال من عيسى (وآتيناه الإنجيل) عطف على قفيته ، ومحل الجملة أعني (فيه هدى) النصب على الحال من الإنجيل (ونور) عطف على هدى : وقوله (ومصدقا) معطوف على محل (فيه هدى) أى أن الإنجيل أوتيه عيسى حال كونه مشتملا على الهدى والنور ومصدقا لما بين يديه من التوراة : وقيل إن مصدقا معطوف على مصدقا الأول فيكون حالا من عيسى مؤكدا للحال الأول ومقررا له . والأول أولى لأن التأسيس خير من التأكيد . قوله (وهدى وموعظة للمتقين) عطف على مصدقا داخل تحت حكمه منضمّا إليه : أى مصدقا وهدايا وواعظا للمتقين . قوله (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) هذا أمر لأهل الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه ، فإنه قبل البعثة الحمديّة حق ، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة . وقرأ الأعمش وحزرة ينصب الفعل من يحكم على أن اللام لام كى ، وقرأ الباقر بالخزم على أن اللام للأمر . فعلى القراءة الأولى تكون اللام متعلقة بقوله : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الله بما أنزل الله فيه ، وعلى القراءة الثانية هو كلام مستأنف . قال مكى : والاختيار الخزم ، لأن الجماعة عليه ، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدلّ على أنه إلزام من الله لأهل الإنجيل . وقال النحاس : والصواب عندي أنهما قراءتان حسنتان لأن الله سبحانه لم ينزل كتابا إلا ليعمل بما فيه . قوله (وأنزلنا إليك الكتاب) خطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والكتاب القرآن والتعريف للعهد ، و (بالحق) متعلق بمحذوف وقع حالا : أى متلبسا بالحق ، وقيل هو حال من فاعل أنزلنا : وقيل من ضمير النبي صلى الله عليه وآله وسلم و (مصدقا لما بين يديه) حال من الكتاب ، والتعريف في الكتاب أخصى قوله (مصدقا لما بين يديه من الكتاب) للجنس : أى أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبسا بالحق وحال كونه مصدقا لما بين يديه من كتب الله المنزلة لكونه مشتملا على الدعوة إلى الله والأمر بالخير والنهي عن الشر ، كما اشتمل عليه قوله (ومهيئنا عليه) عطف على مصدقا ، والضمير في عليه عائد إلى الكتاب الذي صدقه القرآن وهيئنا عليه ، والمهيمن الرقيب ، وقيل الغالب المرتفع ، وقيل الشاهد : وقيل الحافظ ، وقيل المؤمن : قال المبرد : أصله مؤيمن أبدا من همزة هاء ، كما قيل في أرقت الماء هرقت ، وبه قال الزجاج وأبو عليّ الفارسي . وقال الجوهري : هو من آمن غيره من الخوف ، وأصله آمن فهو مؤمن بهمزةين قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى هاء ، كما قالوا هراق الماء وأراقه ، يقال هيمن على الشيء بهيمن : إذا كان له حافظا ، فهو له مهيمن كذا عن أبي عبيد . وقرأ مجاهد وابن عيسى : مهيئنا عليه ، بفتح الميم ، أى هيمن

عليه الله سبحانه . والمعنى على قراءة الجمهور : أن القرآن صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة ومقررا لما فيها مما لم ينسخ وناسخا لما خالفه منها ، ورقيا عليها وحافظا لما فيها من أصول الشرائع ، وغالبا لما لكونه المرجع في الحكم منها والمنسوخ ، وموثقا عليها لكونه مشتملا على ما هو معمول به منها وما هو متروك . قوله (فاحكم بينهم بما أنزل الله) أى بما أنزل إليك في القرآن لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه (ولا تتبع أهواءهم) أى أهواء أهل الملل السابقة . وقوله (عما جاءك من الحق) متعلق بـ لا تتبع على تضمينه معنى لا تعدل أو لا تنحرف (عما جاءك من الحق) متبعا لأهوائهم ، وقيل متعلق بمحذوف : أى لا تتبع أهواءهم عادلا أو منحرفا عن الحق . وفيه النهى له صلى الله عليه وآله وسلم عن أن يتبع أهوية أهل الكتاب ويعدل عن الحق الذى أنزل الله عليه ، فإن كل ملة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ما هم عليه وما أدركوا عليه سلفهم وإن كان باطلا منسوخا أو محرقا عن الحكم الذى أنزل الله على الأنبياء ، كما وقع في الرجم ونحوه مما حرقوه من كتب الله . قوله (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) الشرعة والشرعية في الأصل : الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى الماء ، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين . والمنهاج : الطريقة الواضحة البينة . وقال أبو العباس محمد بن يزيد الميرد الشرعية : ابتداء الطريق ، والمنهاج الطريق المستمر . ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة) بشرية واحدة وكتاب واحد ورسول واحد (ولكن ليبلوكم) أى ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد ، بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع ، فيكون (ليبلوكم) متعلقا بمحذوف دل عليه سياق الكلام وهو ما ذكرنا ، ومعنى (فيما آتاكم) فيما أنزل الله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والرسول هل تعملون بذلك وتدعون له ، أو تركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته ، وتميلون إلى الهوى وتشتركون الضلالة بالهدى . وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو هذه العلة ، أعني الابتلاء والامتحان لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص . قوله (فاستبقوا الخيرات) أى إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبقوا إلى فعل ما أمرتم بفعله وترك ما أمرتم بتركه . والاستباق : المسارعة (إلى الله مرجعكم جميعا) لا إلى غيره وهذه الجملة كالعلة لما قبلها . قوله (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) عطف على الكتاب : أى أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه . وقد استدل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله - أو أعرض عنهم - وقد تقدم تفسير - ولا تتبع أهواءهم - . قوله (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أى يضلوك عنه ويصرفوك بسبب أهوائهم التى يريدون منك أن تعمل عليها وتؤثرها (فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى إن أعرضوا عن قبول حكمك بما أنزل الله عليك فذلك لما أراد الله من تعذيبهم ببعض ذنوبهم وهو ذنب التولى عنك والإعراض عما جئت به (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) متمردون عن قبول الحق خارجون عن الإنصاف . قوله (أفحكم الجاهليين يغنون) الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر . كما في نظائره . والمعنى : أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويتفتنون حكم الجاهلية ، والاستفهام في (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) للإنكار أيضا : أى لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين لا عند أهل الجهل والأهواء .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس (كتبنا عليهم فيها) في التوراة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه ، قال : كتب عليهم هذا في التوراة ، وكانوا يقتلون الحر بالعبد فيقولون كتب علينا أن للنفس بالنفس .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر في قوله (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال : يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به . وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر ابن عبد الله (فهو كفارة له) قال : للمجروح . وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي اللرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ما من مسلم يصاب بشئ في جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس (ومهيمننا عليه) قال : موثقتنا عليه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عنه قال : المهيمن الأمين ، والقرآن أمين على كل كتاب قبله . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه في قوله (شرعة ومنهاجا) قال : سيلا وسنة . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس : اذهبوا بنا إلى محمد لعننا أن نفتنه عن دينه ، فأتوه فقالوا : يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك ، فتتضي لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك ، وأنزل الله فيهم (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) إلى قوله (لقوم يوقنون) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (أفحكم الجاهلية يغنون) قال : يهود . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : هذا في قتل اليهود .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُ الْأَذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأُصْبِحُوا خُسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) .

قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا) الظاهر أنه خطاب للمؤمنين حقيقة ؛ وقيل المراد بهم المنافقون ، ووصفهم بالإيمان باعتبار ما كانوا يظهرونه . وقد كانوا يوالون اليهود والنصارى فهوا عن ذلك . والأولى أن يكون خطابا

لكل من يتصف بالإيمان أعم من أن يكون ظاهراً وباطناً أو ظاهراً فقط ، فيدخل المسلم والمنافق ، ويؤيد هذا قوله (فترى الذين في قلوبهم مرض) والاعتبار بعموم اللفظ ، وسيأتى في بيان سبب نزول الآية ما يتضح به المراد . والمراد من النهى عن اتخاذهم أولياء أن يعاملوا معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة . وقوله (بعضهم أولياء بعض) تعليل للنهى ، والمعنى : أن بعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم ، وبعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم ، وليس المراد بالبعض إحدى طائفتي اليهود والنصارى ، وبالبعض الآخر الطائفة الأخرى للقطع بأنهم في غاية من العداوة والشقاق . وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . وقيل المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالى الأخرى وتعااضدها وتناصرها على عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعبادته ما جاء به وإن كانوا في ذات بينهم متعادين متضادين . ووجه تعليل النهى بهذه الجملة أنها تقتضى أن هذه الموالاة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم ، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم فتكونوا مثلهم ، ولهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال (ومن يتولم منكم فإنه منهم) أى فإنه من جملتهم وفي عدادهم وهو وعيد شديد فإن المعصية الموجبة للكفر هي التي قد بلغت إلى غاية ليس وراءها غاية . وقوله (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) تعليل للجملة التي قبلها : أى أن وقوعهم في الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالى الكافرين . قوله (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم) الفاء للسببية ، والخطاب إما للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له : أى ما ارتكبه من الموالاة ووقعوا فيه من الكفر هو بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق . وقوله (يسارعون) في محل نصب إما على أنه المفعول الثاني إذا كانت الرؤية قلبية أو على أنه حال إذا كانت بصرية ، وجعل المسارعة في موالاتهم مسارعة فيهم للمبالغة في بيان رغبتهم في ذلك حتى كأنهم مستقرون فيهم داخلون في عدادهم . وقد قرئ فيرى بالتحية . واختلف في فاعله ما هو ؟ فقبل هو الله عز وجل ؛ وقيل هو كل من تصح منه الرؤيا ، وقيل هو الموصول ومفعوله (يسارعون فيهم) على حذف أن المصدرية : أى فيرى القوم الذين في قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم ، فلما حذفت ارتفع الفعل كقوله : ألا أبهذا اللائعى أحضر الوغا . والمرض في القلوب : هو النفاق والشك في الدين . وقوله (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) جملة مشتملة على تعليل المسارعة في الموالاة : أى أن هذه الخشية هي الحاملة لهم على المسارعة ؛ وقيل إن الجملة حال من ضمير يسارعون . والدائرة : ما تدور من مكاره الدهر : أى نخشى أن تظهر الكفار بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فتكون الدولة لهم وتبطل دولته فيصيبنا منهم مكروه ، ومنه قول الشاعر :

يردّ عنك القدر المقدورا ودائرات الدهر أن تدورا

أى دولات الدهر الدائرة من قوم إلى قوم . وقوله (فعسى الله أن يأتي بالفتح) ردّ عليهم ودفع لما وقع لهم من الخشية ، وعسى في كلام الله وعد صادق لا يتخلف . والفتح : ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الكافرين ، ومنه ما وقع من قتل مقاتلة بن قريظة وسبي فراريتهم ، وإجلاء بني النضير ؛ وقيل هو فتح بلاد المشركين على المسلمين ؛ وقيل فتح مكة . والمراد بالأمر من عنده سبحانه هو كل ما تندفع به صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم ؛ وقيل هو إظهار أمر المنافقين وإخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما أسروا في أنفسهم وأمره بقتلهم ؛ وقيل هو الجزية التي جعلها الله عليهم ؛ وقيل الخصب والسعة للمسلمين فيصبح المنافقون (على ما أسروا في أنفسهم) من النفاق الحامل لهم على الموالاة (نادمين) على ذلك لبطلان الأسباب التي تخيلوها

وانكشاف خلافها . قوله (يقول الذين آمنوا) قرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وأهل الكوفة بإثبات الواو ، وقرأ
الباقون بحذفها ، فعلى القراءة الأولى مع رفع يقول يكون كلاماً مبتدأ مسوقاً لبيان ما وقع من هذه الطائفة ، وعلى
قراءة النصب يكون عطفاً على (فيصبحوا) وقيل على (يأتي) والأولى أولى ، لأن هذا القول إنما يصدر عن
المؤمنين عند ظهور ندامة الكافرين لا عند إتيان الفتح ؛ وقيل هو معطوف على الفتح كقول الشاعر :

« للبس عباءة وتقرّ عيني » وأما على قراءة حذف الواو فالجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ،
والإشارة بقوله (أهولاء) إلى المنافقين : أى يقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين (أهولاء الذين
أقسموا بالله تجهد أيمانهم لإنهم لمعكم) بالمناصرة والمعاوضة في القتال ، أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى
المنافقين ، وهذه الجملة مفسرة للقول . وجهد الأيمان : أغلظها ، وهو منصوب على المصدر أو على الحال : أى
أقسموا بالله جاهدين . قوله (حبطت أعمالهم) أى بطلت وهو من تمام قول المؤمنين أو جملة مستأنفة والقائل الله
سبحانه . والأعمال هى التى عملوها فى الموالاة أو كل عمل يعملونه . قوله (يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم)
قرأ أهل المدينة والشام يرتدد بدالين بفك الإدغام ، وهى لغة تميم ، وقرأ غيرهم بالإدغام . وهذا شروع فى بيان
أحكام المرتدين بعد بيان أن موالاة الكافرين من المسلم كفر ، وذلك نوع من أنواع الردة . والمراد بالقوم الذين
رعد الله سبحانه بالإتيان بهم هم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجيشه من الصحابة والتابعين الذين قاتل بهم أهل
الردة ، ثم كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين فى جميع الزمن ، ثم وصف سبحانه هؤلاء القوم بهذه الأوصاف
العظيمة المشتملة على غاية المدح ونهاية الثناء من كونهم يحبون الله وهو يحبهم . ومن كونهم (أذلة على المؤمنين أعزّة
على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) والأذلة : جمع ذليل لا ذلول ، والأعزّة : جمع عزيز :
أى يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين ويظهرون الشدة والغلظة والرفع على الكافرين ، ويجمعون بين
المجاهدة فى سبيل الله وعدم خوف الملامة فى الدين ، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب
الشيطان من الإضرار بأهل الدين وقلب محاسنهم مساوى ومناقبهم مثالب حسدا وبغضا وكراهة للحق وأهله ،
والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من الصفات التى اختصهم الله بها . والفضل : اللطف والإحسان . قوله
(إنما وليكم الله) لما فرغ سبحانه من بيان من لا تحل موالاته بين من هو الولي الذى تجب موالاته ، وحل (الذين
يقيمون الصلاة) الرفع على أنه صفة للذين آمنوا أو بدل منه أو النصب على المدح . وقوله (وهم راکعون) جملة
حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله . والمراد بالركوع : الخشوع والخضوع : أى يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة
وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون ؛ وقيل هو حال من فاعل الزكاة . والمراد بالركوع هو المعنى المذكور : أى
يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء ولا مترفعين عليهم ؛ وقيل المراد بالركوع على المعنى الثانى :
ركوع الصلاة . ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال ، ثم وعد سبحانه من يتولى الله ورسوله والذين
آمنوا بأنهم الغالبون لعنوتهم ، وهو من وضع الظاهر موضع المضمّر ، ووضع حزب الله موضع ضمير المواليين
لله ولرسوله وللمؤمنين . والحزب : الصنف من الناس ، من قولهم حزبه كذا : أى نابه ، فكان المتحزبين
مجتمعون كاجتماع أهل النائية التى تنوب ، وحزب الرجل : أصحابه ، والحزب : الورد . وفى الحديث « فن فاته
حزبه من الليل » وتحزّبوا : اجتمعوا . والأحزاب : الطوائف . وقد وقع ، والله الحمد ما وعد الله به أوليائه
وأولياء رسله وأوليائه عباده المؤمنين من الغلب لعنوتهم ، فإنهم غلبوا اليهود بالسبى والقتل والإجلاء وضرب

الجزية ، حتى صاروا لعنهم الله أذل الطوائف الكفرية وأقلها شوكة ، وما زالوا تحت كل كل المؤمنين يطحنونهم كيف شاموا ، ويمتنونهم كما يريدون من بعد البعثة الشريفة المحمدية إلى هذه الغاية .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي ابن سلول وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج ، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي ابن سلول . فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم . وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) إلى قوله (فإن حزب الله هم الغالبون) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أسلم عبد الله بن أبي ابن سلول ، ثم قال : إن بيني وبين قريظة والنضير حلفا وإني أخاف الدوائر . فارتدوا كاهرا . وقال عبادة بن الصامت : أتبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله ، فزلت . وأخرج ابن مردويه أيضا من طريق عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده نحو ذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة فذكر نحو ما تقدم . وأخرج ابن جرير عن الزهري قال : لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن النضير : غرركم أن أصبتم رهطا من قريش لا علم لهم بالقتال ، أما لو أصررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يدان بقتالنا ، فقال عبادة وذكر نحو ما تقدم عنه وعن عبد الله بن أبي . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا) قال : إنها في الذبائح « من دخل في دين قوم فهو منهم » . وأخرج عبد ابن حميد عن حذيفة قال « ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر ، وتلا (ومن يتولهم منهم فإنه منهم) » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية (فترى الذين في قلوبهم مرض) كعبد الله بن أبي (يسارعون فيهم) في ولايتهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في سننه وابن عساكر عن قتادة قال : أنزل الله هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم) وقد علم أنه سيرتد مرتد من الناس ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ارتدت عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد : أهل المدينة ، وأهل مكة ، وأهل الجوائ من عبد القيس ، وقال الذين ارتدوا : نصلي الصلاة ولا نركع والله لا نقسب أموالنا ، فكلم أبا بكر في ذلك ليتجاوز عنهم ، وقيل له إنهم لو قد فقهوا أدوا الزكاة ، فقال : والله لا أفرق بين شيء جمعه الله ولو منعوني عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه ، فبعث الله عصابا مع أبي بكر فقاتلوا حتى أقرروا بالماعون وهو الزكاة . قال قتادة : فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأصحابه (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) إلى آخر الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن الحسن نحوه . وأخرج ابن جرير عن شريح بن عبيد قال : لما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه) الآية ، قال عمر : أنا وقوى يا رسول الله ؟ قال : لا بل هذا وقومه ، يعني أبا موسى الأشعري . وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة في مسنده وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عياض الأشعري قال : لما نزلت (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هم

قوم هذا ، وأشار إلى أبي موسى الأشعري . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم في جمعه لحديث شعبة والبيهقي وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال : تليت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم (فسوف يأتي الله بقوم) الآية . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : قومك يا أبا موسى أهل اليمن . وأخرج ابن أبي حاتم في الكنى والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه بسند حسن عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله (فسوف يأتي الله بقوم) الآية ، فقال : هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم كندة ثم السكون ثم تميم . وأخرج البخاري في تاريخه وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال : هم قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون . وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال : هم أهل القادسية . وأخرج البخاري في تاريخه عن القاسم بن غيمرة قال : أتيت ابن عمر فرحب بي ، ثم تلا (من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم) الآية ، ثم ضرب على منكبي وقال : أحلف بالله إنهم لمنكم أهل اليمن ثلاثا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عطية ابن سعد . قال في قوله (إنما وليكم الله ورسوله) إنها نزلت في عبادة بن الصامت . وأخرج الخطيب في المتفرق والمتفرق عن ابن عباس قال : تصدق علي بن حاتم وهو راكم ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للساتل : من أعطاك هذا الخاتم ؟ قال : ذاك الراكع ، فأنزل الله فيه (إنما وليكم الله ورسوله) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت في علي بن أبي طالب . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب نحوه . وأخرج ابن مردويه عن عمار نحوه أيضا . وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مجاهيل عنه نحوه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ
تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)
قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ
الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا
جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا
يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَيْشَسَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ
لَيْشَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) .

قوله (لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً) هذا النهي عن موالاة المتخذين للدين هزواً واعيا يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع المتبعين للإسلام ، والبيان بقوله (من الذين أوتوا الكتاب) إلى آخره لا ينافي دخول غيرهم تحت النهي إذا وجدت فيه العلة المذكورة التي هي الباعثة على النهي . قوله (والكفار) قرأ أبو عمرو والكسائي بالجر على تقدير من : أي ومن الكفار . قال الكسائي : وفي حرف أبي - ومن الكفار - وقرأ من عداهما بالنصب . قال النحاس : وهو أوضح وأبين . وقال مكى : لولا اتفاق الجماعة على النصب لاخترت الحذف لقوته في الإعراب وفي المعنى ، والمراد بالكفار هنا المشركون ، وقيل المنافقون (واتقوا الله) بترك ما نهاكم عنه من هذا وغيره (إن كنتم مؤمنين) فإن الإيمان يقتضي ذلك ، والنداء الدعاء برفع الصوت وناداه مناداة ونداء : صاح به ، وتنادوا : أي نادى بعضهم بعضاً . وتنادوا : أي جلسوا في النادي . والضمير في (اتخذوها) للصلاة : أي اتخذوا صلاتكم هزواً واعيا ؛ وقيل الضمير للمناداة المدلول عليها بناديتهم . قيل وليس في كتاب الله تعالى ذكر الأذان إلا في هذا الموضع ، وأما قوله تعالى في الجمعة - إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة - فهو خاص بنداء الجمعة . وقد اختلف أهل العلم في كون الأذان واجبا أو غير واجب ، وفي ألفاظه وهو مبسوط في موطنه . قوله (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) أي ذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون ، لأن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش . قوله (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا) يقال : نقمتم على الرجل بالكسر فأنا ناقم : إذا عبت عليه . قال الكسائي : نقمتم بالكسر لغة ، ونقمتم الأمر أيضا ونقمتم : إذا كرهته ، وانتقم الله منه : أي عاقبه ، والاسم منه النقمة ، والجمع نقمات ، مثل كلمة وكلمات ، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون ، والجمع نقم مثل نعمة ونعم ؛ وقيل المعنى يسخطون ؛ وقيل ينكرون . قال عبد الله بن قيس الرقيات :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وقال الله سبحانه - وما نقموا منهم - والمعنى في الآية : هل تعيين أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منا إلا إيماننا بالله وبكتبه المنزل ، وقد علمتم بأننا على الحق (وأن أكثركم فاسقون) بترككم للإيمان والخروج عن امتثال أوامر الله . وقوله (وأن أكثركم فاسقون) معطوف على أن آمنا : أي ما تنقمون منا إلا الجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان . وفيه أن المؤمنين لم يجمعوا بين الأمرين المذكورين ، فإن الإيمان من جهنم والتمرد والخروج من جهة الناقمين ؛ وقيل هو على تقدير محذوف : أي واعتقادنا أن أكثركم فاسقون ؛ وقيل إن قوله (أن آمنا) هو منصوب على أنه مفعول له والمفعول محذوف ، فيكون (وأن أكثركم فاسقون) معطوفا عليه عطفاً على العلة على العلة ، والتقدير : وما تنقمون منا إلا لأن آمنا . ولأن أكثركم فاسقون ، وقيل معطوف على علة محذوفة ، أي لقلة إنصافكم ، ولأن أكثركم فاسقون ؛ وقيل الواو في قوله (وأن أكثركم فاسقون) هي التي بمعنى مع : أي ما تنقمون منا إلا الإيمان مع أن أكثركم فاسقون ؛ وقيل هو منصوب بفعل محذوف يدل عليه هل تنقمون : أي ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون ؛ وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف : أي وفستكم معلوم فتكون الجملة حالية ، وقرئ بكسر إن من قوله (وإن أكثركم فاسقون) فتكون جملة مستأنفة . قوله (قل هل أنبئكم بشر من ذلك) بين الله سبحانه لرسوله أن فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب ، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب لعن الله وغضبه ومسخه ؛ والمعنى : هل أنبئكم بشر من نعمكم علينا أو بشر مما تريدون لنا من المكروه أو بشر من أهل الكتاب أو بشر من دينهم . وقوله (مثوبة) أي جزاء ثابتاً ، وهي مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر . ووضعت هنا موضع العقوبة على طريقة - فبشرهم بعذاب أليم - وهي منصوبة على التمييز

من بشره . وقوله (من لعنه الله) خبر لمبتدأ محذوف مع تقدير مضاف محذوف : أى هو لعن من لعنه الله أو هو دين من لعنه الله ، ويجوز أن يكون فى محل جر بدلا من شره . قوله (وجعل منهم القردة والخنازير) أى مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير وهم اليهود ، فإن الله مسخ أصحاب السبت قردة وكفار مائدة عيسى منهم خنازير . قوله (وعبد الطاغوت) قرأ حمزة بضم الباء من عبد وكسر التاء من (الطاغوت) أى جعل منهم عبد الطاغوت بإضافة عبد إلى الطاغوت . والمعنى : وجعل منهم من يبالغ فى عبادة الطاغوت ، لأن فعل من صيغ المبالغة ، كحذر وفطن للتبليغ فى الحذر والفطنة ، وقرأ الباقون بفتح الباء من (عبد) وفتح التاء من (الطاغوت) على أنه فعل ماضى معطوف على فعل ماضى وهو غضب ولعن ، كأنه قيل : ومن عبد الطاغوت ، أو معطوف على قردة والخنازير : أى جعل منهم القردة والخنازير وجعل منهم عبد الطاغوت حملا على لفظ من . وقرأ أبى وابن مسعود (وعبدوا الطاغوت) حملا على معناها . وقرأ ابن عباس (وعبد) بضم العين والباء كأنه جمع عبد ، كما يقال : سقف وسقف . ويجوز أن يكون جمع عبيد كرجيف ورغف . أو جمع عابد كبازل وبزل . وقرأ أبو واقد « وعباد » جمع عابد للمبالغة ، كعامل وعمال . وقرأ البصريون وعباد جمع عابد أيضا ، كقائم وقيام ، ويجوز أن يكون جمع عبد . وقرأ أبو جعفر الرقاشى وعبد الطاغوت على البناء للمفعول ، والتقدير وعبد الطاغوت فيهم . وقرأ جون العقيلي وابن بريدة وعابد الطاغوت على التوحيد . وروى عن ابن مسعود وأبى أنهما قرآ (وعبد الطاغوت) وقرأ عبيد بن عمير (وأعبد الطاغوت) مثل كلب وأكلب . وقرئ (وعبد الطاغوت) عطفا على الموصول بناء على تقدير مضاف محذوف ، وهى قراءة ضعيفة جدا ، والطاغوت : الشيطان أو الكهنة أو غيرهما مما قد تقدم مستوفى . قوله (أولئك شر مكانا) الإشارة إلى الموصوفين بالصفات المتقدمة ، وجعلت الشرارة للمكان ، وهى لأهله للمبالغة ، ويجوز أن يكون الاسناد مجازيا . قوله (وأضل عن سواء السبيل) معطوف على شره ، أى هم أضل من غيرهم عن الطريق المستقيم ، والتفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا أو لكونهم أشر وأضل مما يشاركونهم فى أصل الشرارة والضلال . قوله (وإذا جاءوكم قالوا آمنا) أى إذا جاءوكم أظهروا الإسلام . قوله (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) جملتان حاليتان : أى جاءوكم حال كونهم قد دخلوا عندك متلبسين بالكفر وخرجوا من عندك متلبسين به لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك ، بل خرجوا كما دخلوا (والله أعلم بما كانوا يكتمون) عندك من الكفر ، وفيه وعيد شديد ، وهؤلاء هم المنافقون ، وقيل هم اليهود الذين قالوا - آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره - . قوله (وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له ، والضمير فى (منهم) عائد إلى المنافقين أو اليهود أو إلى الطائفتين جميعا (ويسارعون فى الإثم) فى محل نصب على الحال على أن الروية بصرية أو هو مفعول ثان ل ترى على أنها قلبية . والمسارعة : المبادرة ، والإثم : الكذب أو الشرك أو الحرام ، والدعوان : الظلم المتعدى إلى الغير أو مجاوزة الحد فى الذنوب ، والسحت : الحرام ، فعلى قول من فسر الإثم بالحرام يكون تكريره للمبالغة ، والربانيون علماء النصارى ، والأخبار : علماء اليهود ، وقيل الكل من اليهود لأن هذه الآيات فيهم ، ثم وبخ علماءهم فى تركهم لنبيهم فقال (لبئس ما كانوا يصنعون) وهذا فيه زيادة على قوله (لبئس ما كانوا يعملون) لأن العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرّب فيه صاحبه ، ولهذا تقول العرب سيف صنيع إذا جود عامله عمله فالصنع هو العمل الجيد لا مطلق للعمل . فوبخ سبحانه الخاصة ، وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصى . فليفتح العلماء لهذه الآية مسامحة ويخرجوا لها عن قلوبهم ، فإنها قد جاءت بما

فيه البيان الشافي لهم بأن كفهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها لا يضمن ولا يبقى من جوع ، بل هم أشدّ حالاً وأعظم وبالاً من العصاة ، فرحم الله عالمنا بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو أعظم ما افترضه الله عليه وأوجب ما أوجب عليه التهوؤ به . اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وأعنا على ذلك وقوتنا عليه ويسره لنا وانصرنا على من تعدى حدودك وظلم عبادك إنه لا ناصر لنا سواك ولا مستعان غيرك يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن الثابت وسويد بن الحارث قد أظهرهما الإسلام وناقفا ، وكان رجال من المسلمين يوادّونهما ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً) إلى قوله (والله أعلم بما كانوا يكتمون) . وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (وإذا ناديتُم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً) قال : كان منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون إلى الصلاة ، قالت اليهود والنصارى : قد قاموا لا قاموا ، فإذا رأوهم ركعوا وسجدوا استهزؤا بهم وضحكوا منهم . قال : وكان رجل من اليهود تاجراً إذا سمع المنادي ينادي بالأذان قال : أحرق الله الكاذب ، قال : فبينما هو كذلك إذ دخلت جاريته بشعلة من نار ، فطارت شرارة منها في البيت فأحرقت . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي قال : كان رجل من النصارى فذكر نحو قصة الرجل اليهودي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفر من اليهود ، فسألوه عن يؤمن به من الرسل فقال : أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : لا نوّمن بعيسى ولا نوّمن بمن آمن به ، فأنزل الله فيهم (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا) إلى قوله (فاسقون) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وجعل منهم القردة والخنازير) قال : مسخت من يهود . وأخرج أبو الشيخ عن أبي مالك أنه قيل له : كانت القردة والخنازير قبل أن يمسحوا ؟ قال نعم ، وكانوا مما خلق من الأمم . وأخرج مسلم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن القردة والخنازير مما مسح الله ، فقال : إن الله لم يهلك قوماً ، أو قال : لم يمسح قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وإذا جاءوكم قالوا آمنا) الآية ، قال أناس من اليهود : كانوا يدخلون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به ، وهم متمسكون بفضلاتهم وبالكفر ، فكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير عن السدي في الآية قال : هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يهوداً ، يقولون دخلوا كفاراً وخرجوا كفاراً . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان) قال : هؤلاء اليهود (لبئس ما كانوا يعملون) إلى قوله (لبئس ما كانوا يصنعون) قال : يصنعون ويعملون واحداً ، قال هؤلاء حين لم ينتهوا كما قال هؤلاء حين عملوا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (لولا ينههم الربانيون والأحبار) قال : فهل لا ينههم الربانيون والأحبار ، وهم الفقهاء والعلماء . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أشدّ توبيخاً من هذه الآية (لولا ينههم الربانيون والأحبار)

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك بن مزاحم نحوه ، وقد وردت أحاديث كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا حاجة لنا في بسطها هنا .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَاتُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (١٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سُبْحَانَهُمْ وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ (١٦) .

قوله (يد الله مغلولة) اليد عند العرب تطلق على الجارحة ، ومنه قوله تعالى - وخذ بيدك ضغثا - وعلى النعمة ، يقولون كم يد لي عند فلان ، وعلى القدرة . ومنه قوله تعالى - قل إن الفضل بيد الله - أو على التأيد ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم يد الله مع القاضى حين يقضى ، وتطلق على معانٍ أخر . وهذه الآية هي على طريق التخييل كقوله تعالى - ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك - والعرب تطلق غل اليد على البخل وبسطها على الجود مجازا ، ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل وقبوض الكف ، ومنه قول الشاعر :

كانت خراسان أرضا إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت بعده جمدا أنامله كأنما وجهه بالخل منصوح

فإراد اليهود هنا عليهم لعائن الله أن الله بخيل ، فأجاب سبحانه عليهم بقوله (غلَّتْ أَيْدِيهِمْ) دعاء عليهم بالبخل ، فيكون الجواب عليهم مطابقا لما أرادوه بقوله (يد الله مغلولة) ويجوز أن يراد غل أَيْدِيهِمْ حقيقة بالأمر في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة ، ويقوى المعنى الأول أن البخل قد لزم اليهود لزوم الظل للشمس فلا ترى يهوديا ، وإن كان ماله في غاية الكثرة ، إلا وهو من أبخل خلق الله ، وأيضا المجاز أوفق بالمقام لمطابقته لما قبله . قوله (ولعنوا بما قالوا) معطوف على ما قبله والباء سببية : أى أبعدوا من رحمة الله بسبب قولهم : (يد الله مغلولة) ، ثم رد سبحانه بقوله (بل يده مبسوطتان) أى بل هو في غاية ما يكون من الجود ، وذكر الدين مع كونهم لم يذكرُوا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء ، فإن نسبة الجود إلى الدين أبلغ من نسبه إلى اليد الواحدة . وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدرة يقتضيهما المقام : أى كلا ليس الأمر كذلك (بل يده مبسوطتان) وقيل المراد بقوله (بل يده مبسوطتان) نعمة الدنيا الظاهرة ونعمتها الباطنة ؛ وقيل نعمة المطر والنبات ، وقيل الثراب والعقاب . وحكى الأخفش عن ابن مسعود أنه قرأ (بل يده مبسوطتان) : أى منطلقتان كيف يشاء قوله (ينفق كيف يشاء) جملة مستأنفة مؤكدة لكمال جوده سبحانه : أى إنفاقه على ما تقتضيه مشيئته ، فإن شاء وسع ، وإن شاء قتر ، فهو الباسط القابض ، فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكته الباهرة لا لشيء آخر ، فإن

بحرالن ملكه لا تنفى ومواد جوده لا تنهاى . قوله (وليزيدن كثيرا منهم) الخ ، اللام هى لام القسم : أى ليزيدن كثيرا من اليهود والنصارى ما أنزل إليك من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة (طغيانا وكفرا) أى طغيانا إلى طغيانهم وكفرا إلى كفرهم . قوله (وألقينا بينهم) أى بين اليهود (للعداوة البغضاء) أوبين اليهود والنصارى . قوله (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما جمعوا للحرب جمعا وأعدوا له عداة شتت الله جمعهم ، وذهب بريجهم فلم يظفروا بظائل ولا عادوا بفائدة ، بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم ، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها ، ثم يبطل الله ذلك ، والآية مشتملة على استعارة بليغة ، وأسلوب بديع (ويسعون فى الأرض فسادا) أى يجتهدون فى فعل مافيه فساد . ومن أعظمه ما يريدونه من إبطال الإسلام وكيد أهله ، وقيل المراد بالنار هنا الغضب : أى كلما أثاروا فى أنفسهم غضبا أطفأه الله بما جعله من الرعب فى صدورهم والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم . قوله (والله لا يحب المفسدين) إن كانت اللام للجنس فهم داخلون فى ذلك دخولا أواميا ، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمر لبيان شدة فسادهم وكونهم لا ينفكون عنه . قوله (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) أى لو أن المتمسكين بالكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، على أن التعريف للجنس (آمنوا) الإيمان الذى طلبه الله منهم ، ومن أهمه الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما أمروا بذلك فى كتب الله المنزلة عليهم (واتقوا) المعاصى التى من أعظمها ما هم عليه من الشرك بالله والحدود لما جاء به رسول الله (لكفرنا عنهم سيئاتهم) التى اقترفوها ، وإن كانت كثيرة متنوعة ، وقيل المعنى : لو سئنا عابهم فى أوزاقهم (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) أى أقاموا ما فيهما من الأحكام التى من جملتها الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (وما أنزل إليهم من ربهم) من سائر كتب الله التى من جملتها القرآن فإنها كلها وإن نزلت على غيرهم فهى فى حكم المنزلة عليهم لكونهم متعبدين بما فيها (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ذكر فوق وتحت للمبالغة فى تيسر أسباب الرزق لهم وكثرتها وتعدد أنواعها . قوله (منهم أمة مقتصدة) جواب سؤال مقدر . كأنه قيل هل جميعهم متصفون بالأوصاف السابقة ، أو البعض منهم دون البعض ، والمقتصدون منهم هم المؤمنون كعبد الله بن سلام ومن تبعه وطائفة من النصارى (وكثير منهم ساء ما يعملون) وهم المصرون على الكفر المتمردون عن إجابة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان بما جاء به .

وقد أخرج ابن إسحاق والطبرانى فى الكبير وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق ، فأنزل الله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه أنها نزلت فى فنحاص اليهودى . وأخرج مثله ابن جرير عن عكرمة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) أى بخيلة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) قال : حملهم حسد محمد والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه وهم يجدونه مكتوبا عندهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (كلما أوقدوا نارا للحرب) قال : حرب محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى فى الآية : كلما أجمعوا أمرهم على شىء فرقه الله وأطفأ حدهم ونارهم وقذف فى قلوبهم الرعب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) قال : آمنوا بما أنزل على محمد واتقوا ما حرم الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ولو

أنهم أقاموا الثوراة والإنجيل) قال : العمل بهما ، وأما ما أنزل إليهم فحمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل عليه . وأما (لاكلوا من فوقهم) فأرسلت عليهم مطرا ، وأما (من تحت أرجلهم) يقول أنبت لهم من الأرض من رزق ما يغنيهم . (منهم أمة مقتصدة) وهم مسلمة أهل الكتاب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (لاكلوا من فوقهم) يعني لأرسل عليهم السماء مدرلوا (ومن تحت أرجلهم) قال : تخرج الأرض من بركتها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس قال : الأمة المقتصدة : الذين لا هم فسقوا في الدين ولا هم غلوا . قال : والغلو الرغبة ، والفسق التقصير عنه . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (أمة مقتصدة) يقول مؤمنة . وأخرج ابن مردويه قال : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا أحمد بن يونس الضبي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا أبو معشر عن يعقوب بن زيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر حديثا ، قال : ثم حدثهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تفرقت أمة موسى على اثنتين وسبعين ملة ، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار ، وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة ، واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار ، تملو أمتي على الفريقين جميعا ملة واحدة في الجنة واثنتان وسبعون منها في النار ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : الجماعات الجماعات ، قال يعقوب بن زيد : كان علي بن أبي طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا فيه قرآنا ، قال (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم) إلى قوله (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) وتلا أيضا (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) يعني أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكره لهذا الحديث ما لفظه : وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروى من طرق عديدة قد ذكرناها في موضع آخر انتهى . قلت : أما زيادة كونها في النار إلا واحدة ، فقد ضعفها جماعة من المحدثين ، بل قال ابن حزم إنها موضوعة .

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِهِ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٧) .

العموم الكائن في ما أنزل يفيد أنه يجب عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ جميع ما أنزل الله إليه لا يكتم منه شيئا . وفيه دليل على أنه لم يسر إلى أحد مما يتعلق بما أنزل الله إليه شيئا ، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من زعم أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كتم شيئا من الوحي فقد كذب . وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال : قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهم يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة ، قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر (فإن لم تفعل) ما أمرت به من تبليغ الجميع بل كتمت ولو بعضا من ذلك (فما بلفت رسالاته) . قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة إلا شعبة ، رسالته ، على التوحيد . وقرأ أهل المدينة وأهل الشام ، رسالاته ، على الجمع ، قال النحاس : والجمع أبين لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ينزل عليه الوحي شيئا فشيئا ، ثم يبينه انتهى . وفيه نظر ، فإن نفي التبليغ عن الرسالة الواحدة أبلغ من نفيه عن الرسالات . يكما ذكره علماء البيان على

خلاف في ذلك ، وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته ما نزل إليهم ، وقال لهم في غير موطن : هل بلغت ؟ فيشهدون له بالبيان ، فجزاه الله عن أمته خيرا ، ثم إن الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعا لما يظن أنه حامل على كتم البيان ، وهو خوف لحوق الضرر من الناس ، وقد كان ذلك بحمد الله فإنه بين لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام ، ثم حمل من أبي من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعا أو كرها وقتل صناديد الشرك وفرق جموعهم وبدد شملهم ، وكانت كلمة الله هي العليا ، فأسلم كل من نازعه ممن لم يسبق فيه السيف العذل حتى قال يوم الفتح لصناديد قريش وأكابرهم : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : أخ كريم وابن أخ كريم فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة يعصمه الله من الناس . إن قام بيان حجج الله وإيضاح براهينه ، وصرخ بين ظهرائي من ضاد الله وعانده ولم يمثل لشرعه كطوائف المبتدعة ، وقد رأينا من هذا في أنفسنا وسمعنا منه في غيرنا ما يزيد المؤمن إيمانا وصلابة في دين الله وشدة شكيمة في القيام بحجة الله ، وكل ما يظنه منزله من الأقدام ومضطرب القلوب من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم فهو خيالات مختلة وتوهمات باطلة ، فإن كل محنة في الظاهر هي منحة في الحقيقة ، لأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى . إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قوله (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) جملة متضمنة لتعليل ما سبق من العصمة : أي إن الله لا يجعل لهم سبيلا إلى الإضرار بك ، فلا تخف وبلغ ما أمرت بتبليغه .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : لما نزلت (بلغ ما أنزل إليك من ربك) قال : يارب إنما أنا واحد كيف أصنع ؟ يجتمع على الناس ، فنزلت (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعا وعرفت أن الناس مكذبي ، فوعدني لأبلغن أو ليعذبنني ، فأنزلت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) يعني إن كتبت آية مما أنزل إليك لم تبلغ رسالته . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت هذه الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) إن عليا مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وأخرج ابن أبي حاتم عن غنيرة قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال : إن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئا لم يیده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس ، فقال : ألم تعلم أن الله قال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) والله ما ورثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سوداء في بيضاء . وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أي آية أنزلت من السماء أشد عليك ؟ فقال : كنت بمبنى أيام موسم ، فاجتمع مشركو العرب وأفناء الناس في الموسم ، فأنزل علي جبريل فقال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) الآية ، قال : فقامت عند العقبة فتأديت يا أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالة ربي وله الجنة ، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم ، تفاحروا وتنجحوا ولكم الجنة ، قال : فأتى رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجارة وييزقون في وجهي ويقولون : كذب صائبي ، فعرض علي عارض فقال : يا محمد إن كنت رسول الله فقد آتاك أن تدعو عليهم

كما دعا نوح على قومه بالهلاك ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه . قال الأعمش : فبذلك يفتخر بنو العباس ويقولون فيهم نزلت - إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء - هوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا طالب ، وشاء الله عباس ابن عبد المطلب . وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحرس حتى نزلت (والله يعصمك من الناس) فأخرج رأسه من القبة فقال : أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله . قال الحاكم في المستدرک : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأخرج الطبراني وابن مردويه من حديث أبي سعيد . وقد روى في هذا المعنى أحاديث . وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل ، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجله ، فقال الوارث من بني النجار : لأقتلن محمدا ، فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلت به . فأناه فقال : يا محمد أعطني سيفك أشمه . فأعطاه إياه ، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حال الله بينك وبين ماتريد ، فأنزل الله سبحانه (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك) الآية . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وأخرج ابن حبان في صحيحه وابن مردويه عن أبي هريرة نحو هذه القصة ولم يسم الرجل . وأخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه ، وفي الباب روايات . وقصة غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح ، وهي معروفة مشهورة .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا نَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَجِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا
بِأَكْلَانِ الطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ (٧٥).

قوله (على شيء) فيه تحقير وتقليل لما هم عليه : أى لستم على شيء يعتد به حتى تقيموا التوراة والإنجيل ؛
أى تعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه التى من جملتها أمركم باتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونهيكم عن
مخالفته . قال أبو على الفارسي : ويجوز أن يكون ذلك قبل النسخ لهما . قوله (وما أنزل إليكم من ربكم) قيل هو
القرآن ، فإن إقامة الكتابين لاتصح بغير إقامته . ويجوز أن يكون المراد ما أنزل إليهم على لسان الأنبياء من غير
الكتابين . قوله (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى كفرا إلى كفرهم وطغيانا إلى
طغيانهم ، والمراد بالكثير منهم من لم يسلم ، واستمر على المعاندة ؛ وقيل المراد به العلماء منهم . وتصدير هذه
الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها ، قوله (فلا تأس على القوم الكافرين) أى دع عنك التأسف على هؤلاء ، فإن
صبر ذلك راجع إليهم وتأول بهم . وفى المتبعين لك من المؤمنين غنى لك عنهم . قوله (إن الذين آمنوا) الخ .
جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين . والمراد بالمؤمنين هنا الذين آمنوا بالسنة وهم المنافقون (والذين
هادوا) أى دخلوا في دين اليهود (والصابون) مرتفع على الابتداء وخبره محذوف . والتقدير : والصابون
والنصارى كذلك . قال الخليل وسيبويه : الرفع محمول على التقديم والتأخير ، والتقدير : إن الذين آمنوا والذين
هادوا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا تخوف عليهم ولا هم يحزنون والصابون والنصارى كذلك ، وأنشد
سيبويه ، قول الشاعر :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بناة ما بقينا في شقاق

أى وإلا فاعلموا أنا بناة وأنتم كذلك . ومثله قول صابى البرجمي :

فن بك أسمى بالمدينة رحله فلانى وقيار بهما لغريب

أى فلان لغريب وقيار كذلك . وقال الكسائي والأخفش : إن الصابون معطوف على المضمر في هادوا . قال
النحاس : سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الكسائي والأخفش : هذا خطأ من وجهين : أحدهما أن المضمر
المرفوع لا يعطف عليه حتى يؤكد . وثانيهما أن المعطوف شريك المعطوف عليه ، فيصير المعنى : إن الصابون قد
دخلوا في اليهودية ، وهذا محال . وقال القراء : إنما جاز الرفع لأن إن ضعيفة فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر . فعلى
هذا هو عنده معطوف على محل اسم إن ، أو على مجموع إن واسمها ؛ وقيل إن خبر إن مقدر ، والجملة الآتية
خير الصابون والنصارى ، كما في قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل إن إن هنا بمعنى نعم : فالصابون مرتفع بالابتداء ، ومثله قول قيس بن الرقيات :

بكر العواذل في الصبا ح يلمنى وألومته

ويقلن شيب قد علا لك وقد كبرت فقلت إنه

قال الأخفش : إنه بمعنى نعم والماء للسكت . وقد تقدم الكلام على الصابون والنصارى في البقرة ، وقرئ
الصابون بياء صريحة كتحقيقا للهزة . وقرئ الصابون ببلون باء ، وهو من صبا يصير لأنهم صبوا إلى اتباع
المحرى ، وقرئ «والصابون» عطفا على اسم إن . قوله (من آمن بالله) مبتدأ خبره (فلا تخوف عليهم ولا هم

يخزنون) والمبتدأ وخبره خبر لأنّ ، ودخول الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، والعائد إلى اسم إن محذوف : أى من آمن منهم . ويجوز أن يكون من آمن بدلا من اسم إن وما عطف عليه ، ويكون خبر إنّ (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين كما قدّمنا : أن من آمن من هذه الطوائف إيماننا خالصا على الوجه المطلوب وعمل عملا صالحا ، فهو الذى لا خوف عليه ولا حزن ، وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا جميع أهل الإسلام : المخلص والتائق ، فالمراد بمن آمن من اتصف بالإيمان الخالص واستمر عليه . ومن أحدث إيماننا خالصا بعد نفاقه . قوله (لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) كلام مبتدأ لبيان بعض أفعالهم الخبيثة . وقد تقدّم في البقرة بيان معنى الميثاق (وأرسلنا إليهم رسلا) ليعرفوهم بالشرائع وينذروهم (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) جملة شرطية وقعت جوابا لسؤال ناس من الأحرار بإرسال الرسل كأنه قيل : ماذا فعلوا بالرسل ؟ وجواب الشرط محذوف : أى عصوه . وقوله (فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) جملة مستأنفة أيضا جواب عن سؤال ناس عن الجواب الأول كأنه قيل : كيف فعلوا بهم (ففريقا منهم كذبوه ولم يتعرضوا لهم بضرر . وفريقا آخر منهم قتلوه) وإنما قال (وفريقا يقتلون) لمراعاة رءوس الآي ، فمن كذبوه عيسى وأمثاله من الأنبياء . ومن قتلوه زكريا ويحيى . قوله (وحسبوا أن لا تكون فتنة) أى حسب هؤلاء الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن لا يقع من الله عز وجل ابتلاء واختبار بالشدائد اعزازا بقولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) . قرأ أبو عمرو وحمة والكسائي (تكون) بالرفع على أنّ أن هي المخففة من الثقيلة ، وحسب بمعنى علم ، لأن أن معناها التحقيق . وقرأ الباقون بالنصب على أن أن ناصبة للفعل . وحسب بمعنى الظن . قال النحاس : والرفع عند التحويين في حسبت وأخواتها أجود . ومثله :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وأن لا يشهد اللهو أمثالى

قوله (فعصوا وصبوا) أى عصوا عن أبصار الهدى ، وصبوا عن استماع الحق ، وهذه إشارة إلى ما وقع من بنى إسرائيل في الابتداء من مخالفة أحكام التوراة ، وقتل شعيا ، ثم تاب الله عليهم حين تابوا ، فكشف عنهم القحط (ثم عصوا وصبوا كثير منهم) وهذا إشارة إلى ما وقع منهم بعد التوبة من قتل يحيى بن زكريا وقصدهم لقتل عيسى ، وارتفاع (كثير) على البدل من الضمير في الفعلين . قال الأخفش : كما تقول رأيت قومك ثلاثهم . وإن شئت كان على إضمار مبتدأ : أى العصى والصم كثير منهم ، ويجوز أن يكون كثير مرتفعاً على القاعلية على لغة من قال : أكلوني البراغيث . ومنه قول الشاعر :

ولكن دفاق أبوه وأمه بحوران يعصرون السليط أقاربه

وقرى (عصوا وصبوا) بالبناء للمفعول : أى أعماه الله وأصمهم . قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان بعض فضائح أهل الكتاب ، والقائلون بهذه المقالة هم فرقة منهم : يقال لهم اليعقوبية : وقيل هم الملكانية ، قالوا : إن الله عز وجل حلّ في ذات عيسى ، فردّ الله عليهم بقوله (وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) أى والحال أنه قد قال المسيح هذه المقالة ، فكيف يدعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم ؟ قرله (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) الضمير للشأن . وهذا كلام مبتدأ يتضمن بيان أن الشرك يوجب تحريم دخول الجنة ، وقيل هو من قول عيسى (وما للظالمين من أنصار) ينصرونهم فيدخلونهم الجنة أو يخلصونهم من النار . قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) وهذا كلام أيضا مبتدأ لبيان بعض مخازيهم . والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة . ولهذا يضاف إلى ما بعده . ولا يجوز فيه

الفتورين كما قال الزجاج وغيره . وإنما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده دونه بمرتبة نحو ثالث اثنين ورابع ثلاثة ،
والفعل بأنه سبحانه وتعالى ثالث ثلاثة هم التصاري . والمراد بالثلاثة : الله سبحانه . وعيسى . ومريم كما يدل
عليه قوله . أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين . وهذا هو المراد يقولهم ثلاثة أقانيم : إقنم الأب وإقنم الابن ،
وإقنم (روح القدس) ، وقد تقدم في سورة النساء كلام في هذا . ثم رد الله سبحانه عليهم هذه الدعوى الباطلة
فقال (وما من إله إلا إله واحد) أى ليس في الوجود إلا الله سبحانه ، وهذه الجملة حالية . والمعنى : قالوا تلك
الفتالة ، والحال أنه لا موجود إلا الله ، ومن في قوله (من إله) لتأكيد الاستغراق المستفاد من النفي (وإن لم يتفهموا
عما يقولون) من الكفر (لحسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط ،
ومن في (منهم) بيانية أو تبعية (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه) الفاء للعطف على مقدر ، والهمزة للإنكار .
قوله (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) أى هو مقصور على الرسالة ، لا يجاوزها كما زعمتم .
وجملة (قد خلت من قبله الرسل) صفة لرسول : أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله . وما
وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلهاً ، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها ، فإن الله أحيا العصا في يد موسى
وخلق آدم من غير أب ، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلهاً ، فإن كان
كما تزعمون إلهاً لذلك فمن قبله من الرسل الذين جاءوا بمثل ما جاء به آلهة ، وأنتم لا تقولون بذلك . قوله (وأمه
صديقة) عطف على المسيح : أى وما أمه إلا صديقة : أى صادقة فيما تقوله أو مصدقة لما جاء به ولدها من
الرسالة ، وذلك لا يستلزم الإلهية لها ، بل هي كسائر من ينصف بهذا الوصف من النساء . قوله (كانا يأكلان
الطعام) استئناف يتضمن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أفراد البشر : أى من كان يأكل الطعام كسائر
المخلوقين فليس برب ، بل هو عبد مربوب ولده النساء ، فتن يصلح لأن يكون رباً ؟ وأما قولكم إنه كان يأكل
الطعام بناسوته لا بلاهوته ، فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإله بغير الإله واجتماع الناسوت واللاهوت ، وأو
جاز اختلاط القديم بالحادث بلحاظ أن يكون القديم حادثاً ، ولو صح هذا في حق عيسى لصح في حق غيره من
العباد (انظر كيف نبين لهم الآيات) أى الدلالات ، وفيه تعجيب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف
مستلزمة للإلهية ويغفلون عن كونها موجودة في من لا يقولون بأنه إله (ثم انظر أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون
عن الحق بعد هذا البيان ؟ يقال أفكه بأفكه إذا صرفه ، وكرر الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ، وجاء ثم
لإظهار ما بين العجيبين من التفاوت .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء نافع ابن
حنظلة وسلام بن مشكم ومالك بن الصبيح ورافع بن حرملة فقالوا : يا محمد ألسنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه
وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : بلى ولكنكم أحدثتم
وهجتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكفرتكم منها بما أمرتم أن تدينوه للناس ، فبرئت من أحداثكم . قالوا :
فلما نؤخذ بما في أيدينا وإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك ، فأنزل الله فيهم (قل يا أهل الكتاب لستم
على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل) إلى قوله (القوم الكافرين) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن
أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (وحسبوا أن لا تكون فتنة) قال : بلاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير
وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي نحوه . وأخرج
عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)

قال : النصارى يقولون إن الله ثالث ثلاثة وكذبوا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : تفرقت بنو إسرائيل ثلاث فرق في عيسى ، فقالت فرقة هو الله ، وقالت فرقة هو ابن الله ، وقالت فرقة هو عبد الله وروحه ، وهي المقتصدة وهي مسلمة أهل الكتاب .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦)
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ (٨١) .

أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم هذا القول إلزاماً لهم وقطعاً لشبهتهم : أى أتعبدون من دون الله متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا ؟ بل هو عبد مأمور ، وما جرى على يده من النفع ، أو دفع من الضر فهو بإقدار الله له وتمكينه منه ، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئاً من ذلك فضلاً عن أن يملكه لغيره ، ومن كان لا ينفع ولا يضر فكيف تتخذونه إلهاً وتعبدونه ، وأى سبب يقتضى ذلك ؟ والمراد هنا المسيح عليه السلام ، وقدم سبحانه الضر على النفع لأن دفع المفسد أهم من جلب المصلح (والله هو السميع العليم) أى كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا ، والحال أن الله هو السميع العليم ، ومن كان كذلك فهو القادر على الضر والنفع لإحاطته بكل مسموع ومعلوم ، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم . قوله (تغلوا في دينكم) لما أبطل سبحانه جميع ما تعلقوا به من الشبه الباطلة نهاهم عن الغلو في دينهم وهو المجاوزة للحد كاثبات الإلهية لعيسى ، كما يقوله النصارى ، أو حطه عن مرتبته العلية كما يقوله اليهود فإن كل ذلك من الغلو المذموم وسلوك طريقة الإفراط أو التفريط واختيارهما على طريق الصواب . (وغير) منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف : أى غلوا غير غلو الحق ، وأما الغلو في الحق بإبلاغ كلية الجهد في البحث عنه واستخراج حقائقه فليس بمذموم ، وقيل إن النصب على الاستثناء المتصل ؛ وقيل على المنقطع (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) وهم أسلاف أهل الكتاب من طائفتي اليهود والنصارى : أى قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم (وأضلوا كثيراً) من الناس (وضلوا عن سواء السبيل) أى عن قصدهم طريق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد البعثة ، والمراد أن أسلافهم ضلوا من قبل البعثة وأضلوا كثيراً من الناس إذ ذاك ، وضلوا من بعد البعثة ، إما بأنفسهم ، أو جعل ضلال من أضلوه ضلالاً لهم لكونهم سواهم ذلك ونهجوهم لهم ، وقيل المراد بالأول كفرهم بما

يقضيه للقتل ، وبالثاني كفرهم بما يقتضيه الشرع قوله (لعن الثنين كفروا من بني إسرائيل) أي لعنهم الله سبحانه (على لسان داود وعيسى ابن مريم) أي في الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى بما فعلوه من المعاصي كاعتدائهم في السبت وكفرهم بعيسى . قوله (ذلك بما عملوا) جمل مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، والإشارة بذلك إلى اللعن : أي ذلك اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر ، ثم بين سبحانه المعصية والاعتداء بقوله (كانوا لا يبنون عن منكر فعلوه) فأسند الفعل إليهم لكون فاعله من جملتهم وإن لم يفعلوه جميعا . والمعنى : أنهم كانوا لا يبنون المعاصي من معارضة معصية قد فعلوها ، أو تهاؤا لفعلها . ويعتدل أن يكون وصفهم بأنهم قد فعلوا المنكر باعتبار حالة النزول لاحتالة ترك الإنكار ، ربيان العصيان والاعتداء بترك التناهي عن المنكر لأن من أخل بواجب التهي عن المنكر فقد حصى الله سبحانه وتعالى حدوده . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية وأجل الفرائض الشرعية ، ولهذا كان تاركه شريكا لفاعل المعصية ومستحقا لغضب الله وانتقامه كما وقع لأهل السبت ، فإن الله سبحانه مسح من لم يشاركهم في الفعل ولكن ترك الإنكار عليهم . كما مسح المعتدين فصاروا جميعا قردة وخنازير . إن في ذلك للذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ثم إن الله سبحانه قال مقبحا لعدم التناهي عن المنكر (لبئس ما كانوا يفعلون) أي من تركهم لإنكار ما يجب عليهم إنكاره (ترى كثيرا منهم) أي من اليهود مثل كعب بن الأشرف وأصحابه (يتولون الذين كفروا) أي المشركين وليسوا على دينهم (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) أي سولت وزينت ، أو ما قدّموه لأنفسهم ليبدوا عليه يوم القيامة . والمخصوص بالذم هو (أن يخط الله عليهم) أي موجب يخط الله عليهم على حذف مضاف أو هو يخط الله عليهم على حذف المتبدل ، وقيل هو : أي أن يخط الله عليهم بدل من ما (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي) أي نبيهم (وما أنزل إليه) من الكتاب (ما اتخذهم) أي المشركين (أولياء) لأن الله سبحانه ورسوله المرسل إليهم وكتابه المنزل عليهم قد نهىهم عن ذلك (ولكن كثيرا منهم فاسقون) أي خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به ورسوله وبكتابه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (لاتفلوا في دينكم) بقول : لا تبدعوا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : كانوا بما غلوا فيه أن دعوا الله صاحبة وولدا . وأخرج عبد بن مبيد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وفضلوا عن سواء السبيل) قال : يهود . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حيد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود) إلى قوله (فاسقون) ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا . وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدا فلا يطول بذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود) يعني في الزبور (وعيسى ابن مريم) يعني في الإنجيل . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك الغفاري في الآية قال : لعنوا على لسان داود فجعلوا قردة ، وعلى لسان عيسى فجعلوا خنازير . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حيد وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج الديلمي في مستدركه عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعا : قلت

بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نيا من أول النهار ، قدام مائة واثنى عشر رجلا من عبادهم فأمرهم بالمعروف ونههم عن المنكر فقتلوا جميعا في آخر النهار ، فهم الذين ذكر الله (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل) الآيات . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) قال : ما أمرتهم . وأخرج ابن أبي حاتم والخراطين في مساوى الأخلاق وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه عن حنيفة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « بامعشر المسلمين إياكم والزنا ، فإن فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، فأما التي في الدنيا : فذهاب البهاء ، ودوام الفقر ، وقصر العمر ، وأما التي في الآخرة : فسخط الله ، وسوء الحساب ، والخلود في النار ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) » قال ابن كثير في تفسيره : هذا الحديث ضعيف على كل حال . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوا أولياء) قال : المناقرون .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثْبِتْهُمْ اللَّهُ إِنَّمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) .

قوله (لتجدن) الخ) هذه جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من تعداد مساوى اليهود وهناتهم ، ودخول لام القسم عليها يزيدان تأكيداً وتقريراً ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . أو لكل من يصلح له . كفا في غير هذا الموضع من الكتاب العزيز . والمعنى في الآية : أن اليهود والمشركين لعنهم الله أشد جميع الناس عداوة للمؤمنين وأصلهم في ذلك ، وأن النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين ، واللام في (للذين آمنوا) في الموضعين متعلقة بمحذوف وقع صفة لعداوة ومودة ، وقيل هو متعلق بعداوة ومودة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى كونهم أقرب مودة ، والباء في (بأن منهم قسيسين) لاسيية : أى ذلك بسبب أن منهم قسيسين ، وهو جمع قس وقسيس قاله قطرب . والقسيس : العالم ، وأصله من قس : إذا تتبع الشيء وطلبه . قال الرازي :

• يصبح عن قس الأذى غوافلا • وتقسيت أصواتهم بالليل تسمعها والقس : النجبة . والقس أيضا : رئيس النصارى في الدين والعلم ، وجمعه قسوس أيضا ، وكذلك القسيس : مثل الشر والشرير ، ويقال في جمع قسيس تكسيرا مساوسة بإبدال أحد لمينين واوا ، والأصل قساسة ، فالمراد بالقسيسين في الآية : المحبون للعلماء والعباد ، وهو إما عجمي خلطته العرب بكلامها ، أو عربي . والرهبان : جمع راهب كركبان وراكب

والفعل رهب الله يرهبه : أى يخافه . والرهبانة والترهب : التعبد في الصوامع . قال أبو عبيد : وقد يكون رهباناً للواحد والجمع . قال الفراء : ويجمع رهبان إذا كان للمفرد رهبان ورهبانين كقربان وقرايين . وقد قال جرير في الجمع : رهبان مدين لو رأوك ترهبوا .
وقال الشاعر في استعمال رهبان مفرداً :

لو أبصرت رهبان ذير في الجبل لانحدر الرهبان يسمى وتزل
ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم لا يستكبرون عن قول الحق ، بل هم متواضعون ، بخلاف اليهود فلم يسموا على ضد ذلك ، وهذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول) معطوف على جملة (وأنهم لا يستكبرون) . (تفيض من الدمع) أى تمتلئ فتنفيض ، لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء ، جعل الأعين تفيض ، والفائض : إنما هو الدمع قصداً للمبالغة كقولهم دمت عينه . قال امرؤ القيس :

ففاضت دموع العين منى صباية على النحر حتى بل دمعى محلى

قوله (بما عرفوا من الحق) من الأولى لا ابتداء الغاية ، والثانية بيانية : أى كان ابتداء الفيض ناشئاً من معرفة الحق ، ويجوز أن تكون الثانية تبعية ، وقرئ (ترى أعينهم) على البناء للمجهول . وقوله (يقولون ربنا آمنا) استئناف مسوق لجواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل فما حالهم عند سماع القرآن ؟ فقال (يقولون ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين) أى آمنا بهذا الكتاب النازل من عندك على محمد وبمن أنزلته عليه فاكبتنا مع الشاهدين على الناس يوم القيامة من أمة محمد أو مع الشاهدين بأنه حق ، أو مع الشاهدين بصدق محمد وأنه رسولك إلى الناس . قوله (وما لنا لا نؤمن بالله) كلام مستأنف ، والاستفهام للاستبعاد (ولنا) متعلق بمحذوف ، و (لا نؤمن) فى محل نصب فى الحال ، والتقدير : أى شئء حصل لنا حال كوننا لا نؤمن بالله وبما جاءنا من الحق ؟ والمعنى : أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع وجود مقتضى له ، وهو الطمع فى إنعام الله ، فلا استفهام والنقطة متوجهان إلى التوبيخ والتقيد جميعاً كقوله تعالى - ما لكم لا ترجون لله وقاراً - ، والواو فى (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) للحال أيضاً بتقدير مبتدأ : أى أى شئء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع فى الدخول مع الصالحين ؟ لا تحل الأولى والثانية صاحبيهما الضمير فى (لنا) وعاملهما الفعل المقدّر : أى حصل ، ويجوز أن تكون الحال الثانية من الضمير فى (نؤمن) والتقدير : وما لنا نجمع بين ترك الإيمان وبين الطمع فى محبة الصالحين . قوله (فآلأبهم الله بما قالوا) الخ أثابهم على هذا القول مخلصين له معتقدين لمضمونه . قوله (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) التكذيب بالآيات كفر فهو من باب عطف الخاص على العام . والجحيم : النار الشديدة الإيقاد ، ويقال جحيم فلان النار : إذا شدد إيقادها ، ويقال أيضاً لعين الأسد : جحمة لشدة إيقادها . قال الشاعر :

والحرب لا تبق لحالهما التحيل والمزاح .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ولنجدن أقربهم مودة) الآية قال هم الوفد الذين جامعوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما خلا يهودى بمسلم إلا هم يقتله » وفى لفظ « إلا حدث نفسه بقطعه » . قال ابن كثير : وهو غريب جداً . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : ما ذكر الله به النصارى من غير أنما يراد به النجاشى وأصحابه . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : هم ناس من الحبشة آمنوا إذا جاءتهم مهاجرة المؤمنين فذلك لهم . وأخرج الطحاوى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن

عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع) ، وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والواحدى من طريق ابن شهاب قال : أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعروة بن الزبير قالوا : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتابا إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه ، وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ عليهم سورة مريم ، فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع ، وهم الذين أنزل الله فيهم (ولتجدن أقربهم مودة) إلى قوله (من الشاهدين) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير في الآية قال : هم رسل النجاشي بإسلامه وإسلام قومه ، كانوا سبعين رجلا يختارهم من قومه الخير فالخير في الفقه والسنن ، وفي لفظ : نعت من خيار أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثين رجلا ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس ، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق ، فأنزل الله فيهم (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) الآية ونزلت هذه الآية فيهم أيضا - الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - إلى قوله - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - . وأخرج عبد بن حميد والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بدون ذكر العدد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : بعث النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اثني عشر رجلا سبعة قسيسين وخمسة رهبانا ينظرون إليه ويسألونه فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وآمنوا ، فأنزل الله فيهم (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول) الآية ، والروايات في هذا الباب كثيرة ، وهذا المقدار يكفي ، فليس المراد إلا بيان سبب نزول الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (قسيسين) قال : هم علماءهم . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : القسيسون عبادهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله (فآتيناهم الكتاب من قبله) قال : أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) .

الطيبات : هي المستلذات لما أحله الله لعباده ، نهى الذين آمنوا عن أن يحرموا على أنفسهم شيئا منها ، إما لظنهم أن في ذلك طاعة لله وتقربا إليه ، وأنه من الزهد في الدنيا ورفع النفس عن شهواتها ، أو لقصد أن يحرموا على أنفسهم شيئا مما أحله لهم كما يقع من كثير من العوام من قولهم : حرام على وحرمته على نفسي ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل تحت هذا النهي القرآني . قال ابن جرير الطبري : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحله الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات الطعام والملابس والمناكح ، ولذلك رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم التبتل على عثمان بن مظعون .

ثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب الله عباده إليه ، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنة لأمة ، وإتباعه على منهاج الأئمة الراشدين ، إذ كان خير الهدى

عن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فإذا كان ذلك كذلك تبين خطأ من أثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا فكر على لباس ذلك من حله ، وأثر أكل الحشن من الطعام وترك اللحم وغيره حلوا من عارض الحاجة إلى النساء . قال : فإن ظن ظان أن الفضل في غير الذي قلنا لما في لباس الحشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة ، فقد ظن خطأ ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعمله لما على طاعة ربه ، ولا شيء أضرب للجسم من الطعام الرديئة ، لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سببا إلى طاعته . قوله (ولا تعتدوا) أي لا تعتدوا على الله بتحريم طيبات ما أحل الله لكم ، أو لا تعتدوا فحظوا ما حرم الله عليكم : أي ترخصوا فتحلوا حراما كما نهيت عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن من حرم على نفسه شيئا مما أحله الله له فلا يحرم عليه ولا يلزمه كفارة . وقال أبو حنيفة وأحمد ومن تابعهما : إن من حرم شيئا صار محرما عليه ، وإذا تناوله لزمته الكفارة ، وهو خلاف ما في هذه الآية وخلاف ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، ولعله يأتي في سورة التحريم ما هو أبسط من هذا إن شاء الله . وقوله (إن الله لا يحب المعتدين) تعليل لما قبله . وظاهره أن تحريم كل اعتداء : أي مجاوزة لما شرعه الله في كل أمر من الأمور (وكلوا مما رزقكم الله) حال كونه (حلالا طيبا) أي غير محرّم ولا مستقذر ، أو أكلا حلالا طيبا ، أو كلوا حلالا طيبا مما رزقكم الله ، ثم وصاهم الله سبحانه بالتقوى فقال (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) .

وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوة ، وإني حرمت على اللحم ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وقد روى من وجه آخر مرسل ، وروى موقوفا على ابن عباس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه في الآية قال : نزلت في رهط من الصحابة قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لكنني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتكح النساء . فمن أخذ بسنتي فهو مني . ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني . وقد ثبت نحو هذا في الصحيحين وغيرهما من دون ذكر أن ذلك سبب نزول الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في المراسيل وابن جرير عن أبي مالك أن هؤلاء الرهط : هم عثمان بن مظعون وأصحابه ، وفي الباب روايات كثيرة بهذا المعنى ، وكثير منها مصرح بأن ذلك سبب نزول الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن عبد الله بن رواحة ضايفه ضيف من أهله وهو عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم رجع إلى أهله ، فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له ، فقال لامراته : حبست ضيفي من أجل هو حرام علي ، فقالت امرأته : هو حرام على فقال الضيف : هو حرام علي ، فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا بسم الله ، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم فأخبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قد أصبت ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وهذا أثر منقطع ، ولكن في صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه ما هو شبيه بهذا . وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال : كنا عند عبد الله فجاء بضرع ، فتنحي رجل ، فقال له عبد الله : ادن ، فقال : إني حرمت أن آكله ، فقال عبد الله : ادن فاطعم وكفر عن يمينك ، وتلا هذه الآية . وأخرجه أيضا الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩).

قد تقدم تفسير اللغو ، والخلاف فيه ، في سورة البقرة ، و (في أيمانكم) صلة (يؤاخذكم) ، قبل و (في) بمعنى من والإيمان جمع يمين . وفي الآية دليل على أن أيمان اللغو لا يؤاخذ الله الخالف بها ولا نجب فيها الكفارة . وقد ذهب الجمهور من الصحابة ومن بعدهم إلى أنها قول الرجل : لا والله وبلى والله في كلامه غير معتقد لليمين ، وبه فسر الصحابة الآية وهم أعرف بمعاني القرآن . قال الشافعي : وذلك عند اللجاج والغضب والعجلة . قوله (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) قرئ بتشديد « عقدتم » وبتخفيفه ، وقرئ « عاقدتم » . والعقد على ضربين : حسي كعقد الحبل ، وحكي كعقد البيع ، واليمين والعهد . قال الشاعر :

قوم إذا عقدوا عقدا بلحارهم شلوا العناج وشلوا فوقه الكربا

فاليمين المعقدة من عقد القلب ليفعلن أو لا يفعلن في المستقبل : أي ولكن يؤاخذكم بأيمانكم المعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حثتم فيها . وأما اليمين الغموس : فهي يمين مكر وخديعة وكذب قد باء الخالف بإثمها ، وليست بمعقودة ولا كفارة فيها كما ذهب إليه الجمهور ، وقال الشافعي : هي يمين معقودة لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله ، والراجع الأول وجميع الأحاديث الواردة في تكفير اليمين متوجهة إلى المعقودة ولا يدل شيء منها على الغموس ، بل ما ورد في الغموس إلا الوعيد والرهيب ، وإنها من الكبائر ، بل من أكبر الكبائر ، وفيها نزل قوله تعالى - إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا - الآية . قوله (فكفارته) الكفارة : هي مأخوذة من التكفير وهو التستر ، وكذلك الكفر هو السر . والكافر هو الساتر ، لأنها تستر الذنب وتغطيه ، والضمير في كفارته راجع إلى « ما » في قوله (بما عقدتم) . (إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم) المراد بالوسط هنا المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير ، وليس المراد به الأعلى كما في غير هذا الموضع : أي أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه ، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه ، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه ، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا . وقد روى عن علي بن أبي طالب أنه قال : لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغديهم ويعشيهم . قال أبو عمر : هو قول أئمة الفتوى بالأمصار . وقال الحسن البصري وابن سيرين : يكفي أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً وسمناً أو خبزاً ولحماً . وقال عمر بن الخطاب وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبو مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبو قلابة ومقاتل : يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر . وروى ذلك عن علي . وقال أبو حنيفة نصف صاع بر وصاع مما عدله . وقد أخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس قال : كفر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصاع من تمر وكفر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر ، وفي إسناده عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي وهو مجمع على ضعفه . وقال الدارقطني : متروك . قوله (أو كسوتهم)

عطف على إتمام . قرئ بضم الكاف وكسرهما وهما لفتان مثل أسوة وإسوة . وقرأ سعيد بن جبير ومحمد ابن السميع الجاني « أو كآسوتهم » : يعني كآسوة أهليكم والكسوة في الرجال تصدق على ما كسو البدن ولو كان ثوبا واجدا ، وهكذا في كسوة النساء ، وقيل الكسوة للنساء درع وخمار ، وقيل المراد بالكسوة ما تجزئ به الصلاة . قوله (أو تحرير رقبة) أي إعتاق مملوك ، والتحرير : الإخراج من الرق ، ويستعمل التحرير في فك الأسير وإعفاء المجهود بعمل عن هله وترك إزال الضرر به ، ومنه قول الفرزدق :

أبني غدانة أني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جعال

أي حررتكم من المجاء الذي كان سيضع منكم ويضرب بأحسابكم .

ولأهل العلم أبحاث في الرقبة التي تجزئ في الكفارة ، وظاهر هذه الآية أنها تجزئ كل رقبة على أي صفة كانت ، وذهب جماعة منهم الشافعي إلى اشتراط الإيمان فيها قياسا على كفارة القتل (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) أي فمن لم يجد شيئا من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام ، وقرئ « متابعات » حكى ذلك عن ابن مسعود وأبي ، فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم . وبه قال أبو حنيفة والثوري وهو أحد قول الشافعي . وقال مالك والثوري في قوله الآخر : يجزئ التغريق (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) أي ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم وحلتكم . ثم أمرهم بحفظ الأيمان وعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث بها ، والإشارة بقوله (كذلك) إلى مصدر الفعل المذكور بعده ، أي مثل ذلك البيان (يبين الله لكم) وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز (لعلكم تشكرون) ما أنتم به عليكم من بيان شرائعه وإيضاح أحكامه .

وقد أخرج ابن جوير عن ابن عباس قال : لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) في القوم الذين كانوا حرموا على أنفسهم النساء واللحم قالوا : يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟ فأنزل الله (لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم) وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير في اللغو قال : هو الرجل يحلف على الحلال . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : هما الرجلان يتبايعان ، يقول أحدهما والله لا أبيعك بكذا ، ويقول الآخر والله لا أشتريه بكذا . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن النخعي قال : اللغو أن يصل كلامه بالحلف : والله لنا كلن والله لتشرين ونحو هذا لا يريد به يمينا ولا يعتمد حلفا ، فهو لغو اليمين ليس عليه كفارة ، وقد تقدم الكلام في البقرة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد (ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان) قال : بما نعدتم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقيم كفارة اليمين مدّا من حنطة ، وفي إسناده الضعيف زرارة بن عبد الكريم الذهلي الكوفي . قال أبو حاتم مجهول ، وذكره ابن حبان في الثقات . وقد تقدم حديث ابن عباس وتضعيفه . وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت أبي بكر قالت : كنا نعطي في كفارة اليمين بالمد الذي نقتات به . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : إني أحلف لا أعطي أقواما ، ثم يبدؤني فأعطيهم ، فأطعم عشرة مساكين كل مسكين صاعا من شعير أو صاعا من تمر أو نصف صاع من قمح . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : في كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله . وأخرج عنه عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن طريق قال : في كفارة اليمين مدّ من حنطة لكل مسكين .

وأخرج هؤلاء إلا ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت مثله . وأخرج هؤلاء أيضا عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : تغديهم وتعشيهم إن شئت خبزاً ولحماً أو خبزاً وزيتاً أو خبزاً وسمناً أو خبزاً وتمرًا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال : من عسركم ويسركم . وأخرج ابن ماجه عنه قال : الرجل يقوت أهله قوتا فيه سعة وكان الرجل يقوت أهله قوتا فيه شدة ، فنزلت (من أوسط ما تطعمون أهليكم) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه نحو ذلك . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (أو كسوتهم) قال : عباءة لكل مسكين ، قال ابن كثير : حديث غريب . وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال : قلت يا رسول الله (أو كسوتهم) ما هو ؟ قال : عباءة عباءة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : عباءة لكل مسكين أو شملة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : الكسوة ثوب أو إزار . وأخرج ابن جرير والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : في كفارة البمين هو بالخيار في هؤلاء الثلاثة الأول فالأول فإن لم يجد من ذلك شيئا فصيام ثلاثة أيام متتابعات . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

قوله (يا أيها الذين آمنوا) خطاب لجميع المؤمنين . وقد تقدم تفسير الميسر في سورة البقرة (والأنصاب) هي الأصنام المنصوبة للعبادة (والأزلام) . قد تقدم تفسيرها في أول هذه السورة ، والرجس يطلق على العذرة والأقذار . وهو خبر للخمر . وخبر المعطوف عليه محذوف . وقوله (من عمل الشيطان) صفة لرجس : أي كائن من عمل الشيطان ، بسبب تحسينه لذلك وتزيينه له وقيل هو الذي كان عمل هذه الأمور بنفسه فاقتدى به بنو آدم والضمير في (فاجتنبوه) راجع إلى الرجس أو إلى المذكور . وقوله (لعلكم تفلحون) علة لما قبله . قال في الكشف : أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد ، منها تصدير الجملة بإنما ، ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « شارب الخمر كعابد الوثن » ، ومنها أنه جعلهما رجسا ، كما قال - فاجتنبوا الرجس من الأوثان - ، ومنها أنه جعلهما من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت ، ومنها أنه أمر بالاجتناب ، ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح . وإذا كان الاجتناب فلاحا كان الارتكاب خيبة وعقبة ،

ومنها أنه ذكر ما ينتج منها من الريال ، وهو وقوع التعادى والتباغض بين أصحاب الخمر والقمر ، وما يؤدى إلى من الصدق عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلوات انتهى .

وفى هذه الآية دليل على تحريم الخمر لما تضمنته الأمر بالاجتناب من اللوجوب وتحريم الصدق . ولما تقرّر فى الشريعة من تحريم قربان الرجس فضلا عن جعله شرابا يشرب . قال أهل العلم من المفسرين وغيرهم : كان تحريم الخمر بتدريج ونوازل كثيرة ، لأنهم كانوا قد ألفوا شربها وحببها الشيطان إلى قلوبهم ، فأول ما نزل فى أمرها - يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومتاع للناس - فترك عند ذلك بعض من المسلمين شربها ولم يتركه آخرون ، ثم نزل قوله تعالى - لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى - فتركها البعض أيضا ، وقالوا لا حاجة لنا فيها بشغلنا عن الصلاة ، وشربها البعض فى غير أوقات الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية (إنما الخمر والميسر) فصارت حراما عليهم ، حتى كان يقول بعضهم ما حرم الله شيئا أشد من الخمر ، وذلك لما فهموه من التشديد فيها تضمنته هذه الآية من الزواجر ، وفيما جاءت به الأحاديث الصحيحة من الوعيد لشاربها ، وأنها من كبائر الذنوب .

وقد أجمع على ذلك المسلمون إجماعا لا شك فيه ولا شبهة ، وأجمعوا أيضا على تحريم بيعها والانتفاع بها ما دامت خمرًا ، وكما دلت هذه الآية على تحريم الخمر دلت أيضا على تحريم الميسر والأنصاب والأزلام . وقد أشارت هذه الآية إلى ما فى الخمر والميسر من المفساد الدنيوية بقوله (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء) ومن المفساد الدينية بقوله (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) . قوله (فهل أنتم متبهون) فيه زجر ببلغ بفيده الاستفهام الدال على التقرير والتوبيخ . ولهذا قال عمر رضى الله عنه لما سمع هذا : انتهينا ، ثم أكد الله سبحانه هذا التحريم بقوله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا) أى مخالفتهما : أى مخالفة الله ورسوله . فإن هذا وإن كان أمرا مطلقا فالجواب به فى هذا الموضع يفيد ما ذكرناه من التأكيد ، وهكذا ما أفاده بقوله (فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) أى إن أعرضتم عن الامتثال ، فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذى فيه رشادكم وصلاحكم ، ولم تصرفوا بالمخالفة إلا أنفسكم ، وفى هذا من الزجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه . قوله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) أى من المطاعم التى يشتهونها ، والطعم وإن كان استعماله فى الأكل أكثر لكنه يجوز استعماله فى الشرب ، ومنه قوله تعالى - ومن لم يطعمه فإنه منى - أباح الله سبحانه لهم فى هذه الآية جميع ما طعموا كائنًا ما كان مقيدا بقوله (إذا ما اتقوا) أى اتقوا ما هو محرم عليهم كالخمر وغيره من الكبائر ، وجميع المعاصي (وآمنوا) بالله (وعملوا الصالحات) من الأعمال التى شرعها الله لهم : أى استمروا على عملها . قوله (ثم اتقوا) عطف على اتقوا الأول : أى اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك مع كونه كان مباحا فيما سبق (وآمنوا) بتحريمه (ثم اتقوا) ما حرم عليهم بعد التحريم المذكور قبله مما كان مباحا من قبل (وأحسنوا) أى عملوا الأعمال الحسنة ، هذا معنى الآية ، وقيل التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة : وقيل إن التكرير باعتبار المراتب الثلاث ، المبدأ ، والوسط ، والمنتهى ، وقيل إن التكرار باعتبار ما يتقيه الإنسان ، فإنه ينبغى له أن يترك المحرمات توقيا من العذاب ، والشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام ، وبعض المباحات حفظا لنفسه من الحسنة ، وقيل إنه مجرد التأكيد ، كما فى قوله تعالى - كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون - ، هذه الوجوه كلها مع قطع النظر عن سبب نزول الآية إما مع النظر إلى سبب نزولها ، وهو أنه لما نزل تحريم الخمر ، قال قوم من الصحابة : كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ؟ فنزلت : فقد قيل : إن المعنى

(اتقوا) الشرك (وآمنوا) بالله ورسوله (ثم اتقوا) الكبائر (وآمنوا) أى ازدادوا إيماناً (ثم اتقوا) الصفات (وأحسنوا) أى تتفلوا . قال ابن جرير الطبرى : الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل . والاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصديق ، والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل . وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : نزل فى الخمر ثلاث آيات . فأول شىء - يسألونك عن الخمر والميسر - الآية ، فقيل حرمت الخمر ، فقيل يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله . فسكت عنهم . ثم نزلت هذه الآية - لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى - . فقيل حرمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله لانشر بها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ، ثم نزلت (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر) الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « حرمت الخمر » وأخرج أحمد عن أبى هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات وذكر نحو حديث ابن عمر . فقال الناس : يا رسول الله ناس قتلوا فى سبيل الله وماتوا على فراشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان . فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا) الآية ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لو حرّم عليهم تركوه كما تركتم » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال : فى نزل تحريم الخمر ، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا ناساً فأتوه . فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر ، وذلك قبل تحريم الخمر فتناخروا ، فقالت الأنصار : الأنصار خير من المهاجرين ، وقالت قريش : قريش خير ، فأهوى رجل بلحى جمل فضرب على أنفى . فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له ، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) الآية . وأخرج عبد بن حميد والتمسنى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : أنزل تحريم الخمر فى قبيلتين من الأنصار شربوا ، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته ، فيقول صنع بى هذا أخى فلان وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن . والله لو كان بى رعوفاً رحيماً ما صنع بى هذا حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم . فأنزل الله هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) إلى قوله (فهل أنتم متبهون) فقال ناس من المتكلفين : هى رجس . وهى فى بطن فلان قتل يوم بدر وفلان قتل يوم أحد ، فأنزل الله هذه الآية (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية . وقد رويت فى سبب النزول روايات كثيرة موافقة لما قد ذكرناه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : الميسر هو القمار كله . وأخرج ابن مردويه عن وهب بن كيسان قال : قلت لجابر متى حرمت الخمر ؟ قال : بعد أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : نزل تحريم الخمر فى سورة المائدة ، بعد غزوة الأحزاب . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كل القمار من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر عن على بن أبى طالب قال : الرد والشطرنج من الميسر . وأخرج عبد بن حميد عن على قال : الشطرنج ميسر الأعاجم . وأخرج ابن أبى حاتم عن القاسم بن محمد أنه سئل عن الرد أهى من الميسر ؟ قال : كل من أهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الملاحى واليهقى فى الشعب عنه أيضاً أنه قيل له : هذه الرد تكرر هونها لما بال الشطرنج ؟ قال : كل ما أهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر . وأخرجوا أيضاً عن ابن الزبير قال : يا أهل مكة بلغنى عن رجال يلعبون بلعبة يقال لها الردشير ، والله يقول فى كتابه (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر)

إلى قوله (فهل أنتم منتهون) وإلى أحلف بالله لا أوتى بأحد يلعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره ، وأعطيت سلبه من أثنى به . وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن أنس قال : الشطرنج من الرد ، بلغنا عن ابن عباس أنه ولي مال يتيم فأحرقها . وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمير قال : سئل ابن عمر عن الشطرنج ؟ فقال هي شر من الرد . وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن عبيد قال : رأى رجل من أهل الشام أنه يغفر لكل مؤمن في كل يوم اثني عشرة مرة إلا أصحاب الشاة ، يعني أصحاب الشطرنج . وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي جعفر أنه سئل عن الشطرنج فقال تلك الهجوسية فلا تلعبوا بها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من لعب بالردشير فقد عصى الله ورسوله » . وأخرج أحمد عن عبد الرحيم الخطمي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « مثل الذي يلعب بالرد ثم يقوم فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقبح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر قال : اللاعب بالرد قمارا كما كل لحم الخنزير ، واللعب بها من غير قمار كالمدهن بوزن الخنزير . وأخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن كثير قال « مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم يلعبون بالرد فقال : قلوب لاهية وأيدي عليلة وألسنة لاغية » . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن قتادة قال : الميسر القمار . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق ليث عن عطاء وطاوس ومجاهد قالوا : كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوذ والكعاب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن ابن سيرين قال : القمار من الميسر . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عنه قال : ما كان من لعب فيه قمار أو قيام أو صباح أو شر فهو من الميسر . وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن شريح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ثلاث من الميسر : الصغير بالحمام ، والقمار ، والضرب بالكعاب » . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها ، والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها الأمور . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانت لهم حصيات إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الأزلام قال : هي كعاب فارس التي يقتمون بها ، وسهام العرب . وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الخمر وشاربها والوعيد الشديد عليه وأن كل مسكر حرام وهي مدونة في كتب الحديث فلا تطول المقام بذكرها فلنأخذ بصدد ذلك ، بل نحن بصدد ما هو متعلق بالتفسير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِحَكْمِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذِيًّا بَلِغِ الْكَعْبَةَ أَوْ كَفَّارَةُ طَعَامٍ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (١٠٠) أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمَ غَلْبِكُمْ صَيْدُ

الْبِرُّ مَا دُمْتُمْ حُرِّمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (١٦) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلِيدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (١٩) .

قوله (ليبلونكم) أى ليختبرنكم ، والإلام جواب قسم محذوف ، كان الصيد أحد معاش العرب فابتلاهم الله بتحريره مع الإحرام وفي الحرم ، كما ابتلى بنى إسرائيل أن لا يعتدوا في السبت ، وكان نزول الآية في عام الحديبية ، أحرم بعضهم وبعضهم لم يحرم ، فكان إذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم .

وقد اختلف العلماء في مخاطبين هذه الآية هل هم المحلون أو المحرمون ؟ فذهب إلى الأول مالك وإلى الثاني ابن عباس . والراجع أن الخطاب للجميع ، ولا وجه لقصره على البعض دون البعض ، و « من » في (من الصيد) للتبويض وهو صيد البر ، قاله ابن جرير الطبري وغيره ، وقيل إن « من » بيانية : أى شئء حقير من الصيد ، وتنكير شئء للتحقير . قوله (تناله أيديكم ورماحكم) قرأ ابن وثاب (يناله) بالياء التحتية ، هذه الجملة تقتضى تعميم الصيد ، وأنه لا فرق بين ما يؤخذ باليد وهو ما لا يطبق الفرار كالصغار والبيض ، وبين ما تناله الرماح : وهو ما يطبق الفرار وخص الأيدي بالذكر : لأنها أكثر ما يتصرف به الصائد في أخذ الصيد ، وخص الرماح بالذكر لأنها أعظم الآلات للصيد عند العرب . قوله (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى ليميز عند الله من يخافه منكم بسبب عقابه الأخروي فإنه غائب عنكم غير حاضر (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أى بعد هذا البيان الذى امتحنكم الله به . لأن الاعتداء بعد العلم بالتحريم معاندة لله سبحانه وتجرته عليه . قوله (لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) نهاهم عن قتل الصيد في حال الإحرام ، وفي معناه - غير محل الصيد وأنتم حرم - وهذا النهى شامل لكل أحد من ذكور المسلمين وإناسهم ، لأنه يقال رجل حرام وامرأة حرام والجمع حرم ، وأحرم الرجل : دخل في الحرم . قوله (ومن قتله منكم متعمدا) المتعمد : هو القاصد للشئء مع العلم بالإحرام ، والمخطئ : هو الذى يقصد شئئا فيصيب صيدا ، والناسى : هو الذى يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه . وقد استدلل ابن عباس وأحمد في رواية وداود عنه باقتصاره سبحانه على العامد بأنه لا كفارة على غيره ، بل لا تجب إلا عليه وحده . وبه قال سعيد بن جبير وطاوس وأبو ثور . وقيل إنها تلزم الكفارة المخطئ والناسى كما تلزم المتعمد ، وجعلوا قيد التعمد خارجا مخرج الغالب ، روى عن عمر والحسن والنخعي والزهري ، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم ، وروى عن ابن عباس . وقيل إنه يجب التكفير على العامد الناسى لإحرامه ، وبه قال مجاهد ، قال : فإن كان ذاكرا لإحرامه فقد حل ولا حج له لا ارتكابه محذور لإحرامه ، فبطل عليه كما لو تكلم في الصلاة أو أحدث فيها . قوله (فجزاء مثل ما قتل من النعم) أى فعلية جزاء مماثل لما قتله ، ومن النعم بيان للجزاء المماثل . قيل المراد المماثلة في القيمة ، وقيل في الحلقة . وقد ذهب إلى الأول أبو حنيفة ، وذهب إلى الثاني مالك والشافعي وأحمد والجمهور ، وهو الحق لأن البيان للمماثل بالنعم يفيد ذلك ، وكذلك يفيد هدنيا بالغ الكعبة . وروى عن أبي حنيفة أنه يجوز إخراج القيمة ولو وجد المثل ، وأن الحرم مخير . وقرئ (فجزاؤه مثل ما قتل) وقرئ (فجزاء مثل) على إضالة جزاء إلى مثل ،

وقرى بنصيبهما على تقدير فليخرج جزاء مثل ما قتل ، وقرأ الحسن (النعم) بسكون العين تخفيفا (يحكم به) أى بالجزاء أو بمثل ما قتل (ذوا عدل منكم) أى رجلا ن معروفا بالعدالة بين المسلمين ، فإذا حكما بشيء لزم . وإن اختلفا رجع إلى غيرهما ، ولا يجوز أن يكون الجاني أحد الحكمين ، وقيل يجوز . وبالأول قال أبو حنيفة . وبالثاني قال الشافعي في أحد قوله : وظاهر الآية يقتضي حكيم غير الجاني . قوله (هديا بالغ الكعبة) نصب هديا على الحال أو البدل من مثل ، و (بالغ الكعبة) صفة لهديا ، لأن الإضافة غير حقيقية . والمعنى أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدى من الإرسال إلى مكة والنحر هنالك ، والإشعار والتقليد . ولم يرد الكعبة بعينها فإن الهدى لا يبلغها ، وإنما أراد الحرم ، ولا خلاف في هذا . قوله (أو كفارة) معطوف على محل من النعم : وهو الرفع لأنه خير مبتدأ محذوف ، و (طعام مساكين) عطف بيان لكفارة أو بدل منه أو خير مبتدأ محذوف (أو عدل ذلك) معطوف على طعام ، وقيل هو معطوف على جزاء ، وفيه ضعف ، فالجاني مخير بين هذه الأنواع المذكورة . وعدل الشيء ما عادله من غير جنسه ، و (صياما) منصوب على التمييز ، وقد قرّر العلماء عدل كل صيد من الإطعام والصيام ، وقد ذهب إلى أن الجاني يخير بين الأنواع المذكورة جمهور العلماء . وروى عن ابن عباس أنه لا يجزى المحرم الإطعام والصوم إلا إذا لم يجد الهدى . والعدل بفتح العين وكسرها لغتان وهما الميل قاله الكسائي . وقال الفراء : عدل الشيء بكسر العين مثله من جنسه . وبفتح العين مثله من غير جنسه . وبمثل قول الكسائي قال البصريون . قوله (ليلوق وبال أمره) عليه لإيجاب الجزاء : أى أوجبنا ذلك عليه ليلوق وبال أمره . والذوق مستعار لإدراك المشقة ، ومثله - ذق إنك أنت العزيز الكريم - والوبال : سوء العاقبة . والمرعى الويل : الذى يتأذى به بعد أكله ، وطعام ويل : إذا كان ثقيلا . قوله (عفا الله عما سلف) يعنى فى جاهلييتكم من قتلكم للصيد ، وقيل عما سلف قبل نزول الكفارة (ومن عاد) إلى ما نهيت عنه من قتل الصيد بعد هذا البيان (فينتقم الله منه) خير مبتدأ محذوف ، أى فهو ينتقم الله منه . قيل المعنى : إن الله ينتقم منه فى الآخرة فيعذبه بذنبه : وقيل ينتقم منه بالكفارة . قال شريح وسعيد بن جبير : يحكم عليه فى أول مرة ، فإذا عاد لم يحكم عليه بل يقال له : اذهب ينتقم الله منك : أى ذنبك أعظم من أن يكفر . قوله (أحل لكم صيد البحر) الخطاب لكل مسلم أو للمحرمين خاصة . وصيد البحر ما يصاد فيه : والمراد بالبحر هنا كل ماء يوجد فيه صيد بحرى وإن كان نهرا أو غديرا . قوله (وطعامه متاعا لكم وللسيارة) الطعام لكل ما يطعم ، وقد تقدم . وقد اختلف فى المراد به هنا فقيل : هو ما قذف به البحر وطفا عليه ، وبه قال كثير من الصحابة والتابعين : وقيل طعامه مالمح منه وبني . وبه قال جماعة . وروى عن ابن عباس : وقيل طعامه ملحه الذى يتعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات وغيره . وبه قال قوم : وقيل المراد به ما يطعم من الصيد : أى ما يحل أكله وهو السمك فقط ، وبه قالت الحنفية . والمعنى : أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد فى البحر ، وأحل لكم المأكول منه وهو السمك ، فيكون التخصيص بعد التعميم ، وهو تكلف لا وجه له . ونصب «متاعا» على أنه مصدر : أى متعم به متاعا ، وقيل مفعول له مختص بالطعام : أى أحل لكم طعام البحر متاعا : وهو تكلف جاء به من قال بالقول الأخير ، بل إذا كان مفعولا له كان من الجميع : أى أحل لكم مصيد البحر وطعامه تمتعا لكم : أى لمن كان مقبلا منكم يأكله طريا (وللسيارة) أى المسافرين منكم يتزودونه ويعاونونه قديدا . وقيل السيارة : هم الذين يركبونه خاصة . قوله (وحرم عليكم صيد البر ما دمم حرما) أى حرم عليكم ما يصاد فى البر ما دمم محرمين ، وظاهره تحريم صيده على المحرم ولو كان الصائد حلالا ، وإليه ذهب الجمهور إن كان الحلال صاده للمحرم لا إذا لم يصده لأجله ، وهو القول الراجح .

وبه يجمع بين الأحاديث ؛ وقيل إنه يخل له مطلقا . وإليه ذهب جماعة : وقيل يحرم عليه مطلقا ، وإليه ذهب آخرون . وقد بسطنا هذا في شرحنا للمتن . قوله (واتقوا الله الذي إليه تحشرون) أى اتقوا الله فيما نهاكم عنه الذي إليه تحشرون لا إلى غيره ، وفيه تشديد ومبالغة في التحذير . وقرئ (وحرّم عليكم صيد البر) بالبناء للفاعل وقرئ (ما دمتم) بكسر الدال . قوله (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) جعل هنا بمعنى خلق ، وسميت الكعبة كعبة لأنها مربعة والتكعيب التبريع وأكثر بيوت العرب مدورة لا مربعة ، وقيل سميت كعبة لتوثها وبروزها ، وكل بارز كعب مستديرا كان أو غير مستدير ، ومنه كعب القدم ، وكعوب القنا ، وكعب ثدى المرأة . و (البيت الحرام) عطف بيان وقيل مفعول ثان ولا وجه له ، وسمى بيتا لأن له مقوقا وجدرا وهى حقيقة البيت وإن لم يكن به ساكن ، وسمى حراما لتحريم الله سبحانه إياه . وقوله (قياما للناس) كذا قرأ الجمهور وقرأ ابن عامر (قيا) وهو منصوب على أنه المفعول الثاني إن كان جعل هو المتعدي إلى مفعولين ، وإن كان بمعنى خلق كما تقدم فهو منتصب على الحال ، ومعنى كونه قياما : أنه مدار لمعاشهم ودينهم : أى يقومون فيه بما يصلح دينهم ودنياهم : يأمن فيه خائفهم ، وينصر فيه ضعيفهم ، ويربح فيه تجارهم ، ويتعبد فيه متعبدهم . قوله (والشهر الحرام) عطف على الكعبة ، وهو ذو الحجة ، وخصه من بين الأشهر الحرم لكونه زمان تأدية الحج ، وقيل هو اسم جنس . والمراد به الأشهر الحرم ذوالقعدة . وذو الحجة ، وعمرم ، ورجب ، فلهم كانوا لا يطلبون فيها دما . ولا يقاتلون بها عدوا ، ولا يهتكون فيها حرمة ، فكانت من هذه الحشية قياما للناس (والهدى والقلائد) أى وجعل الله الهدى والقلائد قياما للناس . والمراد بالقلائد : ذوات القلائد من الهدى ، ولا مانع من أن يراد بالقلائد أنفسها . والإشارة بذلك إلى الجعل : أى ذلك الجعل (لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) أى لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل أمر السموات والأرض ويعلم مصالحكم الدينية والدنيوية فإنها من جملة ما فيهما . فكل ما شرعه لكم فهو جلب لمصالحكم ، ودفع لما يضركم (وأن الله بكل شىء عليم) هذا تعميم بعد التخصيص . ثم أمرهم بأن يعلموا بأن الله لمن انتهك محارمه ولم ينب عن ذلك شديد العقاب ، وأنه لمن تاب وأتاب غفور رحيم . ثم أخبرهم أن ما على رسوله إلا البلاغ لهم ، فإن لم يمثلوا ويطيعوا فما ضرّوا إلا أنفسهم وما جنوا إلا عليها ، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فقد فعل ما يجب عليه ، وقام بما أمره الله به .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في سننه عن ابن عباس في قوله (ومن قتله منكم متعمدا) قال : إن قتله متعمدا أو ناسيا أو خطأ حكم عليه ، فإن عاد متعمدا عجلت له العقوبة إلا أن يعفو الله عنه ، وفي قوله (فجزاء مثل ما قتل من النعم) قال : إذا قتل المحرم شيئا من الصيد حكم عليه فيه ، فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل أبلًا ونحوه فعليه بقرة ، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينا ، فإن لم يجد صام عشرين يوما ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة ، فإن لم يجد أطعم ستين مسكينا ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوما ، والطعام مدّ مدّ يشبعهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن الحكم أن عمر كتب أن يحكم عليه في الخطأ والعمد . وأخرجنا نحوه عن عطاء . وقد روى نحوه هذا عن جماعات من السلف من غير فرق بين العمد والخطأ والناسي ، وروى عن آخرين اختصاص ذلك بالعمد .

والسلف في تقدير الجزاء المماثل وتقدير القيمة أقوال مبسوطة في مواطنها . وأخرج أبو الشيخ عن أنى هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في بيضة النعام صيام يوم أو إطعام مسكين . . وأخرج ابن أبي شيبة عن

عبد الله بن ذكوان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله . وأخرج أيضا عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « في يفس النعام ثمة » . وقد استثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حيوانات الحرم الخمس الفواشق كما ورد ذلك في الأحاديث فإنه يجوز للمحرم أن يقتلها ولا شيء عليه . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم) ما لفظه ميتا فهو طعامه » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفا مثله . وأخرج أبو الشيخ عن أبي بكر الصديق نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة أن أبا بكر الصديق قال في قوله (أحل لكم صيد البحر وطعامه) قال : صيد البحر ما تصطاده أيدينا ، وطعامه ماله البحر ، وفي لفظ « طعامه كل ما فيه » . وفي لفظ « طعامه ميتته » . ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث العنبرة التي ألقاها البحر فأكل الصحابة منها وقرروهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ، وحديث هو « الطهور ماؤه والحل ميتته » . وحديث « أحل لكم ميتتان ودمان » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) قال : قياما لدينهم ومعالم حجهم . وأخرج ابن جرير عنه قال : قيامها أن يأمن من توجه إليها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : جعل الله الكعبة البيت الحرام والشهر الحرام قياما للناس يأمنون به في الجاهلية الأولى ، لا يخاف بعضهم من بعض حين يلقونهم عند البيت أو في الحرم أو في الشهر الحرام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد) قال : حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية ، فكان الرجل لو جرّ كل جريفة ثم لحا إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب ، وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل لو لقي الهدى مقلدا وهو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فحمته ومنعته من الناس ، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الأذخر أو من السم . فمنعه من الناس حتى يأتي أهله حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم (قياما للناس) قال أمنا .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَلُولِي أَلْبَابٍ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤).

قيل المراد بالخبيث والطيب : الحرام والحلال ، وقيل المؤمن والكافر ، وقيل العاصي والطيع ، وقيل الرديء
والجيد . والأولى أن الاعتبار بعموم اللفظ فيشمل هذه المذكورات وغيرها مما يتصف بوصف الخبيث والطيب من
الأشخاص والأعمال والأقوال ، فالخبيث لا يساوى الطيب بحال من الأحوال . قوله (ولو أعجبك كثرة الخبيث)
قيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل لكل مخاطب يصلح لخطابه بهذا . والمراد نفي الاستواء في كل
الأحوال ، ولو في حال كون الخبيث معجبا للرأي للكثرة التي فيه . فإن هذه الكثرة مع الخبيث في حكم العدم ،
لأن خبيث الشيء يبطل فائدته ، ويمحق بركته ، ويذهب بمنفعته . والواو إما للحال أو للعطف على مقدر : أى
لا يستوى الخبيث والطيب لو لم تعجبك كثرة الخبيث ، ولو أعجبك كثرة الخبيث كقولك أحسن إلى فلان وإن
أساء إليك : أى أحسن إليه إن لم يسيء إليك وإن أساء إليك ، وجواب لو محذوف : أى ولو أعجبك كثرة
الخبيث فلا يستويان . قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أى لا تسألوا عن أشياء
لا حاجة لكم بالسؤال عنها ولا هي مما يعينكم في أمر دينكم ، فقوله (إن تبد لكم تسؤكم) في محل جر صفة لأشياء :
أى لا تسألوا عن أشياء متصفة بهذه الصفة من كونها إذا بدت لكم : أى ظهرت وكلفتم بها ساءتكم ، نهاهم الله عن
كثرة مساءلتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فإن السؤال عما لا يعنى ولا تدعوا إليه حاجة قد يكون سببا
لإيجابه على السائل وعلى غيره . قوله (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) هذه الجملة من جملة صفة أشياء .
والمعنى : لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن ، وذلك مع وجود رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم بين أظهركم ونزول الوحي عليه (تبد لكم) أى تظهر لكم بما يجيب عليكم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ،
أو ينزل به الوحي فيكون ذلك سببا للتكاليف الشاقة وإيجاب ما لم يكن واجبا وتحريم ما لم يكن محرما ، بخلاف
السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن
السؤال .

وقد ظن بعض أهل التفسير أن الشرطية الثانية فيها إباحة السؤال مع وجود رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم ونزول الوحي عليه ، فقال : إن الشرطية الأولى أفادت عدم جواز السؤال ، والثانية أفادت جوازه ، فقال
إن المعنى : وإن تسألوا عن غيرها مما مسّت إليه الحاجة تبد لكم بحجاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها ،
وجعل الضمير في (عنها) راجعا إلى أشياء غير الأشياء المذكورة . وجعل ذلك كقوله - ولقد خلقنا الإنسان من
سلالة من طين - وهو آدم ، ثم قال - ثم جعلناه نطفة - أى ابن آدم . قوله (عفا الله عنها) أى عما سلف من مسألتكم
فلا تعودوا إلى ذلك . وقيل المعنى : إن تلك الأشياء التي سألتكم عنها هي مما عفا عنه . ولم يوجب عليكم ، فكيف
تتسببون بالسؤال لإيجاب ما هو عفو من الله غير لازم ؟ وضمير (عنها) عائد إلى المسألة الأولى ، وإلى أشياء على
الثاني على أن تكون جملة عفا الله عنها صفة ثالثة لأشياء . والأول أولى ، لأن الثاني يستلزم أن يكون ذلك
المسئول عنه قد شرعه الله ثم عفا عنه . ويمكن أن يقال إن العفو بمعنى الترك : أى تركها الله ولم يذكرها بشيء فلا
تبحثوا عنها ، وهذا معنى صحيح لا يستلزم ذلك اللازم الباطل ، ثم جاء سبحانه بصيغة المبالغة في كونه غفورا حلما
ليدل بذلك على أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لكثرة مغفرته وسعة حلمه . قوله (لقد سألها قوم من قبلكم ثم

أصبحوا بها كافرين) الضمير يرجع إلى المسألة المفهومة من (لاتسألوا) لكن ليست هذه المسألة بعينها ، بل مثلها في كونها مما لا حاجة إليه ولا توجه الضرورة الدينية ثم لم يعملوا بها ، بل أصبحوا بها كافرين : أى سائرهم لها تاركين للعمل بها ، وذلك كسؤال قوم صالح الناقة ، وأصحاب عيسى المائدة ، ولا بد من تقييد النهي في هذه الآية بما لا تدعو إليه حاجة كما قدمنا ، لأن الأمر الذى تدعو الحاجة إليه في أمور الدين والدنيا قد أذن الله بالسؤال عنه فقال : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وقال صلى الله عليه وآله وسلم : قاتلهم الله ألا سألوا وإنما شفاء العي السؤال . قوله (ما جعل الله من بحيرة) هذا كلام مبتدأ يتضمن الرد على أهل الجاهلية فيما ابتدعوه . وجعل ههنا بمعنى سمى كما قال - إنا جعلناه قرآنا عربيا - . والبحيرة : فعيلة بمعنى مفعولة كالنطيحة والذبيحة . وهى مأخوذة من البحر ، وهو شق الأذن . قال ابن سيده : البحيرة هى التى خلعت بلا راع : قيل هى التى يجعل درها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس ، وجعل شق أذننا علامة لذلك . وقال الشافعى : كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثا بحرت أذننا فحرمت : وقيل إن الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، فإن كان الخامس ذكرا بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء ، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذننا وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها ، وقيل إذا نتجت الناقة خمسة أبطن من غير تقييد بالإناث شقوا أذننا وحرّموا ركوبها ودرها . والسائبة : الناقة تسب . أو البعير يسب نذر على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة ، فلا يحبس عن رعى ولا ماء ، ولا يركبه أحد قاله أبو عبيد . قال الشاعر :

وسائبة لله تنمى تشكرا - إن الله عافا عامرا ومجاشعا

وقيل هى التى تسب لله فلا قيد عليها ولا راعى لها ، ومنه قول الشاعر :

عقرتم ناقة كانت لربى مسيبة فقوموا للعقاب

وقيل هى التى تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر ، فعند ذلك لا يركب ظهرها ، ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ، وقيل كانوا يسيرون العبد فيذهب حيث يشاء لا يد عليه لأحد . والوصيلة : قيل هى الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى ، وقيل هى الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لأهلهم . وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لأهلهم ، وقيل كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا . فإن كان السابع ذكرا ذبح فأكل منه الرجال والنساء ، وإن كانت أنثى تركت في الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها ، وكان لحمها حراما على النساء ، إلا أن يموت فيأكلها الرجال والنساء . والحام : الفحل الحامى ظهره عن أن يركب ، وكانوا إذا ركب ولد الفحل قالوا حمى ظهره فلا يركب ، قال الشاعر :

حماها أبو قابوس في عز ملكه كما قد حمى أولاد أولاده الفحل

وقيل هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة ، قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء ، ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذبا ، لا لشرع شرعه الله لهم ولا لعقل دلم عليه ، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها ، يفعلون هذه الأفاعيل التى هى محض الرقاعة ونفس الحق (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) وهذه أفعال آبائهم وسنتهم التى سنوها لهم ، وصدق الله سبحانه حيث يقول (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) أى ولو كانوا جهلة ضالين ، والواو للحال دخلت عليها همزة الاستفهام ، وقيل للعطف على جملة مقدرة : أى أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في البقرة . وقد صارت هذه المقالة التى قالتها الجاهلية نصب أعين

المقلدة وعصاهم التي يتوكلون عليها إن دعاهم داعي الحق وصرخ لهم صارخ الكتاب والسنة فاحتجاجهم بمن قلده من هو مثلهم في التعبد بشرع الله مع مخالفة قوله لكتاب الله أو لسنة رسوله هو كقول هؤلاء ، وليس الفرق إلا في مجرد العبارة اللفظية ، لا في المعنى الذي عليه تدور الإفادة والاستفادة ، اللهم غفرا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية : قال الخبيث هم المشركون والطيب هم المؤمنون . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط . فقال رجل : من أنى ؟ فقال فلان ، فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء) . وأخرج البخاري وغيره نحوه من حديث ابن عباس . وقد بين هذا السائل في روايات أخر أنه عبد الله بن حذافة وأنه قال : من أنى ؟ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أبوك حذافة » وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب فقال « يا أيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحج » ، فقام رجل ، فقال : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت عنه ، فأعادها ثلاث مرات . فقال : لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما قمت بها ، ذروني ما ترككم فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » وذلك أن هذه الآية : أعني (لا تسألوا عن أشياء) نزلت في ذلك . وقد أخرج عنه نحوه ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه . وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة الباهلي نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبي مسعود نحوه أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وابن مردويه عن علي بن نحوه ، وكل هؤلاء صرحوا في أحاديثهم أن الآية نزلت في ذلك . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : كانوا يسألون عن الشيء وهو لهم حلال ، فإزالوا يسألون حتى يحرم عليهم ، وإذا حرم عليهم وقعوا فيه . وأخرج ابن المنذر عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسألته » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله حدّ حُدودا فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنهكوها ، وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها » . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (لا تسألوا عن أشياء) قال : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحملها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لأنهم لا يحمل عايتها شيء ، والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تنثى بعد بئى . وكانوا يسيبونها للطواغيت إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحامى فحل الإبل يضرب الضراب المعبود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه بمن الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : البحيرة الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكرا ونحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى جدعوا آذانها فقالوا هذه بحيرة ، وأما السائبة فكانوا يسيبون من أنعامهم لأنهم لا يركبون لها ظهرا ، ولا يحملون لها لبنا ، ولا يجزون لها وبرا ، ولا يحملون عليها شيئا ، وأما الوصلة فالشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع ، فإن كان ذكرا أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى استحيوها ، وإن كان ذكرا أو أنثى في بطن استحيوها وقالوا وصلته أخته فحرمتها علينا . وأما الحامى فالحمل

من الإبل إذا ولد لولده قالوا حتى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا ، ولا يجزون له وبرا ، ولا يمنعونه من حتى ولا من حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه . وأخرج نحوه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق العوفي .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٠)

أى الزموا أنفسكم أو احفظوها كما تقول عليك زيدا : أى الزمه . قرئ (لا يضركم) بالجزم على أنه جواب الأمر الذى يدل عليه اسم الفعل . وقرأ نافع وغيره بالرفع على أنه مستأنف ، كقول الشاعر :
« فقال رائدكم أرسوا نزاولها . » أو على أن ضم الراء للاتباع ، وقرئ (لا يضركم) بكسر الضاد ، وقرئ « لا يضركم » والمعنى : لا يضركم ضلال من ضل من الناس إذا اهتديتم للحق أنتم فى أنفسكم ، وليس فى الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن من تركه مع كونه من أعظم القروض الدينية فليس بمهتد . وقد قال الله سبحانه (إذا اهتديتم) وقد دلت الآيات القرآنية ، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبا مضيقا متحما ، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو لا يظن التأثير بخال من الأحوال ، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما يضره ضررا يسوغ له معه الترك (إلى الله مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والدارقطنى والضياء فى المختارة وغيرهم ، عن قيس بن أبى حازم قال : قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها على غير مواضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » وفى لفظ لابن جرير عنه « والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله منه بعقاب » . وأخرج الترمذى وصححه ، وابن ماجه وابن جرير والبغوى فى معجمه . وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى أمية الشعثانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « بل اتسمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام » ، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم » وفى لفظ « قبل يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟ » قال : بل أجر خمسين منكم » . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن عامر الأشعري أنه كان فيهم أعمى ، فاحتبس على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أتاه فقال : ما حبسك ؟ قال : يا رسول الله قرأت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم

لا يضركم من ضل إذا اهتديتم قال : فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أين ذهبت ؟ إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم ، وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ عن الحسن : أن ابن مسعود سأله رجل عن قوله (عليكم أنفسكم) فقال : يا أيها الناس إنه ليس بزمانها إنما اليوم مقبولة . ولكنه قد أوشك أن يأتي زمان تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال : فلا يقبل منكم . فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عنه في الآية قال « مروا بالمعروف وانها عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيوف . فإذا كان كذلك فعليكم أنفسكم » وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر أنه قال في هذه الآية : إنها لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن رجل قال : كنت في خلافة عمر بن الخطاب بالمدينة في حلقة فيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا فيهم شيخ حبست أنه قال أبي بن كعب ، فقرأ (عليكم أنفسكم) فقال : إنما تأويلها في آخر الزمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن أبي مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة فإذا قوم جلوس فقرأ أحدهم (عليكم أنفسكم) فقال أكثرهم : لم يجي تأويل هذه الآية اليوم . وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال : كنت في حلقة فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلى لأصغر القوم ، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقلت : أليس الله يقول (عليكم أنفسكم) ؟ فأقبلوا على بلسان واحد فقالوا : نزع آية من القرآن لا نعرفها ولا ندرى ما تأويلها ؟ حتى تمت أني لم أكن تكلمت ، ثم أقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن ، وإنك نزع آية لا ندرى ما هي ؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمان إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت . وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنحو حديث أبي ثعلبة الخشني المتقدم ، وفي آخره « كأجر خمسين رجلا منكم » وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : ذكرت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لم يجي تأويلها ، لا يجي تأويلها حتى يهبط عيسى ابن مريم عليه السلام » والروايات في هذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية . ففيه ما يرشد إلى ما قد مناه من الجمع بين هذه الآية وبين الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَخْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ بِمَقَامِهِمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْتُنَا أَخَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى

وَجِهَهَا أَوْ يَتَغَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

قال مكى : هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما فى القرآن إعرابا ومعنى وحكما . قال ابن عطية :
هذا كلام من لم يقع له التاج فى تفسيرها ، وذلك بين من كتابه رحمه الله : يعنى من كتاب مكى . قال القرطبي :
مذكوره مكى ذكره أبو جعفر النحاس قبله أيضا . قال السعد فى حاشيته على الكشاف : واتفقوا على أنها أصعب
ما فى القرآن إعرابا ونظما وحكما . قوله (شهادة بينكم) أضاف الشهادة إلى البين توسعا لأنها جارية بينهم ، وقيل أصله
شهادته ما بينكم فحذفت « ما » وأضيفت إلى الظرف كقوله تعالى - بل مكر الليل والنهار - ومنه قول الشاعر :

تصافح من لا قيت لى ذا عداوة ضفايا وعنى بين عينيك منزوى

أراد ما بين عينيك ، ومثله قول الآخر : ويوما شهدناه سليبا وعامرا أى شهدنا فيه ، ومنه
قوله تعالى - هذا فراق بينى وبينك - قبل والشهادة هنا بمعنى الوصية ، وقيل بمعنى الحضور للوصية . وقال ابن
جزير الطبري : هي هنا بمعنى اليمين ، فيكون المعنى : يمين ما بينكم أن يحلف اثنان . واستدل على ما قاله بأنه لا يعلم
لله حكما يحبس فيه على الشاهد يمين . واختار هذا القول القفال ، وضعف ذلك ابن عطية واختار أن الشهادة هنا هي
الشهادة التى تؤدى من الشهود . قوله (إذا حضر أحدكم الموت) ظرف للشهادة ، والمراد إذا حضرت علاماته .
لأن من مات لا يمكنه الإشهاد ، وتقديم المفعول للاهتمام وإكمال تمكن الفاعل عند النفس . وقوله (حين الوصية)
ظرف لحضر أو للموت ، أو بدل من الظرف الأول . وقوله (اثنان) خبر شهادة على تقدير محذوف : أى شهادة
اثنين أو فاعل للشهادة على أن خبرها محذوف : أى فيما فرض عليكم شهادة بينكم اثنان على تقدير أن يشهد اثنان .
ذكر الوجهين أبو على الفارسي . قوله (ذوا عدل منكم) صفة للاثنان وكذا منكم : أى كائنان منكم : أى من
أقاربكم (أو آخران) معطوف على (اثنان) . و (من غيركم) صفة له : أى كائنان من الأجانب ، وقيل إن الضمير
فى (منكم) للمسلمين . وفى (غيركم) للكفار وهو الأنسب لسياق الآية ، وبه قال أبو موسى الأشعري وعبد الله
ابن عباس وغيرهما ، فيكون فى الآية دليل على جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين فى السفر فى خصوص
الوصايا كما يفيد النظم القرآنى . ويشهد له السبب للنزول وسياق : فإذا لم يكن مع الموصى من يشهد على وصيته
من المسلمين فليشهد رجلان من أهل الكفر ، فإذا قدما وأدبيا الشهادة على وصيته حلقا بعد الصلاة أنهما ما كذبا
ولا بدلا ، وأن ما شهدا به حق . فيحكم حينئذ بشهادتهما (فإن عثر) بعد ذلك (على أنهما) كذبا أو خانا خاف
رجلان من أولياء الموصى وغرم الشاهدان الكافران ما ظهر عليهما من خيانة أو نحوها ، هذا معنى الآية عند من
تقدم ذكره . وبه قال سعيد بن المسيب ويحيى بن يعمر وسعيد بن جبير وأبو مجلز والنخعي وشريح وغيطة
السلماني وابن سيرين ومجاهد وقتادة والسدي والثوري وأبو عبيد وأحمد بن حنبل . وزدب إلى الأول : أعنى
تفسير ضمير (منكم) بالقرابة أو العشيرة ، وتفسير (من غيركم) بالأجانب الزهري والحسن وعكرمة . وذهب
مالك والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم من الفقهاء أن الآية منسوخة ، واحتجوا بقوله - ممن ترضون من الشهداء -
وقوله - وأشهدوا ذوى عدل منكم - والكفار ليسوا بمرضيين ولا عدول ، وخالفهم الجمهور فقالوا : الآية محكمة .
وهو الحق لعدم وجود دليل صحيح يدل على النسخ . وأما قوله تعالى - ممن ترضون من الشهداء - وقوله - وأشهدوا
ذوى عدل منكم - فهما عامان فى الأشخاص والأزمان والأحوال ، وهذه الآية خاصة بحالة الضرب فى الأرض

وبالوصية وبحالة عدم الشهود المسلمين . ولا تعارض بين عام وخاص . قوله (إن أنتم) هو فاعل فعل محذوف يفسره ضربتم ، أو مبتدأ وما بعده خبره . والأول مذهب الجمهور من النحاة ، والثاني مذهب الأخفش والكوفيين . والضرب في الأرض هو السفر . وقوله (فأصابكم مصيبة الموت) معطوف على ما قبله وجوابه محذوف : أي إن ضربتم في الأرض فنزل بكم الموت وأردتم الوصية ولم تجلبوا شهودا عليها مسلمين ، ثم ذهبوا إلى ورثتكم بوصيتكم وبما تركتم فارتابوا في أمرهما وادعوا عليهما بخيانة ، فالحكم أن تحبسوهما ، ويجوز أن يكون استثنافا لجواب سؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فكيف نصلح إن ارتبنا في الشهادة ؟ فقال : تحبسونهما من بعد الصلاة إن ارتبتم في شهادتهما . وخص بعد الصلاة : أي صلاة العصر ، قاله الأكثر لكونه الوقت الذي يغضب الله على من حلف فيه فاجرا كما في الحديث الصحيح ، وقيل لكونه وقت اجتماع الناس وقعود الحكام للحكومة ، وقيل صلاة الظهر ، وقيل أي صلاة كانت . قال أبو علي الفارسي (تحبسونهما) صفة لآخران ، واعترض بين الصفة والموصوف بقوله (إن أنتم ضربتم في الأرض) ، والمراد بالحبس : توقيف الشاهدين في ذلك الوقت لتحليفهما ، وفيه دليل على جواز الحبس بالمعنى العام . وعلى جواز التغليب على الخالف بالزمان والمكان ونحوهما . قوله (فيقسمان بالله) معطوف على (تحبسونهما) أي يقسم بالله الشاهدان على الوصية أو الوصيان .

وقد استدل بذلك ابن أبي ليلى على تحليف الشاهدين مطلقا إذا حصلت الرية في شهادتهما ، وفيه نظر لأن تحليف الشاهدين هنا إنما هو لوقوع الدعوى عليهما بالخيانة أو نحوها . قوله (إن ارتبتم) جواب هذا الشرط محذوف دل عليه ما تقدم كما سبق . قوله (لا نشترى به ثمنا) جواب القسم ، والضمير في (به) راجع إلى الله تعالى . والمعنى : لا نبيع حظنا من الله تعالى بهذا العرض الزر ، فنحلف به كاذبين لأجل المال الذي ادعيتموه علينا ، وقيل يعود إلى القسم : أي لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضا من أعراض الدنيا ، وقيل يعود إلى الشهادة ، وإنما ذكر الضمير لأنها بمعنى القول : أي لا نستبدل بشهادتنا ثمنا . قال الكوفيون : المعنى ذا ثمن ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وهذا مبنى على أن العروض لا تسمى ثمنا ، وعند الأكثر أنها تسمى ثمنا كما تسمى مبيعا . قوله (ولو كان ذا قرني) أي ولو كان المقسم له أو المشهود له قريبا فلما نثر الحق والصدق ، ولا نثر العرض الدنيوي ولا القرابة ، وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه : أي ولو كان ذا قرني لا نشترى به ثمنا . قوله (ولا نكنم شهادة الله) معطوف على (لا نشترى) داخل معه في حكم القسم ، وأضاف الشهادة إلى الله سبحانه لكونه الأمر بإقامتها والناهي عن كتمانها . قوله (فإن عثر على أنهما استحقا إثما) عثر على كذا : اطلع عليه ، يقال عثرت منه على خيانة : أي اطلعت وأعثرت غيري عليه ، ومنه قوله تعالى - وكذلك أعثرنا عليهم - وأصل العثور الوقوع والسقوط على الشيء ، ومنه قول الأعشى :

بذات لوث عصرناه إذ عثرت فالتبس أولى لها من أن أقول لما

والمعنى : أنه إذا اطلع بعد التحليف على أن الشاهدين أو الوصيين استحقا إثما : أي استوجبا إثما إما بكذب في الشهادة أو اليمين أو بظهور خيانة . قال أبو علي الفارسي : الإثم هنا اسم الشيء المأخوذ ، لأن أخذه ياتم بأخذه ، فسمى إثما كما سمي ما يؤخذ بغير حق مظلمة . وقال سيبويه : المظلمة اسم ما أخذ منك فكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر . قوله (فأخبران يقومان مقامهما) أي فشاهدان آخران أو فحالفان آخران يقومان مقام الذين عثر على أنهما استحقا إثما فيشهدان أو يخلفان على ما هو الحق ، وليس المراد أنهما يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي شهدا المستحقان للإثم . قوله (من الذين استحق عليهم الأوليان) مستحق مبنى للمفعول ، في قرابة

الجمهور : وقرا على وأبى وابن عباس وحفص على البناء للفاعل ، و (الأوليان) على القراءة الأولى مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى هما الأوليان ، كأنه قيل من هما ؟ فقيل هما الأوليان ، وقيل هو بدل من الضمير في يقومان أو من آخران . وقرا يحيى بن وثاب والأعمش وحزرة الأولين : جمع أول على أنه بدل من الذين ، أو من الماء والميم في عليهم . وقرا الحسن الأولان . والمعنى على بناء الفعل للمفعول : من الذين استحق عليهم الإثم : أى جنى عليهم ، وهم أهل الميت وعشيرته فلأنهم أحق بالشهادة أو اليمين من غيرهم ، فالأوليان تثنية أولى . والمعنى على قراءة البناء للفاعل : من الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوها للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين لكونهما الأقربين إلى الميت ، فالأوليان فاعل استحق ومفعوله أن يجردوها للقيام بالشهادة ، وقيل المفعول محذوف ، والتقدير : من الذين استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التى أوصى بها . قوله (فيقسمان بالله) عطوف على (يقومان) : أى فيحلفان بالله لشهادتنا : أى يميننا ، فالمراد بالشهادة هنا اليمين ، كما في قوله تعالى - فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله - أى يحلفان لشهادتنا على أنهما كاذبان خائنان أحق من شهادتهما : أى من يمينهما على أنهما صادقان أمينان (وما اعتدينا) أى تجاوزنا الحق في يميننا (إنا إذا لمن الظالمين) إن كنا حلفنا على باطل . قوله (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) أى ذلك البيان الذى قدمه الله سبحانه في هذه القصة وعرفنا كيف يصنع من أراد الوصية في السفر ؟ ولم يكن عنده أحد من أهله وعشيرته وعنده كفار أدنى : أى أقرب إلى أن يؤدى الشهود المتحملون للشهادة على الوصية بالشهادة على وجهها فلا يحرقوا ولا يبدلوا ولا يخونوا وهذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر المنفعة والفائدة في هذا الحكم الذى شرعه الله في هذا الموضع من كتابه ، فالضمير في (يأتوا) عائد إلى شهود الوصية من الكفار ، وقيل إنه راجع إلى المسلمين المخاطبين بهذا الحكم ، والمراد تحذيرهم من الخيانة ، وأمرهم بأن يشهدوا بالحق . قوله (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أى ترد على الورثة فيحلفون على خلاف ما شهد به شهود الوصية فيفتضح حينئذ شهود الوصية ، وهو معطوف على قوله (أن يأتوا) فتكون الفائدة في شرع الله سبحانه لهذا الحكم هي أحد الأمرين : إما احتراز شهود الوصية عن الكذب والخيانة فيأتون بالشهادة على وجهها : أو يخافوا الافتضاح إذا ردت الأيمان على قرابة الميت فحلفوا بما يتضمن كذبهم أو خيانتهم فيكون ذلك سببا لتأدية شهادة شهود الوصية على وجهها من غير كذب ولا خيانة ، وقيل إن (يخافوا) معطوف على مقدار بعد الحملة الأولى ، والتقدير : ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب الكذب والخيانة أو يخافوا الافتضاح برد اليمين ، فأى الخوفين وقع حصل المقصود (واتقوا الله) في مخالفة أحكامه (والله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين عن طاعته بأى ذنب ، ومنه الكذب في اليمين أو الشهادة .

وحاصل ما تضمنه هذا المقام من الكتاب العزيز أن من حضرته علامات الموت أشهد على وصيته عدلين من عبول المسلمين ، فإن لم يجد شهودا مسلمين ، وكان في سفر ، ووجد كفارا جاز له أن يشهد رجلين منهم على وصيته ، فإن ارتاب بهما ورثة الموصى حلفا بالله على أنهما شهدا بالحق وما كتما من الشهادة شيئا ولا خانا بما تركه الميت شيئا ، فإن تبين بعد ذلك خلاف ما أقصا عليه من خلل في الشهادة أو ظهور شيء من تركه الميت زعما أنه قد صار في ملكهما بوجه من الوجوه حلف رجلان من الورثة وعمل بذلك .

وقد أخرج الترمذى وضعفه ، وابن جرير وابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه . وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر وهو الكلبي ، عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس . عن تميم الدارى في هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت) قال : برى الناس منها غيرى وغير

عدي بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام . فأتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة . ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو عظم تجارته ، فرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يلبغا ما ترك أهله ، قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجاه فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي ابن بداء ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجاه فسالونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا ، أو ما دفع إلينا غيره ، قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأدبت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسألهم البينة فلم يجنوا ، فأمرهم أن يستحلوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) إلى قوله (أن ترد أيمان بعد أيمانهم) فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا ، فزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء . وفي إسناده أبو النضر ، وهو محمد بن السائب الكلبي صاحب التفسير ، قال الترمذى : بركة أهل العلم بالحديث . وأخرج البخارى في تاريخه والترمذى وحسنه وابن جرير وابن المنذر والنحاشى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى في سننه عن ابن عباس قال : خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدي بن بداء : فأت السهمى بأرض ليس فيها مسلم ، فأوصى إليهما ، فلما قدما بتركته فقلوا جاما من فضة مخوصا بالذهب ، فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالله ما كتبناهما ولا اطلعنا ، ثم وجدوا الجاه بمكة قليل : اشتريناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجاه لصاحبهم ، وأحدوا الجاه ، قال : وفيهم تزلت (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية ، وفي إسناده محمد بن أبي القاسم الكوفى : قال الترمذى : قيل إنه صالح الحديث ، وقد روى ذلك أبو داود من طريقه . وقد روى جماعة من التابعين أن هذه القصة هى السبب في نزول الآية ، وذكرها المفسرون في تفاسيرهم . وقال القرطبى : إنه أجمع أهل التفسير على أن هذه القصة هى سبب نزول الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية قال : هذا لما مات وعنده المسلمون أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين مسلمين ، ثم قال (أو آخرات من غيركم إن أنتم لم ترهم في الأرض) فهذا لما مات وليس عنده أحد من المسلمين أمر الله بشهادة رجلين من غير المسلمين ، فإن ارتيب بشهادتهما استحلوا بالله بعد الصلاة ما اشتريا بشهادتهما ثمنا قليلا ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما ، وثم رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، فذلك قوله ، (فإن عثر على أنهما استحقا إثما) يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا (ذلك أدنى أن) يأتى الكافران (بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) فترك شهادة الكافرين وبحكم شهادة الأولياء ، فليس على شهود المسلمين أقسام : إنما الأقسام إذا كانا كافرين . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال : هذا رجل خرج مسافرا ومعه مال فأدركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين ، فإن لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب ، فإن أدى فسيب ما أدى ، وإن جحد استحل فبالله الذى لا إله إلا هو دبر صلاة إن هذا الذى دفع إلى وما غيبت منه شيئا ، فإذا حلف برى . فإذا أتى بعد ذلك صاحب الكتاب فشهدا عليه ، ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم ما لم جعلت أيمان الوريثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه ، فذلك الذى يقول الله (اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والفضاء في المختارة عن ابن عباس في قوله (أو آخران من غيركم) قال : من

غير المسلمين من أهل الكتاب . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هذه الآية منسوخة . وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في الآية قال : كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام ، وذلك في أول الإسلام والأرض حرب والناس كفار إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالمدينة . وكان الناس يتوارثون بالوصية ، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل المسلمون بها . وأخرج ابن جرير أيضا عن الزهري قال : مضت السنة أن لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سفر ، إنما هي في المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد ، ابن أبي حاتم عن حميدة في قوله (تحبسونهما من بعد الصلاة) قال : صلاة العصر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (لا تشتري به ثمنا) قال : لا تأخذ به رشوة (ولا تكتم شهادة الله) وإن كان صاحبها بعيدا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (فإن عثر على أنهما استحفا ثمنا) أي اطلع منهما على خيانة على أنهما كذبا أو كتما . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله (الأوليان) قال : بالميت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) يقول : ذلك أحرق أن يصدقوا في شهادتهم (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) يقول : وأن يخافوا العتب . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) قال : فيبطل أيمانهم ويؤخذ أيمان هؤلاء .

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)
إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ
الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ
جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١) .

قوله (يوم يجمع الله الرسل) العامل في الظرف فعل مقدر : أي اسمعوا ، أو اذكروا ، أو اجذروا . وقال الزجاج : هو منصوب بقوله (واتقوا الله) المذكور في الآية الأولى ؛ وقيل بدل من مفعول (اتقوا) بدل اشتمال ؛ وقيل ظرف لقوله - لا يهدى - المذكور قبله ؛ وقيل منصوب بفعل مقدر متأخر تقديره : يوم يجمع الله الرسل (يكون من الأحوال كذا وكذا . قوله (ماذا أجبتكم) أي أي إجابة أجابتكم به أممكم الذين بعثكم الله إليهم ؟ أو أي جواب أجابوكم به ؟ وعلى الوجهين تكون ما منصوبة بالفعل المذكور بعدها . وتوجيه السؤال إلى الرسل لقصد توبيخ قومهم . وجوابهم بقولهم (لا علم لنا) مع أنهم عالمون بما أجابوا به عليهم تفويض منهم . وإظهار للعجز وعدم القدرة ، ولا سيما مع علمهم بأن السؤال سؤال توبيخ فلا تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك . وقيل المعنى : لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا ، وقيل لا علم لنا بما اشتملت عليه بواطنهم ، وقيل المعنى : لا علم لنا إلا

علم ما أنت أعلم به منا ؛ وقيل إنهم ذهبوا عما أجاب به قومهم لمول المحشر . قوله (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم) إذ بدل من يوم يجمع ، وهو تخصيص بعد التعميم وتخصيص عيسى عليه السلام من بين الرسل لاختلاف طائفتي اليهود والنصارى فيه إفراطا وتفریطا ، هذه تجعله إلها ، وهذه تجعله كاذبا ، وقيل هو منصوب بتقدير اذكر . قوله (اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك) ذكره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه مع كونه ذا كراما لها عالما بتفضل الله سبحانه بها لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علو المقام ، أولئك كيد الحجة وتبكيك الواحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة وتوبيخ من اتخذهما إلهين يبيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه ، وأنهما عبدان من جملة عباد منعم عليهما بنعم الله سبحانه ليس لهما من الأمر شيء . قوله (إذ أبدتك بروح القدس) إذ ظرف للنعمة لأنها بمعنى المصدر : أي اذكر إنعامي عليك وقت تأييدي لك . أو حال من النعمة : أي كائنة ذلك الوقت (أبدتك) قوتك مأخوذة من الأيد . وهو القوة . وفي روح القدس وجهان : أحدهما أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها . وقيل إنه جبريل عليه السلام . وقيل إنه الكلام الذي يحيى به الأرواح . والقدس : الطهر ، وإضافته إليه لكونه سببه ، وجملة (تكلم الناس) مبنية لمعنى التأيد ، و (في المهد) في محل نصب على الحال : أي تكلم الناس حال كونك صبيا وكهلا لا يتفاوت كلامك في الحالين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتنا بيننا . وقوله (وإذ علمتك الكتاب) معطوف على (إذ أبدتك) أي واذكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب : أي جنس الكتاب ، أو المراد بالكتاب الخط . وعلى الأول يكون ذكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام . وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما : أما التوراة فقد كان محتج بها على اليهود في غالب مايلور بينه وبينهم من الجدال كما هو مصرح بذلك في الإنجيل . وأما الإنجيل فلكونه نازلا عليه من عند الله سبحانه . والمراد بالحكمة جنس الحكمة : وقيل هي الكلام المحكم (وإذ تخلق من الطين كهية الطير) أي تصور تصويرا مثل صورة الطير (بإذني) لك بذلك وتيسري له (فتفتح) في الهيئة المصورة (فتكون) هذه الهيئة (طائرا) متحركا حيا كسائر الطيور (وتبرى الأكمة والأبرص بإذني) لك وتسهيله عليك وتيسيره لك . وقد تقدم تفسير هذا مطولا في البقرة فلا نعيده (وإذ تخرج الموتى) من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة (بإذني) . وتكرير بإذني في المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه . قوله (وإذ كففت) معطوف على « إذ تخرج » كففت معناه : دفعت وصرقت (بني إسرائيل عنك) حين هموا بقتلك (إذ جثهم بالبينات) بالمعجزات الواضحات (فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر بيت . لما عظم ذلك في صدرهم وانبهروا منه لم يقدرُوا على جمعه بالكلية . بل نسبوه إلى السحر . قوله (وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي) هو معطوف على ما قبله . وقد تقدم تفسير ذلك . والوحي في كلام العرب معناه الإلهام : أي ألهمت الخواريين وقذفت في قلوبهم : وقيل معناه : أمرتهم على السنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولي . قوله (قالوا آمنا) جملة مستأنفة كأنه قيل ما ذا قالوا ؟ فقال : قالوا آمنا (واشهد بأننا مسلمون) أي مخلصون للإيمان : أي واشهد يارب . أو واشهد يا عيسى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبت) فيفزعون فيقولون (لا علم لنا) فرد إليهم أفئدتهم فيعلمون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : ذلك أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا

قالوا : لا علم لنا ، ثم نزلوا منزلاً آخر فشبهوا على قومهم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قالوا لا علم لنا فرقا يذهل عقولهم ، ثم يرد الله إليهم عقولهم فيكونون هم الذين يسألون بقول الله - فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين - . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء وأمهاتهم يدعى بعيسى فيذكره نعمته عليه فيقر بها ، فيقول : يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك الآية ، ثم يقول : أنت قلت للناس اتخفنوني وأمى إلهين من دون الله ؟ فينكر أن يكون قال ذلك ، فيوثق بالنصارى فيسألون ، فيقولون نعم هو أمرنا بذلك ، فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشرة من شعر رأسه وجسده ، فيجاثيهم بين يدي الله مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم للصليب وينطلق بهم إلى النار . . . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإذا كففت بنى إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات) أى بالآيات التى وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهية الطير وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله (وإذا أوحيت إلى الخواريين) يقول قذفت في قلوبهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه .

إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) :

قوله (إذ قال الخواريون) الظرف منصوب بفعل مقدر : أى اذكر أو نحوه كما تقدم . قبل والخطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم . قرأ الكسائي (هل يستطيع) بالقوية . ونصب ربك . وبه قرأ على وابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد ، وقرأ الباقون بالتحية ورفع ربك . واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الخواريين بأنهم قالوا (آمنا واشهد بأننا مسلمون) والسؤال عن استطاعته لذلك يناق ما حكوه عن أنفسهم . وأجيب بأن هذا كان في أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله ، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى لا تشكوا في قدرة الله : وقيل إنهم ادّعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة . ويرد أن الخواريين هم خلصاء عيسى وأنصاره كما قال من أنصارى إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله . وقيل إن ذلك صدر ممن كان معهم ، وقيل إنهم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه . فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك . وإنما هو كقول الرجل : هل يستطيع فلان أن يأتى مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه ، فالمعنى : هل يفعل ذلك وهل يجب إليه ؟ وقيل إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام - رب أرنى كيف تحيي الموتى -

الآية . ويدل على هذا قولهم من بعد (وتطمئن قلوبنا) وأما على القراءة الأولى : فالمعنى : هل تستطيع أن تسأل ربك . قال الزجاج : المعنى هل تستدعى طاعة ربك فيما تسأله فهو من باب - واسأل القرية - ، والمائدة : الخوان إذا كان عليه الطعام ، من ماله : إذا أعطاه ورفده كأنها تמיד من تقدم إليه . قاله قطرب وغيره : وقيل هي فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية قاله أبو عبيدة : فأجابهم عيسى عليه السلام بقوله (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى اتقوه من هذا السؤال وأمثاله إن كنتم صادقين في إيمانكم ، فإن شأن المؤمن ترك الاقتراح على ربه على هذه الصفة : وقيل إنه أمرهم بالتقوى ليكون ذلك ذريعة إلى حصول ما طلبوه . قوله (قالوا نريد أن نأكل منها) بينوا به الغرض من سؤالهم نزول المائدة ، وكذا ما عطف عليه من قولهم (وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) والمعنى : تطمئن قلوبنا بكمال قدرة الله ، أو بأنك مرسل إلينا من عنده . أو بأن الله قد أجابنا إلى ما سألناه ، ونعلم علما يقينا بأنك قد صدقتنا في نبوتك . ونكون عليها من الشاهدين عند من لم يحضرها من بنى إسرائيل أو من سائر الناس أو من الشاهدين لله بالوحدانية ، أو من الشاهدين : أى الحاضرين دون السامعين . ولما رأى عيسى ما حكوه عن أنفسهم من الغرض بنزول المائدة قال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) أى كائنة أو نازلة من السماء ، وأصل اللهم عند سيوييه وأتباعه : يا الله : فجعلت الميم بدلا من حرف النداء ، وربنا نداء ثان ، وليس بوصف . و (تكون لنا عيدا) وصف للمائدة . وقرأ الأعمش « يكون لنا عيدا » أى يكون يوم يهولها لنا عيدا . وقد كان نزولها يوم الأحد ، وهو يوم عيد لهم : والعيد واحد الأعياد . وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد : وقيل للفرق بينه وبين أعواد جمع عود . ذكر معناه الجوهري : وقيل أصله من عاد يعود : أى رجع فهو عود بالواو . وتقلب ياء لانكسار ما قبلها مثل الميزان والميقات والميعاد ، فقيل ليوم الفطر والأضحى عيدان . لأنهما يعودان في كل سنة . وقال الخليل : العيد كل يوم جمع كأنهم عادوا إليه . قوله (لأولنا وآخرنا) بدل من الضمير في لنا بتكرير العامل : أى لمن في عصرنا ولمن يأتي بعدنا من ذراريها وغيرهم . قوله (وآية منك) عطف على عيدا : أى دلالة وحجة واضحة على كمال قدرتك وصحة إرسالك من أرسلته (وارزقنا) أى أعطنا هذه المائدة المطلوبة . أو ارزقنا رزقا نستعين به على عبادتك (وأنت خير الرازقين) بل لارزق في الحقيقة غيرك ولا معطى سواك . فأجاب الله سبحانه سؤال عيسى عليه السلام فقال (إني منزلها) أى المائدة (عليكم) . وقد اختلف أهل العلم هل نزلت عليهم المائدة أم لا ؟ فذهب الجمهور إلى الأول وهو الحق لقوله سبحانه (إني منزلها عليكم) ووعد الحق وهو لا يخلف الميعاد . وقال مجاهد : ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله لخلقها نهيها لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه . وقال الحسن : وعدهم بالإجابة . فلما قال (فمن يكفر بعد منكم) استغفروا الله وقالوا لا نريدها . قوله (فمن يكفر بعد منكم) أى بعد تنزيلها (فإني أعذبه عذابا) أى تعذيبا (لا أعذبه) صفة لعذابا . والضمير عائد إلى العذاب بمعنى التعذيب : أى لا أعذب مثل ذلك التعذيب (أحدا من العالمين) قيل المراد عالمي زمانهم . وقيل جميع العالمين . وفي هذا من التهديد والترهيب مالا يقادر قدره .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا (هل يستطيع ربك) إنما قالوا : هل تستطيع أنت ربك أن تدعوه . ويؤيد هذا ما أخرجه الحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هل يستطيع ربك) بالتاء يعنى الفوقية . وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قرأها كذلك . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : المائدة الخوان ، وتطمئن : توقن .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (تكون لنا عيدا) يقول : نتخذ اليوم الذي نزل فيه عيدا نعظمه نحن ومن بعدنا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس : أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطىكم ما سألتهم ؟ فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوما إلا أطعمنا (فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة) إلى قوله (أحدا من العللين) فأقبلت الملائكة تغير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم . فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم . وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نزلت المائدة من السماء مخبزا ولحما ، وأمروا أن لا يبخنوا ولا يدخنوا لغيره ، فخافوا وادخنوا ورفعوا لغيره فسخوا قردة وخنازير ، وقد روى موقوقا على عمار . قال الترمذي : والوقف أصح . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : المائدة سمكة وأريقة . وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عنه قال : نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه سمك وتحيز بأكلون منه أينما تولوا إذا شاموا . وأخرج ابن جرير نحوه عنه من طريق عكرمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون .

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَهُ مُبْمَحَضِّكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) .

قوله (وإذ قال الله) معطوف على ما قبله في محل نصب بعامله أو بعامل مقدر هنا : أي اذكر . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة . والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى . وقال السدي وقطرب : إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت ، والأول أولى : قيل (وإذ) هنا بمعنى إذا كقولنا تعالى - ولو ترى إذ فرغوا - أي إذا فرغوا . وقول أبي النجم :

ثم جزاك الله غنى إذ جرى جنان عدن في السموات العلى

أي إذا جرى ، وقول الأسود بن جعفر الأسدي :

وفي الآن إذ هازلتن فلانما بقلن ألام بذهب الشيخ مذهبها

أى إذا هازلتهن تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضى تنبيهاً على تحقيق وقوعه . وقد قيل فى توجيه هذا الاستفهام منه تعالى إنه لقصد التوبيخ كما سبق : وقيل لقصد تعريف المسيح بأن قومه غيروا بعده وادّعوا عليه ما لم يقله . وقوله (من دون الله) متعلق بقوله (اتخذونى) على أنه حال : أى متجاوزين الحد . ويجوز أن يتعلق بمحذوف هو صفة لإلهين : أى كائنين من دون الله . قوله (سبحانه) تنزيه له سبحانه : أى أنزهك تنزيهاً (ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) أى ما ينبغى لى أن أدعى لنفسى ما ليس من حقها (إن كنت قلته فقد علمته) رد ذلك إلى علمه سبحانه . وقد علم أنه لم يقله . ثبت بذلك عدم القول منه . قوله (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) هذه الجملة فى حكم التعليل لما قبلها : أى تعلم معلومى ولا أعلم معلومك . وهذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعانى والبيان . وقيل المعنى : تعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك : وقيل تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه : وقيل تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد . قوله (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) هذه جملة مقررّة لمضمون ما تقدم : أى ما أمرتهم إلا بما أمرتنى (أن أعبدوا الله ربى وربكم) هذا تفسير للمعنى (ما قلت لهم) أى ما أمرتهم . وقيل عطف بيان للمضمون فى (به) وقيل بدل منه (وكنت عليهم شهيداً) أى حفيظاً ورقياً أرعى أحوالهم وأمنعهم عن مخالفة أمرى (ما دمت فيهم) أى مدة دواى فيهم (فلما توفيتنى) قيل هذا يدل على أن الله سبحانه توفاه قبل أن يرفعه . وليس بشيء لأن الأخبار قد تظافرت بأنه لم يمّت . وأنه باق فى السماء على الحياة التى كان عليها فى الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان : وإنما المعنى : فلما رفعتنى إلى السماء . قيل الوفاة فى كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت . ومنه قوله تعالى - الله يتوفى الأنفس حين موتها - وبمعنى النوم . ومنه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى ينيكم . وبمعنى الرفع . ومنه (فلما توفيتنى) - وإذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك - (كنت ألت الرقيب عليهم) أصل المراقبة : المراجعة . أى كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم (إن تعذبهم فإنهم عبادك) تصنع بهم ما شئت وتحكم فيهم بما تريد (وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أى القادر على ذلك الحكيم فى أفعاله . قيل قاله على وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد لعيده . ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك : وقيل قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له . ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم . قوله (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) أى صدقهم فى الدنيا . وقيل فى الآخرة . والأول أولى . قرأ نافع وابن عيص (يوم) بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع . فوجه النصب أنه ظرف للقول : أى قال الله هذا القول يوم ينفع الصادقين ، ووجه الرفع أنه خير للمبتدأ هو وما أضيف إليه . وقال الكسائى نصب (يوم) ما هنا لأنه مضاف إلى الجملة ، وأنشد :

على حين عانت المشيب على الصبا وقلت لما أصبح والشيب وازع

وبه قال الزجاج . ولا يجوز البصريون ما قاله إلا إذا أضيف الظرف إلى فعل ماض . وقرأ الأعمش (هذا يوم ينفع) بتوئين يوم كما فى قوله - واتقوا يوماً ما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً - فكلاهما مقطوع عن الإضافة بالتوئين . وقد تقدم تفسير قوله (لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) . قوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى رضى عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له . ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال ولا تتصوره عقولهم . والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم وأعلى منازل الكرامة . والإشارة بملك إلى نيل ما تالوه من دخول الجنة والخلود فيها أبداً . ورضوان الله عنهم . والفوز : الظفر بالمطلوب على أتم الأحوال . قوله (لله ملك السموات والأرض وما فىهن) وهو على كل شيء قدير (جاء سبحانه بهذه الحاتمة دفعا لما سبق من إثبات من

أثبت إلهية عيسى وأمه ، وأخير بأن ملك السموات والأرض له دون عيسى وأمه ودون سائر مخلوقاته . وأنه القادر على كل شيء دون غيره ؛ وقبل المعنى ؛ أن له ملك السموات والأرض يعطى الجنات للمطيعين . جعلنا الله منهم .

وقد أخرج الترمذى وصححه والنسائى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال ؛ تلقى عيسى حجته والله لقاءه فى قوله (وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فلقاه الله سبحانه (ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال ؛ يقول الله هذا يوم القيامة ، ألا ترى أنه يقول (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال ؛ قال الله ذلك لما رفع عيسى إليه ، وقالت النصارى ما قالت . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (أن اعبدوا الله ربى وربكم) قال ؛ سيدى وسيدكم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله (كنت أنت الرقيب عليهم) قال ؛ الحفيظ . وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال ؛ قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) قال ؛ ما كنت فيهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (إن تعذبهم فإنهم عبادك) يقول ؛ عبيدك قد استوجبوا العذاب بمخالفتهم (وإن تغفر لهم) أى من تركت منهم ومدته فى عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال ؛ فزالوا عن مقاتلتهم ووحدهم (فإنتك أنت العزيز الحكيم) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) يقول ؛ هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم .

تفسير سورة الأنعام

قال الثعلبى ؛ سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة وهى - وما قدروا الله حق قدره - إلى آخر ثلاث آيات . و - قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم - إلى آخر ثلاث آيات . قال ابن عطية ؛ وهى الآيات المحكمات ، يعنى فى هذه السورة . وقال القرطبى ؛ هى مكية إلا آيتين هما - وما قدروا الله حق قدره - نزلت فى مالك بن الصيف وكعب بن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى - وهو الذى أنشأ جنات معروشات - نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال ؛ أنزلت سورة الأنعام بمكة . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عنه ؛ قال أنزلت سورة الأنعام بمكة ليلة جملة وحوالها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال ؛ نزلت سورة الأنعام بشيعة سبعون ألفا من الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن أسماء قال ؛ نزلت سورة الأنعام على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهو فى مسير فى زجل من الملائكة . وقد نظموا ما بين السماء والأرض . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد نحوه . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد ، وهو من طريق إبراهيم بن نائلة شيخ الطبرانى عن إسماعيل بن عمرو عن يوسف بن عطية بن عون عن قافع عن ابن عمر قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فذكره . وابن مردويه رواه عن الطبرانى عن إسماعيل المذكور به . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب عن أنس قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

« نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين . لهم زجل بالتسبيح والتعديس ، والأرض ترتج . ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم » . وأخرج الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . والإسماعيلي في معجمه والبيهقي عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق » . وأخرج البيهقي وضعفه والخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال : أنزل القرآن خمسا خمسا ، ومن حفظه خمسا خمسا لم ينسه ، إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة يشيعها من كل سماء سبعون ملكا حتى أدوها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ما قرئت على عليل إلا شفاه الله . وأخرج أبو الشيخ عن أبي بن كعب مرفوعا نحو حديث ابن عمر . وأخرج النحاس في تاريخه عن ابن عباس قال : سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة ، فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة (قل تعالوا أتل ما حرم) إلى تمام الآيات الثلاث . وأخرج الديلمي بسند ضعيف عن أنس مرفوعا « ينادى مناد : يا قارئ سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها » . وأخرج ابن المنذر عن أبي جحيفة قال : نزلت سورة الأنعام جميعا معها سبعون ألف ملك كلها مكية إلا - ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة - فإنها مدنية . وأخرج أبو عبيد في فضائله والدارمي في مسنده ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الأنعام من نواجب القرآن . وأخرج محمد بن نصر عن ابن مسعود مثله . وأخرج السلفي بسند واه عن ابن عباس مرفوعا « من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى - ويعلم ما تكسبون - نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم ، ونزل إليه ملك من فوق سبع سموات ومعه مرزبة من حديد ، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئا من الشرّ ضربه ضربة حتى يكون بينه وبينه سبعون حجبا . فإذا كان يوم القيامة ، قال الله تعالى : أنا ربك وأنت عبدي ، امش في ظلي واشرب من الكوثر واغتسل من السلسيل وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب » . وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من صلى الفجر في جماعة وقعد في مضلاه وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام وكل الله به سبعين ملكا يسبحون الله ويستغفرون له إلى يوم القيامة » . وفي فضائل هذه السورة روايات عن جماعة من التابعين مرفوعة وغير مرفوعة . قال القرطبي : قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المتكدين ومن كذب بالبعث والنشور . وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة ، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) .

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله ، للدلالة على أن الحمد كله له ، وإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعدلون . وقد تقدم في سورة الفاتحة ما يغني عن الإعادة له هنا ، ثم وصف نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض إخباراً عن قدرته الكاملة الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد ، فإن من اخترع ذلك وأوجده هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد ، والخلق يكون بمعنى الاختراع ، وبمعنى التقدير . وقد تقدم تحقيق ذلك : وجمع السموات لتعدد طباقها ، وقد منها على الأرض لتقدمها في الوجود - والأرض بعد ذلك دحاًها - . قوله (وجعل الظلمات والنور) معطوف على خلق ، ذكر سبحانه خلق الجواهر بقوله (خلق السموات والأرض) ثم ذكر خلق الأعراض بقوله (وجعل الظلمات والنور) لأن الجواهر لا تستغنى عن الأعراض .

واختلف أهل العلم في المعنى المراد بالظلمات والنور ، فقال جمهور المفسرين : المراد بالظلمات سواد الليل ، وبالنور ضياء النهار . وقال الحسن : الكفر والإيمان . قال ابن عطية : وهذا خروج عن الظاهر انتهى . والأولى أن يقال : إن الظلمات تشمل كل ما يطلق عليه اسم الظلمة ، والنور يشمل كل ما يطلق عليه اسم النور فيدخل تحت ذلك ظلمة الكفر ونور الإيمان - أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات - وأفرد النور لأنه جنس يشمل جميع أنواعه ، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها وتعدد أنواعها . قال النحاس : جعل هنا بمعنى خلق : وإذا كانت بمعنى خلق لم تعد إلا إلى مفعول واحد : وقال القرطبي : جعل هنا بمعنى خلق لا يجوز غيره . قال ابن عطية : وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق ، فيكون الجمع معطوفاً على الجمع ، والمفرد معطوفاً على المفرد ، وتقديم الظلمات على النور لأنها الأصل ، ولهذا كان النهار مسلوخاً من الليل . قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) معطوف على الحمد لله ، أو على خلق السموات والأرض . وثم لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون مع ما تبين من أن الله سبحانه حقيق بالحمد على خلقه السموات والأرض والظلمات والنور ، فإن هذا يقتضي الإيمان به وصرف الثناء الحسن إليه . لا الكفر به واتخاذ شريك له . وتقديم المفعول للاهتمام ، ورعاية الفواصل ، وحذف المفعول لظهوره : أي يعدلون به ما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه ، وهذا نهاية الحمق وغاية الرقاعة حيث يكون منه سبحانه تلك النعم ، ويكون من الكفرة الكفر . قوله (هو الذي خلقكم من طين) في معناه قولان : أحدهما وهو الأشهر ، وبه قال الجمهور أن المراد آدم عليه السلام ، وأخرجه مخرج الخطاب للجميع ، لأنهم ولده ونسله . الثاني أن يكون المراد جميع البشر باعتبار أن النطفة التي خلقوا منها مخلوقة من الطين ، ذكر الله سبحانه خلق آدم وبنيه بعد خلق السموات والأرض إتباعاً للعالم الأصغر بالعالم الأكبر ، والمطلوب يذكر هذه الأمور دفع كفر الكافرين بالبعث ورد بلحودهم بما هو مشاهد لم لا يمترون فيه . قوله (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) جاء بكلمة « ثم » لما بين خلقهم وبين موتهم من المتفاوت .

وقد اختلف السلف ومن بعدهم في تفسير الأجلين ، فقيل (قضى أجلاً) يعني الموت (وأجل مسمى عنده) يعني القيامة ، وهو مروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وققادة والضحاك ومجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم وعطية والسدي وخصيف ومقاتل وغيرهم ، وقيل الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت . والثاني ما بين أن يموت إلى أن يبعث ، وهو قريب من الأول . وقيل الأول مدة الدنيا ، والثاني عمر الإنسان إلى حين موته . وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد . وقيل الأول قبض الأرواح في النوم ، والثاني قبض الروح عند الموت . وقيل الأول ما يعرف من أوقات الأهلة والبروج وما يشبه ذلك ، والثاني أجل الموت . وقيل الأول لمن مضى والثاني

لمن بقي ولمن باقى . وقيل إن الأول الأجل الذى هو محتوم ، والثانى الزيادة فى العمر لمن وصل رحمه . فإن كان برآ تقيا وصولا لرحمه زيد فى عمره ، وإن كان قاطعا للرحم لم يزد له . ويرشد إلى هذا قوله تعالى - وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب - . وقد صرح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، وورد عنه أن دخول البلاد التى قد فشا بها الطاعون والوباء من أسباب الموت ، وجاز الابتداء بالنكرة فى قوله (وأجل مسمى عنده) لأنها قد تخصصت بالصفة . قوله (ثم أنتم تموتون) استبعاد لصدور الشك منهم مع وجود المقتضى لعدمه : أى كيف تشكون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الابتداء والانهاء ما يذهب بذلك ويدفعه . فإن من خلقكم من طين وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون وخلق لكم هذه الحواس والأطراف . ثم سلب ذلك عنكم فصرتم أمواتا وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية ، لا يعجزه أن يبعثكم ويعيد هذه الأجسام كما كانت ، ويرد إليها الأرواح التى فارقتها بقدرته وبديع حكمته . قوله (وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) قيل إن فى السموات وفى الأرض متعلق باسم الله باعتبار ما يدل عليه من كونه معبودا ومتصرفا ومالكا : أى هو المعبود أو المالك أو المتصرف فى السموات والأرض كما تقول : زيد الخليفة فى الشرق والغرب : أى حاكم أو متصرف فيهما : وقيل المعنى : وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض فلا تخفى عليه خافية ، فيكون العامل فيهما ما بعدهما . قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فيه . وقال ابن جرير : هو الله فى السموات ويعلم سركم وجهركم فى الأرض . والأول أولى ، ويكون « يعلم سركم وجهركم » جملة مقررّة لمعنى الجملة الأولى ، لأن كونه سبحانه فى السماء والأرض يستلزم علمه بأسرار عباده وجهركم ، وعلمه بما يكسبونه من الخير والشر وجلب النفع ودفع الضرر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على أن هذه الآية أعنى الحمد لله إلى قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) نزلت فى أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن أبى عن أبيه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية فى الزنادقة ، قالوا : إن الله لم يخلق الظلمة ولا الخنافس ولا العقارب ولا شيئا قبيحا ، وإنما يخلق النور وكل شيء حسن . فأنزلت فيهم هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (وجعل الظلمات والنور) قال : الكفر والإيمان . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : إن الذين بربهم يعدلون هم أهل الشرك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : (يعدلون) يشركون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) قال : الآلهة التى عبدوها عدلوها بالله ، وليس لله عدل ولا ند . وليس معه آلهة ولا اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (هو الذى خلقكم من طين) يعنى آدم (ثم قضى أجلا) يعنى أجل الموت (وأجل مسمى عنده) أجل الساعة والوقوف عند الله . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عنه فى قوله (ثم قضى أجلا) قال : أجل الدنيا ، وفى لفظ أجل موته (وأجل مسمى عنده) قال : الآخرة لا يعلمه إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه (قضى أجلا) قال : هو اليوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه من البقطة (وأجل مسمى عنده) قال : هو أجل موت الإنسان .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدْ آسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) .

قوله (وما تأتيتهم الخ) كلام مبتدأ لبيان بعض أسباب كفرهم ونمردهم ، وهو الإعراض عن آيات الله التي تأتيتهم كمعجزات الأنبياء ، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة مما لا يشك من له عقل أنه فعل الله سبحانه . والإعراض : ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله و«من» في (من آية) مريدة للاستغراق و«من» في (من آيات) تبعيضية : أي وما تأتيتهم آية من الآيات التي هي بعض آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، والفاء في (فقد كذبوا) جواب شرط مقدر : أي إن كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم من ذلك وهو الحق (لما جاءهم) قيل المراد بالحق هنا القرآن ، وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزمون) أي أخبار الشيء الذي كانوا به يستهزمون وهو القرآن أو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، على أن ما عبارة عن ذلك تهويلا للأمر وتعظيما له : أي سيعرفون أن هذا الشيء الذي استهزموا به ليس بموضع للاستهزاء . وذلك عند إرسال عذاب الله عليهم ، كما يقال : اصبر فسوف يأتيك الخير عند إرادة الوعيد والتهديد . وفي لفظ الأنبياء ما يرشد إلى ذلك فإنه لا يطلق إلا على خبر عظيم . قوله (ألم يروا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) كلام مبتدأ لبيان ما تقدمه . والهمزة للإنكار ، و«كم» يحتمل أن تكون الاستفهامية وأن تكون الخبرية وهي معلقة لفعل الرواية عن العمل فيما بعده . و (من قرن) تمييز : والقرن يطلق على أهل كل عصر ، سموا بذلك لاقتراهم : أي ألم يعرفوا بسماع الأخبار ومعاينة الآثار كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ الموجودة في عصر بعد عصر لتكذيبهم أنبياءهم . وقيل القرن مدة من الزمان . وهي ستون عاما أو سبعون أو ثمانون أو مائة على اختلاف الأقوال . فيكون ما في الآية على تقدير مضاف محذوف : أي من أهل قرن . قوله (مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) مكن له في الأرض جعل له مكانا فيها ، ومكنه في الأرض : أثبتة فيها . والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : كيف ذلك ، وقيل إن هذه الجملة صفة لقرن . والأول أولى : و«ما» في «ما لم نمكن» نكرة موصوفة بما بعدها : أي مكانهم نمكننا لم نمكنه لكم ، والمعنى : أنا أعطينا القرون الذين هم قبلكم ما لم نعطيكم من الدنيا وطول الأعمار

وقوة الأبدان وقد أهلكناهم جميعا . فإهلاكم وأنتم دونهم بالأولى . قوله (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) يريد المطر الكثير . غير عنه بالسماء . لأنه ينزل من السماء . ومنه قول الشاعر : . إذا نزل السماء بأرض قوم .
والمدرار صيغة مبالغة تدل على الكثرة كذا ذكر للمرأة التي كثرت ولادتها للذكور . وميناث التي تلد الإناث .
يقال درّ اللبن يدرّ : إذا أقبل على الحالب بكثرة وانتصاب (مدرارا) على الحال : وجريان الأنهار من تحتهم معناه من تحت أشجارهم ومنازلهم : أي أن الله وسع عليهم النعم بعد التمكين لهم في الأرض فكفروها . فأهلكهم الله بذنوبهم (وأنشأنا من بعدهم) أي من بعد إهلاكهم (قرنا آخرين) فصاروا بدلا من المهلكين : وفي هذا بيان لكمال قدرته سبحانه وقوة سلطانه وأنه يهلك من يشاء ويوجد من يشاء . قوله (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) في هذه الحملة بيان شدة صلابتهم في الكفر . وأنهم لا يؤمنون ولو أنزل الله على رسوله كتابا مكتوبا في قرطاس بمراى منهم ومشاهدة (فلمسوه بأيديهم) حتى يجتمع لهم إدراك الحاستين : حاسة البصر . وحاسة اللمس (لقال الذين كفروا) منهم (إن هذا إلا سحر مبين) ولم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا .
وإذا كان هذا حالهم في المرتى المحسوس . فكيف فيما هو مجرد وحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسونه ؟ والكتاب مصدر بمعنى الكتابة . والقرطاس : الصحيفة . قوله (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) هذه الحملة مشتملة على نوع آخر من أنواع جحدهم لنبوته صلى الله عليه وآله وسلم وكفرهم بها : أي قالوا هلا أنزل الله عليك ملكا نراه ويكلمنا أنه نبي حتى نؤمن به ونتبعه ؟ كقولهم - لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا - (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) أي لو أنزلنا ملكا على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم (لقضى الأمر) أي لأهلكناهم إذ لم يؤمنوا عند نزوله ورويتهم له . لأن مثل هذه الآية البينة . وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك والمعالجة بالعقوبة (ثم لا ينظرون) أي لا يعمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له : وقيل إن المعنى : إن الله سبحانه لو أنزل ملكا مشاهدا لم تطق قواهم البشرية أن يبقوا بعد مشاهدته أحياء . بل تزهق أرواحهم عند ذلك فيظل ما أرسل الله له رسله وأنزل به كتبه من هذا التكليف الذي كلف به عباده - لنبلوهم أيهم أحسن عملا - . قوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) أي لجعلناه الرسول إلى النبي ملكا يشاهدونه ويخاطبونه لجعلنا ذلك الملك رجلا . لأنهم لا يستطيعون أن يروا الملك على صورته التي خلقه الله عليها إلا بعد أن يتجسم بالأجسام الكثيفة المشابهة لأجسام بني آدم . لأن كل جنس يأنس بجنسه . فلو جعل الله سبحانه الرسول إلى البشر أو الرسول إلى رسوله ملكا مشاهدا مخاطبا لنفروا منه ولم يأنسوا به . ولداخلهم الرعب وحصل معهم من الخوف ما يمنعه من كلامه ومشاهدته : هذا أقلّ حال فلا تتم المصلحة من الإرسال .
وعند أن يجعله الله رجلا : أي على صورة رجل من بني آدم ليسكنوا إليه ويأنسوا به سيقول الكافرون إنه ليس بملك وإنما هو بشر . ويعودون إلى مثل ما كانوا عليه . قوله (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي خلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك . فإن استدلل لهم بأنه ملك كذبوه قال الزجاج : المعنى للبسنا عليهم : أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفهم : وكانوا يقولون لهم : إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق . فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم ، فأعلم الله عز وجل أنه لو نزل ملكا في صورة رجل لوجدوا سبيلا إلى اللبس كما يفعلون . واللبس : الخلط . يقال لبست عليه الأمر ألبسه لبسا : أي خلطته . وأصله التستر بالثوب ونحوه . ثم قال سبحانه مؤنسا لنيه صلى الله عليه وآله وسلم ومسليا له (ولقد استهزى برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزمون) يقال : حاق الشيء يحقر حيقا وحيقا وحيقانا

نزل : أي فنزل ما كانوا به يستهزمون ، وأحاط بهم : وهو الحق حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به (قل سيرا في الأرض) أي قل يا محمد هؤلاء المستهزين سافروا في الأرض وانظروا آثار من كان قبلكم لتعرفوا ما حل بهم من العقوبات ، وكيف كانت عاقبتهم بعد ما كانوا فيه من النعيم العظيم الذي يفوق ما أنتم فيه . فهذه ديارهم خاربة وجنائهم مغبرة وأراضهم مكفهرة ، فإذا كانت عاقبتهم هذه العاقبة فأنتم بهم لاحقون وبعد هلاكهم هالكون .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) يقول : ما تأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه . وفي قوله (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزمون) يقول : سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزؤا به من كتاب الله عز وجل . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله (من قرن) قال : أمة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (مكنهم في الأرض ما لم نمكن لكم) يقول : أعطيناهم ما لم نعطيكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) يقول : يتبع بعضها بعضا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن هارون التيمي في الآية قال : المطر في إيبانه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (ولو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم) يقول : لو أنزلنا من السماء صحفا فيها كتاب (فلمسوه بأيديهم) لزادهم ذلك تكذيبا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فلمسوه بأيديهم) قال : فسوه ونظروا إليه لم يصدقوا به . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فيما بلغني . فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبد بن عبد يغوث وأبي بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ، فأنزل الله (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) الآية . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) قال : ملك في صورة رجل (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) لقامت الساعة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (لقضى الأمر) يقول : لو أنزل الله ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ولو أنزلنا ملكا) قال : ولو أتاهم ملك في صورته (لقضى الأمر) لأهلكناهم (ثم لا ينظرون) لا يؤخرون (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة (وللبسنا عليهم ما يلبسون) يقول : خلطنا عليهم ما يخلطون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) قال : في صورة رجل في خلق رجل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) يقول : في صورة آدمي . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وللبسنا عليهم) يقول : شبهنا عليهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : شبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال : مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما بلغني بالوايد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل بن هشام فهمزوه واستهزؤا به فغاضه ذلك . فأنزل الله (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزمون) .

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُضَرْفُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمَسُّنِكَ اللَّهُ بَضْرٌ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّنِكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهَدُوا أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) .

قوله (قل لمن ما في السموات والأرض) هذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم . والمعنى : قل لهم هذا القول فإن قالوا قل لله . وإذا ثبت أن له ما في السموات والأرض إما باعترافهم ، أو بقيام الحجة عليهم فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ، ولكنه كتب على نفسه الرحمة : أي وعد بها فضلا منه وتكرما ، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكيد وعده وارتفاع الوسائط دونه ، وفي الكلام ترغيب للمتولين عنه إلى الإقبال إليه وتسكين خواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة ، ومن رحمته لهم إرسال الرسل ، وإزالة الكتب ، ونصب الأدلة . قوله (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) اللام جواب قسم محذوف . قال الفراء وغيره : يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله (الرحمة) ويكون مابعدا مستأنفا على جهة التبيين فيكون المعنى (ليجمعنكم) ليهلكنكم وليؤخرن جمعكم . وقيل المعنى : ليجمعنكم في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه . وقيل (إلى) بمعنى في : أي ليجمعنكم في يوم القيامة . وقيل يجوز أن يكون موضع (ليجمعنكم) النصب على البدل من الرحمة ، فتكون اللام بمعنى أن . والمعنى : كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم كما قالوا في قوله تعالى - ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه - أي أن يسجنوه . وقيل إن جملة (ليجمعنكم) مسوقة للترهيب بعد الترغيب ، وللوعيد بعد الوعد : أي إن أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم ثم معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة ، والضمير في (لا ريب فيه) لليوم أو للجمع . قوله (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) . قال الزجاج : إن الموصول مرفوع على الابتداء .

وما بعده خبره كما تقول : الذي يكرمنى فله درهم ، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط . وقال الأخفش : إن شئت كان (الذين) في موضع نصب على البدل من الكاف والميم في (ليجمعنكم) أى ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم ، وأنكره المبرد وزعم أنه خطأ ، لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب . لا يقال مررت بك زيد ولا مررت بـ زيد ؛ وقيل يجوز أن يكون (الذين) مجرورا على البدل من المكذبين الذين تقدم ذكرهم أو على النعت لهم ؛ وقيل إنه منادى وحرف النداء مقدّر . قوله (وله ما سكن في الليل والنهار) أى لله ، وخص الساكن بالذكر ، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة ؛ وقيل المعنى : ما سكن فيها أو تحرك فاكنتى بأحد الضدين عن الآخر ، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة . قوله (قل أغير الله اتخذ وليا) الاستفهام للإنكار ، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام ، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله وليا ، لا لاتخاذ الولي مطلقا دخلت الهزة على المفعول لا على الفعل . والمراد بالولي هنا : المعبود : أى كيف اتخذ غير الله معبودا ؟ و (فاطر السموات والأرض) مجرور على أنه نعت لاسم الله ، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ ، وأجاز الزجاج النصب على المدح ، وأجاز أبو على الفارسي نصبه بفعل مضمر كأنه قيل أنرك فاطر السموات والأرض . قوله (وهو يطعم ولا يطعم) قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين في الأول . وضمها وفتح العين في الثاني : أى يرزق ولا يرزق . وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش بفتح الياء في الثاني وفتح العين . وقرأ بفتح الياء والعين في الأول وضمها وكسر العين في الثاني على أن الضمير يعود إلى الولي المذكور ، وخص الإطعام دون غيره من ضروب الإنعام لأن الحاجة إليه أمس . قوله (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) أمره سبحانه بعد ما تقدم من اتخاذ غير الله وليا أن يقول لهم إنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه ، وأخلص من أمته ؛ وقيل معنى (أسلم) استسلم لأمر الله ، ثم نهاه الله عز وجل أن يكون من المشركين . والمعنى : أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك : أى يقول لهم هذا . ثم أمره أن يقول (إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أى إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهي . والخوف : توقع المكروه ؛ وقيل هو هنا بمعنى العلم : أى إني أعلم إن عصيت ربي أن لي عذابا عظيما . قوله (من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه) قرأ أهل المدينة وأهل مكة وابن عامر على البناء للمفعول : أى من يصرف عنه العذاب ، واختار هذه القراءة سيويه . وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل وهو اختيار أبي حاتم ، فيكون الضمير على هذه القراءة لله . ومعنى (يومئذ) يوم العذاب العظيم (فقد رحمه) الله أى نجاه وأنعم عليه وأدخله الجنة . والإشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة : أى فذلك الصرف أو الرحمة (الفوز المبين) أى الظاهر الواضح ، وقرأ أبي (من يصرف الله عنه) . قوله (وإن يمسسك الله بضر) أى إن ينزل الله بك ضرا من فقر أو مرض (فلا كاشف له إلا هو) أى لا قادر على كشفه سواه (وإن يمسسك بخير) من رخاء أو عافية (فهو على كل شيء قدير) ومن جملة ذلك المس بالشئ والخير . قوله (وهو القاهر فوق عباده) القهر : الغلبة . والقاهر : الغالب . وأقهر الرجل : إذا صار مقهورا ذليلا . ومنه قول الشاعر :

تمنى حصين أن يسود خزاعة فأمسى حصين قد أذل وأقهر

ومعنى (فوق عباده) فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ، لافوقية المكان كما تقول : السلطان فوق رعيته : أى بالمنزلة والرفعة . وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة . وهو منع غيره عن بلوغ المراد (وهو الحكيم) في أمره (الخير) بأفعال عباده . قوله (قل أى شئ أكبر شهادة) أى مبتدأ . وأكبر خبره . وشهادة تمييز . والشئ ، يطلق على القديم والحادث . والمحال والممكن . والمعنى : أى شهيد أكبر شهادة ، فوضع شئ . موضع شهيد ؛

وقيل إن (شئ) هنا موضوع موضع اسم الله تعالى ، والمعنى : الله أكبر شهادة : أى انفراده بالربوبية . وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم فهو شهيد بينى وبينكم : وقيل إن قوله (الله شهيد بينى وبينكم) هو الجواب . لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شهادة له صلى الله عليه وآله وسلم : وقيل إنه قد تم الجواب عند قوله (قل الله) يعنى الله أكبر شهادة . ثم ابتداء فقال (شهيد بينى وبينكم) أى هو شهيد بينى وبينكم . قوله (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أى أوحى الله إلى هذا القرآن الذى تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به وأنذر به من بلغ إليه : أى كل من بلغ إليه من موجود ومعلوم سيوجد فى الأزمنة المستقبلية ، وفى هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النزول ما لا يحتاج معه إلى تلك الحزعلات المذكورة فى علم أصول الفقه . وقرأ أبو نبيك (وأوحى) على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عداة على البناء للمفعول . قوله (أننكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) الاستفهام للتوبيخ والتفريع على قراءة من قرأ بهزتين على الأصل أو بقلب الثانية ، وأما من قرأ على الخبر فقد حقق عليهم شركهم ، وإنما قال (آلهة أخرى) لأن الآلهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث : كذا قال الفراء . ومثله قوله تعالى - والله الأسماء الحسنى - وقال - فما بال القرون الأولى - (قل لا أشهد) أى فأنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه ، وذلك لكون هذه الشهادة باطلة . ومثله - فإن شهدوا فلا تشهد معهم - وما فى (مما تشركون) موصولة أو مصدرية : أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة . أو من إشراككم بالله . قوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) الكتاب للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما : أى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قال به جماعة من السلف ، وإليه ذهب الزجاج : وقيل إن الضمير يرجع إلى الكتاب : أى يعرفونه معرفة محقة بحيث لا يلتبس عليهم منه شئ . و (كما يعرفون أبناءهم) بيان لتحقيق تلك المعرفة وكماها وعدم وجود شك فيها ، فإن معرفة الآباء للأبناء هى البالغة إلى غاية الإتقان إجمالاً وتفصيلاً . قوله (الذين خسروا أنفسهم) فى محل رفع على الابتداء . وخبره (فهم لا يؤمنون) ودخول الفاء فى الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط : وقيل إن الموصول خبر مبتدأ محذوف : وقيل هو نعت للموصول الأول . وعلى الوجهين الأخيرين يكون (فهم لا يؤمنون) معطوفاً على جملة (الذين آتيناهم الكتاب) . والمعنى على الوجه الأول أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمردهم لا يؤمنون بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وعلى الوجهين الأخيرين أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحق وعدم العمل بالمعرفة التى ثبتت لهم فهم لا يؤمنون . قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أى اختلق على الله الكذب فقال : إن فى التوراة أو الإنجيل ما لم يكن فيهما (أو كذب بآياته) التى يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البينة . فجمع بين كونه كاذباً على الله ومكذباً بما أمره الله بالإيمان به ، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد الله أظلم منه . والضمير فى (إنه لا يفلح الظالمون) للشأن .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سلمان الفارسي قال : إنا نجد فى التوراة أن الله خلق السموات والأرض ، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق . ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة فيها يترحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتبذلون ، وبها يتزاورون وبها تحن الناقة . وبها تنج البقرة ، وبها تيعر الشاة ، وبها تتابع الطير ، وبها تتابع الحيتان فى البحر . فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع . وقد أخرج مسلم وأحمد وغيرهما عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة : منها رحمة يترحم بها الخلق » .

وتسعة وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكلها بهذه الرحمة ، وثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لما قضى الله الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي . وقد روى من طرق أخرى بنحو هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وله ما سكن في الليل والنهار) يقول ما استقر في الليل والنهار ، وفي قوله (قل أعجز الله أم أخذوليا) قال : أما الولي فالذي تولاه ويقر له بالربوبية . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فاطر السموات والأرض) قال : بديع السموات والأرض . وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن جرير وابن الأنباري عنه قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ؟ حتى أتاني أعرابيَان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرته ، يقول أنا ابتدأتها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وهو يعلم ولا يعلم) قال : يرزق ولا يرزق . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (من يصرف عنه) قال : من يصرف عنه العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (وإن بمسك بخير) يقول : بعافية . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء النمام بن زيد وقدم بن كعب وبخري بن عمرو فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلها غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا إله إلا الله ، بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو . فأنزل الله (قل أي شيء أكبر شهادة) الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد قال : أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل قريشا أي شيء أكبر شهادة ؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول : الله شهيد بيني وبينكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به) يعني أهل مكة (ومن بلغ) يعني من بلغه هذا القرآن من الناس فهو له نذير . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية (وأوحى إلى هذا القرآن) كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كسرى وقيسر والنجاشي وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والطيب وابن النجار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من بلغه القرآن فكأنما شافهته به . ثم قرأ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي لفظ : من بلغه القرآن حتى تفهمه وتعقله كان كمن عاين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به) قال : العرب (ومن بلغ) قال : المعجم . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قال النضر وهو من بني عبد الدار : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى ، فأنزل الله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الآية .

وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظِرْ

كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا
حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ
يَسْتَهْزِئُونَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا
عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأَ
لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا
إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ
الْأَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) .

قوله (ويوم نحشرهم) قرأ الجمهور بالنون في الفعلين . وقرئ بالياء ليهما . وناصب الظرف محذوف مقدر متأخرا : أى يوم نحشرهم كان كيث وكيث . والاستغناء في (أين شركاؤكم) للتفريع والتوبيخ للمشركين . وأضاف الشركاء إليهم . لأنهم لم تكن شركاء لله في الحقيقة بل لما سموها شركاء أضيف إليهم ، وهى ما كانوا يعبدونه من دون الله أو يعبدونه مع الله . قوله (الذين كنتم تزعمون) أى تزعمونها شركاء . فحذف المقولان معا . ووجه التوبيخ بهذا الاستغناء أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال أو كانت حاضرة ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه . فكان وجودها كعدمها . قوله (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) قال الزجاج : تأويل هذه الآية أن الله عز وجل أخبر بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم . ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حتى رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك . ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاوبا . فلذا وقع في هلكة نبرأ منه فتقول : ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه انتهى . فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم : أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى افتخروا به وقاتلوا عليه إلا ما وقع منهم من الجحود والخلف على نفيه بقولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) وقيل المراد بالفتنة هنا جوابهم : أى لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرى . فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذبا ، وجملة (ثم لم تكن فتنتهم) معطوفة على عامل الظرف المقدّر كما مر والاستثناء مفرغ . وقرئ فتنتهم بالرفع وبالنصب . ويمكن وتكن والوجه ظاهر . وقرئ (وما كان فتنتهم) وقرئ (ربنا) بالنصب على النداء (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) بإنكار ما وقع منهم في الدنيا من الشرك (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى زال وذهب افتراؤهم وتلاشى وبطل ما كانوا يظنون من أن الشركاء يقربونهم إلى الله : هذا على أن ما مصدرية ؛ وقيل هى موصولة عبارة عن الآلة : أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يبق عنهم شيئا ، وهذا تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة : وقيل لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة لأنها دار لا يجرى فيها غير الصدق . فعنى (والله ربنا ما كنا مشركين) نفي شركهم عند أنفسهم ، وفي اعتقادهم ويؤيد هذا قوله تعالى - ولا يكتمون الله حديثا - . قوله (ومنهم من يستمع إليك) هذا كلام مبتدأ لبيان

ما كان يصنعه بعض المشركين في الدنيا ، والضمير عائد إلى الذين أشركوا : أى وبعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تلو القرآن (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم . والأكنة : الأغشية جمع كنان مثل الأسنة والسنان . كنت الشيء في كنه : إذا جعلته فيه ، وأكنفته أخفيته ، وجملة (جعلنا على قلوبهم أكنة) مستأنفة للإخبار بمضمونها ، أو في محل نصب على الحال : أى وقد جعلنا على قلوبهم أغشية كراهة أن يفقهوا القرآن . أو لتلا يفقهوه . والوقر : الصمم ؛ يقال وقرت أذنه تقرر وقرا : أى صمت . وقرأ طلحة بن مصرف (وقرا) بكسر الواو : أى جعل في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير ، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله . وذكر الأكنة والوقر تمثيل لقرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه كأن قلوبهم لاتعقل وأسماعهم لاتترك (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى لا يؤمنوا بشيء من الآيات التي يرونها من المعجزات ونحوها لعنادهم ونمردهم . قوله (حتى إذا جاموك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) حتى هنا هي الابتدائية التي تقع بعدها الجمل . وجملة يجادلونك في محل نصب على الحال ، والمعنى : أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاموك مجادلين لم يكتبوا بمجرد عدم الإيمان . بل يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين . وقبل حتى هي الجارة وما بعدها في محل جر . والمعنى : حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين . وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد . والأساطير قال الزجاج : واحدا أسطار . وقال الأخفش : أسطورة . وقال أبو عبيدة : أسطورة . وقال النحاس : أسطور . وقال القشيري : أسطير . وقيل هو جمع لا واحد له كعباديد وأبائيل . والمعنى : ما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث . قال الجوهري : الأساطير الأباطيل والثرهات . قوله (وهم يهون عنه وينثون عنه) أى ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن أو بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ويعبدونهم في أنفسهم عنه . وقيل إنها نزلت في أبي طالب فإنه كان ينهى الكفار عن أذية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعبدونهم في إجابته (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) أى ما يهلكون بما يقع منهم من النهي والنأي إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه ، والحال أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذي جلبوه على أنفسهم قوله (ولو ترى إذ وقفوا على النار) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من تنأى منه الروية . وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعاني : و (وقفوا) معناه حبسوا . يقال وقفته وقف ووقفا وقفا ، وقيل معنى (وقفوا على النار) أدخلوها فتكون على بمعنى في : وقيل هي بمعنى الباء : أى وقفوا بالنار أى بقربها معانين لها ، ومفعول ترى محذوف : وجواب لو محذوف ليذهب السامع كل مذهب ، والتقدير : لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظرا هائلا وحالا فظيحا (فقالوا يا ليتنا نرد) أى إلى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا) أى التي جاءنا بها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (ونكون من المؤمنين) بها العاملين بما فيها ، والأفعال الثلاثة داخلية تحت التمني : أى تمنوا الرد ، وأن لا يكذبوا ، وأن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة كما هي قرارة الكسائي وأهل المدينة وشعبة وابن كثير وأبي عمرو . وقرأ حفص وحزرة بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمني . واختار سيويه القطع في (ولا نكذب) فيكون غير داخل في التمني . والتقدير : ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب : أى لا نكذب رددنا أو لم نرد ، قال : وهو مثل دعنى ولا أعود : أى لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني . واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروج من التمني بقوله (وإنهم لكاذبون) لأن الكذب لا يكون في التمني . وقرأ ابن عامر (ونكون) بالنصب وأدخل القطلين الأولين في التمني . وقرأ أبي (ولا نكذب بآيات ربنا أبدا) . وقرأ هو وابن مسعود (باليتنا نرد فلا

(تكذب) بالفاء والنصب . والفاء ينصب بها في جواب التثنية كما ينصب بالواو كما قال الزجاج . وقال أكثر البصريين : لا يجوز الجواب إلا بالفاء . قوله (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) هذا إضراب عما يدل عليه التثنية من الوعد بالإيمان والتصديق : أى لم يكن ذلك التثنية منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد بل هو لسبب آخر . وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون : أى يحسدون من الشرك وعرفوا أنهم هالكون بشرتهم فعدلوا إلى التثنية والمواعيد الكاذبة : وقيل بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم : وقيل بدا لهم ما كانوا يكتسبون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وقال المبرد : بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه وهو مثل القول الأول : وقيل المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الفجوة ما كان الفجوة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة (ولوردوا) إلى الدنيا حسبا تمنوا (لعادوا) لفعل ما نهوا عنه من القبائح التى رأسها الشرك كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند (وإنهم لكاذبون) أى متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا : وقيل المعنى : وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان . وقرأ يحيى بن وثاب (ولوردوا) بكسر الراء لأن الأصل رددوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء . وجملة (وإنهم لكاذبون) معترضة بين المعطوف وهو وقالوا : وبين المعطوف عليه وهو لعادوا : أى لعادوا إلى ما نهوا عنه (وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا) أى ما هى إلا حياتنا الدنيا (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت . وهذا من شدة تمردهم وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث . قوله (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) قد تقدم تفسيره فى قوله (ولو ترى إذ وقفوا على النار) أى حسبوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم : وقيل على بمعنى عند : وجواب لو محذوف : أى لشاهدت أمرا عظيما : والاستفهام فى (أليس هذا بالحق) للتفريع والتوبيخ : أى أليس هذا البعث الذى ينكرونه كائنا موجودا . وهذا الجزاء الذى يحسدونه حاضرا . (قالوا بلى وربنا) اعترفوا بما أنكروا وأكذوا اعترافهم بالقسم (قال قذفوا العذاب) الذى تشاهدونه وهو عذاب النار (بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم به أو بكل شئ مما أمرتم بالإيمان به فى دار الدنيا .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ثم لم تكن فتنتهم) قال : معذرتهم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه (ثم لم تكن فتنتهم) قال : حجبتهم (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) يعنى المنافقين والمشركين قالوا وهم فى النار : هلم فلنكذب فعله أن ينفعنا . فقال الله (انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم) فى القيامة (ما كانوا يفترون) يكذبون فى الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله (والله ربنا ما كنا كائنات مشركين) ثم قال - ولا يكتسبون الله حديثا - قال بجوارحهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) قال : باعتذارهم الباطل (وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) قال : ما كانوا يشركون . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ومنهم من يستمع إليك) قال : قرئش . وفى قوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة) قال : كالجعبة للنبل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) قال : يسمعون بآذانهم ولا يعون منه شيئا : كمثل البهيمة التى لاتسمع النداء ولا تدرى ما يقال لها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : الغطاء أكن قلوبهم أن يفقهوه . والوقر الصمم . و (أساطير الأولين) أساجيع الأولين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أساطير الأولين : أحاديث الأولين . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : أساطير الأولين : كذب الأولين وباطلهم .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (وهم يهون عنه ويتأون عنه) قال : نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يردوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتباعد عما جاء به . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن القاسم بن عيمرة نحوه . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه أيضا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يهون عنه الناس أن يؤمنوا به ، ويتأون عنه : يتباعدون . وأخرج ابن جرير عن طريق العوفي عنه قال : لا يلقونه ولا يدعون أحدا يأتيه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن الحنفية في الآية قال : كفار مكة كانوا يدفعون الناس عنه ولا يجيئون . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : يهون عن القرآن وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتأون عنه يتباعدون عنه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال في الآية قال : نزلت في عمومة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا عشرة . فكانوا أشد الناس معه في العلانية ، وأشد الناس عليه في السر . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) قال : من أعمالهم (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) يقول : ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء التي كانوا نهوا عنها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدورا على الهدى ، فقال (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) أي ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حيل بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشُرَتْنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢٢) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزِنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٢٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ (٢٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَلَا أَسْطِطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٢٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٢٦) .

قوله (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله) هم الذين تقدم ذكرهم . والمراد من تكذيبهم بقاء الله تكذيبهم بالبعث ، وقبل تكذيبهم بالخزاء . والأول أولى . لأنهم الذين قالوا قريبا - إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين

(حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) أى القيامة . وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها . ومعنى بغتة : فجأة . يقال بغتهم الأمر يبعثهم بغتاً وبغتة . قال سيويه : وهى مصدر فى موضع الحال ، قال : ولا يجوز أن يقاس عليه . فلا يقال جاء فلان سرعة . و (حتى) غاية للتكذيب لا للخسران . فإنه لا غاية له (قالوا يا حسرتنا) هذا جواب إذا جاءتهم أوقعوا النداء على الحسرة . وليست بمنادى فى الحقيقة ليدل ذلك على كسرة تحسرهم . والمعنى : يا حسرتنا احضرى فهذا أو انك . كذا قال سيويه فى هذا النداء وأمثاله كقولهم يا للعجب وبأ للرجل : وقيل هو تنبيه للناس على عظم ما يخل بهم من الحسرة . كأنهم قالوا يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة ، والحسرة : الندم الشديد (على ما فرطنا فيها) أى على تفريطنا فى الساعة : أى فى الاعتداد لها ، والاحتفال بشأنها . والتصديق بها . ومعنى فرطنا ضيعنا ، وأصله التقدّم ، يقال فرط فلان : أى تقدّم وسبق إلى الماء . ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : وأنا فرطكم على الحوض : ومنه الفارط : أى المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم (على ما فرطنا) أى على ما قدّمنا من عجزنا عن التصديق بالساعة والاعتداد لها . وقال ابن جرير الطبرى : إن الضمير فى فرطنا فيها يرجع إلى الصفقة . وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، والدنيا بالآخرة (قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا) فى صفقتنا . وإن لم تذكر فى الكلام فهو دال عليها . لأن الخسران لا يكون إلا فى صفقة ؛ وقيل الضمير راجع إلى الحياة : أى على ما فرطنا فى حياتنا . قوله (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) هذه الجملة حالية : أى يقولون تلك المقالة . والحال أنهم (يحملون أوزارهم على ظهورهم) أى ذنوبهم . جمع وزر : يقال وزر يزر ، فهو وازر وموزور . وأصله من الوزر . قال أبو عبيدة : يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع : أحمل وزرك : أى ثقلك . ومنه الوزير ، لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية . والمعنى : أنها لزمهم الآثام فصاروا مثقلين بها . وجعلها محمولة على الظهور تمثيل (ألا ساء ما يزرون) أى بشس ما يحملون . قوله (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو على تقدير حذف مضاف ، أو ما الدنيا من حيث هى إلا لعب ولهو . والقصد بالآية تكذيب الكفار فى قولهم (ما هى إلا حياتنا الدنيا) واللعب معروف ، وكذلك اللهو ، وكل ما يشغلك فقد أهلك ؛ وقيل أصله الصرف عن الشيء . ورد بأن اللهو بمعنى الصرف لأمه ياء . يقال لهيت عنه . ولام اللهو واو ، يقال لهوت بكذا (وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا : أى هى خير للذين يتقون الشرك والمعاصى ، أفلا تعقلون ذلك . قرأ ابن عامر (وللدار الآخرة) بلام واحدة وبالإضافة وقرأ الجمهور باللام التى للتعريف معها ، وجعل الآخرة نعنا لها والخير خير ، وقرئ تعقلون بالفوقية والتحتية . قوله (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) هذا اللام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عما ناله من النعم والحزن بتكذيب الكفار له ، ودخول قد للتكثير فإنها قد تأنى لإفادته كما تأنى رب والضمير فى (إنه) للشأن . وقرئ بفتح الباء من يحزنك وضمها . وقرئ « يكذبونك » مشدداً ومخففاً ، واختار أبو عبيد قراءة التخفيف . قال النحاس : وقد خولف أبو عبيد فى هذا . ومعنى « يكذبونك » على التشديد : ينسبونك إلى الكذب ويردّون عليك ما قلته . ومعنى المخفف : أنهم لا يحملونك كذاباً ، يقال أكذبت : وجدته كذاباً ، وأبخلته : وجدته بخيلاً . وحكى الكسائى عن العرب : أكذبت الرجل : أخبرت أنه جاء بالكذب ، وكذّبت : أخبرت أنه كاذب . وقال الزجاج : كذبت إذا قلت له كذبت ، وأكذبت : إذا أردت أن ما أتى به كذب . والمعنى : أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق ؛ ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به ، ولهذا قال (ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) ووضع الظاهر موضع المصمر لزيادة التوبيخ لهم والإزراء عليهم . ووصفهم بالظلم

ليبان أن هذا الذي وقع منهم ظلم بين : قوله (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) هذا من جملة التسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أى أن هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأول ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم ، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد بهم ولا تحزن واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فلما لا تخلف الميعاد و- لكل أجل كتاب - إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا - ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون - كتب الله لأغلبن أنا ورسلى - ولا مبدل لكلمات الله - بل وعده كائن وأنت منصور على المكذبين ، ظاهر عليهم . وقد كان ذلك والله الحمد (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ما جاءك من تجرى قومهم عليهم في الابتداء وتكذيبهم لهم ثم نصرهم عليهم في الانتهاء ، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل فيرجعون إليك ويدخلون في الدين الذي تدعوهم إليه طوعا أو كرها . قوله (وإن كان كبر عليك إعراضهم) كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكبر عليه إعراض قومه ويتعاضمه ويحزن له فيبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له ، والإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله عز وجل ، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك ، ثم علق ذلك بما هو محال ، فقال (فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض) فتأتيهم بآية منه (أو سلما في السماء فتأتيهم بآية) منها فافعل ، ولكنك لاتستطيع ذلك فدع الحزن - و- لاتذهب نفسك عليهم حسرات - وما أنت عليهم بمسيطر - والنفق : السرب والمنفذ ، ومنه التافقاء بلحمر اليربوع ، ومنه المنافق . وقد تقدم في البقرة ما يغنى عن الإعادة . والسلم : الدرج الذي يرتقى عليه . وهو مذكر لا يؤنث ، وقال الفراء : إنه يؤنث . قال الزجاج : وهو مشتق من السلامة . لأنه يسلك به إلى موضع الأمن ، وقيل إن الخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالمراد به أمته ، لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرد الكفرة وتصميمهم على كفرهم ولا يشعرون أن الله سبحانه في ذلك حكمة لاتبلغها العقول ولا تدركها الأفهام ، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى . ولهذا قال (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) جمع إلهاء وقسر ، ولكنه لم يشأ ذلك والله الحكمة البالغة (فلا تكونن من الجاهلين) فإن شدة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ولست منهم ، فدع الأمور مفوضة إلى عالم الغيب والشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة . ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطرارا (إنما يستجيب الذين يسمعون) أى إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجه الأفهام وهؤلاء ليسوا كذلك ، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة وفي آذانهم من الوقر ، ولهذا قال (والموتى يبعثهم الله) شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعا لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق : أى أن هؤلاء لا يبلغهم الله إلى الإيمان وإن كان قادرا على ذلك كما يقدر على بعث الموتى للحساب (ثم إليه يرجعون) إلى الجزاء فيجازى كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (قالوا يا حسرتنا) قال : الحسرة الندامة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (يا حسرتنا) قال : الحسرة أن يرى أهل النار متازلهم من الجنة . فتلك الحسرة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ألا ساء ما يزرون) قال : ما يعملون

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (لعب ولهو) قال : كل لعب : هو . وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والضياء في المختارة عن علي بن أبي طالب قال : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به . ، فأنزل الله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يحدثون) . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي يزيد المدني أن أبا جهل قال : والله إني لأعلم أنه صادق ، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف ؟ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن أبي ميسرة نحو رواية علي بن أبي طالب . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ولكن الظالمين بآيات الله يحدثون) قال : يعلمون أنك رسول الله ويحدثون . وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله (ولقد كذبت رسل من قبلك) قال : يعزى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال (فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض) والنق : السرب ، فتذهب فيه فتأتيهم بآية أو تجعل لهم سلما في السماء فتصعد عليه (فتأتيهم بآية) أفضل مما أتيناكم به فافعل (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) يقول سبحانه : لو شئت لجمعهم على الهدى أجمعين . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (نفقا في الأرض) قال : سربا (أو سلما في السماء) قال : يعني الدرج . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (إنما يستجيب الذين يسمعون) قال : المؤمنون (والموتى) قال : الكفار . وأخرج هؤلاء عن مجاهد مثله .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ (٢٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٩) .

هذا كان منهم نعتا ومكابرة حيث لم يقتلوا بما قد أنزل الله على رسوله من الآيات البينات التي من جملتها القرآن . وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثله . ومرادهم بالآية هنا هي التي تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمراى منهم ومسمع ، أو تنق الجبل كما وقع لبني إسرائيل ، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الإيمان ، ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التكليف الذي هو الابتلاء والامتحان . وأيضاً لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا . قال الزجاج : طلبوا أن يجمعهم على الهدى ، يعني جمع إلهاء (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الله قادر على ذلك ، وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبلغها عقولهم . قوله (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم) الدابة من دبة بدب فهو داب : إذا مشى مشيا فيه تقارب خطو . وقد تقدم بيان ذلك في البقرة (ولا طائر) معطوف على (دابة) مجرور في قراءة الجمهور . وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق (ولا طائر) بالرفع عطفا على موضع من دابة على تقدير زيادة من . و (بجناحيه) لدفع الإيهام ، لأن العرب تستعمل الطيران لغير الطير كقولهم : طرقي حاجتي ؛

أى أسرع ؛ وقيل إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران ، ومع عدم الاعتدال يميل . فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين ؛ وقيل ذكر الجناحين للتأكيد كضرب يده وأبصر بعينه ونحو ذلك . والجناح : أحد ناحيتي الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء ، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي . والمعنى : ما من دابة من الدواب التى تدب فى أى مكان من أمكنة الأرض ولا طائر يطير فى أى ناحية من نواحيها (إلا أم أمثالكم) أى جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ؛ ورزقهم كما رزقكم داخله تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شئ . وقيل (أمثالنا) فى ذكر الله والدلالة عليه ؛ وقيل (أمثالنا) فى كونهم محشورين ، روى ذلك عن أبى هريرة . وقال سفيان بن عيينة : أى ما من صنف من الدواب والطير إلا فى الناس شبه منه ، فمنهم من يعدو كالأسد . ومنهم من يشبه كالحنزيب ، ومنهم من يعوى كالكلب . ومنهم من يزهر كالطاوس ؛ وقيل (أمثالكم) فى أن لما أسماء تعرف بها . وقال الزجاج (أمثالكم) فى الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص . والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان . قوله (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) أى ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شئ . والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، فإن الله أثبت فيه جميع الحوادث ؛ وقيل إن المراد به القرآن ؛ أى ما تركنا فى القرآن من شئ من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا ، ومثله قوله تعالى - ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ - ، وقال - وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم - . ومن جملة ما أجمله فى الكتاب العزيز قوله - ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - فأمر فى هذه الآية باتباع ما سنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكل حكم سنه الرسول لأمرته قد ذكره الله سبحانه فى كتابه العزيز . بهذه الآية وبشعر قوله تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني - وبقوله - لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة - « ومنه فى (من شئ) مزيدة للاستغراق . قوله (ثم إلى ربهم يحشرون) يعنى الأمم المذكورة . وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم . وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء ، ومنهم أبو ذر وأبو هريرة والحسن وغيرهم . وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها ، وبه قال الضحاك . والأول أرجح للآية . ولما صبح فى السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجللحاء من الشاة القرناء ، ولقول الله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - . وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور فى الآية حشر الكفار . وما تخلل كلام معترض . قالوا : وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص . واستدلوا أيضا بأن فى هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة . ولنظرة حتى يقاد للشاة الجللحاء من القرناء ، وللحجر لم ركب على الحجر ؟ والعود لم خدش العود ؟ قالوا : والجمادات لا يعقل خطاياها ولا ثوابها ولا عقابها . قوله (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم) أى لا يسمعون بأسماعهم ولا ينطقون بالسنتهم ، نزلهم منزلة من لا يسمع ولا ينطق لعدم قبولهم لما ينبغى قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة . وقال أبو على : يجوز أن يكون صممهم وبكمهم فى الآخرة . قوله (فى الظلمات) أى فى ظلمات الكفر والجهل والحيرة لا يهتدون لشئ مما فيه صلاحهم . والمعنى : كائنين فى الظلمات التى تمنع من إِبصار المبصرات وضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار لتراكم الظلمة عليهم . فكانت حواسهم كالمسلوبة التى لا ينتفع بها بحال وقد تقدم فى البقرة تحقيق المقام بما يغنى عن الإعادة : ثم بين سبحانه أن الأمر بيده ما شاء يفعل . من شاء تعالى أن يضلله أضله . ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم لا يذهب به إلى غير الحق . ولا يمشى فيه إلا إلى صوب الاستقامة .

وقد أخرج الترمذى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله (إلا أم أمثالكم)

قال : أصنافا مصنفه تعرف بأسمائها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي : قال : خلق أمثالكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج في الآية قال : الذرة لما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس (ما فرطنا في الكتاب من شيء) يعني ما تركنا شيئا إلا وقد كتبناه في أم الكتاب . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ثم إلى ربهم يحشرون) قال : موت البهائم حشرها ، وفي لفظ قال : يعني بالحشر الموت . وأخرج عبد الرزاق وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة ، ثم يقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن ، ثم يقال لها كوني ترابا . فعند ذلك يقول الكافر - يا ليتني كنت ترابا - وإن شئت فاقروا (وما من دابة في الأرض) الآية . وأخرج ابن جرير عن أبي ذر قال : انتطحت شاتان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي : يا أبا ذر أتدرى فيم انتطحتا ؟ قلت : لا قال : لكن الله يدري وسيقضى بينهما ، قال أبو ذر : ولقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يقلب طائر جناحيه في السماء ولا ذكرنا منه علما . وأخرجه أيضا أحمد . وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لتودن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء .

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (١١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (١٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (١٤) فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٥) .

قوله (أَرَأَيْتَكُمْ) الكاف والميم عند البصريين للخطاب ولا حظ لهما في الإعراب . وهو اختيار الزجاج . وقال الكسائي والفراء وغيرهما : إن الكاف والميم في محل نصب بوقوع الرؤية عليهما . والمعنى : أَرَأَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ . قال في الكشف مرجحا للمذهب الأول : إنه لا محل للضمير الثاني ، يعني الكاف من الإعراب ، لأنك تقول : أَرَأَيْتَكَ زيدا ما شأنه ، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أَرَأَيْتَ نَفْسَكَ زيدا ما شأنه وهو خلف من القول انتهى . والمعنى : أخبروني (إن أناكم عذاب الله) كما أتى غيركم من الأمم (أو أتتكم الساعة) أي القيامة (أغير الله تدعون) هذا على طريقة التبيكيت والتوبيخ : أي أتدعون غير الله في هذه الحالة من الأصنام التي تعبدونها أم تدعون الله سبحانه . وقوله (إن كنتم صادقين) تأكيد لذلك التوبيخ : أي أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنفع وأنها آلهة كما ترعون . قوله (بل إياه تدعون) معطوف على متنى مقدر

أى لا تدعون غيره بل إياه تخلصون بالدعاء (فيكشف ما تدعون إليه) أى فيكشف عنكم ما تدعونه إلى كشفه إن شاء أن يكشفه عنكم لا إذا لم يشأ ذلك . قوله (وتفسون ما تشركون) أى وتنسون عند أن يأتيكم العذاب ما تشركون به تعالى : أى ما تجعلونه شريكاً له من الأصنام ونحوها فلا تدعونها ، ولا ترجون كشف ما بكم منها . بل تعرضون عنها لعراض الناس . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وتتركون ما تشركون . قوله (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) كلام مبتدأ مسوق لتسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أى ولقد أرسلنا إلى أمم كاثنة من قبلك رسلاً فكذبوهم (فأخذناهم بالبأساء والضراء) أى البؤس والضرّ وقيل : البأساء المصائب في الأموال . والضراء المصائب في الأبدان ، وبه قال الأكثر (لعلمهم يتضرعون) أى يدعون الله بضرّاعة : مأخوذ من الضرّاعة وهى الدلّ ، يقال : ضرع فهو ضارع ، ومنه قول الشاعر :

ليك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

قوله (فلو لا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا) أى فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا لكنهم لم يتضرّعوا . وهذا عتاب لهم على ترك الدعاء في كل الأحوال حتى عند نزول العذاب بهم لشدة تمرّدهم وغلوّهم في الكفر . ويجوز أن يكون المعنى أنهم تضرّعوا عند أن نزل بهم العذاب ، وذلك تضرّع ضرورى لم يصدر عن إخلاص فهو غير نافع لصاحبه . والأول أولى كما يدل عليه . ولكن قست قلوبهم - أى صلبت وغلظت (وذين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) أى أغواهم بالتصميم على الكفر والاستمرار على المعاصي . قوله (فلما نسوا ما ذكروا به) أى تركوا ما ذكروا به . أو أعرضوا عما ذكروا به . لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به . إذ ليس هو من فعلهم ، وبه قال ابن عباس وابن جرير وأبو على الفارسي . والمعنى : أنهم لما تركوا الاعتاظ بما ذكروا به من البأساء والضراء وأعرضوا عن ذلك (فتحننا عليهم أبواب كل شيء) أى لما نسوا ما ذكروا به استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) من الخير على أنواعه فرح بطر وأشر وأعجبوا بذلك وظنوا أنهم إنما أعطوه لكون كفرهم الذى هم عليه حقاً وصواباً (أخذناهم بغتة) أى فجأة وهم غير مترقبين لذلك والبغطة : الأخذ على غرة من غير تقدمة أمانة . وهى مصدر في موضع الحال لا يقاس عليها عند سيبويه . قوله (فلذا هم مبلسون) المبلس : الحزين الآيس من الخير لشدة ما نزل به من سوء الحال . ومن ذلك اشتق اسم إبليس ، يقال أبلس الرجل إذا سكت ، وأبلس الناقة إذا لم ترع . قال المعجّاج :

صاح هل تعرف رسماً مكرساً قال نعم أعرفه وأبلساً

أى تحير هول ما رأى . والمعنى : فلذا هم محزونون متحIRON آيسون من الفرح . قوله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) الدابر الآخر ، يقال دبر القوم يدبرهم دبّراً : إذا كان آخرهم في الحىء . والمعنى : أنه قطع آخرهم : أى استوصلوا جميعاً حتى آخرهم . قال قطرب : يعنى أنهم استوصلوا وأهلكوا . قال أمية بن أبى الصلت :

فأهلكوا بعذاب حص دابرهم فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا

ومنه التدبير لأنه أحكام عواقب الأمور . قوله (والحمد لله رب العالمين) أى على هلاكهم . وفيه تعليم للمؤمنين كيف يحملونه سبحانه عند نزول النعم التي من أجلها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فلانهم أشدّ على عباد الله من كل شديد . اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين واقطع دابرهم وأبطلهم بالعدل الشامل لهم وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله (فأخذناهم بالبأساء والضراء) قال : خوف السلطان وغلاء السعر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فلما نسوا ما ذكروا به) قال :

يعنى تركوا ما ذكروا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج (فلما نسوا ما ذكروا به) قال : مادعاهم الله إليه ورساله أبوه وردتوه عليهم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فتحتنا عليهم أبواب كل شيء) قال : رخاء الدنيا ويسرها . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) قال : من الرزق (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) قال : مهلكون متغير حالهم (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) يقول : فقطع أصل الذين ظلموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثي في قوله (أخذناهم بغتة) قال : أمهلوا عشرين سنة . ولا يخفى أن هذا مخالف لمعنى البغته لغة ومحتاج إلى نقل عن الشارع وإلا فهو كلام لا طائل تحته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : المبلس المجهود المكروب الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه . والمبلس أشد من المستكين : وفي قوله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) قال : استؤصلوا .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (١٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (١٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٨) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْشِيهِمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٩) .

هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم ، ووحد السمع لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر ولهذا جمعه . والختم : الطبع . وقد تقدم تحقيقه في البقرة . والمراد : أخذ المعاني القائمة بهذه الجوارح أو أخذ الجوارح نفسها . والاستفهام في (من إله غير الله يأتيكم به) للتوبيخ . « ومن » مبتدأ . « وإله » خبره . « وغير الله » صفة للخبر . ووحد الضمير في « به » مع أن المرجع متعدد على معنى : فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور وقيل الضمير راجع إلى أحد هذه المذكورات وقيل إن الضمير بمنزلة اسم الإشارة : أى يأتيكم بذلك المذكور ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالنظر في تصرف الآيات وعدم قبولهم لما تعجيبا له من ذلك ، والتصرف المحيى بها على جهات مختلفة . تارة إنذار وتارة إغذار وتارة ترغيب وتارة ترهيب . وقوله (ثم هم يصدفون) عطف على نصرف . ومعنى يصدفون : يعرضون . يقال : صدف عن الشيء : إذا عرض عنه صدفا وصدوفا . قوله (قل أريتكم إن أتاكم عذاب الله) أى أخبروني عن ذلك . وقد تقدم تفسير البغته قريبا أنها الفجأة . قال الكسائي : بغتهم يبعثهم بغتا وبغته : إذا أتاهم فجأة : أى من دون تقديم مقدمات تدل على العذاب . والجهرة أن يأتي العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه : وقيل البغته : إتيان العذاب ليلا . والجهرة : إتيان العذاب نهارا كما في قوله تعالى - بيانا أو نهارا - (هل يهلك إلا القوم الظالمون) الاستفهام للتقرير : أى ما يهلك هلاك تعذيب وخطب إلا القوم الظالمون . وقرئ « يهلك » على البناء للفاعل . قال الزجاج : معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ؟ انتهى . قوله (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل : أى مبشرين لمن أطاعهم

بما أهداه الله له من الجزاء العظيم ، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الويليل ؛ وقيل مبشرين في الدنيا بسعة الرزق وفي الآخرة بالثواب . ومنذرين مخوفين بالعقاب ، وهما حالان مقدرتان : أى ما نرسلهم إلا مقدرين تبشيرهم وإنذارهم (فن آمن وأصلح) أى آمن بما جاءت به الرسل (وأصلح) حال نفسه بفعل ما يدعونه إليه (فلا خوف عليهم) بوجه من الوجوه (ولا هم يحزنون) بحال من الأحوال ، هذا حال من آمن وأصلح . وأما حال المكذبين فهو أنه بمسهم العذاب بسبب فسقهم : أى خروجهم عن التصديق والطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (يصدفون) قال : يعدلون . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (يصدفون) قال : يعرضون ، وقال في قوله (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة) قال : فجأة آتئين . أو جهرة . قال : وهم ينظرون . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : كل فسق في القرآن فعناه الكذب .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُجْشِرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا ابْجَهَلَ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأُصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) .

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر إقتراحهم عليه وتعنتهم بإتزال الآيات التي تضطرمهم إلى الإيمان أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات . والمراد خزائن قدرته التي تشمل على كل شيء من الأشياء . ويقول لهم : إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به ويعرفهم بما سيكون في مستقبل الدهر (ولا أقول لكم إنى ملك) حتى تكلفوني من الأفعال الخارقة للعادة ما لا يطيقه البشر . وليس في هذا ما يدل على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية . بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعنى ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) أى ما أتبع إلا ما يوحى الله إلى ، وقد تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الأنبياء عملاً بما يفيد القصر في هذه الآية ، والمسئلة مدونة في الأصول والأدلة عليها معروفة . وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « أوتيت القرآن ومثله معه »

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) هذا الاستفهام للإنكار ، والمراد أنه لا يستوى الضال والمهتدي ، أو المسلم والكافر أو من اتبع ما أوحى إليه ومن لم يتبعه ، والكلام تمثيل (أفلا تتفكرون) في ذلك حتى تعرفوا عدم الاستواء بينهما . فإنه بين لا يلتبس على من له أدنى عقل وأقل تفكير . قوله (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) الإنذار : الإعلام . والضمير في به راجع إلى ما يوحى : وقيل إلى الله : وقيل إلى اليوم الآخر . وخص الذين يخافون أن يحشروا . لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف . بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لمحموده به وإنكاره له . فإنه لا يؤثر فيه ذلك . قيل ومعنى يخافون : يعلمون ويتيقنون أنهم محشورون : فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين : وقيل معنى الخوف على حقيقته . والمعنى : أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكره وإن لم يكن مصدقا به في الأصل . لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع . قوله (ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع) الجملة في محل نصب على الحال : أي أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولي لهم يواليهم ولا نصير ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم من دون الله . وفيه رد على من زعم من الكفار المعترفين بالحشر أن آبائهم يشفعون لهم . وهم أهل الكتاب . أو أن أصنامهم تشفع لهم . وهم المشركون . قوله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) الدعاء العبادة مطلقا . وقيل المحافظة على صلاة الجماعة : وقيل الذكر وقراءة القرآن : وقيل المراد الدعاء لله بجلب النفع ودفع الضرر . قيل : والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام على ذلك والاستمرار : وقيل هو على ظاهره ، و (يريدون وجهه) في محل نصب على الحال . والمعنى : أنهم مخلصون في عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى : أي يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره . قوله (ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء) هذا كلام معترض بين النهي وجوابه متضمن للنفي الحامل على الطرد : أي حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك من شيء . وحسابك على نفسك ما عليهم من شيء . فعلام تطردهم ؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله - ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا - وطعن عندك في دينهم وحسبهم . فكيف وقد زكاهم الله عز وجل بالعبادة والإخلاص . وهذا هو مثل قوله تعالى - ولا تزر وازرة وزر أخرى - وقوله - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وقوله - إن حسابهم إلا على ربى - . قوله (فتطردهم) جواب النفي في قوله (ما عليك من حسابهم من شيء) وهو من تمام الاعتراض : أي إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل ، ومن في « ما عليك من حسابهم من شيء » للتبعض . والثانية للتوكيد . وكذا في « ما من حسابك عليهم من شيء » . قوله (فتكون من الظالمين) جواب للنهي أعني (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) أي فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، وحاشاه عن وقوع ذلك . وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الإسلام كقوله تعالى - لنن أشركت ليحبطن عملك - . وقيل إن « فتكون من الظالمين » معطوف على « فتطردهم » على طريق التسبب . والأول أولى . قوله (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) أي مثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض . والفتنة الاختبار : أي عاملاتهم معاملة المختبرين . واللام في (ليقولوا) للعاقبة : أي ليقول البعض الأول مشيرين إلى البعض الثاني (هؤلاء) الذين (من الله عليهم من بيننا) أي أكرمهم بإصابة الحق دوننا . قال التحاسن : وهذا من المشكل . لأنه يقال كيف فتنا ليقولوا هذا القول وهو إن كان على طريقة الإنكار كفر ، وأجاب بجوابين :

الأول أن فك واقع منهم على طريقة الاستفهام لا على سبيل الإنكار : والثاني أنهم لما اختبروا بهذا. كان عاقبته هذا القول منهم كقولهم - فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً - . قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) هذا الاستفهام للتقرير . والمعنى : أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر ، وهو أعلم بالشاكرين له . فما بالكم تفتخرون بالجهل وتنكرون الفضل . قوله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) هم الذين نهى الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين ، كما سيأتي بيانه (قل سلام عليكم) أمره الله بأن يقول لهم هذا القول تطيباً لحواطمهم وإكراماً لهم . والسلام ، والسلامة : بمعنى واحد ، فعنى سلام عليكم : سلمكم الله . وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام : وقيل : إن هذا السلام هو من جهة الله : أى أبلغهم منا السلام . قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان ؛ وقيل كتب ذلك في اللوح المحفوظ . قيل هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيراً بسعة مغفرة الله وعظيم رحمته . قوله (أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة) قرأ ابن عامر وعاصم ونافع بفتح أن من أنه ، وقرأ الباقون بكسرها . فعل القراءة الأولى تكون هذه الجملة بدلاً من الرحمة : أى كتب ربكم على نفسه أنه من عمل إلى آخره . وعلى القراءة الثانية تكون هذه الجملة مفسرة للرحمة بطريق الاستثناف وموضع بجهالة النصب على الخلال : أى عمله وهو جاهل . قيل : والمعنى أنه فعل فعل الجاهلين ، لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة مع علمه بذلك أو ظنه ، فقد فعل فعل أهل الجهل والسفه لأفعل أهل الحكمة والتدبير ؛ وقيل المعنى : أنه عمل ذلك وهو جاهل لما يتعلق به من المضرة ، فتكون فائدة التقييد بالجهالة الإيذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدي إلى الضرر . قوله (ثم تاب من بعده) أى من بعد عمله (وأصلح) ما أفسده بالمعصية فراجع الصواب وعمل الطاعة (فإنه غفور رحيم) : قرأ ابن عامر وعاصم بفتح الهزة من « فإنه » . وقرأ الباقون بالكسر . فعل القراءة الأولى تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف : أى فأمره أن الله غفور رحيم . وهذا اختيار سيويه ، واختار أبو حاتم أن الجملة في محل رفع على الابتداء والخبر مضمرة ، كأنه قيل فله (أنه غفور رحيم) قال لأن المبتدأ هو ما بعد الفاء . وأما على القراءة الثانية فالجملة مستأنفة . قوله (وكذلك تفصل الآيات) أى مثل ذلك التفصيل لفصلها ، والتفصيل التبيين . ، والمعنى : أن الله فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين وبين لهم حكم كل طائفة . قوله (ولتستبين سبيل المحرمين) . قال الكوفيون : هو معطوف على مقدّر : أى وكذلك تفصل الآيات لتبين لكم ولتستبين قال النحاس : وهذا الحذف لا يحتاج إليه . وقيل إن دخول الواو للعطف على المعنى : قرئ « لتستبين » بالقوية والتحتية ، فالخطاب على القوية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أى لتستبين يا محمد سبيل المحرمين . وسبيل منصوب على قراءة نافع . وأما على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحفص بالرفع ، فالفعل مسند إلى سبيل وأما على التحتية فالفعل مسند إلى سبيل أيضاً ، وهى قراءة حمزة والكسائي وشعبة بالرفع ، وإذا استبان سبيل المحرمين فقد استبان سبيل المؤمنين :

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (قل هل يستوى الأعمى والبصير) قال : الأعمى الكافر الذى عمى عن حق الله وأمره ونعمه عليه ، والبصير : العبد المؤمن الذى أبصر بصراً نافعاً فوجد الله وحده ، وعمل بطاعة ربه . وانتفع بما أتاه الله . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسعود : قال مرّ الملائكة من قريش على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من صحفاه المسلمين .

فقالوا : يا محمد أَرْضَيْتَ بهؤلاء من قومك (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ، اطردهم هنا . فلعنك إن طردتهم أن تتبعك . فأنزل الله فيهم القرآن (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) إلى قوله (والله عليم بالظالمين) . وقد أخرج هذا السبب مطولاً ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ، وفيه : إن الذين جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدي بن الحيار بن نوفل في أشرف الكفار من عبد مناف . وأخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل عن خباب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري ، فذكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطولاً . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكبة ، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدھر . وأخرج مسلم والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال : لقد نزلت هذه الآية في ستة : أنا وعبد الله بن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلان لست أسميهما ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) . وقد روي في بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا في المعنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (بالغداة والعشي) قال : يعني الصلاة المكتوبة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الصلاة المكتوبة الصبح والعصر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم النخعي في الآية قال : هم أهل الذکر لا تطردهم عن الذکر . قال سفيان : أي أهل الفقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) يعني أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء ، فقال الأغنياء للفقراء (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) يعني أهؤلاء هدامهم الله ، وإنما قالوا ذلك استهزاء ومخزية . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا) أي لو كان لهم كرامة على الله ما أصابهم هذا الجهد وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان قال : أتى قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فما ردّ عليهم شيئاً فأنصرفوا ، فأنزل الله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) الآية فدعاهم فقرأها عليهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : أخبرني أن قوله (سلام عليكم) كانوا إذا دخلوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدأهم بالسلام ، فقال (سلام عليكم) وإذا لقيهم فكذلك أيضاً . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (وكذلك تفصل الآيات) قال : نيين الآيات . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (ولتستبين سبيل المجرمين) قال : الذين يأمرونك بطرد هؤلاء .

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ

الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا
حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩).

قوله (قل إني نهيته) أمره الله سبحانه أن يعود إلى غاطية الكفار ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعونه ويعبدونه من دون الله : أى نهى الله عن ذلك وصرفه وزجره . ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم (لا أتبع أهواءكم) أى لا أسلك المسلك الذى سلكتموه فى دينكم من اتباع الأهواء والمشى على ما توجه المقاصد الفاسدة التى ينسب عنها الوقوع فى الضلال . قوله (قد ضللت إذا) أى اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم وطرده من أردتم طرده (وما أنا من المهتدين) إن فعلت ذلك ، وهذه الحملة الاسمية معطوفة على الحملة التى قبلها ، والحجى بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات ، وقرئ (ضللت) بفتح اللام وكسرها وهما لغتان . قال أبو عمرو : ضللت بكسر اللام لغة تميم ، وهى قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف ، والأولى هى الأصح والأفصح . لأنها لغة أهل الحجاز ، وهى قراءة الجمهور . قال الجوهري : والضلال والضلالة ضد الرشاد . وقد ضللت أضل . قال الله تعالى - قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي - قال فهذه : يعنى المفتوحة لغة نجد وهى الفصيحة . وأهل العالية يقول : ضللت بالكسر أضل انتهى . قوله (قل إني على بينة من ربي) البينة : الحجة والبرهان : أى إني على برهان من ربي ويقين : لا على هوى وشك . أمره الله سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة ربه هو عن حجة برهانية يقينية ، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التى لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة . قوله (وكذبتم به) أى بالرب أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبينة . والتذكير للضمير باعتبار المعنى . وهذه الحملة إما حالية بتقدير قد : أى والحال أن قد كذبتم به ، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الحجج الواضحة والبراهين البينة . قوله (ما عندى ما تستعجلون به) أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب ، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء . نحو قوله - أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً - . وقولهم - اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء - . وقولهم - متى هذا الوعد إن كنتم صادقين - ، وقيل (ما عندى ما تستعجلون به) من الآيات التى تقرحونها على . قوله (إن الحكم إلا لله) : أى ما الحكم فى كل شىء إلا لله سبحانه ، ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة . والمراد : الحكم الفاصل بين الحق والباطل . قوله (يقص الحق) قرأ نافع وابن كثير وعاصم (يقص) بالقاف والصاد المهملة ، وقرأ الباقون (يقضي) بالضاد المعجمة والياء ، وكذا قرأ على وأبو عبد الرحمن السلمي وسعيد بن المسيب ، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء . فعلى القراءة الأولى هو من القصص : أى يقص القصص الحق ، أو من قص أثره : أى يتبع الحق فيما يحكم به . وعلى القراءة الثانية هو من القضاء : أى يقضى القضاء بين عباده ، والحق متصب على المفعولية ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف : أى يقضى القضاء الحق ، أو يقص القصص الحق (وهو خير الفاصلين) أى بين الحق والباطل بما يقضى به بين عبادة ويفصله لهم فى كتابه ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم (لو أن عندى ما تستعجلون به) أى ما تطلبون تعجيله بأن يكون إنزاله بكم مقبورا إلى وفى معنى (لقضى الأمر بينى وبينكم) أى لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزل الله سبحانه بكم بسؤاله وطلى ذلك ، أو المعنى : لو كان العذاب الذى تطلبونه وتستعجلون به عندى وفى قبضى لأنزله بكم ، وعند ذلك يقضى الأمر بينى وبينكم (والله أعلم بالظالمين) وبالوقت الذى ينزل فيه عذابهم وبما تقتضيه

مشيئة من تأخيره استلزاما لم وإعذارا إليهم . قوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) المفاتيح جمع مفتاح بالفتح : وهو الخزن : أى عنده مخازن الغيب ، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة . أو جمع مفتاح بكسر الميم ، وهو المفتاح . جعل للأمور الغيبية مفاتيح يتوصل بها إلى ما فى المخازن منها على طريق الاستعارة أيضا ، ويؤيد أنها جمع مفتاح بالكسر قراءة ابن السيف (وعنده مفاتيح الغيب) فإن المفاتيح جمع مفتاح والمعنى : إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتيح التى يتوصل بها إلى المخازن . وقوله (لا يعلمها إلا هو) جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى . وأنه لا علم لأحد من مخلقه بشئ من الأمور الغيبية التى استأثر الله بعلمها . ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجا أوليا . وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم ، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخدولة ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة سوء المذكورة فى قوله الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم « من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد » . قوله (ويعلم ما فى البر والبحر) خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله : أى يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علما مفصلا لا ينفى عليه منه شئ . أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى من ورق الشجر وهو تخصيص بعد التعميم : أى يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه . وقيل المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق ، وحكى الفاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بنى آدم ، قال ابن عطية : وهذا قول جار على طريقة الرموز ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه (ولا حبة) كائنة (فى ظلمات الأرض) أى فى الأمكنة المظلمة ، وقيل فى بطن الأرض (ولا رطب ولا يابس) بالخفض عطفًا على حبة : وهى معطوفة على ورقة . وقرأ ابن السيف والحسن وغيرهما بالرفع عطفًا على موضع من ورقة ، وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات . قوله (إلا فى كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من (إلا يعلمها) وقيل هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجوني فى قوله (قل إني على بينة من ربي) قال : على ثقة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله (لقضى الأمر بينى وبينكم) قال : لقامت الساعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (وعنده مفاتيح الغيب) قال : يقول خزائن الغيب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وعنده مفاتيح الغيب) قال : هن خمس - إن الله عنده علم الساعة - إلى قوله - عليم خبير - . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتى المطر إلا الله ، ولا تدري نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) قال : ما من شجرة فى بر ولا بحر إلا وبها ملك يكتب ما يسقط من ورقها . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن جحادة فى قوله (وما تسقط من ورقة) قال : لله تبارك وتعالى شجرة تحت العرش ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده ، فذلك قوله (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) وأخرج الخطيب فى تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من زرع على الأرض ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا رزق فلان بن فلان ، فذلك قوله تعالى (وما تسقط من) الآية . وقد رواه يزيد بن هارون عن محمد ابن إسحق عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكره . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية (ولا رطب ولا يابس) فقال : الرطب واليابس من كل شيء .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ (١١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسْبِينِ (١٢) .

قوله (يتوفاكم بالليل) أى ينيمكم فيقبض فيه نفوسكم التى بها تميزون وليس ذلك موتا حقيقة . فهو مثل قوله . الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها - والتوفى استبقاء الشيء ، وتوفيت الشيء واستوفيته : إذا أخذه أجمع . قال الشاعر :

إن بنى الأدرم ليسوا من أحد . ولا توفاهم قرينش فى العدد

قبل الروح إذا خرجت من البدن فى المنام بقيت فيه الحياة ؛ وقبل لا تخرج منه الروح بل الدهن فقط . والأول أن هذا أمر لا يعرفه إلا الله سبحانه . قوله (ويعلم ما جرحتم بالنهار) أى كسبتم يجوارحكم من الخير والشر . قوله (ثم يبعثكم فيه) أى فى النهار يعنى اليقظة ؛ وقبل يبعثكم من القبور فيه : أى فى شأن ذلك الذى قطعتم فيه أعماركم من النوم بالليل والكسب بالنهار ؛ وقبل فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : هو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه ؛ وقبل ثم يبعثكم فيه : أى فى المنام ، ومعنى الآية : أن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم ، فإنه عالم بذلك ولكن (ليقضى أجل مسمى) أى معين لكل فرد من أفراد العباد من حياة ورزق (ثم إليه مرجعكم) أى رجوعكم بعد الموت (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . قوله (وهو القاهر فوق عباده) المراد فورية القدرة والرتبة كما يقال : السلطان فوق الرعية ، وقد تقدم بيانه فى أول السورة . قوله (ويرسل عليكم حفظة) أى ملائكة جعلهم الله حافظين لكم ، ومنه قوله - وإن عليكم لحافظين - والمعنى : أنه يرسل عليكم من يحفظكم من الآفات ويحفظ أعمالكم . والحفظة جمع حافظ . مثل كتبة جمع كاتب (وعليكم) متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستبلاء ، وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه وأنه أمر حقيق بذلك ؛ وقبل هو متعلق بحفظة . قوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) حتى يحتمل أن تكون هى الغائبة : أى ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما أمروا بحفظه مما يتعلق بكم (حتى إذا جاء أحدكم الموت) ويحتمل أن تكون الابتدائية . والمراد بمجيء الموت مجيئ علامات . وقرأ حمزة « توفاه رسلنا » وقرأ الأعمش « توفاه » والرسل هم أعوان ملك الموت ، ومعنى توفته : استوفت روحه (لا يفرون) أى لا يقصرون ويضيعون ، وأصله من التقدم ، وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمير « لا يفرون » بالتخفيف : أى لا يجاوزون الحد فيما أمروا به من الإكرام والإهانة . قوله (ثم رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ) مطوف على توفته ، والفسير راجع إلى أحد لأنه فى معنى الكل

مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة : أى ردوا بعد الحشر إلى الله : أى إلى حكمه وجزائه (مولاهم) مالكمهم الذى يلى أمورهم (الحق) قرأ الجمهور بالجر صفة لاسم الله . وقرأ الحسن (الحق) بالنصب على إضمار فعل : أى أغنى أو أمدح ، أو على المصدر (وهو أسرع الحاسين) لكونه لا يحتاج إلى ما يحتاجون إليه من الفكر والروية والتدبير . وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه ، فإذا أذن الله فى قبض روحه قبضه وإلا ردها إليه ، فذلك قوله تعالى : يتوفاكم بالليل . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : ما من ليلة إلا والله يقبض الأرواح كلها ، فيسأل كل نفس عما عمل صاحبها من النهار ، ثم يدعو ملك الموت فيقول : اقبض روح هذا : وما من يوم إلا وملك الموت ينظر فى كتاب حياة الإنسان . قائل يقول ثلاثا ، وقائل يقول خمسا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : أما وفاته إياهم بالليل فتمامهم . وأما (جرحتم بالنهار) فيقول : ما اكتسبتم بالنهار (ثم يبعثكم فيه) قال : فى النهار (ليقضى أجل مسمى) وهو الموت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس (ويعلم ما جرحتهم) قال : ما كسبتم من الإثم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (ويرسل عليكم حفظة) قال : هم الملقبات من الملائكة يحفظونه ويحفظون عملهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : أعوان ملك الموت من الملائكة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (وهم لا يفرطون) يقول : لا يضيعون .

قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٣) قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (١٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (١٥) .

قيل المراد بظلمات البر والبحر : شدائدهما . قال النحاس : والعرب تقول يوم مظلم : إذا كان شديدا . فإذا عظمت ذلك قالت : يوم ذو كوكب : أى يحتاجون فيه لشدة ظلمته إلى كوكب ، وأنشد سيويه :

بنى أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوم ذو كواكب أشتعا

والاستفهام للتفريع والتوبيخ : أى من ينجيكم من شدائدهما العظيمة ؟ قرأ أبو بكر عن عاصم (خفية) بكسر الخاء ، وقرأ الباقر بضمها . وهما لغتان : وقرأ الأعشى (وخيفة) من الخوف . وجملة (تدعون) فى محل نصب على الحال : أى من ينجيكم من ذلك حال دعائكم له دعاء تضرع وخفية أو متضرعين وتحقين . والمراد بالتضرع هنا : دعاء الجهر . قوله (لئن أنجيتنا) كذا قرأ أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ الكوفيون (لئن أنجانا) والجملة فى محل نصب على تقدير القول : أى قائلين لئن أنجيتنا من هذه الشدة التى نزلت بنا وهى الظلمات المذكورة (لنكونن

من الشاكرين) لك على ما أنعمت به علينا من تخليصنا من هذه الشدائد . قوله (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) قرأ الكوفيون وهشام (ينجيكم) بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، وقراءة التشديد تفيد التكثير : وقيل معناه واحد . والضمير في (منها) راجع إلى الظلمات . والكرب : الغم يأخذ بالنفس . ومنه رجل مكروب . قال عنترة :

ومكروب كشت الكرب عنه بطعنة فيصل لما دعاني اه

(ثم أنتم تشركون) بالله سبحانه بعد أن أحسن إليكم بالخلوص من الشدائد وذهاب الكروب شركاء لا يغيثونكم ولا يصرّونكم ولا يقدرون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم ، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر ؟ ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم (هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) أي الذي قدر على إنجائكم من تلك الشدائد ودفع عنكم تلك الكروب قادر على أن يعيدكم في شدة وعنة وكرب يبعث عذابه عليكم من كل جانب ، فالعذاب المبعوث من جهة الفوق : ما ينزل من السماء من المطر والصواعق . والمبعوث من تحت الأرض : الحسف والزلازل والفرق ، وقيل (من فوقكم) يعني الأمراء الظلمة (ومن تحت أرجلكم) يعني السفلة وعيد السوء . قوله (أو يلبسكم شيئا) قرأ الجمهور بفتح التحتية ، من لبس الأمر : إذا خلطه ، وقرأ أبو عبد الله المديني بضمها : أي يجعل ذلك لباسا لكم ، قيل والأصل : أو يلبس عليكم أمركم ، فحذف أحد المفعولين مع حرف الجر كما في قوله تعالى - وإذا كالوهم أو وزنوهم - والمعنى : يجعلكم مختلطي الأهواء مختلطي التحل متفرقي الآراء ، وقيل يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا . والشيخ : الفرق ، أي يخلطكم فرقا . قوله (ويذيق بعضكم بأس بعض) أي يصيب بعضكم بشدة بعض من قتل وأسر ونهب (ويذيق) معطوف على (يبعث) . وقرئ (نذيق) بالنون (انظر كيف نصرف الآيات) نبين لهم الحجج والدلالات من وجوه مختلفة (لعلمهم يفقهون) الحقيقة فيجوهون إلى الحق الذي يبناه لهم بيانات متنوعة .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) يقول : من كرب البر والبحر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسير الآية عن ابن عباس قال : يقول إذا أضل الرجل الطريق دعا الله لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال : يعني من أمرائكم (أو من تحت أرجلكم) يعني سفلتكم (أو يلبسكم شيئا) يعني بالشيخ الأهواء المختلفة (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه من وجه آخر في تفسير الآية قال (عذابا من فوقكم) أئمة السوء (أو من تحت أرجلكم) قال : خدم السوء . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا من وجه آخر قال (من فوقكم) من قبل أمرائكم وأشرافكم (أو من تحت أرجلكم) قال : من قبل سفلتكم وعبيدكم . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي مالك (عذابا من فوقكم) قال : القذف (أو من تحت أرجلكم) قال : الحسف . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أيضا (من فوقكم) قال : الصيحة والحجارة والرياح (أو من تحت أرجلكم) قال : الرجفة والحسف ، وهما عذاب أهل التكذيب (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال : عذاب أهل الإقرار . وأخرج البخاري وغيره عن جابر ابن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم « أعوذ بوجهك (أو من تحت أرجلكم) قال . أهوذ بوجهك (أو بلمسكم شيئا ويدينكم بعضهم بأس بعض) قال : هذا أهون أو أيسر . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث طويل عن ثوبان . وفيه « وسأله أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها . وسأله أن لا يدين بعضهم بأس بعض فنعنيها . وأخرج مسلم وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقبل ذات يوم من العالية . حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا . ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سأله أن لا يهلك أمتي بالفرق . وسأله أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها . وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فتعنيها . وأخرج أحمد والحاكم وصححه من حديث جابر بن عتيك نحوه . وأخرج نحوه أيضا ابن مردويه من حديث أبي هريرة . وأخرج أيضا ابن أبي شيبة وابن مردويه من حديث حذيفة بن اليمان نحوه . وأخرج أحمد والنسائي وابن مردويه عن أنس نحوه أيضا . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والقباء في المختارة عن أبي بن كعب في هذه الآية قال : من أربع وكلهن عذاب وكلهن واقع لا محالة . فضت اثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس وعشرين سنة : فالبسوا شيئا . وذاق بعضهم بأس بعض . وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة : الخسف . والرجم . والأحاديث في هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية .

وَكَذَّبَ بِقَوْمِكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢٠) قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيْطَانُ فِي الْأَرْضِ خَيْرَآنَ لَهُ أَصْحَابُ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَظِرْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٢١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٢).

قوله (وكذب به قومك) الضمير راجع إلى القرآن أو إلى العذاب . وقومه المكذبون : هم قريش . وقيل كل معاند ، وجملة (وهو الحق) في محل نصب على الحال : أي كذبوا بالقرآن أو العذاب ، والحال أنه حق . وقرأ ابن أبي عملة (وكذبت) بالناء (قل لست عليكم بوكيل) أي لست بحفيظ على أعمالكم حتى أجازيكم عليها . قيل وهذه الآية منسوخة بآية القتال ؛ وقيل ليست بمنسوخة إذ لم يكن إيمانهم في وسعه . قوله (لكل نيا مستقر) أي لكل شيء وقت يقع فيه . والنبا : الشيء الذي ينبا عنه ؛ وقيل المعنى : لكل عمل جزاء . قال الزجاج : يجوز أن يكون وعيدهم بما ينزل بهم في الدنيا . وقال الحسن : هذا وعيد من الله للكفار ، لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث (وسوف تعلمون) ذلك بحصوله ونزوله بهم كما علموا يوم بدر بحصول ما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينوعدهم به . قوله (وإذ أريت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له . والخوض : أصله في الماء ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشيها بغمرات الماء ، فاستعير من المحسوس للمعقول ؛ وقيل هو مأخوذ من الخلط ، وكل شيء خضته فقد خلطته ؛ ومنه خاض الماء بالعسل : خلطه . والمعنى : إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالكذب والرد والاستهزاء فدعهم ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا في حديث مغاير له . أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك .

وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمع بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة ، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم ، وذلك يسير عليه غير عسير . وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة . فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر .

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر . وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا . ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصى الله بفعل شيء من المحرمات . ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة ، فإنه ربما ينفق عليه من كنياتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان . فينقذ في قلبه ما يصعب علاجه ويصير دفعه فيعمل بذلك مدة عمره ويلقى الله به معتقدا أنه من الحق وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر . قوله (وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى) ، إما : هذه هي الشرطية وتلزمها غالبا نون التأكيد ولا تلزمها ناهيا ومنه قول الشاعر :

إما يصيبك عدو في منزله يوما فقل كيف يستعمل وينتصر

وقرأ ابن عباس « ينسبك » بتشديد السين . ومثله قول الشاعر . وقد ينسبك بعض الحاجة الكسلى .

والحق : إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت (مع القوم الظالمين) أي الذين

ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها . قيل وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبي صلى الله عليه وآله سلم فالمراد التعريض لأئمة تنزهه عن أن ينسبه الشيطان ؛ وقيل لا وجه لهذا فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني » ونحو ذلك . قوله (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) أى ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء . وقيل المعنى : ما على الذين يتقون ما يقع منهم من الخوض في آيات الله في مجالستهم لم من شيء : وعلى هذا للتفسير في الآية الترخيص للمتقين من المؤمنين في مجالسة الكفار إذا اضطرروا إلى ذلك كما سيأتى عند ذكر السبب ؛ قيل وهذا الترخيص كان في أول الإسلام ، وكان الوقت وقت تقية ، ثم نزل قوله تعالى - وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره - فنسخ ذلك : قوله (ولكن ذكرى لهم) ، ذكرى في موضع نصب على المصدر ، أو رفع على أنها مبتدأ . وخبرها محذوف : أى ولكن عليهم ذكرى . وقال الكسائي : المعنى ولكن هذه ذكرى . والمعنى على الاستدراك من النبي السابق : أى ولكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز . أما على التفسير الأول فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله لا يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأما على التفسير الثاني فالترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير (لعلمهم يتقون) الخوض في آيات الله إذا وقعت منكم الذكرى لهم . وأما جعل الضمير للمتقين فبعيد جداً . قوله (وذرا الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً) أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذي كان يجب عليهم العمل به والدخول فيه لعباً ولهواً ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تمتع وإن كنت مأموراً بإبلاغهم الحجة . وقيل هذه الآية منسوخة بآية القتال ؛ وقيل المعنى : أنهم اتخذوا دينهم الذي هم عليه لعباً ولهواً كما في فعلهم بالأنعام من تلك الجهالات والضلالات المتقدم ذكرها ؛ وقيل المراد بالدين هنا العيد : أى اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً ، وجملة (وغرتهم الحياة الدنيا) معطوفة على (اتخذوا) أى غرتهم حتى آثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا - إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين - . قوله (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت) الضمير في (به) للقرآن أو للحساب . والإبسال : تسليم المرء نفسه للهلاك ، ومنه أبسلت ولدى : أى رهته في الدم ، لأن عاقبة ذلك الهلاك . قال النابغة :

ونحن رهنا بالإفاقة عامرا بما كان في الدرداء رهنا فأبسلا

أى قهلك . والدرداء : كنية كانت لهم معروفة بهذا الاسم ، فالمعنى : وذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس بما كسبت : أى ترتهن وتسلم للهلكة ، وأصل الإبسال : المنع ، ومنه شجاع بأسل : أى تمتنع من قرنه . قوله (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) العدل هنا : الفدية . والمعنى : وإن بذلت تلك النفس التي سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك ، وفاعل (يؤخذ) ضمير يرجع إلى العدل ، لأنه بمعنى الفدى به كما في قوله - ولا يؤخذ منها عدل - وقيل فاعله منها ، لأن العدل هنا مصدر لا يستند إليه الفعل ، وكل عدل منصوب على المصدر : أى عدلا كل عدل ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً ، وخبره (الذين أبسلوا بما كسبوا) أى هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً هم الذين سلموا للهلاك بما كسبوا ، و (لهم شراب من حميم) جواب سؤال مقدر كأنه قيل كيف حال هؤلاء ؟ فقيل لهم شراب من حميم ، وهو الماء الحار ، ومثله قوله تعالى - يصب من فوق رؤوسهم الحميم - وهو هنا شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم . قوله (قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا) أمره الله سبحانه بأن يقول لهم هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ : أى

كيف تدعوا من دون الله أصناما لاتسمعنا بوجه من وجوه التفع إن أردنا منها نفعا ولا نخشى ضررها يرجع من الوجوه ، ومن كان مكلما فلا يستحق العبادة (وترد على أعقابنا) عطف على ، ندعوا ، والأعقاب : جمع عقب ؛ أى كيف تدعوا من كان كذلك ونرجع إلى الضلالة التى أخرجنا الله منها . قال أبو عبيدة : يقال لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها قد رد على عقبه . وقال المبرد : تعقب بالشر بعد الخير وأصله من المعاقبة والعقبى ، وهما ما كان تاليا للشيء واجبا أن يتبعه ، ومنه - والمعاقبة للمتقين - ، ومنه عقب الرجل ، ومنه العقوبة ، لأنها تالية للذنب . قوله (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض) هوى بهوى إلى الشيء أسرع إليه . وقال الزجاج : هو من هوى النفس ، أى زين له الشيطان هواه ، و (استهوته الشياطين) هوت به ، والكاف فى (كالذى) إما نعت مصدر مخوف : أى رد على أعقابنا ردّا كالذى ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل رد : أى رد حال كوننا مشبهين للذى استهوته الشياطين : أى ذهبت به مرده الجن بعد أن كان بين الإنسان . قرأ الجمهور « استهوته » وقرأ حمزة « استهواه » على تذكير الجمع . وقرأ ابن مسعود والحسن « استهواه الشيطان » وهو كذلك فى قراءة أبى ، و (حيران) حال : أى حال كونه متحيرا تائها لا يدري كيف يصنع ؟ والحيران هو الذى لا يهتدى بلهة ، وقد حار بحيرة وحيرة : إذا تردد ، وبه سمي الماء المستنقع الذى لا منفذ له حائرا . قوله (له أصحاب يدعونه إلى الهدى) صفة لحيران أو حاله : أى له رفقة يدعونه إلى الهدى يقولون له اتلنا فلا يجيبهم ولا يهتدى بهم . قوله (قل إن هدى الله هو الهدى) أمره الله سبحانه بأن يقول لهم (إن هدى الله) أى دبه الذى ارتضاء لعباده (هو الهدى) وما عليه باطل - ومن يتبع غير الإسلام ديننا فلن يقبل منه - (وأمرنا) معطوف على الجملة الاسمية : أى من جملة ما أمره الله بأن يقوله ، واللام فى (لنسلم) هى لام العلة ، والمعلل هو الأمر : أى أمرنا لأجل نسلم لرب العالمين . وقال القراء : المعنى أمرنا بأن نسلم لأن العرب تقول أمرتك لتذهب . وبأن تذهب بمعنى . وقال النحاس : سمعت ابن كيسان يقول هى لام الخفض . قوله (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) معطوف على « لنسلم » على معنى وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا ، ويجوز أن يكون عطفا على يدعونه على المعنى : أى يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا (وهو الذى إليه تحشرون) فكيف تخالفون أمره (وهو الذى خلق السموات والأرض) خلقا (بالحق) أو حال كون الخلق بالحق فكيف تعبدون الأصنام المخلوقة . قوله (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) أى واذا كر يوم يقول كن فيكون أو واتقوا يوم يقول كن فيكون ، وقيل هو عطف على الماء فى (واتقوه) وقيل إن « يوم » ظرف لمضمون جملة (قوله الحق) والمعنى وأمره المتعلق بالأشياء الحق : أى المشهود له بأنه حق ، وقيل قوله مبتدأ ، والحق صفة له (ويوم يقول كن فيكون) خبره مقدما عليه ، والمعنى : قوله المتصنف بالحق كائن يوم يقول كن فيكون ، وقيل إن قوله مرتفع بيبكون ، والحق صفته : أى يوم يقول كن فيكون قوله الحق . وقرأ ابن حامر (فنكون) بالنون ، وهو إشارة إلى سرعة الحساب . وقرأ الباقر بالباء التحتية وهو الصواب . قوله (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) الظرف منصوب بما قبله : أى له الملك فى هذا اليوم ؛ وقيل هو بدل من اليوم الأول ، والصور قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفتاء ، والثانية للإشياء ، وكذا قال الجوهري : إن الصور القرن ، قال الزجاج :

لقد نطحنهم غداة الجمعين نطحا شديدا لا كنعطع الصورين

والصور بضم الصاد وبكسرهما لغة ، وحكى عن عمرو بن عبيد أنه قرأ (يوم ينفخ فى الصور) بتحريك الواو .

جمع صورة ، والمراد : الخلق . قال أبو عبيدة : وهذا وإن كان محتملا برد بما فى الكتاب والسنة . وقال القراء

كن فيكون ، يقال إنه للصورة خاصة : أى ويوم يقول للصورة كن فيكون . قوله (عالم الغيب والشهادة) رفع عالم على أنه صفة للذى خلق السموات والأرض ، ويجوز أن يرتفع على إضمار مبتدأ : أى هو عالم الغيب والشهادة ، وروى عن بعضهم أنه قرأ : ينفتح بالبناء للفاعل ، فيجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل (عالم الغيب) ويجوز أن يرتفع بفعل مقدّر كما أنشد سيويوه :

ليك يزيد ضارع لخصومة . وعنبط مما تطيح الطوائح

أى يبكه عنبط . وقرأ الحسن والأعمش (عالم) بالخفض على البدل من الماء في (له الملك) (وهو الحكيم) في جميع ما يصدر عنه (الخبير) بكل شيء .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وكذب به قومك) يقول كذبت قريش بالقرآن (وهو الحق) وأما الوكيل فالحفيظ . وأما (لكل نبأ مستقر) فكان نبأ القوم استقر يوم بدر بما كان بعدهم من العذاب . وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله (وما أنا عليكم بوكيل) قال : نسخ هذه الآية آية السيف . فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم . . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (لكل نبأ مستقر) يقول : حقيقة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال في قوله (لكل نبأ مستقر) قال : حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها أرسلت عقوبتها . وأخرج ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (لكل نبأ مستقر) قال : فعل وحقيقة ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) ونحو هذا في القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة وإنها هم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنما أهلك من كان قبلك بالمرء والخصومات في دين الله . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) قال : يستهزئون بها ، نهى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أن يقعد معهم إلا أن ينسى . فإذا ذكر فليقم وذلك قول الله (فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين أنه كان يرى أن هذه الآية نزلت في أهل الأهواء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر قال : لا يجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن علي قال : إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون في آيات الله . وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال : كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاضوا واستهزؤا ، فقال المسلمون : لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن تخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ أيضا عن السدي أنه قال : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف . وأخرج النحاس عن ابن عباس في قوله (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) قال : نسخت هذه الآية المكية بالآية المدنية ، وهى قوله - وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها - الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) إن فعلوا ولكن لا يفعلوا . وأخرج ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى بقوم فعلوا على شراب معهم رجل صائم فضربه وقال : لا تفعلوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وفر للذين آمنوا دينهم لهم ولها) قال : هو مثل قوله - فرقي ومن خلقت وحيدا - يعنى أنه للهديد . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه عن قتادة في هذه

الآية قال : نسخها آية السيف : وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (لعبا ولعوا) قال : أكلوا وشربوا . وأخرج ابن جرير والمنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أن تبسل) قال : أن تفضح ، وفي قوله (أيسلوا) قال : فضحوا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (أن تبسل) قال : تسلم ، وفي قوله (أيسلوا بما كسبوا) قال : أسلموا بمجرأئهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (قل أندعوا من دون الله) قال : هذا مثل ضربه الله للآفة وللدعاة الذين يدعون إلى الله . وقوله (كالذي استهونه الشياطين في الأرض) يقول : أضلته ، وهم الغيلا ن يدعون به باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ويرى أنه في شيء فيصبح وقد ألقته في هلكة . وربما أكلته أو تلقه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشا ، فهذا مثل من أجاب الآلة التي تعبد من دون الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله (كالذي استهونه الشياطين) قال : هو الرجل لا يستجيب لهدى الله ، وهو الرجل أطاع الشيطان وعمل في الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه . و (له أصحاب يدعونه إلى الهدى) ويرغمون أن الذي يأمرونه به هدى يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس يقول (إن الهدى هدى الله) والضلالة ما تدعو إليه الجن . وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمرو قال : « سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الصور : فقال « قرن ينفتح فيه » والأحاديث الواردة في كيفية النفتح ثابتة في كتب الحديث لاحاجة لنا إلى إيرادها هنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (عالم الغيب والشهادة) يعني أن عالم الغيب والشهادة هو الذي ينفتح في الصور .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرِيكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٦) وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٧) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٨) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٩) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٨٠) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨١) وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتُ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٢) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَإِنَّ الْفَرِيقَيْنِ آخِرُ بِالْآمَنِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُم

الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ
إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣).

قوله (لأبيه آزر) قال الجوهري : آزر اسم أعجمي ، و هو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاوناه ، فهو موازر قومه على عبادة الأصنام . وقال ابن فارس : إنه مشتق من القوة . قال الجوهري في النكت من التفسير له : ليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تارخ ، والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر . وقد تعقب في دعوى الاتفاق بما روى عن ابن إسحاق والضحاك والكلبي أنه كان له اسمان : آزر وتارخ . وقال مقاتل : آزر لقب . وتارخ اسم ، وقال سليمان التيمي : إن آزر سب وعتب ، ومعناه في كلامهم المروج . وقال الضحاك معنى آزر الشيخ المم بالفارسية . وقال الفراء : هي صفة ذم بلفظهم كأنه قال : يا مخطئ . وروى مثله عن الزجاج . وقال مجاهد : هو اسم صنم . وعلى هذا إطلاق اسم الصنم على أبيه إما للتيسير له لكونه معبوده ، أو على حذف مضاف : أي قال لأبيه عابد آزر أو أعبد آزر على حذف الفعل . وقرأ ابن عباس : أزر ، بهزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ، وروى عنه أنه قرأ بهزتين مفتوحتين ، وعمل (إذا قال) النصب على تقدير واذكر إذ قال إبراهيم ، ويكون هذا المقدر معطوفا على (قل أندعوا من دون الله) وقيل هو معطوف على (وذكر به أن تبسل) وآزر عطف بيان . قوله (أنتخذ أصناما آلهة) الاستغهام للإنكار : أي أجعلها آلهة لك تعبدوها (إني أراك وقومك) المتبعين لك في عبادة الأصنام (في ضلال) عن طريق الحق (مين) واضح (وكذلك نرى إبراهيم) أي ومثل تلك الإراءة نرى إبراهيم ، وبالجملة معترضة ، و (ملكوت السموات والأرض) ملكهما . وزيدت التاء والواو للمبالغة في الصفة . ومثله الرغبوت والرهبوت مبالغة في الرغبة والرغبة . قيل أراد بملكوت السموات والأرض ما فيهما من الخلق ، وقيل كشف الله له عن ذلك حتى رأى إلى العرش وإلى أسفل الأرضين ، وقيل رأى من ملكوت السموات والأرض ما قصه الله في هذه الآية ، وقيل المراد بملكوتيهما الربوبية والإلهية : أي نريه ذلك ونوقفه لمعرفة بطريق الاستدلال التي سلكها ، ومعنى (نرى) أريناه ، حكاية حال ماضية . قوله (وليكون من الموقنين) متعلق بمقدر : أي أريناه ذلك (ليكون من الموقنين) وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر ، فأراد أن ينبيههم على الخطأ ، وقيل إنه ولد في سرب وجعل رزقه في أطراف أصابعه فكان يحصها . وسبب جعله في السرب أن الفروذ رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود ، والله أعلم . قوله (فلما جن عليه الليل) أي ستره بظلمته ، ومنه الجنة والجن والجن كله من السر ، قال الشاعر :

ولولا جنان الليل أدرك ركضنا بذى الرمث والأرطى عياض بن ثابت

والقاء للعطف على « قال إبراهيم » : أي واذكر إذ قال واذ جن عليه الليل فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه ، وجواب لما (رأى كوكبا) قيل رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذي كان فيه ، وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيوبة الشمس ، قيل رأى المشتري وقيل الزهرة . قوله (هذا ربي) جملة مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل فإذا قال عند رؤية الكوكب ؟ قيل وكان هذا منه عند قصور النظر لأنه في زمن الطفولية ، وقيل أراد قيام الحجة على قومه كالخاكي لما هو عندهم وما يحتفلونه لأجل إلزامهم ، وباللهاني قال الزجاج ، وقيل هو على حذف حرف الاستغهام : أي أهذا ربي ، ومعناه إنكار أن يكون مثل هذا ربا ، ومثله قوله تعالى - أفأنت مت فهم الخالدون - أي أنهم الخالدون ، ومثله قول الخليلي :

رقوني وقالوا يا خويلد لم ترع قتلتي وأنكرت الوجوه م م م

أى أم م ، وقول الآخر :

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا بسبع رمين الحجر أم بئانيا

أى أبسج ، وقيل المعنى : وأنتم تقولون هذا ربي فأضمر القول ؛ وقيل المعنى على حذف مضاف : أى هذا دليل ربي (فلما أفل) أى غرب (قال) إبراهيم (لأحب الآفلين) أى الآلهة التى تغرب . فإن الغروب تغير من حال إلى حال ، وهو دليل الحدوث (فلما رأى القمر بازغا) أى طالما ، يقال بزغ القمر إذا ابتدأ فى الطلوع . والبزغ : الشق كان يشق بنوره الظلمة (فلما أفل قال لئن لم يهتدى ربي) أى لئن لم يهتدى على الهداية وبوقفى للحجة (لاكونن من القوم الضالين) الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ويحرمونها حظها من الخير (فلما رأى الشمس بازغة) بازغة (بازغة وبازغة منصوبان على الحال ، لأن الروية بصرية ، وإنما (قال هذا ربي) مع كون الشمس مؤنثة ، لأن مراده هذا الطالع قاله الكسائي والأخفش . وقيل هذا الضوء ؛ وقيل الشخص (هذا أكبر) أى بما تقدمه من الكوكب والقمر (قال يا قوم إني برىء مما تشركون) أى من الأشياء التى يجعلونها شركاء لله وتعبدونها ، وما موصولة أو مصدرية ، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضر مستدلا على ذلك بأفولها الذى هو دليل حدوثها (إني وجهت وجهي) أى قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل ، وذكر الوجه لأنه العضو الذى يعرف به الشخص ، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدم . وقد تقدم معنى (قطر السموات والأرض حنيقا) مائلا إلى الدين الحق . قوله (وحاجه قومه) أى وقعت منهم الحاجة له فى التوحيد بما يدل على ما يدعون من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة . فأجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه الله عنه أنه قال (أتحتاجوني فى الله) أى فى كونه لا شريك له ولا ند ولا ضد . وقرأ نافع بتخفيف نون أتحتاجوني . وقرأ الياقون بتشديد ياءها بإدغام نون الجمع فى نون الوقاية ونافع خفف فحذف إحدى التونين ، وقد أجاز ذلك سيبويه . وحكى عن أنى عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن ، وجملة (وقد هداني) فى محل نصب على الحال ؛ أى هداني إلى توحيدى وأنتم تريدون أن أكون مثلكم فى الضلالة والجهالة وعدم الهداية . قوله (ولا أخاف ما تشركون به) قال : هذا لما خوفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكرهه : أى إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضر ولا ينفع ، والضمير فى به يجوز رجوعه إلى الله وإلى معبوداتهم المدلول عليها بما فى (ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا) أى إلا وقت مشيئته ربي بأن يلحقنى شيئا من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه . وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التى لا تضر ولا تنفع . والمعنى : على نفي حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال ، وإثبات الضرر والنفع لله سبحانه وصنورهما حسب مشيئته . ثم علل ذلك بقوله (وسع ربي كل شيء علما) أى إن علمه محيط بكل شيء ، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته ، وإذا شاء إنزال شرى كان ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ثم قال لم مكلا للحجة عليهم ودافعا لما خوفوه به (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا) أى كيف أخاف ما لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق ، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله ، وهو الضار النافع الخالق الرازق ، أورد عليهم هذا الكلام الإلزامى الذى لا يجحدون عنه مخلصا ولا متحولاً ، والاستغناء للإنكار عليهم والتبريع لهم . و (ما) فى (ما لم ينزل به عليكم سلطانا) مفعول أشركتم : أى ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التى لم ينزل بها عليكم سلطانا شركاء لله ، أو لحنى أن الله سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها . فكيف عبدوها واتخذوها آلهة وجعلوها شركاء لله سبحانه ؟

قوله (فأى الفريقين أحق بالأمن) المراد بالفريقين فريق المؤمنين وفريق المشركين : أى إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودى هو الله المتصف بتلك الصفات ، ومعبودكم هى تلك المخلوقات : فكيف تخوفونى بها ، وكيف تخافونها ؟ وهى بهذه المنزلة ولا تخافون من إشراككم بالله سبحانه . وبعد هذا فأخبرونى : أى الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف (إن كنتم تعلمون) بحقيقة الحال وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة ، ثم قال الله سبحانه قاضيا بينهم ومبيناً لهم (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا ، وقيل هو من تمام قول إبراهيم ، وقيل هو من قول قوم إبراهيم . ومعنى (لم يلبسوا إيمانهم بظلم) لم يخلطوه بظلم والمراد بالظلم الشرك . لما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وقالوا : أينالم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان - يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . والعجب من صاحب الكشف حيث يقول فى تفسير هذه الآية : وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس وهو لا يدرى أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول المتصف بما سبق ، و (لهم الأمن) جملة وقعت خبراً عن اسم الإشارة ، هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه (وهم مهتدون) إلى الحق ثابتون عليه ، وغيرهم على ضلال وجهل ، والإشارة بقوله (تلك حجتنا) إلى ما تقدم من الحجج التى أوردها إبراهيم عليهم : أى تلك البراهين التى أوردها إبراهيم عليهم من قوله (فلما جن عليه الليل) إلى قوله (وهم مهتدون - حجتنا آتيناهم إبراهيم) أى أعطيناه إياها وأرشدناه إليها ، وجملة (آتيناهم إبراهيم) فى عمل نصب على الحال ، أو فى عمل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة (على قومه) أى حجة على قومه (ترفع درجات من نشاء) بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة ، أو بما هو أهم من ذلك (إن ربك حكيم عليم) أى حكيم فى كل ما يصدر عنه عليم بحال عباده ، وأن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لا يستحقه :

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى (وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر) قال : الآزر الصنم . وأبو إبراهيم اسمه يازر وأمه اسمها مثلى وامرأته اسمها سارة ، وسريته أم إسماعيل اسمها هاجر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : اسم أبيه تارخ واسم الصنم آزر . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سليمان التيمى ، أنه قرأ (وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر) قال : يلتقى أنها أهوج وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال : إن والد إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما اسمه تارخ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عنه فى قوله تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) قال : الشمس والقمر والنجوم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : فى الآية كشف ما بين السموات حتى نظر إليهن على صخرة ، والصخرة على حوت ، وهو الحوت الذى منه طعام الناس ، والحوت فى سلسلة . والسلسلة فى خاتم العزة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى الآية : قال سلطانهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى قوله (وحاجه قومه) يقول : خاصموه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (ألقاهم) قال : ألقاهم . وأخرج ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى بكر الصديق أنه نهر (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) بالشرك . وكذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب .

وكذلك أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن حذيفة بن اليمان ، وكذلك أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سليمان الفارسي ، وكذلك أخرجا أيضا عن أبي بن كعب ، وكذلك أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس . وأخرج عنه من طريق أخرى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ مثله ، وقد روى عن جماعة من التابعين مثل ذلك ، ويغني عن الجميع ما قدّمنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير الآية كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) قال : خصمهم . وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم في قوله (نرفع درجات من نشاء) قال بالعلم . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إن للعلماء درجات كدرجات الشهداء .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَبَّخِي وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كُلًّا مِمَّنَّ نَهَدَيْنَا عَلَى الْحَنِينِ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا بِكُفْرِنٍ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمْ آفْتَدِ قُلْ لَا اسْتَشْلُكُمُ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) .

قوله (ووهبنا له) معطوف على جملة « وتلك حجتنا » عطفت جملة فعلية على جملة اسمية وقيل معطوف على آتيها والأول أولى . والمعنى : ووهبنا له ذلك جزاء له على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه ، و (كلا هدينا) انتصاب « كلا » على أنه مفعول لما بعده مقدم عليه للقصر : أي كل واحد منهما هديناه ، وكذلك نوحا منصوب بهدينا الثاني أو بفعل مضمر يفسره ما بعده (ومن ذريته) أي من ذرية إبراهيم ، وقال الفراء : من ذرية نوح واختاره ابن جرير الطبري والقشيري وابن عطية ، واختار الأول الزجاج ، واعترض عليه بأنه عد من هذه الذرية يونس ولوطا وما كانا من ذرية إبراهيم ، فإن لوطا هو ابن أخى إبراهيم ، وانتصب (داود وسليمان) بفعل مضمر أي وهبنا من ذريته داود وسليمان ، وكذلك ما بعدها ، وإنما عد الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عدّها على إبراهيم ، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء . ومعنى « من قبل » في قوله (ونوحا هدينا من قبل) أي من قبل إبراهيم ، والإشارة بقوله (وكذلك) إلى مصدر الفعل المتأخر : أي ومثل ذلك الجزاء (نجزي المحسنين) . (وإلياس) قال الضحاك : هو من ولد إسماعيل ، وقال القتيبي : هو من سبط يوشع بن نون . وقرأ الأعرج والحسن وحمادة (وإلياس) بوصل الحزنة . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وحاصم ، واليسع ، مخففا . وقرأ الكوفيون إلا حاصم بلامين . وكذا قرأ الكسائي ورد القراءة الأولى ، ولا وجه للرد فهو اسم أعجمي ، والمجبة لا توضح بالقياس

بل تؤدي على حسب السماع ، ولا يمتنع أن يكون في الاسم لغتان للعجم ، أو غيره العرب تغييرين . قال المهدي :
من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع والألف واللام مزيدتان ، كما في قول الشاعر :

رأيت الوليد بن يزيد مباركا شديدا بأعباء الخلافة كاهله

ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع ، وقد توهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم ، فإن الله أفرد كل واحد منهما :
وقال وهب : اليسع صاحب إلياس ، وكانوا قبل يحيى وعيسى وزكريا ؛ وقيل إلياس هو إدريس ، وهذا غير صحيح لأن إدريس جد نوح وإلياس من ذريته ؛ وقيل إلياس هو الخضر ؛ وقيل لا بل اليسع هو الخضر (وكلا فضلنا على العالمين) أى كل واحد فضلناه بالنبوة على عالمي زمانه ، والجملة معترضة . قوله (ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) أى هدينا ، ومن التبويض : أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وأزواجهم (واجتبناهم) معطوف على فضلنا ، والاجتناء الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار ، مشتق من جيت الماء في الحوض جمعه ، فالاجتناء ضم الذي تجتبه إلى خاصيتك . قال الكسائي : جيت الماء في الحوض جي مقصور ، والجاهية الحوض ، قال الشاعر :
كجاية الشيخ العراقي تفهق . والإشارة بقوله (ذلك هدى الله) إلى الهداية والتفضيل والاجتناء المفهومة من الأفعال السابقة (يهدي به) الله (من يشاء من عباده) وهم الذين وفقهم للخير واتباع الحق (ولو أشركوا) أى هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله (لحبط عنهم) من حسناتهم (ما كانوا يعملون) والحبوط البطالان . وقد تقدم تحقيقه في البقرة ، والإشارة بقوله (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) إلى الأنبياء المذكورين سابقا : أى جنس الكتاب ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين (والحكم) العلم (والنبوة) الرسالة أو ما هو أعم من ذلك (فإن يكفر بها هؤلاء) الضمير في بها للحكم والنبوة والكتاب ، أو للنبوة فقط ، والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فقد وكلنا بها قوما) هذا جواب الشرط : أى ألزمتنا بالإيمان بها قوما (ليسوا بها بكافرين) وهم المهاجرون والأنصار ، أو الأنبياء المذكورون سابقا ، وهذا أولى لقوله فيما بعد (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار إذ لا يصح أن يؤمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالاعتداء بهداهم . وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاعتداء ، والاعتداء طلب موافقة الغير في فعله . وقيل المعنى : اصبر كما صبروا ؛ وقيل اقتد بهم في التوحيد ، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة ، وفيها دلالة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم مأمور بالاعتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نص . قوله (قل لا أسألكم عليه أجرا) أمره الله بأن يخبرهم بأنه لا يسألكم أجرا على القرآن ، وأن يقول لهم ما (هو إلا ذكرى) يعنى القرآن (للعالمين) أى موعظة وتذكير للخلق كافة الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : الخال والد والعلم والد ، نسب الله عيسى إلى أخواله فقال (ومن ذريته) حتى بلغ إلى قوله (وزكريا ويحيى وعيسى) . وأخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقي عن عبد الملك بن عمير قال : دخل يحيى بن يعمر على الحجاج فذكر الحسين . فقال الحجاج : لم يكن من ذرية النبي ، فقال يحيى : كذبت ، فقال : لتأنيني على ما قلت بينة فتلا (ومن ذريته) إلى قوله (وعيسى) فأخبر الله أن عيسى من ذرية آدم بأمه ، فقال : صدقت . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي تجده في كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ، فذكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدم ، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر

وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (واجتنبناهم) قال : أخلصناهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) قال : يريد هؤلاء الذين هديناهم وفعلنا بهم . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : الحكم اللب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فإن يكفر بها هؤلاء) يعني أهل مكة ، يقول : إن يكفروا بالقرآن (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) يعني أهل المدينة والأنصار . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (فقد وكلنا بها قوما) قال : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم (فبهدهم اقتده) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رجاء العطاردي قال في الآية : هم الملائكة . وأخرج البخاري والنسائي وغيرهما عن ابن عباس في قوله (فبهدهم اقتده) قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقتدى بهدهم وكان يسجد في ص ، ولفظ ابن أبي حاتم عن مجاهد : سألت ابن عباس عن السجدة التي في ص . فقال هذه الآية ، وقال : أمر نبيكم أن يقتدى بدادود عليه السلام . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (قل لا أسألكم عليه أجرا) قال : قل لم يا محمد لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضا من عروض الدنيا .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (١١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (١٢) وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (١٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (١٤)

قوله (وما قدروا الله حق قدره) قدرت الشيء وقدرته عرفت مقداره . وأصله : الستر ، ثم استعمل في معرفة الشيء : أي لم يعرفوه حق معرفته حيث أنكروا إرساله للرسول وإنزاله للكتب . وقيل المعنى : وما قدروا نعم الله حق قدرها ، وقرأ أبو حنيفة (وما قدروا الله حق قدره) بفتح الدال : وهي لغة . ولما وقع منهم هذا الإنكار

وهم من اليهود أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها ، فقال (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) وهم يعترفون بذلك ويدعون له . فكان فى هذا من التبكيت لم والتفريع ما لا يقادر قدره مع إلحائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال الله على البشر وهم الأنبياء عليهم السلام ، فبطل جحدهم وتبين فساد إنكارهم ، وقيل إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش فيكون إلزامهم بإنزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ويعلمونه بالأخبار من اليهود . وقد كانوا يصدقونهم و (نورا وهدى) منتصبان على الحال و (للناس) متعلق بمحذوف هو صفة لهدى : أى كائنا للناس . قوله (تجعلونه قراطيس) أى تجعلون الكتاب الذى جاء به موسى فى قراطيس تضعونه فيها لئتم لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل وكم صفة النبی صلى الله عليه وآله وسلم المذكورة فيه ، وهذا ذم لم ، والضمير فى (تبدونها) راجع إلى القراطيس ، وفى (تجعلونه) راجع إلى الكتاب ، وجملة تجعلونه فى محل نصب على الحال ، وجملة تبدونها صفة لقراطيس (وتخفون كثيرا) معطوف على « تبدونها » : أى وتخفون كثيرا منها ، والخطاب فى (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) لليهود : أى والحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استثنائية مقررة لما قبلها ، والذى علموه هو الذى أخبرهم به نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الأمور التى أوحى الله إليه بها . فلما اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم ولا على لسان أنبيائهم ولا علمه آباؤهم ، ويجوز أن يكون ما فى « ما لم تعلموا » عبارة عما علموه من التوراة : فيكون ذلك على وجه المنع عليهم بإنزال التوراة : وقيل الخطاب للمشركين من قريش وغيرهم ، فتكون « ما » عبارة عما علموه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم أمره الله رسوله بأن يجب عن ذلك الإلزام الذى ألزمهم به حيث قال (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) فقال (قل الله) أى أنزله الله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى ذرهم فى باطلهم حال كونهم يلعبون : أى يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون . قوله (وهى كتاب أنزلناه مبارك) هنا من جملة الرد عليهم فى قولهم (ما أنزل الله على بشر من شيء) أخبرهم بأن الله أنزل التوراة على موسى ، وعقبه بقوله (وهى كتاب أنزلناه) يعنى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكيف تقولون (ما أنزل الله على بشر من شيء) ومبارك ومصدق صفتان لكتاب ، والمبارك كثير البركة ، والمصدق كثير التصديق ، والذى بين يديه ما أنزله الله من الكتب على الأنبياء من قبله كالتوراة والإنجيل ، فإنه يوافقها فى الدعوة إلى الله وإلى توحيده وإن خالفها فى بعض الأحكام . قوله (ولتنذر) قيل هو معطوف على مادل عليه مبارك كأنه قيل أنزلناه للبركات ولتنذر ، وخص أم القرى وهى مكة لكونها أعظم القرى شأنا ، ولكونها أول بيت وضع للناس ، ولكونها قبله هذه الأمة ومحل حجهم ، فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض والمراد بمن حولها جميع أهل الأرض ، والمراد بأنذر أم القرى : إنذار أهلها وأهل سائر الأرض فهو على تقدير مضاف محذوف كسؤال القرية (والذين يؤمنون بالآخرة) مبتدأ ، و (يؤمنون به) خبره ، والمعنى : أن من حق من صدق بالدار الآخرة أن يؤمن بهذا الكتاب ويصدق به ويعمل بما فيه ، لأن التصديق بالآخرة يوجب قبول من دعا الناس إلى ما ينال به خيرا ويندفع به ضررا ، وجملة (وهم على صلاتهم يحافظون) فى محل نصب على الحال ، وخص المحافظة على الصلاة من بين سائر الواجبات لكونها عمادها وبمزالة الرأس لها . قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتب على رسله : أى كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء ، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام ، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا فزعم أنه نبي وليس بنبي . أو كذب على الله فى شيء من الأشياء (أو قال أوحى إلى ولم

يوحى إليه شيء) أى والحال أنه لم يوحى إليه شيء ، وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم ، وإنما هذا شأن الكذابين
رسوخ الإضلال كسيلة الكذاب والأسود العنسى وبجراح قوله (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) محطوف
على « من افترى » أى ومن أظلم ممن افترى أو من قال أوحى إلى ولم يوحى إليه شيء ، أو من قال سأنزل مثل ما أنزل
الله ، وهم القائلون - لو نشاء لقلنا مثل هذا - وقيل هو عبد الله بن أبى سرح ، فإنه كان يكتب الوحي لرسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم ، فأمل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - ثم أنشأناه خلقا آخر - فقال عبد الله
- فتبارك الله أحسن الخالقين - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « هكذا أنزلت ، فشك عبد الله حينئذ
وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلى كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال ، ثم ارتد عن
الإسلام ولحق بالمشركين ، ثم أسلم يوم الفتح كما هو معروف . قوله (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت)
الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له ، والمراد كل ظالم ، ويدخل فيه الجاحدون لما
أنزل الله والمدعون للنبوات افتراء على الله دخولا أوليا ، وجواب لو محذوف : أى لرأيت أمرا عظيما ، والغمرات
جمع غمرة : وهى الشدة ، وأصلها الشيء الذى يغمر الأشياء فيغطيا ، ومنه غمرة الماء ، ثم استعملت فى الشدائد ،
ومنه غمرة الحرب . قال الجوهري : والغمرة الشدة والجمع غمر : مثل نوبة ونوب ، وجملة (والملائكة باسطوا
أيديهم) فى عمل نصب : أى والحال أن الملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواح الكفار ، وقيل للعذاب وفى أيديهم
مطارق الحديد ، ومثله قوله تعالى - ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم - .
قوله (أخرجوا أنفسكم) أى قائلين لم أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التى وقعتم فيها ، أو أخرجوا أنفسكم من
أيدينا وخلصوها من العذاب ، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وسلموها إلينا لقبضها (اليوم تجزون عذاب
الهُون) أى اليوم الذى تقبض فيه أرواحكم ، أو أرادوا باليوم الوقت الذى يعذبون فيه الذى مبدؤه عذاب القبر ،
والهُون والهوان بمعنى : أى اليوم تجزون عذاب الهوان الذى تصيرون به فى إهانة وذلة بعد ما كنتم فيه من الكبر
والعظمة ، والباء فى (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) للسببية : أى بسبب قولكم هذا من إنكار أنزال الله كتبه
على رسله والإشراك به (وكنتم عن آياته تستكبرون) عن التصديق لما والعمل بها فكان ما جوزيت به من عذاب
الهُون - جزاء وفاقا - . قوله (ولقد جثمنونا فرادى) قرأ أبو حنيفة فرادى بالتثنية ، وهى لغة تميم ، وقرأ الباقون
بألف التانيث للجمع فلم ينصرف . وحكى ثعلب « فرادى » بلاثنتين مثل : ثلاث ورباع ، وفرادى جمع فرد كسكارى
جمع سكران وكسالى جمع كسلان ، والمعنى : جثمنونا منفردين واحدا واحدا كل واحد منفرد عن أهله وماله وما
كان يعبد من دون الله فلم ينتفع بشيء من ذلك (كما خلقناكم أول مرة) أى على الصفة التى كنتم عليها عند
خروجكم من بطون أمهاتكم ، والكاف نعت مصدر محذوف : أى جثمنونا مجيئا مثل مجيئكم عند خلقنا لكم ، أو
حال من ضمير فرادى : أى مشابيهن ابتداء خلقنا لكم (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) أى أعطيناكم ،
والحول ما أعطاه الله للإنسان من متاع الدنيا : أى تركتم ذلك خلقكم لم تأتوننا بشيء منه ولا انتفعتم به بوجه من
الوجوه (وما نرى معكم شفعاءكم الذين) عبدتموهم وقلتم - ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - و (زعمتم أنهم
فيكم شركاء) لله يستحقون منكم العبادة كما يستحقها . قوله (لقد تقطع بينكم) قرأ نافع والكسائى وحفص
بنصب بينكم على الظرفية ، وفاعل تقطع محذوف : أى تقطع الوصل بينكم أنتم وشركاؤكم كما يدل عليه (وما
نرى معكم شفعاءكم) . وقرأ الباقون بالرفع على إسناد التقطع إلى الين : أى وقع التقطع بينكم ، ويجوز أن يكون
معنى قراءة النصب معنى قراءة الرفع فى إسناد التقطع إلى الظرف ، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفا . وقرأ ابن مسعود

«لقد تقطع ما بينكم، على إسناد الفعل إلى ما: أى الذى بينكم (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) من الشركاء والشرك. وحيل بينكم وبينهم».

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وما قلروا الله حق قدره) قال: هم الكفار لم يؤمنوا بقدره الله، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير قد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. قالت اليهود: يا محمد أنزل الله عليك كتابا؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابا، فأنزل الله (قل) يا محمد (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) إلى آخر الآية. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (وما قلروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) قالها مشركو قريش. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال: قال فنحاص اليهودى ما أنزل الله على محمد من شيء فنزلت. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: نزلت في مالك بن الصيف. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف، فخاصم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الخمر السمين؟ وكان حبرا سمينا، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (تجعلونه قراطيس) قال: اليهود، وقوله (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) قال: هذه للمسلمين. وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وعلمتم ما لم تعلموا) قال: هم اليهود آتاهم الله علما فلم يقتلوا به ولم يأخذوا به ولم يعملوا به، فذمهم الله في علمهم ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) قال: هو القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وأخرج عبد بن حميد عنه قال (مصدق الذى بين يديه) أى من الكتب التى قد خلت قبله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (ولتنذر أم القرى) قال: مكة ومن حولها. قال: يعنى ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال: إنما سميت أم القرى لأن أول بيت وضعت بها. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (ولتنذر أم القرى) قال: هي مكة، قال: وبلغنى أن الأرض دحيت من مكة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار نحوه. وأخرج الحاكم في المستدرک عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت في عبد الله بن أبي سرح (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) الآية، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة فرأى عثمان أخيه من الرضاعة، فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة، ثم استأمن له. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي خلف الأعمى: أنها نزلت في عبد الله بن أبي سرح وكذلك روى ابن أبي حاتم عن السدى. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج في قوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) قال: نزلت في مسيلمة الكذاب ونحوه من دعا إلى مثل ما دعا إليه (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة لما نزلت - والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا - قال: النضر وهو من بني عبد الدار: والطاحات طحنا والعاجنات عجنا قولا كثيرا، فأنزل الله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في

قوله (مخرجات الموت) قال : سكرات الموت : وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال في قوله (والملائكة باسطوا أيديهم) هذا عند الموت ، والبسط : الضرب - يضربون وجوههم وأديبارهم - وأخرج أبو الشيخ عن قتادة : في الآية هذا ملك الموت عليه السلام . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن القاسم بن سلام في قوله (والملائكة باسطوا أيديهم) قال : بالعذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله (عذاب الهون) قال : الهوان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن حكيم بن حزام : قال النضر بن الحارث : سوف تشفع لي اللات والعزى ، فزلت (ولقد جئتمونا فرادى) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة في قوله (ولقد جئتمونا فرادى) الآية . قال : كيوم ولد يرد عليه كل شيء نقص منه يوم ولد . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وتركتم ما آويناكم) قال : من المال والخدم (وراء ظهوركم) قال : في الدنيا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (لقد تقطع بينكم) قال : ما كان بينهم من الوصل . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (لقد تقطع بينكم) قال : توصلكم في الدنيا .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قُلُوبُكُمْ (١٠) فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٢) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبِهِ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٤) .

قوله (إن الله فالق الحب والنوى) هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدق شيء منه ، والقلق الشق : أي هو سبحانه فالق الحب فيخرج منه النبات ، وقالق النوى فيخرج منه الشجر ، وقيل معنى (فالق الحب والنوى) الشق الذي فيهما من أصل الحلقة ، وقيل معنى (فالق) خالق . والنوى : جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ . قوله (يخرج الحي من الميت) هذه الجملة خبر بعد خبر فهي في محل رفع ، وقيل هي جملة مفسرة لما قبلها ، لأن معناها معناه ، والأول أولى ، فإن معنى (يخرج الحي من الميت) يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهي ميتة . ومعنى (ويخرج الميت من الحي) يخرج النطفة والبيضة وهي ميتة من الحي ، وجملة (ويخرج الميت من الحي) معطوفة على (يخرج الحي من الميت) عطفت جملة اسمية على جملة فعلية ولا خبر في ذلك ، وقيل معطوفة على (فالق) على تقدير أن جملة (يخرج الحي من الميت) مفسرة لما قبلها ،

والأول أولى . والإشارة (بذكركم) إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقا و (الله) خبره : والمعنى : أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال . والمفضل بكل إفضال . والمستحق لكل حمد وإجلال (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته . قوله (فائق الإصباح) مرتفع على أنه من جملة أخبار « إن » في (إن الله فائق الحب والنوى) ، وقيل هو نعت للاسم الشريف في (ذلکم الله) : وقرأ الحسن وعيسى بن عمر (فائق الأصباح) بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بكسرها . وهو على قراءة الفتح جمع صبح . وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح : والصبح والصباح : أول النهار ، وكذا الإصباح : وقرأ النخعي (فلق الإصباح) بفعل وهمزة مكسورة . والمعنى في (فائق الإصباح) أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه ، أو يكون للمعنى على حذف مضاف : أي فائق ظلمة الإصباح ، وهي الغيش ، أو فائق عمود الفجر عن بياض النهار ، لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم بصير أبيض خالصا . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وعاصم وحمزة والكسائي (وجعل الليل سكنا) حملا على معنى (فائق) عند حمزة والكسائي : وأما عند الحسن وعيسى فعطفا على فلق . وقرأ الجمهور وجاعل عطفا على فائق . وقرئ ، فائق وجاعل بنصبهما على المدح . وقرأ يعقوب وجاعل الليل ساكنا . والسكن : محل السكون . من سكن إليه : إذ اطمأن إليه . لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة في معاشهم ويستريحون من التعب والنصب . قوله (والشمس والقمر حسبانا) بالنصب على إضمار فعل : أي وجعل الشمس والقمر . وبالرفع على الابتداء . والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسبانا ، وبالجزم عطفا على الليل على قراءة من قرأ وجاعل الليل : قال الأخفش : والحسبان جمع حساب مثل شهبان وشهاب . وقال يعقوب : حسان مصدر حسبت الشيء أحسبه حسبنا وحسبانا . والحساب : الاسم : وقيل الحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح ، والحسبان بالكسر مصدر حسب : والمعنى : جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدلّ عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه : وقيل الحسبان : الضياء ، وفي لغة أن الحسبان : النار ، ومنه قوله تعالى - ويرسل عليها حسبانا من السماء - والإشارة بذلك تقدير العزيز العليم) إلى الجعل المدلول عليه بجاعل أو يجعل على القراءتين . والعزيز : القاهر الغالب . والعليم : كثير العلم ، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم . قوله (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها) أي خلقها للاهتداء بها (في ظلمات) الليل عند السير في (البر والبحر) وإضافة الظلمات إلى البر والبحر لكونها ملازمة لهما . أو المراد بالظلمات : اشتباه طرقهما التي لا يهتدى فيها إلا بالنجوم . وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها : ومنها ما ذكره الله في قوله - وحفظا من كل شيطان مارد - . وجعلناها رجوما للشياطين - ، ومنها جعلها زينة للسماء . ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية (قد فصلنا الآيات) التي بينها بياننا مفصلا لتكون أبلغ في الاعتبار (لتقوم يعلمون) بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته . قوله (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) أي آدم عليه السلام كما تقدم . وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته (فستقر ومستودع) قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي بكسر القاف والباقون بفتحها . وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف ، والتقدير : فنكم مستقر أو فلکم مستقر . التقدير الأول على القراءة الأولى ، والثاني على الثانية : أي فنكم مستقر على ظهر الأرض . أو فلکم مستقر على ظهرها . ومنكم مستودع في الرحم أو في باطن الأرض أو في الصلب ، وقيل المستقر في الرحم ، والمستودع في الأرض ، وقيل المستقر في القبر . قال القرطبي : وأكثر أهل

التفسير يقولون المستقر ما كان في الرحم ، والمستودع ما كان في الصلب ؛ وقيل المستقر من خلق ، والمستودع من لم يخلق ، وقيل الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث .

ومما يدل على تفسير المستقر بالكون على الأرض قول الله تعالى ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . وذكر سبحانه هاهنا (يفتقرون) وفيما قبله (يعلمون) لأن في إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقراً وبعضها مستودعاً من الغموض والدقة ما ليس في خلق النجوم للاهتداء ، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تدقيق وإيمان فكر . قوله (وهو الذي أنزل من السماء ماء) هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته . والماء هو ماء المطر ، وفي (فأخرجنا به) التفات من الغيبة إلى التكلم لإظهار العناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه . والتضمير في (به) عائد إلى الماء ، و (نبات كل شيء) يعني كل صنف من أصناف النبات المختلفة ؛ وقيل المعنى رزق كل شيء . والتفسير الأول أولى . ثم فصل هذا الإجمال فقال (فأخرجنا منه خضرا) قال الأخفش : أي أخضر . والخضر : رطب البقول ، وهو ما ينشعب من الأغصان الخارجة من الحبة ؛ وقيل يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب (نخرج منه حبا) هذه الجملة صفة لخضرا : أي نخرج من الأغصان الخضر حبا متراكبا : أي مركبا بعضه على بعضه كما في السنايل (ومن النخل) خبر مقدم ، و (من طلعتها) بدل منه ، وعلى قراءة من قرأ يخرج منه حب يكون ارتفاع قنوان على أنه معطوف على حب ، وأجاز الفراء في غير القرآن قنوانا عطفا على حبا . وتميم يقولون قنيان . وقرئ بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز . والطلع : الكفرى قبل أن ينشق عن الإغريض ، والإغريض يسمى طلعا أيضا . والقنوان : جمع قنو ، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثني مكسور النون ، والجمع على ما يقتضيه الإعراب ، ومثله صنوان . والقنو : الغدق . والمعنى : أن القنوان أصله من الطلع . والغدق هو عنقود النخل ، وقيل القنوان : الجمار . والدانية : القرية التي ينالها القائم والقاعد . قال الزجاج : المعنى منها دانية ومنها بعيدة فحذف . ومثله - سراييل تقيكم الحر - وخص الدانية بالذكر لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان ، وذلك فيما يقرب تناوله أكثر . قوله (وجنات من أعناب) قرأ محمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى والأعمش وعاصم في قراءته الصحيحة عنه برفع جنات . وقرأ الباقر بن النصب . وأنكر القراءة الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم حتى قال أبو حاتم هي محال ، لأن الجنات لا تكون من النخل . قال النحاس : ليس تأويل الرفع على هذا ولكنه رفع بالابتداء ، والخبر مخوف : أي ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء وحوار عين . وقد أجاز مثل هذا سيويه والكسائي والفراء ، وأما على النصب فقليل هو معطوف على (نبات كل شيء) أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ، أو النصب بفعل يقدر متأخرا : أي وجنات من أعناب أخرجناها ، وهكذا القول في انتصاب الزيتون والرمان ؛ وقيل هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين ، و (مشتها) منتصب على الحال : أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضا في بعض أوصافه ولا يشبه بعضه بعضا في البعض الآخر ؛ وقيل إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتباهه على جميع الغصن وباعتبار حجمه ، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم ؛ وقيل خص الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما في قول الله سبحانه - أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت - ، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمرة إذا أثمر وإلى ينعه إذا أينع . والتمر في اللغة : جنى الشجر . والبالغ : الناضج الذي قد أدرك وحن قطافه . قال ابن الأنباري : البع جمع يانع ، كركب وراكب . وقال الفراء : أينع احمر . قرأ حمزة والكسائي : ثمرة ، بضم التاء والميم ، وقرأ الباقر بفتحها ، إلا الأعمش فإنه قرأ ثمرة بضم التاء وسكون الميم تخفيفا . وقرأ محمد بن السميع وابن عيصن وابن أبي إسحاق : وينعه . بضم الياء التحتية .

قال الفراء : هي لغة بعض أهل نجد . وقرأ الباقون بفتحها . والإشارة بقوله (إن في ذلكم) إلى ما تقدم ذكره مجعلا ومفصلا (لآيات لقوم يؤمنون) بالله استدلالا بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التي قصها عليهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى (إن الله فائق الحب والنوى) يقول : خلق الحب والنوى . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : يخلق الحب والنوى عن النبات . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الشقان اللذان فيهما . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (يخرج الحى من الميت) قال : النخلة من النواة والسنبلة من الحبة (ويخرج الميت من الحى) قال : النواة من النخلة والحبة من السنبلة . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) قال : الناس الأحياء من النطف ، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (فأنى توفكون) أى فكيف تكذبون . وأخرج أيضا عن الحسن قال أنى تصرفون . وأخرج أيضا عن ابن عباس في (فائق الإصباح) قال : خلق الليل والنهار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : يعنى بالإصباح ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في (فائق الإصباح) قال : إضاءة الفجر . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (فائق الإصباح) قال : فائق الصبح . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وجاعل الليل سكنا) قال : سكن فيه كل طير ودابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (والشمس والقمر حسبانا) يعنى عدد الأيام والشهور والسنين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) قال : بفضل الرجل وهو في الظلمة والجور عن الطرق . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والخطيب في كتاب النجوم عن عمر بن الخطاب قال : تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم ثم أمسكوا . فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا » .

وقد ورد في استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث : منها عند الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله » . وأخرج ابن شاهين والطبراني والحاكم والخطيب عن عبد الله بن أبي أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر نحوه . وأخرج أحمد في الزهد والخطيب عن أبي الدرداء نحوه . وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عن أبي هريرة نحوه حديثه الأول مرفوعا . وأخرج الحاكم في تاريخه والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاثة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : التاجر الأمين ، والإمام المقتصد ، وراعى الشمس بالنهار » . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سلمان الفارسي قال : « سبعة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر منهم الرجل الذى يراعى الشمس لمواقيت الصلاة » . فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله والصلاة لا لغير ذلك . وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس ، وأول صلاة الظهر زوالها . ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية . ووقت المغرب غروب

الشمس . وورد في صلاة العشاء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصليها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر ، وبها يعرف أوائل الشهور وأواسطها وأواخرها . فن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذي أراده صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد . وهكذا النجوم . ورد النهي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه والخطيب عن علي قال : نهاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن النظر في النجوم . وأخرج ابن مردويه والمرهبي والخطيب عن أبي هريرة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن النظر في النجوم . وأخرج الخطيب عن عائشة مرفوعا مثله . وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية والخطيب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد ، فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكير والاعتبار . وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكير والاعتبار كما يدل عليه حديث ابن عمر السابق ، وعليه يحمل ما روى عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه : أنه سأل رجلا عن حساب النجوم ، فجعل الرجل يتحرج أن يخبره ، فقال عكرمة : سمعت ابن عباس يقول : علم عجز الناس عنه ووددت أني علمته . وقد أخرج أبو داود والخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : أما بعد ، فإن ناسا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض . وإنهم قد كذبوا . ولكنها آيات من آيات الله يعبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بهما عباده . وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة مرفوعا : إن الله نصب آدم بين يديه . ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذريرة من صلبه حتى ملئوا الأرض ، فهذا الحديث هو معنى ما في الآية . - وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة . - وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله (فستقر ومستودع) قال : المستقر ما كان في الرحم . والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب . وفي لفظ : المستقر ما في الرحم وعلى ظهر الأرض وبطنها مما هو حي وما قد مات . وفي لفظ المستقر ما كان في الأرض ، والمستودع ما كان في الصلب . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود في الآية : قال مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : المستقر الرحم . والمستودع المكان الذي يموت فيه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن وقتادة في الآية قالا : مستقر في القبر . ومستودع في الدنيا : أشك أن يلحق بصاحبه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (نخرج منه حبا متراكبا) قال : هذا السليل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب (قنوان دانية) قال قرية : وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (قنوان دانية) قال : قصار النخل اللاصقة علوقها بالأرض . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قنوان الكبائس ، والدانية المنصوبة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في (قنوان دانية) قال : تهطل العنوق من الطلع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (مشنبا وغير متشابه) قال : متشابه ورقه مختلفا ثمره . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن

كعب القرظي في قوله (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) قال : رطب وعنبه . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء (وينعه) قال نصحه .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ . سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صُحْبَةٌ
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تَذَرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَارَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ (١٠٣) .

هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم . قال النحاس : الجن المفعول الأول .
وشركاء المفعول الثاني كقوله تعالى - وجعلكم ملوكا - وجعلت له مالا مملودا - وأجاز الفراء : أن يكون الجن بدلا
من شركاء ومفسرا له . وأجاز الكسائي رفع الجن بمعنى هم الجن . كأنه قيل من هم ؟ فقيل الجن . وبالإرفق
قرأ يزيد بن أبي قطيب وأبو حيان . وقرئ بالجر على إضافة شركاء إلى الجن للبيان . والمعنى : أنهم جعلوا شركاء
لله فعبدوهم كما عبده . وعظموهم كما عظموه . وقيل المراد بالجن ما هنا الملائكة لاجتماعهم : أي استتارهم .
وهم الذين قالوا : الملائكة بنات الله : وقيل نزلت في الزنادقة الذين قالوا : إن الله تعالى وإبليس أخوان ، فالله خالق
الناس والدواب ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب . وروى ذلك عن الكلبي . ويقرب من هذا قول
الجبوس . فإنهم قالوا : للعالم صانعان هما الرب سبحانه والشیطان . وهكذا القائلون : كل خير من النور ، وكل
شر من الظلمة ، وهم المانوية . قوله (وخلقهم) جملة حالية بتقدير قد : أي وقد علموا أن الله خلقهم ، أو خلق
ما جعلوه شريكا لله . قوله (وخرقوا له بنين وبنات) قرأ نافع بالتشديد على التكثير ، لأن المشركين ادّعوا أن
الملائكة بنات الله . والنصارى ادّعوا أن المسيح ابن الله ، واليهود ادّعوا أن عزيرا ابن الله . فكثرت ذلك من كفرهم
فشدد الفعل لمطابقة المعنى . وقرأ الباقون بالتخفيف . وقرئ (حرقوا) من التحريف : أي زوروا . قال أهل
اللغة : معنى خرقوا اختلقوا وافتعلوا وكذبوا ، يقال اختلق الإفك واخترقه وخرقه . أو أصله من خرق الثوب :
إذا شقه : أي اشتقوا له بنين وبنات . قوله (بغير علم) متعلق بمحذوف هو حال : أي كائنين بغير علم ، بل
قالوا ذلك عن جهل خالص . ثم بعد حكاية هذا الضلال البين والبهت الفظيع من جعل الجن شركاء لله ، وإثبات
بنين وبنات له نزه الله نفسه . فقال (سبحانه وتعالى عما يصفون) وقد تقدم الكلام في معنى سبحانه . ومعنى
«تعالى» : تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذي وصفوه به . قوله (بديع السموات والأرض) أي مبدعهما . فكيف
يجوز أن (يكون له ولد) وقد جاء البديع : بمعنى المبدع كالسميع بمعنى المسمع كثيرا ، ومنه قول عمرو بن
معدى كرب :

أمن ريحانة الداعي السميع يؤزقني وأصحابي مجوع

أي المسمع . وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل ، والأصل بديع سمواته وأرضه . وأجاز الكسائي
خفضه على التعت لله . والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف . أو على أنه مبتدأ وخبره (أنى يكون له ولد)

وقيل هو مرفوع على أنه فاعل «تعالى»، وقرئ بالنصب على المدح، والاستفهام في (أني يكون له ولد) للإنكار والاستبعاد: أي من كان هذا وصفه، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما كيف يكون له ولد؟ وهو من جملة مخلوقاته، وكيف يتخذ ما يخلقه ولدا، ثم بالغ في نفي الولد، فقال (ولم تكن له صاحبة) أي كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة، والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد، وجملة (وهو بكل شيء عليم) لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى الأوصاف السابقة، وهو في موضع رفع على الابتداء وما بعده خبره، وهو الاسم الشريف، و(ربكم) خبر ثان، و(لا إله إلا هو) خبر ثالث، و(خالق كل شيء) خبر رابع، ويجوز أن يكون (الله ربكم) بدلا من اسم الإشارة، وكذلك (لا إله إلا هو خالق كل شيء) خبر المبتدأ، ويجوز ارتفاع خالق على إضمار مبتدأ، وأجاز الكسائي والفراء النصب فيه (فاعبدوه) أي من كانت هذه صفاته، فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء. قوله (لاتدركه الأبصار) الأبصار: جمع بصر، وهو الحاسة، وإدراك الشيء عبارة عن الإحاطة به. قال الزجاج: أي لا تبلغ كنه حقيقته، فالمنفى هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية. فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة نواتر لا شك فيه ولا شبهة، ولا يحمله إلا من يجهل السنة المطهرة جهلا عظيما. وأيضا قد تقرر في علم البيان والميزان أن رفع الإيجاب الكلي سلب جزئي، فالمنفى لا تدركه بعض الأبصار وهي أبصار الكفار، هذا على تسليم أن نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأول تخلفه الجزئية، والتقدير: لا تدركه كل الأبصار بل بعضها، وهي أبصار المؤمنين، والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرفت فذاك من تواتر الرؤية في الآخرة، واعتضادها بقوله تعالى - وجوه يومئذ ناضرة - الآية. قوله (وهو يدرك الأبصار) أي يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية، وخص الأبصار ليجانس ما قبله. وقال الزجاج: في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار: أي لا يعرفون كيفية حقيقة البصر وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه انتهى (وهو اللطيف) أي الرفيق بعباده: يقال لطف فلان بفلان: أي رفق به، واللفظ في العمل الرفق فيه، واللفظ من الله التوفيق والعصمة. والطفه بكذا: إذا أبره: . والملاطفة: المباركة. هكذا قال الجوهري وابن فارس، و(الخبير) المختبر بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم) قال: والله خلقهم (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال: تخرصوا. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (وخرقوا) قال: جعلوا: وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال كذبوا. وأخرج عبد ابن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (لاتدركه الأبصار) قال: لو أن الإنس والجن والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فتوا صفوا واحدا ما أحاطوا بالله أبدا. قال الذهبي: هذا حديث منكر انتهى. وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف. وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم ومصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال: رأى محمد ربه. قال عكرمة: فقلت له أليس الله يقول (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال: لا أم لك ذلك نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء.

وفي لفظ « إنما ذلك إذا تجل بكيفيته لم يتم له بصر » . وأخرج ابن جرير عنه قال : لا يخط بصر أحد بالله . وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في كتاب الرواية عن الحسن في قوله (لا تتركه الأبصار) قال : في الدنيا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إسماعيل بن علية مثله .

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيفٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) .

البصائر جمع بصيرة . وهي في الأصل : نور القلب . والمراد بها هنا الحجة البينة والبرهان الواضح . وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولهذا قال في آخره (وما أنا عليكم بخفيف) ووصف البصائر بالمجىء تفخيلاً لشأنها وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه كما يقال جاءت العافية . وانصرف المرض . وأقبلت السعد . وأدبرت النحوس (فمن أبصر فلنفسه) أي فمن تعقل الحجة وعرفها وأذعن لها فنفع ذلك لنفسه لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار (ومن عمى) عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها ، فضرر ذلك على نفسه لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا ويكون مصيره النار (وما أنا عليكم بخفيف) بربيب أحصى عليكم أعمالكم . وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الخفيف عليكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنهم بالسيف من عبادة الأوثان (وكذلك نصرف الآيات) أي مثل ذلك التصريف البديع نصرفها في الوعد والوعيد والوعظ والتنبية . قوله (وليقولوا درست) العطف على مخوف : أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . أو حلة لفعل مخوف بقدر متأخرا : أي وليقولوا درست صرفناها ، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة . والمعنى : ومثل ذلك التصريف نصرف الآيات وليقولوا درست ، فإنه لا احتفال بقولهم ولا اعتداد بهم فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم وعدم الاكتراث بقولهم . وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج . وقال النحاس : وفي المعنى قول آخر حسن ، وهو أن يكون معنى (نصرف الآيات) نأني بها آية بعد آية (ليقولوا درست) علينا فيذكرون الأول بالآخر ، فهذا حقيقته ، والذي قاله أبو إسحاق : يعني الزجاج مجاز ، وفي (درست) قراءات . قرأ أبو عمرو وابن كثير « درست » بآلف بين الدال والراء كفاعلت ، وهي قراءة علي وابن عباس وسعيد بن جبيرة ومجاهد وعكرمة وأهل مكة . وقرأ ابن عامر « درست » بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف كخرجت . وهي قراءة الحسن . وقرأ الباقون « درست » كضربت . فعل القراءة الأولى المعنى : درست أهل الكتاب ودارسوك : أي ذاكرتهم وذاكروك ، ويدل على هذا ما وقع في الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله - وأطاعه طيه قوم آخرون - أي أطاع اليهود النبي صلى الله عليه وآله وسلم على القرآن . ومثله قولهم - أساطير الأولين اكتتبها فهي

في علمه بكرة وأصيلا . . وقولهم - إنما يعلمه بشر - : والمعنى على القراءة الثانية : قدمت هذه الآيات وعُتقت وانقطعت ، وهو كقولهم - أساطير الأولين - . والمعنى على القراءة الثالثة مثل المعنى على القراءة الأولى . قال الأنخس : هي بمعنى دارست إلا أنه أبلغ . وحكى عن المبرد أنه قرأ (وليقولوا) بإسكان اللام فيكون فيه معنى التهديد : أي وليقولوا ماشاءوا فإن الحق بين ، وفي هذا اللفظ أصله درس يدرس دراسة فهو من الدرس وهو القراءة ؛ وقيل من درسته : أي ذلته بكثرة القراءة ، وأصله درس الطعام : أي داسه . والدياس : الدراس بلغة أهل الشام ؛ وقيل أصله من درست الثوب أدركه درسا : أي أخلقته ، ودرست المرأة درسا : أي حاضت . ويقال : إن فرج المرأة يكنى أبا دراس وهو من الحيض : والدرس أيضا : الطريق الحق . وحكى الأصمعي : بغير لم يدرس : أي لم يركب . وروى عن ابن عباس وأصحابه وأبي وابن مسعود والأعمش أنهم قرءوا : درس أي درس محمد الآيات ، وقرأ : درست ، وبه قرأ زيد بن ثابت : أي الآيات على البناء للمفعول . « ودارست » أي دارست اليهود محمدا ، واللام في (لنبيته) لام كي : أي نصرف الآيات لكي نبينه لقوم يعلمون . والضمير راجع إلى الآيات لأنها في معنى القرآن ، أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر ، لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين المدلول عليه بالفعل . قوله (اتبع ما أوحى إليك من ربك) أمره الله باتباع ما أوحى إليه وأن لا يشغل خاطره بهم ، بل يشتغل باتباع ما أمره الله . وجملة (لا إله إلا هو) معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه لقصد تأكيد إيجاب الاتباع (وأعرض) معطوف على (اتبع) أمره الله بالإعراض عن المشركين بعدما أمره باتباع ما أوحى إليه . وهذا قبل نزول آية السيف (ولو شاء الله ما أشركوا) أي لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا . وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه ، والكلام في تقرير هذا على الوجه الذي يتعارف به أهل علم الكلام والميزان معروف فلانطيل بإيراده (وما جعلناك عليهم حفيظا) أي رقيبيا (وما أنت عليهم بوكيل) أي قيم بما فيه نفهم فتجلبه إليهم . ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة . قوله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) الموصول عبارة عن الآلة التي كانت تعبدها الكفار . والمعنى : لا تسب يا محمد آله هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون الله . فينسب عن ذلك سبهم لله عدوانا وتجاوزا عن الحق وجهلا منهم .

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق والنهائي عن الباطل إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم ، ومخالفة حق . ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به . بل كان واجبا عليه . وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله المتصدين لبيانها للناس إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه وتركوا غيره من المعروف ، وإذا نهىهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات عنادا للحق وبغضا لاتباع المحقين وجراءة على الله سبحانه سبحانه ، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف . وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجروء على أهلها ديدنه وهجيره ، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل ، وإذا أرشدوا إلى السنة قابلوها بما لديهم من البديعة ، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع ، وهم شر من الزنادقة ، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين ، والزنادقة قد ألحمتهم سيوف الإسلام ونحامهم أهله . وقد يتفق كيدهم ويتم باطلهم وكفرهم نادرا على ضعيف من ضعفاء المسلمين مع تكتم وتحرز وخيفة وجل ، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة ، وهي أصل أصيل في سد الفرائع وقطع التطرق إلى الله . وقرأ أهل مكة وعدواه بضم العين والذال وتشديد الواو ، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وقتادة . وقرأ من

عدهم بفتح العين وضم (١) الدال وتشديد الواو . ومعنى القراءتين واحد : أى ظلما وعدوانا . وهو متعصب على الحال . أو على المصدر أو على أنه مفعول له (كذلك زيننا لكل أمة عملهم) أى مثل ذلك التزين زيننا لكل أمة من أمة الكفار عملهم من الخير والشر - يضل من يشاء ويهدى من يشاء - (ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا من المعاصى التى لم ينتهوا عنها ولا قبلوا من المرسلين ما أرسلهم الله به إليهم وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم :

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (قد جاءكم بصائر) أى بينة (فمن أبصر فلنفسه) أى فمن اهتدى فلنما يهتدى لنفسه (ومن عمى) أى من ضل (فعليها) . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس أنه كان يقرأ دارست . وقال : قرأت . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه (دارست) قال : قرأت وتعلمت . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال (دارست) خاصمت جادلت تلوت . وأخرج أبو الشيخ عن السدى (وأعرض عن المشركين) قال : كف عنهم ، وهذا منسوخ نسخه القتال - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله (ولو شاء الله ما أشركوا) يقول الله تبارك وتعالى : لو شئت لجمعهم على الهدى أجمعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (وما أنت عليهم بوكيل) أى بحفيظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) قال : قالوا يا محمد لتنبين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم (فيسبوا الله عدوا بغير علم) . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ملعون من سب والديه ، قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل فيسب أباه . ويسب أمه فيسب أمه .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَزْوَاجٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَازِلُ يُعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ لَقَالُوا أَن سَاحِرٌ جَاهِلٌ فَلَتَنَ الْغَايِبِ عَلَيْهِمُ الْغُيُوبُ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِئِنْ لَّمْ يُدْعُوا لِلْحَاقِّ بِالْبَيِّنَاتِ لَيُكْفَرْنَ أَكْثَرًا (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتُنْصِفَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) قوله (واقسموا بالله) أى الكفار مطلقا . أو كفار قريش . وجهد الإيمان أشدها : أى أقسموا بالله لشدة

أيمانهم التي بلغت قدرتهم . وقد كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم ، فلهذا أقسموا به ، وانتصاب جهد على المصدرية وهو بفتح الجيم المشقة . وبضمها الطاقة ، ومن أهل اللغة من يجعلهما لمعنى واحد . والمعنى : أنهم اقترحوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وأقسموا لئن جاءتهم هذه الآية التي اقترحوها (ليؤمنن بها) وليس غرضهم الإيمان ، بل معظم قصدهم التحكم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتلاعب بآيات الله ، فأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم بقوله (إنما الآيات عند الله) هذه الآية التي يقترحونها وغيرها وليس عندي من ذلك شيء ، فهو سبحانه إن أراد إنزالها أنزلها ، وإن أراد أن لا ينزلها لم ينزلها . قوله (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) . قرأ أبو عمرو وابن كثير بكسر الهمزة من أنها وهي قراءة مجاهد . ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود (وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون) قال مجاهد وابن زيد : المخاطب بهذا : المشركون : أي وما يدريكم ، ثم حكم عليهم بقوله (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) وقال الفراء وغيره : الخطاب للمؤمنين ، لأن المؤمنين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : يا رسول الله لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون ، فقال الله تعالى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) وقرأ أهل المدينة والأعمش وحزرة والكسائي وعاصم وابن عامر : أنها إذا جاءت ، بفتح الهمزة ، قال الخليل : أنها بمعنى لعلها ، وفي التنزيل - وما يدريك لعله يزكى - أي أنه يزكى . وحكى عن العرب انت السوق أنك تشترى لنا شيئا : أي لعلك ، ومنه قول عدي بن زيد :

أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

أي لعل منيتي ، ومنه قول دريد بن الصمة :

أريني جوادا مات هزلا لأمتي أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

أي لعلني ، وقول أبي النجم :

قلت لشييان ادن من لقائه أتى بعد اليوم من سوائه

أي لعل ، وقول جرير :

همل أنتم عانجون بنا لأن نرى العرصات أو أثر الخيام

أي لعلنا اه . وقد وردت في كلام العرب كثيرا بمعنى لعل : وحكى الكسائي أنها كذلك في مصحف أبي بن كعب . وقال الكسائي أيضا والفراء : إن ولا زائدة ، والمعنى : وما يشعركم أنها : أي الآيات ، إذا جاءت يؤمنون فزيدت كما زيدت في قوله تعالى - وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون - وفي قوله - ما منعك أن لا تسجد - وضعف الزنجاج والنحاس وغيرهما زيادة لا وقالوا : هو غلط وخطأ . وذكر النحاس وغيره أن في الكلام حذفاً والتقدير : أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع . قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) معطوف على لا يؤمنون ، قيل والمعنى : تقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لب النار وحر الجمر (كالم يؤمنوا) في الدنيا (وتلزمهم) في الدنيا : أي تمهلهم ولا تعاقبهم فعلى هذا بعض الآية في الآخرة . وبعضها في الدنيا ، وقيل المعنى : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا : أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية كما حدث بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : أنها إذا جاءت لا يؤمنون كالم يؤمنوا ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم وتلزمهم في طغيانهم يعمهون : أي يتحيرون ، والكاف في (كالم يؤمنوا) نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية ، و (يعمهون) في محل نصب على الحال .

قوله (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) أى لا يؤمنون ولو نزلنا إليهم الملائكة كما اقترحوه بقولهم - لولا أنزل عليه ملك - (وكلمهم الموتى) الذين يعرفونهم بعد إحيائنا لهم ، فقالوا لهم إن هذا النبى صادق مرسل من عند الله فأمنوا به لم يؤمنوا (وحشرنا عليهم كل شيء) مما سألوهم من الآيات (قبلا) أى كفلا وضمنا بما جئناهم به من الآيات البينات . هذا على قراءة من قرأ قبلا بضم القاف وهم الجمهور . وقرأ نافع وابن عامر قبلا بكسرها : أى مقابلة . وقال محمد بن يزيد المبرد : قبلا بمعنى ناحية كما تقول لى قبل فلان مال ، فقبلا نصب على الظرف ، وعلى المعنى الأول ورد قوله تعالى - أو تأتي بالله والملائكة قبيلا - أى يضمنون كذا قال الفراء . وقال الأخفش : هو بمعنى قبيل قيل : أى جماعة جماعة . وحكى أبو زيد لقيت فلانا قبلا ومقابلة وقبلا كله واحد بمعنى المواجهة ، فيكون على هذا الضم كالكسر وتستوى القراءتان . والحشر : الجمع (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) إيمانهم . فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والاستثناء مفرغ (ولكن أكثرهم يجهلون) جهلا يحول بينهم وبين درك الحق والوصول إلى الصواب . قوله (وكذلك جعلنا لكل نبي) هذا الكلام لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم : أى مثل هذا العمل (جعلنا لكل نبي عدوا) والمعنى . كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار ، فجعلنا لكل واحد منهم عدوا من كفار زمهم ، و (شياطين الإنس والجن) بدل من عدوا : وقيل هو المفعول الثانى لجعلنا . وقرأ الأعمش الجن والإنس بتقديم الجن . والمراد بالشياطين المردة من الفريقين ، والإضافة بيانية أو من إضافة الصفة إلى الموصوف . والأصل الإنس والجن الشياطين . وجملة (يوحى بعضهم إلى بعض) فى عمل نصب على الحال : أى حال كونه يوسوس بعضهم لبعض : وقيل إن الجملة مستأنفة لبيان حال اللغو ، وسمى وحيا لأنه إنما يكون خفية بينهم ، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه . والمزخرف : المزين ، وزخارف الماء طرائقه . و (غرورا) منتصب على المصدر ، لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض يغفرونهم بذلك غرورا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال . ويجوز أن يكون مفعولا له . والغرور : الباطل . قوله (ولو شاء ربك ما فعلوه) الضمير يرجع إلى ما ذكر سابقا من الأمور التى جرت من الكفار فى زمته وزمن الأنبياء قبله : أى لو شاء ربك عدم وقوع ما تقدم ذكره ما فعلوه وأوقعوه : وقيل ما فعلوا الإيحاء المدلول عليه بالفعل (فلهم) أى اتركهم ، وهذا الأمر للتهديد للكفار كقوله - ذرني ومن خلقت وحيدا - (وما يفترون) إن كانت ما مصدرية فالتقدير : اتركهم وإفترائهم ، وإن كانت موصولة فالتقدير : اتركهم والذى يفترونه . قوله (ولتصنفى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) اللام فى لتصنفى لام كى ، فتكون علة كقوله (يوحى) والتقدير : يوحى بعضهم إلى بعض ليغفروهم ولتصنفى : وقيل هو متعلق بمحذوف يقدر متأخرا : أى لتصنفى (جعلنا لكل نبي عدوا) وقيل إن اللام للأمر وهو غلط ، فإنها لو كانت لام الأمر جازمت الفعل ، والإصغاء : الميل ، يقال صفوت أصغو صفوا ، وصغيت أصغى ، ويقال صغيت بالكسر ، ويقال أصغيت الإناء : إذا أملت له ليجتمع ما فيه ، وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض ، ويقال صغت النجوم : إذا مالت للغروب . وأصغت الناقة : إذا أملت رأسها ، ومنه قول ذى الرمة :

تصنفى إذا شدتها بالكور جانحة حتى إذا ما استوى فى غرزا وثبت

والضمير فى إليه لزخرف القول ، أو لما ذكر سابقا من زخرف القول وغيره : أى أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغفروهم (ولتصنفى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) من الكفار (وليروضوه) لأنفسهم بعد الإصغاء إليه (وليقرؤوا ما هم مقرءون) من الآثام . والاقتراف : الاكتساب ، يقال خرج ليقرف لأهله : أى

ليكتسب لهم ، وقارف فلان هذا الأمر : إذا واقعه ، وقرفه : إذا رماه بالريثة ، واقترف : كذب ، وأصله اقتطاع قطعة من الشيء .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) في قريش (وما يشعركم) يا أيها المسلمون (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : كلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشاً فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى ، وأن ثمود لم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أى شيء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً ، قال : فإن فعلت تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لتبعنك أجمعون ، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو ، فجاءه جبريل فقال له : إن شئت أصبح ذهباً فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبهم ، وإن شئت فاطرهم حتى يتوب تائبهم . فقال : بل يتوب تائبهم . فأنزل الله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) إلى قوله (يجهلون) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) قال : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه (وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً) قال : معاينة (ما كانوا ليؤمنوا) أى أهل الشقاء (إلا أن يشاء الله) أى أهل السعادة والذين سبق لهم في علمه أن يدخلوا في الإيمان . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة (وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً) أى فعابنوا ذلك معاينة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : أفواجا قبلاً . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) قال : إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم ، فيلتقى شيطان الإنس وشيطان الجن . فيقول هذا لهذا : أضله بكذا وأضله بكذا ، فهو (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقال ابن عباس : الجن هم الجان وليسوا شياطين ، والشياطين ولد إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس والجن يموتون ، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال : الكهنة هم شياطين الإنس . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (يوحى بعضهم إلى بعض) قال : شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس ، فإن الله يقول (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : من الإنس شياطين ومن الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس زخرف القول قال : يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوهم في فتنهم . وقد أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس ، قال : يانبي الله الله وهل للإنس شياطين ؟ قال : نعم ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . وأخرج أحمد وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي ذر مرفوعاً نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ولتصغى) لتقبل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عنه (ولتصغى) تزيف (وليقتروا) يكتسبوا .

أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١١) وَتَمَّتْ

كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ
مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧).

قوله (أفغیر الله) الاستفهام للإنكار ، والقاء للعطف على فعل مقدر ، والكلام هو على إرادة القول ، والتقدير :
قل لهم يا محمد كيف أضل وأبغى غير الله حكما ؟ وغير مفعول لأبتغى مقدم عليه . وحكما المفعول الثاني أو العكس .
ويجوز أن ينتصب حكما على الحال ، والحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر في مثل هذه الصفة المشتقة . أمره الله سبحانه
وتعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه من أن يجعل بينه وبينهم حكما فيما اختلفوا فيه ، وإن الله هو الحكم العدل بينه
وبينهم . وجملة (وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا) في محل نصب على الحال : أي كيف أطلب حكما غير
الله وهو الذي أنزل عليكم القرآن مفصلا مبينا واضحا مستوفيا لكل قضية على التفصيل ، ثم أخبر نبيه صلى الله
عليه وآله وسلم بأن أهل الكتاب وإن أظهروا الجحود والمكابرة ، فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله بما
دلهم عليه كتب الله المنزلة كالنوراة والإنجيل من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء ، و (بالحق) متعلق بمحذوف
وقع حالا : أي متلبسا بالحق الذي لا شك فيه ولا شبهة ثم نهى الله عن أن يكون من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون
بأن القرآن منزل من عند الله بالحق أونهاه عن مطلق الامتراء ويكون ذلك تعريضا لأمنته عن أن يمرى أحد منهم ،
أو الخطاب لكل من يصلح له : أي فلا يكون أحد من الناس من الممترين ولا يقدح في ذلك كون الخطاب
لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن خطابة خطاب لأمنته . قوله (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا) قرأ أهل
الكوفة كلمة بالتوحيد ، وقرأ الياقون بالجمع ، والمراد بالكلمات العبارات أو متعلقاتها من الوعد والوعيد .
والمعنى : أن الله قد أتم وعده ووعيده . فظهر الحق وانطمس الباطل ؛ وقيل المراد بالكلمة أو الكلمات
القرآن ، و (صدقا وعدلا) متصبان على التمييز أو الحال أو على أنها نعت مصدر محذوف : أي تمام صدق وعدل
(لا مبدل لكلماته) لا خلف فيها ولا مغير لما حكم به ، والجملة المنفية في محل نصب على الحال أو مستأنفة (وهو
السميع) لكل مسموع (العليم) بكل معلوم . قوله (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) أخبره
الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه ، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين ، وهم الطائفة التي
لا تنال على الحق ولا يضرها خلاف من يخالفها ، كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقيل
المراد بالأكثر الكفار ؛ وقيل المراد بالأرض مكة : أي أكثر أهل مكة ، ثم علل ذلك سبحانه بقوله (إن يتبعون
إلا الظن) أي ما يتبعون إلا الظن الذي لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها تقربهم إلى الله
(وإن هم إلا يخرصون) أي وما هم إلا يخرصون : أي يحلسون ويقدرّون ، وأصل الخرص القطع ، ومنه خرص
النخل يخرص : إذا حزره ليأخذ منه الزكاة ، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين منه ، وإذا كان هذا
حال أكثر من في الأرض فالعلم الحقيقي هو عند الله ، فاتبع ما أمرك به ودع عنك طاعة غيره ، وهو العلم بمن
يضل عن سبيله ومن يهتدي إليه . قال بعض أهل العلم : إن (أعلم) في الموضعين بمعنى يعلم ، قال ومته قول
حاتم الطائي :

فحالت طي من دوننا حلقا والله أعلم ما كنا لم نحولا

والوجه في هذا التأويل أن أفعل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر ، فتكون من منصوبة بالفعل الذي جعل أفعل التفضيل نائباً عنه ؛ وقيل إن أفعل التفضيل على بابه والنصب بفعل مقدّر ؛ وقيل إنها منصوبة بأفعل التفضيل أي إن ربك أعلم أي الناس يفضل عن سبيله ؛ وقيل في محل نصب ينزع الخافض : أي بمن يفضل قاله بعض البصريين ؛ وقيل في محل جر بإضافة أفعل التفضيل إليها .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (مفصلاً) قال : مينا . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (صدقاً وعدلاً) قال : صدقاً فيما وعد . وعدلاً فيما حكم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نصر السجزي في الإبانة عن محمد بن كعب القرظي في قوله (لا مبدل لكلماته) قال : لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والآخرة لقوله - ما يبدل القول لدى - . وأخرج ابن مردويه وابن النجار عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً) قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي اليمان عامر بن عبد الله قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخضرة . ولكل قوم صنم يعبدونه . فجعل يأتها صنماً صنماً ويطعن في صدر الصنم بعصا ثم يعقره . فكلما طعن صنماً أتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسروه ويطرحوه خارجاً من المسجد ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول (وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) .

فَكُلُّوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) .

لما تقدم ذكر ما يصنعه الكفار في الأنعام من تلك السنن الجاهلية أمر الله المسلمين بأن يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؛ وقيل إنها نزلت في سبب خاص وسيأتي ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فكل ما ذكر الذابح عليه اسم الله حل إن كان مما أباح الله أكله . وقال عطاء : في هذه الآية الأمر بذكر الله على الشراب والذبيح وكل مطعوم ، والشرط في (إن كنتم بآياته مؤمنين) للتيسير والإلهاب ؛ أي بأحكامه من الأوامر والنواهي التي من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه . والاستفهام في (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) للإنكار ؛ أي ما المانع لكم من أكل ما سميت عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك (و) الحال أن (قد فصل لكم ما حرم عليكم) أي بين لكم بياناً مفصلاً يدفع الشك ويزيل الشبهة بقوله (قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً ، إلى آخر الآية ، ثم استثنى فقال (إلا ما اضطررتم إليه) أي من جميع ما حرمه عليكم فإن الضرورة تحلل الحرام ؛ وقد تقدم تحقيقه في البقرة . قرأ نافع ويعقوب (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) بفتح الفعلين على البناء للفاعل . وهو الله سبحانه . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما على البناء للمفعول . وقرأ عطية العوفي « فصل » بالتخفيف : أي أبان وأظهر . قوله (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم) هم الكفار الذين كانوا يحرمون البحيرة والسائبة ونحوهما ، فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل كانوا يضلون الناس فيتبعونهم ولا يعلمون أن ذلك جهل

وضلالة لا يرجع إلى شيء من العلم، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه . والظاهر : ما كان يظهر كأفعال الجوارح ، والباطن : ما كان لا يظهر كأفعال القلب ؛ وقيل ما أعلنتم وما أسررتم ؛ وقيل الزنا الظاهر والزنا المكتوم . وأضاف الظاهر والباطن إلى الإثم لأنه يتسبب عنهما ، ثم توعد الكاسين للإثم بالجزاء بسبب افتراءهم على الله سبحانه .

وقد أخرج أبو داود والترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالوا : إنا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله فأنزل الله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) إلى قوله (وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون) . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) فإنه حلال (إن كنتم بآياته) يعني القرآن (مؤمنين) قال : مصدقين (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يعني الذبائح (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) يعني ما حرم عليكم من الميتة (وإن كثيرا) يعني من مشركي العرب (ليضلون بأهوائهم بغير علم) يعني في أمر الذبائح . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (إلا ما اضطررتم إليه) أي من الميتة والدم ولحم الخنزير . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (وذروا ظاهر الإثم) قال : هو نكاح الأمهات والبنات (وباطنه) قال : هو الزنا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : الظاهر منه : لا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء . و - حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم - الآية ، والباطن : الزنا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : علانيته وسره .

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِذَكُمْ إِلَى أُولِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) .

نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه . وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه .

وقد اختلف أهل العلم في ذلك ؛ فذهب ابن عمر ونافع مولاة والشعبي وابن سيرين وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل ، وبه قال أبو ثور وداود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية ، ولقوله تعالى في آية الصيد - فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه - ، ويزيد هذا الاستدلال تأكيدا قوله سبحانه في هذه الآية (وإنه لفسق) .

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة الأمر بالتسمية في الصيد وغيره . وذهب الشافعي وأصحابه وهو رواية عن مالك ورواية عن أحمد أن التسمية مستحبة لا واجبة ، وهو مروى عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء ابن أبي رباح ، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله وهو تخصيص للآية بغير محصر . وقد روى أبو داود في المرسى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أولم يذكر ، . وليس في هذا المرسى ما يصلح لتخصيص الآية ، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن قوما يأتوننا بلحمان لا ندرى أذكركم اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا أنتم واكلوا ، يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التماس وقوعها

عند الذبح . وذهب مالك وأحمد في المشهور عنهما وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه أن التسمية إن تركت نسياناً لم تضر ، وإن تركت عمداً لم يحل أكل الذبيحة . وهو مروى عن عليّ وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيع بن أبي عبد الرحمن ، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « المسلم إن نسي أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله » وهذا الحديث رفعه خطأ ، وإنما هو من قول ابن عباس . وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . كما سبق تقريره ، وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » وأما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عديّ « أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اسم الله على كل مسلم » فهو حديث ضعيف قد ضعفه البيهقي وغيره . قوله (وإنه لفسق) الضمير يرجع إلى (ما) بتقدير مضاف : أي وإن أكل ما لم يذكر لفسق ، ويجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا : أي فإن الأكل لفسق . وقد تقدم تحقيق الفسق .

وقد استدلت من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير الله بقوله (وإنه لفسق) ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقاً ، بل الفسق الذبح لغير الله . ويحاج عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعاً (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) أي يوسوسون لهم بالسواوس المخالفة للحق المبينة للصواب قاصدين بذلك أن يجادلهم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم (وإن أظعنوهم) فيما يأمرؤنكم به وينهونكم عنه (إنكم لمشركون) مثلهم .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : قال المشركون . وفي لفظ : قال اليهود : لا تأكلوا مما قتل الله وتأكلوا مما قتلتم أنتم ، فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) . وأخرج ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : لما نزلت (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً . فقالوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله بشمشار من ذهب يعنى الميتة فهو حرام ، فنزلت (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) قال : الشياطين من فارس وأولياؤهم من قريش . وقد روى نحو ما تقدم في حديث ابن عباس الأول من غير طريق . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضاً في قوله (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) قال : إبليس أوحى إلى مشركي قريش . وأخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عنه أيضاً في قوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) ففسخ ، واستثنى من ذلك فقال - وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم - . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد الخطمي قال : كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه . وروى ابن أبي حاتم عن مكحول نحوه قول ابن عباس في النسخ .

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

قوله (أو من كان ميتا فأحييناه) . قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام . وقرأ نافع وابن أبي نعيم بإسكانها ، قال النحاس : يجوز أن يكون محمولا على المعنى : أى انظروا وتدبروا (أغير الله أبتغى حكما . أو من كان ميتا فأحييناه) والمراد بالميت هنا الكافر أحياء الله بالإسلام ، وقيل معناه : كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه . والأول أولى . لأن السياق يشعر بذلك لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين . وكثيرا ما تستعار الحياة للهداية والعلم : ومنه قول القائل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأمله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن أمرا لم يحى بالعلم ميت فليس له حتى التشور تشور

والنور عبارة عن الهداية والإيمان ، وقيل هو القرآن ، وقيل الحكمة ، وقيل هو النور المذكور في قوله تعالى - يسمي نورهم بين أيديهم وبأيمنهم - والضمير في به راجع إلى النور (كن مثله في الظلمات) أى كن صفته في الظلمات ، ومثله مبتدأ والظلمات خبره ، والجملة صفة لمن ، وقيل مثل زائدة ، والمعنى : كن في الظلمات كما تقول : أنا أكرم من مثلك : أى منك ، ومثله - فجزاء مثل ما قتل من النعم - ليس كمثلته شيء - وقيل المعنى : كن مثله مثل من هو في الظلمات ، و (ليس بخارج منها) في محل نصب على الحال : أى حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال : قوله (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) أى مثل ذلك الجعل جعلنا في كل قرية ، والأكابر جمع أكبر ، قيل هم الرؤساء والعظماء ، وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد ، والمكر الحيلة في مخالفة الاستقامة ، وأصله القتل ، فالماكر يقتل عن الاستقامة : أى يصرف عنها (وما يمكرون إلا بأنفسهم) أى وبال مكرهم عائد عليهم (وما يشعرون) بذلك لفرط جهلهم (وإذا جاءتهم آية) من الآيات (قالوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء . وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة . ونظيره - يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة - . والمعنى : إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة ، فأجاب الله عنهم بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) أى إن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولا ويكون موضعها وأمينها عليها ، وقد اختار أن يجعل الرسالة في محمد صفيه وحييه . فدعوا طلب ما ليس من شأنكم ، ثم توعدهم بقوله (سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ) أى ذل وهوان ، وأصله من الصغر كأن الذل يصغر إلى المرء نفسه ؛ وقيل الصغار هو الرضا بالذل ، روى ذلك عن ابن السكيت

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (أو من كان ميتا فأحييناه) قال : كان كافرا ضالا فهديناه (وجعلنا له نورا) هو القرآن (كن مثله في الظلمات) الكفر والضلالة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن

المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في الآية قال : نزلت في عمار بن ياسر : وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس) يعني عمر بن الخطاب (كن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) يعني أبا جهل بن هشام . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم في الآية قال : نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل بن هشام كانا ميتين في ضلالتيهما فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزه ، وأقر أبا جهل في ضلأته وموته ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا فقال اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) قال : نزلت في المشركين . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال (أكابر مجرميها) عظماءها . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (وإذا جاءتهم آية) الآية قال : قالوا لمحمد حين دعاهم إلى مآذعهم إليه من الحق : لو كان هذا حقا لكان فينا من هو أحق أن يوتى به من محمد . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (سيصيب الذين أجرموا) قال : أشركوا (صغار) قال : هوان .

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا يَمْشِرُ الْجِنَّةُ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوِيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

قوله (فمن يره الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) الشرح : وأصله التوسعة ، وشرحت الأمر بينته وأوضحته ، والمعنى : من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح ، (ومن يرد) لإضلاله (يجعل صدره ضيقا حرجا) . قرأ ابن كثير (ضيقا) بالتخفيف مثل هين ولين . وقرأ الباقر بالتشديد وهما لغتان . وقرأ نافع (حرجا) بالكسر ، ومعناه الضيق ، كرر المعنى تأكيدا ، وحسن ذلك اختلاف اللفظ . وقرأ الباقر بالفتح ، جمع حرجة وهي شدة الضيق ، والحرجة الغيظة ، والجمع حرج وخرجات ، ومنه فلان يتحرج : أى بضيق على نفسه . وقال الجوهري : مكان حرج وحرج : أى ضيق كثير الشجر لاتصل إليه الراعية ، والحرج الإثم . وقال الزجاج : الحرج أضيق الضيق . وقال النحاس : حرج اسم الفاعل وحرج مصدر وصف به كما يقال : رجل عجل . قوله (كأنما يصعد في السماء) . قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود ، شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه بمن

بتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء . وقرأ النخعي « يصاعد » وأصله يتصاعد . وقرأ الباقر « يصعد » بالتشديد وأصله يتصعد ، ومعناه : يتكلف ما لا يطيق مرة بعد مرة كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء . وقيل المعنى على جميع القراءات : كاد قلبه يصعد إلى السماء نبواً على الإسلام ، وما في « كأنما » هي الهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية . قوله (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) : أى مثل ذلك الجمل الذى هو جعل الصدر ضيقاً حرجاً يجعل الله الرجس . والرجس في اللغة : التّن ، وقيل هو العذاب ، وقيل هو الشيطان يسلطه الله عليهم ، وقيل هو ما لا خير فيه ؛ والمعنى الأول هو المشهور في لغة العرب ، وهو مستعار لما يحلّ بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعاني المذكورة . والإشارة بقوله (وهذا صراط ربك) إلى ما عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين : أى هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه ؛ وقيل الإشارة إلى ما تقدّم مما يدل على التوفيق والخذلان : أى هذا هو عادة الله في عباده يهتدي من يشاء ويضل من يشاء ، وانتصاب (مستقيماً) على الحال كقوله تعالى - وهو الحق مصدقاً ، وهذا بعل شيوخا - (قد فصلنا الآيات) أى بيناها وأوضحناها (لقوم يذكرون) ما فيها ويتفهمون معانيها (لهم دار السلام عند ربهم) أى لهؤلاء المتذكرين الجنة لأنها دار السلامة من كل مكروه ، أو دار الرب السلام مدخرة لهم عند ربهم يوصلهم إليها (وهو وليهم) أى ناصرهم ، والباء في (بما كانوا يعملون) للسببية : أى بسبب أعمالهم . قوله (ويوم نحشرهم جميعاً) الظرف منصوب بمحضر يقدر متقدماً : أى واذكر يوم نحشرهم أو (ويوم نحشرهم) نقول (يامعشر الجن) ، والمراد حشر جميع الخلق في القيامة ، والمعشر الجماعة : أى يوم الحشر نقول ، يا جماعة الجن (قد استكثرتم من الإنس) أى من الاستمتاع بهم كقوله (ربنا استمتع بعضنا ببعض) وقيل استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا في حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم ، ومثله قولهم : استكثر الأمير من الجنود ، والمراد التقريع والتوبيخ ، وعلى الأول فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لم ودخولهم فيما يريدون منهم (وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أما استمتاع الجن بالإنس فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم ، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي فوقعوا فيها وتلذذوا بها ، فذلك هو استمتاعهم بالجن ؛ وقيل استمتع الإنس بالجن أنه كان إذا مرّ الرجل بواد في سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أحذر ، يعنى ربه من الجن ، ومنه قوله تعالى - وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً - وقيل استمتع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار القبيية الباطلة ، واستمتع الإنس بالجن أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب وينالون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) أى يوم القيامة اعترافاً منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذبون به . ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم فقال النار مثواكم (أى موضع مقامكم . والمثوى المقام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر . قوله (خالدين فيها إلا ما شاء الله) المعنى الذى تقتضيه لغة العرب في هذا التركيب أنهم يخلدون في النار في كل الأوقات إلا في الوقت الذى يشاء الله عدم بقائهم فيها . وقال الزجاج إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة أى خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في الحساب ، وهو تعسف ، لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ولا يصدق على من لم يدخل النار ؛ وقيل الاستثناء راجع إلى النار : أى إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها في بعض الأوقات كالزهرير ، وقيل الاستثناء لأهل الإيمان ، وما بمعنى من : أى إلا من شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار ، وقيل المعنى : إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب . وكل هذه التأويلات متكلفة ، والذى أوجها إليها ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار في النار أبداً . ولكن لا تطرح بين عام وخاص

لا سيما بعد وروده في القرآن مكررا كما سيأتي في سورة هود - خالسين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد - ولعله يأتي هنالك إن شاء الله زيادة تحقيق .

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي جعفر المدايني زجل من بني هاشم ، وليس هو محمد بن علي قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح صدره له وينفسح له . قالوا فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجاني عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . وأخرج عبد بن حميد عن فضيل نحوه . وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين نزلت هذه الآية فذكر نحوه . وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا من طريق أخرى . وأخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات وابن النجار في تاريخه عن عبد الله بن المستورد . وكان من ولد جعفر بن أبي طالب قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية فذكر نحوه . وهذه الطرق يقوى بعضها بعضها ، والمتصل يقوى المرسل ، فالمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء . كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله في قلبه . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية يقول : من أراد أن يضل يضيئ عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقا والإسلام واسع وذلك حين يقول - ما جعل عليكم في الدين من حرج - يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق . وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (دار السلام) قال : الجنة . وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن زيد قال : السلام هو الله . وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال : الله هو السلام . وداره الجنة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (قد استكثرتم من الإنس) يقول : من ضلالتكم إياهم . يعني أضلتم منهم كثيرا ، وفي قوله (خالدين فيها إلا ما شاء الله) قال : إن هذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه لا يزلهم جنة ولا ناراً .

وَكَذَلِكَ نُرِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

قوله (وكذلك نرى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) أي مثل ما جعلنا بين الجن والإنس ما سلف (كذلك نرى بعض

الظالمين بعضا) والمعنى : نجعل بعضهم يتولى للبعض فيكونون أولياء لبعضهم بعضا ، ثم يتبرأ بعضهم من البعض ، فعنى نولى على هذا : نجعله وليا له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : معناه تسلط ظلمة الجحش على ظلمة الإنس . وروى عنه أيضا أنه فسر هذه الآية بأن المعنى : تسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله ، فيكون في الآية على هذا تهديد للظلمة بأن من لم يمتنع من ظلمه منهم سلط الله عليه ظالما آخر . وقال فضيل بن عياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجبا : وقيل معنى نولى : نكل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر . والباء في (بما كانوا يكسبون) للسببية : أى بسبب كسبهم للذنوب ولينا بعضهم بعضا . قوله (يا معشر الجحش والإنس ألم يأتكم رسل منكم) أى يوم نحشرهم نقول لهم (ألم يأتكم) أو هو شروع في حكاية ما سيكون في الجحش . وظاهره أن الله يبعث في الدنيا إلى الجحش رسلا منهم . كما يبعث إلى الإنس رسلا منهم : وقيل معنى منكم : أى ممن هو بجانبكم لكم في الخلق والتكليف . والقصد بالمخاطبة ، فإن الجحش والإنس متحدون في ذلك ، وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجحش من تلك الحيثة : وقيل إنه من باب تغليب الإنس على الجحش كما يغلب الذكر على الأنثى : وقيل المراد بالرسل إلى الجحش ما هنا هم النذر منهم . كما في قوله - ولوا إلى قومهم منذرين - . قوله (يقصون عليكم آياتي) صفة أخرى لرسل ، وقد تقدم بيان معنى القص . قوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) هذا إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم بإرسال رسله إليهم ، والجملة جواب سؤال مقدر فهي مستأنفة . وجملة (وعثرهم الحياة الدنيا) في محل نصب على الحال . أو هي جملة معترضة (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين في الدنيا بالرسل المرسلين إليهم والآيات التي جاءوا بها . وقد تقدم ما يفيد أن مثل هذه الآية المصرحة بإقرارهم بالكفر على أنفسهم ، ومثل قولهم - والله ربنا ما كنا مشركين - محمول على أنهم يقرّون في بعض مواطن يوم القيامة وينكرون في بعض آخر لطول ذلك اليوم ، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول . وانغلاق الأفهام وتبليد الأذهان ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم . وأن في (أن لم يكن ربك مهلك القرى) هي التحفة من الثقلية . واسمها ضمير شأن محذوف . والمعنى : ذلك أن الشأن لم يكن ربك مهلك القرى ، أو هي المصدرية ، والباء في (بظلم) سببية : أى لم أكن أهلك القرى بسبب ظلم من يظلم منهم . والحال أن أهلها غافلون ، لم يرسل الله إليهم رسولا . والمعنى : أن الله أرسل الرسل إلى عباده لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى . والحال أنهم غافلون عن الإعذار والإنذار بإرسال الرسل . وإنزال الكتب . بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم ، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم . وما كنا معدّين حتى نبعث رسولا - : وقيل المعنى : ما كان الله مهلك أهل القرى بظلم منه ، فهو سبحانه تعالى عن الظلم بل إنما يهلكهم بعد أن يستحقوا ذلك وترتفع الغفلة عنهم بإرسال الأنبياء : وقيل المعنى : أن الله لا يهلك أهل القرى بسبب ظلم من يظلم منهم مع كون الآخرين غافلين عن ذلك ، فهو مثل قوله - ولا تزر وازرة وزر أخرى - (ولكل درجات مما عملوا) أى لكل من الجحش والإنس درجات متفاوتة مما عملوا فنجاز بهم بأعمالهم . كما قال في آية أخرى - ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون - ، وفيه دليل على أن المطيع من الجحش في الجنة ، والعاصي في النار (وما ربك بغافل عما يعملون) من أعمال الخير والشر ، والغفلة ذهاب الشيء عنك لاشتغالك بغيره . قرأ ابن عامر (تعملون) بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحية .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) قال : يولى الله بعض الظالمين بعضا في الدنيا يتبع بعضهم بعضا في النار . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن

عن الرهن بن زيد في الآية مثل ما حكينا عنه قريبا . وأخرج أبو الشيخ عن الأعمش في تفسير الآية قال : سمعهم يقولون إذا فسد الزمان أمر عليهم شرارهم . وأخرج الحاكم في التاريخ والبيهقي في الشعب من طريق يحيى بن هاشم حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كما تكونون كذلك يؤمر عليكم » قال البيهقي : هذا منقطع ويحيى ضعيف . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (رسل منكم) قال : ليس في الجن رسل ، وإنما الرسل في الإنس ، والندارة في الجن ، وقرأ - فلما قضى ولوا إلى قومهم منكرين - . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة أيضا عن الضحاك قال : الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون . وأخرج أبو الشيخ في العظمة أيضا عن ليث بن أبي سليم قال : مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار . وذلك أن الله أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده ولا يعيد ولده . وأخرج أبو الشيخ في العظمة أيضا عن ابن عباس قال : الخلق أربعة فخلق في الجنة كلهم ، وخلق في النار كلهم ، وخلقان في الجنة والنار ، فأما الذين في الجنة كلهم فالملائكة ، وأما الذين في النار كلهم فالشياطين ، وأما الذين في الجنة والنار فالإنس والجن . لهم الثواب وعليهم العقاب .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٢٣) إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٢٤) قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٢٥) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٢٦) وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٢٧)

قوله (وربك الغني) أي عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم ومع كونه غنيا عنهم ، فهو ذورحة بهم لا يكون غناه عنهم مانعا من رحمته لهم . وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه ، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام ، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطول (إن يشأ يذهبكم) أيها العباد العصاة فيستأصلكم بالعذاب المنقضي إلى الهلاك (ويستخلف) (من بعد) إهلاككم (كم ما يشاء) من خلقه ممن هو أطوع له وأسرع إلى أمثال أحكامه منكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) الكاف نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية : أي ويستخلف استخلافا مثل إنشائكم من ذرية قوم آخرين ، قيل : هم أهل سفينة نوح . ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك فلم يهلكهم ولا استخلف غيرهم رحمة لهم ولطفًا بهم (إن ما توعدون) من البعث والحجزة (لآت) لا محالة لأن الله لا يخلف الميعاد (وما أنتم بمعجزين) أي بغائتين عن ما هو نازل بكم . وواقع عليكم : يقال أعجزني فلان : أي فاني وغلبني . قوله (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) المكانة : الطريقة . أي اثبتوا على ما أنتم عليه ، فلا تغير مبال بكم ولا مكثر بكم ، إلى ثابت على ما أنا عليه (فسوف تعلمون) من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وهذا وعيد شديد ، فلا يرد ما يقال كيف يأمرهم بالثبات على الكفر ؟ و (عاقبة الدار)

هي العاقبة الممودة التي يحمد صاحبها عليها : أي من له النصر في دار الدنيا ، ومن له وراثته الأرض ، ومن له الدار الآخرة . وقال الزجاج : معنى مكانتكم : تمكنتكم في الدنيا ، أي اعملوا على تمكنتكم من أمركم ، وقيل على ناحيتكم وقيل على موضعكم . قرأ حمزة والكسائي من يكون بالتحية ، وقرأ الباقر بالفوقية . والضمير في (إنه لا يفلح الظالمون) للشأن : أي لا يفلح من اتصف بصفة الظلم ، وهو تعريض لم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم . قوله (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وتأثيرهم لأنهم على الله سبحانه : أي جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيبا ولأنهم نصيبا من ذلك بصرفونه في سدتها والقائمين بخدمتها . فإذا ذهب ما لأنهم باتفاقه في ذلك عوضوا عنه ما جعلوه لله ، وقالوا : الله غنى عن ذلك ، والزعم الكذب . قرأ يحيى بن وثاب والسلمي والأعمش والكسائي (بزعمهم) بضم الزاي ، وقرأ الباقر بفتحها : وهما لغتان (فما كان لشركائهم فلا يفضل إلى الله) أي إلى المصارف التي شرع الله الصرف فيها كالصدقة وصلة الرحم . وقرئ الضيف (وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) أي يجعلونه لأنهم وينفقونه في مصالحها (ساء ما يحكمون) أي ساء الحكم حكمهم في إثارة آلهتهم على الله سبحانه ، وقيل معنى الآية : أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم ، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله . فهذا معنى الوصول إلى الله . والوصول إلى شركائهم ، وقد قدمتنا الكلام في ذرأ . قوله (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) أي ومثل ذلك التزيين الذي زينه الشيطان لم في قسمة أموالهم بين الله وبين شركائهم . زين لم قتل أولادهم . قال الفراء والزجاج : شركاؤهم ما هنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان ، وقيل هم القواة من الناس : وقيل هم الشياطين ، وأشار بهذا إلى الواد ، وهو دفن البنات مخافة السبي والحاجة ، وقيل كان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم كما فعله عبد المطلب . قرأ الجمهور « زين » بالبناء للفاعل ونصب « قتل » على أنه مفعول زين . وجر أولاد بإضافة قتل إليه . ورفع « شركاؤهم » على أنه فاعل زين ، وقرأ الحسن يضم الزاي ورفع قتل ، وخفض أولاد . ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل ، ورفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه : أي زينه شركاؤهم . ومثله قول الشاعر :

ليك يزيد ضارع لخصومة وتحتبط ما تطيح الطوائح

أي يبكيه ضارع . وقرأ ابن عامر وأهل الشام يضم الزاي ، ورفع قتل ، ونصب أولاد ، وخفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم . ونعموله أولادهم : ففيه الفصل بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول . ومثله في الفصل بين المصدر وما أضيف إليه قول الشاعر :

تمر على ما تستمر وقد شفت علائل عيد القيس منها صلورها

يجر صلورها . والتقدير : شفت عيد القيس علائل صلورها . قال النحاس : إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا في شعر ، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الشعر لاتساعهم في الظروف ، وهو أي الفصل بالمفعول به في الشعر بعيد ، فإجازته في القرآن أبعد . وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي : إن قراءة ابن عامر هذه لا تجوز في العربية وهي زلة عالم ، وإذا زل العالم لم يحز اتباعه ورد قوله إلى الإجماع ، وإنما أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف كقول الشاعر :

كما خط الكتاب يكف يوما يهودى يقارب أو يزيل

وقول الآخر : . لله در اليوم من لامها .

وقال قوم ممن انتصر هذه القراءة : إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهي نصيحة لا قبيحة . قالوا : وقد ورد ذلك في كلام العرب وفي مصحف عثمان رضي الله عنه ، شركائهم ، بالياء . وأقول : دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعبرين كما بينا ذلك في رسالة مستقلة ، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فقراءته رد عليه ، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل في النظم كما قد منا ، وكقول الشاعر :

فَرَجَجْتُهَا بِمَزْجَةٍ زَجِ الْقُلُوصِ أَبِي مَزَادَ

فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها ، وفي الآية قراءة رابعة وهي جر الأولاد والشركاء . ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاءهم في النسب والميراث . قوله (ليردوهم) اللام لام كي : أي لكي يردوهم . من الإرداء وهو الإهلاك (وليلبسوا عليهم دينهم) معطوف على ما قبله : أي فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ولخلط دينهم عليهم (ولو شاء الله ما فعلوه) أي لو شاء الله عدم فعلهم ما فعلوه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وإذا كان ذلك بمشيئة الله (فذرهم وما يفترون) فدعهم وافتراءهم فذلك لا يضررك .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبان بن عثمان قال : النظرية الأصل ، والنظرية النسل . وأخرجنا أيضا عن ابن عباس (وما أنتم بمعجزين) قال : بسابقين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (على مكانتكم) قال : على ناحيتكم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عنه أيضا في قوله (وجعلوا لله) الآية قال : جعلوا لله من ثمارهم وماثمهم نصيبا وللشيطان والأوثان نصيبا ، فإن سقط من ثمره ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه ، وإن سقط مما جعلوه للشياطين في نصيب الله ردوه إلى نصيب الشيطان ، وإن انفجر من سقى ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه ، وإن انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان في نصيب الله تركوه . فهذا ما جعلوا لله من الحرث وسقى الماء ، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله - ما جعل الله من بحيرة الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : جعلوا لله مما ذرأ من الحرث جزءا ولشركائهم جزءا . فما ذهب به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غنى ، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه . والأنعام التي سموا لله : البحيرة والسائبة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم) قال : شياطينهم يأمرونهم أن يقتلوا أولادهم خوف العيلة .

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرْمَتُ ظُهُورِهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٢٨)

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَبْنَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا

أُولَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١١٠).

هذا بيان نوع آخر من جهالاتهم وضلالتهم . والحجر بكسر أوله وسكون ثانيه في قراءة الجمهور . وقرأ أبان بن عثمان « حجر » بضم الحاء والجيم . وقرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وإسكان الجيم . وقرأ ابن عباس وابن الزبير « حرج » بتقديم الراء على الجيم . وكذا هو في مصحف أبي . وهو من الحرج ، يقال فلان يتحرج : أى يضيق على نفسه الدخول فيما يشبه عليه . والحجر على اختلاف القراءات فيه هو مصدر بمعنى اسم المفعول : أى محجور . وأصله المنع ، فعنى الآية : هذه أنعام وحرت ممنوعة . يعنون أنها لأصنامهم لا يطعمها إلا من يشامون بزعمهم وهم خدام الأصنام . والقسم الثانى قولهم (وأنعام حرمت ظهورها) وهى البحيرة والسائبة والحمام ، وقيل إن هذا القسم الثانى مما جعلوه لأنفسهم أيضا . والقسم الثالث (أنعام لا يذكر اسم الله عليها) وهى ما ذبحوا لأنفسهم فلم يذبحونها باسم أصنامهم لا باسم الله . وقيل إن المراد لا يحجون عليها افتراء على الله : أى للافتراء عليه (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى بافتراءهم أو بالذى يفترونه ، ويجوز أن يكون افتراء منتصبا على أنه مصدر : أى افتروا افتراء أو حال : أى مفترين ، وانتصابه على العلة أظهر ، ثم بين الله سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام) يعنون البحائر والسوائب من الأجنة (خالصة لذكورنا) أى حلال لهم (ومحرم على أزواجنا) أى على جنس الأزواج ، ومن النساء فيدخل فى ذلك البنات والأخوات ونحوهن ، وقيل هو اللبن جعلوه حلالا للذكور ومحرمًا على الإناث ، والهاء فى خالصة للمبالغة فى الخلوص كعلامة ونسابة ، قاله الكسائى والأخفش . وقال القراء : تأنيثا لتأنيث الأنعام . ورد بأن ما فى بطون الأنعام غير الأنعام ، وتعقب هذا الرد بأن ما فى بطون الأنعام أنعام ، وهى الأجنة ، وما عبارة عنها ، فيكون تأنيث خالصة باعتبار معنى ما ، وتذكير محرم باعتبار لفظها . وقرأ الأعمش « خالص » قال الكسائى : معنى خالص وخالصة واحد ، إلا أن الهاء للمبالغة كما تقدم عنه . وقرأ قتادة « خالصة » بالنصب على الحال من الضمير فى متعلق الظرف الذى هو صلة لما ، وخبر المبتدأ محذوف كقولك : الذى فى الدار قائما زيدا ، هذا قول البصريين . وقال القراء : إنه انتصب على القطع . وقرأ ابن عباس « خالصة » بإضافة خالص إلى الضمير على أنه بدل من ما . وقرأ سعيد بن جبيرة « خالصا » (وإن يكن ميتة) . قرئ بالتحتية والفوقية : أى وإن يكن الذى فى بطون الأنعام (ميتة فهم فيه) أى فى الذى فى البطون (شركاء) يأكل منه الذكور والإناث (سيجزيهم وصفهم) أى بوصفهم على أنه منتصب ينزع الخافض ، والمعنى : سيجزيهم بوصفهم الكذب على الله ، وقيل المعنى : سيجزيهم جزاء وصفهم . ثم بين الله سبحانه نوعا آخر من جهالاتهم فقال (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها) أى بناتهم بالوآد الذى كانوا يفعلونه سفها : أى لأجل السفه . وهو الطيش والخفة لالخفة عقلية ولا شرعية كالتأ ذلك منهم (بغير علم) يهتدون به . قوله (وحرّموا ما رزقهم الله) من الأنعام التى سموها بحائر وسوائب (افتراء على الله) أى للافتراء عليه أو افتروا افتراء عليه (قد ضلوا) عن طريق الصواب بهذه الأفعال (وما كانوا مهتدين) إلى الحق . ولا هم من أهل الاستعداد لذلك .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (وقالوا هذه أنعام وحرت حجر) قال : الحجر ما حرّموا من الوصيلة وتحريم ما حرّموا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد

في قوله (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) قال : ما جعلوا لله ولشركائهم . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة (وحرث حجر) قال : حرام . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : يقولون حرام أن يطعم الابن شيئا (وأنعام حرمت ظهورها) قال : البحيرة والسائبة والحي (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) إذا نحرروها . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي وائل في قوله (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) قال : لم تكن يحج عليها وهي البحيرة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام) الآية قال : اللبن . وأخرج هؤلاء إلا ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : السائبة والبحيرة محرّم على أزواجنا قال : النساء (سيجزيهم وصفهم) قال : قولهم الكذب في ذلك . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كانت الشاة إذا ولدت ذكرا ذبحوه ، فكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركوها فلم تذبح ، وإن كانت ميته كانوا فيها شركاء . وأخرج عبد بن حميد والبخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) إلى قوله (وما كانوا مهتدين) وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة في الآية قال : نزلت فيمن كان يثد البنات من مضر وربيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : هذا صنع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبي والفاقة ويغزو كلبه (وحرّموا ما رزقهم الله) قال : جعلوه بحيرة وسائبة ووصيلة وحاميا لحكما من الشيطان في أموالهم .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١١١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١١٢) .

هذا فيه تذكير لم يبدع قدرة الله وعظيم صنعه (أنشأ) أي خلق ، والجنان : البساتين (معروشات) مرفوعات على الأعمدة (وغير معروشات) غير مرفوعات عليها ، وقيل المعروشات : ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ ، وغير المعروشات : ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار ، وقيل المعروشات : ما أنبتته الناس وعرشوه ، وغير المعروشات : ما نبت في البراري والجبال . قوله (والنخل والزرع) معطوف على جنات ، وخصهما بالذكر مع دخولهما في الجنات لما فيها من الفضيلة (مختلفا أكله) أي حال كونه مختلفا أكله في الطعم والجودة والرداءة . قال الزجاج : وهذه مسألة مشككة في النحو ، يعني انتصاب مختلفا على الحال لأنه يقال قد أنشأها ولم يختلف أكلها ، فالجواب أن الله سبحانه أنشأها مقدرا فيها الاختلاف ، وقد بين هذا سيويه بقوله : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا : أي مقدرا للصيد به غدا ، كما تقول : لتدخلن النار أكليّن شاربين : أي مقدرين ذلك ، وهذه هي الحال القادرة المشهورة عند النحاة المدونة في كتب النحو . وقال (مختلفا أكله) ولم يقل أكلهما اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله - وإذا رآوا تجارة أو هوا للفضا إليها -

أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة : أى أكل ذلك . قوله (والزيتون والرمان) معطوف على جنات ؛ أى وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابهها وغير متشابه ، وقد تقدم الكلام على تفسير هذا (كلوا من ثمره) أى من ثمر كل واحد منهما . أو من ثمر ذلك (إذا أثمر) أى إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حد الحصاد . قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) .

وقد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب ، فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة ، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة والصفى ونحوهما . وذهب ابن عباس ومحمد بن الحنفية والحسن والنخعي وطاوس وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريح أن هذه الآية منسوخة بالزكاة . واختاره ابن جرير ، ويؤيده أن هذه الآية مكية وآية الزكاة مدنية في السنة الثانية بعد الهجرة ، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف . وقالت طائفة من العلماء : إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب . قوله (ولا تسرفوا) أى في التصديق ، وأصل الإسراف في اللغة : الخطأ . والإسراف في النفقة : التبذير ؛ وقيل هو خطاب للولاة يقول لهم لاتأخذوا فوق حركم ؛ وقيل المعنى : لاتأخذوا الشيء بغير حقه وتضعونه في غير مستحقه . قوله (ومن الأنعام حمولة وفرشا) معطوف على جنات : أى وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشا ، والحمولة ما يحمل عليها ، وهو يختص بالإبل فهي فعولة بمعنى فاعلة ؛ والفرش : ما يتخذ من الوبر والصوف والشعر فراشا يفرشه الناس ؛ وقيل : الحمولة الإبل ، والفرش : الغنم ؛ وقيل الحمولة : كل ما حمل عليه من الإبل والبقر والحيل والبغال والحمير ، والفرش : الغنم ، وهذا لا يتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات ؛ وقيل الحمولة : ما تركب ، والفرش : ما يؤكل لحمه (كلوا مما رزقكم) من هذه الأشياء (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) كما فعل المشركون من تحريم ما لم يحرمه الله وتحليل ما لم يحلله (إنه) أى الشيطان (لكم عدو مبين) مظهر للعداوة ومكاشف بها .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وهو الذى أنشأ جنات معروشات) قال : المعروشات ما عرش الناس (وغير معروشات) ما خرج في الجبال والبرية من الثمار . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : معروشات بالعيدان والقصب وغير معروشات قال : الضاحى . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (معروشات) قال : الكرم خاصة . وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال : ما سقط من السنبلة . وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وابن المنذر والنحاس والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر في قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال : كانوا يعطون من اعتز بهم شيئا سوى الصدقة . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن مجاهد في الآية قال : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبلة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران وي زيد الأصم قال : كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يميثون بالعذق فيضعونه في المسجد فيجىء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن حماد بن أبي سليمان في الآية قال : كانوا يطعمون منه رطباً . وأخرج أحمد وأبو داود في سننه من حديث جابر بن عبد الله : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر من كل حادى عشرة أوسق من التمر يلقون في المسجد للمساكين . وإسناده جيد . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال

(وأتوا حقه يوم حصاده) نسخها العشر ونصف العشر. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود في تاجه وابن المنذر عن السدي نحوه. وأخرج النحاس وأبو الشيخ والبيهقي عن سعيد بن جبير نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه. وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك نحوه. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبي قال: إن في المال حقاً سوى الزكاة. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي العالية قال: ما كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة، ثم إنهم تباذروا وأسرفوا، فأنزل الله (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين). وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخل فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليس له ثمرة، فأنزل الله (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين). وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لو أنفقت مثل أبي قيس ذهباً في طاعة الله لم يكن إسرافاً، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً. والسلف في هذا مقالات طويلة. وأخرج القرطبي وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: الحمولة ما حمل عليه من الإبل، والفرش صغار الإبل التي لا تحمل. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الحمولة الكبار من الإبل، والفرش الصغار من الإبل. وأخرج أبو الشيخ عنه قال: الحمولة ما حمل عليه. والفرش ما أكل منه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: الحمولة الإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، والفرش الغنم. وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال: الحمولة الإبل والبقر. والفرش الضأن والمعز:

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ
الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٢) وَمِنَ
الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١١٤).

اختلف في انتصاب (ثمانية) على ماذا؟ فقال الكسائي: بفعل مضمر، أي وأنشأ ثمانية أزواج. وقال الأخفش سعيد: هو منصوب على البدل من حمولة وفرشا؛ وقال الأخفش على بن سليمان: هو منصوب بأكلا. أي كلوا لحم ثمانية أزواج؛ وقيل منصوب على أنه بدل من «ما» في «فما رزقكم الله» والزواج خلاف الفرد. يقال زوج أو فرد، كما يقال شفع أو وتر، فقوله (ثمانية أزواج) يعني ثمانية أفراد، وإنما سمي الفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، ويقع لفظ الزوج على الواحد. فيقال هما زوج وهو زوج، ويقول اشتريت زوجي حمام: أي ذكراً وأنثى. والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً سواء كان ذكراً أو أنثى، قيل له فرد، وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما زوج، ولكل واحد على الفراده منهما زوج، ويقال لهما أيضاً زوجان، ومنه قوله تعالى: فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. قوله (ومن الضأن اثني) بدل من ثمانية منتصب بخاصبه على حسب الخلاف السابق. والضأن ذوات الصوف من الغنم، وهو جمع ضائن. ويقال للأنثى ضائنة، والجمع ضوائن؛ وقيل هو جمع لا واحداً له؛ وقيل في جمعه ضئنين كعبد وعبيد. وقرأ طلحة

ابن مصرف « الضأن » بفتح الهمزة . وقرأ الباقون بسكونها . وقرأ أبان بن عثمان (ومن الضأن اثنان ومن المعز اثنان) رفعا بالابتداء . قوله (ومن المعز اثنان) معطوف على ما قبله مشارك له في حكمه . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وابن كثير وأهل البصرة بفتح العين من المعز . وقرأ الباقون بسكونها . قلل النحاس : الأكثر في كلام العرب المعز والضأن بالإسكان . والمعز من القم خلاف الضأن . وهي ذوات الأشعار والأذنان القصار . وهو اسم جنس . وواحد المعز معز . مثل صعب وصاحب . وركب وراكب . ونجر وتاجر . والأنثى ماعزة . والمراد من هذه الآية : أن الله سبحانه بين حال الأنعام وتفصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحا للامتنان بها على عباده . ودفعاً لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها وتحريم بعضها بقولاً على الله سبحانه وإفراء عليه . والهمزة في (قل الذكركين حرم أم الأنثيين) للإنكار . والمراد بالذكركين الكبش والتيس ، وبالأنثيين النعجة والمعز . وانتصاب الذكركين بحرم . والأنثيين معطوف عليه منصوب بتأصبه . والمعنى : الإنكار على المشركين في أمر البهيرة وما ذكر معها . وقولهم (ما في بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا) أى قل لهم إن كان حرم الله كور فكل ذكر حرام . وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام . وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعنى من الضأن والمعز فكل مولود حرام ذكرًا كان أو أنثى وكلها مولود . فيستلزم أن كلها حرام . وقوله (نبتوني بعلم إن كنتم صادقين) أى أخبروني بعلم لا يجهل إن كنتم صادقين . والمراد من هذا التبكيت لهم وإلزام الحجة لأنه يعلم أنه لا علم عندهم . وهكذا الكلام في قوله (ومن الإبل اثنان ومن البقر اثنان) إلى آخره . قوله (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) أم هي المنقطعة . والإستفهام للإنكار . وهي بمعنى بل والهمزة : أى بل أكنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم الله بهذا التحريم . والمراد التبكيت وإلزام الحجة كما سلف قبله . قوله (فن أظلم من افترى على الله كذباً) أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً فحرم شيئاً لم يحرمه الله وتسب ذلك إليه إفراء عليه كما فعله كبراء المشركين . واللام في (ليضل الناس بغير علم) للعلة : أى لأجل يضل الناس بجهل وهو متعلق بافترى (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) على العموم . وهؤلاء المذكورون في السياق داخلون في ذلك دخولاً أولياً . وينبغى أن ينظر في وجه تقديم المعز والضأن على الإبل والبقر (١) مع كون الإبل والبقرة أكثر نفعا وأكبر أجساماً وأعود فائدة ، لا سيما في الحمولة والفرش للذين وقع الإيدال منهما على ما هو الوجه الأوضح في إعراب ثمانية .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه من طرق عن ابن عباس قال : الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز . وليت شعري ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة . فإنها لا تتعلق به فائدة . وكون الأزواج الثمانية هي المذكورة هو مكمل في الآية مصرحاً به تصريحاً لا لبس فيه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : الذكر والأنثى زوجان . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ثمانية أزواج) قال : في شأن ما نهى الله عنه من البهيرة والسائبة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم قال : الخامس والبعث من الأزواج الثمانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله (ثمانية أزواج من الضأن اثنان ومن المعز اثنان) قال : فهذه أربعة (قل الذكركين حرم أم الأنثيين) يقول : لم أحرم شيئاً من ذلك (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين)

(١) الترتيب من أدنى إلى أعلى نوع من أنواع تحيين الكلام ، قلل طائفة واقتطعت ، اه من حاشية بالأصل .

يعنى هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم يحرمون بعضا ويحلون بعضا ؟ (نيثوني بعلم إن كنتم صادقين) يقول كلها حلال : يعنى ما تقدم ذكره مما حرّمه أهل الجاهلية .

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلِنْ رَبِّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) .

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحى إليه محرّما غير هذه المذكورات . فدلّ ذلك على انحصار المحرّمات فيها لولا أنها مكّية ، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرّمات المنخقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك . وبالحملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدلّ عليه السياق ويفيده الاستثناء ، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدلّ على تحريم شيء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرّمه الله من حيوان وغيره فإنه يضمّ إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء . وقد روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة أنه لا حرام إلا ما ذكره الله في هذه الآية ، وروى ذلك عن مالك وهو قول ساقط ، ومذهب في غاية الضعف لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن ، وإهمال ما صحّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قاله بعد نزول هذه الآية بلا سبب يقتضى ذلك ولا موجب يوجب . قوله (محرّما) صفة لموصوف محذوف : أى طعاما محرّما (على) أى (طاعم يطعمه) من المطاعم ، وفي (يطعمه) زيادة تأكيد وتقرير لما قبله (إلا أن يكون ميتة) أى ذلك الشيء أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس . وقرئ « يكون » بالتحنية والفوقية ، وقرئ « ميتة » بالرفع على أن يكون تامة . والدم المسفوح : الجارى . وغير المسفوح معفو عنه كالدم الذى يبقى فى العروق بعد الذبح ، ومثله الكبد والطحال . وهكذا ما يتلطح به اللحم من الدم . وقد حكى القرطبي الإجماع على هذا . قوله (أو لحم خنزير) ظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم ، والضمير فى (فإنه) راجع إلى اللحم أو إلى الخنزير . والرجس : النجس . وقد تقدّم تحقيقه . قوله (أو فسقا) عطف على لحم خنزير ، و (أهل به لغير الله) صفة فسق : أى ذبح على الأصنام ، وسمى فسقا لتوغله فى باب الفسق . قيل ويجوز أن يكون (فسقا) مفعولا له لأهل : أى أهل به لغير الله فسقا على عطف أهل على يكون ، وهو تكلف لا حاجة إليه (فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد) قد تقدّم تفسيره فى سورة البقرة فلا نعيده (فإن ربك غفور رحيم) أى كثير المغفرة والرحمة فلا يؤاخذ المضطرّ بما دعت إليه ضرورته .

وقد أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويحلون أشياء ، فنزلت (قل لا أجد) الآية . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تعذرا ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه . فما أحلّ فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكّت عنه فهو عفو . ثم تلا هذه الآية (قل لا أجد)

إلى آخرها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه أنه تلا هذه الآية فقال : ما خلا هذا فهو حلال . وأخرج البخاري وأبو داود وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد : إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خير ، فقال قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن أبي ذلك البحر ابن عباس ، وقرأ (قل لا أجد) الآية . وأقول : وإن أبي ذلك البحر فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والتمسك بقول صفاتي في مقابلة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم من سوء الاختيار وعدم الإنصاف . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ليس شيء من الدواب حرام إلا ما حرم الله في كتابه (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرمات) الآية . وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر : أنه سئل عن أكل القنفذ ، فقرأ (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرمات) الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال « خبيثة من الخبائث » . فقال ابن عمر : إن كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاله فهو كما قال . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة : أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع ومغلب من الطير تلت (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرمات) الآية . وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس : أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت : يا رسول الله ماتت فلانة : تعني الشاة . قال : فلو لا أخذتم مسكها ؟ قالت : يا رسول الله أناخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرمات على طاعم يطمعه إلا أن يكون ميتة) وأنتم لا تطعمونه ، وإنما تدبغونه حتى تستنفعوا به ، فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته ، فأنخذت منه قربة حتى تفرقت عندها . ومثل هذا حديث شاة ميمونة ، وهو في الصحيح . ومثله حديث « إنما حرم من الميتة أكلها » وهو أيضا في الصحيح . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (أو دما مسفوحا) قال : مهراقا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة وأخلوا الدم فأكلوه ، قال : هو دم مسفوح . وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي : أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا (قل لا أجد فيما أوحى إلى) الآية . والأحاديث الواردة بتحريم كل ذي ناب من السباع ومغلب من الطير والحمر الأهلية ونحوها مستوفاة في كتب الحديث .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا
إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) .

قدم (على الذين هادوا) على الفعل للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لا يجاوزهم إلى غيرهم . والذين هادوا : اليهود . ذكر الله ما حرمه عليهم عقب ذكر ما حرمه على المسلمين . والظفر : واحد الأظفار . ويجمع أيضا على أظافر . وزاد الفراء في جموع ظفر أظافر وأظافرة وذو الظفر ماله أصبع من دابة أو طائر ، ويدخل

فيه الحافر والخلف والمقلب ، فيتناول الإبل والبقر والغنم والنعام والأوز والبط وكل ماله مخلب من الطير . وتسمية الحافر والخلف ظفرا مجاز . والأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر في لغة العرب . لأن هذا التعميم بأباه ما سيأتي من قوله (ومن البقر والغنم) فإن كان في لغة العرب بحيث يقال على البقر والغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصهما حرّم الله ذلك عليهم عقوبة لهم على ما وقعوا فيه من الظلم كما قال تعالى - فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم - . قوله (ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما) لا غير هذه المذكورات كلحمهما ، والشحوم يدخل فيها الثروب وشحم الكلية ؛ وقيل الثروب جمع ثرب . وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش . ثم استثنى الله سبحانه من الشحوم ما حملت ظهورهما من الشحم فإنه لم يحرمه الله عليهم . و (ما) في موضع نصب على الاستثناء (أو الحوايا) معطوف على ظهورهما أى إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا ، وهى المباخر التى يجتمع البحر فيها ، فما حملته من الشحم غير حرام عليهم ، وواحدها حاوية ، مثل ضاربة وضوارب ؛ وقيل واحدها حاوياء ، مثل قاصعاء وقواصع ؛ وقيل حاوية : كسفينة وسفائن . وقال أبو عبيدة : الحوايا ما نحوى من البطن : أى اسندار ، وهى متحوية : أى مستديرة ؛ وقيل الحوايا : خزائن اللبن . وهى تتصل بالمباخر ؛ وقيل الحوايا : الأمعاء التى عليها الشحوم . قوله (أو ما اختلط بعظم) معطوف على « ما » فى (ما حملت) كذا قال الكسائى والفراء وثعلب ؛ وقيل إن الحوايا وما اختلط بعظم معطوفة على الشحوم . والمعنى : حرّمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرّم ولا وجه لهذا التكلف ولا موجب له لأنه يكون المعنى إن الله حرّم عليهم إحدى هذه المذكورات . والمراد بما اختلط بعظم : ما لصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان ، ومنه الإلية فإنها لاصقة بمعجب الذنب ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى التحريم المدلول عليه بحرّمنا أى ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيتهم ؛ وقيل إن الإشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله (جزيناهم) أى ذلك الجزاء جزيناهم ، وهو تحريم ما حرّمه الله عليهم (وإنا لصادقون) فى كل ما نخبر به ، ومن جملة ذلك هذا الخبر . وهو موجود عندهم فى التوراة ، ونصها « حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكل دابة ليست مشقوقة الحافر وكل حوت ليس فيه سفاسف » أى بياض انتهى . والضمير فى (كذبوك) لليهود : أى فإن كذبك اليهود فيها وصفت من تحريم الله عليهم تلك الأشياء (فقل ربيكم ذو رحمة واسعة) ومن رحمته حلمه عنكم وعدم معاجلته لكم بالعقوبة فى الدنيا ، وهو وإن أمهلكم ورحمكم فلا يردّ بأسه عن القوم المحرّمين) إذا أنزله بهم واستحقوا المعاجلة بالعقوبة وقيل المراد : لا يردّ بأسه فى الآخرة عن القوم المحرّمين . والأوّل أولى . فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها تحريم الطيبات عليهم فى الدنيا ؛ وقيل الضمير يعود إلى المشركين الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام وحلّوا بعضها وحرّموا بعضها ؛ وقيل المراد : أنه ذو رحمة للمطيعين (ولا يردّ بأسه عن القوم المحرّمين) ولا ملجئ لنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله (كل ذى ظفر) قال : هو الذى ليس بمنفرج الأصابع .

يعنى ليس بمشقوق الأصابع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عنه (كل ذى ظفر) قال : البعير والنعامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هو كل شيء لم تنفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته اليهود ، قال : انفرجت قوائم الدجاج والعصافير فيهود تأكله . ولم ينفرج خفّ البعير ولا النعامة ؛ ولا قائمة الوزينة فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوزينة ، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته كذلك . ولا تأكل حمار الوحش . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله (ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما) يعنى ما علق بالظهر من الشحم (أو الحوايا) هى المبر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في قوله (إلا ما حملت ظهورهما) قال : الآية (أو الحوايا) قال : المبر (أو ما اختلط بعظم) قال : الشحم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله (أو الحوايا) قال : المباعر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن الضحاك (أو الحوايا) قال : المرائض والمباعر . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس (أو ما اختلط بعظم) قال : الآية اختلط شحم الآية بالعصص فهو حلال وكل شحم القوائم والجنب والرأس والعين والأذن يقولون قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم ، إنما حرم عليهم الثرب وشحم الكلية وكل شيء كان كذلك ليس في عظم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فإن كذبوك) قال : اليهود . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كانت اليهود يقولون : إن ما حرمه إسرائيل فنحن نحرمه . فذلك قوله (فإن كذبوك) الآية :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ (١٥٠) .

أخبر الله عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة : وهم كفار قريش أو جميع المشركين ، يريدون أنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا هم ولا آبائهم ولا حرموا شيئاً من الأنعام كالبحيرة ونحوها ، وظنوا أن هذا القول يخلصهم عن الحجة التي ألزمهم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن ما فعلوه حق . ولو لم يكن حقاً لأرسل الله إلى آبائهم الذي ماتوا على الشرك ، وعلى تحريم ما لم يحرمه الله رسلاً بأمرهم بترك الشرك وبتحريم ما لم يحرمه الله . والتحليل لما لم يحلله (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء الله (حتى ذاقوا بأسنا) أي استمروا على التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذي أنزلناه بهم ، ثم أمره الله أن يقول لهم (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) أي هل عندكم دليل صحيح بعد من العلم النافع فتخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره . والمقصود من هذا التوبيخ لهم ، لأنه قد علم أنه لا علم عندهم يصلح للحجة ويقوم به البرهان ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم . وأنهم إنما يتبعون الظنون : أي ما يتبعون إلا الظن الذي هو محل الخطأ ومكان الجهل (وإن أنتم إلا تخرصون) أي تتوهمون مجرد توهم فقط كما يتوهم الحارص ، وقد سبق تحقيقه ثم أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أن الله الحجة البالغة على الناس : أي التي تنقطع عندها معاذيرهم وتبطل شبههم وظنهم وتوهماتهم . والمراد بها الكتب المنزلة . والرسول المرسل . وما جاءوا به من المعجزات (فلو شاء) هدايتكم جميعاً (لهداكم أجمعين) ولكنه لم يشأ ذلك . ومثله قوله تعالى - ولو شاء الله ما أشركوا - وما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله - ومثله كثير . ثم أمره الله أن يقول هؤلاء المشركين (هلم شهداكم) أي هاتوهم وأحضروهم . وهو اسم فعل

يستوى فيه المذكور والمؤنث ، والمفرد والمثنى والمجموع عند أهل الحجاز ، وأهل نجد يقولون : هلما هلمى هلموا ، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال ، وبلغه أهل الحجاز نزل القرآن ، ومنه قوله تعالى - والقائلين لإخوانهم هلم إلينا - والأصل عند الخليل ما ضمت إليها ، وقال غيره : أصلها هل زيدت عليها الميم ، وفي كتاب العين للخليل : أن أصلها هل أؤم : أى هل أقصدك ، ثم كثر استعمالها ، وهذا أيضا من باب التبكيت لم حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حرم تلك الأشياء مع علمه أن لا شهود لهم (فإن شهدوا) لم بغير علم بل مجازفة وتعصب (فلا تشهد معهم) أى فلا تصدقهم ولا تسلم لهم فانهم كاذبون جاهلون ، وشهادتهم باطلة (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى ولا تتبع أهواءهم ، فانهم رأس المكذبين بآياتنا . قوله (والذين لا يؤمنون بالآخرة) معطوف على الموصول : أى لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، وأهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة (وهم يربهم يعدلون) أى يجعلون له عدلا من مخلوقاته كالأوثان ، والحنلة إما فى محل نصب على الحال ، أو معطوفة على لا يؤمنون .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقى في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله (سيقول الذين أشركوا) قال : هذا قول قريش إن الله حرم هذا : أى البحيرة والسائبة ، والوصيلة والحام . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة (قل لله الحجة البالغة) قال : السلطان . وأخرج عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقى في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قيل له إن ناسا يقولون ليس الشر بقدر ، فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية (سيقول الذين أشركوا) إلى قوله (فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) قال ابن عباس : والعجز والكيس من القدر . وأخرج أبو الشيخ عن علي بن زيد قال : انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية (قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (قل هلم شهداءكم) قال : أروني شهداءكم .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصِيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٠١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصِيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٠٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصِيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٠٣) .

قوله (قل تعالوا) أى تقدموا . قال ابن الشجري : إن المأمور بالتقدم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدا ، فقيل له تعال : أى ارفع شخصك بالقيام وتقدم ، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي . وهكذا قال الزمخشري في الكشاف : لأنه من الخاص الذي صار عاما ، وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو

أسفل منه ، ثم كثروا تسع فيه حتى عمّ . قوله (أتلى ما حرّم ربكم) أتلى جواب الأمر ، وما موصولة في محل نصب به : أى أتلى الذى حرّمه ربكم عليكم . والمراد من تلاوة ما حرّم الله تلاوة الآيات المشتملة عليه ، ويجوز أن تكون ما مصدرية : أى أتلى تحريم ربكم . والمعنى : ما اشتمل على التحريم ؛ قيل ويجوز أن تكون ما استفهامية أى أتلى أى شىء حرّم ربكم على جعل التلاوة بمعنى القول ، وهو ضعيف جداً ، وعليكم أن تعلق بأتل . فالمعنى : أتلى عليكم الذى حرّم ربكم ، وإن تعلق بحرّم فالمعنى أتلى الذى حرّم ربكم عليكم ، وهذا أولى ، لأن المقام بيان ما هو محرّم عليكم لا مقام بيان ما هو محرّم مطلقاً ؛ وقيل إن عليكم للإغراء ولا تعلق لها بما قبلها . والمعنى عليكم أن لا تشركوا إلى آخره : أى الزموا ذلك كقوله تعالى - عليكم أنفسكم - وهو أضعف مما قبله . وأن فى (أن لا تشركوا) مفسرة لفعل التلاوة ، وقال النحاس : يجوز أن تكون فى موضع نصب بدلا من ما : أى أتلى عليكم تحريم الإشراك ؛ وقيل يجوز أن يكون فى محل رفع بتقدير مبتدأ : أى المتلو أن لا تشركوا ، وشيئا مفعول أو مصدر أى لا تشركوا به شيئا من الأشياء ، أو شيئا من الإشراك . قوله (وبالوالدين إحسانا) أى أحسنوا بهما إحسانا ، والإحسان إليهما البرّ بهما ، وامتنال أمرهما ونهيهما . وقد تقدّم الكلام على هذا . قوله (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) لما ذكر حق الوالدين على الأولاد ، ذكر حق الأولاد على الوالدين ، وهو أن لا يقتلوه من أجل إملاق . والإملاق الفقر ، فقد كانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكر والإناث خشية الإملاق وتفعله بالإناث خاصة خشية العار . وحكى النقاش عن مؤرّج أن الإملاق الجوع بلغة لحم ، وذكر منذر بن سعيد البلوطى أن الإملاق الإنفاق . يقال أملك ماله : بمعنى أنفقه . والمعنى الأوّل هو الذى أطبق عليه أئمة اللغة ، وأئمة التفسير هنا (ولا تقربوا الفواحش) أى المعاصى ، ومنه - ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة - وما فى (ما ظهر) يدل من الفواحش ، وكذا ما بطن . والمراد بما ظهر ما أعلن به منها ، وما بطن : ما أسرّ . وقد تقدّم (ولا تقتلوا النفس) اللام فى النفس للجنس ، و (التى حرّم الله) صفة للنفس : أى لا تقتلوا شيئا من الأنفس التى حرّمها الله (إلا بالحق) أى إلا بما يوجب الحق . والاستثناء مفرّغ : أى لا تقتلوه فى حال من الأحوال إلا فى حال الحق ، أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق . ومن الحق قتلها قصاصا وقتلها بسبب زنا المحصن ، وقتلها بسبب الرد . ونحو ذلك من الأسباب التى ورد الشرع بها ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى ما تقدّم مما تلاه عليهم ، وهو مبتدأ (ووصاكم به) خبره : أى أمركم به ، وأوجب عليكم (ولا تقربوا مال اليتيم) أى لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه (إلا) الخصلة (التى هى أحسن) من غيرها ، وهى ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته ، فيشمل كل وجه من الوجوه التى فيها نفع لليتيم وزيادة فى ماله ؛ وقيل المراد بالتى هى أحسن التجارة (حتى يبلغ أشده) أى إلى غاية هى أن يبلغ اليتيم أشده ، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله ، كما قال تعالى - فإن آنستم منه رشدا - فادفعوا إليهم أموالهم واختلف أهل العلم فى الأشد ؛ فقال أهل المدينة : بلوغه وإيناس رشده . وقال أبو حنيفة : خمس وعشرون سنة . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو البلوغ . وقيل إنه انتهاء الكهولة ، ومنه قول مجيم الرباخى :

أخو الخمسين مجتمع أشدى وبحديثى مداورة الشئون

والأولى فى تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشدا ، وهو أن يكون فى تصرفاته بماله سالكا مسلك العقلاء ، لا مسلك أهل السفه والتبذير . ويدل على هذا قوله تعالى فى سورة النساء - وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم - فجعل بلوغ النكاح . وهو بلوغ سن التكليف بقيدا لإيناس الرشدا ، ولعله قد سبق هنالك كلام فى هذا . والأشد واحد لاجمع له : وقيل واحده شد كفلس وأفلس

وأصله من شدّ النهار : أى ارتفع . وقال سيويه : واحده شدة . قال الجوهري : وهو حسن فى المعنى . لأنه يقال بلغ الكلام شدته ، ولكن لا تجمع فعلة على أفعل . قوله (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) أى بالعدل فى الأخذ والإعطاء عند البيع والشراء (لا تكلف نفسا إلا وسعها) أى إلا طاقتها فى كل تكليف من التكليف . ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن ، فلا يخاطب المتولى لما بما لا يمكن الاحتراز عنه فى الزيادة والنقصان (وإذا قلتم فاعدلوا) أى إذا قلتم بقول فى خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه ونحروا الصواب ، ولا تتعصبوا فى ذلك لقريب ولا على بعيد ، ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو ، بل سوا بين الناس فإن ذلك من العدل الذى أمر الله به . والضمير فى (ولو كان) راجع إلى ما يفيد « وإذا قلتم » فإنه لا بد للقول من مقول فيه ، أو مقول له : أى ولو كان المقول فيه ، أو المقول له (ذا قرى) أى صاحب قرابة لكم . وقيل إن المعنى : ولو كان الحق على مثل قرباتكم والأول أولى ، ومثل هذه الآية قوله - ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين - . قوله (وبعهد الله أوفوا) أى أوفوا بكل عهد عهده الله إليكم ، ومن جملة ما عهده إليكم ما تلاه عليكم رسوله بأمره فى هذا المقام ، ويجوز أن يراد به كل عهد ولو كان بين المخلوقين ، لأن الله سبحانه لما أمر بالوفاء به فى كثير من الآيات القرآنية كان ذلك مسوغا لإضافته إليه ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى ما تقدم ذكره (وصاكم به) أمركم به أمرا مؤكدا (لعلكم تذكرون) فتعظون بذلك . قوله (وأن هذا صراطى مستقيما) أن فى موضع نصب : أى واتل أن هذا صراطى قاله القراء والكسائى . قال القراء : ويجوز أن يكون خفضا : أى وصاكم به ، وبأن هذا . وقال الخليل وسيويه : إن التقدير ولأن هذا صراطى مستقيما كما فى قوله سبحانه - وأن المساجد لله - . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى (وإن هذا) بكسر الهمزة على الاستئناف ، والتقدير : الذى ذكر فى هذه الآيات صراطى . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب (وإن هذا صراطى) بالتخفيف على تقدير ضمير الشأن . وقرأ الأعمش (وهذا صراطى) وفى مصحف عبد الله بن مسعود (وهذا صراط ربكم) وفى مصحف أبى (وهذا صراط ربك) والصراط : الطريق ، وهو طريق دين الإسلام ، ونصب مستقيما على الحال ، والمستقيم المستوى الذى لا عوجاج فيه . ثم أمرهم باتباعه ونهاهم عن اتباع سائر السبل : أى الأديان المتباينة طرقها (ففرق بكم) أى تميل بكم (عن سبيله) أى عن سبيل الله المستقيم الذى هو دين الإسلام . قال ابن عطية : وهذه السبل نعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدل والخوض فى الكلام ، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد ، والإشارة بـ (ذلكم) إلى ما تقدم وهو مبتدأ وخبره (وصاكم به) أى أكد عليكم الوصية به (لعلكم تتقون) مأثماكم عنه .

وقد أخرج الترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أياكم يبغى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا (قل تعالوا) إلى ثلاث آيات ، ثم قال : فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فادركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه . » وأخرج ابن أبى شيبه وابن الفريسي وابن المنذر عن كعب الأحبار قال : أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات ، وهى العشر التى أنزلت من آخر الأنعام (قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم) إلى آخرها . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبد الله بن عدى أمين الخياط قال : سمع كعب رجلا يقرأ (قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) فقال كعب : والذى نفسى كعب بيده إنها لأول آية فى التوراة : بسم الله الرحمن الرحيم (قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم) إلى آخر الآيات

انتهى . قلت : هي الوصايا العشر التي في التوراة ، وأولها أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله آخر غيري . ومنها : أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك ، لا تقتل . لا تزني . لا تسرق ، لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بنت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمتة ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك فلعل مراد كعب الأحبار هذا ؛ ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم . وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم . وهي مكتوبة في لوحين ، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) قال : من خشية الفاقة ، قال : وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبي (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال : سرها وعلانيها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) قال : خشية الفقر (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر ويستقبحونه في العلانية ، فحرم الله الزنا في السر والعلانية . وأخرج عبد ابن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وأن هذا صراطي مستقيماً) قال : اعلّموا أن السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة . وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعه الضلالة ومصيرها النار . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود قال « خط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتشوق بكم عن سبيله) . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن مردويه من حديث جابر نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود أن رجلاً سأله : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد وعن شماله جواد ، وثم رجال يدعون من مربهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه) الآية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ولا تتبعوا السبل) قال : الضلالات .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٠٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ (١٠٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٠٧) .

هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التي وصى الله عباده بها . وقد استشكل العطف بـ ثم مع كون قصة موسى وإيتائه الكتاب قبل المعطوف عليه . وهو ما تقدم من قوله (ذلكم وصاكم به) فقيل : إن ثم هاهنا بمعنى الواو ، وقيل تقدير الكلام : ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل

المعنى : قل تعالى أنزل ما حرّم ربكم عليكم ، ثم أنزل إتياء موسى الكتاب : وقيل إن التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبي يوصي بها أمته : وقيل إن ثم للتراخي في الإخبار كما تقول : بلغتني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت بالأمس أعجب . قوله (تماما) مفعول لأجله أو مصدر ، و (على الذي أحسن) قرئ بالرفع وهي قراءة يحيى ابن يعمر وابن أبي إسحاق ، فيكون رفع أحسن على تقدير مبتدأ : أي على الذي هو أحسن ، ومنه ما حكى سيبويه عن الخليل أنه سمع : ما أنا بالذي قاتل لك شيئا . وقرأ الباقون بالنصب على أنه فعل ماض عند البصريين ، وأجاز الفراء والكسائي أن يكون اسما نعنا للذي ، وهذا محال عند البصريين لأنه نعت للاسم قبل أن يتم ، والمعنى عندهم تماما على من أحسن قبوله والقيام به كائنا من كان ، ويؤيد هذا أن ابن مسعود قرأ (تماما على الذين أحسنوا) وقال الحسن : كان فيهم محسن وغير محسن ، فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين ؛ وقيل المعنى : أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يحسنه موسى مما علمه الله قبل نزول التوراة عليه ؛ وقيل المعنى : تماما على الذي أحسن به الله عز وجل إلى موسى من الرسالة وغيرها ، وقيل : تماما على إحسان موسى بطاعة الله عز وجل قاله الفراء . قوله (وتفصيلا لكل شيء) معطوف على تماما : أي ولأجل تفصيل كل شيء وكذا (هدى ورحمة) معطوفتان عليه : أي وللهدي والرحمة ، والضمير في لعلهم راجع إلى بني إسرائيل المدلول عليه بذكر موسى ، والباء في (بقاء) متعلقة بيوثمون . قوله (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) الإشارة إلى القرآن ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره كتاب ، وأنزلناه صفة لكتاب ومبارك صفة أخرى له ، وتقديم صفة الإنزال لكون الإنكار متعلقا بها ، والمبارك كثير البركة لما هو مشتمل عليه من المنافع الدنيوية والدينية (فاتبعوه) فإنه لما كان من عند الله وكان مشتملا على البركة ، كان أتباعه متحما عليكم (واتقوا) مخالفته والتكذيب بما فيه (لعلكم) إن قبلتموه ولم تخالفوه (ترحمون) برحمة الله سبحانه ، وأن في (أن تقولوا) في موضع نصب . قال الكوفيون : لئلا تقولوا . وقال البصريون : كراهة أن تقولوا . وقال الفراء والكسائي : المعنى فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة (إنما أنزل الكتاب) : أي التوراة والإنجيل (على طائفتين من قبلنا) وهم اليهود والنصارى ولم ينزل علينا كتاب (وإن كنا عن دراستهم) أي عن تلاوة كتبهم بلغاتهم (لغافلين) أي لا ندرى ما فيها ، ومرادهم إثبات نزول الكتابين مع الاعتذار عن اتباع ما فيهما بعدم الدراية منهم والغفلة عن معناه . قوله (أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب) معطوف على (تقولوا) أي أو أن تقولوا لو أنزل علينا الكتاب كما أنزل على الطائفتين من قبلنا (لكننا أهدى منهم) إلى الحق الذي طلبه الله ، فإن هذه المقالة والمعذرة منهم مندفة بإرسال محمد صلى الله عليه وآله وسلم إليهم وإنزال القرآن عليه ، ولهذا قال (فقد جاءكم بينة من ربكم) أي كتاب أنزله الله على نبيكم ، وهو منكم يا معشر العرب ، فلا تعتذروا بالأعداء الباطلة وتعللوا أنفسكم بالعلل الساقطة ، فقد أسفر الصبح لذي عيين (وهدى ورحمة) معطوف على (بينة) أي جاءكم البينة الواضحة والهدى الذي يهتدى به كل من له رغبة في الاهتداء ، ورحمة من الله يدخل فيها كل من يطلبها ويريد حصولها ، ولكنكم ظلمتم أنفسكم بالتكذيب بآيات الله والصلوف عنها : أي الانصراف عنها ، وصرف من أراد الإقبال إليها (فن أظلم ممن كذب بآيات الله) التي هي رحمة وهدى للناس (وصدف عنها) فضل بانصرافه عنها ، وأضل بصرف غيره عن الإقبال إليها (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) أي العذاب السيئ (بسبب) ما كانوا يصدفون (وقيل معنى صدف : أعرض ، ويصدفون يعرضون ، وهو مقارب لمعنى الصرف ، وقد تقدم تحقيق معنى هذا اللفظ ، والاستفهام في فن أظلم للإنكار : أي إنكار أن يكون أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها مع ما يفيد ذلك من التبكيت لهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (تماما على الذي أحسن) قال :
على المؤمنين المحسنين . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حنيفة (تماما على الذي أحسن) قال : تماما لما كان قد أحسن
الله . وأخرج أيضا عن ابن زيد قال تماما لنعمته عليهم وإحسانه إليهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن
أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وهذا كتاب) قال : هو القرآن الذي أنزل الله على محمد (فاتبعوه واتقوا)
يقول : فاتبعوا ما أحل الله فيه واتقوا ما حرم . وأخرج هؤلاء عن مجاهد في قوله (على طائفتين من قبلنا) قال :
اليهود والنصارى ، خاف أن تقول قريش . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هم اليهود والنصارى
(وإن كنا عن دراستهم) قال : تلاوتهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (لكننا
أهدى مههم) قال : هذا قول كفار العرب . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (فقد جاءكم بينة من ربكم)
يقول : قد جاءكم بينة لسان عربي مبين حين لم يعرفوا دراسة الطائفتين . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن
ابن عباس في قوله (صدف عنها) قال : أعرض عنها . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك في قوله (يصدفون)
قال : يعرضون .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ
يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) .

أى لما أقمنا عليهم الحجة وأنزلنا الكتاب على رسولنا المرسل إليهم ، فلم ينفعهم ذلك ولم يرجعوا به عن غوايتهم
فما بقى بعد هذا إلا أنهم (ينظرون) أى ينتظرون (أن تأتيهم الملائكة) أى ملائكة الموت لقبض أرواحهم ، وعند
ذلك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل (أو يأتى ربك) يا محمد كما اقترحوه بقولهم - لولا أنزل علينا الملائكة
أو نرى ربنا - وقيل معناه أو يأتى أمر ربك باهلاكهم ؛ وقيل المعنى : أو يأتى كل آيات ربك بدليل قوله
(أو يأتى بعض آيات ربك) وقيل هو من التشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ، وقد جاء فى القرآن حذف المضاف
كثيرا كقوله - واسأل القرية - وقوله - وأثربوا فى قلوبهم العجل - أى حب العجل ؛ وقيل إتيان الله مجيئه يوم
القيامة لفصل القضاء بين خلقه كقوله - وجاء ربك والملك صفا صفا - . قوله (يوم يأتى بعض آيات ربك) . قرأ
ابن عمر وابن الزبير (يوم تأتى) بالفوقية ، وقرأ الباقون بالتحية . قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على
الأصل ومنه قول جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

وقرأ ابن سيرين لا تنفع بالفوقية . قال أبو حاتم : إن هذا غلط عن ابن سيرين . وقد قال الناس فى هذا
شئ دقيق من النحو ذكره نبطويه ، وذلك أن الإيمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر ، فأنث الإيمان
إذ هو من النفس . قال النحاس وفيه وجه آخر وهو أن يؤنث الإيمان ، لأنه مصدر كما يذكر المصدر المؤنث
مثل - فن جاءه موعظة من ربه - . ومعنى (يوم يأتى بعض آيات ربك) يوم يأتى الآيات التى اقترحوها ، وهى
التي تضطرم إلى الإيمان (لا ينفع نفسا إيمانها) أو ما هو أعم من ذلك فيدخل فيه ما ينتظرونه ، وقيل هى الآيات
التي هى علامات القيامة المذكورة فى الأحاديث الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهى التي إذا جاءت

لا ينفع نفسا إيمانها . قوله (لم تكن آمنت من قبل) أى من قبل إتيان بعض الآيات ، فأما التى قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات فإيمانها ينفعها ، وبجمله (لم تكن آمنت من قبل) فى محل نصب على أنها صفة نفسا . قوله (أو كسبت فى إيمانها خيرا) معطوف على (آمنت) والمعنى : أنه لا ينفع نفسا إيمانها عند حضور الآيات متصفة بأنها لم تكن آمنت من قبل ، أو آمنت من قبل ولكن لم تكسب فى إيمانها خيرا ، فحصل من هذا أنه لا ينفع إلا الجمع بين الإيمان من قبل مجيء بعض الآيات مع كسب الخير فى الإيمان ، فمن آمن من قبل فقط ولم يكسب خيرا فى إيمانه لم يكسب خيرا ولم يؤمن فإن ذلك غير نافع ، وهذا التركيب هو كقولك : لا أعطى رجلا اليوم أتانى لم يأتنى بالأمس أو لم يمدحنى فى إتيانه إلى بالأمس ، فإن الاستفادة من هذا أنه لا يستحق العطاء إلا رجل أتاه بالأمس ومدحه فى إتيانه إليه بالأمس ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لم انتظروا ما تريدون إتيانه إنا منتظرون له . وهذا تهديد شديد ووعد عظيم ، وهو يقوى ما قيل فى تفسير (يوم يأتى بعض آيات ربك) أنها الآيات التى اقترحوها من إتيان الملائكة وإتيان العذاب لم من قبل الله كما تقدم بيانه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود (هل ينظرون إلا أن تأتيمهم الملائكة) قال : عند الموت (أو يأتى ربك) قال : يوم القيامة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة فى تفسير الآية مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل (أو يأتى ربك) قال يوم القيامة فى ظلل من الغمام . وأخرج أحمد وعبد بن حميد فى مسنده والترمذى وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (يوم يأتى بعض آيات ربك) قال : طلوع الشمس من مغربها . قال الترمذى غريب . ورواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي سعيد موقوفا . وأخرجه الطبرانى وابن عدى وابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعا . وأخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد والطبرانى عن ابن مسعود موقوفا . فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوى من وجه صحيح لا قادح فيه فهو واجب التقديم له متحتم الأخذ به ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها ، ثم قرأ الآية » . وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبي ذر مرفوعا نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (أو كسبت فى إيمانها خيرا) يقول : كسبت فى تصديقها عملا صالحا هو لاء أهل القبلة وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيرا فعلت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها ، وإن عملت قبل الآية خيرا ، ثم عملت بعد الآية خيرا قبل منها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل فى قوله (أو كسبت فى إيمانها خيرا) قال : يعنى المسلم الذى لم يعمل فى إيمانه خيرا وكان قبل الآية مقبلا على الكبائر . والآيات التى هى علامات القيامة قد وردت الأحاديث المتكاثرة فى بيانها وتعدادها ، وهى مذكورة فى كتب السنة .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٠٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١٠) .

قرأ حمزة والكسائي « فارقوا دينهم » وهي قراءة علي بن أبي طالب : « أي تركوا دينهم وخرجوا عنه ». وقرأ الباقون « فارقوا بالشديد إلا النخعي فإنه قرأ بالتخفيف ». والمعنى : أنهم جعلوا دينهم متفرقا فأخذوا ببعضه وتركوا بعضه قيل المراد بهم اليهود والنصارى . وقد ورد في معنى هذا : في اليهود قوله تعالى - وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة - : وقيل المراد بهم المشركون عبد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة : وقيل الآية عامة في جميع الكفار وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله ، وهذا هو الصواب لأن اللفظ يفيد العموم فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب وطوائف المشركين وغيرهم ممن ابتدع من أهل الإسلام ، ومعنى شيئا فرقا وأحزابا ، فتصدق على كل قوم كان أمرهم في الدين واحدا مجتمعاً ، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبارهم يخالف الصواب ويبين الحق (لست منهم في شيء) أي لست من تفرقهم ، أو من السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزبهم في شيء من الأشياء فلا يلزمك من ذلك شيء ولا تخاطب به إنما عليك البلاغ ، وهو مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من غشنا فليس منا » أي نحن برآء منه ، وموضع (في شيء) نصب على الحال . قال الفراء : هو على حذف مضاف : أي لست من عقابهم في شيء ، وإنما عليك الإنذار ، ثم سلاه الله تعالى بقوله (إنما أمرهم إلى الله) فهو مجاز لم بما تقتضيه مشيئته والحصر ، وإنما هو في حكم التعليل لما قبله والتأكيد له (ثم) هو يوم القيامة (ينهم) أي يخبرهم بما ينزله بهم من المجازاة (بما كانوا يعملون) من الأعمال التي تخالف ما شرعه الله لم وأوجه عليهم ، وهذه الآية من جملة ما هو منسوخ بآية السيف . قوله (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) لما توعد سبحانه المخالفين له بما توعد بين عقب ذلك مقدار جزاء العاملين بما أمرهم به الممثلين لما شرعه لم بأن من جاء بحسنة واحدة من الحسنات فله من الجزاء عشر حسنات . والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها . فأقيمت الصفة مقام الموصوف . قال أبو علي الفارسي : حسن التأنيث في عشر أمثالها لما كان الأمثال مضافاً إلى مؤنث ، نحو ذهبت بعض أصابعه . وقرأ الحسن وسعيد بن جبير والأعمش (فله عشر أمثالها) برفعهما :

وقد ثبت هذا التضعيف في السنة بأحاديث كثيرة ، وهذا التضعيف هو أقل ما يستحقه عامل الحسنة . وقد وردت الزيادة على هذا عموماً وخصوصاً ، ففي القرآن كقوله - كمثل حبة أنبت سبع سنابل - . وورد في بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب . وورد في السنة المطهرة تضعيف الجزاء إلى ألوف مؤلفة . وقد قدمنا تحقيق هذا في موضعين من هذا التفسير فليرجع إليهما (ومن جاء بالسيئة) من الأعمال السيئة (فلا يجزى إلا مثلها) من دون زيادة عليها على قدرها في الخفة والعظم . فالمشرك يجازى على سيئة الشرك بخلوده في النار ، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات كما ورد بذلك كثير من الأحاديث المصرحة بأن من عمل كذا فعليه كذا ، وما لم يرد لعقوبته تقدير من الذنوب فعلياً أن نقول يجازيه الله بمثله وإن لم نقف على حقيقة ما يجازى به . وهذا إن لم يتب ، أما إذا تاب أو غلبت حسناته سيئاته أو تغمدته الله برحمته وتفضل عليه بمغفرته فلا مجازاة . وأدلة الكتاب والسنة مصرحة بهذا تصريحاً لا يبق بعده ريب لمرتاب ، (وهم) أي من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة (لا يظلمون) بنقص ثواب حسنات المحسنين ولا بزيادة عقوبات المسيئين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم ففترقوا : فلما بعث محمد أنزل عليه (إن الذين فارقوا دينهم) الآية . وأخرج النحاس عنه في تأنيده (إن الذين فارقوا دينهم) قال : اليهود والنصارى تركوا الإسلام والدين الذي أمروا به (وكانوا شيعاً) فرقا أحزاباً مختلفة (لست منهم في شيء) نزلت بمكة ثم نسخها - قاتلوا المشركين - . وأخرج أبو الشيخ عنه (وكانوا شيعاً)

قال : ملا شتى . وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة في قوله (إن الذين فرقوا دينهم) الآية قال : هم في هذه الأمة . وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيрази والألقاب وابن مردويه عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة ، وفي إسناده عبد بن كثير ، وهو متروك الحديث ولم يرفعه غيره ، ومن عده وقفه على أبي هريرة . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة في الآية قال : هم الحرورية وقد رواه ابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعا ولا يصح رفعه . وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن شاهين وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وأبو نصر السجزي في الإبانة والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعائشة يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وهم مني برآء قال ابن كثير : هو غريب ولا يصح رفعه . وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) قال رجل من المسلمين : يا رسول الله لا إله إلا الله حسنة ؟ قال : نعم أفضل الحسنات ، وهذا مرسل ولا ندرى كيف إسناده إلى سعيد ؟ . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود (من جاء بالحسنة) . قال : لا إله إلا الله . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس مثله . وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة مثله أيضا . وقد قدّمنا الإشارة إلى أنها قد ثبتت الأحاديث الصحيحة بمضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فلا نطيل بذكرها ، ووردت أحاديث كثيرة في الزيادة على هذا المقدار ، وفضل الله واسع ، وعطاؤه جم .

قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) .

لما بين سبحانه أن الكفار تفرقوا فرقا وتجزوا أحزابا أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم (إني هداني ربي) أي أرشدني بما أوحاه إليّ (إلى صراط مستقيم) وهو ملة إبراهيم عليه السلام ، و (دينا) منتصب على الحال كما قال قطرب . أو على أنه مفعول هداني كما قال الأخفش ؛ وقيل منتصب بفعل يدل عليه هداني . لأن معناه عرفني : أي عرفني دينا ؛ وقيل إنه بدل من محل إلى صراط ، لأن معناه هداني صراطا مستقيما كقوله تعالى - ويهديكم صراطا مستقيما - وقيل منصوب بإضمار فعل ، كأنه قيل اتبعوا دينا . قوله (قِيمًا) قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف ، والتخفيف وفتح الياء . وقرأه الباقون بفتح القاف وكسر الياء المشددة ، وهما لغتان ؛ ومعناه الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ، وهو صفة لدينا وصف به مع كونه مصدرا مبالغة ، وانتصاب (ملة إبراهيم) على أنها عطف بيان لدينا ، ويجوز نصبها بتقدير أعني ، و (حنيفا) منتصب على أنه حال من إبراهيم ، قاله الزجاج . وقال علي بن سليمان : هو منصوب بإضمار أعني . والحنيف المائل إلى الحق ، وقد تقدّم تحقيقه (وما كان من المشركين) في محل نصب معطوف على حنيفا ، أو جملة معترضة مقررة لما قبلها . قوله (قل إن صلاتي) أمره الله سبحانه أن

يقول لم بهذه المقالة عقب أمره بأن يقول لم بالمقالة السابقة : قيل ووجه ذلك أن ما تضمنته القول الأول إشارة إلى أصول الدين ، وهذا إلى فروعها . والمراد بالصلاة جنسها فيدخل فيه جميع أنواعها ؛ وقيل المراد بها هنا صلاة الليل . وقيل صلاة العبد . والنسك : جمع نسيكة ، وهي الذبيحة كذا قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم : أي ذبيحتي في الحج والعمرة . وقال الحسن : ديني . وقال الزجاج : عبادتي من قولهم : نسك فلان هو ناسك ؛ إذا تعبد . وبه قال جماعة من أهل العلم (ومحيى ومماتى) أي ما أعمله في حياتي وومماتى من أعمال الخير ، ومن أعمال الخير في الممات الوصية بالصدقات وأنواع القربات ؛ وقيل نفس الحياة ونفس الموت (لله) قرأ الحسن : نسكى بسكون السين . وقرأ الباقر بضمها . وقرأ أهل المدينة محيى بسكون الياء . وقرأ الباقر بفتحها لتلايجمع ، ساكنان قال النحاس : لم يحزه ، أي السكون أحد من النحويين إلا يونس ، وإنما أجازوه لأن المدّة التي في الألف ، تقوم مقام الحركة . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمرو عاصم الجحدري محيى من غير ألف وهي لغة عليا مضر ، ومنه قول الشاعر :

سبقوا هوىً وأعتقوا لهوامهم فتخروموا ولكل جنب مصرع

(لله رب العالمين) أي خالصا له لا شريك له فيه ، والإشارة (بذلك) إلى ما أفاده (لله رب العالمين) لا شريك له (من الإخلاص في الطاعة وجعلها لله وحده . قوله (وأنا أول المسلمين) أي أول مسلمي أمته ؛ وقيل أول المسلمين أجمعين ، لأنه وإن كان متأخرا في الرسالة فهو أولهم في الخلق ، ومنه قوله تعالى - وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح - الآية ، والأول أولي . قال ابن جرير الطبري : استدلل بهذه الآية الشافعي على مشروعية افتتاح الصلاة بهذا الذكر . فإن الله أمر به نبيه وأنزله في كتابه ، ثم ذكر حديث عليّ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين ، إلى قوله - وأنا أول المسلمين - قلت هذا هو في صحيح مسلم مطولا ، وهو أحد التوجهات الواردة ، ولكنه مقيد بصلاة الليل كما في الروايات الصحيحة ، وأصح التوجهات الذي كان يلزمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويرشد إليه هو « اللهم باعد بيني وبين خطاياي » إلى آخره ، وقد أوضحنا هذا في شرحنا للمتنى بما لا يحتاج إلى زيادة عليه . هنا . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله (إن صلاتي) قال : يعني المفروضة (ونسكى) يعني الحج . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير (ونسكى) قال : ذبيحتي . وأخرج أيضا عن قتادة (إن صلاتي ونسكى) قال : حجتي وذبيحتي . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ونسكى) قال : ذبيحتي في الحج والعمرة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله . (ونسكى) قال : ضحيتي . وفي قوله (وأنا أول المسلمين) قال : من هذه الأمة . وأخرج الحاكم ومصححه وابن مردويه والبيهقي عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملته . وقول (إن صلاتي) وأنا أول المسلمين . قلت يا رسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة ، فأهل ذلك أتم أم للمسلمين عامة ؟ قال : لا بل للمسلمين عامة .

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا

تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١١١)
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي
مَا آتَيْتُكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠).

الاستفهام في (أغير الله أبني ربا) للإنكار وهو جواب على المشركين لما دعوهم إلى عبادة غير الله : أى كيف أبني غير الله ربا مستقلا وأترك عبادة الله أو شريكا لله فأعبدهما معا ، والحال أنه رب كل شيء ، والذي تدعوننى إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له مخلوق مثلى لا يقدر على نفع ولا ضرر ، وفي هذا الكلام من التبريع والتوبيخ لهم ما لا يقدر قلوه ، وغير منصوب بالفعل الذى بعده ، وربما تميز أو مفعول ثان على جعل الفعل ناصبا لمفعولين قوله (ولا تكسب كل نفس نفسا إلا عليها) أى لا يؤاخذ مما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها . فكل كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها ، وهو مثل قوله تعالى - لما ما كسبت وعليها ما اكتسبت - وقوله - ولتجزى كل نفس بما تسعى . قوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى - ووضعنا عنك وزرك - وهو هنا الذنب - وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم - قال الأخفش ، يقال وزر يوزر ، ووزر يزر وزرا ، ويجوز لوزرا ، وفيه رد لما كانت عليه الجاهلية من مواخذة القريب بذنب قريبه ، والواحد من القبيلة بذنب الآخر وقد قيل إن المراد بهذه الآية في الآخرة وكذلك التى قبلها لقوله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ومثله قول زينب بنت جحش : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثرت الخبث ، والأولى حمل الآية على ظاهرها : أعنى العموم وما ورد من المواخذة بذنب الغير كالكدية التى تحملها العاقلة ونحو ذلك . فيكون فى حكم المخصص بهذا العموم وبقر فى موضعه ولا يعارض هذه الآية قوله تعالى - وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم - فإن المراد بالأثقال التى مع أثقالهم هى أثقال الذين يضلونهم كما فى الآية الأخرى - ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم (ثم إلى ربكم مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تخطفون) فى الدنيا ، وعند ذلك يظهر حق المحقين وباطل المبطلين . قوله (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) خلائف جمع خليفة : أى جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة ، قال الشماخ :

أصيبهم وتخطئى المناسيا وأخلف فى ربوع عن ربوع

أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضا ، أو أن هذا النوع الإنسانى خلفاء الله فى أرضه (ورفع بعضهم فوق بعض درجات) فى الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم ، ودرجات منصوب بنزع الخافض : أى إلى درجات (ليبلوكم فيما آتاكم) أى ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور ، أو ليبتل بعضكم ببعض كقوله تعالى - وجعلنا بعضهم لبعض فتنة - ثم خوفهم فقال (إن ربك سريع العقاب) فإنه وإن كان فى الآخرة فكل آت قريب كما قال - وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب - ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال (وإنه لغفور رحيم) أى كثير الغفران والرحمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تزر وازرة) قال : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) قال : أهلك القرون الأولى فاستخلفنا فيها بعدهم (ورفع بعضهم فوق بعض درجات) قال : فى الرزق

تفسير سورة الأعراف

هي مكة إلا ثمان آيات . وهي قوله - واسألهم عن القرية - إلى قوله - وإذ ثقتنا الجبل فوقهم - . وقد أخرج ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس : قال : سورة الأعراف نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة : قال آية من الأعراف مدنية . وهي - واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة للبحر - إلى آخر الآية ، وسائرهما مكة ، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ بها في المغرب بفرقها في الركعتين . وآياتها مائتان وست آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَّتًا أُوهَمُوا فَاقْتُلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) .

قوله (المص) قد تقدم في فاتحة سورة البقرة ما يغني عن الإعادة . وهو إما مبتدأ وخبره كتاب : أي « المص » حروف (كتاب أنزل إليك) أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا « المص » أي المسمى به ، وأما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، وكتاب خبر المبتدأ على الوجه الأول أو خبر مبتدأ محذوف على الثاني أي هو كتاب . قال الكسائي : أي هذا كتاب . وأنزل إليك صفة له (فلا يكن في صدرك حرج منه) الحرج : الضيق : أي لا يكن في صدرك ضيق منه من إبلاغه إلى الناس مخافة أن يكذبوك ويؤذوك فإن الله حافظك وناصرك ، وقيل المراد لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك (فإنما عليك البلاغ) . وقال مجاهد وقاتدة : الحرج هنا الشك . لأن الشاك ضيق الصدر : أي لا تشك في أنه منزل من عند الله ، وعلى هذا يكون النهي له صلى الله عليه وآله وسلم من باب التعريض ، والمراد أمته : أي لا يشك أحد منهم في ذلك ، والضمير في منه راجع إلى الكتاب ، فعلى الوجه الأول يكون على تقدير مضاف محذوف : أي من إبلاغه . وعلى الثاني يكون التقدير من إنزاله . والضمير في (لتنذر به) راجع إلى الكتاب : أي لتنذر الناس بالكتاب الذي أنزلناه إليك . وهو متعلق بأنزل : أي أنزل إليك لإبذارك للناس به . أو متعلق بالنهي : لأن انتفاء الشك في كونه منزلا من عند الله أو انتفاء الخوف من قومه يقوّيه على الانذار ويشجعه ، لأن الحقن يقدم على بعيرة ويياشربقوة نفس . قوله (وذكري للمؤمنين) الذكري التذكير . قال البصريون : الذكري في محل رفع على إضمار مبتدأ . وقال الكسائي : هي في محل رفع عطفا على

كتاب ، ويجوز النصب على المصدر : أى وذكر به ذكرى قاله البصريون . ويجوز الجر حملا على موضع لتنذر أى للإنذار والذكرى ، وتخصيص الذكرى بالمؤمنين لأنهم الذين ينجع فيهم ذلك ، وفيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين . قوله (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) يعنى الكتاب ومثله السنة لقوله - وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - ونحوها من الآيات ، وهو أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمته : وقيل هو أمر للأمة بعد أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ . وهو منزل إليهم بواسطة إنزاله إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تتبعوا من دونه أولياء) نهى للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله . فالضمير على هذا فى (من دونه) يرجع إلى رب . ويجوز أن يرجع إلى « ما » فى ما أنزل إليكم : أى لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلدوهم فى دينكم كما كان يفعل أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم . قوله (قليلا ما تذكرون) انتصاب قليلا على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر : أى تذكر قليلا ، وما مزبدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل لا تتبعوا ، وما مصدرية : أى لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكرهم قرئ (تذكرون) بالتخفيف محذوف إحدى التاءين ، وقرئ بالتشديد على الإدغام . قوله (وكم من قرية أهلكناها) كم هى الخبرية المفيدة للتكثير وهى فى موضع رفع على الابتداء و (أهلكناها) الخبر ، ومن قرية تمييز . ويجوز أن تكون فى محل نصب بإضمار فعل بعدها لأقبلها ، لأن لها صدر الكلام . ولولا اشتغال أهلكناها بالتصميم لحاز انتصاب كم به ، والقرية موضع اجتماع الناس : أى كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها ، أو أهلكنا أهلها ، والمراد أردنا إهلاكها . قوله (فجاءها بأسنا) معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مر ، لأن ترتيب مجئ البأس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير ، إذ الإهلاك هو نفس مجئ البأس . وقال الفراء : إن التاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير ، والمعنى : أهلكناها وجاءها بأسنا ، والواو لمطلق الجمع لا ترتيب فيها ؛ وقيل إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية ؛ فيكون المعنى : وكم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع ؛ وقيل المعنى : وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا ؛ وقيل أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا ، والبأس : هو العذاب . وحكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها . مثل دنا فقرب وقرب فدنا (بيانا) أى ليلا ، لأنه ييات فيه ، يقال بات بيت بينا وبيانا ، وهو مصدر واقع موقع الحال : أى بائتين . قوله (أوهم قائلون) معطوف على بيانا : أى بائتين أو قائلين ، وجاءت الجملة الحالية بدون واو استئقالا لاجتماع الواوين واو العطف وواو الحال . هكذا قال الفراء . واعترضه الزجاج فقال : هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو ، تقول : جاءنى زيد راكبا أو هو ماش لأن فى الجملة ضميرا قد عاد إلى الأول ، وأو فى هذا الموضع للتفصيل لا للشك . والقيولة هى نوم نصف النهار . وقيل هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم ، وخص الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة فجئ العذاب فيهما أشد وأفظع . قوله (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) الدعوى : الدعاء : أى فما كان دعواهم ربهم عند نزول العذاب إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم ، ومثله - وآخر دعواهم - أى آخر دعائهم ؛ وقيل الدعوى هنا بمعنى الادعاء ، والمعنى : ما كان ما يدعونه لدينهم وينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه وفساده ، واسم كان (إلا أن قالوا) وخبرها (دعواهم) ويجوز العكس ؛ والمعنى : ما كان دعواهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين . قوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم) هذا وعيد شديد ، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ ، واللام لام القسم : أى لنسألهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم :

والقاء لترتيب الأحوال الآخروية على الأحوال الدنيوية (ولنسألن المرسلين) أى الأنبياء الذين بعثهم الله : أى نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ومن أطاع منهم ومن عصى : وقيل المعنى : فلنسألن الذين أرسل إليهم : يعنى الأنبياء : ولنسألن المرسلين : يعنى الملائكة ، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه - ولا يستل عن ذنوبهم المحرمون - لما قد منا غير مرة أن الآخرة مواطن ، ففى موطن يسألون ، وفى موطن لا يسألون . وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى بالنسبة إلى يوم القيامة . فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما (فلنقصن عليهم بعلم) أى على الرسل والمرسل إليهم ما وقع بينهم عند الدعوة منهم لم يعلم لا يجهل : أى عالين بما يسرون وما يعلنون (وما كنا غائبين) عنهم فى حال من الأحوال حتى يحق علينا شيء مما وقع بينهم . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن النجار فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله (المص) قال : أنا الله أفصل . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به . وهى من أسماء الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (المص) قال : هو المصور . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى فى قوله (المص) قال : الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال معناه أنا الله الصادق . ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالظن وتفسير بالحدس . ولا حجة فى شيء من ذلك ، والحق ما قد منا فى فاتحة سورة البقرة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس (فلا يكن فى صدرك حرج منه) قال : الشك ، وقال لأعرابي : ما الحرج فيكم ؟ قال : اللبس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : ضيق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم ، ثم قرأ (فما كان دعواهم) الآية . وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) قال : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ونسأل المرسلين عما بلغوا : فلنقصن عليهم بعلم . قال : بوضع الكتاب يوم القيامة فتكلم بما كانوا يعملون . وأخرج عبد بن حميد عن فرقد فى الآية قال : أحدهما الأنبياء . وأحدهما الملائكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : نسأل الناس عن قول لا إله إلا الله ونسأل جبريل .

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ

أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

قوله (والوزن يومئذ الحق) الوزن مبتدأ وخبره الحق : أى الوزن فى هذا اليوم العدل الذى لا جور فيه . أو الخبر يومئذ . والحق وصف للمبتدأ . أى الوزن العدل كائن فى هذا اليوم : وقيل إن الحق خبر مبتدأ محذوف .

واختلف أهل العلم فى كيفية هذا الوزن الكائن فى هذا اليوم . فقيل المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزنا حقيقيا . وهذا هو الصحيح ، وهو الذى قامت عليه الأدلة : وقيل توزن نفس الأعمال وإن كانت أعراضا فإن الله يقبلها يوم القيامة أجساما كما جاء فى الخبر الصحيح : « إن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف » . وكذلك ثبت فى الصحيح أنه يأتى القرآن فى صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك : وقيل الميزان الكتاب الذى فيه أعمال الخلق ، وقيل الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء . وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام فى وزن هذا . قال الزجاج : هذا سائق من جهة اللسان ، والأولى أن تتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القشيري : وقد أحسن الزجاج فيما قال ، إذ لو حمل الصراط على الدين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد . والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة والملائكة على القوى الحمودة ، ثم قال : وقد أجمعت الأمة فى الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل ، وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر وصارت هذه الظواهر نصوصا انتهى . والحق هو القول الأول . وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون فى استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه . بل غاية ما تشبهوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس فى ذلك حجة على أحد ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هى أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كل ما شاء . وتركوا الشرع خلف ظهورهم ولينهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها . بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم ، يعرف هذا كل منصف ومن أنكره فليصف فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتذهب فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينه .

وقد ورد ذكر الوزن والموازين فى مواضع من القرآن كقوله - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا - ، وقوله - فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون - وقوله - فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون - . وقوله - إن الله لا يظلم مثقال ذرة - . وقوله - فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأما هاهنا - . والفاء

في (فمن ثقلت موازينه) للتفصيل . والموازين : جمع ميزان ، وأصله ميزان قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها ، وثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال . وقيل إن الموازين جمع موزون : أي فمن رجعت أعماله الموزونة . والأول أولى . وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله ؛ وقيل هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال : خرج فلان إلى مكة على الغال ، والإشارة بقوله (فأولئك) إلى من ، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير (موازينه) باعتبار القظه وهو مبتدأ خبره (هم المفلحون) والكلام في قوله (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) مثله ، والباء في (بما كانوا بآياتنا يظلمون) سببية ، وما مصدرية . ومعنى (يظلمون) يكذبون . قوله (ولقد مكناكم في الأرض) أي جعلنا لكم فيها مكانا وهبنا لكم فيها أسباب المعاش . والمعاش جمع معيشة : أي ما يتعاش به من الطعام والمشروب وما تكون به الحياة ، يقال عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشا . قال الزجاج : المعيشة ما يتوصلون به إلى العيش . والمعيشة عند الأخفش وكثير من النحويين مفعلة . وقرأ الأعرج « معاش » بالهمز ، وكذا روى خارجة بن مصعب عن نافع . قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ، لأن الواحدة معيشة والياء أصلية كدبنة ومدابن وصحيفة وصحائف . قوله (قليلا ماتشكرون) الكلام فيه كالکلام فيما تقدم قريبا من قوله تعالى - قليلا ما تذكرون . قوله (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) هذا ذكر نعمة أخرى من نعم الله على عبده . والمعنى : خلقناكم نطفًا ثم صورناكم بعد ذلك . وقيل المعنى : خلقنا آدم من تراب ثم صورناكم في ظهري . وقيل (ولقد خلقناكم) بمعنى آدم ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر (ثم صورناكم) راجع إليه ، ويدل عليه (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصور آدم عليه السلام . وقال الأخفش : إن ثم في (ثم صورناكم) بمعنى الواو . وقيل المعنى : خلقناكم من ظهر آدم ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال . وقيل المعنى : ولقد خلقنا الأرواح أولا ، ثم صورنا الأشباح ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم : أي أمرناهم بذلك فامثلوا الأمر ، وفعلوا السجود بعد الأمر (إلا إبليس) قيل الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفردا بينهم ، أو كما قيل : لأن من الملائكة جنسا يقال لهم الجن ؛ وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تحقيقه في البقرة . قوله (لم يكن من الساجدين) جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ومن جعل الاستثناء منقطعا قال معناه : لكن إبليس لم يكن من الساجدين . وجملة (قال ما منعك ألا تسجد) مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل فإذا قال له الله ؟ « لا » في (أن لا تسجد) زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى في سورة ص - ما منعك أن تسجد - ؛ وقيل إن منع بمعنى قال ، والتقدير : من قال لك أن لا تسجد ؛ وقيل منع بمعنى دعا : أي مادعاك إلى أن لا تسجد ؛ وقيل في الكلام حذف ، والتقدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أن لا تسجد (إذ أمرتك) : أي وقت أمرتك ، وقد استدلل به على أن الأمر للقور ، والبحث مقرر في علم الأصول ، والاستغناء في (ما منعك) للتبريع والتوبيخ ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك ، وجملة (قال أنا خير منه) مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فما قال إبليس ؟ وإنما قال في الجواب أنا خير منه ، ولم يقل منعني كذا ، لأن في هذه الجملة التي جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده أنه أفضل منه . والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيد هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . ثم علل ما ادّعاه من الخيرية بقوله (خلقتني من نار وخلقته من طين) اعتقاده أنه أنقى من الطين . وقد أخطأ عدو الله فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزاقته وسكونه وطول بقائه وهي حقيقة مضطربة سريعة النفاذ . ومع هذا فهو موجود في الجنة دونها . وهي عذاب دونه . وهي محتاجة إليه لتحيز فيه . وهو مسجد وظهر . ولولا سبق شقاوته وخلق

كلمة الله عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة . فعنصرهم النورى أشرف من عنصره النارى ، وجملة (قال فاهبط) استثنائية كالتى قبلها ، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر : أى اهبط من السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التى هى مقر من يعصى ويطيع ، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصى أمر ربه مثلك ، ولهذا قال (فما يكون لك أن تتكبر فيها) . ومن التفاسير الباطلة ما قيل إن معنى (اهبط منها) أى اخرج من صورتك النارية التى افتخرت بها صورة مظلمة مشوهة ؛ وقيل المراد هبوطه من الجنة ؛ وقيل من زمرة الملائكة ، وجملة (فاخرج) لتأكيد الأمر بالهبوط ، وجملة (إنك من الصاغرين) تعليل للأمر : أى إنك من أهل الصغار والهوان على الله وعلى صالحى عبادته وهكذا كل من تردى برداء الاستكبار هو قب بلبس رداء الهوان والصغار . ومن ليس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع ، وجملة (قال أنظرنى إلى يوم يبعثون) استثنائية كما تقدم فى الجمل السابقة : أى أمهلنى إلى يوم البعث ، وكأنه طلب أن لا يموت ، لأن يوم البعث لاموت بعده ، والضمير فى (يبعثون) لآدم وذريته ، فأجابه الله بقوله (إنك من المنظرين) أى المهملين إلى ذلك اليوم ، ثم تعاقب بما قضاه الله لك ، وأنزله بك فى دركات النار . قيل الحكمة فى إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه ، وجملة (قال فما أغويتنى) مستأنفة كالجمل السابقة واردة جوابا لسؤال مقدر ، والباء فى (فما) للسببية والفاء لترتيب الجملة على ما قبلها ؛ وقيل الباء للقسم كقوله (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) أى فباغوائك إياى (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) والإغواء : الإيقاع فى الغى ؛ وقيل الباء بمعنى اللام ، وقيل بمعنى مع . والمعنى : فع إغوائك إياى ؛ وقيل (ما) فى (فما أغويتنى) للاستفهام . والمعنى : فباى شئ أغويتنى والأول أولى . ومراده بهذا الإغواء الذى جعله سببا لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه وأن ذلك كان بإغواء الله له ، حتى اختار الضلالة على الهدى ؛ وقيل أراد به اللعنة التى لعنه الله : أى فما لعنتنى فأهلكنى لأقعدن لهم ومنه - فسوف يلقون غيا - أى هلاكا . وقال ابن الأعرابى : يقال غوى الرجل يغوى غيا : إذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه . ومنه - وعصى آدم ربه فغوى - أى فسد عيشه فى الجنة (لأقعدن لهم) أى لأجهدن فى إغوائهم حتى يفسدوا بسببى كما فسدت بسبب تركى السجود لأبيهم . والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة ، وانتصابه على الظرفية : أى فى صراطك المستقيم كما حكى سيويه ضرب زيد الظهر والبطن ، واللام فى (لأقعدن) لام القسم ، والباء فى (بما أغويتنى) متعلقة بفعل القسم المحذوف : أى فما أغويتنى أقسم لأقعدن . قوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ذكر الجهات الأربع لأنها هى التى يأتى منها العدو عدوه ، ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت ، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بمن . وإلى الآخرين بمن . لأن الغالب فيمن يأتى من قدام وخلف أن يكون متوجها إلى ما يأتىه بكلية بدنه ، والغالب فيمن يأتى من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفا ، فتناسب فى الأوليين التعدية بحرف الابتداء ، وفى الآخرين التعدية بحرف المجاوزة ، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتى حقيقة ؛ وقيل المراد (من بين أيديهم) من دنياهم (ومن خلفهم) من آخرتهم (وعن أيمانهم) من جهة حسناتهم (وعن شمائلهم) من جهة سيئاتهم واستحسنه النحاس . قوله (ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى وعند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين لتأثير وسوستى فيهم وإغوائى لهم . وهذا قاله على الظن ومنه قوله تعالى - ولقد صدق عليهم إبليس ظنه - . وقيل إنه سمع ذلك من الملائكة فقال - وعبر بالشكر عن الطاعة أو هو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء ، وجملة (قال اخرج منها) استثناف كالجمل التى قبلها : أى من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدم (مذموما) أى مذموما من ذامه إذا زمه يقال ذامته وذمته

بمعنى : وقرأ الأعمش «مذموما» . وقرأ الزهري «مذموما» بغير همزة ؛ وقيل المذموم : المنقى ، والمدحور : المطرود . قوله (لمن تبعك منهم) قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم ، وجوابه (لأملأنّ جهنم منكم أجمعين) وقيل اللام في (لمن تبعك) للتوكيد ، وفي (لأملأنّ) لام القسم . والأول أولى ، وجواب القسم سدّ سدّ جواب الشرط ، لأن من شرطية ، وفي هذا الجواب من التهديد مالا يقادر قدره . وقرأ عاصم في رواية عنه (لمن تبعك) بكسر اللام وأنكره بعض النحويين . قال الثعالب : وتقديره والله أعلم من أجل من اتبعك كما يقال أكرمت فلانا لك ؛ وقيل هو عملة لا يخرج ، وضمير (منكم) له ولمن اتبعه ، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة ، والأصل منك ومنهم . وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (والوزن يومئذ الحق) قال : العدل (فمن ثقلت موازينه) قال : حسناته (ومن خفت موازينه) قال : حسناته . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي توزن الأعمال . وقد ورد في كيفية الميزان والوزن والموزون أحاديث كثيرة . وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يصاح برجل من أمتي على رموس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيقول : أتذكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال إنك لا تنظم ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، وقد صححه أيضا الترمذي وإسناد أحمد حسن . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) قال : خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء . وأخرج الفريابي عنه أنه قال : خلقوا في ظهر آدم ثم صوروا في الأرحام . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : أما خلقناكم فآدم ، وأما ثم صورناكم فذريته . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة في الآية قال : خلق إبليس من نار العزة . وقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من نار ، وخلق آدم مما وصفه لكم » . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : أول من قاس إبليس في قوله : - خلقتني من نار وخلقته من طين - وإسناده صحيح إلى الحسن . وأخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله له اسجد لآدم ، فقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس . وينبغي أن ينظر في إسناد هذا الحديث فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (فما أغويتني) أضللتني . وأخرج عبد بن حميد عنه في قوله (لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) قال : طريق مكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (ثم لا يبينهم من بين أيديهم) قال : أشككهم في آخرتهم (ومن خلفهم) قال : أرغبهم في دنياهم (وعن أيمنهم) أشبه عليهم أمر دينهم (وعن شمائلهم) قال : أسنّ لهم المعاصي وأحق عليهم الباطل (ولا تجد أكثرهم شاكرين) قال : موحدين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (ثم لا يبينهم من بين أيديهم) يقول من حيث يبصرون (ومن خلفهم) من حيث لا يبصرون (وعن أيمنهم) من حيث يبصرون

(وعن شألهم) من حيث لا يصرّون . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا في الآية قال : لم يستطع أن يقول من فوقهم . وفي لفظ علم أن الرحمة نزل من فوقهم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (مذموما) قال : ملوما ، مدحورا : قال مقيتا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (مذموما) قال : منقيا (مدحورا) قال : مطرودا .

وَيَا أَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفْنَ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

قوله (ويا آدم) هو على تقدير القول : أي وقلنا يا آدم . قال له هذا القول بعد إخراج إبليس من الجنة ، أو من السماء ، أو من بين الملائكة كما تقدم . وقد تقدم معنى الإسكان ، ومعنى (لا تقربا هذه الشجرة) في البقرة . ومعنى (من حيث شئتما) من أي نوع من أنواع الجنة شئتما أكله ، ومثله ما تقدم من قوله تعالى - وكلا منها رغدا حيث شئتما - وحذف النون من (فتكونا) لكونه معطوفا على المجزوم أو منصوبا على أنه جواب النهي . قوله (فوسوس لهما الشيطان) الوسوسة : الصوت الخفي ، والوسوسة : حديث النفس ، يقال وسوست إليه نفسه وسوسة وسواسا بكسر الواو ، والوسوسة بالفتح الاسم : مثل الزلزلة والزلال ، ويقال لمس الصائد والكلاب وأصوات الحلي وسواس . قال الأعشى : تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت . والوسواس : اسم الشيطان . ومعنى وسوس له : وسوس إليه أو فعل الوسوسة لأجله . قوله (ليبدى لهما) أي ليظهر لهما : واللام للعاقبة كما في قوله - ليكون لم علوا وحزنا - ، وقيل هي لام كي : أي فعل ذلك ليتعقبه الإيذاء ، أو لكي يقع الإيذاء . قوله (ما وورى) أي ما ستر وغطى (عنهما من سواتحهما) سمي الفرج سوءة ، لأن ظهوره يسوء صاحبه ، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستورا عنهما من عوراتهما فلما كانا لا يريان عورة أنفسهما ولا يراها أحدهما من الآخر ، وإنما لم تطلب الواو في (وورى) همزة . لأن الثانية مدة ، قيل إنما بدت عورتها لهما لا لغيرهما ، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتها (وقال) أي الشيطان لهما (ما نهاكما ربكما عن) أكل هذه الشجرة (إلا أن تكونا ملكين) أن في

موضع نصب ، وفي الكلام مضاف مخوف تقديره : ولا كراهة أن تكونا ملكين هكذا قال البصريون . وقال الكوفيون : التقدير لئلا تكونا ملكين (أو تكونا من الخالدين) في الجنة أو من الذين لا يموتون . قال النحاس : فضل الله الملائكة على جميع الخلق في غير موضع في القرآن ، فمنها هذا ، ومنها - ولا أقول إني ملك - ، ومنها - ولا الملائكة المقربون - . قال ابن فورك : لاحجة في هذه الآية . لأنه يحتمل أن يريد ملكين في أن لا يكون لهما شهوة في الطعام .

وقد اختلف الناس في هذه المسألة اختلافا كثيرا وأطالوا الكلام في غير طائل . وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه : فالكلام فيها لا يعنيننا . وقرأ ابن عباس ويحيى بن أبي كثير والضحاك « ملكين » بكسر اللام ، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال : لم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين . وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى - . قال أبو عبيد : هذه حجة بينة لقراءة الكسر ولكن الناس على تركها فلماذا تركناها . قال النحاس : هي قراءة شاذة ، وأنكر على أبي عبيد هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش . قال وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهي غاية الطالين ، وإنما معنى - وملك لا يبلى - المقام في ملك الجنة والخلود فيه . قوله (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) أي حلف لهما فقال : أقسم قساما أي حلف ، ومنه قول الشاعر :

وقاسمهما بالله جهدا لأننا ألد من السلوى ما إذا نشورها

وصيغة المفاعلة وإن كانت في الأصل تدل على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك . وقد قدّمنا تحقيق هذا في المائدة ، والمراد بها هنا المبالغة في صدور الاقسام لهما من إبليس ؛ وقيل إنهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة . قوله (فدلاهما بغرور) التدلية والإدلاء : إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل ، يقال أدنى دلوه : أرسلها والمعنى : أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة ؛ وقيل معناه : أوقعهما في الهلاك ؛ وقيل خدعهما ، وأنشد نفطويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجربا لا ينجده

وقيل معنى (دلاهما) دللتهما من الدالة . وهي الجرأة : أي جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة . قوله (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوراتهما) أي لما طعمها ظهرت لهما عوراتهما بسبب زوال ما كان ساترا لها وهو تقلص الثور الذي كان عليها . وقد تقدّم في البقرة . قوله (وطفقا يخفضان عليهما من ورق الجنة) طفق يفعل كذا : بمعنى شرع يفعل كذا . وحكى الأخفش : طفق يطفق مثل ضرب يضرب : أي شرعا أو جعلوا يخفضان عليهما . قرأ الحسن « يخفضان » بكسر الخاء وتشديد الصاد ، والأصل يخفضان فأدغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء . وقرأ الزهري « يخفضان » من أخصف . وقرأ الجمهور « يخفضان » من خصف . والمعنى : أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهم ليسترها ، من خصف النعل : إذا جعله طبقة فوق طبقة (وناداهما ربهما) قائلا لهما (ألم أنهما عن تلكما الشجرة) التي نهيتكما عن أكلها ، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه (وأقل لكما) معطوف على « أنهما » (إن الشيطان لكما علوّ مبین) أي مظهر للعداوة قوله (قال ربنا ظلمنا أنفسنا) جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل فإذا قالوا ؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب وأنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة ، ثم قال (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) . وجملة (قال أهبطوا) استئناف كالتالي قبلها . والخطاب لآدم وحواء وقرينتهما ، أو لهما وإبليس ، وجملة (بعضكم

لبعض علو) في محل نصب على الحال (ولكم في الأرض مستقر) أى موضع استقرار (و) لكم (متاع) تتمتعون به في الدنيا وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما (إلى حين) أى إلى وقت ، وهو وقت موتكم ، وجملة (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) استثنائية كالتى قبلها : أى في الأرض تحيون ، وفيها يأتيكم الموت ، ومنها تخرجون إلى دار الآخرة ، ومثله قوله تعالى - منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى - واعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى في البقرة فارجع إليه .

وقد أخرج الحكيم الترمذى في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن وهب ابن منبه في قوله (ليبدى لهما ما وورى عنهما من سواتهما) قال : كان على كل واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوءة صاحبه ، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتاهما إبليس فقال : مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكون ملكين مثله ، يعنى مثل الله عز وجل ، فلم يصدقا حتى دخل في جوف الحية فكلهما . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في الآية (إلا أن تكونا ملكين) فإن أخطأ كما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين فلا تموتان فيها أبدا (وقاسمهما) قال : حلف لهما (إني لكما لمن الناصحين) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب في قوله (فدلاهما بغرور) قال : مناهما بغرور . وأخرج ابن المنذر وابن أبى شيبه عن عكرمة قال : لباس كل دابة منها ، ولباس الإنسان الظفر ، فأدركت آدم التوبة عند ظفره . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لباس آدم وحواء كالظفر ، فلما أكلتا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر (وظفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة) قال : ينزعان ورق التين فيجعلانه على سواتهما . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقى في أطراف أصابعه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه نحوه من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك قال : كان لباس آدم في الجنة الياقوت ، فلما عصى قلص فصار الظفر . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وظفقا يخلصان) قال : يرقعان كهية الثوب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى (وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكا الشجرة) قال آدم : رب إنه حلف لى بك ولم أكن أعلم أن أحدا من خلقك يحلف بك إلا صادقا . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية قال : هى الكلمات التى تلقى آدم من ربه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله .

يَبْنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ
ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (٢١) يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ
أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) .

عبر سبحانه بالإتزال عن الخلق : أى خلقنا لكم لباسا يوارى سواكم التى أظهرها إبليس من أبويكم ، والسورة العورة كما سلف ، والكلام فى قدرها وما يجب ستره منها مبين فى كتب الفروع . قوله (وريشا) قرأ الحسن وحاصم من رواية المفضل الضبي وأبو عمرو من رواية الحسن بن علي الجعفي « وريشا » وقرأ الباقون « وريشا » والرياش جمع ريش : وهو اللباس . قال الفراء : ريش ورياش كما يقال لبس ولباس ، وريش الطائر ما ستره الله به . وقيل المراد بالريش هنا : الخصب ورفاهية العيش . قال القرطبي : والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة . وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة : وهبت له دابة وريشها : أى وما عليها من اللباس ، وقيل المراد بالريش هنا لباس الزينة لذكره بعد قوله (قد أنزلنا عليكم لباسا) وعطفه عليه . قوله (ولباس التقوى) قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب لباس . وقرأ الباقون بالرفع : فالنصب على أنه معطوف على لباس الأول ، والرفع على أنه مبتدأ ، وجملة (ذلك خير) خبره ، والمراد بلباس التقوى : لباس الورع واتقاء معاصي الله ، وهو الورع نفسه والخشية من الله ، فذلك خير لباس وأجل زينة ؛ وقيل لباس التقوى الحياء ؛ وقيل العمل الصالح ، وقيل هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله ؛ وقيل هو الدرع والمغفر الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله ، والأول أولى . وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال ، ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع في كلام العرب ، ومنه :

إذ المرء لم يلبس ثيابا من التقي تقلب عربانا وإن كان كاسيا

ومثله :

تغطّ بأثواب السخاء فلأننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والإشارة بقوله (ذلك) إلى لباس التقوى : أى هو خير لباس . وقرأ الأعمش (ولباس التقوى خير) والإشارة بقوله (ذلك من آيات الله) إلى الإتيان المدلول عليه بأنزلنا : أى ذلك الإتيان من آيات الله الدالة على أن له خالقا ثم كرّر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيرا لهم من الشيطان ، فقال (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان) أى لا يوقعنكم في الفتنة ، فالنهي وإن كان للشيطان فهو في الحقيقة لبني آدم بأن لا يفتننوا بفتنته ويتأثروا لذلك ، والكاف في (كما أخرج) نعت مصدر مخنوف : أى لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبيكم من الجنة ، وجملة (ينزع عنهما لباسهما) في محل نصب على الحال ، وقد تقدّم تفسيره ، واللام في (ليريهما سواتهما) لام كي : أى لكي يريهما ، وقد تقدّم تفسيره أيضا . قوله (إنه براكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ما تتضمنه من المبالغة في تحذيرهم منه ، لأن من كان بهذه المثابة يرى بني آدم من حيث لا يرونه ، كان عظيم الكيد ، وكان حقيقا بأن يخترس منه أبلغ احتراس (وقبيله) أعوانه من الشياطين وجنوده .

وقد استدلل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة ، وليس في الآية ما يدل على ذلك . وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه ، وليس فيها أنا لانراه أبدا ، فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقا ، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواكم) قال : كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عرا ، وفي قوله (وريشا) قال : المال . وأخرج ابن جرير عن عروة بن الزبير في قوله (لباسا يوارى سواكم) قال : الثياب (وريشا) قال : المال (ولباس التقوى) قال : خشية الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن علي في قوله (لباسا يوارى سواكم)

قال : لباس العامة (وريشا) قال : لباس الزينة (ولباس التقوى) قال : الإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله (وريشا) قال : المال واللباس والعيش والنعيم . وفي قوله (ولباس التقوى) قال : الإيمان والعمل الصالح (ذلك خير) قال : الإيمان والعمل خير من الريش واللباس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (وريشا) يقول : المال . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ينزع عنهما لباسهما) قال : التقوى ، وفي قوله (إنه براكم هو وقيله) قال : الجن والشياطين .

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) .

الفاحشة : ما تبالغ في فحشه وقبحه من الذنوب . قال أكثر المفسرين : هي طواف المشركين بالبيت عراة . وقيل هي الشرك ، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعا . والمعنى : أنهم إذا فعلوا ذنبا قبيحا متبالغا في القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين : الأول أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة : والثاني أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه . وكلا العذرتين في غاية البطلان والفساد . لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله ، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء : بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتها ، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش ، ولهذا رد الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم - إن الله لا يأمر بالفحشاء - فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه . ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه ، فقال (أتقولون على الله ما لا تعلمون) وهو من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقوله لهم ، وفيه من التقرير والتوبيخ أمر عظيم ، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحا في كل شيء فكيف إذا كان في القول على الله ؟ وإن في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فانهم القائلون - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - والقائلون (وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) والمقلد لولا اعتباره بكونه وجد لماه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذي أمر الله به . وأنه الحق لم يبق عليه . وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية والنصراني على النصرانية والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعية وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم . ولا طلبوا الحق كما يجب وبحثوا عن دين الله كما ينبغي . وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص ، فيأمن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ في التحذير من أن تقول هذه

المقالة وتستمر على الضلالة ، فقد اختلط الشر بالخير والصحيح بالسقيم وفاسد الرأي بصحيح الرواية . ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبيا واحدا أمرهم باتباعه ونهى عن مخالفته فقال ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد ، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى المكلفين للناس بما يكلفهم الله به . وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لأراء الرجال مع وجود كتاب الله . ووجود سنة رسوله ، ووجود من يأخذون بها عنه ، ووجود آلة الفهم لديهم وملكة العقل عندهم . قوله (قل أمر ربي بالقسط) القسط : العدل ، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء ؛ وقيل القسط هنا هو لا إله إلا الله . وفي الكلام حذف : أى قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه . قوله (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) معطوف على المحذوف المقدّر : أى توجهوا إليه في صلاتكم إلى القبلة في أى مسجد كنتم . أو في كل وقت يسجد ، أو في كل مكان يسجد ، على أن المراد بالسجود الصلاة (وادعوه مخلصين له الدين) أى ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء ، أو العبادة له ؛ وقيل وخذوه ولا تشركوا به . قوله (كما بدأكم تعودون) الكاف نعت مصدر محذوف . وقال الزجاج : هو متعلق بما قبله . والمعنى : كما أنشأكم في ابتداء الخلق يعيدكم ، فيكون المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؛ وقيل كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شيء ، فيكون مثل قوله تعالى - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة - وقيل كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب (فريقا هدى) منتصب بفعل يفسره ما بعده ؛ وقيل منتصب على الحال من المضمر في تعودون : أى تعودون فريقين : سعداء وأشقياء ويقويه قراءة أبي « فريقين فريقا هدى » ، والفريق الذى هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه ، والفريق الذى حققت عليه الضلالة هم الكفار . قوله (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) تعليل لقوله (وفريقا حق عليهم الضلالة) أى ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله ، ومع هذا فلأنهم (يحسبون أنهم مهتدون) ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة ، وهذا أشد في تمردهم وعنادهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله - والذين إذا فعلوا فاحشة - قال : كانوا يطوفون بانبييت عراة ، فنها عن ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : والله ما أكرم الله عبدا قط على معصيته ولا رضىها له ولا أمر بها ، ولكن رضى لكم بطاعته ونهاكم عن معصيته . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (أمر ربي بالقسط) قال : بالعدل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) قال : إلى الكعبة حيث صليتم في كنيسة أو غيرها (كما بدأكم تعودون) قال : شئ وسعيد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (كما بدأكم تعودون) الآية قال : إن الله بدأ خلق بنى آدم مؤمنا وكافرا كما قال - هو الذى خلقكم فأنكم كافر ومنكم مؤمن - ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا . وأخرج ابن جرير ، عن جابر في الآية قال : يبعثون على ما كانوا عليه : المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أنه ذكر القدرية فقال : قائلهم الله ليس قد قال الله تعالى (كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية : يقول كما خلقناكم أول مرة كذلك تعودون .

يَبْنِي آدَمَ خُلُوعًا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ (٢١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ (٢٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٣)

هذا خطاب لجميع بني آدم وإن كان واردا على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس ، أمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف . وقد استدلت
بالآية على وجوب ستر العورة في الصلاة ، وإليه ذهب جمهور أهل العلم ، بل سترها واجب في كل حال من
الأحوال وإن كان الرجل خاليا كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، والكلام على العورة وما يجب ستره منها
مفصل في كتب الفروع . قوله (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن
الإسراف فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرّة قاتل لنفسه وهو من أهل النار ، كما صرح في الأحاديث
الصحيحة والمقل من على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعى على
نفسه ، وعلى من يعول مخالفا لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه ،
والتبليغ مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهي القرآني ؛ وهكذا من حرّم حلالا أو حلل حراما ، فإنه يدخل في
المسرفين ويخرج عن المقتصدين . ومن الإسراف الأكل للحاجة ، وفي وقت شبع . قوله (قل من حرّم زينة الله
التي أخرج لعباده) الزينة ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن التي لم يرد نهى عن
التزين بها والجواهر ونحوها ، وقيل الملبوس خاصة ولا وجه له ، بل هو من جملة ما تشمله الآية ، فلا حرج على
من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرّمه الله ، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها
مدخل في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطا بينا . وقد قدّمنا في هذا
ما يكفي ، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوها مما يأكله الناس فإنه لا زهد في ترك الطيب منها ، ولهذا
جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه أو حرّمه على غيره . وما أحسن
ما قال ابن جرير الطبري : ولقد أخطأ من أثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل
إليه من حله ، ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البرّ ، ومن ترك أكل اللحم خوفا من عارض الشهوة .
وقد قدّمنا نقل مثل هذا عنه مطولا . والطيبات المستلذات من الطعام ، وقيل هو اسم عام لما طاب كسبا ومطعما ؛
قوله (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) أي أنها لم بالأصالة وإن شاركهم الكفار فيها ماداموا في الحياة (خالصة
يوم القيامة) أي مختصة بهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار . وقرأ نافع : خالصة ، بإرفع ، وهي قراءة ابن
عباس على أنها خبر بعد خبر . وقرأ الباقون بالنصب على الحال . قال أبو علي الفارسي : ولا يجوز الوقف على
الدنيا لأن ما بعدها متعلق بقوله (للذين آمنوا) حال منه بتقدير : قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا في حال
خلوصها لهم يوم القيامة . قوله (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) أي مثل هذا التفصيل فلفصل الآيات المشتملة

على التحليل والتحريم . قوله (قل إنما حرم ربي الفواحش) جمع فاحشة . وقد تقدم تفسيرها (ما ظهر منها وما بطن) أى ما أعلن منها وما أسر ، وقيل هى خاصة بفواحش الزنا ولا وجه لذلك ، والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم ؛ وقيل هو الخمر خاصة ، ومنه قول الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلّ عقلى كذاك الإثم تذهب بالعقول

ومثله قول الآخر : . يشرب الإثم بالصواع جهارا . وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصا بالخمر . قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك ، وحقيقته أنه جميع المعاصي ، كما قال الشاعر :

إني وجدت الأمر أرشده تقوى الإله وشره الإثم

قال الفراء : الإثم ما دون الحق والاستطالة على الناس انتهى . وليس فى إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به ، فهو أحد المعاصي التى يصدق عليها . قال فى الصحاح : وقد يسمى الخمر إثما ، وأنشد : شربت الإثم . البيت ، وكذا أنشده المروى قبله فى غريبته . قوله (والبغى بغير الحق) أى الظلم المجاوز للحد ، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) أى وأن تجعلوا لله شريكا لم ينزل عليكم به حجة . والمراد التهمك بالمشركين . لأن الله لا ينزل برهانا بأن يكون غيره شريكا له (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) بحقيقته وأن الله قاله ، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التى لم يأذن بها .

وقد أخرج ابن أبى شبة ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس أن النساء كنّ يظفن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فزلت (خذوا زينتكم عند كل مسجد) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية قال : كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة . والزينة : اللباس وما يوارى السوء وما سوى ذلك من جيد البرّ والمحتاج . وأخرج ابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خفوا زينة الصلاة ، قالوا : وما زينة الصلاة ؟ قال : البسوا نعالكم فصلوا فيها » . وأخرج العقيلي وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى قول الله (خفوا زينتكم عند كل مسجد) قال : صلوا فى نعالكم . والأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدا ، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روى فى هذين الحديثين فلا أدري كيف إسنادهما . وقد ورد النهى عن أن يصلى الرجل فى الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء ، وهو فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : أحلّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفا أو غيلة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله (إنه لا يحب المسرفين) قال : فى الطعام والشراب . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير غيلة ولا سرف ، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون ، فأنزل الله (قل من حرم زينة الله)

فأمرُوا بالثياب أن يلبسوها (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) قال : ينتفعون بها في الدنيا لا يتعمهم فيها مأثم يوم القيامة . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) قال : المشركون يشاركون المؤمنين في زهرة الدنيا وهي خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (والطيبات من الرزق) قال : الودك واللحم والسمن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها ، وهو قول الله - قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا - وهذا هذا ، فأنزل الله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) يعني شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا فأكلوا من طيبات طعامها ولبسوا من جياذ ثيابها ونكحوا من صالحى نساها ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما ظهر منها العرية ، وما بطن الزنا ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : ما ظهر منها طواف الجاهلية عراة ، وما بطن الزنا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (والإثم) قال المعصية (والبغى) قال : أن يبغى على الناس بغير حق .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٢٩) يَبْنِي
آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٠) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنْالُهُمْ
نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٢) قَالَ أَذْخُلُوا
فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا
حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأُولِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا
ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَقَالَتْ أُولِيهِمْ لِأُخْرِيَهُمْ فَمَا
كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٤) .

قوله (ولكل أمة أجل) أى وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أو يميتهم فيه ، ويجوز أن تحمل الآية على ما هو أهم من الأمرين جميعا ، والضمير في (أبطلهم) لكل أمة : أى إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدره عليهم واقعا في ذلك الأجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة . قال أبو السعود ما معناه : إن قوله (ولا يستقدمون) عطف على (يستأخرون) لكن لا لبيان انتهاء العذاب مع إمكانه في نفسه كالتأخر بل

للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا ، وقيل المراد بالهوى الدنو بحيث يمكن التقدم في الحملة كجىء اليوم الذى ضرب لملاكهم ساعة منه وليس بذلك . وقرأ ابن سيرين (آجالهم) بالجمع ، ونخص الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات . وقد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله وإن كان موته بالقتل أو الردى أو نحو ذلك ، والبحث في ذلك طويل جدا ، ومثل هذه الآية قوله تعالى - ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون - . قوله (يا بنى آدم إما يأتينكم) الآية ، إن هي الشرطية وما زائدة للتوكيد ، ولهذا لزم القتل النون المؤكدة ، والقصاص قد تقدم معناه ، والمعنى : إن أناكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامي ويدينونها لكم (فمن اتقى وأصلح) أى اتقى معاصي الله وأصلح حال نفسه باتباع الرسل ، وإجابتهم (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذه الحملة الشرطية هي الجواب للشرط الأول ، وقيل جوابه ما دل عليه الكلام : أى إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فأطيعوهم . والأول أولى ، وبه قال الزجاج (والذين كذبوا بآياتنا) التى يقصها عليهم رسلنا (واستكبروا) عن إجابتها والعمل بما فيها (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا يخرجون منها بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى لا أحد أظلم منه . وقد تقدم تحقيقه ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المكذبين المستكبرين (ينالهم نصيبهم من الكتاب) أى مما كتب الله لهم من خير وشر ، وقيل ينالهم من العذاب بقدر كفرهم ، وقيل الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه ، وقيل هو اللوح المحفوظ . قوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا) أى إلى غاية هي هذه ، وجملة (يتوفونهم) في محل نصب على الحال . والمراد بالرسل هنا ملك الموت وأعرانه ، وقيل حتى هنا هي التى للابتداء ، ولكن لا ينبغي أن كونها لابتداء الكلام بعدما لا ينافى كونها غاية لما قبلها ، والاستغناء في قوله (أين ما كنتم تدعون من دون الله) للتفريع والتوبيخ : أى أين الآلهة التى كنتم تدعونها من دون الله وتعبثونها ، وجملة (قالوا ضلوا عنا) استئنافية بتقدير سؤال وقعت هي جوابا عنه : أى ذهبوا عنا وغابوا فلا ندرى أين هم ؟ (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى أقرؤا بالكفر على أنفسهم . قوله (قال ادخلوا فى أم قد خلت من قبلكم) القائل هو الله عز وجل ، وفى معنى مع : أى مع أم ، وقيل هي على بابها ، والمعنى : ادخلوا فى جملتهم ، وقيل هو قول مالك خازن النار ، والمراد بالأم التى قد خلت من قبلهم من الجن والإنس هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية (كلما دخلت أمة) من الأمم الماضية (لعنت أختها) أى الأمة الأخرى التى سبقها إلى النار ، وجعلت أختها باعتبار الدين ، أو الضلالة ، أو الكون فى النار (حتى إذا أدركوا فيها) أى تداركوا ، والتدارك : التلاحق والتابع والاجتماع فى النار . وقرأ الأعمش « تداركوا » على الأصل من دون إدغام . وقرأ ابن مسعود (حتى إذا أدركوا) أى أدرك بعضهم بعضا . وروى عن أبي عمرو أنه قرأ بقطع ألف الوصل ، فكأنه سكت على إذا للتذكير ، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمتدئ بها ، وهو مثل قول الشاعر :

يا نفس صبرا كل حتى لاق وكل اثنين إلى افراق

(قالت أخراهم لأولاهم) : أى أخراهم دخولا لأولاهم دخولا ، وقيل أخراهم : أى سفلتهم وأتباعهم (لأولاهم) لرؤسائهم وكبارهم وهذا أول كما يدل عليه (ربنا هؤلاء أضلونا) فإن المضلين هم الرؤساء . ويموز أن يراد أنهم أضلوهم لأنهم تبعوهم واقتلوا بدينهم من بعدهم ، فيصح الوجه الأول ، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم قوله (فأنهم عذابا ضعفا من النار) الضعف للزائد على مثله مرة أو مرات ، ومثله قوله تعالى (ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا) وقيل الضعف هنا الأقامى والحيات ، وجملة (قال لكل ضعف) استئنافية جوابا

لسؤال مقدّر ، والمعنى لكل طائفة منكم ضعف من العذاب : أى الطائفة الأولى ، والطائفة الأخرى (ولكن لا تعلمون) بما لكل نوع من العذاب (وقالت أولاهم لأخراهم) أى قال السابقون لللاحقين ، أو المتبوعون للتابعين (فما كان لكم علينا من فضل) بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه (فذوقوا) عذاب النار كما ذقناه (بما كنتم تكسبون) من معاصي الله والكفر به .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أبي الدرداء قال : تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلنا من وصل رحمه أنسى في أجله فقال : إنه ليس بزائد في عمره ، قال الله تعالى (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ولكن الرجل يكون له النذرية الصالحة ، فيدعون الله من بعده فيبلغه ذلك ، فذلك الذي ينسأ في أجله . وفي لفظ : فيلحقه دعاؤهم في قبره ، فذلك زيادة العمر . وهذا الحديث ينبغي أن يكشف عن إسناده ففيه نكارة ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما بخلافه . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي عروبة قال : كان الحسن يقول ما أحمق هؤلاء القوم يقولون اللهم أطل عمره ، والله يقول (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق الزهري عن ابن المسيب قال : لما طعن عمر قال كعب : لو دعا الله لأخر في أجله ، فقبل له : أليس قد قال الله (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فقال كعب : وقد قال الله - وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب - . وأخرج القرطبي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) قال : ما قدر لهم من خير وشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : من الأعمال من عمل خيرا جزى به ومن عمل شرا جزى به . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضا قال : نصيبهم من الشقاوة والسعادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : ما سبق من الكتاب . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في الآية قال : رزقه وأجله وعمله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في الآية قال : من العذاب . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (قد دخلت) قال : قد مضت (كلما دخلت أمة لعنت أختها) قال : كلما دخلت أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك ، يلعن المشركون المشركين ، واليهود اليهود ، والنصارى النصارى ، والصابئون الصابئين ، والمجوس المجوس ، تلعن الآخرة الأولى (حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أخراهم) الذين كانوا في آخر الزمان (لأولاهم) الذين شرعوا لهم ذلك الدين (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف) الأولى والآخرة (وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل) وقد ضللتكم كما ضللنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (عذابا ضعفا) قال : مضاعفا (قال لكل ضعف) قال : مضاعف ، وفي قوله (فما كان لكم علينا من فضل) قال : تخفيف من العذاب .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (١٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ

مِهَادٍ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (١١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَيْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٣).

قوله (لا تفتح لهم أبواب السماء) قرأ ابن عباس وحمة والكسائي بفتح التحتية لكون تأنيث الجمع غير حقيق فجار تذكيره ، وقرأ الباقر بالفوقية على التأنيث . وقرأ أبو عمرو وحمة والكسائي بفتح بالتخفيف . وقرأ الباقر بالتشديد ، والمعنى : أنها لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا ، وقد دل على هذا المعنى وأنه المراد من الآية ما جاء في الأحاديث الصحيحة أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء ، وقيل لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا قاله مجاهد والنخعي ، وقيل لأعمالهم : أى لا تقبل ، بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم ، وقيل المعنى : أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها ، لأن الجنة في السماء ، فيكون على هذا القول العطف بحملة (ولا يدخلون الجنة) من عطف التفسير ، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال ، ولا ينال به ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه ، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم الآية . قوله (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) أى أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال ، ولهذا علقه بالمستحيل ، فقال (حتى يلج الجمل في سم الخياط) وهو لا يبلغ أبدا ، وخص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل في كبر الذات ، وخص سم الخياط ، وهو ثقب الإبرة بالذکر لكونه غاية في الضيق ، والجمل الذكر من الإبل والجمع جمال وأجمال وجماليات ، وإنما يسمى جملا إذا أربع . وقرأ ابن عباس « الجمل » بضم الجيم وفتح الميم مشددة ، وهو جبل السفينة الذى يقال له القلس وهو حبال مجموعة قاله ثعلب : وقيل الجمل الغليظ من القنب : وقيل الجبل الذى يصعد به فى النخل . وقرأ سعيد بن جبيرة « الجمل » بضم الجيم وتخفيف الميم : وهو القلس أيضا . وقرأ أبو السماك « الجمل » بضم الجيم وسكون الميم . وقرئ أيضا بضمهما . وقرأ عبد الله بن مسعود « حتى يلج الجمل الأصغر فى سم الخياط » وقرئ (فى سم) بالحركات الثلاث . والسم : كل ثقب لطيف ، ومنه ثقب الإبرة ، والخياط ما يخاط به ، يقال خياط وخياط (وكذلك نجزي المجرمين) أى مثل ذلك الجزء الفطيع نجزي المجرمين : أى جنس من أكرم وقد تقدم تحقيقه . والمهاد : الفراش ، والقواش جمع غاشية : أى نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية (وكذلك نجزي الظالمين) أى مثل ذلك الجزء العظيم نجزي من اتصف بصفة الظلم . قوله (لا نكلف نفسا إلا وسعها) أى لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم ويقبلون عليه ، ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم ، وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، ومثله - لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها - وقرأ الأعمش تكلف بالفوقية ورفع نفس ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الموصول ، وخبره (أصحاب الجنة) والجملة خبر الموصول ، وجملة (هم فيها خالدون) فى محل نصب على الحال . قوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ) هنا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن يترع الله

ما في قلوبهم من الغل على بعضهم بعضا حتى تصفوا قلوبهم ويؤد بعضهم بعضا، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر. والغل : الحقد الكامن في الصدور ، وقيل نزع الغل في الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضا في تفاضل المنازل (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا) أي لهذا الجزاء العظيم ، وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من صدورهم ، والهداية هذه لهذا هي الهداية لسببه من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا (وما كنا لنهتدي) قرأ ابن عامر بإسقاط الواو ، وقرأ الباقر بإثباتها ، وما كنا نطبق أن نهتدي بهذا الأمر لولا هداية الله لنا ، والجملة مستأنفة أو حالية ، وجواب لولا محذوف يدل عليه ما قبله : أي لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدي . قوله (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) اللام لام القسم ، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما صاروا فيه بسبب ما تقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به في الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه . قوله (ونودوا أن تلکم الجنة أو رثتموها بما كنتم تعملون) أي وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فقيل لهم تلکم الجنة أو رثتموها : أي ورثتم منازلها بعملکم . قال في الكشف : بسبب أعمالکم لا بالتفضل كما تقوله المبطله انتهى . أقول : يا مسكين هذا قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما صح عنه « سدّوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته ، والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر ، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بأقداره على العمل لم يكن عمل أصلا ، فلم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطله ، وفي التنزيل -- ذلك الفضل من الله - وفيه - فسيلخلهم في رحمة منه وفضل -- .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لا تفتح لهم أبواب السماء) يعني لا يصعد إلى الله من عملهم شيء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال : لا تفتح لهم عمل ولا لدعاء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا في الآية قال : لا تفتح لأرواحهم ، وهي تفتح لأرواح المؤمنين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا (حتى يلج الجمل) قال : ذو القوائم (في سم الحياط) قال : في خرت الإبرة . وأخرج عبد الرزاق والفريري وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الكبير وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله (حتى يلج الجمل) قال : زوج الناقة . وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن طارق عن ابن عباس أنه كان يقرأ الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقال : هو الجمل الغليظ أو هو من حبال السفن . وأخرج عبد ابن حميد عن ابن عمر أنه سئل عن سم الحياط فقال : الجمل في ثقب الإبرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : المهاد الفرائش ، والفرائش اللحف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية (ونزعنا ما في صدورهم من غل) وأخرج النسائي وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول لو هدانا الله فيكون حسرة عليهم ، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول لولا أن هدانا الله فهذا شكرهم » . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والدارمي ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ونودوا أن تلکم الجنة أو رثتموها بما كنتم تعملون) قال : نودوا أن صحوا فلا تقموا ، وانصموا فلا تبأسوا ، وشبوا فلا تهرموا ، واخلدوا فلا تموتوا .

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ
مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١١) الَّذِينَ
يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ (١٠) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى
الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ
يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (١٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبُّنَا
لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمِهِمْ
قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (١٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ
لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (١٩) .

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به ، بل لقصد تذكيرهم وإيقاع الحسرة
في قلوبهم ، و (أن قد وجدنا) هو نفس النداء : أي إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعم فهل وصلتم إلى
ما وعدكم الله به من العذاب الأليم ، والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ ، وحذف مفعول وعد الثاني لكون الوعد
لم يكن لهم بخصوصهم ، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب ، وقيل حذف لإسقاط الكفار عن رتبة
التشريف بالخطاب عند الوعد (قالوا نعم) أي وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . وقرأ الأعمش والكسائي « نعم » بكسر
العين . قال مكى : من قال نعم بكسر العين فكأنه أراد أن يفرق بين نعم التي جواب وبين نعم التي هي اسم
للبقر والغنم والإبل . والمؤذن : المنادى ، أي فنادى متاد بينهم : أي بين الفريقين ، قيل هو من الملائكة (أن لعنة
الله على الظالمين) قرأ ابن عامر وحمة والكسائي والبزى بتشديد أن وهو الأصل . وقرأ الباقر بالتخفيف على أنها
المخففة من الثقيلة أو المفسرة . وقرأ الأعمش بكسر همزة إن على إضمار القول ، وجملة (الذين يصدون عن سبيل الله)
صفة للظالمين ، ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم ، أو أغنى . والصد : المنع : أي يمنعون الناس عن سلوك
سبيل الحق (ويبغونها عوجا) أي يطلبون اعوجاجها : أي ينفرون الناس عنها ويقلدحون في استقامتها بقولهم إنها
غير حق وإن الحق ما هم فيه ، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم يكن متصبا ، وبالفتح ما كان في
المتصب كالرمح ، وجملة (وهم بالآخرة كافرون) في محل نصب على الحال . قوله (وبينهما حجاب) أي بين
الفريقين أو بين الجنة والنار . والحجاب هو السور المذكور في قوله تعالى - فضرَبَ بينهم سور - . قوله (وعلى
الأعراف رجال) الأعراف : جمع عرف ، وهي شرفات السور المضروب بينهم ، ومنه عرف القرس وعرف الديك
والأعراف في اللغة : المكان المرتفع ، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله - رجال لا تلهيهم تجارة ولا
بيع عن ذكر الله - .

وقد اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم ؟ فقيل هم الشهداء ، ذكره القشيري وشرح جيل بن سعد ،
وقيل هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس ذكره مجاهد ، وقيل هم قوم أنبياء

ذكره الزجاج ؛ وقيل هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبي والضحاك وسعيد بن جبير ؛ وقيل هم العباس وحمة وعلى وجعفر الطيار يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضهم بسوادها ، حكى ذلك عن ابن عباس ؛ وقيل هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة ، واختار هذا القول النحاس ؛ وقيل هم أولاد الزنا ، روى ذلك عن ابن عباس ؛ وقيل هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار ذكره أبو مجلز ، وجملة (يعرفون كلا بسيماهم) صفة لرجال . والسيما العلامة : أى يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها ، أو مواضع الوضوء من المؤمنين ، أو علامة يجعلها الله لكل فرق في ذلك الموقف يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء (ونادوا أصحاب الجنة) أى نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم (أن سلام عليكم) أى نادوهم بقولهم سلام عليكم تحية لهم وإكراما وتبشيرا ، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب . قوله (لم يدخلوها وهم يطمعون) أى لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف والحال أنهم يطمعون في دخولها ؛ وقيل معنى (يطمعون) يعلمون أنهم يدخلونها وذلك معروف عند أهل اللغة : أى طمع بمعنى علم ذكره النحاس . وهذا القول أغنى كونهم أهل الأعراف مروى عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود . وقال أبو مجلز : هم أهل الجنة : أى أن أهل الأعراف قالوا لهم سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها . قوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) أى إذا صرفت أبصار أهل الأعراف تلقاء أصحاب النار : أى جهة أصحاب ، وأصل معنى (تلقاء) جهة اللقاء ، وهى جهة المقابلة ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أوله غير مصدرين ، أحدهما هذا ، والآخر تبيان ، وما عداهما بالفتح (قالوا) أى قال أهل الأعراف (ربنا لانجعلنا مع القوم الظالمين) سألوا الله أن لا يجعلهم منهم (ونادى أصحاب الأعراف رجالا) من الكفار (يعرفونهم بسيماهم) أى بعلاماتهم (قالوا) بدل من نادى (ما أغنى عنكم جمعكم) الذى كنتم تجمعون للصدقة عن سبيل الله ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، قوله (وما كنتم تستكبرون .) « ما ، مصدرية : أى وما أغنى عنكم استكباركم (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) هذا من كلام أصحاب الأعراف : أى قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة . وقد كان الكفار يقسمون في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم ، وهذا تبكيث للكفار وتحسير لهم . قوله (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) هذا تمام كلام أصحاب الأعراف : أى قالوا للمسلمين ادخلوا الجنة ، فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول . وقرأ طلحة بن مصرف « ادخلوا ، بكسر الخاء .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن بن عباس في قوله (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا) قال : من النعيم والكرامة (فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) قال : من الخزي والهوان والعذاب . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما وقف على قلب بدر تلا هذه الآية : وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله (وبينهما حجاب) قال : هو السور وهو الأعراف ، وإنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن حذيفة قال : الأعراف سور بين الجنة والنار . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس قال : الأعراف هو الشيء المشرف . وأخرج القرطبي وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال : الأعراف سور له عرف كعرف الديك . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : الأعراف جبال بين الجنة والنار فهم على أعرافها ،

يقول على ذراها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنها تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : زعموا أنه الصراط . وأخرج ابن جرير عن حذيفة قال : أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار ، وهم آخر من يدخل الجنة ، قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود : أنهم من استوت حسناتهم وسيئاتهم يقفون على الصراط . وأخرج ابن جرير عن حذيفة نحوه . وكذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحاب الأعراف ؟ فقال : « هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي ، فارعوا من الجنة حيث شئتم » . قال ابن كثير : وهذا مرسل حسن وأخرج البيهقي في البعث عن حذيفة أراه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ويؤمر بأهل النار إلى النار ، ثم يقال لأصحاب الأعراف ما تنتظرون ؟ قالوا : ننتظر أمرك ، فيقال لهم : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتي ورحمتي » . وأخرج سعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الرحمن المزني قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصحاب الأعراف ؟ فقال : « هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم : فمنهم من النار قتلهم في سبيل الله ، ومنهم من الجنة معصيتهم آبائهم » . وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة مرفوعا نحوه أيضا . وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن مالك الهلالي عن أبيه مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن رجل من مزينة مرفوعا نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار أنه سئل عن قوله (لم يدخلوها وهم يطمعون) قال : سلمت عليهم الملائكة وهم لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال : أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم ، فإذا مروا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة قالوا سلام عليكم ، وإذا مروا بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ونادى أصحاب الأعراف رجلا) قال : في النار (يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) قال الله لأهل التكبر (أهولاء الذين أقسمت لا ينالهم الله برحمة) يعني أصحاب الأعراف (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) :

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ

إِلَّا تَأْوِيلُهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
وَضَلُّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) .

قوله (أن أفيضوا علينا من الماء) الإفاضة : التوسعة ، يقال أفاض عليه نعمه . طلبوا منهم أن يواسوهم
بشيء من الماء أو بشيء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة أو الأطعمة ، فأجابوا بقولهم (إن الله حرّمهما) أى
الماء وما رزقهم الله من غيره (على الكافرين) فلا نواسيكم بشيء مما حرّمه الله عليكم ، وقيل إن هذا النداء من
أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة ، وجملة (الذين اتخذوا دينهم هوا ولعبا) فى محل جر صفة الكافرين .
وقد تقدّم تفسير اللهو واللعب والغرر . قوله (فالיום ننسأهم) أى تركهم فى النار (كما نسوا لقاء يومهم هذا)
الكاف نعت مصدر محذوف ، وما مصدرية : أى نسيانا كنسيانهم لقاء يومهم هذا . قوله (وما كانوا بآياتنا
ييحملون) معطوف على ما نسوا : أى كما نسوا ، وكما كانوا بآياتنا يحملون : أى ينكرونها ، واللام فى (ولقد
جنتهم) جواب القسم . والمراد بالكتاب الجنس ، إن كان الضمير للكفار جميعا ، وإن كان للمعاصرين لثبتي صلى
الله عليه وآله وسلم ، فالمراد بالكتاب القرآن . والتفصيل التبيين ، و (على علم) فى محل نصب على الحال : أى
عالمين حال كونه (هدى) للمؤمنين (ورحمة) لهم . قال الكسائى والقراء : ويجوز « هدى ورحمة » بالخفض على الثبت
لكتاب . قوله (هل ينظرون إلا تأويله) بالهمز من آل : وأهل المدينة يخفون الهمزة . والنظر الانتظار : أى هل
ينتظرون إلا ما وعدوا به فى الكتاب من العقاب الذى يثول الأمر إليه : وقيل تأويله جزاؤه : وقيل عاقبته . والمعنى
متضارب . ويوم ظرف ليقول : أى يوم يأتى تأويله ، وهو يوم القيامة (يقول الذين نسوه من قبل) أى تركوه من
قبل أن يأتى تأويله (قد جاءت رسل ربنا بالحق) الذى أرسلهم الله به إلينا (فهل لنا من شفعاء) استفهام منهم ،
ومعناه التمنى (فيشفعوا لنا) منصوب لكونه جوابا للاستفهام . قوله (أو نرد) قال القراء : المعنى أو هل نرد
(فنعمل غير الذى كنا نعمل) وقال الزجاج : نرد عطف على المعنى : أى هل يشفع لنا أحد أو نرد . وقرأ ابن
أبي إسحاق « أو نرد فنعمل » بنصبهما ، كقول امرئ القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

وقرأ الحسن برقعتهما ، ومعنى الآية : هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب ، أو هل نرد إلى الدنيا
فنعمل صالحا غير ما كنا نعمل من المعاصى (قد خسروا أنفسهم) أى لم يتفعوا بها فكانت أنفسهم بلاء عليهم
ورحمة لهم فكانهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله ، وقيل خسروا النعيم وحظ الأنفس (وضل عنهم ما كانوا
يفترون) أى افترأوهم أو الذى كانوا يفترونه . والمعنى أنه بطل كذبهم الذى كانوا يقولونه فى الدنيا أو غاب
عنهم ما كانوا يجعلونه شريكا لله فلم يضعهم ولا حضر معهم : قوله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض
فى ستة أيام) هذا نوع من بدع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالإيجاد الذى يوجب على العباد توحيده وعبادته .

وأصل ستة سدسة أبدلت التاء من أحد السينين وأدغم فيها الدال ، والدليل على هذا أنك تقول في التصغير سديسة ، وفي الجمع أسداس ، وتقول جاء فلان سادسا . واليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، قيل هذه الأيام من أيام الدنيا ؛ وقيل من أيام الآخرة ، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة ، وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون ، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والثاني في الأمور ، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلا ، وفي آية أخرى - ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب - . قوله (ثم استوى على العرش) .

قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً ، وأحقها وأولها بالصواب مذهب السلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف بل على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه ، والاستواء في لغة العرب هو العلو والاستقرار . قال الجوهري : استوى على ظهر دابته : أى استقر ، واستوى إلى السماء : أى صعد ، واستوى : أى استولى وظهر ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهباق
واستوى الرجل : أى انتهى شبابه ، واستوى : أى انتسق واعتدل . وحكى عن أبي عبيدة أن معنى (استوى) هنا : علا ، ومثله قول الشاعر :

فأورد بهم ماء ثقيفا بقررة وقد حلق النجم اليماني فاستوى
أى علا وارتفع . والعرش . قال الجوهري : هو سرير الملك . ويطلق العرش على معان أخر منها عرش البيت : سقفه ، وعرش البئر : طيبها بالخشب ، وعرش السماك : أربعة كواكب صغار ، ويطلق على الملك والسلطان والعز ومنه قول زهير :

تداركها عبسا وقد ثلّ عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

وقول الآخر : إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعثية بن الحرث بن شهاب

وقول الآخر : رأوا عرشي تثلّم جانباه فلما أن تثلّم أفردوني

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما ، وهو المراد هنا . قوله (يغشى الليل النهار) أى يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطى بظلمته ضياءه . وقرأ عاصم وحزة والكسائي « يغشى » بالتشديد ، وقرأ الباقر بالتخفيف وهما لغتان ، يقال أغشى يغشى ، وغشى يغشى ، والتغشية في الأصل : إلباس الشيء الشيء . ولم يذكر في هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى - سراييل تقيكم الحرّ - . وقرأ حميد بن قيس « يغشى الليل النهار » على إسناد الفعل إلى الليل ، وعجل هذه الحملة النصب على الحال ، والتقدير : استوى على العرش مغشياً الليل النهار ، وهكذا قوله (يطلبه حثيثاً) حال من الليل : أى حال كون الليل طالبا للنهار طالبا حثيثاً لا يفتر عنه بحال ، وحثيثاً صفة مصدر محذوف ، أى يطلبه طالبا حثيثاً : أو حال من فاعل يطلب . والحث : الاستعجال والسرعة ، يقال ولي حثيثاً : أى مسرعا . قوله (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) قال الأخفش : معطوف على السموات ، وقرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء والخبر . والمعنى على الأول : وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات ، وعلى الثاني : الإخبار عن هذه بالتسخير . قوله (أله الخلق والأمر) إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له . والخلق : المخلوق ، والأمر : كلامه ، وهو كن في قوله - إنما أمرنا شيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون - ، أو المراد بالأمر ما يلزم به

على التفصيل ، أو التصرف في مخلوقاته ، ولما ذكر سبحانه في هذه الآية خلق السموات والأرض في ذلك الأمد اليسير ، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، وأن له الخلق والأمر . قال (تبارك الله رب العالمين) أى كثرت بركته واتسعت ، ومنه بورك الشيء وبورك فيه ، كذا قال ابن عرفة . وقال الأزهري في (تبارك) معناه تعالى وتعظم . وقد تقدم تفسير (رب العالمين) في الفاتحة مستكملاً .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) الآية قال : ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى أغثنى فلانى قد احترقت فافض علي من الماء ، فيقال أجبه ، فيقول : إن الله حرّمهما على الكافرين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) قال : من الطعام . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : يستسقونهم ويستطعمونهم ، وفي قوله (إن الله حرّمهما على الكافرين) قال : طعام الجنة وشرابها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله (فالיום ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا) يقول : نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فالיום ننسأهم) قال : نوخرهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (هل ينظرون إلا تأويله) قال : عاقبه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال (يوم يأتي تأويله) جزاؤه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (يوم يأتي تأويله) قال يوم القيامة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (ما كانوا يفترون) قال : ما كانوا يكذبون في الدنيا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (خلق السموات والأرض في ستة أيام) قال : كل يوم مقدار ألف سنة . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قال في قوله (استوى على العرش) كيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود كفر . وأخرج اللالكائي عن مالك أن رجلاً سأل كيف استوى على العرش ؟ فقال : كيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء والخطيب في تاريخه عن الحسن بن علي قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية في كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ، ومن كل لص عادي : آية الكرسي ، وثلاث آيات من الأعراف (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) وعشرا من أول سورة الصافات ، وثلاث آيات من الرحمن . أولها - يا معشر الجن والإنس - ، وخاتمة الحشر . وأخرج أبو الشيخ بن عبيد بن أبي مرزوق قال : من قرأ عند نومه (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) الآية ، بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح وعوفي من السرقة . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز قال : مرض رجل من أهل المدينة فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه ، فقرأ رجل منهم (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) الآية كلها ، وقد أصمت الرجل فتحرك ثم استوى جالسا ، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التي سجد فيها ، قال له أهله : الحمد لله الذي عافاك ، قال : بعث إلى نفسي ملك يتوفاها ، فلما قرأ صاحبكم الآية التي قرأ سجد الملك وسجدت بسجوده ، فهذا حين رفع رأسه ، ثم مال فقضى . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (يغشى الليل النهار) قال : يغشى الليل النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعا حتى يتركه . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : يلبس الليل النهار . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (حثيثا) قال : سريعا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة في قوله (ألا له الخلق والأمر) قال : الخلق ما دون العرش ، والأمر ما فوق ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عنه قال : الخلق هو الخلق ، والأمر هو الكلام .

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) .

أمرهم الله سبحانه بالدعاء ، وقيد ذلك بكون الداعي متضرعا بدعائه مخفيا له ، والنصاب (تضرعا وخفية) على الحال : : أى متضرعين بالدعاء مخفين له ، أو صفة مصدر محذوف : أى ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية : والتضرع من الضراعة ، وهى الذلة والخشوع والاستكانة ، والخفية : الإسرار به . فإن ذلك أقطع لعرق الرياء ، وأحسم لباب ما يخالف الإخلاص . ثم علل ذلك بقوله (إنه لا يحب المعتدين) أى المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء وفى كل شيء ، فمن جاوز ما أمره الله به فى شيء من الأشياء فقد اعتدى ، والله لا يحب المعتدين ، وتدخل المجاوزة فى الدعاء فى هذا العموم دخولا أوليا . ومن الاعتداء فى الدعاء أن يسأل الداعي ما ليس له كالحلود فى الدنيا . أو إدراك ما هو محال فى نفسه ، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء فى الآخرة أو يرفع صوته بالدعاء صارخا به . قوله (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) نهام الله سبحانه عن الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه قليلا كان أو كثيرا ، ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم . ومن الفساد فى الأرض الكفر بالله والوقوع فى معاصيه ، ومعنى (بعد إصلاحها) : بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع . قوله (وادعوه خوفا وطمعا) إعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين فى (تضرعا وخفية) وقية أنه بشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفا وجلال طامعا فى إجابة الله لدعائه . فإنه إذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه . والخوف : الانزعاج من المضار التى لا يؤمن من وقوعها ، والطمع : توقع حصول الأمور المحبوبة . قوله (إن رحمت الله قريب من المحسنين) هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأى نوع من الأنواع كان إحسانهم . وفى هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم ، فإن قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عبادة الله .

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب فى وجه تذكير خبر رحمة الله حيث قال قريب ولم يقل قريبة . فقال الزجاج : إن الرحمة مؤولة بالرحم لكونها بمعنى العفو والغفران ، ورجع هذا التأويل النحاس . وقال النضر بن شميل : الرحمة مصدر بمعنى الرحم ، وحق المصدر التذكير . وقال الأخفش سعيد : أراد بالرحمة هنا المطر . وتذكير بعض المؤنث جائر . وأنشد :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل أبقالها

وقا أبو عبيدة : تذكير قريب على تذكير المكان : أى مكان قريب . قال على بن سليمان الأخفش : وهذا خطأ ، ولو كان كما قال لكان قريب منصوبا كما تقول : إن زيدا قريبا منك . وقال الفراء : إن القريب إذا كان بمعنى المسافة فيذكر ويؤنث ، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم . وروى عن الفراء أنه قال : يقال فى النسب قرية فلان ، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث فيقال : دارك عنا قريب وفلانة منا قريب قال الله تعالى - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا - ومنه قول امرئ القيس :

لك الويل أن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البنياسة ابنة يشكرا

وروى عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله وقال : إن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما : وقيل إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقى جاز فى خبرها التذكير ، ذكر معناه الجوهرى . قوله (وهو الذى يرسل الرياح نشر بين يدي رحمة) عطف على قوله (يغشى الليل النهار) يتضمن ذكر نعمة من النعم التى أنعم بها على عباده مع ما فى ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته . ورياح جمع ربح . وأصل ربح روح ، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « نشر » بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب : أى ذات نشر . وقرأ الحسن وقتادة وابن عامر « نشر » بضم النون وإسكان الشين من نشر . وقرأ الأعمش وحزمة والكسائى « نشر » بفتح النون وإسكان الشين على المصدر ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال ، ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر الذى هو خلاف الطي فكان الريح مع سكونها كانت مطوية ثم ترسل من طيها فتصير كالمنفثحة . وقال أبو عبيدة : معناه متفرقة فى وجوهاها على معنى نشرها هاهنا وهاهنا . وقرأ عاصم (بشر) بالباء الموحدة وإسكان الشين جمع بشير : أى الرياح تبشر بالمطر ، ومثله قوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح مبشرات) . قوله (بين يدي رحمة) أراد بالرحمة هنا المطر : أى قد آم رحمة ، والمعنى : أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدي المطر . قوله (حتى إذا أقلت سحابا ثقالا) أقل فلان الشيء : حمله ورفع ، والسحاب يذكر ويؤنث ، والمعنى : حتى إذا حلت الرياح سحابا ثقالا بالماء الذى صارت تحمله (سقناه) أى السحاب (لبلد ميت) أى مجدي ليس فيه نبات ، يقال سقته لبلد كذا ، وإلى بلد كذا ، وقيل اللام هنا لام العلة : أى لأجل بلد ميت ، والبلد هو الموضع العامر من الأرض (فأنزلنا به الماء) أى بالبلد الذى سقناه لأجله أو بالسحاب : أى أنزلنا بالسحاب الماء الذى تحمله أو بالريح : أى فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدي المطر الماء : وقيل إن الباء هنا بمعنى من : أى فأنزلنا منه الماء (فأنزلنا به) أى بالماء (من كل الثمرات) أى من جميع أنواعها . قوله (كذلك نخرج الموتى) أى مثل ذلك الإخراج . وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم (لعلكم تذكرون) أى تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته ، وإنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التى تشاهدونها . قوله (والبلد الطيب بخرج نباته بأذن ربه) أى التربة الطيبة بخرج نباتها بأذن الله وتيسيره إخراجا حسنا تاما وافيا (والذى خبت لايجرح إلا نكدا) أى والتربة الخبيثة لايجرح نباتها إلا نكدا : أى لاخير فيه . وقرأ طلحة بن مصرف « نكدا » بسكون الكاف . وقرأ ابن القعقاع « نكدا » بفتح الكاف : أى ذا نكد . وقرأ الباقون « نكدا » بفتح النون وكسر الكاف . وقرئ (يخرج) أى يخرج به البلد : قيل ومعنى الآية التشبيه شبه تعالى للسريع الفهم بالبلد الطيب ، والبلد بالبلد الخبيث . ذكره النحاس : وقيل هذا مثل للقلوب : فشبّه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب ، والثانى عنه بالبلد الخبيث . قاله الحسن : وقيل هو مثل لقلب المؤمن والمناق قاله قتادة : وقيل هو مثل للطيب والخبيث من بنى آدم ، قاله مجاهد (كذلك نصرف الآيات) أى مثل ذلك التصريف (لقوم يشكرون) الله ويعترفون بنعمته .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) قال : السر (إنه لا يحب المعتدين) في الدعاء ولا في غيره . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : التضرع علانية والخفية سر . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر في قوله (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) يعني مستكئين ، وخفية : يعني في خفض وسكون في حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة (إنه لا يحب المعتدين) يقول : لاتدعوا على المؤمنين والمؤمنات بالشر : اللهم اخره والعنه ونحو ذلك فإن ذلك عدوان . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي مجلز في قوله (إنه لا يحب المعتدين) قال : لاتسألوا منازل الأنبياء . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله يقول (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً فرضى قوله فقال - إذ نادى ربه نداء خفياً - . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن صالح في قوله (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) قال : بعد ما أصلحها الأنبياء وأصحابهم . وأخرج أبو الشيخ عن أبي سنان في الآية قال : أحلت حلالاً وحرمت حراماً وحددت حدوداً فلا تفسدوها . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ادعوه خوفاً وطمعاً) قال : خوفاً منه وطمعاً لما عنده (إن رحمت الله قريب من المحسنين) يعني للمؤمنين ، ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وهو الذي يرسل الرياح) قال : إن الله يرسل الرياح فيأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض من حيث يلتقيان فيخرجه من ثم ، ثم ينشره فيسطه في السماء كيف يشاء ، ثم يفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب ، ثم يطر السحاب بعد ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (بشرا بين يدي رحمته) قال : يستبشر بها الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (بين يدي رحمته) قال : هو المطر ، وفي قوله (كذلك نخرج الموتى) قال : كذلك تخرجون ، وكذلك النشور كما يخرج الزرع بالماء . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (كذلك نخرج الموتى) قال : إذا أراد الله أن يخرج الموتى أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض ، ثم يرسل الأرواح فيهبى كل روح إلى جسده ، فكذلك يحيي الله الموتى بالمطر كالحياة الأرض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (والبلد الطيب) الآية قال : هو مثل صربه الله للمؤمن ، يقول هو طيب وعمله طيب ، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب (والذي خبث) ضرب مثلاً للكافر كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة ، فالكافر هو الخبيث وعمله خبيث ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥١) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٢) قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٥٣) أَبَلَّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ (٥٤) أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي
الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (١٤).

لما بين سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته في الآيات السابقة ذكر هنا أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار
ووعيدهم ، لتنبه هذه الأمة على الصواب ، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة . واللام جواب قسم
مخوف . وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم ، وقد تقدم ذكر نوح في آل عمران فأغنى عن الإعادة هنا .
وما قيل من أن إدريس قبل نوح ، فقال ابن العربي : إنه وهم . قال المازري : فإن صح ما ذكره المؤرخون كان
محمولا على أن إدريس كان نبيا غير مرسل ، وجملة (فقال يا قوم اعبدوا الله) استثنائية جواب سؤال مقدر . قوله
(ما لكم من إله غيره) هذه الجملة في حكم العلة لقوله (اعبدوا) أي اعبدوه لأنه لم يكن لكم إله غيره حتى يستحق
منكم أن يكون معبودا . قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وحمة وابن كثير وابن عامر برفع غيره على أنه نعت لإله على
الموضع . وقرأ الكسائي بالخفض في جميع القرآن على أنه نعت على اللفظ . وأجاز الفراء والكسائي النصب على
الاستثناء : يعني ما لكم من إله إلا إياه . وقال أبو عمرو : ما أعرف البحر ولا النصب . ويردّه أن بعض بني أسد
ينصبون غيره في جميع الأحوال ، ومنه قول الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حماة في غصون ذات أرقال

وجملة (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة : أي إن لم تعبدوه فلإني أخاف
عليكم عذاب يوم القيامة أو عذاب يوم الطوفان . قوله (قال الملأ من قومه) جملة استثنائية جواب سؤال مقدر ،
والملأ أشرف القوم وروؤساؤهم ، وقيل هم الرجال ، وقد تقدم بيانه في البقرة ، والضلال : العدول عن طريق
الحق والذهاب عنه : أي إنا نترك في دعائك إلى عبادة الله وحده في ضلال عن طريق الحق ، وجملة (قال يا قوم)
استثنائية أيضا جواب سؤال مقدر (ليس بي ضلالة) كما تزعمون (ولكني رسول من رب العالمين) : أرسلني
إليكم لسوق الخير إليكم ودفع الشر عنكم ، نبي عن نفسه الضلالة ، وأثبت لها ما هو أعلى من صبا وأشرف رفعة
وهو أنه رسول الله إليهم ، وجملة (أبلغكم رسالات ربي) في محل رفع على أنها صفة لرسول . أو هي مستأنفة
مبينة لحال الرسول . والرسالات : ما أرسله الله به إليهم مما أوحاه إليه (وأنصح لكم) عطف على (أبلغكم) يقال
نصحته ونصحت له ، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة في إحاض النصح . قال الأصمعي : الناصح : الخالص
من الغل ، وكل شيء خالص فقد نصح ، فعني أنصح هنا : أخلص النية لكم عن شوائب الفساد ، والاسم النصيحة
وجملة (وأعلم من الله ما لا تعلمون) معطوفة على الجملة التي قبلها مقرررة لرسالته ومبينة لمزيد علمه ، وأنه يختص
بعلم الأشياء التي لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك . قوله (أو عجبتم) فتحت الواو لكونها العاطفة ودخلت عليها همزة
الاستفهام للإنكار عليهم . والمعطوف عليه مقدر : كأنه قيل استبعدتم وعجبتم أو أكذبتم وعجبتم أو أنكرتم وعجبتم
(أن جاءكم ذكر من ربكم) أي وحى وموعظة (على رجل منكم) أي على لسان رجل منكم تعرفونه ، ولم يكن
ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته ؛ وقيل على بمعنى مع : أي مع رجل منكم لأجل ينذركم به (ولتتقوا)
ما يخالفه (ولعلكم ترحمون) بسبب ما يفيد الإنذار لكم والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه
عنكم (فكذبوه) أي فبعد ذلك كذبوه ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار (فأنجيناه والذين معه) من المؤمنين به

المستقرين معه (في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) واستمروا على ذلك ولم يرجعوا إلى التوبة ، وجملة (إنهم كانوا قوما عمن) علة لقوله (وأغرقنا) أي أغرقنا المكذبين لكونهم عمى القلوب لاتنفع فيهم الموعظة ولا يفيدهم التذكير .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أول نبي أرسل نوح » . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم وابن عساكر عن يزيد الرقاشي قال : إنما سمي نوح عليه السلام نوحا لطول ما نوح على نفسه . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم ومصححه عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال : الملاء يعني الأشراف من قومه . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (أن جاءكم ذكر من ربكم) يقول بيان من ربكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إنهم كانوا قوما عمن) قال : كفارا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (إنهم كانوا قوما عمن) قال : عن الحق .

وإلى عاد أخاهم هودا قال يقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (١٥)
قال الملاء الذين كفروا من قومه إنا لنريك في سفاهة وإننا لنظنك من الكذابين (١٦)
قال يقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين (١٧) أبلغكم رسلي ربي وأنا لكم ناصح أمين (١٨) أو عجبتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بضطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (١٩) قالوا أجبنا لنعبد الله وحده وننذر ما كان يعبد آباؤنا فاتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٢٠) قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين (٢١) فأنجينه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآيتنا وما كانوا مؤمنين (٢٢) .

قوله (وإلى عاد أخاهم هودا) أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم : أي واحدا من قبيلهم أو صاحبهم أو سباهم . لكونه ابن آدم مثلهم وعاد من هو ولد سام بن نوح . قيل هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ، وهود هو ابن عبدالله بن رباح بن الحلود بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، و (هودا) عطف بيان (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . قد تقدم تفسير هذا قريبا ، والاستفهام في (أفلا تتقون) للإنكار . وقد تقدم أيضا تفسير الملاء ، والسفاهة الخفة والحق . وقد تقدم بيان ذلك في البقرة ،

فسوه إلى الخفة والعليش ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا (إنا لنظنك من الكاذبين) مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة ثم أجاب عليهم بنى السفاهة عنه ، واستدرك من ذلك بأنه رسول رب العالمين . وقد تقدم بيان معنى هذا قريبا ، وكذلك سبق تفسير (أبلغكم رسالات ربي) وتقدم معنى الناصح ، والأمين المعروف بالأمانة ، وسبق أيضا تفسير (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينبئكم) في قصة نوح التي قبل هذه القصة . قوله (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أذكركم نعمة من نعم الله عليهم ، وهي أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح : أي جعلهم سكان الأرض التي كانوا فيها ، أو جعلهم ملوكا ، وإذ منصوب بذكر وجعل المذكور للوقت . والمراد ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة ، لأن الشيء إذا كان وقته مستحقا للذكر ، فهو مستحق له بالأولى (وزادكم في الخلق بسطة) أي طولا في الخلق وعظم جسم زيادة على ما كان عليه آباؤهم في الأبدان . وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد . قوله (فاذكروا آلاء الله) الآلاء : جمع إلى ومن جعلها نعمة الاستخلاف في الأرض ، والبسطة في الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم ، وكرر التذكير لزيادة التقرير ، والآلاء النعم (لعلكم تفلحون) إن تذكركم ذلك لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ، ومن شكر فقد أفلح . قوله (قالوا أجبنا لن عبد الله وحده) هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله ، وإنما كان هذا مستنكرا عندهم لأنهم وجعلوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه (ونذر ما كان يعبد آباؤنا) أي ترك الذي كانوا يعبدونه ، وهذا داخل في جملة ما استنكروه . قوله (فأتانا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) هذا استعجال منهم للعذاب الذي كان هود يعدهم به ، لشدة تمردهم على الله ونكوصهم عن طريق الحق وبعدهم عن اتباع الصواب ، فأجابهم بقوله (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) جعل ما هو متوقع كالواقع تنبيها على تحقق وقوعه ، كما ذكره أئمة المعاني والبيان ، وقيل معنى وقع وجب : والرجس العذاب ، وقيل هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر ، ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة ، فقال (أتجادلونني في أسماء) يعني أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها جعلها أسماء ، لأن مسمياتها لا حقيقة لها بل تسميتها بالآلهة باطلة فكأنها معلومة لم توجد بل الموجود أسماءها فقط (سميتوها أنتم وآباؤكم) أي سميت بها معبوداتكم من جهة أنفسكم أنتم وآباؤكم ولا حقيقة لذلك (ما نزل الله بها من سلطان) أي من حجة تحتجون بها على ما تدعونه لها من الدعاوى الباطلة ثم توعدهم بأشد وعيد فقال (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أي فانتظروا ما طلبتموه من العذاب فإني معكم من المنتظرين له ، وهو واقع بكم لا محالة ونازل عليكم بلا شك ، ثم أخبر الله سبحانه أنه نجي هودا ومن معه من المؤمنين به من العذاب النازل بمن كفر به ولم تقبل رسالته ، وأنه قطع دابر القوم المكذبين : أي استأصلهم جميعا . وقد تقدم تحقيق معناه ، وجملة (وما كانوا مؤمنين) معطوفة على كذبوا : أي استأصلنا هؤلاء القوم الجاحمين بين التكذيب بآياتنا وعدم الإيمان .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وإلى عاد أخاهم هودا) قال : ليس بأخيهم في الدين ولكننا أخوهم في النسب لأنه منهم فلذلك جعل أخاهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن خيثم قال : كانت عاد مابين اليمن إلى الشام مثل الذر . وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان الرجل من عاد ستين ذراعا بنراعههم ، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة ، وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعا طولا . وأخرج الحكيم الترمذي في نواتر الأصول عن ابن عباس قال : كان الرجل منهم ثمانين باحا ، وكانت الهرة فيهم ككلية البقرة ، والرمانة الواحدة يقعد في قشرها عشرة نفر

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه (وزادكم في الخلق بسطة) قال شدة . وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من الحجارة لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه ، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (آلاء الله) قال : نعم الله ، وفي قوله (رجس) قال : سقط . وأخرج ابن عساكر قال : لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس ، وإنما لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (وقطعنا دابر الذين كذبوا) قال : استأصلناهم وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال : قبر هود بحضرموت في كتيب أحر عند رأسه سدره . وأخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبي العاتكة قال : قبله مسجد دمشق قبر هود . وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : كان عمر هود أربعمائة سنة واثنين وسبعين سنة .

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٢) وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) .

قوله (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) معطوف على ما تقدم : أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم ، وثمرود قبيلة سموا باسم أبيهم ، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وصالح عطف بيان ، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشع بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وامتناع ثمود من الصرف لأنه جعل اسماً للقبيلة . وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه أعجمي . قال النحاس : وهو غلط لأنه من التمد ، وهو الماء القليل ، وقد قرأ القراء - ألا إن ثمودا كفروا ربهم - على أنه اسم للحي ، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القري . قوله (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) قد تقدم تفسيره في قصة نوح (قد جاءكم بينة من ربكم) أي

معجزة ظاهرة ، وهي إخراج الناقة من الحجر الصلد ، وجملة (هذه ناقة الله لكم آية) مشتملة على بيان البيئة المذكورة وانتصاب آية على الحال ، والعامل فيها معنى الإشارة ، وفي إضافة الناقة إلى الله تشريف لها وتكريم . قوله (فذروها تأكل في أرض الله) أي دعوها تأكل في أرض الله ، فهي ناقة الله ، والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه (ولا تمسوها) بشيء من سوء : أي لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها . قوله (فياخذكم عذاب أليم) هو جواب النهي : أي إذا لم تتركوا مسها بشيء من سوء أخذكم عذاب أليم : أي شديد الألم . قوله (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) أي استخلفكم في الأرض أوجعلكم ملوكا فيها ، كما تقدم في قصة هود (وبوأكم في الأرض) أي جعل لكم فيها مباءة ، وهي المنزل الذي تسكنونه (تتخلون من سهولها قصورا) أي تتخلون من سهولة الأرض قصورا ، أو هذه الحملة مبيئة لجملة : «وبوأكم في الأرض» ، وسهول الأرض ترابها يتخلون منه اللبن والآجر ونحو ذلك فينبون به القصور (وتنحتون الجبال بيوتا) أي تتخلون في الجبال التي هي محاور بيوتا تسكنون فيها ، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخلون فيها . كهوفا يسكنون فيها لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم ، وانتصاب بيوتا على أنها حال مقدرة أو على أنها مفعول ثان لتنحتون على تضمينه معنى تتخلون . قوله (فاذكروا آلاء الله) تقدم تفسيره في القصة التي قبل هذه . قوله (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) العثى والعثو لغتان ، وقد تقدم تحقيقه في البقرة بما يغني عن الإعادة (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) : أي قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون ، و (لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا بإعادة حرف الجر بدل البعض من الكل ، لأن في المستضعفين من ليس بمؤمن هذا على عود ضمير «منهم» إلى الذين استضعفوا ، فإن عاد إلى قومه كان بدل كل من المستضعفين ، ومقول القول (أنعلمون أن صالحا مرسل من ربه) قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية . قوله (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) أجابوهم بأنهم مؤمنون برسائله مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم هل تعلمون برسائله أم لا مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان وتنبئها على أن كونه مرسل أمر واضح مكشوف لا يحتاج إلى السؤال عنه ، فأجابوا تمردا وعنادا بقولهم (إنا بالذي آمنتم به كافرون) وهذه الحمل المعنوية يقال مستأنفة لأنها جوابات عن سوالات مقدرة كما سبق بيانه . قوله (فعقروا الناقة) العقر : الجرح ؛ وقيل قطع عضو يؤثر في تلف النفس ؛ يقال عقرت الفرس : إذا ضربت قوائمه بالسيف ؛ وقيل أصل العقر : كسر عرقوب البعير ثم قيل للنحر عقر ، لأن العقر سبب النحر في الغالب ، وأسند العقر إلى الجميع مع كون العاقر واحدا منهم ، لأنهم راضون بذلك موافقون عليه . وقد اختلف في عاقر الناقة ما كان اسمه ، فقيل قدار بن سالف ، وقيل غير ذلك (وعتوا عن أمر ربهم) أي استكبروا ، يقال عتا يعتو عتوا : استكبر ، وتعنى فلان : إذا لم يطع ، والليل العاتى : الشديد الظلمة (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا) من العذاب (إن كنت من المرسلين) هذا استعجال منهم للنقمة وطلب منهم لنزول العذاب وحلول البلية بهم (فأخذتهم الرجفة) أي الزلزلة ، يقال رجف الشيء يرجف رجفانا ، وأصله حركة مع صوت ، ومنه - يوم ترجف الراجفة - ؛ وقيل كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم (فأصبحوا في دارهم) أي بلدهم (جائعين) لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ، وأصل الجثوم للأرنب وشبهها ؛ وقيل للناس والطير . والمراد أنهم أصبحوا في دورهم ميتين لا حراك بهم (فتولى عنهم) صالح عند اليأس من إجابتهم (وقال) لهم هذه المقالة (لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية للحالم الماضية ، كما وقع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم من

التكليم لأهل قلب بدر بعد موتهم ، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم . وكأنه كان مشاهدا لذلك فتحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب ، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهدا في إبلاغهم الرسالة ومحض النصيح ، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه فحق عليهم العذاب ، ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه .

وقد أخرج عبد الرزاق والفرياني وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الطفيل قال : قالت ثمود لصالح اتنا بآية إن كنت من الصادقين ، قال : اخرجوا ، فخرجوا إلى هضبة من الأرض فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل ، ثم إنها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها ، فقال لهم صالح : هذه ناقة الله لكم آية فلما ملوها عقروها - فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام - . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن صالحا قال لهم حين عقروا الناقة : تمتعوا ثلاثة أيام ثم قال لهم : آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وتصبح اليوم الثاني محمرة ، ثم تصبح اليوم الثالث مسودة ، فأصبحت كذلك ، فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفنوا وتحنطوا ، ثم أخذتهم الصيحة فأهملتهم . وقال عافر الناقة : لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين ، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون أترضين ؟ فتقول نعم ، والصبي حتى رضوا أجمعون ، فعقرها . وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل الحجر قام فخطب فقال يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات . فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية فبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من مائها يوم غبها وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام ، وكان وعد من الله غير مكنوب ، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها ، إلا رجلا كان في حرم الله فأنعه حرم الله من عذاب الله ، فقيل يا رسول الله من هو ؟ فقال : أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . قال ابن كثير : هذا الحديث على شرط مسلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أبي الطفيل مرفوعا مثله . وأخرج أحمد من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وأصل الحديث في الصحيحين من غير وجه . وفي لفظ لأحمد من هذا الحديث قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود . وأخرج أحمد وابن المنذر نحوه مرفوعا من حديث أبي كبشة الأنماري . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (ولا تمسوها بسوء) قال : لا تعقروها . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (وتنحتون من الجبال بيوتا) قال : كانوا يتقنون في الجبال البيوت . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وعتوا عن أمر ربهم) قال : غلوا في الباطل (فأخذتهم الرجفة) قال : الصيحة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد (فأصبحوا في دارهم جاثمين) قال : ميتين . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفُحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ

قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤).

قوله (ولوطا) معطوف على ما سبق : أى وأرسلنا لوطا أو منصوب بفعل مقدّر : أى واذكر لوطا وقت
قال لقومه . قال الفراء : لوط مشتق من قولهم : هذا أليط بقلبي : أى الصق . قال الزجاج : زعم بعض النحويين
أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لطت الحوض إذا ملسته بالطين . وهذا غلط ، لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق .
وقال سيبويه نوح ولوط أسماء أعجمية إلا أنها خفيفة ، فلذلك صرفت . ولوط هو ابن هاران بن تارخ ، فهو
ابن أخى إبراهيم ، بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم (أناتون الفاحشة) أى الخصلة الفاحشة المتأدية في الفحش والقبح ،
قال ذلك إنكارا عليهم وتوبيخا لهم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى لم يفعلها أحد قبلكم ، فإن اللواط لم يكن
في أمة من الأمم قبل هذه الأمة ، و « من » مزيدة للتوكيد للعموم في النفي ، وإنه مستغرق لما دخل عليه ، والجملة
مسوقة لتأكيد النكير عليهم والتوبيخ لهم . قوله (إنكم أناتون الرجال شهوة) قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة
واحدة مكسورة . وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ والتقريع . واختار القراءة الأولى أبو عبيد
والكسائي وغيرهما ، واختار الخليل وسيبويه القراءة الثانية ، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله
(أناتون الفاحشة) وكذلك على القراءة الثانية مع مزيد الاستفهام وتكريره المفيد للمبالغة في التقريع والتوبيخ ،
وانتصاب شهوة على المصدرية : أى تشبهونهم شهوة ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال : أى مشبهين ،
ويجوز أن يكون مفعولا له : أى لأجل الشهوة . وفيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا بمجرد قضاء الشهوة من
غير أن يكون لهم في ذلك غرض يوافق العقل ، فهم في هذا كالبهائم التي ينزو بعضها على بعض لما يتقاضاها من
الشهوة (من دون النساء) أى متجاوزين في فعلكم هذا للنساء اللاتي هن محل لقضاء الشهوة وموضع لطلب اللذة ،
ثم أضرب عن الإنكار المتقدم إلى الاخبار بما هم عليه من الإسراف الذي تسبب عنه إتيان هذه الفاحشة الفظيعة .
قوله (وما كان جواب قومه) الواقعين في هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها (إلا أن قالوا أخرجوهم) أى لوطا
وأتباعه (من قريبتكم) : أى ما كان لهم جواب إلا هذا القول المبين للإنصاف المخالف لما طلبه منهم وأنكره
عليهم ، وجملة (إنهم أناس يتطهرون) تعليل لما أمروا به من الإخراج ، ووصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على
حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة فلا يساكنونا في قريتنا . ويحتمل أنهم
قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء ، ثم أخبر الله سبحانه أنه أنجى لوطا وأهله المؤمنين به . واستثنى أمراته
من الأهل لكونها لم تؤمن به ، ومعنى (كانت من الغابرين) أنها كانت من الباقين في عذاب الله ، يقال غير الشيء
إذا مضى ، وغير إذا بقي فهو من الأضداد . وحكى ابن فارس في المجمل عن قوم أنهم قالوا : الماضي عابر بالعين
المهملة ، والباقي غابر بالمعجمة . وقال الزجاج : (من الغابرين) أى من الغائبين عن النجاة . وقال أبو عبيد :
المعنى (من الغابرين) أى من المعمرين وكانت قد هرمت ، وأكثر أهل اللغة على أن الغابر الباقي . قوله (وأمطرنا
عليهم مطرا) قيل أمطر بمعنى إرسال المطر . وقال أبو عبيدة : مطر في الرحمة وأمطر في العذاب ، والمعنى هنا :
أن الله أمطر عليهم مطرا غير ما يعتادونه وهو رميهم بالحجارة كما في قوله - وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل -
(فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) هذا خطاب لكل من يصلح له ، أو لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وسياق
في هود قصة لوط بأبين مما هنا .

وقد أخرج ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساکر عن ابن عباس في قوله (أتأتون الفاحشة) قال : أدبار الرجال . وأخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال : إنما كان بدء عمل قوم لوط : أن إبليس جاءهم في هيئة صبي ، أجل صبي رآه الناس ، فدعاهم إلى نفسه فنكحوه ثم جسروا على ذلك : وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عنه في قوله (إنهم أناس يتطهرون) قال : من أدبار الرجال ومن أدبار النساء . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (إلا امرأته كانت من الغابرين) قال : من الباقيين في عذاب الله . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبي عروبة قال : كان قوم لوط أربعة آلاف ألف .

وإلى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُفِّرْتُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَشُخْرِجَتُكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِكَ مِنْ قَرِينَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْتَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَشِنْ أَتَبِعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخِيسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُثَمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) .

قوله (وإلى مدين أخاهم شعيبا) معطوف على ما تقدم : أي وأرسلنا . ومدين اسم قبيلة ، وليل اسم بلد والأول أولى ، وسميت القبيلة باسم أبيهم : وهو مدين بن إبراهيم كما يقال بكر ونعيم . قوله (أخاهم شعيبا) شعيب

عطف بيان ، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب بن مدين بن إبراهيم ، قاله عطاء وابن إسحاق وغيرهما . وقال الشرف بن القطامي : إنه شعيب بن عيفاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم . وزعم ابن سمعان أنه شعيب بن حرّة بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وقال قتادة : هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم . قوله (قال يا قوم) إلى قوله (بينة من ربكم) قد سبق شرحه في قصة نوح . قوله (فأوفوا الكيل والميزان) أمرهم بإيفاء الكيل والميزان لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن ، وكانوا لا يوفونهما ، وذكر الكيل الذي هو المصدر وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للآلة .

واختلف في توجيه ذلك ، ف قيل المراد بالكيل المكيال فتناسب عطف الميزان عليه ؛ وقيل المراد بالميزان الوزن فيناسب الكيل ، والفاء في « فأوفوا » للعطف على اعملوا . قوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) البخس النقص وهو يكون بالتعيب للسلعة أو التزهد فيها أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه ، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل وظاهر قوله (أشياءهم) أنهم كانوا يبخسون الناس في كل الأشياء ، وقيل كانوا مكاسبين بمكسبون كل ما دخل إلى أسواقهم ، ومنه قول زهير :

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

قوله (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) قد تقدم تفسيره قريبا ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ودقيقه وجليله ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى العمل بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه ، والمراد بالتحذير هنا الزيادة المطلقة ، لأنه لا خير في عدم إيفاء الكيل والوزن وفي بخس الناس وفي الفساد في الأرض أصلا . قوله (ولا تفعلوا بكل صراط توعدون) الصراط الطريق : أي لا تفعلوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب ، قيل كانوا يفعلون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد الحجى إليه ، ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه كما كانت قريش تفعله مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وغيرهم ؛ وقيل المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها ، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة ، ويؤيده (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) وقيل المراد بالآية النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب ، وكان ذلك من فعلهم ؛ وقيل إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس فنها عن ذلك . والقول الأول أقربها إلى الصواب مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة . وجملة « توعدون » في محل نصب على الحال ، وكذلك ما عطف عليها : أي لا تفعلوا بكل طريق موعدين لأهله صادقين عن سبيل الله باغين لها عوجا ، والمراد بالصد عن سبيل الله : صد الناس عن الطريق الذي فعلوا عليه ومنعهم من الوصول إلى شعيب ، فإن سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول إلى نبي الله هو سلوك سبيل الله ، و (من آمن به) مفعول تصدون ، والضمير في آمن به يرجع إلى الله ، أو إلى سبيل الله ، أو إلى كل صراط أو إلى شعيب ، (وتبغونها عوجا) أي تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة ، وقد سبق الكلام على اللعوج . قال الزجاج : كسر العين في المعاني وفتحها في الاحرام (واذكروا إذ كنتم) أي وقت كنتم (قليلا) عددكم (فكثركم) بالنسل ؛ وقيل كنتم فقراء فأغناكم (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم الماضية فإن الله أهلكهم وأنزل بهم من العقوبات ما ذهب بهم وعما أثرهم (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به) إليكم من الأحكام التي شرعها الله لكم (وطائفة) منكم (لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم . وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر . وحكم الله بين الفريقين هو نصر الحقين على المبطلين ، ومثله قوله تعالى - فترى بصوا إنا معكم متر بصون -

أو هو أمر للمؤمنين بالصبر على ما يحل بهم من أذى الكفار حتى ينصرهم الله عليهم (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) أي قال الأشراف المستكبرون (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك) لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه . بل جاوزوا ذلك بغيا وبطرا وأشرا إلى توعدهم نبيهم ومن آمن به بالإخراج من قريتهم أو عوده هو ومن معه في ملتهم الكفرية : أي لا بد من أحد الأمرين : إما الإخراج ، أو العود . قال الزجاج : يجوز أن يكون العود بمعنى الإبتداء ، يقال عاد إلى من فلان مكروه : أي صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك فلا يرد ما يقال : كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولا ؟ ويحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه في الخطاب بالعود إلى ملتهم ، وجملة (قال أو لو كنا كارهين) مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود ، والواو للحال : أي أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا للعود إليها ، أو أخرجوننا من قريبتكم في حال كراهتنا للخروج منها ، أو في حال كراهتنا للأمرين جميعا ، والمعنى : إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ولا يصح لكم ذلك ، فإن المكروه لا اختيار له ولا تعد موافقة مكروها موافقة ولا عوده إلى ملتكم مكروها عودا ، وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين في هذا المقام حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم) التي هي الشرك (بعد إذ نجانا الله منها) بالإيمان فلا يكون منا عود إليها أصلا (وما يكون لنا) أي ما يصح لنا ولا يستقيم (أن نعود فيها) بحال من الأحوال (إلا أن يشاء الله) أي إلا حال مشيئته سبحانه ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . قال الزجاج : أي إلا بمشيئة الله عز وجل . قال : وهذا قول أهل السنة ، والمعنى : أنه لا يكون منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك ، فالاستثناء منقطع : وقيل إن الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل كما في قوله - وما توفيقى إلا بالله - وقيل هو كقولهم لا أكلمك حتى يبيض الغراب ، وحتى يلج الحمل في سم الحياط ، والغراب لا يبيض : والحمل لا يلج ، فهو من باب التعليق بالحال . (وسع ربنا كل شيء علما) أي أحاط علمه بكل المعلومات فلا يخرج عنه منها شيء ، وعلمنا منصوب على التمييز : وقيل المعنى (وما يكون لنا أن نعود فيها) أي القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم (إلا أن يشاء الله) عودنا إليها (على الله توكلنا) أي عليه اعتمادنا في أن يثبتنا على الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ويتم علينا نعمته ويعصمنا من نعمته . قوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) افتتاح الحكومة أي احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين ، دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين : كما أخبرنا به في غير موضع من كتابه فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين وخلول نعمة الله بهم (وقال الملأ الذين كفروا من قومه) معطوف على (قال الملأ الذين استكبروا) يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك ، ويحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار الذين أرسل إليهم شعيب ، واللام في (لئن اتبعتم شعيبا) موطئة للجواب قسم محذوف : أي دخلتم في دينه وتركتم دينكم (إنكم إذا لخاسرون) جواب القسم ساد مسد جواب الشرط ، وخسرانهم : هلاكهم أو ما يخسرونه بسبب إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي كانوا يعاملون الناس به (فأخذتهم الرجفة) أي الزلزلة ، وقيل الصيحة كما في قوله - وأخذت الذين ظلموا الصيحة - (فأصبحوا في ديارهم جائعين) قد تقدم تفسيره في قصة صالح . قوله (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) هذه الجملة مستأنفة مبينة لما حل بهم من النعمة ، والموصول مبتدأ ، وكان لم يغنوا خبره : يقال غنيت بالمكان إذا أقمت به ، وغنى القوم في دارهم أي طال مقامهم فيها والمعنى : المنزل ، واجتمع المعاني . قال حاتم الطائي :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا ستقانا بهكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى باحساننا الفقر

ومعنى الآية : الذين كذبوا شعيبا كأن لم يقيموا في دارهم ، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب ، والموصول في الذين كذبوا شعيبا مبتدأ خبره (كانوا هم الخاسرين) ، وهذه الجملة مستأنفة كالأولى متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين (فتولى عنهم) أى شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم (وقال باقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي) التى أرسلنى بها إليكم (ونصحت لكم) ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم (فكيف آسى) أى أحزن (على قوم كافرين) بالله مصرين على كفرهم متمردين عن الإجابة أو الأسى شدة الحزن ، آسى على ذلك فهو آس . قال شعيب هذه المقالة تحسرا على عدم إيمان قومه ، ثم سلا نفسه بأنه كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله وعدم قبولهم لما جاء به رسوله .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن عساكر عن عكرمة والسدى قالا : ما بعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا : مرة إلى مدين فأخذتهم الصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قال : لا تظلموا الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قال : لا تظلموهم (ولا تفعلوا بكل صراط توعلون) قال : كانوا يوعلون من آتى شعيبا وغشيه وأراد الإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (ولا تفعلوا بكل صراط توعلون) قال : كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من آتى عليهم أن شعيبا كذاب فلا يفتنكم عن دينكم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (بكل صراط توعلون) قال : بكل سبيل حق (وتصدون عن سبيل الله) قال : تصدون أهلها (وتبغونها عوجا) قال : تلتبسون لها الزينج . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى (ولا تفعلوا بكل صراط توعلون) قال : هو العاشر (وتصلون عن سبيل الله) قال : تصدون عن الإسلام (وتبغونها عوجا) قال : هلاكا . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هم العشار . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية عن أبي هريرة أو غيره : شك أبو العالية قال : آتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقتة . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يفعلون على الطريق فيقطعونه ثم تلاحون ولا تفعلوا بكل صراط توعلون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله (وما يكون لنا أن نعود فيها) قال : ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله (إلا أن يشاء الله ربنا) والله لا يشاء الشرك ، ولكن يقول : إلا أن يكون الله قد علم شيئا ، فإنه قد وسع كل شيء علما . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات وابن الأثير في الوقف والابتداء عن ابن عباس قال : ما ما كنت أدري ما قوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) حتى سمعت ابنه ذى يزن تقول : تعال أفتحك ، تعنى أفاضيك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله (ربنا افتح) يقول : اقض . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : الفتح القضاء لغة بمانية إذا قال أحدهم تعال أفاضيك القضاء قال : تعال أفتحك . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (لم يغشوا فيها) قال : لم يعيشوا فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (فكيف آسى) قال : أحزن . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل وقبر شعيب فقبر إسماعيل

في الحجر . وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود . وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن شعيب مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، فقبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة وبين باب بني سهم . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن ابن إسحاق قال : ذكر لي يعقوب بن أبي مسلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا ذكر شعيبا قال : ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يريد به ، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة » .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٩)
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٠) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ
بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٠١) أَفَأَمِنْ
أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ (١٠٢) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ
بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (١٠٣) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٤)
أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٥) .

قوله (وما أرسلنا في قرية من نبي) لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وهم المذكورون سابقا أجل حال سائر الأمم المرسل إليها : أي وما أرسلنا في قرية من القرى من نبي من الأنبياء ، وفي الكلام محذوف أي فكذب أهلها إلا أخذناهم ، والاستثناء مفرغ : أي ما أرسلنا في حال من الأحوال إلا في حال أخذنا أهلها فحل أخذنا النصب ، والبأساء : البؤس والفقر ، والضراء : الضر ، وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء (لعلمهم يضرعون) أي لكي يتضرعوا ويتذللوا ، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار وتكذيب الأنبياء . قوله (ثم بدلنا) معطوف على أخذنا : أي ثم بعد الأخذ لأهل القرى بدلناهم (مكان السيئة) التي أصبناهم بها من البلاء والامتحان (الحسنة) أي الخصلة الحسنة : فصاروا في خير وسعة وأمن (حتى عفوا) يقال عفا كثر ، وعفا درس ، فهو من أسماء الأضداد ، والمراد هنا : أنهم كثروا في أنفسهم وفي أموالهم : أي أعطيناهم الحسنة مكان السيئة حتى كثروا (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) أي قالوا هذه المقالة عند أن صاروا في الحسنة بعد السيئة : أي أن هذا الذي مسنا من البأساء والضراء ، ثم من الرخاء والخصب من بعد هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله ، فسهم من البأساء والضراء ما مستا ومن النعمة والخير ما نلناه ، ومعناهم : أن هذه العادة الجارية في السلف والخلف ، وأن ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم واختبارا لما عندهم ، وفي هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم ما لا يحصى . ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ولم يمهلهم فقال (فأخذناهم بغتة) أي فجأة عقب أن قالوا هذه المقالة من دون تراخ ولا إهمال (و) الحال أنهم لا يشعرون (بذلك ولا يترقبونه ، واللام في (القرى) للعهد : أي (ولو أن أهل القرى)

إلى أرسلنا إليها رسلنا (آمنوا) بالرسول المرسلين إليهم (واتقوا) ما صمموا عليه من الكفر ولم يصبروا على ما فعلوا من القبائح (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) أي يسرنا لهم خير السماء والأرض كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها ؛ قيل المراد بخير السماء : المطر ، وخير الأرض النبات ، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك ؛ ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس ، والمراد : لو أن أهل القرى أين كانوا وفي أي بلاد سكنوا آمنوا واتقوا إلى آخر الآية (ولكن كذبوا) بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا (فأخذناهم) بالعذاب (ب) سبب (ما كانوا يكسبون) من الذنوب الموجبة لعذابهم ، والاستفهام في (أفأمن أهل القرى) للتقريع والتوبيخ ، وأهل القرى هم أهل القرى المذكورة قبله ، والفاء للعطف ، وهو مثل - أفحكم الجاهلية يبغون - ؛ وقيل المراد بالقرى مكة وما حولها لتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والحمل على العموم أولى . قوله (أن يأتيهم بأسنا بياتا) أي وقت بيات ، وهو الليل على أنه منصوب على الظرفية ، ويجوز أن يكون مصدرا : بمعنى نبيتا ، أو مصدرا في موضع الحال : أي مبيتين ، وجملة (وهم نائمون) في محل نصب على الحال ، والاستفهام في (أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) كالاستفهام الذي قبله ، والضحى ضحوة النهار . وهو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت . قرأ ابن عامر والحرميان (أو أمن) بإسكان الواو وقرأ الباقون بفتحها . وجملة (وهم يلعبون) في محل نصب على الحال : أي يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة ، والاستفهام في (أفأمنوا مكر الله) للتقريع والتوبيخ وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم ، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لانكار ما أنكره عليهم ، ثم بين حال من آمن مكر الله ، فقال (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) أي الذين أفرطوا في الخسران ، ووقعوا في وعيده الشديد ، وقيل مكر الله هنا هو استدراجه بالنعمة والصحة . والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك . قوله (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) قرئ « نهد » بالنون وبالتحتية فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ومفعول الفعل (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) أي أن الشأن هو هذا ، وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) أي أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم . والهداية هنا بمعنى التبيين ، ولهذا عدت باللام . قوله (ونطبع على قلوبهم) أي ونحن نطبع على قلوبهم على الاستئناف ولا يصح عطفه على أصبنا لأنهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للإيمان ؛ وقيل هو معطوف على فعل مقدّر دلّ عليه الكلام ، كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع ؛ وقيل معطوف على يرثون قوله (فهم لا يسمعون) جواب لو : أي صاروا بسبب إصابتناهم بذنوبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يملأه عليهم من أرسله الله إليهم من الوعظ والإعذار والإنذار .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) قال مكان الشلة الرخاء (حتى عفوا) قال : كثروا وكثرت أموالهم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (حتى عفوا) قال : جموا . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (قد مس آباءنا الضراء والسراء) قال : قالوا قد أتى على آبائنا مثل هذا فلم يكن شيئا (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) . وأخرج عبد ابن حميد وابن أبي حاتم عنه في قوله (ولو أن أهل القرى آمنوا) قال : بما أنزل الله (واتقوا) قال : ما حرّمه الله (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) يقول : أعطاهم السماء بركاتها والأرض نباتها . وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق معاذ بن رفاع عن موسى الطائي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أكرموا الخبز فإن الله

أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض . وأخرج البزار والطبراني . قال السيوطي بسند ضعيف عن عبد الله ابن أمّ حرام قال : صليت القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء وسخر له بركات الأرض . ومن تتبع ما يسقط من السفارة غفر له . وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : كان أهل قرية أو مع الله عليهم حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (أولم نبين . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) قال : المشركون .

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) .

قوله (تلك القرى) أى التى أهلكناها وهى قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب المتقدم ذكرها (نقص عليك) أى نتلو عليك (من أنبائها) أى من أخبارها وهذه تنسبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين ونقص إما فى محل نصب على أنه حال ، و (تلك القرى) مبتدأ وخبر ، أو يكون فى محل رفع على أنه الخبر ، و (القرى) صفة لتلك . ومن فى (من أنبائها) للتبعض : أى نقص عليك بعض أنبائها ، واللام فى (لقد جاءتهم رسلهم بالبينات) جواب القسم . والمعنى : أن من أخبارهم أنها جاءتهم رسل الله ببيناته كما سبق بيانه فى قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا (فما كانوا ليؤمنوا) عند مجئ الرسل (بما كذبوا) به (من قبل) مجيئهم أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل فى حال من الأحوال ولا فى وقت من الأوقات بما كذبوا به قبل مجيئهم ، بل هم مستمرّون على الكفر متشبثون بأذيال الطغيان دائماً . ولم ينجع فيهم مجئ الرسل ولا ظهر له أثر ، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله ، وقيل المعنى : فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم بما كذبوا به لو أحييناهم كقوله - ولوردوا لعادوا - وقيل سألو المعجزات . فلما رأوها لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها . والأول أولى ، ومعنى تكذيبهم قبل مجئ الرسل : أنهم كانوا فى الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب . قوله (كذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) أى مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا تهيب . قوله (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقا : أى ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد : أى عهد يحافظون عليه ويتمسكون به ، بل دأبهم نقض العهد فى كل حال ؛ وقيل الضمير يرجع إلى الناس على العموم : أى ما وجدنا لأكثر الناس من عهد وقيل المراد بالعهد : هو المأخوذ عليهم فى عالم النذر ؛ وقيل الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى : أى الأكثر منهم لا عهد ولا وفاء ، والقليل منهم قد بقى بعهدده ويحافظ عليه . وإن فى (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) هى المخفة من الثبلة . وضمير الشأن محذوف : أى أن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين . أو هى النافية . واللام فى (لفاسقين) بمعنى إلا : أى إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجا شديدا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي بن كعب في قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال : كان في علم الله يوم أقروا له بالميثاق من يكذب به ممن يصدق به . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال : مثل قوله - ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه - . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) قال : الوفاء . وأخرج ابن أبي حاتم في الآية قال : هو ذلك العهد يوم أخذ الميثاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) قال : ذلك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا يحفظوا ما وصاهم به .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٢) وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٣) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٠٤) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٥) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٦) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٧) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٨) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١٠٩) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١٠) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١١) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٢) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٣) قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٤) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٥) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٦) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٧) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صُغِيرِينَ (١١٨) وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ (١١٩) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٠) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢١) .

قوله (ثم بعثنا من بعدهم موسى) أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ؛ أي ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا هؤلاء الرسل ؛ وقيل الضمير في (من بعدهم) راجع إلى الأمم السابقة ؛ أي من بعد إهلاكهم (إلى فرعون وملأه) فرعون هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالة وملأ فرعون : أشرف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم ، لأن من عداهم كالأتباع لهم . قوله (فظلموا بها) أي كفروا بها . وأطلق

الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التي جاء بها موسى كان كفراً متبالغا لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة التي جاءهم بها والمراد بالآيات هنا : هي الآيات التسع ، أو معنى (فظلموا بها) ظلموا الناس بسببها لما صدّوهم عن الإيمان بها ، أو ظلموا أنفسهم بسببها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أي المكذبين بالآيات الكافرين بها وجعلهم مفسدين ، لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد . قوله (وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين) أخبره بأنه مرسل من الله إليه وجعل ذلك عنوانا لكلامه معه ، لأن من كان مرسلا من جهة من هو رب العالمين أجمعين فهو حقيق بالقبول لما جاء به كما يقول من أرسله الملك في حاجة إلى رعيته : أنا رسول الملك إليكم ثم يحكى ما أرسل به فإن في ذلك من تربية المهابة وإدخال الروعة مالا يقادر قدره . قوله (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) قرئ حقيق على أن لا أقول : أي واجب على ولازم لي أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق ، وقرئ (حقيق على أن لا أقول) بدون ضمير في على ؛ قيل في توجيهه أن على معنى الباء : أي حقيق بأن لا أقول ، ويؤيده قراءة أبي والأعمش فإنهما قرآه حقيق بأن لا أقول ؛ وقيل إن (حقيق) مضمن معنى حريص ؛ وقيل إنه لما كان لازما للحق كان الحق لازما له ، فقول الحق حقيق عليه وهو حقيق على قول الحق ؛ وقيل إنه أغرق في وصف نفسه في ذلك المقام حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله . وقرأ عبد الله بن مسعود : حقيق أن لا أقول ، بإسقاط على ، ومعناها واضح ثم قال بعد هذا (قد جئكم بيينة من ربكم) أي بما يتبين به صديق وأني رسول من رب العالمين . وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاوراة كما في موضع آخر أنه قال فرعون - فن ربكما يا موسى - ثم قال بعد جواب موسى - وما رب العالمين - الآيات الحاكية لما دار بينهما . قوله (فأرسل معي بني إسرائيل) أمره بأن يدع بني إسرائيل يذهبون معه ويرجعون إلى أوطانهم وهي الأرض المقدسة . وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم والقاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فلما قال ذلك (قال) له فرعون (إن كنت جئت بآية) من عند الله كما تزعم (فائت بها) حتى نشاهدها وننظر فيها (إن كنت من الصادقين) في هذه الدعوى التي جئت بها . قوله (فأتى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) أي وضعها على الأرض فانقلبت ثعبانا : أي حية عظيمة من ذكور الحيات ، ومعنى (مبين) أن كونها حية في تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه (ونزع يده) أي أخرجها وأظهرها من جيبه أو من تحت إبطه وفي التنزيل - وأدخل يده في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء - . قوله (فإذا هي بيضاء للناظرين) أي فإذا يده التي أخرجها بيضاء تتلأ لتلأ نوراً يظهر لكل مبصر (قال الملأ) أي الأشراف (من قوم فرعون) لما شاهدوا انقلاب العصا حية ، ومصير يده بيضاء من غير سوء (إن هذا) أي موسى (لساحر عليم) أي كثير العلم بالسحر ولا تنافي بين نسبة هذا القول إلى الملأ هنا وإلى فرعون في سورة الشعراء فكلهم قد قالوه ، فكان ذلك مصححا لنسبته إليهم تارة وإليه أخرى ، وبجمله (يريد أن يخرجكم من أرضكم) وصف لساحر ، والأرض المنسوبة إليهم هي أرض مصر : وهذا من كلام الملأ ، وأما (فإذا تأمرون) فقيل هو من كلام فرعون ، قال للملأ لما قالوا بما تقدم : أي بأي شيء تأمروني ؛ وقيل هو من كلام الملأ : أي قالوا لفرعون بأي شيء تأمرنا وخاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيما له كما يخاطب الرؤساء أتباعهم ، وما في موضع نصب بالفعل الذي بعدها ، ويجوز أن تكون ذا بمعنى الذي كما ذكره النحاة في ماذا صنعت ، وكون هذا من كلام فرعون هو الأولي بدليل ما بعده وهو (قالوا أرجه وأخاه) قال الملأ جوابا لكلام فرعون حيث استشارهم وطلب ما عندهم من الرأي أرجه : أي أخره وأخاه يقال أرجأته وأرجيته : أخرته . قرأ عاصم والكسائي وحزرة وأهل المدينة : أرجه ، بغير همز ، وقرأ الباقون بالهمز

وقرأ أهل الكوفة إلا الكسائي أرجه بسكون الهاء . قال القراء : هي لغة للعرب يقفون على الهاء في الوصل ، وأنكر ذلك البصريون ، وقيل معنى أرجه : احبسه ؛ وقيل هو من رجا يرجو : أى أطمعه ودعه يرجوك ، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد (وأرسل في المدائن حاشرين) أى أرسل جماعة حاشرين في المدائن التي فيها السحرة . وحاشرين مفعول أرسل ؛ وقيل هو منصوب على الحال ، و (يأتوك) جواب الأمر : أى يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم (بكل سحر عليم) أى بكل ماهر في السحر كثير العلم بصناعته . قرأ أهل الكوفة إلا عاصم « سحر » وقرأ من عداهم « ساحر » . قوله (وجاء السحرة فرعون) في الكلام طي : أى فبعث في المدائن حاشرين وجاء السحرة فرعون . قوله (قالوا إن لنا لأجرا) أى فلما جاءوا فرعون قالوا له إن لنا لأجرا ، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : أى شيء قالوا له لما جاءوه ؟ والأجر الجائزة والجعل ، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جملا إن غلبوا موسى بسحرهم . قرأ نافع وابن كثير « إن لنا » على الإخبار ، وقرأ الباقون « أئن لنا » على الاستفهام ، استفهموا فرعون عن الجعل الذي سيجعله لهم على الغلبة ، ومعنى الاستفهام التقرير . وأما على القراءة الأولى فكأنهم قاطعون بالجعل وأنه لا بد لهم منه ، فأجابهم فرعون بقوله (نعم وإنكم لمن المقربين) أى إن لكم لأجرا وإنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا . قوله (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملحقين) هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون نعم وإنكم لمن المقربين . والمعنى : أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بإلقاء ما يلقيه عليهم أو يبتدئوه هم بذلك تأديبا معه وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون وإن تأخروا ، وأن في موضع نصب . قاله الكسائي والقراء : أى إما أن تفعل الإلقاء أو نفعله نحن . فأجابهم موسى بقوله (ألقوا) اختار أن يكونوا المتقدمين عليه بإلقاء ما يلقونه غير مبال بهم ولا هائب لما جاءوا به . قال القراء : في الكلام حذف . المعنى : قال لهم موسى إنكم لن تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياته ؛ وقيل هو تهديد : أى ابتدئوا بالإلقاء فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح والموجب للذين التأويلين عند من قال بهما أنه لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر (فلما ألقوا) أى حبالمهم وعصبيهم (نهروا أعين الناس) أى قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها بما جاءوا به من التويه والتخييل الذي يفعله المشعوذون وأهل الخفة (واسترهبوهم) أى أدخلوا الرهبة في قلوبهم إضعافا شديدا (وجاءوا بسحر عظيم) في أعين الناظرين لما جاءوا به . وإن كان لاحقيقة له في الواقع . قوله (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك) أمره الله سبحانه عند أن جاء السحرة بما جاءوا به من السحر أن يلقى عصاه (فإذا هي) أى العصا (تلقف ما يأفكون) قرأ حفص (تلقف) بإسكان اللام وتخفيف القاف من لقف يلقف . وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف من تلقف يتلقف ، يقال لقفت الشيء وتلقفته : إذا أخذته أو بلغته . قال أبو حاتم : وبلغنى في بعض القراءات تلقم بالميم والتشديد ، قال الشاعر :

أنت عصا موسى التي لم تزل تلقم ما يافكه الساحر

وه ما في (ما يأفكون) مصدرية أو موصولة : أى إفكهم أو ما يافكونه ، هما إفكا ، لأنه لاحقيقة له في الواقع بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة (فوق الحق) أى ظهر وتبين لما جاء به موسى (وبطل ما كانوا يعملون) من سحرهم : أى تبين بطلانه (فغلبوا) أى السحرة (هنالك) أى في الموقف الذي أظهروا فيه سحرهم (وانقلبوا) من ذلك الموقف (صاغرين) أذلاء مقهورين (وألقى السحرة ساجدين) أى خروا ساجدين كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود أولم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا أنفسهم . وجملة (قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ماذا قالوا عند سجودهم أو في سجودهم . وإنما قالوا هذه المقالة وصرحوا

بأنهم آمنوا برب العالمين ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا : رب موسى وهارون لثلاثتهم متوهم من قوم فرعون المقرين بإلهيته أن السجود له .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ثم بعثنا موسى) قال : إنما سمي موسى ، لأنه ألقى بين ماء وشجر فالماء بالقبطية مو والشجر سى . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد : أن فرعون كان فارسيا من أهل إصطخر . وأخرج أيضا عن ابن لهيعة : أنه كان من أبناء مصر . وأخرج أيضا وأبو الشيخ عن محمد بن المنكدر قال : عاش فرعون ثلثمائة سنة . وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة أن فرعون كان قبطيا ولد زنا طوله سبعة أشبار . وأخرج أيضا عن الحسن قال : كان عرجا من همدان . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم بن مقسم الهذلي قال : مكث فرعون أربعمائة سنة لم يصدع له رأس . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (فألقى عصاه) قال : ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم أعطاه إياها ملك حين توجه إلى مدين ، فكانت تضىء بالليل ويضرب بها الأرض بالنهار فتخرج له رزقه ويهش بها على غنمه (فإذا هي ثعبان مبين) قال : حية تكاد تساوره . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ماتجاوز مرفقيه ، فاستأذن على فرعون فقال أدخلوه ، فدخل فقال : إن إلهي أرسلني إليك ، فقال للقوم حوله : ما علمت لكم من إله غيري ، فخلوه . قال : إني قد جئتكم بآية ، قال : فأتت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فصارت ثعبانا بين لحييه ما بين السقف إلى الأرض ، وأدخل يده في جيبه فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار ، فخرروا على وجوههم وأخذ موسى عصاه ثم خرج ليس أحد من الناس إلا نفر منه ، فلما أفاق وذهب عن فرعون الروح قال للملأ حوله : ماذا تأمروني (قالوا أارجد وخاه) ولاتأنا به ولا يقربنا (وأرسل في المدائن حاشرين) وكانت السحرة يخشون من فرعون ، فلما أرسل إليهم قالوا : قد احتاج إليكم إلهكم ؟ قال : إن هذا فعل كذا وكذا ، قالوا : إن هذا ساحر سحر (إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين) . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : عصى موسى اسمها ماشا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن طرق عنه في قوله (فإذا هي ثعبان مبين) قال : الحية الذكر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (فإذا هي ثعبان مبين) قال : الذكر من الحيات فاتحة فيها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب ، فأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك ، فصاح يا موسى خذها وأنا أو من يربك وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذها موسى فصارت عصا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (أرجه) قال : أخره . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : أحبسه وأخاه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس عن طرق في قوله (وأرسل في المدائن حاشرين) قال : الشرط . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (وجاء السحرة) قال : كانوا سبعين رجلا أصبحوا محرة وأمسوا شهداء :

وقد اختلفت كلمة السلف في عددهم ؛ فقليل كانوا سبعين كما قال ابن عباس ، وقيل كانوا اثني عشر ، وقيل خمسة عشر ألفا . وقيل سبعة عشر ألفا . وقيل تسعة عشر ألفا ، وقيل ثلاثين ألفا ، وقيل سبعين ألفا ، وقيل ثمانين ألفا . وقيل ثلثمائة ألف ، وقيل تسعمائة ألف . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (إن لنا لأجرا) أي عطاء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فلما ألقوا) قال : ألقوا حبلا غلاظا وخشبا طولا ، فأقبلت يخبل إليه من سحرهم أنها تسمى . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي قال : ألقى موسى

عصاه فأكلت كل حبة لهم ، فلما رأوا ذلك سجدوا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن مجاهد في قوله (تلقف ما يأفكون) قال : ما يكذبون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (تلقف ما يأفكون) قال : تسترطجهم وعصبيهم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : التقى موسى وأمير السحرة . فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ماجئت به حق ؟ فقال الساحر : لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر ، فوالله لئن غلبتني لأؤمنن بك ولأشهدن أنه حق ، وفرعون ينظر إليهما وهو قول فرعون (إن هذا لكم مكرتموه في المدينة) . وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال : لما خر السحرة سجدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها .

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَا قُطْعَنٌ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلْفٍ ثُمَّ لَا صَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) .

قوله (آمنتم به) قرئ بخذف الهمزة على الإخبار وبإثباتها . أنكر على السحرة فرعون إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك ، ثم قال بعد الإنكار عليهم مبينا لما هو الحامل لهم على ذلك في زعمه (إن هذا لكم مكرتموه في المدينة) أي حيلة احتلتموها أنتم وموسى عن مواطأة بينكم سابقة (لتخرجوا) من مدينة مصر (أهلها) من القبط وتستولوا عليها وتسكنوا فيها أنتم وبنو إسرائيل . ومعنى (في المدينة) أن هذه الحيلة والمواطأة كانت بينكم وأنتم بالمدينة مدينة مصر قبل أن تبرزوا أنتم وموسى إلى هذه الصحراء ، ثم هددهم بقوله (فسوف تعلمون) عاقبة صنعكم هذا وسوء مغبته ، ثم لم يكتف بهذا الوعيد المجمل بل فصله فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف) أي الرجل اليمنى واليد اليسرى ، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى ، ثم لم يكتف عدو الله بهذا ، بل جلوزه إلى غيره فقال (ثم لأصلبنكم) في جفوع النخل : أي أجعلكم عليها مصلوبين زيادة تنكيل بهم وإفراطا في تعذيبهم ، وجملة (قالوا) إلى ربنا متقلبون) استثنائية جواب سؤال كما تقدم ، ومعناه : إنك وإن فعلت بنا هذا للفعل فتعدّه يوم الجزاء سيجازيك

الله بصنعك ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته . فتوعدوه يعذاب الله في الآخرة لما توعدهم بعذاب الدنيا . ويحتمل أن يكون المعنى : (إنا إله ربنا منقلبون) بالموت : أى لا بد لنا من الموت ولا يضرنا كونه بسبب منك . قوله (وما نطمئنا) قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش : هي لغة . وقرأ الباقر بكسرها ، يقال نطمئ الأمر أنكزته : أى لست تعيب علينا وتنكر منا (إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل ، ومثله لا يكون موضعاً للعيب ومكاناً للإنكار . بل هو حقيق بالثناء الحسن والاستحسان البالغ ، ثم تركوا خطابه وقطعوا الكلام معه والتفتوا إلى خطاب الجناح العلى مفوضين الأمر إليه طالبين منه عز وجل أن يثبتهم على هذه الحقنة بالصبر قائلين (ربنا أفرغ علينا صبراً) الإفرغ : الصب : أى أصببه علينا حتى يفيض ويغمرنا : طلبوا أبلغ أنواع الصبر استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله وتوطئنا لأنفسهم على التصلب في الحق وثبوتهم على الإيمان . ثم قالوا (وتوفنا مسلمين) أى توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محترفين ولا مبدلين ولا مفتونين ولقد كان ما هم عليه من السحر والمهارة في علمه مع كونه شراً محضاً سبباً للفوز بالسعادة . لأنهم علموا أن هذا الذي جاء به موسى خارج عن طوق البشر وأنه من فعل الله سبحانه فوصلوا بالشر إلى الخير ولم يحصل من غيرهم ممن لا يعرف هذا العلم من أتباع فرعون ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان ، وإذا كانت المهارة في علم الشر قد تآتى بمثل هذه الفائدة فما بالك بالمهارة في علم الخير ، اللهم انفعنا بما علمتنا ، وثبت أقدامنا على الحق ، وأفرغ علينا بحال الصبر وتوفنا مسلمين . قوله (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض) هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه : أى أتركه وقومه ليفسدوا في الأرض بإيقاع الفرقة وتشيت الشمل . والمراد بالأرض هنا : أرض مصر . قوله (وينرك وآهلك) قرأ نعيم بن ميسرة وينرك بالرفع على تقدير مبتدأ : أى وهو ينرك أو على العطف على (أتذر موسى) : أى أتذر وينرك ، وقرأ الأشهب العقيلي (وينرك) بالجرم : إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة . أو على ما قيل في - وأكن من الصالحين - في توجيه الجزم . وقرأ أنس بن مالك « وينرك » بالنون والرفع ، ومعناه : أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيئرونه وآلته . وقرأ الباقر « وينرك » بالنصب بأن مقدرة على أنه جواب الاستفهام والواو نائية عن الفاء أو عطفاً على (يفسدوا) أى ليفسدوا ، ولينرك لأنهم على الفساد في زعمهم . وهو يؤدى إلى ترك فرعون وآلته :

واختلف المفسرون في معنى (وآهلك) لكون فرعون كان يدعى الربوبية كما في قوله - ما علمت لكم من إله غيرى - . وقوله - أنا ربكم - فقيل معنى وآهلك : وطاعتك ، وقيل معناه : وعبادتك ، ويؤيده قراءة على وابن عباس والضحاك « وآهلك » وفي حرف أبي « أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك » وقيل إنه كان يعبد بقرة . وقيل كان يعبد النجوم . وقيل كان له أصنام يعبدها قومه تقريباً إليه فنسبت إليه ولهذا قال - أنا ربكم الأعلى - قاله الزجاج . وقيل كان يعبد الشمس . فقال فرعون محيياً لهم ومثبتاً لقلوبهم على الكفر (سنقتل أبناءهم) . قرأ نافع وابن كثير « سنقتل » بالتخفيف . وقرأ الباقر بالتشديد : أى سنقتل الأبناء ونستحيي النساء : أى نتركهن في الحياة . ولم يقل سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه (وإنا فوقهم قاهرون) أى مستعلون عليهم بالقهر والغلبة أو هم تحت قهرنا وبين أيدينا ، ماشئنا أن تفعله بهم فطنا ، وجملة (قال موسى لقومه) مستأنفة جواب سؤال مقدر . لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على الحقنة ، ثم أخبرهم (أن الأرض) يعنى أرض مصر (لله يورثها من يشاء من عباده) أو جنس الأرض ، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه ، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم . ثم بشرهم بأن العاقبة للمتقين : أى العاقبة المحمودة

في الدنيا والآخرة للمتقين من عباده ، وهم موسى ومن معه . وعاقبة كل شيء آخره . وقرئ « والعاقبة » بالنصب مطلقا على الأرض ، وجملة (قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) مستأنفة جواب سؤال مقدّر كالتي قبلها : أي أؤذينا من قبل أن تأتينا رسولا وذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده (ومن بعد ما جئتنا) رسولا بقتل آبائنا الآن ، وقيل المعنى أؤذينا من قبل أن تأتينا باسعمالنا في الأعمال الشاقة بغير جعل (ومن بعد ما جئتنا) بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا ، وقيل إن الأذى من قبل ومن بعد واحد ، وهو قبض الجزية منهم ، وجملة (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم) مستأنفة كالتي قبلها ، وعدم بآهلاك الله لعدوكم ، وهو فرعون وقومه . قوله (ويستخلفكم في الأرض) هو تصريح بما رمز إليه سابقا من أن الأرض لله . وقد حقق الله رجاءه وملكوا مصر في زمان داود وسليمان وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون ، وأهلك فرعون وقومه بالفرق وأنجاهم (فينظر كيف تعملون) من الأعمال بعد أن يمن عليكم بآهلاك عدوكم (ويستخلفكم في الأرض) فيجازيكم بما عملتم فيه من خير وشر .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) إذا التقينا لظاهرا فتخرجنا منها أهلها (لأقطعن أيديكم) الآية ، قال : فقتلهم وقطعهم كما قال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان أول من صلب فرعون ، وهو أول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله (من خلاف) قال : يدا من هاهنا ورجلا من هاهنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) قال : من قبل إرسال الله إياك ومن بعده . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه في الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسى كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا ، فلما جئت كلفنا اللبن مع اللبن أيضا ، فقال موسى : أي رب أهلك فرعون ، حتى متى تبقيه ؟ فأوحى الله إليه إنه لم يعملوا الذنب الذي أهلكهم به . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : حزا لعدو الله حاز أنه يولد في العام غلام يسلب ملكك ، قال : فتنبع أولادهم في ذلك العام بذبح الذكر منهم ، ثم ذبحهم أيضا بعد ما جاءهم موسى . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن بنا أهل البيت يفتح ويختم ، ولا بد أن تقع دولة لبني هاشم فانظروا فيمن تكون من بني هاشم ؟ وفيهم تزلت (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) وينبغي أن ينظر في صحة هذا عن ابن عباس ، فالآية نازلة في بني إسرائيل لاني بني هاشم واقعة في هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون .

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسُّنَيْنِ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٢١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٢٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْأَلَمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٢٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ

قَالُوا يَمُوسَى أَذْعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ. لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنَى إِسْرَءِيلَ (١٢٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٢٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٢٦).

المراد بآل فرعون هنا قومه ، والمراد بالسنين الجذب ، وهذا معروف عند أهل اللغة ، يقولون أصابهم سنة : أى جذب سنة ، وفي الحديث « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » وأكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المذكر السالم ، ومن العرب من يعربه إعراب المفرد ويجرى الحركات على النون ، وأنشد القراء :

أرى مرَّ السنين أخذن منى كما أخذ السرار من المسلال

بكسر النون من السنين . قال النحاس : وأنشد سيويه هذا البيت بفتح النون :

أقول قد ورد مالا احتمال فيه وهو قول الشاعر :

وماذا تزدري الأقوام منى وقد جاوزت حدَّ الأربعين

وبعده : أخو الخمسين مجتمع أشدى وتجذبني مداورة السنين

فإن الأبيات قبله وبعده مكسورة . وأول هذه الأبيات :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا منى أضع العمامة تعرفونى

وحكى القراء عن بنى عامر أنهم يقولون : أقمت عنده سنينا مصروفا ، قال : وبنو تميم لا يصرفونه ، ويقال أسنت القوم : أى أجذبوا ، ومنه قول ابن الزبير « ورجال مكة مسنتون عجاف » (ونقص من الثمرات) بسبب عدم نزول المطر وكثرة العاهات (لعلهم يذكرون) فينعظون ويرجعون عن غوايتهم . قوله (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه) أى الحصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر وصلاح الثمرات ورخاء الأسعار (قالوا لنا هذه) أى أعطيناها باستحقاق ، وهى مختصة بنا (وإن تصبهم سيئة) أى خصلة سيئة من الجذب والقحط وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء (يطيروا يموسى ومن معه) أى يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به ، والأصل يتطيروا أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة (تطيروا) على أنه فعل ماض ، وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات ، ثم استعمل بعد ذلك فى كل من تشاءم بشئ ، ومثل هذا قوله تعالى (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) قيل : ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع ، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها . قوله (ألا إنما طائرهم عند الله) أى سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط هو من عند الله ليس بسبب موسى ومن معه ، وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه ، ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذى يجرى بقدر الله وحكمته ومشيتته (ولكن أكثرهم لا يعلمون) بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلا منهم . وقرأ الحسن « طيرهم » قوله (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) قال الخليل : أصل مهما « ماء الشرطية زيدت عليه » ما ، التى للتوكيد كما تراد فى سائر الحروف مثل : حيثما وأينما وكيفما ومنى ما ، ولكنهم كرموا

اجتماع المثليين فأبدلوا ألف الأولى هاء . وقال الكسائي : أصله مه : أى اكفف ما تأتينا به من آية . وزيدت عليها هاء الشرطية ، وقيل هى كلمة مفردة يجازى بها ، ونحل مهما الرفع على الابتداء ، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها ، ومن آية لبيان مهما ، وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيد ما بعده ، وهو (لتسحرنا بها) أى لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم ، والضمير فى به عائد إلى مهما ، والضمير فى بها عائد إلى آية ؛ وقيل إنهما جميعا عائدان إلى مهما ، وتذكير الأول باعتبار اللفظ ، وتأنيت الثانى باعتبار المعنى (فأنحن لك بمؤمنين) جواب الشرط : أى فأنحن لك بمصدقين : أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يمجىء به من الآيات التى هى فى زعمهم من السحر ، فعند ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المينة بقوله (فأرسلنا عليهم الطوفان) وهو المطر الشديد . قال الأخفش : واحده طوفانة ، وقيل هو مصدر كالرجحان والتقصان فلا واحده ، وقيل الطوفان : الموت . وقال النحاس : الطوفان فى اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل : أى ما يطيف بهم فيهلكهم (والجراد) هو الحيوان المعروف أرسله الله لأكل زروعهم فأكلها (والقمل) قيل : هى الدباء ؛ والدباء الجراد قبل أن تطير ، وقيل هى السوس ، وقيل البراغيث ، وقيل دواب سود صفار ، وقيل ضرب من القردان ، وقيل الجعلان . قال النحاس : يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم . وقرأ الحسن « القمل » بفتح القاف وإسكان الميم . وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة . وقد فسر عطاء الخراسانى « القمل » بالقمل (والضفادع) جمع ضفدع وهو الحيوان المعروف الذى يكون فى الماء (والدم) روى أنه سال النيل عليهم دما ، وقيل هو الرعاف . قوله (آيات مفصلات) أى مبيّنات ، قال الزجاج : هو منصوب على الحال . والمعنى : أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات (فاستكبروا) أى ترفعوا عن الإيمان بالله (وكانوا قوما مجرمين) لا يهتمون إلى حق ولا ينزعون عن باطل . قوله (ولما وقع عليهم الرجز) أى العذاب بهذه الأمور التى أرسلها الله عليهم ، وقرئ بضم الراء وهما لغتان ، وقيل كان هذا الرجز طاعونا مات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى بما استودعك من العلم ، أو بما اختصك به من النبوة ، أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك . والباء متعلقة بادع على معنى أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله ، أو ادع لنا متوسلا إليه بعهدك عندك ، وقيل إن الباء للقسم ، وجوابه لنؤمنن : أى أقسمنا بعهد الله عندك (لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك) على أن جواب الشرط سدى مسدّ جواب القسم ؛ وعلى أن الباء ليست للقسم تكون اللام فى (لئن كشفت عنا الرجز) جواب قسم محطوف ، و (لنؤمنن) جواب الشرط ساد مسدّ جواب القسم (ولرسلن معك بنى إسرائيل) معطوف على لنؤمنن ، وقد كانوا حاسبين لبنى إسرائيل عندهم يمتنونهم فى الأعمال فوعده بإرسالهم معه (فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه) أى رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا إلى موسى وسألوه بما سألوه ، لكن لارفعنا مطلقا ، بل رفعنا مقيدا بغاية هى الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق ، وجواب لما (إذا هم ينكثون) أى يتقضون ما عقدوه على أنفسهم . وإذا هى القجائية : أى فاجثوا النكث وبادروه (فانتقمنا منهم) أى أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب المتعددة (فأغرقناهم فى اليم) أى فى البحر ، قيل هو الذى لا يدرك قعره . وقيل هو بلخته وأوسطه ، وجملة (بأنهم كذبوا بآياتنا) تعليل للإغراق (وكانوا عنها غافلين) معطوف على كذبوا : أى كانوا غافلين عن النعمة المدلول عليها بانتقمنا ، أو عن الآيات التى لم يؤمنوا بها بل كذبوا بها وكانوا فى تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها ، والثانى أولى لأن الحملتين تعليل للإغراق .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود (ولقد أخذنا آل

فرعون بالسنين) قال : السنين الجوع . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : السنين الجوائح (ونقص من الثمرات) دون ذلك . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شيء لم ، وذهبت مواشيتهم حتى يبس نيل مصر . واجتمعوا إلى فرعون . فقالوا : إن كنت كما تزعم فائقنا في نيل مصر بماء . قال : غلوة يصحبكم الماء فلما خرجوا من عنده قال : أي شيء صنعت إن لم أقدر على أن أجرى في نيل مصر ماء غلوة كذبوني ؟ فلما كان جوف الليل قام فاغتسل ولبس مدرجة صوف ثم خرج حافيا حتى أتى نيل مصر فقال : اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء ، فما علم إلا يجزر الماء يقبل فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فإذا جاءهم الحسنة) قال : العافية والرخاء (قالوا لنا هذه) نحن أحق بها (وإن نصيبهم سيئة) قال : بلاء وعقوبة (يطيروا بموسى) قال : يتشاءموا به . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (ألا إنما طائرهم عند الله) قال : الأمر من قبل الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الطوفان الموت ، قال ابن كثير : هو حديث غريب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الطوفان الفرق . وأخرج مؤلفه عن مجاهد قال : الطوفان الموت على كل حال . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الطوفان : مطروا دائما بالليل والنهار ثمانية أيام . والقمل : الجراد الذي له أجنحة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : الطوفان أمر من أمر ربك ، ثم قرأ - فطاف عليها طائف من ربك - . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الطوفان الماء والطاعون والجراد . قال يأكل مسامير أرتجهم : يعنى أبوابهم وثيابهم . والقمل الدباء والضفادع تسقط على فرشهم وفي أطعمتهم ، والدم يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : القمل الدباء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدر وهي تغلى ، وفي التناير وهي تفور . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سال النيل دما فكان الإسرائيلي يستقي ماء طيبا ، ويستقي الفرعون دما . ويشتركان في إناء واحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء طيبا وما يلي الفرعوني دما . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله (والدم) قال : سلط الله عليهم الرعاف . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : مكث موسى في آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين سنة يريهم الآيات والجراد والقمل والضفادع . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (آيات مفصلات) قال : كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضا ليكون لله الحجة عليهم . وأخرج ابن المنذر عنه قال : يتبع بعضها بعضا تمكث فيهم سبتا إلى سبت ثم ترفع عنهم شهرا . وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الرجز : العذاب » . وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : الرجز الطاعون . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (إلى أجل هم بالقوه) قال : الفرق . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : اليم البحر . وأخرج أيضا عن السدي مثله .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١).

قوله (وأورثنا القوم) يعنى بنى إسرائيل (الذين كانوا يستضعفون) أى يذلون ويمتهون بالخدمة لفرعون وقومه (مشارق الأرض ومغاربها) منصوبان بأورثنا . وقال الكسائى والفراء : إن الأصل فى مشارق الأرض ومغاربها ثم حذفت « فى » فنصبها ، والأول أظهر لأنه يقال أورثته المال ، والأرض هى مصر والشام ، ومشارقها جهات مشرقها . ومغاربها جهات مغربها ، وهى التى كانت لفرعون وقومه من القبط ؛ وقيل المراد جميع الأرض لأن داود وسليمان من بنى إسرائيل ، وقد ملكا الأرض . قوله (التى باركنا فيها) صفة للمشارق والمغارب ؛ وقيل صفة الأرض والمباركة فيها لإخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون وأنفع ما ينفق . قوله (وتمت كلمة ربك الحسنى) أى مضت واستمرت على التمام والكلمة هى - ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين - ، وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم ، والحسنى : صفة للكلمة ، وهى تأنيث الأحسن ، وتتمام هذه الكلمة (على بنى إسرائيل) بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه . قوله (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) التدمير الإهلاك : أى أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات (وما كانوا يعرشون) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم « يعرشون » بضم الراء . قال الكسائى : هى لغة تميم . وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة « يعرشون » بتشديد الراء وضم حرف المضارعة . وقرأ الباقر بكسر الراء مخففة أى ما كانوا يعرشونه من الجنات ، ومنه قوله تعالى - وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات - وقيل معنى يعرشون يبنون ، يقال عرش عرش : أى بنى يبنى . قوله (وجاوزنا بنى إسرائيل البحر) هذا شروع فى بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه . ومعنى جاوزنا بنى إسرائيل البحر جزناه بهم وقطعناه . وقرئ « جاوزنا » بالتشديد ، وهو بمعنى قراءة الجمهور (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) قرأ حمزة والكسائى « يعكفون » بكسر الكاف ، وقرأ الباقر بضمها ، يقال عكف يعكف : ويعكف بمعنى أقام على الشئ ولزمه ، والمصدر منهما عكوف ؛ قيل هؤلاء القوم الذين أتاهم بنو إسرائيل هم من تخم كانوا نازلين بالركة ، كانت أصنامهم تماثيل بقر ؛ وقيل كانوا من الكنعانيين (قالوا) أى بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل (يا موسى اجعل لنا إلها) أى صنما نعبد كائن كالذى هؤلاء القوم فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة لإلها ، فأجاب عليهم موسى ، (وقال إنكم قوم تجهلون) وصفهم بالجهل لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزرى من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله ، ولكن هؤلاء القوم : أعنى بنى إسرائيل أشد خلق الله عنادا وجهلا وتلوتا . وقد سلف فى سورة البقرة بيان

ما جرى منهم من ذلك ، ثم قال لهم موسى (إن هؤلاء) يعنى القوم العاكفين على الأصنام (متبر ما هم فيه) التبار
الهلاك . وكل إناء منكسر فهو متبر : أى أن هؤلاء هالك ما هم فيه مدمر مكسر ، والذي هم فيه هو عبادة الأصنام
أخبرهم بأن هذا الدين الذى هؤلاء القوم عليه هالك مدمر لا يتم منه شئ . قوله (وباطل ما كانوا يعملون) أى
ذاهب مضى محل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام . قال فى الكشف : وفى إيقاع هؤلاء
اسما لأن وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها . وسم لعبد الأصنام بأنهم هم المعترضون للتبار . وأنه
لا يعلمهم ألبتة ، وأنه لهم ضربة لازب ليحذروهم عاقبة ما طلبوا وتبغض إليهم ما أحبوا . قوله (أغير الله أبغىكم إلها)
الاستفهام للإنكار والتوبيخ : أى كيف أطلب لكم غير الله إلها تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكتفى البعض
منه ؟ والمعنى : أن هذا الذى طلبتم لا يكون أبدا ، وإدخال الهمة على غير للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى
غيره سبحانه إلها ، وغير مفعول للفعل الذى بعده ، وإلها تمييز أو حال . وجملة (وهو فضلكم على العالمين) فى محل
نصب على الحال : أى والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنتم به عليكم من إهلاك عدوكم واستخلافكم
فى الأرض وإخراجكم من الدل والهوان إلى العز والرفعة فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره . قوله (وإذا
أنجيناكم من آل فرعون) أى واذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون بعد أن كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيما
يريدونه منكم ويمتهنونكم بأنواع الامتهانات ، هذا على أن هذا الكلام محكى عن موسى ، وأما إذا كان فى حكم
الخطاب لليهود الموجودين فى عصر محمد ، فهو بمعنى اذكروا إذ أنجيناكم من آل فرعون ، وجملة (يسومونكم
سوء العذاب) فى محل نصب على الحال : أى أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم (يسومونكم سوء العذاب) ،
ويحوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه . وجملة (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم) مفسرة للجملة
التي قبلها ، أو بدل منها . وقد سبق بيان ذلك ، والإشارة بقوله (وفى ذلكم) إلى العذاب : أى فى هذا العذاب
الذى كنتم فيه (بلاء) عليكم (من ربكم عظيم) وقيل الإشارة إلى الإنجاء ، والبلاء النعمة . والأول أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله
(مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) قال : الشام . وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله . وأخرج ابن عساكر
عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن شاذب قال : هى فلسطين ، وقد روى عن النبى صلى
الله عليه وآله وسلم فى فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن
جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وتمت كلمت ربك الحسنى) قال : ظهور قوم
موسى على فرعون وتمكين الله لهم فى الأرض وما ورثهم منها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ٧ عن ابن عباس فى قوله
(وما كانوا يعرشون) قال : يبنون . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (فأتوا على قوم يعكفون
على أصنام لهم) قال : نلهم وجدام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي عمران الجوفى
مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامرى شبه
لهم أنه من تلك البقر ، فذلك كان أول شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة فينتقم منهم بعد ذلك . وأخرج ابن أبي
شيبة وأحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه
عن أبي واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل حنين فررنا بسدرة ، فقلت : يا رسول
الله اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط . وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم ، وأخرج نحوه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعا ، وكثير ضعيف جدا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (متبر) قال : خسران . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال : هلاك .

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) .

هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه . والثلاثين هي ذو القعدة . والعشر هي عشر ذي الحجة ضرب الله هذه المدة موعدا لمناجاة موسى ومكالمته ، قيل وكان التكليم في يوم النحر . والفائدة في (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون ليلا يتوهم وأن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها فيبين أن العشر غير الثلاثين ، وأربعين ليلة منصوب على الحال : أي فتم حال كونه بالغاً أربعين ليلة . قوله (وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي) أي كن خليفتي فيهم ، قال موسى هذا لما أراد المضي إلى المناجاة (وأصلح) أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم (ولا تتبع سبيل المفسدين) أي لا تسلك سبيل الغاصبين ولا تكن عوناً للظالمين .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس في قوله (وواعدنا موسى) الآية قال ذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : إن موسى قال لقومه : إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هارون فيكم ، فلما فصل موسى إلى ربه زاده الله عشرا فكانت فتنهم في العشر التي زاده الله ، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل ، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب ، ثم ذكر قصة السامري .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَةِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ

الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١١٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٧) .

اللام في (لميقاتنا) للاختصاص : أى كان محييه مختصا بالمليقات المذكور بمعنى أنه جاء في الوقت الموعود (وكلمه ربه) أى أسمعه كلامه من غير واسطة . قوله (أرني أنظر إليك) أى أرني نفسك أنظر إليك : أى سأله للنظر إليه اشتياقا إلى رؤيته لما أسمعه كلامه . وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة ، ولو كانت مستحيلة عنده لما سأله ، والجواب بقوله (لن تراني) يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذى طلب رؤيته فيه ، أو أنه لا يرى مادام الرائي حيا في دار الدنيا . وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال في مثل هذا والمراوغة لاتأتى بفائدة ، ومنهج الحق واضح ، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب ، والمتعصب وإن كان بصره صحيحا فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه مادفع غير الباطل ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم ، وما أقل المنصفين بعد ظهوره هذه المذاهب في الأصول والفروع فإنه صار بها باب الحق مرتجا ، وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه ، والهداية منه :

بأبي الفتي إلا اتباع موسى ومنهج الحق له واضح

وجملة (قال لن تراني) مستأنفة لكونها جوابا لسؤال مقدّر كأنه قيل : فما قال الله له ؟ والاستدراك بقوله (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) معناه أنك لا تثبت لرؤيتي ولا تثبت لها ما هو أعظم منك جرما وصلابة وقوة ، وهو الجبل فانظر إليه (فإن استقر مكانه) ولم يتزلزل عند رؤيتي له (فسوف تراني) وإن ضعف عن ذلك فأنت منه أضعف ، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل ، وقيل هو من باب التعليق بالحال ، وعلى تسليم هذا فهو في الرؤية في الدنيا لما قدّمنا .

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتي المعتزلة والأشعرية : فالمعتزلة استدلوا بقوله (لن تراني) ، وبأمره بأن ينظر إلى الجبل ، والأشعرية قالوا : إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة ، ولا يخفك أن الرؤية الأخروية هي بمنزلة عن هذا كله ، والخلاف بينهم هو فيها لاني الرؤية في الدنيا فقد كان الخلاف فيها في زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف . قوله (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا) تجلّى معناه : ظهر ، من قولك جلوت العروس : أى أبرزتها ، وجلوت السيف : أخلصته من الصلأ ، وتجلّى الشيء : انكشف . والمعنى : فلما ظهر ربه للجبل جعله دكا : وقيل المتجلى : هو أمره وقدرته : قاله قطرب وغيره والدك مصدر بمعنى المفعول : أى جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا ، هذا على قراءة من قرأ دكا بالمصدر ، وهم أهل المدينة وأهل البصرة ، وأما على قراءة أهل الكوفة (جعله دكاء) على التأنيث ، والجمع دكاوات كحمراء وحمراوات ، وهي اسم للراية الناشزة من الأرض أول الأرض المستوية . فالمعنى : أن الجبل صار صغيرا كالراية أو أرضا مستوية . قال الكسائي ذلك : الجبال العراض واحدا أدك ، والدكاوات جمع دكاء ، وهي رواب من طين ليست بالغلاظ ، والدكادك : ما التبد من الأرض

فلم يرتفع ، وناقة دكاء : لاسنام لها (وخر موسى صقاً) أى مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة : والمعنى : أنه صار حاله لما غشى عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له . يقال صق الرجل فهو صق ومصعوق : إذا أصابته الصاعقة (فلما أفاق) من غشيته (قال سبحانه) أى أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئاً لم تأذن لى به (تبت إليك) عن العود إلى مثل هذا السؤال . قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فإن الأنبياء معصومون ؛ وقيل هى توبة من قتله للقبطى ، ذكره القشيري ، ولا وجه له فى مثل هذا المقام (وأنا أول المؤمنين) بك قبل قوى الموجودين فى هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك ، وجملة (قال ياموسى) مستأنفة كالتى قبلها متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به . والاصطفاء : الاجتباء والاختيار : أى اخترتك على الناس للعصرين لك برسالتى كذا قرأ نافع وابن كثير بالأفراد ، وقرأ الباقون بالجمع . والرسالة مصدر : والأصل فيه الأفراد ، ومن جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هى على ضروب فجمع لاختلاف الأنواع ، والمراد بالكلام هنا : التكليم . أمّن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام ، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه : أى أعطاه من هذا الشرف الكريم . وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل . قوله (وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) من كل شيء : أى من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى دينهم ودنياهم . وهذه الألواح : هى التوراة ، قيل كانت من زمردة خضراء ؛ وقيل من ياقوتة حمراء ، وقيل من زبرجد ، وقيل من صخرة صماء . وقد اختلف فى عدد الألواح وفى مقدار طولها وعرضها . والألواح : جمع لوح ، وسمى لوحاً لكونه تلوح فيه المعانى ، وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفاً للمكتوب فى الألواح ، وهى مكتوبة بأمره سبحانه ؛ وقيل هى كتابة خلقها الله فى الألواح ، و (من كل شيء) فى محل نصب على أنه مفعول (كتبنا) و (موعظة وتفصيلاً) بدل من محل كل شيء أى موعظة لمن يتعظ بها من بنى إسرائيل وغيرهم وتفصيلاً للأحكام المحتاجة إلى التفصيل (فخذها بقوة) أى خذ الألواح بقوة : أى بجدّ وتشايط وقيل الضمير عائد إلى الرسالات ، أو إلى كل شيء ، أو إلى التوراة ، قيل وهذا الأمر على إضمار القول : أى فقلنا له خذها ، وقيل إن (فخذها) بدل من قوله (فخذ ما آتيتك) (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أى بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره ، وهو مثل قوله تعالى - اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم - ، وقوله - فينبغون أحسنه - ، ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة ، وبالفريضة دون النافلة ، وفعل المأمور به ، وترك المنهى عنه . قوله (سأوريكم دار الفاسقين) قيل هى أرض مصر التى كانت لفرعون وقومه وقيل منازل عاد وثمود ، وقيل هى جهنم ، وقيل منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها ، وقيل الدار : الهلاك . والمعنى : سأريكم هلاك الفاسقين . وقد تقدّم تحقيق معنى الفسق . قوله (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) قيل معنى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون) سأمنعهم فهم كتابى ، وقيل سأصرفهم عن الإيمان بها ، وقيل سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما فى قوله - فلما زاعغوا أزاعاً الله قلوبهم - . وقيل سأطبع على قلوبهم حتى لا يفكروا فيها ولا يعتبروا بها .

واختلف فى تفسير الآيات فليل هى المعجزات ، وقيل الكتب المنزلة ، وقيل هى خلق السموات والأرض وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها ، ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعانى المذكورة و (بغير الحق) إما متعلق بقوله (يتكبرون) أى يتكبرون بما ليس بحق ، أو بمحنوف وقع حالا : أى يتكبرون متلبسين بغير الحق . قوله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) معطوف على (يتكبرون) متظلم معه فى حكم الصلة . والمعنى

سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات ، ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة ، والآيات التكوينية ، والمعجزات : أى لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت . وقرأ مالك بن دينار « يروا » بضم الياء فى الموضعين ، وجملة (وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً) معطوفة على ما قبلها داخلية فى حكمها ، وكذلك جملة (وإن يروا سبيل الغنى يتخذوه سبيلاً) والمعنى : أنهم إذا وجدوا سبيلاً من سبيل الرشداً تركوه وتجنبوه ، وإن رأوا سبيلاً من سبيل الغنى سلكوه واختاروه لأنفسهم . قرأ أهل المدينة وأهل البصرة (١) « الرشداً » بضم الراء وإسكان الشين . وقرأ أهل الكوفة لإعاصم بفتح الراء والشين . قال أبو عبيدة : فرق أبو عمرو بين الرشداً والرشداً فقال : الرشداً الصلاح والرشداً فى الدين . قال النحاس : سيؤيه يذهب إلى أن الرشداً والرشداً كالسخط والسخط . قال الكسائى : والصحيح عن أبي عمرو وغيره ما قال أبو عبيدة . وأصل الرشداً فى اللغة : أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضد الخيبة ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى الصرف : أى ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو الإشارة إلى التكبر وعدم الإيمان بالآيات ، وتجنب سبيل الرشداً ، وسلوك سبيل الغنى ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره جملة (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أى بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها ، والموصول فى (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) مبتدأ . وخبره (حبطت أعمالهم) ، والمراد بلقاء الآخرة : لقاء الدار الآخرة : أى لقاءهم لها أو لقاءهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف ، وحباط الأعمال بطلانها : أى بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وإن كانوا فى حال كفرهم لاطاعات لهم . ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم لما فى الحديث الصحيح « أسلمت على ما أسلفت من خير » . (هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون) من الكفر بالله ، والتكذيب بآياته ، وتنكب سبيل الحق ، وسلوك سبيل الغنى .

وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن كعب قال : لما كلم الله موسى قال : يارب أهذا كلامك ؟ قال : يا موسى إنما أكلمك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الألسن كلها ، ولو كلمتك بكلمة كلامى لم تك شيئاً . وأخرج البزار وابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الأسماء والصفات من حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذى كلمه به يوم ناداه فقال له موسى : يارب أهذا كلامك الذى كلمتنى به ؟ قال : يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك ، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا : يا موسى صف لنا كلام الرحمن ، فقال : لا نستطيعونه ، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التى تقتل ، فى أحلا حلاوة سمعتموه فذاك قريب منه وليس به . » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى الحويرث عبد الرحمن بن معاوية قال : إنما كلم الله موسى بقدر ما يطيق من كلامه ولو تكلم بكلامه كله لم يطقه شيء ، فكثرت موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (قال رب أرنى أنظر إليك) يقول : أعطنى أنظر إليك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : لما سمع الكلام طمع فى الرؤية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى (رب أرنى أنظر إليك) قال الله : يا موسى إنك لن ترانى ، قال يقول : ليس ترانى ولا يكون ذلك أبداً ، يا موسى إنه لن يرانى أحد فيحيا ، قال موسى رب إنى أراك ثم أموت أحب إلى من أن لأراك ثم أحيأ ، فقال الله لموسى : يا موسى انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد (فإن استقر مكانه) يقول : فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمى (فسوف ترانى) أنت لضغفك وذلك ، وإن الجبل انهد بقوة وشدة وعظمته فانت أضعف وأذل . وأخرج أحمد وعبد

(١) وقرأ كذلك ابن كثير وابن عامر وعاصم إله مصحح القرآن .

ابن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في كتاب الرواية من طرق عن أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال هكذا ، وأشار بأصبعيه ووضع إبهاميه على أعلة الخنصر ، وفي لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل (وخرّ موسى صعقا) وفي لفظ فساخ الجبل في الأرض فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة ، وهذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الجبل الذي أمره الله أن ينظر إليه الطور . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في كتاب الرواية عن ابن عباس (فلما تجلى ربه للجبل) قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر (جعله دكا) قال : ترابا (وخرّ موسى صعقا) قال : مغشيا عليه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والديلمي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لما تجلى الله للجبل طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة : أحد وورقان ورضوى ، وبمكة : حراء وثبير وثور » . وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لما تجلى الله لموسى تطايرت سبعة أجبل ، ففي الحجاز خمسة منها ، وفي اليمن اثنان ، في الحجاز : أحد وثبير وحراء وثور وورقان ، وفي اليمن : حضور وصبر » . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه فسأله فقال (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل) قال : فحفت حول الجبل الملائكة وحفت حول النار بملائكة وحفت حولهم بنار ، ثم تجلى ربه للجبل تجلى منه مثل الخنصر ، فجعل الجبل دكا وخرّ موسى صعقا ، فلم يزل صعقا ما شاء الله ، ثم أفاق فقال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عليّ ابن أبي طالب قال : كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام في لوح . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعا » . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير قال كانوا يقولون كانت الألواح من ياقوتة . وأنا أقول : إنما كانت من زمرد وكتابها الذهب ، كتبها الله بيده ، فسمع أهل السموات صريف الأقلام .

أقول : رحم الله سعيدا ما كان أغناه عن هذا الذي قاله من جهة نفسه ، فثله لا يقال بالرأى ولا بالحدس ، والذي يغلب به الظن أن كثيرا من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور ، فلهذا اختلفت واضطربت فهذا يقول من خشب ، وهذا يقول من ياقوت ، وهذا يقول من زمرد ، وهذا يقول من زبرجد ، وهذا يقول من برد ، وهذا يقول من حجر . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (وكتبنا له في الألواح من كل شيء كل شيء أمروا به ونهوا عنه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد مثله . وقد اختلف السلف في المكتوب في الألواح اختلافا كثيرا ، ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التناهي . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (فخذها بقوة) قال يجده وحزم (سأوريكم دار الفاسقين) قال : دار الكفار وأخرج ابن جرير عنه (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال : أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس (فخذها بقوة) قال : بطاعة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (فخذها بقوة) يعني يجده واجتهاد (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال : بأحسن ما يجدون منها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (سأوريكم دار الفاسقين) قال :

مصيرهم في الآخرة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة قال : منازلهم في الدنيا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : جهنم . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : مصر . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (سأصرف عن آياتي) قال : عن أن يتفكروا في آياتي . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج (عن آياتي) قال : عن خلق السموات والأرض والآيات التي فيها سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها أو يعتبروا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة في الآية قال : أنزع عنهم فهم القرآن .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٠٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٠٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبًا أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٠٠) قَالَ رَبُّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٠١) .

قوله (واتخذ قوم موسى من بعده) أي من بعد خروجه إلى الطور (من حلّهم) متعلق باتخذ أو بمحذوف وقع حالا ، ومن للتبعيض . أو للابتداء . أو للبيان ؛ والحلى جمع حلّ . وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة « من حلّهم » بضم الحاء وتشديد الياء . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما بكسر الحاء . وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء . قال النحاس : جمع حلّ وحلّ وحلّ مثل ثدى وثدى وثدى . والأصل حلوى أدغمت الواو في الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل ، وأضيفت الحلى إليهم وإن كانت لغيرهم لأن الإضافة تجوز لأدنى ملازمة ، و (عجلا) مفعول اتخذ . وقيل هو بمعنى التصيير فيتعدى إلى مفعولين ثانيهما محذوف : أي اتخذوا عجلا لها ، و (جسدا) بدل من عجلا . وقيل وصف له ، والخوار الصياح : يقال خاريخور خورا إذا صاح . وكذلك خار يخابر خوارا . ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعا مع أنه اتخذ السامري وحده لكونه واحدا منهم وهم راضون بفعله . روى أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة فأبطأ عليهم في العشر الزيدة . قال السامري لبني إسرائيل وكان مطاعا فيهم : إن معكم حلّيا من حلّ آل فرعون الذي استعرتموه منهم لتزينوا به في العيد وخرجتم وهو معكم . وقد أغرق الله أهله من القبط فها توها ، فدفعوها إليه فاتخذ منها العجل المذكور . قوله (ألم يروا أنه لا يكلمهم) الاستفهام للتقريع والتوبيخ : أي ألم يعتبروا بأن هذا الذي اتخذوه لها لا يقدر على تكليمهم فضلا عن أن يقدر على جلب نفع لهم أو دفع ضرر منهم (ولا يهديهم سبيلا) أي طريقا واضحة يسلكونها (اتخذوه وكانوا ظالمين) أي اتخذوه لها (وكانوا ظالمين) لأنفسهم في اتخاذها أو في كل شيء ، ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ .

قوله (ولما سقط في أيديهم) أي ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات : يقال للنادم المتحير قد سقط في يده . قال الأخفش : يقال سقط في يده وأسقط . ومن قال سقط في أيديهم على البناء للفاعل ، فالمعنى عنده : سقط الندم وأصله أن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده عما فتصير يده مسقوطا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم : معنى سقط في أيديهم : أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال : حصل في يده مكروه ، وإن كان محالا أن يكون في اليد تشبيها لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد ، لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد ، قال الله تعالى - ذلك بما قدمت يداك - وأيضا الندم وإن حل القلب فآثره يظهر في البدن ، لأن الندم بعض يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى ، قال الله تعالى - فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها - ومنه - ويوم يعرض الظالم على يديه - أي من الندم ، وأيضا الندم يضع ذقنه في يده (ورأوا أنهم قد ضلوا) معطوف على سقط : أي تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا وبغفر لنا) قرأ حمزة والكسائي بالفوقية في الفعلين جميعا . : وقرأ الباقون بالتحكية ، واللام للقسم ، وجوابه (لنكونن من الخاسرين) وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال ، وسيأتي في سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكى عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى ، وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد . قوله (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه ، وانتصاب غضبان وأسفا على الحال ، والأسف شديد الغضب . قيل هو منزلة وراء الغضب أشد منه ، وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف ، قال ابن جرير الطبري : أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا ، فلذلك رجع وهو غضبان أسفا (قال بثما خلفتموني من بعدى) هذا ذم من موسى لقومه : أي بثس العمل ما عملتموه من بعدى : أي من بعد غيبتى عنكم ، يقال خلفه بخير وخلفه بشر ، استنكر عليهم ما فعلوه وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الاتزجار والإيمان بالله وحده ، ولكن هذا شأن بني إسرائيل في تلون حالهم واضطراب أفعالهم ، ثم قال منكرا عليهم (أعجلتم أمر ربكم) والعجلة : التقدم بالشئ قبل وقته . يقال عجلت الشئ سبقتة وأعجلت الرجل حملته على العجلة ، والمعنى : أعجلتم عن انتظار أمر ربكم ، أي ميعاده الذي وعده ، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم ؛ وقيل معناه : تعجلتم سخط ربكم ؛ وقيل معناه : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم (وألقى الألواح) أي طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل . قوله (وأخذ برأس أخيه يجره إليه) أي أخذ برأس أخيه هارون أو بشعر رأسه حال كونه يجره إليه : فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامري ولا غيره مارآه من عبادة بني إسرائيل للعجل فقال هارون معتذرا منه (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني) أي إني لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين استضعافهم لي ، ومقاربتهم لقتلي وإنما قال ابن أم مع كونه أعياه من أبيه وأمه ، لأنها كلمة لين وعطف ، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة . وقال الزجاج : قيل كان هارون أخا موسى لأمه لآبيه . قرئ « ابن أم » بفتح الميم تشبيها له بخمسة عشر ، فصار كقولك يا خمسة عشر أقبلا . وقال الكسائي والفراء وأبو عبيد : إن الفتح على تقدير يابن أما وقال البصريون هذا القول خطأ : لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين اسما واحدا كخمسة عشر ، واختاره الزجاج والنحاس . وأما من قرأ بكسر الميم فهو على تقدير ابن أمي ، ثم حذفت الياء وأبقيت الكسرة لتدل عليها . وقال الأخفش وأبو حاتم : ابن أم بالكسر كما تقول يا غلام أقبل . وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة ، وإنما

هذا فيما يكون مضافا إليك . وقرئ (ابن أبي) بإثبات الياء . قوله (فلا تشمت بي الأعداء) الشبهة : السرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه مع المصائب ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وجهد البلاء وشبهة الأعداء وهو في الصحيح ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلاكه أناخ بأخربنا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

والمعنى : لا تفعل بي ما يكون سببا للشبهة منهم . وقرأ مجاهد ومالك بن دينار (فلا تشمت بي الأعداء) بفتح حرف المضارعة وفتح الميم ورفع الأعداء على أن الفعل مسند إليهم : أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بي . وروى عن مجاهد أنه قرأ (تشمت) كما تقدم عنه مع نصب الأعداء . قال ابن جني : والمعنى فلا تشمت بي أنت يارب وجاز هذا كما في قوله - الله يستهزئ بهم - ونحوه ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء كأنه قال : ولا تشمت يارب بي الأعداء ، وما أبعد هذه القراءة عن الصواب وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب . قوله (لا تجعلني مع القوم الظالمين) أي لا تجعلني بغضبك على في عداد القوم الظالمين : يعني الذين عبدوا العجل أو لا . فقد أتى منهم قوله (قال رب اغفر لي ولأخي) هذا كلام مستأنف جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فإذا قال موسى بعد كلام هارون هذا ؟ فقيل (قال رب اغفر لي ولأخي) طلب المغفرة له أولا ، ولأخيه ثانيا ليزيل عن أخيه ماخافه من الشبهة ، فكأنه تدمم مما فعله بأخيه ، وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه ، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم ، ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء فهو (أرحم الراحمين) .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله (واتخذ قوم موسى) الآية ، قال : حين دفنوها ألقى عليها السامري قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : استماروا حليا من آل فرعون ، فجمعه السامري فصاغ منه (عجلا) فجعله (جسدا) لحما ودما (له خوار) . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (خوار) قال : الصوت . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : خار العجل خورة لم يئن ألم تر أن الله قال (ألم يروا أنه لا يكلمهم) وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (سقط في أيديهم) قال : ندموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن طرق عن ابن عباس (أسفا) قال : حزينا . وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك . وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب قال : الأسف الغضب الشديد وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : رفع الله منها ستة أسباعها وبقي سبع . وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال : لما ألقاها موسى ذهب التفصيل وبقي الهدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانت تسعة رفع منها لوحان وبقي سبعة . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (ولا تجعلني مع القوم الظالمين) قال : مع أصحاب العجل .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٠٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ

مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهِبُونَ (١٠٤) .

الغضب ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم ، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب ، والذلة هي التي ضربها الله عليهم بقوله - ضربت عليهم الذلة - ، وقيل هي إخراجهم من ديارهم ، وقيل هي الجزية . وفيه نظر لأنها لم تؤخذ منهم ، وإنما أخذت من ذرارهم . والأولى أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا لقوله (في الحياة الدنيا) وإن ذلك يختص بالمتخذين للعجل إلها لئلا يبعد من ذرارهم ويجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء . وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم . وبه يصيرون أذلاء وأما ما نال ذرارهم من الذلة فلا يصح تفسير ما في الآية به إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقي . وهو لم يتعذر هنا (وكذلك نجزي المفترين) أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين ، والافتراء الكذب ، فمن افتري على الله سيناله من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا . وإن لم يكن بنفس ماعوقب به هؤلاء . بل المراد ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه وأن فيه ذلة بأي نوع كان (والذين عملوا السيئات) أي سيئة كانت (ثم تابوا) عنها (من بعد) عمل (ها وآمنوا) بالله (إن ربك من بعدها) أي من بعد هذه التوبة . أو من بعد عمل هذه السيئات التي قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله (لغفور رحيم) أي كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم . قوله (ولما سكت عن موسى الغضب) أصل السكوت السكون والإمساك ، يقال جرى الوادي ثلاثا ثم سكن : أي أمسك عن الجري : قيل هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل . ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأسي أخيك فترك الاغراء وسكت : وقيل هذا الكلام فيه قلب ، والأصل سكت موسى عن الغضب كقولهم أدخلت الأصبع الخاتم ، والخاتم الأصبع ، وأدخلت القلنسوة رأسي ، ورأسي القلنسوة . وقرأ معاوية بن قررة : ولما سكن عن موسى الغضب ، وقرأ سكت وأسكت (أخذ الألواح) التي ألقاها عند غضبه (وفي نسختها هدى ورحمة) النسخ نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر ، ويقال للأصل الذي كان النقل منه نسخة والنقول نسخة أيضا . قال القشيري . والمعنى (وفي نسختها) : أي فيما نسخ من الألواح المنكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة (هدى ورحمة) وقيل للمعنى : وفيما نسخ له منها : أي من اللوح المحفوظ : وقيل المعنى : وفيما كتب له فيها هدى ورحمة . فلا يحتاج إلى أصل يتقل عنه ، وهذا كما يقال أنسخ ما يقول فلان : أي أثبتته في كتابك والنسخة فعلة ، بمعنى مفعولة كالخطبة . والهدى ما يهتدون به من الأحكام ، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة ، واللام في (للذين هم) متعلقة بمحذوف : أي كائنه لهم أو لأجلهم ، واللام في (لربهم يرهبون) للتقوية للفعل لما كان مفعوله متقدما عليه فإنه بضعف بذلك بعض الضعف . وقد صرح الكسائي بأنها زائدة . وقال الأخفش : هي لام الأجل أي لأجل ربهم يرهبون . وقال محمد بن يزيد للبرد : هي متعلقة بمصدر الفعل المذكور . والتقدير : للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أيوب قال : تلا أبو قلابة هذه الآية (إن الذين اتخلوا العجل) إلى قوله (وكذلك نجزي المفترين) قال : هو جزاء كل مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أعطى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد ،

فيها تبيان لكل شيء وموعظة، ولما جاء فرأى بنى إسرائيل عكوفاً على العجل رعى التوراة من يده فتحطمت، وأهل على هارون فأخذ برأسه فرفع الله منها ستة أسباع وبنى سبع (فلما ذهب عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسخها هدى ورحمة) قال : فيما بقى منها. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال : كانت الألواح من زمرّد فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل ، وبقى الهدى والرحمة، وقرأ « وكتبنا له في الألواح موعظة وتفصيلاً لكل شيء »، وقرأ (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسخها هدى ورحمة) قال : ولم يذكر التفصيل هاهنا .

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٠٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِعْدَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٠٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٧) .

قوله (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) هذا شروع في بيان ما كان من موسى ومن القوم الذين اختارهم . وسبعين مفعول اختار : وقومه منصوب بترفع الخافض : أى من قومه على الحذف والإيصال ، ومثله قول الراعى :

اخترتك الناس إذ رثت لخلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السؤل

يريد اخترتك من الناس ، ومعنى (لميقاتنا) للوقت الذى وقتناه له بعد أن وقع من قومه ما وقع ، والميقات الكلام الذى تقدم ذكره لأن الله أمره أن يأتى إلى الطور في ناس من بنى إسرائيل يعتنرون إليه سبحانه من عبادة العجل كذا قيل : والرجفة في اللغة : الزلزلة الشديدة ، قيل إنهم زلزلوا حتى ماتوا ، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإيائى) قاله عليه السلام تحسراً وتلهفاً ، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم - وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة - على ما تقدم في البقرة ، وقيل هؤلاء السبعون غير من قالوا - أرنا الله جهرة - بل أخذتهم الرجفة ، بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل ، وقيل إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامري ومن معه عن عبادته ، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم والمعنى لو شئت إهلكنا لأهلكنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافاً منه عليه السلام بالذنب ، وتلهفاً على ما فرط من قومه

والاستفهام في قوله (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) للجمد : أى ليست ممن يفعل ذلك ، قاله ثقة منه برحمة الله ، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع ، وقيل معناه الدعاء والطلب : أى لا تهلكنا . قال المبرد : المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه يقول : وقد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره ، ولكنه كقول عيسى - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ، وقيل المراد بالسفهاء : السبعون ، والمعنى : أتهلك بنى إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم - أرنا الله جهرة - ، وقيل المراد بهم : السامري وأصحابه . قوله (إن هى إلا فتنك) أى ما الفتنة التى وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنك التى تختبر بها من شئت وتمتحن بها من أردت ، ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه - إنا قد فتننا قومك من بعدك - (تفضل بها من تشاء ونهدي من تشاء) أى تفضل بهذه الفتنة من تشاء من عبادك ونهدي بها من تشاء منهم ، ومثله - ليلوكم أيكم أحسن عملا - . ثم رجع إلا الاستعطاف والدعاء فقال (أنت ولينا) أى المتولى لأمرنا (فاغفر لنا) ما أذنبناه (وارحمنا) برحمتك التى وسعت كل شيء (وأنت خير الغافرين) للذنوب (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة) بتوفيقنا للأعمال الصالحة ، أو تفضل علينا بأفاضة النعم في هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق (وفي الآخرة) أى واكتب لنا في الآخرة الجنة بما تجازينا به أو بما تفضل به علينا من النعم في الآخرة ، وجملة (إنا هدنا إليك) تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة في الدنيا وفي الآخرة أى إنا تبنا إليك ورجعنا عن الغواية التى وقعت من بنى إسرائيل . والهود : التوبة . وقد تقدم في البقرة . وجملة (قال عذابي أصيب به من أشاء) مستأنفة كمنظائرها فيما تقدم . قيل المراد بالعذاب هنا : الرجفة : وقيل : أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم : أى ليس هذا إليك يا موسى : بل ما شئت كان ، وما لم أشأ لم يكن . والظاهر أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولا أوليا ، وقيل المراد من أشاء من المستحقين للعذاب أو من أشاء أن أضله وأسلمه التوفيق (ورحمتي وسعت كل شيء) من الأشياء من المكلفين وغيرهم ، ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة (للذين يتقون) الذنوب (ويؤتون الزكاة) المفروضة عليهم (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى يصدقون بها ويدعون لها ، ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أو ضح مما قبله وأصرح فقال (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل . والامي : إما نسبة إلى الأمة الأمية التى لا تكتب ولا تحسب : وهم العرب . أو نسبة إلى الأم . والمعنى أنه باق على حاله التى ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب : وقيل نسبة إلى أم القرى ، وهى مكة (الذى يحدونه) يعنى اليهود والنصارى : أى يحدون نعتهم (مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل) وهما مرجعهم في الدين . وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل فهو من باب الإخبار بما سيكون ، ثم وصف هذا النبي الذى يحدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف : أى بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التى هى من مكارم الأخلاق (وينهاهم عن المنكر) أى ما تنكره القلوب ولا تعرفه . وهو ما كان من مساوى الأخلاق : قيل إن قوله (يأمرهم بالمعروف) إلى قوله (أولئك هم المفلحون) كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التى وعد بها ذكر معناه الزجاج ، وقيل هو في محل نصب على الحال من النبي ، وقيل هو مفسر لقوله (مكتوبا) . قوله (يحل لهم الطيبات) أى المستلذات وقيل يحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء التى حرمت عليهم بسبب ذنوبهم (ويحرم عليهم الخبائث) أى المستخبثات كالخشرات والخنازير (ويضع عنهم إصرهم) الإصر الثقل : أى يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة . وقد تقدم بيانه في البقرة (والأغلال التى كانت عليهم) أى ويضع عنهم الأغلال التى كانت عليهم : الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التى كانوا قد كلفوها (فالذين آمنوا به) أى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (واتبعوه) فيها

جاء به من الشرائع (وعزروه) أى عظموه ووقروه ، قاله الأخفش ، وقيل : معناه منعه من عدوه ، وأصل العز : المنع ، وقرأ الجحدري (وعزروه) بالتخفيف (ونصروه) أى قاموا بنصره على من يعاديه (واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى اتبعوا القرآن الذى أنزل عليه مع نبوته ، وقيل المعنى : واتبعوا القرآن المنزل إليه مع اتباعه بالعمل بسنته مما يأمر به وينهى عنه ، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه ، والإشارة بـ (أولئك) إلى المتصفين بهذه الأوصاف (هم المفلحون) الفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (واختار موسى قومه) الآية . قال كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعوا ربهم ، فكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا ، ففكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة (قال) موسى (رب لو شئت أهلكتهم من قبل . إن هى إلا فتنتك) يقول : إن هى إلا عذابك نصيب به من تشاء وتصرفه بمن تشاء . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (لميقاتنا) قال : لتمام الموعد وفى قوله (فلما أخذتهم الرجفة) قال : ماتوا ثم أحياهم . وأخرج ابن أبى شيبه وأبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله (إن هى إلا فتنتك) قال : بليتك . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (إن هى إلا فتنتك) قال : مشيتك وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه ، إنما أخذتهم الرجفة ، لأنهم لم يرضوا بالعمل ولم ينهوا عنه . وأخرج سعيد بن منصور عنه فى قوله (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) فلم يعطها موسى (قال عذابي أصيب به من أشاء) إلى قوله (المفلحون) . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) قال : فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله (إنا هدنا إليك) قال تبنا إليك . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى وجزة السعدى ، وكان من أعلم الناس بالعربية قال : لا والله ما أعلمها فى كلام العرب هدنا ، قيل فكيف قال هدنا بكسر الهاء ، يقول : ملنا . وأخرج عبد الرزاق وأحمد فى الزهد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن وقتادة فى قوله (ورحمتى وسعت كل شيء) قال : وسعت رحمته فى الدنيا البر والفاجر ، وهى يوم القيامة للذين اتقوا خاصة . وأخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن لله مائة رحمة فنها رحمة يترحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة . وأخرج نحوه أحمد وأبو داود والطبرانى والحاكم والضياء المقدسى من حديث جندب بن عبد الله العجلي . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : لما نزلت (ورحمتى وسعت كل شيء) قال إبليس : وأنا من الشيء ، فنسخها الله ، فنزلت (فسأكتبها للذين يتقون) إلى آخر الآية . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : لما نزلت (ورحمتى وسعت كل شيء) قال إبليس : أنا من الشيء ، قال الله تعالى (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) قالت اليهود : فنحن نتق ونؤتى الزكاة ، قال الله (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) ففرها الله عن إبليس وعن اليهود ، وجعلها لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه . وأخرج البزار فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه مسئلة فأعطاهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (واختار موسى قومه) إلى قوله (فسأكتبها للذين يتقون) فأعطى محمد كل شيء سأل موسى ربه فى هذه الآية . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه فى قوله

(فسأكتبها للذين يقنون) قال : كتبها الله لهذه الأمة . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : يقنون الشرك . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن النخعي في قوله (النبى الأمى) قال : كان لا يقرأ ولا يكتب . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : هو نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم كان أميا لا يكتب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (الذى يحملونه مكتوبا عندهم) قال : يحملون نعمته وأمره ونبوته مكتوبا عندهم . وأخرج ابن سعد والبخارى وابن جرير والبيهقى في الدلائل عن عطاء بن يسار قال : لقبت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت له أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا مخضب في الأسواق ولا تجزى بالسبىة السيئة . ولكن تغفو وتصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا » . وأخرج ابن سعيد والدارمى في مسنده والبيهقى في الدلائل وابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله . وقد روى نحو هذا مع اختلاف في بعض الألفاظ وزيادة في بعض ونقص في بعض عن جماعة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (ويحمل لهم الطيبات) قال : الحلال (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) قال : التثقيب الذى كان في دينهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقى في سننه عن ابن عباس في قوله (ويحرم عليهم الخبائث) قال : كل لحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكول التى حرمها الله ، وفي قوله (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) قال : هو ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرم عليهم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة في قوله (ويضع عنهم إصرهم) قال : ما غلظ على بنى إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم ونحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وعزروه) يعنى : عظموه ووقروه .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ
وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) .

لما تقدم ذكر أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المكتوبة في التوراة والإنجيل : أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس جميعا لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام ، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة ، وجميعا منصوب على الحال : أى حال كونكم جميعا ، و(الذى له ملك السموات والأرض) إما فى محل جر على الصفة للاسم للشرىف أو منصوب على المدح . أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وجملة (لا إله إلا هو) بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها ، لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة . وهكذا من كان يحيى ويميت هو المستحق لتفردة بالربوبية ونفى الشركاء عنه . والأمر بالإيمان بالله وبرسوله متفرع على ما قبله ، وقد تقدم تفسير النبى الأمى ، وهما وصفان لرسوله . وكذلك (الذى يؤمن بالله وكلماته) وصف له . والمراد بالكلمات ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله أو القرآن فقط . وجملة (واتبعوه) مقررلة لجملة (فأمنوا بالله) ، و (لعلكم تهتدون) علة للأمر بالإيمان والاتباع .

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأحمر والأسود فقال (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) والأحاديث الصحيحة الكثيرة في هذا المعنى مشهورة فلا تطيل بذكرها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (يؤمن بالله وكلماته) قال : آياته . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد (وكلماته) قال : عيسى .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْآمَنَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَسَأَلْنَاهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذِ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)

قوله (ومن قوم موسى) لما قص الله علينا ما وقع من السامري وأصحابه وما حصل من بني إسرائيل من الزلزل في الدين : قص علينا سبحانه أن من قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم ، ووصفهم بأنهم (يهدون بالحق) أي يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق (وبه) أي بالحق (يعدلون) بين الناس في الحكم ، وقبلهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم منهم . قوله (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا) الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم : لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، والمعنى : صبرناهم قطعا متفرقة وميزنا بعضهم من بعض . وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل والمعنى : أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطا كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب كما

في قوله تعالى - وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا - وقد تقدم . وقوله (اثني عشرة) مرثاني مفعول قطعنا لتضمنه معنى التصير ، وأسباطا تميز له أو بدل منه ، و (أمما) نعت للأسباط أو بدل منه ، والأسباط جمع سبط : وهو ولد الولد ، صاروا اثني عشرة أمة من اثني عشر ولدا ، وأراد بالأسباط القبائل ، ولهذا أنت العدد كما في قول الشاعر :

وإن قريشا كلها عشر أبطن وأنت برئ من قبائلها العشر

أراد بالبطن القبيلة . وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط في البقرة ، وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ (قطعناهم) مخففاً ، وسامهم أمما ، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد : وكانوا مختلئ الآراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه) أي وقت استسقايتهم له لما أصابهم العطش في التيه (أن اضرب بعصاك الحجر) تفسير لقعل الإبحاء (فانبعجت) عطف على مقدّر يدل عليه السياق : أي فضرب فانبعجت ، والانبعجاس : الانفجار : أي فانفجرت (منه اثنا عشرة عينا) بعدد الأسباط لكل سبط عين يشربون منها (قد علم كل أئاس مشربهم) أي كل سبط منهم العين المختصة به التي يشرب منها ، وقد تقدم في البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة (وظللنا عليهم الغمام) أي جعلناه ظللا عليهم في التيه يسير بسيرهم ويقيم باقامتهم (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) أي الترنجيبين والسماوي كما تقدم تحقيقه في البقرة (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أي وقلنا لهم كلوا من المستلثات التي رزقناكم (وما ظلمونا) بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حتى قدرها (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي كان ظلمهم مختصا بهم مقصورا عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم (وإذ قيل لهم) أي واذكر وقت قيل لهم هذا القول وهو (اسكنوا هذه القرية) أي بيت المقدس أو أريحاء ، وقيل غير ذلك مما تقدم يياله (وكلوا منها) أي من المأكولات الموجودة فيها (حيث شئتم) أي في أي مكان شئتم من أمكنها لأمانيكم من الأكل فيه (وقولوا حطة) قد تقدم تفسيرها في البقرة (وادخلوا الباب) أي باب القرية المتقدمة حال كونكم (سجدا) أمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة وبين الدخول ساجدين ، فلا يقال كيف قدّم الأمر بالقول هنا على الدخول وأخره في البقرة ؟ وقد تقدم بيان معنى السجود الذي أمروا به (تغفر لكم خطيئاتكم) جواب الأمر . وقرئ (خطيتكم) ثم وعدهم بقوله (سنزيد المحسنين) أي سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم ، والجملة استثنائية جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : فإذا لم بعد المغفرة ؟ (فبدّل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم) قد تقدم بيان ذلك في البقرة (فأرسلنا عليهم رجلا من السماء) أي عذابا كائنا منها (بما كانوا يظلمون) أي بسبب ظلمهم . قوله (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) معطوف على عامل إذ المقدّر : أي اذكر إذ قيل لهم واسألهم ، وهذا سؤال تقرّيع وتوبيخ ، والمراد من سؤال القرية : سؤال أهلها : أي اسألهم عن هذا الحادث الذي حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به . وفي ضمن هذا السؤال فائدة جليّة ، وهي تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن اطلاعه لا يكون إلا باخباره من الله سبحانه ، فيكون دليلا على صدقه .

واختلف أهل التفسير في هذه القرية : أي قرية هي ؟ فقيل أيلة ، وقيل طبرية ، وقيل مدين ، وقيل إيليا ، وقيل قرية من قرى ساحل الشام التي كانت حاضرة البحر : أي التي كانت بقرب البحر ، يقال كنت بحضرة الدار : أي بقربها . والمعنى : سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة . قرئ « واسألهم » وقرئ « سلهم » (إذ يعدون) أي وقت يعدون وهو ظرف لخطوف دلّ عليه الكلام لأن السؤال هو عن حلم ولصنهم وقت يعدون ، وقيل إنه ظرف لكائن أو لحاضرة . وقرئ « يعدّون » بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال من الإعداد للآلة . وقرأ الجمهور « يعدّون » بفتح الياء وسكون العين وضم الدال مخففة : أي يتجاوزون

حدود الله بالصيد يوم السبت الذي نهوا عن الاصطياد فيه ، وقرئ : يعدّون ، بفتح الياء والعين وضم الدال مشددة بمعنى يعتدون ، أدغمت التاء في الدال . والسبت هو اليوم المعروف وأصله السكون . يقال سبت إذا سكن وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم ، والجمع أسبت . وسبوت ، وأسبات وقرأ ابن السخّغ في « الأسباب » على الجمع (إذ تأتيتهم حيثانهم) ظرف ليعدون . والحيتان : جمع حوت وأضيفت إليهم لمزيد اختصاص لم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه . و (يوم سبتهم) ظرف لتأتيتهم . وقرئ : يوم أسباتهم ؛ و (شرعا) حال . وهو جمع شارع : أي ظاهرة على الماء . وقيل رافعة رموسها ، وقيل إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكبش البيض . قال في الكشف : يقال شرع علينا فلان إذا دنى منا وأشرف علينا ، وشرعت على فلان في بيته فرأيت أنه يفعل كذا انتهى (ويوم لا يسبتون لتأتيتهم) أي لا يفعلون السبت ، وذلك عند خروج يوم السبت لتأتيتهم الحيتان ، كما كانت تأتيتهم في يوم السبت (كذلك نبلوهم) أي مثل ذلك البلاء العظيم نبلوهم بسبب فسقهم والابتلاء الامتحان والاختبار (وإذا قالت أمة) معطوف على إذ يعملون معمول لعامله داخل في حكمه ، والأمة الجماعة : أي قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد في وعظ المتعدين في السبت حين أسوا من قبولهم للموعظة ، وإقلاعههم عن المعصية (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أي مستأمل لهم بالعقوبة (أو معذبهم عذابا شديدا) بما انتهكوا من الحرمات وفعلوا من المعصية ؛ وقيل إن الجماعة القائلة لم تعظون قوما ؟ هم العصاة الفاعلون للصيد في يوم السبت ، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم . والمعنى : إذا علمتم أن الله مهلكنا كما تزعمون فلم تعظوننا (قالوا معذرة إلى ربكم) أي قال الواعظون للجماعة القائلين لهم لم تعظون ، وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول ، أو الفاعلين على الوجه الثاني (معذرة إلى ربكم) قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف (معذرة) بالنصب ، وهي قراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الباقر بالرفع . قال الكسائي : ونصبه على وجهين : أحدهما على المصدر ، والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة : أي لأجل المعذرة . والرفع على تقدير مبتدأ : أي موعظتنا معذرة إلى الله حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين أوجبهما علينا ، ولرجاء أن يتعظوا فيتقوا ويقلعوا عما هم فيه من المعصية .

قال جمهور المفسرين : إن بني إسرائيل افرقت ثلاث فرق : فرقة عصت وصادت وكانت نحو سبعين ألفا ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص ، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص ، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية (لم تعظون قوما) يريدون الفرقة العاصية (الله مهلكهم أو معذبهم) قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك ، فقالت الناهية موعظتنا معذرة إلى الله ولعلمهم يتقون ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية ، وعاصية لقال : لعلمكم يتقون . قوله (فلما نسوا ما ذكروا به) أي لما ترك العصاة من أهل القرية ما ذكروهم به الصالحون الناهون عن المنكر ترك الناسي للشيء المعرض عنه كلية الإعراض (أنجبنا الذين ينهون عن سوء) أي الذين فعلوا النهي ، ولم يتركوه (وأخذنا الذين ظلموا) وهم العصاة المعتدون في السبت (بعذاب بيس) أي شديد من يؤس الشيء يؤس إذا اشتد ، وفيه إحدى عشرة قراءة للسبعة وغيرهم (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم والجار والمجرور متعلق بأخذنا (فلما عتوا عما نهوا عنه) أي تجاوزوا الحد في معصية الله سبحانه تمردا وتكبيرا (قلنا لم كونوا قردة) أي أمرناهم أمرا كونيا لأمرنا قوليا : أي مسخناهم قردة قيل إنه سبحانه عذبهم أولا بسبب المعصية فلما لم يقلعوا مسخهم قردة ؛ وقيل إن قوله (فلما عتوا عما نهوا عنه) نكير لقوله (فلما نسوا ما ذكروا به) للتأكيد والتقرير ، وأن المسخ هو العذاب البيس ، والخاسي الصاغر الدليل أو المبعاد المطرود ، يقال خساؤه فضي . أي باعده فباعده . واعلم أن ظاهر النظم القرآني هو أنه لم ينبج من العذاب

إلا الفرقة الناهية التي لم تعص لقوله (أنجينا الذين يهون عن السوء) وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لم كونوا قردة خاسئين) فإن كانت الطوائف منهم ثلاثا كما تقدم فالطائفة التي لم تنه ولم تعص بحتمل أنها مسوخة مع الطائفة العاصية لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهي وعتت عما نهاها الله عنه من ترك النهي عن المنكر ، ويحتمل أنها لم تمسخ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة ، وهي صيد الحوت في يوم السبت ، ولاعتت عن نهيه لها عن الصيد ، وأما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية ، وإنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قد جرت المقابلة بينها وبين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين فهما في الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما في النهي والاعتزال والنجاة من المسخ .

وقد أخرج القريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال موسى : يارب أجد أمة أناجيلهم في قلوبهم ، قال : تلك أمة تكون بعدي : أمة أحمد ، قال : يارب أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن . قال : تلك أمة تكون بعدي : أمة أحمد . قال : يارب أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ثم ترجع فيهم فيأكلون ، قال : تلك بعدي : أمة أحمد ، قال : يارب اجعلني من أمة أحمد ، فأنزل الله كهيئة المرضاة لموسى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (ومن قوم موسى أمة) الآية ، قال : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطا ، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقا في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حشاه مسلمين يستقبلون قبلتنا . قال ابن جريج : قال ابن عباس : فذلك قوله - وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا - ووعد الآخرة عيسى ابن مريم . قال ابن عباس ساروا في السرب سنة ونصفا .

أقول : ومثل هذا الخبر العجيب والنبأ الغريب محتاج إلى تصحيح النقل .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، ولتفرقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة ، فأما اليهود فإن الله يقول (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه التي تنجو ، وأما النصارى فإن الله يقول - منهم أمة مقتصدة - فهذه التي تنجو ، وأما نحن فيقول (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهذه التي تنجو من هذه الأمة . وقد قدّمنا أن زيادة كلها في النار لم تصح لامرفوعة ولا موقوفة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فانجست) قال : فانفجرت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : دخلت على ابن عباس ، وهو يقرأ هذه الآية (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) قال : يا عكرمة هل تدري أي قرية هذه ؟ قلت لا ، قال : هي أيلة . وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري قال : هي طبرية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (إذ يعدون في السبت) قال : يظلمون . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (شرعا) يقول : من كل مكان . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : ظاهرة على الماء . وأخرج ابن المنذر عنه قال : واردة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة ، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم فكانت تأنيبهم يوم سبتهم شرعا في ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقدرُوا عليها ، فكثروا كذلك ماشاء الله . ثم إن طائفة منهم أخذوا بالحيتان يوم سبتهم

فنههم طائفة فلم يزدادوا إلا غيا ، فقالت طائفة من النباه يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب (لم تعظون قوما الله مهلكهم) وكانوا أشد غضبا من الطائفة الأخرى وكل قد كانوا يهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان التان قالوا (لم تعظون) والذين قالوا (معذرة إلى ربكم) وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أنهم ثلاث فرق : فرقة العصاة ، وفرقة الناهون وفرقة القائلون لم تعظون ، فأنجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ، فأصبح الذين نهوا ذات غداة في مجالسهم يتفقون الناس لا يرونهم ، وقد باتوا من ليلتهم وغلغلقوا عليهم دورهم ، فجعلوا يقولون إن للناس لشأنا فانظروا ما شأنهم ؟ فاطلعوا في دورهم فإذا القوم قد مسخوا يعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها لقردة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عكرمة عن ابن عباس فذكر القصة . وفي آخرها أنه قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها . قال عكرمة : فقلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرموا ما هم عليه وخالفوهم ، وقالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) قال فأمرني فكسيت ثوبين غليظين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أيضا قال : نجا الناهون وهلك الفاعلون ، ولا أدري ما صنع بالساكين . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عنه قال : والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا (لم تعظون قوما) نجوا مع الذين نهوا عن السوء أحب إلى مما عدل به . وفي لفظ : من حر النعم . ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : قال ابن عباس : ما أدري أنجا الذين قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أم لا ؟ قال : فما زلت أبصره حتى عرف أنهم قد نجوا فكساني حلة . وأخرج عبد بن حميد عن ليث بن أبي سليم قال : مسخوا حجارة الذين قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس في قوله (بعذاب بيس) قال : ألم وجيع .

وَإِذْ تَأْذَنُ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَفْرَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسْكُونُ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) .

قوله (وإذ تأذن ربك) معطوف على ما قبله : أي واسألهم وقت تأذن ربك . وتأذن تفعل من الأبدان ، وهو الإعلام . قال أبو على الفارسي : آذن بالمد أعلم . وأذن بالتشديد نادى . وقال قوم : كلاهما بمعنى أعلم كما يقال أيقن وتيقن . والمعنى في الآية : واسألهم وقت أن وقع الإعلام لهم من ربك (ليعثن عليهم) قيل وفي هذا الفعل

معنى القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك أجيب بما يجاب به القسم حيث قال (ليعثن عليهم) أى ليرسلن عليهم ويسلطن كقوله - يعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد - (إلى يوم القيامة) غاية لسومهم سوء العذاب ممن يعثه الله عليهم وقد كانوا أقامهم الله هكذا أذلاء مستضعفين معذيين بأيدي أهل الملل ، وهكذا هم في هذه الملة الإسلامية في كل قطر من أقطار الأرض في الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار ، يسلمون الجزية بحقن دماهم ويمتحنهم المسلمون فيها فيه ذلة من الأفعال التي يتوزع عنها غيرهم من طوائف الكفار . ومعنى (يسومهم) يذيقهم . وقد تقدم بيان أصل معناه ، ثم علل ذلك بقوله (إن ربك لسريع العقاب) يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء (وإنه لضور رحيم) أى كثير الغفران والرحمة (وقطعناهم في الأرض) أى فرقناهم في جوانبها ، أو شتتنا أمرهم فلم تجتمع لهم كلمة ، و (أمما) متصب على الحال أو مفعول ثان لقطعنا على تضمينه معنى صيرنا ، وجملة (منهم الصالحون) بدل من « أمما » ، قيل هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدل ، وقيل هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدم بيانه قبل هذا (ومنهم دون ذلك) أى دون هذا الوصف الذى اتصفت به الطائفة الأولى وهو الصلاح ، وعمل (دون ذلك) الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : ومنهم أناس دون ذلك ، والمراد بهؤلاء هم من لم يؤمن ، بل انهمك في مخالفة لما أمره الله به . قال النحاس (دون) منصوب على الظرف ولا نعلم أحدا رفعه (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) أى امتحنناهم بالخير والشر رجاء أن يرجعوا مما هم من الكفر والمعاصي (فخلف من بعدهم خلف) المراد بهم أولاد الذين قطعهم الله في الأرض . قال أبو حاتم الخلف بسكون اللام الأولاد ، الواحد والجمع سواء . والخلف بفتح اللام البدل ولذا كان أو غيره . وقال ابن الأعرابي : الخلف بالفتح الصالح ، وبالسكون الطالع . قال لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكناهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

ومنه قيل للردى من الكلام خلف بالسكون ، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر ، ومنه قول حسان

ابن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

(ورثوا الكتاب) أى التوراة من أسلافهم يقرمونها ولا يعملون بها (يأخذون عرض هذا الأدنى) أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمهم ، والأدنى مأخوذ من الدنو ، وهو القرب : أى يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى ، وهو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرشاء وما هو مجبول لهم من السحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله ، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة وكنهم لما يكتسبونه منها . وقيل إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط : أى إنهم يأخذون عرض الشيء الأدنى الساقط (ويقولون سيفقر لنا) أى يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماميهم في الضلالة وعدم رجوعهم إلى الحق ، وجملة (يأخذون) يحتمل أن تكون مستأنفة لبيان حالهم أو في محل نصب على الحال ، وجملة (يقولون) معطوفة عليها ، والمراد بهذا الكلام : التقرير والتوبيخ لهم ، وجملة (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) في محل نصب على الحال : أى يتعللون بالمغفرة ، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذى كانوا يأخذونه أخذوه غير مباليين بالعقوبة ولأخائفين من التبعة . وقيل الضمير في (يأتهم) ليهود المدينة : أى وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرض مثل العرض الذى كان يأخذه أسلافهم أخذوه كما أخذ أسلافهم (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أى التوراة (أن لا يقولوا على الله إلا الحق) والاستغناء للتقرير والتوبيخ . وجملة (ودرسوا ما فيه) معطوفة على (يؤخذ) على

المعنى ، وقيل على (ورثوا الكتاب) ، والأولى أن تكون في محل نصب على الحال بتقدير قد . والمعنى : أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب ، والحال أن قد درسوا ما في الكتاب وعلموه فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل ، وذلك أشدّ ذنباً وأعظم جرماً . وقيل معنى (درسوا ما فيه) أى محوه بترك العمل به والفهم له ، من قولهم درست الريح الآثار : إذا محتها (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الذى أخذوه وآثروه عليها (للذين يتقون) الله ويحتشون معاصيه (أفلا تعقلون) فتعلمون بهذا وتفهمونه ، وفي هذا من التوبيخ والتفريع مالا يقادر قدره قوله (والذين يمسكون بالكتاب) قرأ الجمهور « يمسكون » بالتشديد من مسك وتمسك : أى استمسك بالكتاب وهو التوراة . وقرأ أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر بالتخفيف من أمسك يمسك . وروى عن أبي بن كعب أنه قرأ « مسكوا » والمعنى : أن طائفة من أهل الكتاب لا يمسكون بالكتاب ولا يعملون بما فيه مع كونهم قد درسوه وعرفوه وهم من تقدم ذكره ، وطائفة يمسكون بالكتاب : أى التوراة ويعملون بما فيه ويرجعون إليه في أمر دينهم فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله ، والموصول مبتدأ ، و (إنا لانضيع أجر المصلحين) خبره : أى لانضيع أجر المصلحين منهم ، وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التى يفعلها المتمسكون بالتوراة لأنها رأس العبادات وأعظمها ، فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر ؛ وقيل لأنها تقام في أوقات مخصوصة ، والتمسك بالكتاب مستمر فذكرت لهذا ، وفيه نظر . فإن كل عبادة في الغالب تختص بوقت معين ، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذى قبله وهو للذين يتقون ، ولكون (أفلا تعقلون) جملة معترضة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (يسومهم سوء العذاب) قال محمد وأمه إلى يوم القيامة ، وسوء العذاب : الجزية . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال (سوء العذاب) الخراج ، وفي قوله (وقطعناهم) قال : هم اليهود بسطهم الله في الأرض فليس منها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في قوله (ليعثن عليهم) قال : على اليهود والنصارى (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) فبعث الله عليهم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يأخذون منهم الجزية وهم صاغرون (وقطعناهم في الأرض أئماً) قال : يهود (منهم الصالحون) وهم مسلمة أهل الكتاب (ومنهم دون ذلك) قال : اليهود (وبلوناهم بالحسنات) قال : الرخاء والعافية (والسيئات) قال : البلاء والعقوبة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) بالخصب والجذب وأخرج أبو الشيخ عنه أنه سئل عن هذه الآية (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) قال : أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ويتبعون رخص القرآن (ويقولون سيغفر لنا) ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (فخلف من بعدهم خلف) قال : النصارى (يأخذون عرض هذا الأدنى) قال : ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه ويتمنون المغفرة ، وإن يجدوا الغد مثله يأخذوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (فخلف من بعدهم خلف) الآية يقول : يأخذون ما أصابوا ويتركون ما شاءوا من حلال أو حرام (ويقولون سيغفر لنا) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي زيد في قوله (ودرسوا ما فيه) قال : علموا ما في الكتاب لم يأتوه بجهالة . وأخرج ابن أبي حاتم

وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (والذين يمسكون بالكتاب) قال : هي لأهل الإيمان منهم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (والذين يمسكون بالكتاب) قال : من اليهود والنصارى .

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) .

قوله (وإذ) منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله : أي واسألهم إذ نتقنا الجبل : أي رفعنا الجبل (فوقهم) و (كأنه ظلة) أي كأنه لارتفاعه محابة تظلمهم ، والظلة : اسم لكل ما أظل ، وقرئ « ظلة » بالطاء من أظل عليه إذا أشرف (وظنوا أنه واقع بهم) أي ساقط عليهم . قيل الظن هنا بمعنى العلم ، وقيل هو على بابه (خذوا ما آتيناكم بقوة) هو على تقدير القول : أي وقلنا لهم خذوا ، والقوة : الجدة والعزيمة : أي أخذنا كائننا بقوة (واذكروا ما فيه) من الأحكام التي شرعها الله لكم ولا تنسوه (لعلكم تتقون) رجاء أن تتقوا ما نهينهم عنه وتعملوا بما أمرتم به ، وقد تقدم تفسير ما هنا في البقرة مستوفى فلا نعبده .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وإذ نتقنا الجبل) يقول : رفعناه ، وهو قوله - ورفعنا فوقهم الطور - فقال (خذوا ما آتيناكم بقوة) وإلا أرسلته عليكم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : رفعته الملائكة فوق رموسهم ، فقبل لهم (خذوا ما آتيناكم بقوة) فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا ، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا قال : إني لأعلم لم تسجد اليهود على حرف قال الله (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) قال : لتأخذن أمري أولاً رمينكم به ، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم . وكانت سجدة رضيها الله سبحانه فاتخذوها سنة . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (وإذ نتقنا الجبل) قال : انزعه الله من أصله ، ثم جعله فوق رموسهم ، ثم قال : لتأخذن أمري أولاً رمينكم به .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غْفِيلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) .

قوله (وإذ) منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله كما تقدم . قوله (من بني آدم) استدلت بهذا على أن المراد بالمأخوذین هنا : هم ذرية بني آدم . أخرجهم الله من أصلابهم نسلا بعد نسل .

وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين ، قالوا : ومعنى (أشهدهم على أنفسهم) دلهم بخلقه على أنه خالقهم فقامت هذه الدلالة مقام الأشهاد ، فتكون هذه الآية من باب التثليل كما في قوله تعالى - فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين - ، وقيل المعنى : أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد ، وأنه جعل

فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه : وقيل المراد بيني آدم هنا آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضع . والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم النور ، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العلول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوت مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وموقوفا على غيره من الصحابة ولا ملجئ للمصير إلى المجاز . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، وسند ذكر آخر هذا البحث إن شاء الله بعض ما ورد في ذلك . قوله (من ظهورهم) هو بدل من بني آدم بدل بعض من كل . وقيل بدل اشتغال قوله (ذرياتهم) ، قرأ الكوفيون وابن كثير « ذريتهم » بالتوحيد . وهي تقع على الواحد والجمع ، وقرأ الباقر « ذرياتهم » بالجمع (وأشهدهم على أنفسهم) أي أشهد كل واحد منهم (أأست بربكم) أي قائلا أأست بربكم فهو على لإرادة القول (قالوا بلى شهدنا) أي على أنفسنا بأنك ربنا . قوله (أن تقولوا) . قرأ أبو عمرو بالياء التحتية في هذا وفي قوله - أو يقولوا - على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة ، وقرأ الباقر بالفوقية على الخطاب . والمعنى : كراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا : أي فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد كراهة أن يقولوا (يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أي عن كون الله ربنا وحده لا شريك له . قوله (أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل) معطوف على (تقولوا) الأول أي فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم . و (أو) لمنع الخلوة دون الجمع ، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين (من قبل) أي من قبل زماننا (وكنا ذرية من بعدهم) لانهتدى إلى الحق ولا يعرف الصواب (أفهلكتنا بما فعل المبطلون) من آبائنا ولا ذنب لنا بلهملنا وعجزنا عن النظر واقتضائنا آثار سلفنا . بين الله سبحانه في هذه الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم . وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ، ويعتدوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعنرة الساقطة (وكذلك) أي ومثل ذلك التفصيل (نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون) إلى الحق ويتركون ما هم عليه من الباطل .

وقد أخرج مالك في الموطأ وأحمد في المسند وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه ، وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، والضياء في المختارة : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذا أخذ ربك) الآية فقال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عنها فقال « إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل ؟ فقال : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار » . وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة . فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فتشرها بين يديه ، ثم كلمهم فقال (أأست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا) إلى قوله (المبطلون) ، وإسناده لا مطعن فيه . وقد أخرج ابن أبي حاتم موقوفا على ابن عباس . وأخرج ابن جرير وابن منده في كتاب الرد على الجهمية عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ، قال : أخذهم من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس ، فقال لهم : أأست بربكم ؟ قالوا بلى ، قالت الملائكة : شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » وفي إسناده أحمد بن أبي ظبية أبو محمد الجرجاني قاضي قومس كلان أحد الزهاد .

وأخرج له إسناده في سننه . وقال أبو حاتم الرازي : يكتب حديثه . وقال ابن عدى : حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقدرى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر ، وهؤلاء أئمة ثقات . وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لما خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء ، فأخذ أهل اليمين يمينه وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين ، فقال : يا أصحاب اليمين ، فاستجابوا له فقالوا : لبيك ربنا وسعديك ، قال : ألسنت بربكم قالوا بلى . الحديث والأحاديث في هذا الباب كثيرة بعضها مقيد بتفسير هذه الآية ، وبعضها مطلق يشتمل على ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره ، وأخذ العهد عليهم كما في حديث أنس مرفوعا في الصحيحين وغيرهما . وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه في عالم النذر وأخذ العهد عليهم وإشهادهم على أنفسهم فهي كثيرة ، منها عن ابن عباس عند عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في قوله (وإذا أخذ ربك من بني آدم) الآية قال : خلق الله آدم وأخذ ميثاقه أنه ربه وكتب أجله ورزقه ، ثم أخرج ولده من ظهره كهنة النذر ، فأخذ موافقهم أنه ربههم وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم . وأخرج نحوه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وأخرج نحوه عنه أيضا ابن جرير وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد الرزاق وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد ابن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن منده ، وهذا المعنى مروي عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر في قوله (وإذا أخذ ربك من بني آدم) الآية قال : أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس . وأخرج ابن عبد البر في التمهيد عن ابن مسعود وناس من الصحابة في تفسير الآية نحوه . وأخرج عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد بن حنبل في رواية المسند وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن منده وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والفضاء في المختارة وابن عساكر في تاريخه عن أبي بن كعب في قوله (وإذا أخذ ربك من بني آدم) الآية قال : جمعهم جميعا فجعلهم أرواحا في صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، ثم أشهدهم على أنفسهم . وقد روى عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره ، وفيما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ (١٧٠) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَّكَهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧١) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ (١٧٢) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمْ
الْخَاسِرُونَ (١٧٣) .

قوله (وائل) معطوف على الأفعال المقدّرة في القصص السابقة : وإيراد هذه القصة منه سبحانه وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة . وقد اختلف في هذا الذي أوتى الآيات (فانسلخ منها) فقيل : هو بلعم بن باعوراء ، وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة ، وقيل كان قد أوتى النبوة وكان مجاب الدعوة ، بعث الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان ، فأعطوه الأعطية الواسعة فاتبع دينهم وترك ما بعث به ، فلما أقبل موسى في بني إسرائيل لقتال الجبارين ، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى ، فقام ليدعو عليه فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه ، فقيل له في ذلك فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون ، واندلع لسانه على صدره فقال قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسأمر لكم ، وإني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا . فإن وقعوا فيه هلكوا ، فوقع بنو إسرائيل في الزنا ، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً ، وقيل إن هذا الرجل اسمه باعم وهو من بني إسرائيل ، وقيل المراد به أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك ، فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم حسده وكفر به ، وقيل هو أبو عامر بن صيني وكان يلبس المسوح في الجاهلية ، فكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل نزلت في قريش آتاهم الله آياته التي أنزلها على محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكفروا بها ، وقيل نزلت في اليهود والنصارى انتظروا خروج محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكفروا به . قوله (فانسلخ منها) أي من هذه الآيات التي أوتيتها كما تنسلخ الشاة عن جلدها فلم يبق له بها اتصال (فأتبعه الشيطان) عند انسلخه عن الآيات : أي لحقه فأدركه وصار قريناً له ، أو فأتبعه خطواته ، وقرئ « فأتبعه » بالتشديد بمعنى تبعه (فكان من الغاوين) المتكئين في الغواية وهم الكفار . قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) الضمير يعود إلى الذي أوتى الآيات ، والمعنى : لو شئنا رفعناه : بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها : أي بسببها ، ولكن لم نشأ ذلك لانسلخه عنها وتركه للعمل بها ، وقيل المعنى : لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه إلى الجنة بها : أي بالعمل بها (ولكنه أخلد إلى الأرض) أصل الإخلد اللزوم ، يقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه ، والمعنى هنا : أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة (واتبع هواه) أي اتبع ما بهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله وهو حطام الدنيا ، وقيل كان هواه مع الكفار ، وقيل اتبع رضا زوجته ، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله . قوله (فثله كثل الكلب) أي فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة مشابها لأخس الحيوانات في الدناءة مماثلاً له في أقبح أوصافه ، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد الإنسان له وتركه ، فهو لا هث سواء زجر أو ترك طرد أو لم يطرد شد عليه أو لم يشد عليه ، وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء ، وجملة (إن تحمل عليه يلهث أو تركه يلهث) في محل نصب على الحال : أي مثله كثل الكلب حال كونه متصفاً بهذه الصفة ، والمعنى : أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الراجع وذكرة المذكر وزجره الزاجر أو لم يقع شيء من ذلك . قال القتيبي : كل شيء يلهث فلانما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال . وحال الراحة ، وحال المرض ، وحال الصحة . وحال الثرى ، وحال العطش ، فقصره الله مثلاً لمن كذب بآياته ، فقال : إن وعظته ضل وإن تركته ضل . فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته هث كقوله تعالى (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون) والله : إخراج اللسان لتعب أو عطش أو غير ذلك . قال الجوهرى : لهث الكلب بالفتح يلهث لهثاً ولهثاً بالقصم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ، وكذلك الرجل إذا أعيأ . قيل معنى الآية : أنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارياً ، وإن تركته شد عليك

وتنبح ، فينحب نفسه مقبلا عليك ومندبرا عنك ، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان ، والإشارة بقوله ذلك إلى ما تقدم من التحليل بنك الحالة الخسيسة . وهو مبتدأ وخبره (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ذلك القوم الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود بعد أن علموا بها وعرفوها فحرفوا وبدلوا وكتبوا صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذبوا بها (فاقصص القصص) أى فاقصص عليهم هذا القصص الذى هو صفة الرجل المسلح عن الآيات فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين نقص عليهم (انهم يذكرون) فى ذلك ويعلمون فيه أقسامهم فيزجرون عن الضلال ويقبلون على الصواب . قوله (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم البالغة فى القبح إلى الغاية : يقال ساء الشيء قبح ، فهو لازم ، وساء بسوؤه مسامة : فهو متعد وهو من أفعال الهم : كبئس ، وفاعله ضمير مستتر فيه ، وملائمة مفسر له والخصوص بالذم هو الذين كذبوا بآياتنا ، ولا بد من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة أى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا . وقال الأخفش : جعل المثل القوم مجازا ، والقوم مرفوع بالابتداء أو على إظهار مبتدأ الضمير : ساء المثل مثلا هو مثل القوم ، كذا قال . وقدره أبو على الفارسي : ساء مثلا مثل القوم كما قدّمنا . وقرأ الجحدري والأعمش (ساء مثل القوم) . قوله (وأنفسهم كانوا يظلمون) أى ما ظلموا بالكذب إلا أنفسهم لا يظلموها ظلمهم إلى غيرها ولا يتجاوزها ، والجملة معطوفة على التى قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم (من يهد الله فهو المهتدى) لما أمر به وشرعه لعباده (ومن يضل فأولئك هم الضالسون) الضالون فى الخسران ، من هداه فلا مضل له ، ومن أضله فلا هادى له : ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن . وقد أخرج القرطبي وعبد الرزاق . وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن آبر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء ، وفى لفظ : بلعام بن باعر الذى أوتى الاسم كان فى بنى إسرائيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) قال : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم ، تعلم اسم الله الأكبر ، فلما ثرل بهم موسى أتاه بنوعه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى دعا الله فسلخ ما كان فيه . وفى قوله (إن نحمل عليه بلهث أو تركه بلهث) قال : إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير كالكلب إن كان رابضا لهث وإن يطرده لهث . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيها ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لى منها واحدة ، قال : فلك واحدة فإلى الذى تريدان ؟ قالت ادع الله أن يجعل أبلى امرأة فى بنى إسرائيل ، فدعا الله فجعلها أبلى امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيها مثلها رغبته وأرادت شيئا آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبه فصارت كلبه ، فذهبت وهو تان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا حل هذا فرار قد صارت أمنا كلبه يميزنا الناس بها ، فادع الله أن يردنا إلى الحلال التى كانت عليه فدعا الله فمادت كما كانت فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو فى الآية قال : هو أمية بن أبى الصلت القتي ، وفى لفظ : نزلت فى صاحبكم أمية بن أبى الصلت ، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن

مردويه وابن حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية قال : قال ابن عباس هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء . وكانت الأنصار تقول : هو ابن الراهب الذي بنى له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول : هو أمية بن أبي الصلت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو صيني بن الراهب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي حاتم (فأنسلخ منها) قال : نزع منه العلم . وفي قوله (ولو شئنا لرفعناه بها) قال : رفعه الله بعلنه . وأخرج مسلم والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته يحمده الله ويثنى عليه بما هو أهله ، ثم يقول « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » ثم يقول « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) .

(ولقد ذرأنا) أى خلقنا . وقد تقدم بيان أصل معناه مستوفى ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها (لجهم) أى للتعذيب بها (كثيرا) أى خلقا كثيرا (من الجن والإنس) أى من طائفتى الجن والإنس جعلهم سبحانه للنار بعد له وبعمل أهلها يعملون . وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ، ثم وصف هؤلاء فقال (لهم قلوب لا يفقهون بها) كما يفقه غيرهم بقولهم ، وجملة (لا يفقهون بها) في محل رفع على أنها صفة لقلوب . وجملة (لهم قلوب) في محل نصب صفة لكثيرا جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفهم وإرشادهم غير فاقهة مطلقا وإن كانت تفقه في غير ما فيه النفع والرشاد فهو كما لعدم ، وهكذا معنى (ولم أعين لا يبصرون بها) فإن الذى انتفى من الأعين هو إِبْصَارُ ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وإن كانت مبصرة في غير ذلك ، والذى انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة ، والشرائع التى اشتملت عليها الكتب المنزلة ، وما جاءت به رسل الله ، وإن كانوا يسمعون غير ذلك ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالأنعام في انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر ، ثم حكم عليهم بأنهم أضل منها ، لأنها تترك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها فتنتفع بما ينفع ، وتجتنب ما يضر ، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به ، ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذى هو من شأن من له عقل وبصر وسمع .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولقد ذرأنا) قال : خلقنا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال خلقنا لجهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لما ذرأ لجهم من ذرأكلان ولد الزنا من ذرأ لجهم » . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (ولقد ذرأنا لجهم) قال : لقد خلقنا لجهم (لهم قلوب لا يفقهون بها) قال : لا يفقهون شيئا من أمور الآخرة (ولم أعين لا يبصرون بها) للهدى (ولم

آذَان لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) الحق ، ثم جعلهم كالأنعام ، ثم جعلهم شرا من الأنعام ، فقال (بل هم أحمل) ثم أخبر أنهم الظالمون :

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ قَادُوعُوهَا بِهَا وَذَرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) .

هذه الآية مشتملة على الاخبار من الله سبحانه بحاله من الأسماء على الجملة دون التفصيل ، والحسنى تأنيث الأحسن : أى التى هى أحسن الأسماء لدلالاتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول ، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة فإنه إذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة ، وقد ثبت في الصحيح : إن الله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ، وسيأتى وباقى أيضا بيان عدها آخر البحث إن شاء الله . قوله (وذرّوا الذين يلحدون في أسمائه) الإلحاد : الليل وترك القصد ، يقال لحّد الرجل في الدين وألحد : إذا مال ، ومنه اللحد في القبر لأنه في تلحية ، وقرئ : يلحدون ، وهما لغتان ، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه ، إما بالتغيير كما فعله المشركون فلأنهم أخذوا اسم اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من اللتان ، أو بالزيادة عليها بأن يمتزجوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها ، أو بالتقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض . ومعنى (وذرّوا الذين يلحدون) أتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم ، وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال ، وقيل معناه الوعد كقوله تعالى - ذرني ومن خلقت وحيدا - ، وقوله - ذرهم يأكلوا ويتمتعوا - وهذا أولى لقوله (سيجزّون ما كانوا يعملون) فإنه وعيد لم ينزل العقوبة وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعالهم . وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل من المسلمين كان يقول في صلاته يا رحمن يا رحيم ، فقال رجل من المشركين ليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً قايلاً هذا يدعورين اثنين ؟ حكى ذلك القرطبي .

وقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وأبو عوانة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر . وفى لفظ ابن مردويه وأبو نعيم : من دعى بها استجاب الله دعاءه ، وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، اللتين ، الولي ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، الهادي ، المهيمن ، المحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

مكنا أخرج الترمذى هذه الزيادة عن الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شبيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعة وقال : هذا حديث غريب . وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا يعلم في كثير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث . ورواه ابن حبان في صحيحه وابن خزيمة والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق . ورواه ابن ماجه في سننه من طريق أخرى عن موسى ابن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعة فسرده الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان . قال ابن كثير في تفسيره والذي حوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه . وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ؛ أي أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي ، قال : ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل ابن مرزوق عن أبي سلمة الجهنني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك وأمتك ، ناصيتي بيدك ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب همي ونعمي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا ، فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » . وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان في صحيحه بمثله انتهى . وأخرجه البيهقي أيضا في الأسماء والصفات . قال ابن حزم : جاءت في إحصائها ، يعني الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلا . وقد أخرجه بهذا العدد الذي أخرجه الترمذى ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكراه ، ولا أدري كيف إسناده . وأخرج ابن أبي الدنيا والطبراني كلاهما في الدعاء وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة : إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة : أسأل الله الرحمن ، الرحيم ، الإله ، الرب ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، الباري ، المصور ، الحليم ، العليم ، السميع ، البصير ، الحي ، القيوم ، الواسع ، اللطيف ، الخبير ، الحنان ، المنان ، البديع ، الغفور ، الودود ، الشكور ، المحيد ، المبدئ ، المعيد ، النور ، الباري ، وفي لفظ : القائم ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الغفور ، الغفار ، الوهاب ، الفرد ، وفي لفظ : القادر ، الأحد ، الصمد ، الوكيل ، الكافي ، الباقي ، المغيث ، الدائم ، المتعال ، ذا الجلال والإكرام ، المولى البصير ، الحق ، المتين ، الوارث ، المنير ، الباعث ، القدير ، وفي لفظ : المحيي ، المميت ، الحميد ، وفي لفظ : الحميل ، الصادق ، الحفيظ ، المحيط ، الكبير ، القريب ، الرقيب ، الفتاح ، التواب ، القديم ، الوتر ، الفاطر ، الرزاق ، العلام ، العلي ، العظيم ، الغني ، الملك ، المقتدر ، الأكرم ، الرؤوف ، المدبر ، المالك ، القاهر ، الهادي ، الشاكر ، الكريم ، الرفيع ، الشهيد ، الواحد ، ذا الطول ، ذا المعارج ، ذا الفضل ، الخلاق ، الكفيل ، الخليل .

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر قال : سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة ؟ فقال : هي في القرآن ، في القائمة خمسة أسماء : يا الله ، يارب ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا ملك ، وفي البقرة ثلاثة وثلاثون اسما : يا محيط ، يا قدير ، يا عليم ، يا حكيم ، يا علي ، يا عظيم ، يا تواب ، يا بصير ، يا ولي ، يا واسع ، يا كافي ، يا رؤوف ، يا بديع ، يا شاكر ، يا واحد ، يا سميع ، يا قابض ، يا باسط ، يا حي ،

يا كريم ، يا قتي ، يا حميد ، يا منصور ، يا حليم ، يا إله ، يا قريب ، يا مجيب ، يا عزيز ، يا نصير ، يا قوي ، يا شديد ،
يا سريع ، يا خير ، وفي آل عمران : يا وهاب ، يا قائم ، يا صادق ، يا باعث ، يا منعم ، يا مفضل ، وفي النساء :
يا غنيب ، يا حسيب ، يا شهيد ، يا منيت ، يا وكيل ، يا علي ، يا كبير ، وفي الأنعام : يا قاطر ، يا قاهر ، يا لطيف ،
يا رحيم ، وفي الأعراف : يا حي ، يا ميت ، وفي الأنفال : يا نعم المولى ، ويا نعم النصير ، وفي هود : يا حفيظ ،
يا حميد ، يا غفور ، يا فعال لما تريد ، وفي الرعد : يا كبير ، يا متعال ، وفي إبراهيم : يا منان ، يا وارث ، وفي
الحجر : يا خلاق ، وفي مريم : يا فرد ، وفي طه : يا غفار ، وفي قد أفلق : يا كريم ، وفي النور : يا حي يا منير ،
وفي الفرقان : يا هادي ، وفي سبأ : يا فتاح ، وفي الزمر : يا عالم ، وفي غافر : يا قابل التوب ، يا ذا الطول ، يا رفيع ،
وفي الفاريات : يا رزاق ، يا ذا القوة ، يا متين ، وفي الطور : يا بر ، وفي اقرب : يا مقتدر ، يا مليك ، وفي
الرحمن : يا ذا الجلال والإكرام ، يا رب المشرقين ، يا رب المغربين ، يا باقي يومين ، وفي الحديد : يا أول ، يا آخر ،
يا ظاهر ، يا باطن ، وفي الحشر : يا ملك ، يا قدير ، يا سلام ، يا مؤمن ، يا مهيمن ، يا عزيز ، يا جبار ، يا متكبر ،
يا شاق ، يا هاري ، يا منصور ، وفي البروج : يا مبدي ، يا معيد ، وفي الفجر : يا وتر ، وفي الإخلاص : يا أحد ،
يا صمد انتهى .

وقد ذكر ابن حجر في التلخيص أنه تبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررها منه تسعة وتسعين ثم سردها
قائمة . ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
« تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة » . وهي في القرآن . وأخرج البيهقي عن عائشة أنها قالت « يا رسول
الله علمني اسم الله الذي إذا دعيت به أجاب » قال لما : قومي فتوضي . وادخل المسجد فصلى ركعتين ثم ادعى حتى
أسمع ، فقلت : قلما جلست للدعاء قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم وفقها . فقالت : اللهم إني أسألك
بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمتها منها وما لم أعلم ، وأسألك باسمك الأعظم الكبير الأكبر الذي من دعاك
به أجبه ، ومن سألك به أعطته ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أصبته أصبته .

وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى حتى أن ابن العربي في شرح الترمذي حكى عن بعض أهل
العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله
(وقروا الذين يلدنون في أسمائه) قال : الإلحاد ، أن يدعو اللات والعزى في أسماء الله . وأخرج ابن المنذر وابن
أبي حاتم عنه قال : الإلحاد التكذيب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في الآية قال :
اشتقوا العزى من العزيز ، واشتقوا اللات من الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في الآية قال : الإلحاد المضاهاة
وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش أنه قرأ يلدنون من لحد ، وقال تفسيرها : يدخلون فيها ما ليس منها . وأخرج
عبد الرزاق بن حيد وابن جرير عن قتادة في الآية قال : يشركون .

وَمِنْ خَلْقْنَا أُمَّةً يَهْتُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا
مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٠) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨١).

قوله (ومن خلقنا) خبر مقدم و (أمة) مبتدأ مؤخر و (يهدون) وما بعده صفة له، ويجوز أن يكون (ومن خلقنا) هو المبتدأ كما تقدم في قوله - ومن الناس من يقول - والمعنى : أن من جملة من خلقه الله أمة يهدون الناس متلبسين بالحق أو يهدونهم بما عرفوه من الحق (و) بالحق (يعدلون) بينهم قيل هم من هذه الأمة ، وإنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين كما ورد في الحديث الصحيح ، ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة بين حال من يخالفهم فقال (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) والاستدراج : هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة ، والدرج : كف الشيء ، يقال أدرجته ودرجته ، ومنه إدراج الميت في أكفانه ؛ وقيل هو من الدرجة ، فالاستدراج : أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود ، ومنه درج الصبي : إذا قارب بين خطاه . وأدرج الكتاب : طواه شيئا بعد شيء ، ودرج القوم : مات بعضهم في أثر بعض ، والمعنى : سنستدينهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ، وذلك بإدراج النعم عليهم وإنسانهم شكرها ، فينهمكون في الغواية ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة . قوله (وأملئ لهم) معطوف على سنستدرجهم : أي أطبل لهم المدة وأمهلهم وأوخر عنهم العقوبة ، وجملة (إن كيدى متين) مقررة لما قبلها من الاستدراج والإملاء ومؤكد له . والكيد : المكر ، والمتين : الشديد القوى ، وأصله من المتن وهو اللحم الغليظ الذي على جانب الصلب . قال في الكشف : ساء كيدا ، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان ، والاستفهام في (أولم يتفكروا) للإنكار عليهم حيث لم يتفكروا في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيما جاء به وما في (ما بصاحبهم) للاستفهام الإنكاري ، وهي في محل رفع بالابتداء والخبر بصاحبهم ، والجنة مصدر : أي وقع منهم التكذيب ولم يتفكروا أي شيء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون ، فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا ، وقولهم زورا وبهتان وقيل إن « ما » نافية واسمها (من جنة) وخبرها بصاحبهم : أي ليس بصاحبهم شيء مما يدعون من الجنون ، فيكون هذا رد لقولهم - يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون - ويكون الكلام قد تم عند قوله (أولم يتفكروا) والوقف عليه من الأوقاف الحسنة ، وجملة (إن هو إلا نذير مبين) مقررة لمضمون ما قبلها . ومبينة لحقيقة حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاستفهام في (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) للإنكار والتفريع والتوبيخ ولقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرته وتفردة بالإلهية ، والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه ، والمعنى : إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكير ، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به ، بل هم سادرون في ضلالتهم خائفون في غوايتهم لا يعملون فكرا ولا يعمنون نظرا . قوله (وما خلق الله من شيء) أي لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء كائنا ما كان ، فإن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين وموعظة للمتفكرين ، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض ، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته . قوله (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) معطوف على ملكوت وأن هي المحققة من الثبيلة واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى وما بعدها : أي أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتون عن قريب . والمعنى : إنهم إذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لم لينظروا فيما يهلكون .

به ويستغفرون بالضرر فيه والاعتبار به (فبأى حديث بعده يؤمنون) الضمير يرجع إلى ما تقدم من الضمير والنظر في الأمور المذكورة : أى فبأى حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون ؟ وفى هذا الاستغفار من التفرغ والتربيع ما لا يقادر قدره ، ولعل الضمير للقرآن ، وقيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل للأجل المذكور قبله ، وجملة (نحن يفضل الله فلا هادى له) مقررة لما قبلها : أى إن هذه التخلية منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لئلا يفتروا على الله ومن يفضل الله فلا هادى له : أى فلا يوجد من يهديه إلى الحق وينزعه عن الضلالة البتة (ويلزمهم في طغيانهم بعمهون) قرئ بالرفع على الاستئناف وبالجزم عطفا على محل الجزاء ، وقرئ بالنون : ومعنى بعمهون : يتحIRON ، وقيل يترددون وهو فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (ونحن خلقنا أمة يهدون بالحق) قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « هذه أمتى بالحق يحكمون ويقصون يأخذون ويعطون » . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول « إذا قرأها هذه لكم قد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » . وأخرج ابن أبي حاتم فى الربيع فى الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل » . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) يقول : سنأخذهم من حيث لا يعلمون ، قال : عذاب بدر . وأخرج أبو الشيخ عن يحيى بن المنفى فى الآية قال : كلما أحدثوا ذنبا جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن سفيان فى الآية قال : نسب عليهم النعمة ونمنعهم شكرها . وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقى عن ثابت البناني أنه سئل عن الاستدراج فقال : ذلك مكر الله بالعباد المضيعين . وأخرج أبو الشيخ فى قوله (وأملى لهم) يقول : أكف عنهم (إن كيدى متين) إن مكرى شديد ، ثم نسخها الله فأنزل - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كيد الله العذاب والنعمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا « أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قام على الصفا ، فدعا قريشا فخذلوا فخذلوا : يابنى فلان يابنى فلان ، يحذرهم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائل : إن صاحبكم هذا ليجتو بات يصوت حتى أصبح ، فأنزل الله (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين) » .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا

اللَّهُ رَبُّهُمَا لَعَنَ آتَيْنَا صَلَاحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَيْنَاهَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَيْنَاهُمَا فَفَعَلَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢).

قوله (يسألونك عن الساعة) السائلون : هم اليهود ، وقيل قريش ، والساعة : القيامة وهي من الأسماء الغالبة ، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بوقت أولساعة حسابها ، وأيان ظرف زمان مبني على الفتح . قال الراجز :

أَيَانُ تَقْضَى حَاجَتِي أَيَانَا أَمَا تَرَى لَنَجِيحِهَا أَوَانَا

ومعناه معنى متى ، واشتقاقه من أى : وقيل من أين . وقرأ السلمي « إيان » بكسر الهمزة وهو في موضع رفع على الخبر ، و (مرساها) المبتدأ عند سيويه ، ومرساها بضم الميم : أى وقت إرسائها من أرساها الله : أى أثبها ، وفتح الميم من رست : أى ثبتت ، ومنه - وقد ورر راسيات - ، ومنه رسا الجبل . والمعنى : متى يرسبها الله : أى يثبتها ويوقعها ، وظاهر (يسألونك عن الساعة) أن السؤال عن نفس الساعة ، وظاهر (أيان مرساها) أن السؤال عن وقتها ، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها في الوقت المعين لذلك ، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله (قل إنما علمها عند ربى) أى علمها باعتبار وقوعها عند الله لا يعلمها غيره ولا يهتدى إليها سواه (لا يجليها لوقتها إلا هو) أى لا يظهرها لوقتها ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه ، والتجلية : إظهار الشيء ، يقال جلى لى فلان الخبر : إذا أظهره وأوضحه ، وفي استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة وتدبير بليغ كسائر الأشياء التى أنضافها الله واستأثر بعلمها . وهذه الحملة مقررة لمضمون التى قبلها . قوله (ثقلت في السموات والأرض) قيل معنى ذلك : أنه لما خفى علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة ، لأن كل ما خفى علمه ثقل على القلوب ، وقيل المعنى : لاتطيقها السموات والأرض لعظمها ، لأن السماء تنشق ، والنجوم تتناثر ، والبحار تنصب ، وقيل عظم وصفها عليهم ، وقيل ثقلت المسئلة عنها ، وهذه الحملة مقررة لمضمون ما قبلها أيضا (لاتأتىكم إلا بغتة) إلا فجأة على غفلة ، والبغتة ، مصدر في موضع الحال ، وهذه الحملة كالتى قبلها في التقرير . قوله (يسألونك كأنك حنى عنها) . قال ابن فارس : الحنى العالم بالشيء ، والحنى المستقصى في السؤال ، ومنه قول الأعشى :

فَإِنْ تَسْأَلُنِي عَنْ فَيَارِبِ سَائِلٍ حَنِىٌّ عَنِ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصْعَدَا

يقال أحنى في المسئلة وفي الطلب فهو محف ، وحنى على التكثير مثل مخصب وخصيب . والمعنى : يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها ، أو كأنه مستقص للسؤال عنها ومستكثر منه ، والحملة التشبيهية في محل نصب على الحال أى يسألونك مشبها حالك حال من هو حنى عنها ، وقيل المعنى : يسألونك عنها كأنك حنى بهم : أى حنى ببرهم وفرح بسؤالهم . والأول هو معنى النظم القرآنى على مقتضى المسلك العربى . قوله (قل إنما علمها عند ربى) أمره الله سبحانه بأن يكرر ما أجاب به عليهم سابقا لتقرير الحكيم وتأكيده ، وقيل ليس بتكرير ، بل أحدهما معناه الاستئثار بوقوعها ، والآخر الاستئثار بكنها نفسها (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) باستئثار الله بهذا وعدم علم خلقه به ، لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل . قوله (قل لأملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله) هذه الحملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ومتى تقع ، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع

ضرّ عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه فبالأولى أن لا يقدر على علم ما ستأثر الله بعلمه ، وفي هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التي ليست من شأن العبيد والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له صلى الله عليه وسلم ما فيه أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ لمن يدّعى لنفسه ما ليس من شأنها ، وينتحل علم الغيب بالنجاسة أو الرمل أو الطرق بالحصا أو الزجر ، ثم أكد هذا وقرّره بقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أي لو كنت أعلم جنس الغيب لثمرت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسي وتوقيت ما فيه سوء حتى لا يمضى ولكني عبد لا أدري ما عند ربي ، ولا ما قضاه في وقدره لي ، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه ؛ وقيل المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفه لفعلة ؛ وقيل لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب ؛ وقيل لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما سأل عنه ، والأولى حمل الآية على العموم فتنتزع هذه الأمور وغيرها تحتها ؛ وقد قيل إن (وما سئني سوء) كلام مستأنف أي ليس بي ما ترهبون من الجنون والأولى أنه متصل بما قبله والمعنى : لو علمت الغيب ما سئني سوء ولخذرت عنه كما قدّمنا ذلك . قوله (إن أنا إنذار وبشير لقوم يؤمنون) أي ما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوما وأبشر بها آخرين ولست أعلم بغيب الله سبحانه ، واللام في (لقوم) متعلق بكلا الصفتين : أي بشير لقوم ، ونذير لقوم ، وقيل هو متعلق ببشير ، والمتعلق بنذير محذوف : أي نذير لقوم بكفرون ، وبشير لقوم يؤمنون . قوله (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده وعدم مكافأتهم لما مما يجب من الشكر والاعتراف بالعبودية وأنه المنفرد بالإلهية . قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم ، وقوله (وجعل منها زوجها) معطوف على (خلقكم) أي هو الذي خلقكم من نفس آدم وجعل من هذه النفس زوجها ، وهي حواء خلقها من أضلع من أضلاعه ؛ وقيل المعنى (جعل منها) من جنسها كما في قوله - جعل لكم من أنفسكم أزواجا - والأول أولى (ليسكن إليها) هلة للجعل : أي جعله منها لأجل يسكن إليها يأنس إليها ويطمئن بها فإن الجنس ينجسه أسكن وإليه آنس ، وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار : ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما ، فقال (فلما تغشاها) ، والتغشى كناية عن الوقاع : أي فلما جامعها (حملت حملا خفيفا) خلقت به بعد الجماع ، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه حلقا ، وعند كونه حلقا أخف منه عند كونه مضغفا وعند كونه مضغفا أخف مما بعده وقيل إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه ، ولم تجد منه ثقلا كما تجده الحوامل من النساء لقوله (فرت به) أي استمرت بذلك الحمل تقوم وتقع وتتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلا ، والوجه الأول أولى لقوله (فلما أثقلت) فإن معناه : فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها ، وقرئ « فرت به » بالتخفيف : أي فجزعت لذلك ، وقرئ « فارت به » من المور ، وهو الهيج والذهاب ؛ وقيل المعنى : فاستمرت به . وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس ويحيى بن يعمر ، ورويت قراءة « فارت » عن عبد الله بن عمر ، وروى عن ابن عباس أنه قرأ « فاستمرت به » قوله (دعوا الله ربهما) جواب لما : أي دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما (لن آتينا صالحا) أي ولدا صالحا ، واللام جواب قسم محذوف ، و (لنكونن من الشاكرين) جواب القسم ساد مسد جواب الشرط : أي من الشاكرين لك على هذه النعمة ؛ وفي هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث في بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما وعلما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب (فلما آتاها) ما طلباه من الولد الصالح وأجاب دعاهما (جعلنا له شركاء فيها آتاها) قال كثير من المفسرين : إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها : إن ولدت ولدا فسميه باسمي فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحرث

والرسمى لما تعرفته فسمته عبد الحرث فكان هذا شركا في التسمية ولم يكن شركا في العبادة . وإنما قصدا
أن الحرث كان سبب نجاته الولد كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه كما قال حاتم الطائي :

وإلى لعبد الضيف مادام ثاويًا وما في إلا تلك من شيمة العبد

وقال جماعة من المفسرين : إن الجاعل شركا فيما آتاهما من جنس بني آدم كما وقع من المشركين منهم ولم يكن
ذلك من آدم وحواء ، ويدل على هذا جمع الضمير في قوله (فتمالى الله عما يشركون) وذهب جماعة من المفسرين
إلى أن معنى (من نفس واحدة) من هيئة واحدة وشكل واحد (وجعل منها زوجها) أى من جنسها (فلما تغشاها)
يعنى جنس الذكر جنس الأنثى ، وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى
الجنسين . وقد قدمنا الإشارة إلى نحو هذا وذكرنا أنه خلاف الأولى لأمر منها (وجعل منها زوجها) بأن هذا
إنما هو لحواء ، ومنها (دعوا الله ربهما) فإن كل مولود يولد بين الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا
الدعاء . وقد قرأ أهل المدينة وعاصم « شركا » على التوحيد ، وقرأ أبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع . وأنكر الأخفش
سعيد القراءة الأولى . وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف : أى جعل له ذا شرك ، أو ذوى شرك .
والاستفهام في (أبشركون ما لا يخلق شيئا) للتقريع والتوبيخ : أى كيف يجعلون لله شريكا لا يخلق شيئا ولا يقدر
على نفع لهم ولا دفع عنهم . قوله (وهم يخلقون) عطف على (ما لا يخلق) والضمير راجع إلى الشركاء الذين
لا يخلقون شيئا : أى وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون ، وجمعهم جمع العقلاء لا اعتقاد
من جعلهم شركاء أنهم كذلك (ولا يستطيعون لهم) أى لمن جعلهم شركاء (نصرا) إن طلبه منهم (ولا أنفسهم
ينصرون) إن حصل عليهم شيء من جهة غيرهم ، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال حم بن أبي قيس وشمول بن زيد
لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول فلنا نعلم ما هي ؟ فأنزل الله (يسألونك
عن الساعة أيا نمرساها قل إنما علمها عند ربى) إلى قوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وأخرج عبد بن حميد
وابن جرير عن قتادة (أيا نمرساها) أى متى قيامها ؟ (قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) قال : قالت
قريش يا محمد أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة ؟ قال (يسألونك كأنك حنى عنها قل إنما علمها عند الله)
وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول « نهيج الساعة بالناس والرجل يسقى على ماشيته ، والرجل
يصلح حوضه ، والرجل يخفص ميزانه ويرفعه ، والرجل يقيم سلعته في السوق قضاء الله لاتأتيكم إلا بغتة » وأخرج
ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أيا نمرساها) قال : منهاها . وأخرج ابن أبي شيبة
وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (لا يجليها لوقتها إلا هو) يقول : لا يأتي
بها إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا الله . وأخرج
ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (تثبت في السموات والأرض) قال : ليس شيء من الخلق إلا
يصيبه من ضرر يوم القيامة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ثقلت
في السموات والأرض) قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم . وأخرج ابن جرير
وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (ثقلت في السموات والأرض) قال : إذا جاءت انشقت السماء ،
وانتشرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وما يصيب الأرض ، وكان ما قال الله سبحانه فذلك
ثقلها فيهما . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (لاتأتيكم إلا بغتة) قال : فجأة آمين . وأخرج ابن أبي شيبة

وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في البعث عن مجاهد في قوله (كأنك حنى عنها) قال : استحييت عنها السؤال حتى علمتها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (كأنك حنى عنها) يقول : كأنك علم بها : أى لست تعلمها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عنه (كأنك حنى عنها) قال : لطيف بها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عنه أيضا (كأنك حنى عنها) يقول : كأن يحنك وبينهم مودة كأنك صديق لهم ، قال لما سألت الناس محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عن الساعة سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حنى عليهم ، فأوحى الله إليه (إنما علمها عند الله) استأثر بعلمها فلم يطلع ملكا ولا رسولا . وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس يقرأ «كأنك حنى عنها» وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) قال : الهدى والضلالة (ولو كنت أعلم الغيب) متى أموت (لاستكثر من الخير) قال : العمل الصالح . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثر من الخير) قال : لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا لأربح فيه (وما مسنى السوء) قال : ولا يصيبني الفقر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (وما مسنى السوء) قال : لاجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والرويانى والطبرانى وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «لما ولدت حواء طاف بها إبليس . وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سمية عبد الحرث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحرث فعاش ، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سمرة في قوله (فلما آتاها صالحا جعل له شركا) قال : سمية عبد الحرث . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي بن كعب نحو حديث سمرة المرفوع موقوفا عليه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : حملت حواء فأتاها إبليس فقال : إني صاحبكما الذى أخرجكما من الجنة لتطيعننى أو لأجعلن له قرني أبلى فيخرج من بطنك فيشققه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما : سمية عبد الحرث ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ، ثم حملت فأتاها أيضا فقال مثل ذلك . فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ، ثم حملت فأتاها فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحرث . فذلك قوله (جعل له شركاء فيما آتاها) . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال : كان هذا في بعض أهل الملل وليس بآدم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن سمرة في قوله (حملت حملا خفيفا) لم يستين (فرت به) لما استبان حملها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فرت به) قال : فشكت أحملت أم لا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أيوب قال : سئل الحسن عن قوله (فرت به) قال : لو كنت عربيا لعرفتها إنما هى استمرت بالحمل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى في قوله (حملت حملا خفيفا) قال : هى النطفة (فرت به) يقول استمرت به . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فرت به) قال : فاستمرت به . وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران (فرت به) يقول : استخفته . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في قوله (لئن آتيتنا صالحا) فقال : أشفقا أن يكون بهيمة ، فقالا لئن آتيتنا بشرا سويا . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال غلاما سويا . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله (جعل له شركاء) قال : كان شريكا في طاعة ولم يكن شريكا في عبادة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : ما أشرك آدم إن آتاه شكر ، وأخرها مثل ضربه لمن بعده .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله (فتعالى الله عما يشركون) هذا فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الحسن في الآية قال هذا في الكفار يدعون الله فإذا آتاهما صالحا هودا أو نصرا ، ثم قال (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون) يقول يطعون مالا يخلق شيئا . وهي الشياطين لا تخلق شيئا وهي تخلق (ولا يستطيعون لهم نصرا) يقول لمن يدعوهم .

وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٢)
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٣) اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ (١٩٤) إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٥) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٦) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٧) .

قوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم) هذا خطاب للمشركين : أي إن وتدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك ، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع ودفع الضرر ، والنصر على الأعداء . قال الأخفش معناه وإن تدعوهم : أي الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم . وقيل المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن . وقرئ : لا يتبعوكم ، مشدداً وخففاً وهما لغتان . وقال بعض أهل اللغة أتبعه مخففاً : إذا مضى خلفه ولم يدركه ، وأتبعه مشدداً : إذا مضى خلفه فأدركه ، وجملة (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) مقررّة لما قبلها : أي دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء لافرق بينهما ، لأنهم لا ينفعون ولا يضرّون ولا يسمعون ولا يجيبون ، وقال (أم أنتم صامتون) مكان أصمت لما في الجملة الاسمية من المبالغة . وقال محمد بن يحيى : إنما جاء بالجملة الاسمية لكونها رأس آية ، يعني لمطابقة (ولا أنفسهم ينصرون) وما قبله . قوله (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد الله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم ، لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون ، وهذه الأصنام ليست كذلك ، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره . وفي هذا تقرير لهم بالغ وتوبيخ لهم عظيم ، وجملة (فادعوهم فليستجيبوا لكم) مقررّة لما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم ، وأنهم لا يستطيعون شيئا : أي ادعوا هؤلاء الشركاء ، فإن كانوا كما تزعمون (فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضرر ، والاستغفار في قوله (ألهم أرجل) وما بعده للتقرير والتوبيخ : أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلا عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم ، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم (أرجل يمشون بها) في نفع أنفسهم فضلا عن أن يمشوا في نفعكم وليس (لهم أيدٍ يبطشون بها) كما يبطش غيرهم من الأحياء ، وليس (لهم أعين يبصرون بها) كما تبصرون ، وليس

(لم آذان يسمعون بها) كما تسمعون ، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات ، وبهذه المنزلة من العجز ، وأم في هذه المواضع هي المنطقة التي بمعنى بل والمهزة كما ذكره أئمة النحو . وقرأ سعيد بن جبير (إن الذين تدعون) بتخفيف إن ونصب عبادة : أي ما الذين تدعون (من دون الله عبادة أمثالكم) على إعمال إن النافية هل ما الحجازية وقد ضحفت هذه القراءة بأنها خلاف مارجحه سيويه وغيره من اختبار الرفع في خبرها ، وبأن الكسائي قال : إنها لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى « ما » إلا أن يكون بعدها إيجاب كما في قوله - إن الكافرون إلا في غرور - ، والبطش : الأخذ بقوة . وقرأ أبو جعفر (ييطشون) بضم الطاء ، وهي لغة ، ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام ، وتجاوز وجوه النقص والعجز لها من كل باب ، أمره الله بأن يقول لهم ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضرر (ثم كيديني) أنتم وهم جميعا بما شئتم من وجوه الكيد (فلا تنظرون) أي فلا تمهلوني ولا تؤخرون إنزال الضرر بي من جهتها ، والكيد : المكر ، وليس بعد هذا التحدثي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء ثم قال لهم (إن ولي الله الذي نزل الكتاب) أي كيف أخاف هذه الأصنام التي هذه صفتها ولي ولي ألبا إليه وأستنصر به وهو الله عز وجل (الذي نزل الكتاب) وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها - ولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع منه الضرر (وهو يتولى الصالحين) أي يحفظهم وينصرهم ، ويحول ما بينهم وبين أعدائهم قال الأنخفش : وقرئ (إن ولي الله الذي نزل الكتاب) يعني جبرائيل . قال النحاس : هي قراءة عاصم الجحدري والقراءة الأولى آيين لقوله (وهو يتولى الصالحين) . قوله (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) كرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير ، ولما في تكرار التوبيخ والتقريع من الإهانة للمشركين والنقص بهم ، وإظهار مخف عقولهم ، وركاكة أحلامهم (وتراهم ينظرون إليك) جملة مبتدأة لبيان عجزهم ، أو حاله : أي والحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون ، والمراد : الأصنام إنهم يشبهون الناظرين ، ولا أعين لم يبصرون بها ، قيل : كانوا يجعلون للأصنام أعينا من جواهر مصنوعة ، فكانوا بذلك في هيئة الناظرين ولا يبصرون وقيل المراد بذلك المشركون ، أخبر الله عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينضعوا بأبصارهم ، وإن أبصروا بها غير ما فيه نفهم .

وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : يجاء بالشمس والقمر حتى يلتقيا بين يدي الله تعالى . ويجاء بمن كان بعدهما ، فيقال (أدعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وتراهم ينظرون إليك) قال : هؤلاء المشركون . وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد في قوله (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) ما يدعوهم إليه من الهدى .

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طُغْيَانٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

تَرْحَمُونَ (٢٠٤) وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْقُدُّو
وَالْأَصَابِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦).

قوله (خذ العفو) لما عدد الله ماعدده من أحوال المشركين وتسفيه رأيهم وفضلال سعيهم : أمر رسوله
صلى الله عليه وآله وسلم بأن يأخذ العفو من أخلاقهم : يقال أخذت حتى عفوًا : أى سهلاً . وهذا نوع من
التيسير الذى كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما ثبت فى الصحيح أنه كان يقول « يسروا ولا تعسروا
وبشروا ولا تنفروا » والمراد بالعفو هنا ضد الجهد ، وقيل المراد : خذ العفو من صدقاتهم ولا تشدد عليهم فيها
وتأخذ ما يشق عليهم ، وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة (وأمر بالعرف) أى بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمر
« بالعرف » بضمين ، وهما لغتان ، والعرف والمعروف والعارفة : كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها
النفوس ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

(وأعرض عن الجاهلين) أى إذا أقمت الحجة فى أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا ، فأعرض عنهم ولا تمارهم
ولا تسافهم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة : قيل وهذه الآية هى من جملة ما نسخ بأية السيف ، قاله
عبد الرحمن بن زيد وعطاء : وقيل هى محكمة ، قاله مجاهد وقتادة . قوله (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ
الوسوسة وكذا النزغ والنخس . قال الزجاج : النزغ أدنى حركة تكون . ومن الشيطان أدنى وسوسة : وأصل
النزغ : الفساد ، يقال نزغ بيننا : أى أفسد ، وقيل النزغ : الإغواء ، والمعنى متقارب ، أمر الله سبحانه نبيه
صلى الله عليه وآله وسلم إذا أدرك شيئاً من وسوسة الشيطان أن يستعذ بالله : وقيل إنه لما نزل قوله (خذ العفو)
قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كيف يارب بالغضب » فنزلت : وجملة (إنه سميع عليم) علة لأمره بالاستعانة
أى استعذ به والتجئ إليه ، فإنه يسمع ذلك منك ويعلم به ، وجملة (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان
تذكروا) مقررّة لمضمون ما قبلها : أى إن شأن الذين يتقون الله وحالم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعانة
به والالتجاء إليه عند أن يمسه طائف من الشيطان وإن كان يسيراً . قرأ أهل البصرة (طيف) وكذا أهل مكة . وقرأ
أهل المدينة والكوفة (طائف) . وقرأ سعيد بن جبير (طيف) بالتشديد . قال النحاس : كلام العرب فى مثل هذا
طيف بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف . قال الكسائى : هو مخفف مثل ميت وميت . قال النحاس
ومعناه فى اللغة ما يتخيل فى القلب أو يرى فى النوم . وكذا معنى طائف . قال أبو حاتم : سألت الأصمعى عن
طيف فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس : ليس هو مصدراً ولكن يكون بمعنى طائف ، وقيل : الطيف
والطائف معنيان مختلفان ، فالأول التخيل ، والثانى الشيطان نفسه ، فالأول من طاف الخيال بطوف طيفا ،
ولم يقولوا من هذا طائف . قال السهيلي : لأنه تخيل لاحقيقة له ، فأما قوله - فطاف عليها طائف من ربك - فلا
يقال فيه طيف لأنه اسم فاعل حقيقة . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف ، فطاف الخيال يطيف . قال حسان :

فدع هذا ولكن من لطيف .. يورقنى إذا ذهب الغشاء

وسميت الوسوسة طيفا لأنها من الشيطان تشبه لمة الخيال (فإذا هم مبصرون) بسبب التذكر : أى متبهون

وقيل على بصيرة . وقرأ سعيد بن جبير (تذكروا) بتشديد الذال . قال النحاس : ولا وجه له في الغريبة . قوله (وإخوانهم يمدونهم في الغنى) قيل المعنى : وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الإنس على أن الضمير في إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقا ، والمراد به الجنس ، فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه . (يمدونهم في الغنى) أى تمدّهم الشياطين في الغنى وتكون مددا لهم ، وسميت الفجار من الإنس إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتلون بهم ؛ وقيل : إن المراد بالإخوان الشياطين وبالضمير الفجار من الإنس ، فيكون الخبر جاريا على من هو له . وقال الزجاج : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا أنفسهم ينصرون (وإخوانهم يمدونهم في الغنى) لأن الكفار إخوان الشياطين ، (ثم لا يقصرون) الاقصار : الانتهاء عن الشيء . أى لا تقصر الشياطين في مدّ الكفار في الغنى ، قيل إن في الغنى متصلا بقوله (يمدونهم) وقيل بالإخوان ، والغنى : الجهل . قرأ نافع (يمدونهم) بضم حرف المضارعة وكسر الميم . وقرأ الباقون بفتح حرف المضارعة عوضا عن الميم ، وهما لغتان : يقال مدّ وأمد . قال مكى : ومدّ أكثر . وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة : فإنه يقال إذا كثر شيء شيئا بنفسه مدّه ، وإذا كثره غيره ، قيل أمدّه نحو - يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة - وقيل يقال مددت في الشرّ وأمددت في الخير . وقرأ عاصم الجحدري (يمدونهم في الغنى) . وقرأ عيسى بن عمر (ثم لا يقصرون) بفتح الباء وضم الصاد وتخفيف القاف . قوله (وإذا لم تأتكم بأية قالوا لولا اجتبيتها) اجتبي الشيء بمعنى جباه لنفسه : أى جمعه أى هلا اجتمعها افتعالا لها من عند نفسك ؛ وقيل المعنى اختلقها ، يقال اجتبيت الكلام : انتحلته واختلقته واختبرته إذا جئت به من عند نفسك ، كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا تراخى الوحي هذه المقالة ، فأمره الله بأن يجب عليهم بقوله (إنما أتبع ما يوحى إلى) أى لست ممن يأتي بالآيات من قبل نفسه كما ترعمون (بل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي) فما أوحاه إلى وأنزله على أبلغته إليكم ، وبصائر جمع بصيرة : أى هذا القرآن المنزل على هو (بصائر من ربكم) يتبصر بها من قبلها ؛ وقيل البصائر الحجج والبراهين . وقال الزجاج : البصائر الطرق (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) معطوف على بصائر : أى هذا القرآن هو بصائر وهدى يهتدى به المؤمنون ورحمة لهم . قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) أمرهم الله سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته لينصتوا به ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح ؛ قيل : هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الامام ، ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا والعام لا يقصر على سببه ، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل حالة وعلى أى صفة مما يجب على السامع ؛ وقيل هذا خاص بقراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن دون غيره ولا وجه لذلك (لعلمكم ترحمون) أى تتألون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه ، ثم أمره الله سبحانه أن يذكره في نفسه ، فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأدعى للقبول ؛ قيل المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن وغيره من الأذكار التي يذكر الله بها . وقال النحاس : لم يختلف في معنى (واذكر ربك في نفسك) أنه الدعاء ؛ وقيل هو خاص بالقرآن : أى اقرأ القرآن بتأمل وتدبرا و (تضرعا وخيفة) متصيان على الحال : أى متضرعا وخائفا ، والخيفة : الخوف ، وأصلها خوفا قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . وحكى الفراء أنه يقال في جمع خيفة خيف . قال الجوهري : والخيفة الخوف والجمع خيف ، وأصله الواو : أى خوف (ودون الجهر من القول) أى دون المجهور به من القول وهو معطوف على ما قبله : أى متضرعا ، وخائفا ، ومتكلما بكلام هو دون الجهر من القول ، و (بالغدوة والآصال) متعلق بذكر أى أوقات الغدوات ولوقت الآصال ، والغدوة : جمع غدوة ، والآصال : جمع أصيل ، قاله الزجاج والأخفش ، مثل

يمين وأيمن : وقيل الأصل جمع أصل . والأصل جمع أصيل فهو على هذا جمع الجمع ، قاله الفراء . قال الجوهري الأصل الوقت من بعد العصر إلى المغرب . وجمعه أصل وأصاله وأصائل كأنه جمع أصيلة . قال الشاعر :

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفئته بالأصائل

ويجمع أيضا على أصلان مثل بعير وبعران . وقرأ أبو مجلز « والإيصال » وهو مصدر . وخص هذين الوقتين لشرفهما ، والمراد دوام الذكر لله (ولا تكن من الغافلين) أى عن ذكر الله (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته) المراد بهم الملائكة . قال القرطبي : بالإجماع . قال الزجاج : وقال عند ربك والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته . وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده . وقال غيره : لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله : وقيل إنهم رسل الله كما يقال عند الخليفة جيش كثير . وقيل هذا على جهة التشريف والتكريم لهم ، ومعنى (يسبحونه) يعظمونه ويبرزونه عن كل شين (وله يسجدون) أى يخضونه بعبادة السجود التى هى أشرف عبادة : وقيل المراد بالسجود الخضوع والذلة . وفى ذكر الملأ الأعلى تعريض لبنى آدم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخارى وأبو داود والنسائي والنحاس فى ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن الزبير فى قوله (خذ العفو) الآية قال : ما نزلت هذه الآية إلا فى اختلاف الناس . وفى لفظ : أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله (خذ العفو) قال : أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي قال : لما أنزل الله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما هذا يا جبريل ؟ قال : لأدرى حتى أسأل العالم . فذهب ثم رجع فقال : إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك . وتعطى من حرمك . وتصل من قطعك . وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه . وأخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال : لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمزة بن عبد المطلب قال : والله لأمثلن بسبعين منهم ، فجاء جبريل بهذه الآية . وأخرج ابن مردويه عن عائشة فى قوله (خذ العفو) قال : ما عفا لك من مكارم الأخلاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (خذ العفو) قال : خذ ما عفا من أموالهم ما أتوك به من شيء فخذ ، وهذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة وتفصيلها . وأخرج ابن جرير والنحاس فى ناسخه عن السدى فى الآية قال : الفضل من المال نسخته الزكاة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزل (خذ العفو) الآية . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كيف بالغضب يارب ؟ فزل (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) » . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (إن الذين اتقوا) قال هم المؤمنون . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (إذا مسهم طيف من الشيطان) قال : الغضب . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الطيف الغضب . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (تذكروا) قال : إذا زلوا تابوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال الطائف : اللمة من الشيطان (تذكروا فإذا هم مبصرون) يقول : فإذا هم منتهون عن المعصية آخذون بأمر الله عاصون للشيطان (وإخوانهم) قال : إخوان الشياطين (بعدونهم فى الغي ثم لا يقصرون) قال : لا الإنس يمسون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم و (إذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) يقول :

لولا أحدثها لولا تلقينها فأنشأتها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه (وإخوانهم بمدونهم في الفنى) قال : هم الجنّ يوحون إلى أوليائهم من الإنس (ثم لا يقصرون) يقول : لا يسأمون (وإذا لم تأت بهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) يقول : هلا افعلتها من تلقاء نفسك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن حبان عن أبي هريرة في قوله (وإذا قرئ القرآن) الآية قال : نزلت في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال : يعنى في الصلاة المفروضة . وأخرج ابن مردويه والبيهقي عنه قال : صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فقرأ خلفه قوم فخلطوا ، فنزلت (وإذا قرئ القرآن) الآية ، فهذه في المكتوبة . قال : وإن كنا لم نسمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن مفضل نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن ابن مسعود نحوه أيضا ، وقد روى نحوه هذا عن جماعة من السلف ، وصرخوا بأن هذه الآية نزلت في قراءة الصلاة من الإمام . وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن في الآية قال : عند الصلاة المكتوبة . وعند الذكر . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في الآية قال : في الصلاة وحين ينزل الوحي . وأخرج البيهقي عنه في الآية أنه قال : هذا في الصلاة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وإذا ذكر ربك في نفسك) الآية قال : أمره الله أن يذكره ، ونهاه عن الغفلة : أما بالغلو فصلاة الصبح ، والآصال بالعشى . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حمزة . قال : الآصال ما بين الظهر والعصر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال : لا يجهر بذاك (بالغلو والآصال) بالبكر والعشى . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (بالغلو) قال : آخر الفجر صلاة الصبح ، والآصال آخر العشى صلاة العصر ، والأحاديث والآثار عن الصحابة في سجود التلاوة ، وعدد المواضع التي يسجد فيها ، وكيفية السجود وما يقال فيه مستوفاة في كتب الحديث والفقه فلا نطول بإيراد ذلك ها هنا .

تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ولم يستثنوا منها شيئا ، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء . وقد روى مثل هذا عن ابن عباس ، أخرجه النحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : سورة الأنفال نزلت بالمدينة . وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير . وأخرجه ابن مردويه أيضا عن زيد بن ثابت . وأخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : نزلت في بدر . وفي لفظ تلك سورة بدر . قال القرطبي : قال ابن عباس هي مدنية لإسبع آيات من قوله - وإذا يمكر بك الذين كفروا - إلى آخر سبع آيات ، وجملة آيات هذه السورة ست وسبعون آية ، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب كما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن أبي أيوب . وأخرج أيضا عن زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ في الركعتين من المغرب بسورة الأنفال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١).

الأنفال جمع نفل محرّكا . وهو الغنيمة . ومنه قول عنترة :

إنا إذا احمرّ الوغى نروى القنأ ونعف عند مقاسم الأنفال

أى الغنائم . وأصل النفل : الزيادة . وسميت الغنيمة به لأنها زيادة فيما أحلّ الله لهذه الأمة بما كان محرّما على غيرهم . أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد . ويطلق النفل على معان أخر منها الميمن . والابتغاء ونبت معروف . والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب . والنافلة : ولد الولد . لأنه زيادة على الولد وكان سبب نزول الآية : اختلاف الصحابة رضى الله عنهم في يوم بدر كما سيأتى بيانه فزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول ، فقال (قل الأنفال لله والرسول) أى حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه وليس لكم حكم في ذلك .

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء حتى نزل قوله تعالى - واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسة - ثم أمرهم بالتقوى . وإصلاح ذات البين . وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما . وترك الاختلاف الذى وقع بينهم . ثم قال (إن كنتم مؤمنين) أى امثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله . وفيه من التهييج والإلهاب مالا يخفى . مع كونهم في تلك الحال على الإيمان فكانه قال : إن كنتم مستمرين على الإيمان بالله . لأن هذه الثلاثة الأمور التى هى تقوى الله . وإصلاح ذات البين . وطاعة الله والرسول . لا يكمل الإيمان بدونها . بل لا يثبت أصلا لمن لم يمثّلها . فإن من ليس بمتمق وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن .

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقى في سننه عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلقتنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا . فأنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . فقسّمه رسول الله بين المسلمين عن بواء يقول عن سواء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى في سننه عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشهدت معه بدرا . فالتقى الناس فهزم الله العدو . فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون . وأكبت طائفة على العسكر بخوزونه ويجمعونه . وأحدثت طائفة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحقّ بها منا نحن نفينا عنه العدو وهزمتناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لستم بأحقّ بها منا نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به . فنزلت (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) قسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أغار في الأرض

فصل نقل الرجع ، وإذا أقبل راجعا وكل الناس نقل الثالث . وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قوى المسلمين على ضعيفهم . وأخرج إسماعيل بن راهويه في مسنده وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من آتاه بشيء نفعه من الخمس . فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون وتركوا الغنائم خلفهم . فلم ينالوا من الغنائم شيئا . فقالوا : يا رسول الله ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون ، وتحلف رجال لم يصلوا بالقتال فنقلتهم بالغنيمة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزل (يسألونك عن الأنفال) الآية . فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال وردوا ما أخذتم واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك ، فقالوا : قد أنفقنا وأكلنا ، فقال احتسبوا ذلك ، وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال قلت : يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : « إن هذا السيف لالك ولالي . ضعه . فوضعت . ثم رجعت قلت عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يلبى بلأني إذا رجل يدعوني من ورائي . قلت : قد أنزل الله في شيئا ؟ قال : كنت سألتني هذا السيف وليس هو لي . وإنه قد وهب لي فهو لك » وأنزل الله هذه الآية (يسألونك عن الأنفال) وفي لفظ لأحمد أن سعدا قال : لما قتل أخى يوم بدر وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكنية فأنبت به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم ذكر نحو ما تقدم وقد روى هذا الحديث عن سعد من وجوه أخر . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم يوم بدر فنزلت (يسألونك عن الأنفال) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : لم ينفل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد إذ نزلت عليه (يسألونك عن الأنفال) إلا من الخمس فإنه نقل يوم خيبر من الخمس . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا . فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات . وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداء . ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا ، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت (يسألونك عن الأنفال) الآية . فقسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم بينهم بالسوية » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : الأنفال المغام . كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به . فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعطيهم منها شيئا فأنزل الله (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال) لي جعلها لرسولي ليس لكم فيها شيء . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) إلى قوله (إن كنتم مؤمنين) ثم أنزل الله - واعلموا أنما غنمتم من شيء - الآية ، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولذي القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله . وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء . للفرس سهمان . ولصاحبه سهم . وللمرأجل سهم . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : هي الغنائم ، ثم نسخها - واعلموا أنما غنمتم من شيء - الآية . وأخرج مالك وابن أبي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن القسم بن محمد قال : سمعت رجلا

يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال : الفرير من النفل والسلب من النفل . فأعاد المسئلة فقال ابن عباس : هذا مثل ضبيع الذي ضربه عمر : وفي لفظ : فقال ما أخرجك أن يصنع بك كما صنع عمر بضبيع العراقي ، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : الأنفال المغنم ، أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها فيرد القوي على الضعيف . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ عن عطاء في قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال ، من عبد أودابة أو متاع فذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يصنع به ما شاء وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال : أرسلنا إلى سعيد بن المسيب نسأله عن الأنفال فقال : نسألوني عن الأنفال وإنه لانفل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج عبد الرزاق عن سعيداً أيضاً قال : ما كانوا ينفلون إلا من الخمس وروى عبد الرزاق عنه أنه قال : لانفل في غنائم المسلمين إلا في خمس الخمس . وأخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينقله قبل أن يخمسه فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله (يسألونك عن الأنفال) قال : ما أصابت السرايا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير والنحاس في ناسخه عن مجاهد وعكرمة قال : كانت الأنفال لله وللرسول حتى نسخها آية الخمس . واعلموا أنما غنمتم من شيء - الآية . وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد : وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله (وأصلحوا ذات بينكم) قال : هذا تخريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا في الأنفال . وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول قال : كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم . ففهمت بين من ثبت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين من قاتل وغم . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله (وأطيعوا الله ورسوله) قال : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) .

الوجل الخوف والفرع . والمراد أن حصول الخوف من الله والفرع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكامل الإيمان المخلصين لله . فالخسر باعتبار كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان . قال جماعة من المفسرين : هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمر به من قسمة الغنائم ، ولا يخفك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية . من جهة أن وجل القلوب عند الذكر وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يستلزم امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول . ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال . ولا بوقت دون وقت . ولا بواقعة دون واقعة ، والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المتزلة أو التعبير عن بديع صنعته وكمال قدرته في آياته التكوينية بذكر خلقها البديع وعجائبها التي يخشع عند ذكرها المؤمنون . قيل والمراد بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانتلاج الخاطر عند تلاوة الآيات : وقيل المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل ، لأن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص . والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه (وعلى ربهم يتوكلون) لاعلى غيره . والهوكل

حل الله : تفويض الأمر إليه في جميع الأمور والموصول في قوله (الذين يقيمون الصلاة) في محل رفع على أنه وصف للموصول الذي قبله، أو يدل منه أو يبان له أو في محل نصب على المدح، وخص إقامة الصلاة والصدقة لكونهما أصل الخير وأساسه . و « من » في (مما) للتبعية والإشارة بقوله (أولئك) إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة وهو مبتدأ وخبره (هم المؤمنون) أي أن هؤلاء هم الكاملون بالإيمان البالغون فيه إلى أعلا درجاته وأقصى غاياته و (حقا) مصدر مؤكد لمضمون جملة هم المؤمنون : أي حق ذلك حقا أو صفة مصدر محذوف : أي هم المؤمنون إيمانا حقا ، ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعا بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال (لهم درجات) أي منازل خير وكرامة وشرف في الجنة كائنة عند ربهم وفي كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم وتعظيم وتقدير . وجملة (لهم درجات عند ربهم) خبر ثان (أولئك) أو مستأنفة جوابا لسؤال مقدر ، (ومغفرة) معطوف على درجات أي مغفرة لذنوبهم (ورزق كريم) يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وجلت قلوبهم) قال : فرقت قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في الآية قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه . ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله . ولا يصلون إذا غابوا . ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه . وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجمل في القلب كاحترق السعفة بأشهر بن حوشب ، أما تجد شعيرة ؟ قلت بلى ، قالت : فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك . وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال : قال فلان : إني لأعلم متى يستجاب لي ؟ قالوا : ومن أين لك ؟ قال : إذا اقشعر جلدي ووجل قلبي وفاضت عياني ، فذلك حين يستجاب لي . وأخرج أيضا عن عائشة قالت ما للوجل في قلب المؤمن إلا كضربة السعفة ، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمل بمعصية فيقال له اتق الله فيجعل قلبه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (زادهم إيمانا) قال : تصديقا . وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس في قوله (زادهم إيمانا) قال : خشية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وعلى ربهم يتوكلون) يقول : لا يرجون غيره . وأخرج عنه في قوله (أولئك هم المؤمنون حقا) قال : برئوا من الكفر . وأخرج أبو الشيخ عنه (حقا) قال : خالصا . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (لهم درجات) يعني فضائل ورحمة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (لهم درجات) قال : أعمال رفيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله (لهم درجات) قال : أهل الجنة بعضهم فوق بعض . فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه . ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (ومغفرة) قال : بترك الذنوب (ورزق كريم) قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال إذا سمعتم الله يقول (ورزق كريم) فهي الجنة .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُونَ (٥)

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ

يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبُطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨).

قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) قال الزجاج : الكاف في موضع نصب : أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق : أى مثل إخراج ربك . والمعنى : امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت وإن كرهوا ، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : بنى أكثر الناس بغير شيء . فوضع الكاف نصب كما ذكرنا . وبه قال الفراء وقال أبو عبيدة : هو قسم : أى والذي أخرجك . فالكاف بمعنى الواو . وما بمعنى الذى . وقال الأخفش سعيد بن مسعدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك . وقال عكرمة المعنى : أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك ، وقيل كما أخرجك متعلق بقوله (لهم درجات) أى هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الواجب له . فأجر وعدك وظفرك بعدوك وأوفى لك . ذكره النحاس واختاره ، وقيل الكاف فى « كما » كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده : كما وجهتك إلى أعدائى فاستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقويتك وأزحت علتك فخذهم الآن فعاقبهم ، وقيل إن الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك يعنى أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب . ذكره صاحب الكشاف وبالحق متعلق بمحذوف ، والتقدير : إخراجا متلبسا بالحق الذى لاشبهة فيه . وجملة (وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) فى محل نصب على الحال : أى كما أخرجك فى حال كراهتهم لذلك . لأنه لما وعدمهم الله إحدى الطائفتين . إما العير أو النفير . وغبوا فى العير لما فيها من الغنيمة والسلامة من القتال كما سيأتى بيانه . وجملة (يجادلونك فى الحق بعد ما تبين لهم) إما فى محل نصب على أنها حال بعد حال ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر ، ومجادلتهم لما ندبهم إلى إحدى الطائفتين . وفات العير وأمرهم بقتال النفير ولم يكن معهم كثير أهبة ، لذلك شق عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة وأكلنا الأهبة . ومعنى (فى الحق) أى فى القتال بعد ما تبين لهم أنك لاتأمر بالشئ إلا بإذن الله . أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدمهم بالظفر بإحدى الطائفتين ، وأن العير إذا فانت ظفروا بالنفير ، وه بعد ، ظرف لجادلونك ومامصلرية أى يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم . قوله (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) الكاف فى محل نصب على الحال من الضمير فى (لكارهون) أى حال كونهم فى شدة فرعهم من القتال يشبهون حال من يساق ليقتل وهو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها لا يشك فيها . قوله (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) الظرف منصوب بفعل مقدر : أى واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث لقصد المبالغة ، والطائفتان : هما العير والنفير . وإحدى هو ثانى مفعولى يعد ، و (أنها لكم) بدل منه بدل اشتمال . ومعناه : أنها مسخرة لكم وأنكم تغلبونها وتغنمون منها وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة . لا يطيقون لكم دفعا ولا يملكون لأنفسهم منكصرا ولا نفا . وفى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم الله بها عليهم . قوله (وتودون) معطوف على (يعدكم) من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها (أن غير ذات الشوكة) من الطائفتين . وهى طائفة العير (تكون لكم) مؤن

ذات الشوك ، وهي طائفة النفير . قال أبو عبيدة : أى غير ذات الحد . والشوك : السلاح ، والشوك : النبت الذى له حد . ومنه رجل شائك السلاح : أى حديد السلاح ، ثم يقلب فيقال شاكى السلاح ، فالشوك مستعارة من واحدة الشوك ، والمعنى : وتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح . وهي طائفة النفير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها . قوله (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) معطوف على (تودون) وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته : أى ويريد الله غير ما تريدون وهو أن يحق الحق بإظهاره لما قضاه من ظفركم بذات الشوك ، وقتلكم لصناديدهم ، وأسر كثير منهم ، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم وراموا دفعكم بها ، والمراد بالكلمات : الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوك ، ووعدكم منه بالظفر بها (ويقطع دابر الكافرين) الدابر الآخر ، وقطعه عبارة عن الاستئصال . والمعنى : ويستأصلهم جميعا . قوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) هذه الجملة علة لما يريد الله : أى أراد ذلك ، أو يريد ذلك ليظهر الحق ويرفعه (ويبطل الباطل) وبضعه . أو اللام متعلقة بمحذوف : أى فعل ذلك ليحق الحق . وقيل متعلق بيقطع . وليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها لأن الأولى لبيان التفاضل فيما بين الإرادتين ، وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك . والعلة المقتضية له . والمصلحة المترتبة عليه . وإحقاق الحق لإظهاره ، وإبطال الباطل لإعدامه . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق - ومفعول (ولو كره المجرمون) محذوف : أى ولو كرهوا أن يحق الحق ويبطل الباطل ، والمجرمون هم المشركون من قريش . أوجيع طوائف الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن بالمدينة . وبلغه أن غير أبى سفيان قد أقبلت فقال « ماترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا . فخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نتعاد . ففعلنا فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر . فأخبرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدتنا . فسر بذلك وحمد الله وقال : عدة أصحاب طالوت ، فقال : ماترون فى قتال القوم فلمهم قد أخبروا بمخرجكم ، فقلنا : يارسول الله . لا والله مالنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للغير . ثم قال : ماترون فى قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك ، فقال المقداد : لاتقولوا كما قال قوم موسى لموسى - اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون - فأنزل الله (كما أخرجك ربك) إلى قوله (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين ، إما القوم وإما العير ، طابت أنفسنا ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم إنى أنشدك وعدك ، فقال ابن رواحة : يارسول الله إنى أريد أن أشير عليك ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من أن يشير عليه ، إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده ، فقال : يا ابن رواحة لأنشدن الله وعده ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى وجوه القوم فانهزموا ، فأنزل الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فقتلنا وأسرا . فقال عمر : يارسول الله ما أرى أن يكون لك أسرى فلما نحن داعون مؤلفون ، فقلنا : يامعشر الأنصار إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا . فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم استبىظ فقال : ادعوا لى عمر ، فدعى له فقال : إن الله قد أنزل على - ما كان لنبى أن يكون له أسرى - الآية . وفى إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف . وأخرج ابن أبى شيبه فى المصنف وابن مردويه عن محمد بن عمرو ابن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال كيف ترون ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله بلغنا أنهم كذا وكذا ثم خطب

الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال عمر مثل قول أبي بكر . ثم خطب الناس فقال : كيف ترون ؟ فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله إيانا تريد . فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم ولئن سرت حتى تأتي برك العماد من ذي يمن لتسيرن معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى - اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون - ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره . فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له . فصل حبال من شئت . واقطع حبال من شئت . وعاد من شئت وسلم من شئت . وخذ من أموالنا ما شئت . فنزل القرآن على قول سعد (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) إلى قوله (ويقطع دابر الكافرين) وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد الغنيمة مع أبي سفيان فأحدث الله إليه القتال . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) قال : كذلك يجادلونك في خروج القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) قال : خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بدر (وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) قال : لطلب المشركين (يجادلونك في الحق بعد ما تبين) أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) قال : هي غير أبي سفيان ود أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن العير كانت لهم وأن القتال صرف عنهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (ويقطع دابر الكافرين) أي شافهم . ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث والسير والتاريخ مستوفاة فلا تطيل بدكرها .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

قوله (إذ تستغيثون) الظرف متعلق بمحذوف : أي واذكروا وقت استغاثتكم ؛ وقيل بدل من - وإذ بعدكم الله - معمول لعامله ؛ وقيل متعلق بقوله (ليحق الحق) والاستغاثة : طلب العوث ، يقال : استغاثني فلان فأغثته والاسم الغياث ؛ والمعنى : أن المسلمين لما علموا أنه لا بد من قتال الطائفة ذات الشوكة وهم النضير كما أمرهم الله بذلك وأرادهم منهم ورأوا كثرة عدد النفير وقلة عددهم استغاثوا بالله سبحانه ؛ وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف . وعدد المسلمين ثلثمائة وسبعة عشر رجلا ، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى ذلك استقبل القبلة . ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ، الحديث (فاستجاب لكم) عطف على تستغيثون داخل معه في التذكير . وهو وإن كان مستقبلا فهو بمعنى الماضي ؛ ولهذا عطف عليه استجاب . قوله (أني ممدكم بآلف من الملائكة) أي بأنى ممدكم فحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى للمفعول وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول ، أو على أن في استحباب معنى القول . قوله (مردفين) قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول . وقرأ الباقر بكسرها اسم قاعل وانتصابه على الحال ، والمعنى على القراءة الأولى : أنه جعل بعضهم تابعا لبعض ، وعلى القراءة الثانية : أنهم جعلوا بعضهم تابعا لبعض ؛ وقيل إن مردفين على القراءتين نعت لآلف . وقيل إنه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب في ممدكم : أي ممدكم في حال إردافكم بآلف من الملائكة ؛

وقد قيل إن زدف وأردف بمعنى واحد ، وأنكره أبو عبيدة قال : نقوله تعالى - تتبعها الرادفة - ولم يقل المردفة قال سيبويه : وفي الآية قراءة ثالثه وهي « مردقين » بضم الراء وكسر الدال مشددة . وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال . وقرا جفر بن محمد وعاصم الجحدري « بالآف » جمع ألف ، وهو الموافق لما تقدم في آل عمران ، والضمير في « وما جعله الله » راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله « أنى بمدكم » (إلا بشرى) أى إلا بشارة لكم بنصره ، وهو استثناء مفرغ : أى ما جعل إمدادكم لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر (ولتطمئن به) أى بالإمداد قلوبكم ، وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا ، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم وتطمئن قلوبهم وتثبتها ، واللام في لتطمئن متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخرا : أى ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر (وما النصر إلا من عند الله) لأن من عند غيره ليس للملائكة في ذلك أثر ، فهو الناصر على الحقيقة ، وليسوا إلا سببا من أسباب النصر على سببها الله لكم وأمدكم بها (إن الله عزيز) لا يغالب (حكيم) في كل أفعاله .

وقد أخرج ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال : نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيها أبو بكر ، وتزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأما في الميسرة . وأخرج سنيد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ما أمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأكثر من هذه الألف التي ذكر الله في الأنفال ، وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف إلا بشري . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (مردفين) قال : متابعين . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (مردفين) يقول : المدد . وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضا في الآية قال : وراء كل ملك ملك . وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزليين ، فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين في ثغورهم . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (مردفين) قال : مجذّين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : متابعين أمدّهم الله بألف ثم بثلاثة ، ثم أكملهم خمسة آلاف (وما جعله الله إلا بشري) لكم (ولتطمئن به قلوبكم) قال : يعني نزول الملائكة . قال : وذكر لنا أن عمر قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا وأما بعد ذلك لله أعلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد (مردفين) قال : يعطهم على أثر بعض .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمُفْلُوقُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

قوله (إذ ينشاكم) الظرف منصوب بفعل مقدّر كالذي قبله ، أو بدل ثان من إذ يعدكم ، أو منصوب بالنصر المذكور قبله ، وقيل غير ذلك مما لا وجه له ، و (ينشيككم) هي قراءة نافع وأهل المدينة على أن القاعل هو الله سبحانه ، وهذه القراءة هي المطابقة لما قبلها : أهي قوله (وما النصر إلا من عند الله) ولما بعدها أعني (وينزل

عليكم) فيتشاكل الكلام ويتناسب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (بفشاكم) على أن الفاعل الناس ، وقرأ الباقون (بفشيكم) بفتح الغين وتشديد الشين ، وهي كقراءة نافع وأهل المدينة في إسناد الفعل إلى الله ، ونصب الناس قاله مكى : والاختيار ضم الياء والتشديد ، ونصب الناس لأن بعده (أمة منه) والهاء في منه لله فهو الذي يفشيهم الناس ، ولأن الأكثر عليه ، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب أمة على أنها مفعول له . ولا يحتاج في ذلك إلى تأويل وتكلف ، لأن فاعل الفعل المعلن والعلة واحد بخلاف انتصابها على العلة ، باعتبار القراءة الثانية فإنه يحتاج إلى تكلف ، وأما على جعل الأمة مصدراً فلا إشكال ، يقال أمن أمة وأماناً وأماناً ، وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم . وهي أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين ، وكان هذا النوم في الليلة التي كان القتال في غدها . قيل وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان : أحدهما أنه قوامهم بالاستراحة على القتال من الغد ، الثاني أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم ، وقيل إن النوم غشيم في حال التقاء الصفيين ، وقد مضى في يوم أحد نحو من هذا في سورة آل عمران . قوله (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) هذا المطر كان بعد الناس . وقيل قبل الناس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر ، فزّلوا عليه وبقي المؤمنون لأماء لهم ، فأنزل الله المطر ليلة بدر . والذي في سيرة ابن إسحاق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم . ولم يصب للمسلمين منه إلا ما شذ لم دهم الوادي وأعانهم على المسير ، ومعنى (ليطهركم به) ليرفع عنكم الأحداث (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أي وسوسته لكم بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التي هي منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت (وليربط على قلوبكم) فيجعلها صابرة قوية ثابتة في مواطن الحرب ، والضمير في (به) من قوله (ويثبت به الأقدام) راجع إلى الماء الذي أنزله الله : أي يثبت بهذا الماء الذي أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم في مواطن القتال ، وقيل الضمير راجع إلى الربط المدلول عليه بالفعل . قوله (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم) للطرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه لا يقف على ذلك سواه : أي واذكر يا محمد وقت إيجاء ربك إلى الملائكة ، وقيل هو بطل من (إذ يبعثكم) كما تقدم ولكنه بأي ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون فلا يكون من جملة النعم التي عدها الله عليهم ، وقيل العامل فيه يثبت فيكون المعنى : يثبت الأقدام وقت الوحي وليس لهذا التشديد معنى . وقيل العامل فيه (ليربط) ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإيجاء ، ومعنى الآية : أني معكم بالنصر والمعونة . فعلى قراءة الفتح للهزة هو مفعول (يوحى) وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول . ومعنى (فثبتوا الذين آمنوا) بشروهم بالنصر أو ثبتوهم على القتال بالحضور معهم ونكثير سوادهم ، وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . قوله (سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب) قد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب في آل عمران . قيل هذه الجملة تفسير لقوله (أني معكم) . قوله (قاضربوا فوق الأعناق) قيل المراد الأعناق أنفسها و (فوق) زائدة : قاله الأخفش وغيره . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ، لأن فوق يفيد معنى فلا يجوز زيادتها ولكن المعنى أنه أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها ، وقيل المراد بما فوق الأعناق : الرؤوس ، وقيل المراد بفوق الأعناق : أعاليها لأنها المفصل الذي يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع . قيل وهذا أمر للملائكة وقيل للمؤمنين ، وعلى الأول قيل هو تفسير لقوله (فثبتوا الذين آمنوا) . قوله (واضربوا منهم كل بنان) قال الزجاج : واحد البنان بنانة ، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء ، والبنان مشتق من قولهم أين الرجل بالمكان

إذا أقام به ، لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة : وقيل المراد بالبنان هنا : أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وهو عبارة عن الثبات في الحرب ، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عنزة :

وقد كان في الهيجاء يحى ذمارها ويضرب عند الكرب كل بنان

وقال عنزة أيضا :

وإن الموت طوع يدي إذا ما وطئت بناتها بالهندواني

قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال الأطراف ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما وقع عليهم من القتل ودخل في قلوبهم من الرعب ، وهو مبتدأ ، و (بأنهم شاقوا الله ورسوله) خبره : أى ذلك بسبب مشاققتهم . والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين في شق ، وقد تقدم تحقيق ذلك (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) له يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق . قوله (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) الإشارة إلى ما تقدم من العقاب أو الخطاب هنا للكافرين كما أن الخطاب في قوله (ذلكم) للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للخطاب . قال الزجاج : ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة : أى الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه . قال : ويجوز أن يضمر واعلموا . قال في الكشف : ويجوز أن يكون نصبا على : عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك زيدا فاضربه . قال أبو حيان : لا يجوز تقدير عليكم لأنه اسم فعل ، وأسماؤه الأفعال لا تضمر . وتشبيهه بزيدا فاضربه غير صحيح لأنه لم يقدر فيه عليك ، بل هو من باب الاشتغال . وجملة (وأن للكافرين عذاب النار) معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به ويكون (وأن للكافرين عذاب النار) إشارة إلى العقاب الآجل .

وقد أخرج أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن علي قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلى تحت شجرة حتى أصبح . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب في الآية قال : بلغنا أن هذه الآية أنزلت في المؤمنين يوم بدر فيما أغشاهم الله من النعاس أمنة منه . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (أمنة منه) قال : أمنة من الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (أمنة منه) قال : رحمة منه أمنة من العدو . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال النعاس في الرأس ، والنوم في القلب . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : كان النعاس أمنة من الله . وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب في قوله (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) قال : طش كان يوم بدر . وأخرج هؤلاء عن مجاهد في الآية قال : المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر النعاس . والتبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم . وثبتت به أقدامهم . وأخرج ابن أبي حاتم وابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادى دهسا . وأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مالبس الأرض ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء . فضحى المسلمون وصلوا مجنين محدثين . فأتى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال أترعمون أن قبكم نبيا وأنكم أولياء الله وتصلون مجنين محدثين ؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وثبتت أقدامهم ، وذهبت وسوسته . وقد

قدّ منا أن المشهور في كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء ، وهذا المروي عن ابن عباس في إسناده العوفي ، وهو ضعيف جدا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (رجز الشيطان) قال : وسوسته . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (وليربط على قلوبكم) قال : بالصبر (ويثبت به الأقدام) قال : كان بطن الوادي دهلسا . فلما مطروا اشتدت الرملة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (ويثبت به الأقدام) قال : حتى تشتدّ على الرمل وهو كهيئة الأرض . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن عليّ قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي تلك الليلة ويقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة لانعبدك وأصابعهم تلك الليلة مطر شديد فذلك قوله (ويثبت به الأقدام) » . وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : لم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر : وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال لي أبي : يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا لبشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع ابن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (فاضربوا فوق الأعناق) يقول : الرؤوس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطية (فاضربوا فوق الأعناق) قال : اضربوا الأعناق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك (فاضربوا فوق الأعناق) يقول : اضربوا الرقاب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (واضربوا منهم كل بنان) قال : يعنى بالبنان الأطراف . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطية (واضربوا منهم كل بنان) قال : كل مفصل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ (١٨) .

الزحف : الدنو قليلا قليلا ، وأصله الاتدفاع على الإلية . ثم سمي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفا . والزاحف : التداني والتقارب ، تقول زحف إلى العدو زحفا ، وازدحف القوم : أى مشى بعضهم إلى بعض وانتصاب زحفا إما على أنه مصدر لفعل محذوف : أى ترحفون زحفا ، أو على أنه حال من المؤمنين : أى حال كونكم زاحفين إلى الكفار . أو حال من الذين كفروا : أى حال كون الكفار زاحفين إليكم ، أو حال من الفريقين أى متزاحفين (فلا تولوهم الأدبار) نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم وقد دبّ بعضهم إلى بعض للقتال . فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين في كل زمن ، وعلى كل حال إلا حالة التحرف والتحيز . والله روى عن عمرو ابن عمرو وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد

ابن أبي حبيب والضحك أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية مختص بيوم بدر ، وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين ، إذ لم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ولا لهم فئة إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض ، وبه قال أبو حنيفة . قالوا : ويؤيده قوله (ومن يومئذ يومئذ دبره) فإنه إشارة إلى يوم بدر ؛ وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف . وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف محرم ، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء العرب في يوم بدر . وأجيب عن قول الأولين بأن الإشارة في (يومئذ) إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيد السياق ، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها فيكون الفرار من الزحف محرما بشرط ما بينه الله في آية الضعف ، ولا وجه لما ذكره من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال . ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما في حديث « اجتنبوا السبع الموبقات » وفيه : والتولى يوم الزحف ، ونحوه من الأحاديث وهذا البحث تطول ذبوله وتشعب طرقه ، وهو مبين في مواظنه . قال ابن عطية : والأدبار جمع دبر ، والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة في الفصاحة لما في ذلك من الشناعة على الفار والذم له . قوله (إلا متحرفا لقتال) التحرف : الزوال عن جهة الاستواء . والمراد به هنا التحرف من جانب إلى جانب في المعركة طلبا لمكائيد الحرب وخدعا للعدو ، وكمن يوم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكره عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكائيد الحرب فإن الحرب خدعة . قوله (أو متحيزا إلى فئة) أي إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو وانتصاب متحرفا ومتحيزا على الاستثناء من المولين : أي ومن يومئذ دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا ويجوز انتصابهما على الحال . ويكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له : وجملة (فقد باء بغضب من الله) جزاء للشرط . والمعنى : من ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرف والمتحيز (وماواه جهنم) أي المكان الذي يأوى إليه هو النار فقراره أوقعه إلى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة . والمأوى : ما يأوى إليه الإنسان (وبئس المصير) ما صار إليه من عذاب النار . وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفر من الزحف وفي ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة . قوله (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) الفاء جواب شرط مقدر : أي إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة وإيقاع الرعب في قلوبهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر . قوله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) اختلف المفسرون في هذا الرمي على أقوال : فروى عن مالك أن المراد به ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم حنين ، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادي فأصابت كل واحد منهم ؛ وقيل المراد به الرمية التي رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبي بن خلف بالحربة في عنقه فانهزم ومات منها ؛ وقيل المراد به السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حصن خيبر ، فسار في الهوى حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه وهذه الأقوال ضعيفة ، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر . وأيضا المشهور في كتب السير والحديث في قتل ابن أبي الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة . والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره أن المراد بالرمي المذكور في هذه الآية هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم بدر ، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فأصابت كل واحد منهم ودخلت في عينيه ومنخره وأنفه . قال ثعلب : المعنى (وما رميت) الفرع والرعب في قلوبهم

(إذ رميت) بالحصباء فانهزموا (ولكن الله رمى) أى أعانك وأظفرك ، والعرب تقول : رمى الله لك : أى أعطاك وأظفرك وصنع لك . وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز . وقال محمد بن يزيد المبرد : المعنى (ومارميت) بموتك (إذ رميت) ولكنك بقوة الله رميت . وقيل المعنى : إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة . لأنك لو رميتها مابلغ أثرها إلا مايلفقه رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن صورتها وجدت منه ، ونقاها عنه لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل فكان الله فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصلا هكذا في الكشف . قوله (وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا) البلاء هاهنا النعمة ، والمعنى : ولينعم على المؤمنين إنعاما جميلا ، واللام متعلقة بمحذوف : أى وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لاغيره ، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها : أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا (إن الله سميع عليم) لدعائهم عليهم بأحوالهم ، والإشارة بقوله ذلكم إلى البلاء الحسن ، وهو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أى الغرض (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين وتوهمين كيد الكافرين ، وقيل المشار إليه القتل والرمي . وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين . وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة . والكيد : المكر ، وقد تقدم بيانه .

وقد أخرج البخارى في تاريخه والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع أنه سأل ابن عمر قال : إنا قوم لانثب عند قتال عدونا ولا ندرى من الفئة أمامنا أو عسكرنا ؟ فقال لى : الفئة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : إن الله يقول (إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار) قال : إنما نزلت هذه الآية فى أهل بدر لا قبلها ولا بعدها . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناصحه وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله (ومن يولم يومئذ دبره) الآية قال : إنما كانت لأهل بدر خاصة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال : لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى أهل بدر خاصة ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتركوه . وقد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله (إلا متحرفا لقتال) يعنى مستطردا يريد الكرة على المشركين (أو متحيزا إلى فئة) يعنى أوينجاز إلى أصحابه من غير هزيمة (فقد باء بغضب من الله) يقول : استوجبوا غضبا من الله (وماواه جهنم وبئس المصير) فهذا يوم بدر خاصة كان شديدا على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك قال : المتحرف للمتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها . والمتحيز : المتأثر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح فى قوله (ومن يولم يومئذ دبره) قال : هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال - الآن خفف الله عنكم - الآية . وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد والبخارى فى الأدب المفرد واللفظ له ، وأبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر قال : كنا فى غزاة فحاص الناس حبيصة ، قلنا : كيف تلقى رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم وقد فررنا من الزحف وبوينا بالغضب فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل صلاة الفجر . فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن القرآرون : فقال : لا . بل أنتم العكارون ، فقبلنا يده فقال : أنا فتكم وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ (إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة) وقد روى في تحريم الفرار من الزحف . وأنه من الكبائر أحاديث ، وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس . وأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر . وأخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فلم تقتلوهم) قال لأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين قال : هذا قتلت وهذا قتلت (وما رميت إذ رميت) قال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم حين حصب الكفار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله (وما رميت إذ رميت) قال : رماهم يوم بدر بالحصباء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن حكيم ابن حزام قال : لما كان يوم بدر سمعنا صوتا من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست . وروى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلك الحصباء وقال : شأهت الوجوه . فانهز منا . فذلك قوله تعالى (وما رميت إذ رميت) الآية . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال : سمعت صوت حصيات وقعت من السماء يوم بدر كأنهن وقعت في طست . فلما اصطف الناس أخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرمى بهن في وجوه المشركين فانهزموا . فذلك قوله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وما رميت إذ رميت) قال : قال رسول الله لعل ناولني قبضة من حصباء ، فناوله فرمى بها في وجوه القوم فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء فنزلت هذه الآية (وما رميت إذ رميت) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف بركض فرسه حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « استأخروا ، فاستأخروا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حربته في يده فرمى بها أبي بن خلف وكسر ضلعا من أضلاعه . فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه ثقيلا . فاحتملوه حين ولوا قافلين فطفقوا يقولون لا بأس . فقال أبي حين قالوا له ذلك : والله لو كانت بالناس لقتلتهم . ألم يقل إني أقتلك إن شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينمشونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه . قال ابن المسيب : وفي ذلك أنزل الله (وما رميت إذ رميت) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب والزهري نحوه . وإسناده صحيح إليهما ، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک . قال ابن كثير : وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جدا . ولعلهما أراد أن الآية تتناولهما بعمومها . وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم ابن أبي الحقيق دعا يقوس فرمى بها الحصن . فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه . فأنزل الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير في قوله (ولكن الله رمى) أي لم يكن فلك برميتك لولا الذي جعل الله من نصرك وما ألقى في صدور عدوك حتى هزمهم (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أي ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته .

إِنْ تَسْتَغْفِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

الاستفتاح : طلب النصر ، وقد اختلف في الخطابين بالآية من هم ؟ قيل إنها خطاب للكفار نهكما بهم ، والمعنى : إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر ، وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فهكم الله بهم ، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصرا ، ومعنى بقية الآية على هذا القول (وإن تنتهوا) عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله (فهو) أى الانتهاء (خير لكم وإن تعودوا) إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة (نعد) بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطانهم ونصرناهم في يوم بدر (ولن تغني عنكم فئتهم) أى جماعتكم (شيئا ولو كثرت) أى لا تغني عنكم في حال من الأحوال ولو في حال كثرتها ، ثم قال (وأن الله مع المؤمنين) ومن كان الله معه فهو المنصور ، ومن كان الله عليه فهو المخلول . قرئ بكسر إن وفتحها فالكسر على الاستئناف ، والفتح على تقدير : ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك . وقيل إن الآية خطاب للمؤمنين ، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر في يوم بدر ، وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم كما في قوله - لولا كتاب من الله سبق - الآية ، ولا يخفى أنه يأتى هذا القول معنى (ولن تغني عنكم فئتهم شيئا) ويأباه أيضا (وأن الله مع المؤمنين) وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف وقيل إن الخطاب في (إن تستغفروا فقد جاءكم الفتح) للمؤمنين وما بعده للكافرين ، ولا يخفى ما في هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية في الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منته والحاكم ومصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير أن أبا جهل قال حين اتى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآثانا بما لانعرف فأحنه الغداة ، فكان ذلك استغناحا منه فزلت (إن تستغفروا) الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية قال : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أهلى الفتيين ، وأفضل الفتيين ، وخير الفتيين ، فزلت الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس (إن تستغفروا) يعنى المشركين : أى إن تستنصروا فقد جاءكم المدد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد (إن تستغفروا فقد جاءكم الفتح) قال : كفار قريش في قولهم : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه ، ففتح بينهم يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة في قوله (إن تستغفروا) قال : إن تستغفروا فقد جاءكم القضاء في يوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله (وإن تنتهوا) قال : عن قتال محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وإن تعودوا نعد) قال : إن تستغفروا الثانية أفتح لحمد (وأن الله مع المؤمنين) قال : مع محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة (وإن تعودوا نعد) يقول : نعد لكم بالأسر والقتل .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَهْدَهُ وَتُمْتُّمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا

تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبِكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن التولي عن رسوله ، فالضمير في (عنه) عائد إلى الرسول ، لأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي من طاعة الله ، و- من يطع الرسول فقد أطاع الله - ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله كما في قوله - والله ورسوله أحق أن يرضوه - وقيل الضمير راجع إلى الأمر الذي دلّ عليه أطيعوا ، وأصل تولوا تتولوا ، فطرحوا إحدى التاءين ، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين ، وبه قال الجمهور ، وقيل إنه خطاب للمنافقين ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً ، لأن الله وصف من خاطبه في هذه الآية بالإيمان وهو التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء ، وأبعد من هذا من قال : الخطاب لبنى إسرائيل ، فإنه أجنب من الآية ، وجملة (وأنتم تسمعون) في محل نصب على الحال ، والمعنى : وأنتم تسمعون ما يلقى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء ، فإنهم يسمعون بأذانهم من غير فهم ولا عمل ، فهم كالذي لم يسمع أصلاً لأنه لم ينتفع بما سمعه . ثم أخبر سبحانه ب(إن شر الدواب) أي ما دبّ على الأرض (عند الله) أي في حكمه (الصم البكم) أي الذين لا يسمعون ولا ينطقون ، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق (الذين لا يعقلون) ما فيه النفع لم يأتونه ، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شر الدواب عند الله ، لأنها تميز بعض تميز ، وتفرق بين ما ينتفعها ويضرها (ولو علم الله فيهم) أي في هؤلاء الصم البكم (خيراً لأسمعهم) سماعاً ينتفعون به ويشعرون عنده الحجج والبراهين . قال الزجاج (لأسمعهم) جواب كل ما سألو عنه ، وقيل (لأسمعهم) كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم لأنهم طلبوا إحياء قصي بن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون وجملة (وهم معرضون) في محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وهم لا يسمعون) قال : غاضبون . وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله (إن شر الدواب عند الله) الآية قال : إن هذه الآية نزلت في فلان وأصحاب له . وأخرج القرطبي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (إن شر الدواب عند الله) قال هم نفر من قريش من بني عبد الدار . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله (الصم البكم الذين لا يعقلون) قال : لا يتبعون الحق . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وقومه ، ولعله المكنى عنه بفلان فيما تقدم من قول علي رضي الله عنه . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير في قوله (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أي لأنفذ لهم قولهم الذي قالوا بالسنتهم ، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم . وأخرج أبو الشيخ عن حكمة في الآية قال : قالوا نحن صم عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه ، بكم لانجييه فيه بتصديق لقولنا جميعاً بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) .

الأمر هنا بالاستجابة مؤكداً لما سبق من الأمر بالطاعة ، ووجد الفصير هنا حيث قال (إذا دعاكم) كما وحده في قوله (ولا تتولوا عنه) وقد قدمنا الكلام في وجه ذلك ، والاستجابة : الطاعة . قال أبو عبيدة معنى استجيبوا : أجيئوا ، وإن كان استجاب يتعدى باللام ، وأجاب بنفسه كما في قوله - يا قومنا أجيئوا داعي الله - ، وقد يتعدى استجاب بنفسه كما في قول الشاعر :

وداع دعا يامن يجب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك يجب

(إذا دعاكم لما يحييكم) اللام متعلقة بقوله (استجيبوا) أى استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم ، ولا مانع من أن تكون متعلقة بدعا : أى إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة ، فإن العلم حياة كما أن الجهل موت ، فالحياة هنا مستعارة للعلم . قال الجمهور من المفسرين : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامرو ونواهي فيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية ؛ وقبل المراد بقوله (لما يحييكم) الجهاد فإنه سبب الحياة في الظاهر ، لأن العدو إذا لم يغز غزاً ، ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال . وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة وترك التقييد بالمذاهب ، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان . قوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قيل معناه : بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التي تعقلون بها بالموت الذي كتبه الله عليكم ؛ وقيل معناه : إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدلهم بعد الخوف أمناً ، ويبدل عدوهم من الأمن خوفاً ؛ وقيل هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله - ونحن أقرب إليه من حبل الوريد - ومعناه : أنه مطلع على ضمائر القلوب لا تخفى عليه منها خافية . واحترار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته عز وجل ، ولا يخفاك أنه لا مانع من حل الآية على جميع هذه المعاني (وأنه إليه تحشرون) معطوف على (إن الله يحول بين المرء وقلبه) وأنكم محشورون إليه وهو مجازيكم بالخير خيراً ، وبالشّر شراً . قال الفراء : ولو استأنفت فكسرت همزة (إنه) لكان صواباً ، ولعل مراده أن مثل هذا جائر في العربية . قوله (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أى اتقوا فتنة تتعدى الظلم فتصيب الصالح والطالح ، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم .

وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في (تصيين) فقال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك فهو جواب الأمر بلفظ النهي : أى إن تنزل عنها لا تطرحنك ، ومثله قوله تعالى - ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده - أى إن تدخلوا لا يحطمنكم ، فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقال المبرد : إنه نهى بعد أمر . والمعنى : النهي للظلمين : أى لا يقربن الظلم ، ومثله ما روى عن سيويه لا أربنك ما هنا ، فإن

معناه : لا تكن ها هنا ، فإن من كان ها هنا رأيت . وقال الجرجاني : إن لاتصين نهى في موضع وصف لفتنة ، وقرأ على يزيد بن ثابت وأبي وابن مسعود (لتصين) على أن اللام جواب لقسم مخوف ، والتقدير : اتقوا فتنة والله لتصين الذين ظلموا منكم خاصة ، فيكون معنى هذه القراءة مخالفاً لمعنى قراءة الجماعة . لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة (واعلموا أن الله شديد العقاب) ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه ، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ، ولا يعذب إلا بجنايته ، فيمكن حمل ما في هذه الآية على العقوبات التي تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض ، ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة ، والله أعلم ، ويمكن أن يقال : إن الذين لم يظلموا قد تسبوا للعقوبة بأسباب كثرت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فتكون الإصابتة المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (إذا دعاكم لما يحييكم) قال : للحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية : قال هو هذا القرآن فيه الحياة والثمة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير في قوله (إذا دعاكم لما يحييكم) أي للحرب التي أعزكم الله بها بعد الدل ، وقواكم بها بعد الضعف . ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم . وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المولى قال كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم أجبه . ثم أتيت فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي ، فقال : ألم يقل الله تعالى استجبوا لله ولارسل إذا دعاكم . الحديث ، وفيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله (وأعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في الآية قال علمه يحول بين المرء وقلبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية قال : في القرب منه . وأخرج أحمد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف قال : قلت للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ، ثم جثم تطلبون بدمه . قال الزبير : إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان (واتقوا فتنة لاتصين الذين ظلموا منكم خاصة) ولم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : قرأ الزبير (واتقوا فتنة لاتصين الذين ظلموا منكم خاصة) قال : البلاء والأمر الذي هو كائن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن في الآية قال : نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال نزلت في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال : نزلت في أهل بدر خاصة فأصابهم يوم الحمل فاقتلوا . فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : تصيب الظلم والصالح عامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : هي مثل (يحول بين المرء وقلبه) حتى يتركه لا يعقل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الآية إنما يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر عهم الله بعذاب من عنده .

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنِيَّتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨).

الخطاب بقوله (واذكروا إذ أنتم قليل) للمهاجرين : أى اذكروا وقت قلّتكم ، و (مستضعفون) خبر ثان للمبتدأ ، والأرض : هى أرض مكة ، والخطف : الأخذ بسرعة ، والمراد بالناس : مشركو قريش ، وقيل فارس والروم (فاوأكم) يقال آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى : انضم إليه ، فالمعنى : ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار (وايدكم بنصره) أى قواكم بالنصر فى موطن الحرب التى منها يوم بدر ، أو قواكم بالملائكة يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) التى من جملتها الغنائم (لعلكم تشكرون) أى إرادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم ، والحن أصله كما فى الكشف : النقص كما أن الوفاء التمام ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل فى شيء فقد أدخلت عليه النقصان : وقيل معناه : الغدر وإخفاء الشيء ، ومنه قوله تعالى - يعلم خائنة الأعين - نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم ، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمهم عليه ، أو بترك شيء مما سنه لهم ، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى أوتمنوا عليها ، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من متع الحق ، مأخوذة من الأمن ، وجملة (وأنتم تعلمون) فى محل نصب على الحال : أى وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد ، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل ، ثم قال (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب ، فصاروا من هذه الحثيئة محنة يختبر الله بها عباده ، وإن كانوا من حثيئة أخرى زينة الحياة الدنيا كما فى الآية الأخرى (وأن الله عنده أجر عظيم) فأثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) قال : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاء عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعرأه جلودا ، وأبينه ضلالة ، من عاش عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار يؤكلون ولا يأكلون لا والله ما نعلم قبيلة من حاضرى الأرض يومئذ كان أشتر منزلا منهم حتى جاء الله بالإسلام ، فكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس . وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله (يتخطفكم الناس) قال : فى الجاهلية بمكة (فاوأكم) إلى الإسلام . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب فى قوله (يتخطفكم الناس) قال : الناس إذ ذاك فارس والروم . وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس) قيل يا رسول الله ومن الناس ؟ قال : أهل فارس . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (فاوأكم) قال : إلى الأنصار بالمدينة (وايدكم بنصره) قال : يوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إن

أبا سفيان بمكان كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا ، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمدا يريدكم فخلوا حذركم ، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) الآية . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن أبي قتادة قال : نزلت هذه الآية (لا تخونوا الله والرسول) في أبي لبابة بن عبد المنذر سأله يوم قريظة ما هذا الأمر ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح فنزلت . قال أبو لبابة : مازالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله . وأخرج سنيد وابن جرير عن الزهري نحوه بأطول منه . وأخرج عبد بن حميد عن الكلبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفا لهم ، فأومأ بيده أنه الذبح فنزلت . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في هذه الآية أنها نزلت في أبي لبابة ونسخها الآية التي في براءة وآخرون اعترفوا بذنوبهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (لا تخونوا الله) قال : بترك فرائضه (والرسول) بترك صفته وارتيكابه معصيته (وتخونوا أماناتكم) يقول : لا تنقصوها والأمانة : الأعمال التي اتتمن الله عليها العباد . وأخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان ، ولعل مراده أن من جملة ما يدخل تحت عمومها قتل عثمان . وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبي حبيب في الآية قال : هو الإخلال بالسلاح في المغازي ، ولعل مراده أن هذا مما يتدرج تحت عمومها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة . لأن الله يقول (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن . وأخرج هؤلاء عن ابن زيد في الآية قال : فتنة الاختبار اختبرهم . وقرأ - ولنبلونكم بالشرا والخير فتنة - .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) .

جعل سبحانه التقوى شرطا في جعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون جريا على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضا ، والتقوى : اتقاء مخالفة أو امره والوقوع في مناهيه ، والفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل ، والمعنى : أنه يجعل لهم من ثبات القلوب ، وقهوب البصائر ، وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس ؛ وقيل الفرقان المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

مالك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجى الخلد والموت طالبي وما لي من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان الفتح والنصر . قال ابن إسحاق : الفرقان الفصل بين الحق والباطل ، وبمثله قال ابن زيد . وقال السدي : الفرقان النجاة ، ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا - وبه قال مجاهد ومالك بن أنس (ويكفر عنكم سيئاتكم) أي يسترها حتى تكون غير ظاهرة (ويغفر لكم) ما اقترفتم من الذنوب ، وقد قيل إن المراد بالسيئات الصغائر . وبالذنوب التي تغفر الكبائر ؛ وقيل المعنى أنه يغفر

لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر (والله ذو الفضل العظيم) فهو المفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة للذنوب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (يجعل لكم فرقانا) قال : هو المخرج . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو النجاة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو النصر .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٢٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٢٣) .

قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا) الظرف معمول لفعل محذوف . أى واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك أو معطوف على ما تقدم من قوله « واذكروا » ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التي أنعم بها عليه ، وهي نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتي بيانه (ليثبتوك) أى يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما ، وعنه قول الشاعر :

قلت ويمكم ما في صيفتكم قالوا الخليفة أسمى مثبنا وجعا

وقيل المعنى ليحبسوك ، يقال أثبتته : إذا حبسه ، وقيل ليوثقوك ، ومنه : - فشدوا الوثاق - . وقرأ الشعبي (ليثبتوك) من البيات . وقرئ : « ليثبتوك » بالتشديد (أو يخرجوك) معطوف على ما قبله : أى يخرجوك من مكة التي هي بلدك وبلد أهلك ، وجملة (ويمكرون ويمكر الله) مستأنفة ، والمكر : التدبير في الأمر في خفية ، والمعنى : أنهم يخفون ما بعدونه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المكائد فيجازيهم الله على ذلك ويرد كيدهم في نحورهم ، وسمى ما يقع منه تعالى مكرًا مشاكلة كما في نظائره (والله خير الماكرين) أى المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون ، فيكون ذلك أشد ضررًا عليهم وأعظم بلاء من مكرهم . قوله (وإذا تتلى عليهم آياتنا) أى التي تأتيهم بها وتتلوها عليهم (قالوا) نعتنا وتمردًا وبعدًا عن الحق (قد سمعنا) ما تلوه علينا (لو نشاء لقلنا مثل هذا) الذي تلوته علينا ، قيل إنهم قالوا هذا توهمًا منهم أنهم يقدرُونَ على ذلك ، فلما راموا أن يقولوا مثله عجزوا عنه ، ثم قال عنادا وتمردًا (إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين ، وقد تقدم بيانه مستوفى (وإذا قالوا) أى واذكر إذ قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) بنصب الحق على أنه خير كان ، والضمير للفصل ، ويحوز الرفع . قال الزجاج : ولا أعلم أحدًا قرأ بها ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، والمعنى : إن كان القرآن الذي جاءنا به محمد هو الحق (فأمطر علينا) قالوا هذه المقالة مبالغة في الجحود والإنكار . قال أبو عبيدة : يقال أمطر في العذاب . ومطر

في الرحمة . وقال في الكشف : قد كثر الإمطار في معنى العذاب (أو اتنا بعذاب أليم) سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء أو غيرها من أنواع العذاب الشديد ، فأجاب الله عليهم بقوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت) يا محمد (فيهم) موجود فإنك مادم فيهم فهم في مهلة من العذاب الذي هو الاستئصال (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) روى أنهم كانوا يقولون في الطواف غفرانك : أي وما كان الله معذبهم في حال كونهم يستغفرونه : وقيل المعنى : لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفروه لم يعذبهم ؛ وقيل إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم : أي وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا من بين أظهرهم عذبهم يوم بدر وما بعده ؛ وقيل المعنى : وما كان الله معذبهم وفي أصلاهم من يستغفر الله .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عباس في قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا) قال : تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق ، يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحق بالغار فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوه عليا رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدري ، فاقصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فرأوا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنالم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فكث فيه ثلاث ليال . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس فذكر القصة بأطول مما هنا . وفيها ذكر الشيخ النجدي : أي إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم في دار الندوة للمشاورة في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما ويعطوا كل واحد منهم سيفاً ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل ، فقال الشيخ النجدي : هذا والله هو الرأي ، ففترقوا على ذلك . وأخرج سعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال : لما ائتمروا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه قال له عمه أبو طالب : هل تدري ما ائتمروا بك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني ، قال : من جدتك بهذا ؟ قال : ربي ، قال : نعم الرب ربك استوص به خيراً ، قال : أنا استوصي به ؟ بل هو يستوصي بي . وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه . وهذا لا يصح ، فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا) قال : قال عكرمة هي مكة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء في قوله (ليثبتوك) يعني ليوثقوك . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر صبرا عقبه بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث ؛ وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول ، قال : وفيه أنزلت هذه الآية (وإذ تتلى عليهم آياتنا) وهذا مرسل وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنها نزلت في النضر بن الحارث . وأخرج البخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أنس بن مالك قال : قال أبو جهل بن هشام (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية فنزلت (وما كان الله ليعذبهم) الآية . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت في أبي جهل وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية أنها نزلت في النضر بن الحارث وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ

عن مجاهد مثله . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : ليك اللهم ليك . لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ، ويقولون : غفرانك غفرانك ، فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم) الآية . قال ابن عباس . كان فيهم أمانان : النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والاستغفار ، فذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبقى الاستغفار . وأخرج الترمذي وضعفه عن أبي موسى الأشعري قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أنزل الله على أمانين لأمتي (وما كان الله ليعذبهم) الآية . فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار ، وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقى الآخر قال (وما كان الله ليعذبهم) الآية وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري نحوه أيضا . والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة في كتب الحديث .

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٢٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ (٢٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ (٢٧) .

قوله (وما لهم ألا يعذبهم الله) لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمران المتقدمان وجود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهورهم ، ووقوع الاستغفار . ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار ، أعني كفار مكة مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح . والمعنى : أي شيء لم يمنع من تعذيبهم ؟ قال الأخفش : إنه أن ، زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال لرفع يعذبهم . وجملة (وهم يصدون عن المسجد الحرام) في محل نصب على الحال : أي وما يمنع من تعذيبهم ؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من البيت . وجملة (وما كانوا أولياءه) في محل نصب على أنها حال من فاعل (يصدون) ، وهذا كالدلالة لما كانوا يقولونه من أنهم ولاية البيت . وأن أمره مفوض إليهم ، ثم قال مبينا لمن له ذلك (إن أولياؤه إلا المتقون) أي ما أولياؤه إلا من كان في عداد المتقين للشرك والمعاصي (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك ، والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون . قوله (وما كان صلواتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) المكاء : الصغير من مكاء بمكوك مكاء ، ومنه قول عنزة :

وخليل غانية تركت مجذلا تمكو فريسته كشلق الأعم

أى تصوت ، ومنه مکت است الدابة : إذا نفخت بالريح ، قيل المكاء : هو الصغير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غرد المكاء في غير دوحة فويل لأهل الشاء والحمرات

والتصدية : التصفيق ، يقال صدّى يصدّى تصديّة : إذا صفق ، ومنه قول عمر بن الاطنابة :

وظلوا جميعا لم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية

أى بالتصفيق ، وقيل المكاء : الضرب بالأيدى ، والتصدية : الصباح ، وقيل المكاء : إدخالهم أصابعهم في أفواههم ، والتصدية : الصغير ، وقيل التصدية : صدّهم عن البيت ، قيل والأصل على هذا تصددة فأبدل من إحدى الدالين ياء . ومعنى الآية : أن المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع للصلاة والعبادة ، فوضعوا ذلك موضع الصلاة قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة ، وقرئ بنصب صلاتهم على أنها خبر كان ، وما بعده اسمها . قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) هذا الثبات إلى مخاطبة الكفار تهديدا لم ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم ، والمراد به : عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة . قوله (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله) لما فرغ سبحانه من شرح أحوال هؤلاء الكفرة في الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية . والمعنى : أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصدّ عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجمع الجيوش لذلك ، وإنفاق أموالهم عليها وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الأحزاب ، فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ، ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال (فينفقونها) أى سيقع منهم هذا الإنفاق (ثم تكون) عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة تصير ندما ، (ثم) آخر الأمر (يغلبون) كما وعد الله به في مثل قوله - كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى - . ومعنى (ثم) في الموضعين إما التراخى في الزمان لما بين الإنفاق المذكور وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد . وإما التراخى في الرتبة لما بين بذل المال وعدم حصول المقصود من المباينة ثم قال (والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) أى استمروا على الكفر ، لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه : أى يساقون إليها لا إلى غيرها ، ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله فقال (ليميز الله الخيث) أى الفريق الخيث من الكفار (من) الفريق (الطيب) وهم المؤمنون (ويجعل الخيث بعضه على بعض) أى يجعل فريق الكفار الخيث بعضه على بعض (فيركه جميعا) عبارة عن الجمع والضم : أى يجمع بعضهم إلى بعض ، ويضمّ بعضهم إلى بعض حتى يترأكوا لفرط ازدحامهم ، يقال ركم الشيء يركه : إذا جمعه وألقى بعضه على بعض ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الفريق الخيث (هم الخاسرون) أى الكاملون في الخسران ، وقيل الخيث والطيب : صفة للمال ، والتقدير يميز المال الخيث الذى أنفقه المشركون من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون ، فيضمّ تلك الأموال الخيثة بعضها إلى بعض فيلقيه في جهنم ويعذبهم بها كما في قوله تعالى - فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - . قال في الكشف : واللام على هذا متعلقة بقوله (ثم تكون عليهم حسرة) ، وحل الأول يحشرون ، و (أولئك) إشارة إلى الذين كفروا انتهى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم استثنى أهل الشرك فقال (وما لم ألا يعذبهم الله) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله (وما لم ألا يعذبهم الله) قال : عذابهم فتح مكة . وأخرج ابن إسحاق وأبو حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير (وما لم ألا يعذبهم الله)

وهم يحسدون بآيات الله ويكذبون رسله . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير في قوله (وهم يصدون عن المسجد الحرام) أى من آمن بالله وعبدته . أنت ومن اتبعك (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) الذين يخرجون منه ويطعمون الصلاة عنده : أى أنت ومن آمن بك . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (إن أولياؤه إلا المتقون) قال : من كانوا حيث كانوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال : كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الطواف ويستزئون ويصفرون ويصفقون ، فنزلت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء عن ابن عباس قال : كانت قريش بطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق ، فأنزل الله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال : والمكاء الصغير ، إنما شبهوا بصغير الطير . والتصدية : التصفيق وأنزل الله فيهم - قل من حرم زينة الله - الآية . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : المكاء الصغير ، والتصدية التصفيق . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : قال : المكاء إدخال أصابعهم في أفواههم ، والتصدية الصغير ، يخلطون بذلك كله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم صلاته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي : قال : المكاء الصغير على نحو طير أبيض يقال له المكاء يكون بأرض الحجاز ، والتصدية التصفيق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة في قوله (إلا مكاء) قال : كانوا يشبكون أصابعهم ويصفرون فيهن (وتصدية) قال : صدّهم الناس . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال ، وهو قوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) فالمكاء مثل نفخ البوق ، والتصدية طوافهم على الشمال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) قال : يعنى أهل بدر عذبهم الله بالقتل والأسر . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه : قال : حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبنائهم ، فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمدا قد وترككم وقتل خياركم ، فأعينوا بهذا المال على حربه فلعلنا أن نلوك منه ثارا ، ففعلوا ، ففهم كما ذكر ابن عباس أنزل الله (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) إلى (والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج هوّلاء وغيرهم عن سعيد بن جبيرة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة في الآية قال : نزلت في أبي سفيان أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالا من ذهب . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ثمر بن عطاء في قوله (يميز الله الخبيث من الطيب) قال : يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها تطلق في جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (فيركه جميعا) قال : يجمعه جميعا .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ
الْأَوَّلِينَ (٢٨) وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلِيكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٣٠) .

أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى وسواء قاله بهذه العبارة أو
غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما قال الكسائي إنه في مصحف عبد الله بن مسعود (قل للذين كفروا إن
تنهوا) يعنى بالثناء المثناة من فوق لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها . وقال في الكشف : أى قل لأجلهم
هذا القول ، وهو (إن ينتهوا) ولو كان بمعنى خاطبهم لقل إن تنهوا يغفر لكم ، وهى قراءة ابن مسعود . ونحوه
- وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه - خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه : أى إن ينتهوا
عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقاتله بالدخول فى الإسلام (يغفر لهم ما قد سلف) لهم
من العداوة انتهى ، وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر قال ابن عطية : والحامل على ذلك جواب الشرط بيغفر لهم
ما قد سلف ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لنته عن الكفر . وفى هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله
(وإن يعودوا) إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذى هم عليه ويكون العود بمعنى الاستمرار (فقد مضت سنة
الأولين) هذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتشيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله : أى
قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب فليتوقعوا مثل ذلك (وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة) أى كفر ، وقد تقدّم تفسير هذا فى البقرة مستوفى (فإن انتهوا) عما ذكر (فإن الله بما يعملون
بصير) لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء (وإن تولوا) عما أمروا به من الانتهاء (فاعلموا) أيها المؤمنون (أن
الله مولاكم) أى ناصرهم عليهم (نعم المولى ونعم النصير) فمن والاه فاز ومن نصره غلب .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (فقد مضت
سنة الأولين) قال : فى قريش وغيرها يوم بدر ، والأمم قبل ذلك . وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال :
لما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : أبسط يدك فلا يبعك ، فبسط يمينه
فقبضت يدى ، قال : مالك ؟ قلت : أردت أن أشرط ، قال : تشرط ماذا ؟ قلت : أن تستغفر لى ، قال : أما
علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ وقد ثبت
فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة
تجب ما قبلها ، وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى (فقد مضت سنة الأولين) بما مضى فى الأمم المتقدمة من
عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر . وقال السدى ومحمد بن إسحاق : المراد بالآية يوم بدر . وفسر جمهور
السلف الفتنة المذكورة هنا بالكفر . وقال محمد بن إسحاق : يلغى عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من
علمائنا (حتى لا تكون فتنة) حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ
التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ
الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ
عَلِيمٌ (١٢) .

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ذكر
حكم الغنيمة والغنيمة قد قدمت أن أصلها إصابة الغنم من العدو ، ثم استعملت في كل ما يصاب منهم وقد تستعمل
في كل ما ينال بسعي ، ومنه قول الشاعر :

وقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ومثله قول الآخر :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

وأما معنى الغنيمة في الشرع ، فحكى القرطبي الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء)
مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهر . قال : ولا تقتضي اللغة هذا التخصيص ، ولكن عرف
الشرع قيد اللفظ بهذا النوع . وقد ادّعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله - يسألونك عن الأنفال -
وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين . وأن قوله - يسألونك عن الأنفال - نزلت حين تشاجر أهل بدر
في غنائم بدر على ما تقدم أول السورة : وقيل إنها أعني قوله - يسألونك عن الأنفال - محكمة غير منسوخة ، وأن
الغنيمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليست مقسومة بين الغانمين وكذلك لمن بعده من الأئمة ، حكاه
الماوردي عن كثير من المالكية ، قالوا : وللإمام أن يخرجها عنهم ، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين وكان
أبو عبيدة يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عنوة ومن على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها
ولم يجعلها فئنا ، وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين ، ومن حكى ذلك ابن
المنذر وابن عبد البر والداودي والمازري والقاضي عياض وابن العربي ، والأحاديث الواردة في قصة الغنيمة
بين الغانمين وكيفيتها كثيرة جدا . قال القرطبي : ولم يقل أحد فيها أعلم أن قوله تعالى - يسألونك عن الأنفال - الآية
ناسخ لقوله (واعلموا أنما غنمتم من شيء) الآية ، بل قال الجمهور : إن قوله (واعلموا أنما غنمتم من شيء)
ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف
العلماء في فتحها ، قال : وأما قصة حنين فقد عوض الأتصار لما قالوا تعطي الغنائم قريشا وتركنا وسيوفنا تقطر
من دماهم نفسه ، فقال لهم : أما ترضون أن يرجع الناس بالدينا وترجعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
إلى بيوتكم كما في مسلم وغيره ، وليس لغيره أن يقول هذا القول ، بل ذلك خاص به . قوله (أنما غنمتم من شيء)
يشمل كل شيء يصدق عليه اسم الغنيمة و (من شيء) بيان لما الموصولة ، وقد خصص الإجماع من عموم الآية

الأسارى ، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف ، وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام ، وقيل كذلك الأرض المغنومة . ورد بأنه لا إجماع على الأرض . قوله (فإن لله خمسة) قرأ النخعي (فإن لله) بكسر إن . وقرأ الباقون بفتحها على أن أن وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف . والتقدير : فحق أو فواجب أن لله خمسة .

وقد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة : الأول قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذي لله ، والثاني لرسول الله ، والثالث ، لذوى القربى والرابع لليتامى ، والخامس للمساكين ، والسادس لابن السبيل . والقول الثاني قاله أبو العالية والربيع : إنها تقسم الغنيمة على خمسة : فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الفاعلين ، ثم يضرب يده في السهم الذي عزله فما قبضه من شيء جعله للكعبة . ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة للرسول ومن بعده الآية . القول الثالث روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال : إن الخمس لنا ، فقبل له : إن الله يقول (واليتامى والمساكين وابن السبيل) فقال : يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا . القول الرابع قول الشافعي : إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة في الآية . القول الخامس قول أبي حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل . وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموته كما ارتفع حكم سهمه . قال : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجنود . وروى نحو هذا عن الشافعي . القول السادس قول مالك : إنه موكول إلى نظر الإمام واجتهاده ، فيأخذ منه بغير تقدير ، ويعطى منه الغزاة بإجتهاد ، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين . قال القرطبي : وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا ، وعليه يدل قوله صلى الله عليه وآله وسلم « مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس » والخمس مردود عليكم ، فإنه لم يقسمه أخماساً ولا أثلاثاً . وإنما ذكر ما في الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم ، لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج محتجاً بهذا القول : قال الله تعالى - يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من غير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل - وجائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك . قوله (ولذى القربى) قيل إعادة اللام في ذى القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد اختلف العلماء في القربى على أقوال : الأول أنهم قريش كلها . روى ذلك عن بعض السلف ، واستدل بما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما صعد الصفا جعل يهتف يبطون قريش كلها قائلاً : يا بني فلان يا بني فلان . وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد : هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله صلى الله عليه وآله وسلم « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد ، وشبك بين أصابعه » وهو في الصحيح وقيل هم بنو هاشم خاصة ، وبه قال مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم ، وهو مروي عن علي بن الحسين ومجاهد . قوله (إن كنتم آمنتم بالله) قال الزجاج عن فرقة : إن المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله ، وقالت فرقة أخرى : إن (إن) متعلقة بقوله (واعلموا أنما غنمتم) قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح لأن قوله (واعلموا) يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم ، فعلق إن بقوله (واعلموا) على هذا المعنى : أي إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة . وقال في الكشف : إنه متعلق بمحذوف يدل عليه (واعلموا) بمعنى إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد . ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر

الله ، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر انتهى . قوله (وما أنزلنا على عبدنا) معطوف على الاسم الجليل :
 أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا ، و (يوم الفرقان) يوم بدر ، لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل (والجمعان)
 الفريقان من المسلمين والكافرين (والله على كل شئ قدير) ومن قدرته العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق
 الأكثر . قوله (إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر العين في
 العدوة في الموضعين ، وقرأ الباقر بالنهم فيهما . وه إذ ، بدل من يوم الفرقان ، ويجوز أن يكون العامل محذوفا : أى
 واذكروا إذ أنتم . والعدوة : جانب الوادى . والدنيا : تأنيث الأدنى ، والقصوى : تأنيث الأقصى ، من دنا
 يدنو . وقصا يقصو . ويقال القصيا ، والأصل الواو ، وهى لغة أهل الحجاز ، والعدوة الدنيا كانت مما يلي
 المدينة ، والقصوى كانت مما يلي مكة . والمعنى : وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى إلى جهة المدينة ،
 وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلي مكة . وجملة (والركب أسفل منكم) فى محل نصب على الحال ، وانتصاب
 (أسفل) على الظرف . ومحل رفع على الخبرية : أى والحال أن الركب فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه
 وأجاز الأخفش والكسائى والفراء رفع أسفل على معنى أشدّ سفلا منكم والركب : جمع راكب . ولا تقول
 العرب ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل ، ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها ركب ، وكذا قال ابن فارس .
 وحكاها ابن السكيت عن أكثر أهل اللغة . والمراد بالركب هاهنا ركب أبى سفيان ، وهى المراد بالعير ، فإنهم كانوا
 فى موضع أسفل منهم مما يلي ساحل البحر . قيل وفائدة ذكر هذه الحالة التى كانوا عليها من كونهم بالعدوة الدنيا
 وعدوهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منهم الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته . وذلك لأن العدوة القصوى
 التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء . وكانت أرضا لا يابس بها . وأما العدوة الدنيا فكانت رخوة تسوخ فيها
 الأقدام ولا ماء بها ، وكانت العير وراء ظهر العدو مع كثرة عددهم . فأمّن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم
 والحال هذه . قوله (ولو تواعدتم لاختلقتم فى الميعاد) أى لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة على أن تلتقوا
 فى هذا الموضع للقتال لخالف بعضكم بعضا . فشبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد وثبطهم ما فى قلوبهم من
 المهابة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ولكن) يجمع الله بينكم فى هذا الموطن (ليقضى الله أمرا كان مفعولا)
 أى حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر . فأخرج المسلمين لأخذ العير
 وغنيمتها عند أنفسهم وأخرج الكافرين للمدافعة عنها . ولم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على
 هذه الصفة ، واللام فى « ليقضى » متعلقة بمحذوف . والتقدير : بجمعهم ليقضى . وجملة (ليهلك من هلك عن بينة
 ويحيى من حى) بدل من الجملة التى قبلها : أى يموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة لئلا يبقى لأحد على الله
 حجة . وقيل الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام : أى ليصدر لإسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه
 دين الحق ، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالطة شبهة . قرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبرى
 وأبو بكر (من حى) بياءين على الأصل وقرأ الباقر بياء واحدة على الإدغام . وهى اختيار أبى عبيد لأنها
 كذلك وقعت فى المصحف (وإن الله لسميع عليم) أى سميع بكفر الكافرين عليم به : وسميع بإيمان المؤمنين عليم به .
 وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ثم وضع مقاسم النى ، فقال
 (واعلموا أنما غنمتم من شئ) بعد الذى كان مضى من بدر (فأن الله خمس) إلى آخر الآية . وأخرج عبد الرزاق
 وابن أبى شبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن قيس بن مسلم الجليل قال : سألت
 الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية عن قول الله (واعلموا أنما غنمتم من شئ) فأن الله خمس) قال :

هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة (وللرسول ولذی القربى) فاختلفوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذين السهمين . قال قائل منهم : سهم ذی القربى لقربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال قائل منهم : سهم ذی القربى لقربة الخليفة ، وقال قائل منهم : سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخليفة من بعده ، واجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدّة في سبيل الله ، فكان ذلك في خلافة أبى بكر وعمر . وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك في خمسة ، ثم قرأ (واعلموا أنما غنمتم) الآية ، قال قوله (فأن لله خمسة) مفتاح كلام ، لله ما في السموات وما في الأرض . فجعل الله سهم الله والرسول واحدا (ولذی القربى) فجعل هذين السهمين قوّة في الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم ، وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهمها ولراكبه سهمها وللراجل سهمها . وأخرج ابن جرير وأبو المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس : فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس ، فربع لله وللرسول ولذی القربى . يعنى قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الخمس شيئا ، والربع الثانى لليتامى ، والربع الثالث للمساكين ، والربع الرابع لابن السبيل ، وهو الضيف الفقير الذى ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية في قوله (واعلموا أنما غنمتم من شيء) الآية قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، فيقسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خمسة أسهم ، فيعزل سهمها منها ويقسم أربعة أسهم بين الناس ، يعنى لمن شهد الواقعة ، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذى عزله ، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة . فهو الذى سمي الله لا تجعلوا لله نصيبا فأن لله الدنيا والآخرة . ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم : سهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وسهم لذی القربى وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجعل سهم الله في السلاح والكراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطيبها وما تحتاج إليه الكعبة ، ويجعل سهم الرسول في الكراع والسلاح ونفقة أهله ، وسهم ذی القربى لقربته يضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم مع سهمهم مع الناس ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم مع سهمهم مع سهمهم مع الناس ، ليس لبنى عبد المطلب في هذه الثلاثة الأسهم وللرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهم مع سهام الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة عن قوله (فأن لله خمسة وللرسول) فقال : الذى لله لنبيه والذى للرسول لأزواجه . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى في سننه عن ابن عباس أن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوى القربى الذين ذكر الله . فكتب إليه إنا كنا نرى أناهم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا قريش كلها ذوو قربى . وزيادة قوله وقالوا قريش كلها تفرد بها أبو معشر ، وفيه ضعف وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس : أن نجدة الحرورى أرسل إليه يسأله عن سهم ذی القربى ، ويقول لمن تراه ؟ فقال ابن عباس : هو لقربى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقتنا فوجدناه عليهم وأبيننا أن نقبله ، وكان عرض عليهم أن يعيننا نأكلهم وأن يقضى عن غلهم وأن يعطى قبيهم وأبى أن يزيدهم على ذلك ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : رغبت لكم عن

عسالة الأبدى . لأن لكم في خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم . رواه ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عنه مرفوعا . قال ابن كثير : هذا حديث حسن الإسناد ، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم . وقال يحيى بن معين : يأتي بمناكير . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر عن جبير بن مطعم : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسم سهم ذوى القربى من خيبر على بنى هاشم وبنى المطلب ، قال : فشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه ، فقلنا يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بنى هاشم لانكر فضلهم لمكانك منهم ، أرأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا فلانما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب ؟ فقال : إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام . وقد أخرجه مسلم في صحيحه . وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل علي ، وآل العباس . وآل جعفر . وآل عقيل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم شيء واحد من المغنم يصطفيه لنفسه ، إما خادما وإما فرسا ، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس . وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن علي قال : قلت يا رسول الله : ألا وليتني ما تحصنا الله به من الخمس ؟ فولانيه . وأخرج الحاكم وصححه عنه قال : ولاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمس الخمس فوضعت مواضع حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآله وسلم وأبي بكر وعمر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (يوم الفرقان) قال : هو يوم بدر ، وبدر ما بين مكة والمدينة وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (يوم الفرقان) قال : هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل . وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ، وأخرجه عنه ابن جرير أيضا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) قال : العدو الدنيا شاطئ الوادي (والركب أسفل منكم) . قال أبو سفيان . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : العدو الدنيا شفير الوادي الأدنى ، والعدوة القصوى شفير الوادي الأقصى .

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَايَكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٢) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٣) .

إذ منصوب بفعل مقدر : أي اذكر أو هو بدل ثان من يوم الفرقان . والمعنى : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رآهم في منامه قليلا فقص ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سببا لثباتهم ، ولورآهم في منامه كثيرا لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا في الأمر هل يلاقونهم أم لا ؟ (ولكن الله سلم) أي سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآله وسلم في المنام ؛ وقيل عني بالمتام محل النوم ، وهو العين : أي في موضع منامك وهو عينك . روى ذلك عن الحسن . قال الزجاج : هذا مذهب حسن ولكن الأول أسوغ في العربية لقوله (وإذ يريكموهم إذ التقيت في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم) فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء . وأن تلك رؤية النوم . قوله (وإذ يريكموهم) الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول : أي واذكروا وقت

لما امتكم إياهم حال كونهم قليلا ، حتى قال القاتل من المسلمين لآخر : أتأثم سبعين ؟ قال : هم نحو المائة . وقتل المسلمين في أعين المشركين حتى قال قائلهم : إنما هم آتة جزور ، وكان هذا قبل القتال ، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين في أعين المشركين ، كما قال وآل عمران - يرونهم مثلهم رأى العين - ، ووجه تقليل المسلمين في أعين المشركين هو أنهم إذا رأوهم قليلا أقدموا على القتال غير خائفين ، ثم يرونهم كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه . واللام في (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) متعلقة بمحذوف كما سبق منه قريبا ، وإنما كرره لاختلاف المعنى به (وإلى الله ترجع الأمور) كلها يفعل فيها ما يريد ويقضى في شأنها ما يشاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (إذ يريكم الله في منامك قليلا) قال : أراه الله إياهم في منامه قليلا ، فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ولو أراكم كثيرا لفشلتم) يقول : بلجنتم (ولتأزعم في الأمر) قال : لا تختلفم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولكن الله سميع) أي أتم وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (ولكن الله سميع) يقول : سميع لم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله (إذ يريكم الله) الآية قال : لقد قلوا في أحيانا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تأثم سبعين ؟ قال : لا بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه قال : كنا أنفا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في الآية قال : حضض بعضهم على بعض . قال ابن كثير : إسناده صحيح . وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير في قوله (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أي ليف بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٥)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرُّ هُوَ لَا دِينَ لَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٩)

قوله (إذا لقيتم فئة) اللقاء الحرب ، والفئة الجماعة : أي إذا حاربتم جماعة من المشركين (فاثبتوا) لهم ولا تهربوا عنهم ، وهذا لا ينافي الرخصة المتقدمة في قوله - إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة - فإن الأمر بالثبات هو في حال الصحة ، والرخصة هي في حال الضرورة . وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحرف والتحيز (واذكروا الله) أي اذكروا الله عند جرح قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد ، وقيل المعنى : اذكروا الله عند جرح قلوبكم واذكروا

بالسفنكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان .
فيل وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت - ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرتنا على
القوم الكافرين - . وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال . حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها
القلوب وتزيج عندها البصائر ، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه ، ونهاهم عن التنازع
وهو الاختلاف في الرأي ، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل ، وهو الجبن في الحرب . والفاء جواب النهي ، والفعل
منصوب بإضمار أن ، ويجوز أن يكون الفعل معطوفا على تنازعوا مجزوماً بخازمه . قوله (وتذهب ربحكم) قرئ .
بنصب الفعل . وجزمه عطفاً على تفشلوا على الوجهين . والريح : القوة والنصر . كما يقال الريح لفلان إذا كان
غالباً في الأمر . وقيل الريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها ، ومنه قول الشاعر .

إذا هبت رياحك فاغتنمها فغني كل خافضة سكون

وقيل المراد بالريح ربح الصا ، لأن بها كان ينصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم أمرهم بالصبر على شدائد
الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين في كل أمر ينبغي الصبر فيه . وباحذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب ،
ولا يوتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة ، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا
من ديارهم بطرا ورتاء الناس وهم قريش ، فلأنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التي مع أبي سفيان ومعهم القيان
والمعازف . فلما بلغوا الحنفية بلغهم أن العير قد نجت وسلمت ، فلم يرجعوا بل قالوا لا بد لهم من الوصول إلى
بدر ليشربوا الخمر وتغني لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم ، فكان ذلك منهم بطرا وأشرا وطلباً للشاء من الناس
ولتمدح إليهم والفخر عندهم وهو الرياء ؛ قيل والبطر في اللغة : التقوى بنعم الله على معاصيه وهو مصدر في موضع
الحال : أي خرجوا بطرين مرأين ؛ وقيل هو مفعول له وكذا رياء : أي خرجوا للبطر والرياء . وقوله (ويصدون)
معطوف على بطرا ، والمعنى كما تقدم : أي خرجوا بطرين مرأين صادين عن سبيل الله أو للصد عن سبيل الله ؛
والصد : إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية . ويجوز أن يكون ويصدون معطوفاً على يخرجون .
والمعنى : يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد (والله بما يعملون محيط) لا تخفى عليه من أعمالهم خافية فهو
مجازيهم عليها . قوله (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) الظرف متعلق بمحذوف : أي واذكر يا محمد وقت تزوين
الشيطان لهم أعمالهم . والتزوين : التحسين ، وقد روى أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة وهي (لا غالب لكم
اليوم من الناس وإني جار لكم) أي يجير لكم من كل عدو أو من بني كنانة ، ومعنى الجار هنا : الدافع عن صاحبه
أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار ، وكان في صورة سراقه بن مالك بن جشم . وهو من بني بكر بن كنانة .
وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم ؛ وقيل المعنى : إنه ألقى في روعهم هذه المقالة . وحيل
إليهم أنهم لا يظلمون ولا يظلمون (فلما تراءت الفئتان) أي فئة المسلمين والمشركين (تكص على عقيه) أي رجع
القهقري ، ومنه قول الشاعر :

ليس النكوص على الأعقاب مكرمة إن المكارم إقدام على الأمل

وقول الآخر :

وما نفع المستأخرين نكوصهم . ولاضر أهل السابقات التقدم

وقيل معنى تكص هاهنا : بطل كيده وذهب ما خيله (وقال إني بريء منكم) أي تبرأ منهم لما رأى أملاوات
النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة . ثم حلل ذلك بقوله (إني أرى ما لا ترون) يعني الملائكة . ثم حلل بعبارة

أخرى فقال (إني أخاف الله) قيل خاف أن يصاب بمكروه من الملائكة الذين حضروا الواقعة ، وقيل إن دعوى الخوف كذب منه ، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتلّ بذلك ، وجملة (والله شديد العقاب) يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس ، ويحتمل أن تكون كلاما مشتاقا من جهة الله سبحانه . قوله (إذ يقول المنافقون) المنظر معمول لفعل مخدوف هو اذكر ، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزين أو بشديد العقاب ؛ قيل المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر (والذين في قلوبهم مرض) هم الشاكون من غير تفاق بل لكونهم حديثي عهد بالإسلام فوافقوا المنافقين في قولهم بهذه المقالة ، أعني (غرّ هؤلاء) أي المسلمين (دينهم) حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش ، وقيل الذين في قلوبهم مرض هم المشركون ، ولا ينبغي أن يراد بهم اليهود الساكنون في المدينة وما حولها . وأنهم هم المنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم في قلة من العدد وضعف من العدد ، فأجاب الله عليهم بقوله (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز) لا يغلبه غالب ، ولا يذلّ من توكل عليه (حكيم) له الحكمة البالغة التي تقصر عندها العقول .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (واذكروا الله) قال : افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون : عند الضراب بالسيوف ، وأخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثنتان لا يردّان : الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلجم بعضهم بعضا » وأخرج الحاكم وصححه عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره الصوت عند القتال وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) يقول : لا تختلفوا فتجبنوا وبذهب نصركم . وأخرج الفريابي وابن أبي شبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وتذهب ريحكم) قال : نصركم وقد ذهب ريع أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) الآية ، يعني المشركين الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف ، فأنزل الله هذه الآية . وأخرج ابن أبي شبة وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال : أبو جهل وأصحابه يوم بدر . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر خرجوا ولم يغي وفخر ، وقد قيل لهم يومئذ ارجعوا فقد انطلقت غيركم وقد ظفرتم فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يومئذ « اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك » وذكر لنا أنه قال يومئذ « جاءت من مكة أفلاذها » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج ، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم فقال الشيطان (لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) وأقبل جبريل على إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انزع إبليس يده وولى مدبرا وشيعته فقال الرجل : يا سراقه إنك جار لنا فقال (إني أرى ما لاترون) وذلك حين رأى الملائكة (إني أخاف الله والله شديد العقاب) قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين وقلل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون : وما هؤلاء غرّ هؤلاء دينهم وإنما قالوا ذلك من قلوبهم في أهينهم وظنوا أنهم سيزمونهم لا يشكون في ذلك ، فقال الله (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم)

أخرج الطبراني وأبو نعيم عن رفاعه بن رافع الأنصاري قال : لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشيت به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقه بن مالك ، فوكر في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هارباً حتى ألقى نفسه في البحر ورفع يديه فقال : اللهم إني أسألك نظرتك إياي . وأخرج الواقدي وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (إني أرى ما لا ترون) قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة وقال (إني أخاف الله) وكذب عدو الله ما به مخافة الله . ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال : ذكروا أنهم أقبلوا على سراقه بن مالك بعد ذلك ، فأنكروا أن يكون قال شيئاً من ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إذ يقول المنافقون) قال : وهم يومئذ في المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (والذين في قلوبهم مرض) قال : هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي في قوله (والذين في قلوبهم مرض) قال : هم قوم كانوا أقرؤا بالإسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر . فلما رأوا المسلمين قالوا (غر هؤلاء دينهم) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبي نحوه .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبِرُهُمْ وُذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) .

قوله (ولو ترى) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه في غير موضع ، والمعنى : ولو رأيت . لأن لو قلب المضارع ماضياً ، و (إذ) ظرف ل ترى . والمفعول محذوف : أي ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم ؛ قيل أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر ؛ وقيل هي فيمن قتل ببدر . وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً . وجمله (يضربون وجوههم) في محل نصب على الحال . والمراد بأدبارهم أستاذهم . كنى عنها بالأدبار . وقيل ظهورهم ؛ قيل هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيد ذكر التوفى . وقيل هو يوم القيامة حين يسرون بهم إلى النار . قوله (وذوقوا عذاب الحريق) قاله الفراء . المعنى : ويقولون ذوقوا عذاب الحريق . والجملة معطوفة على يضربون ؛ وقيل إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم . والذوق قد يكون محسوساً . وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار . وأصله من الذوق بالقم والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من الضرب والعذاب والباء في (بما قدمت أيديكم) سببية : أي ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقتربتم من الذنوب . وجمله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي

والأمر أنه لا يظلمهم . ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لقوله (ذلك) وهي (بما قدمت أيديكم) أي ذلك العذاب بسبب المعاصي . وبسبب (أن الله ليس بظلام للعبيد) لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسلاً . وأنزل عليهم كتبه ، وأوضح لهم السبيل . وهذا من التجديد كما قال سبحانه . وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . قوله (كذاب آل فرعون) لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنة في فرق الكافرين . والقباب : العادة ، والكاف في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف : أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون (والذين من قبلهم) . والمعنى : أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك ، فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر ، وجملة قوله (كفروا بآيات الله) مفسرة لدأب آل فرعون : أي دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله ، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم ، والمراد بذنوبهم : معاصيهم المترتبة على كفرهم ، فيكون الباء في ذنوبهم للملابسة : أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجملة (إن الله قوي شديد العقاب) معترضة مقررّة لمضمون ما قبلها ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى العقاب الذي أنزله الله بهم ، وهو مبتدأ وخبره ما بعده . والجملة جارية مجرى التعليل لما حلّ بهم من عذاب الله . والمعنى : أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله في عباده عدم تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله ونمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه ، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين . فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات في الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه . والعمل به عن هجرها وقبولها ، وجملة (وأن الله سميع عليم) معطوفة على (بأن الله لم يك مغيراً نعمه) داخلة معها في التعليل : أي ذلك بسبب أن الله لم يك مغيراً نعمه ، وبسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه ويعلم ما يفعلونه . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف ، ثم كرّر ما تقدم ، فقال (كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم) لقصد التأكيد مع زيادة أنه كاليان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق ؛ وقيل إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم ، والثاني باعتبار ما فعل بهم . وقيل المراد بالأول كفرهم بالله ، وبالثاني تكذيبهم الأنبياء ؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف ، والكلام في (أهلكناهم بذنوبهم) كاللحام المتقدم في فأخذهم الله بذنوبهم (وأغرقنا آل فرعون) معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك ، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم ، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم ، كما كان يجري منهم في معاملاتهم للناس بأنواع الظلم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) قال : الذين قتلهم الله يظهر من المشركين . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال رجل يارسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك قال . ذلك ضرب الملائكة . وهذا مرسل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وأدبارهم) قال : وأستاههم ، ولكن الله كريم يكنى . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) قال : نعمه الله : محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنعم الله به على قريش فكفروا فقتله الله إلى الأنصار .

إِنَّ شَرَّ النَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ

يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥١) فَلَمَّا تَشَقَّقَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَ بِهِمْ
مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٢) وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْصِبْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ
اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٣) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٤)
وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ
مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٥٥).

قوله (إن شر الدواب) أى شر ما يدب على وجه الأرض (عند الله) أى فى حكمه (الذين كفروا) أى
المصرون على الكفر المتأدون فى الضلال ، ولهذا قال (فهم لا يؤمنون) أى إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبداً ، ولا
يرجعون عن الفواية أصلاً ، وجعلهم شر الدواب لشر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم فى جنس
غير الناس من أنواع الحيوان لعدم عقلهم لما فيه رشادهم . قوله (الذين عاهدت منهم) بدل من الذين كفروا أو
عطف بيان أو فى محل نصب على اللم . والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين هم شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين
عاهدت منهم : أى أخذت منهم عهدهم (ثم) هم (ينقضون عهدهم) الذى عاهدتهم (فى كل مرة) من مرات
المعاهدة (و) الحال أنهم (لا يتقون) النقص ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه ، وقيل إن « من » فى قوله (منهم)
للتبعض ، ومفعول عاهدت محذوف : أى الذين عاهدتهم ، وهم بعض أولئك الكفرة : يعنى الأشراف منهم ،
وعطف المستقبل وهو ثم ينقضون على الماضى ، وهو عاهدت للدلالة على استمرار النقص منهم . وهؤلاء هم
قريظة ، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتى ، ثم أمر رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم بالشدة والغلظة عليهم ، فقال (فلما تشققهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم) أى
فلما تصادفهم فى ثقاف وتلقاهم فى حالة تقدر عليهم فيها وتمكن من غلبهم (فشرد بهم من خلفهم) أى قفرق
بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن
ينزل بهم ما نزل بهؤلاء . والثقاف فى أصل اللغة : ما يشد به القناة أو نحوها ومنه قول النابغة :

تدعوقعيا وقد غص الحديد بها غص الثقاف على ضم الأنايب

يقال ثقفته : وجدته ، وفلان ثقف : سريع الوجود لما يحاوله ، والتشريد : التفريق مع الاضطراب . وقال
أبو عبيدة (شرد بهم) سمع بهم . وقال الزجاج : أفعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم ، يقال شردت بنى
فلان : قلعهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . قال الشاعر :

أطوف فى الأباطح كل يوم مخافة أن يشردنى حنيم

ومنه شرد البعير : إذا فارق صاحبه . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ (فشرد بهم) بالدال المعجمة . قال
قطرب : التشريد بالدال المعجمة هو التنكيل ، وبالمهمل هو التفريق . وقال المهدي : الدال المعجمة لا وجه لها
إلا أن تكون بدلا من الدال المهمل لتقاربهما . قال : ولا يعرف فشرد فى اللغة ، وقرئ (من خلفهم) بكسر الميم

والغناء . قوله (وإما تخافن من قوم خيانة) أى غشاً ونقضاً للعهد من القوم المعاهدين (فانبذ إليهم) أى فاطرح إليهم العهد الذى بينك وبينهم (على سواء) على طريق مستوية . والمعنى : أنه يخبرهم إخباراً ظاهراً مكشوفاً بالنقض ولا يتاجزهم الحرب بغتة ؛ وقيل معنى (على سواء) على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم ، أو تستوى أنت وهم فيه : قال الكسائى : السواء العدل . وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله - فى سواء الجحيم - ، ومنه قول حسان :

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المغيب فى سواء الملحد

ومن الأول قول الشاعر :

فاضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء

وقيل معنى (فانبذ إليهم على سواء) على جهر لا على سرّ والظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله (فشرّد بهم من خلفهم) ثم ابتداء تبارك وتعالى فى هذه الآية بأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة . وجملة (إن الله لا يحب الخائنين) تعليل لما قبلها . يحتمل أن تكون تحذيراً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة . قوله (ولا تحسبن) قرأ ابن عامر ويزيد وحمة وحفص بالياء التحتية . وقرأ الباقر بالمشناة من فوق . فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا فاعل الحسبان ، ويكون مفعوله الأول محذوفاً : أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم . ومفعوله الثانى سبقوا ومعناه فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم . وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ومفعوله الأول الذين كفروا ، والثانى سبقوا . وقرئ (إنهم سبقوا) وقرئ « يحسبن » بكسر الياء . وجملة (إنهم لا يعجزون) تعليل لما قبلها : أى إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم . وقرأ ابن عامر أنهم بفتح الهمزة ، والباقر بكسرها . وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية ؛ وقيل المراد بهذه الآية من أفلت من وقعة بدر من المشركين . والمعنى : أنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فلأنهم لا يعجزون . بل هم واقعون فى عذاب الله فى الدنيا أو فى الآخرة . وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن قراءة من قرأ يحسبن بالتحنية لحن . لأنهم لا تحل القراءة بها لأنه لم يأت ليحسبن بمفعول . وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل شديد ومعنى هذه القراءة : ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ، فيكون الضمير يعود على ماتقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين . وقال المهلوى : يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلاً ، والمفعول الأول محذوف . والمعنى ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . قال مكى : ويجوز أن يضم مع سبقوا « أن » فتسد مسد المفعولين ، والتقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا . فهو مثل - أحسب الناس أن يتركوا - فى سدّ أن مسدّ المفعولين ، ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء ، والقوة كل ما يتقوى به فى الحرب . ومن ذلك السلاح والقتل . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي » . قالها ثلاث مرات . وقيل هى الحصون ، والمصير إلى التفسير الظاهر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعين . قوله (ومن رباط الخيل) . قرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حمزة « ومن ربط الخيل » بضم الراء والياء ككتب : جمع كتاب . قال أبو حاتم : الرباط من الخيل الخمسة فما فرقها . وهى الخيل التى ترتبط بإزاء العدو . ومنه قول الشاعر :

أمر الإله بربطها لعدوه في الحرب إن الله خير موفق

قال في الكشف : والرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله . ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المراقبة ، ويجوز أن يكون جمع رباط كفصيل وقصال انتهى . ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به في الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام ، وجملة (ترهبون به عدو الله وعدوكم) في محل نصب على الحال والترهيب التخويف . والضمير في به عائد إلى « ما » في « ما استطعتم » أو إلى المصدر المفهوم من « وأعدوا » وهو الإعداد . والمراد بعدو الله وعدوهم هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركي العرب : قوله (وآخرين من دونهم) معطوف على عدو الله وعدوكم . ومعنى من دونهم : من غيرهم : قيل هم اليهود ، وقيل فارس والروم ، وقيل الجن . ورجحه ابن جرير . وقيل المراد بالآخرين من غيرهم كل من لا تعرف عداوته قاله السهيلي . وقيل هم بنو قريظة خاصة . وقيل غير ذلك . والأولى الوقف في تعيينهم لقوله (لا تعلمونهم الله يعلمهم) . قوله (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله) أي في الجهاد وإن كان بسيرا حقيرا (يوف إليكم) جزاؤه في الآخرة ، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا (وأنتم لا تظلمون) في شيء من هذه النفقة التي تنفقونها في سبيل الله : أي من ثوابها بل بصير ذلك إليكم وافيًا وافرا كاملا - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - أني لا أضيع عمل عامل منكم .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : نزلت (إن شر الدواب عند الله) الآية في ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم) قال : قريظة يوم الحندق ما لثوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعداءه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فشرّد بهم من خلفهم) قال : نكل بهم من بعدهم . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : نكل بهم من وراءهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في الآية قال : أنذر بهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : عطف بهم من سواهم من الناس . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : أخفهم بهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (لعلمهم يدكرون) يقول : لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك . وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : قد وضعت السلاح وما زلتا في طلب القوم فأخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة . وأنزل فيهم (وإما تخافن من قوم خيانة) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (إنهم لا يعجزون) قال : لا يفوتونا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) قال : الرمي والسيوف والسلاح . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير في قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) قال : أمرهم بإعداد الخيل . وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في الشعب عن عكرمة في الآية قال : القوة ذكور الخيل ، والرباط الإناث . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في الآية قال : القوة الفرس إلى السهم فما دونه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : القوة الحصون . و (من رباط الخيل) قال : الإناث . وأخرج القرطبي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ترهبون به عدو الله وعدوكم) قال : تحذرون به عدو الله وعدوكم . وقد ورد في استحباب الرمي وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة ، وكذلك ورد في استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها . وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات .

وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٢) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣).

الجنوح : الميل ، يقال جنح الرجل إلى الرجل : مال إليه ، ومنه قيل للأضالع جوائح لأنها مالت إلى الحنوة ، وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير ، ومنه قول ذي الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه بذكرارك والعيس المراسيل جنح

ومثله قول عنترة :

جوائح قد أيقن أن قبيله إذا ما اتقى الجمعان أول غالب

يعنى الطير ، والسلم : الصلح . قرأ الأعمش وأبو بكر وابن عيصن والمفضل بكسر السين ، وقرأ الباقر بفتحها ، وقرأ العقيلي (فاجنح) بضم اللز ، وقرأ الباقر بفتحها . والأولى لغة قيس ، والثانية لغة تميم . قال ابن جني : ولغة قيس هي القياس ، والسلم تؤثت كما تؤثت الحرب ، أو هي مؤولة بالحصلة ، أو الفعلة .

وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟ فقيل هي منسوخة بقوله - فاقتلوا المشركين - وقيل ليست بمنسوخة ، لأن المراد بها قبول الجزية ، وقد قبلها منهم الصحابة فن بعدهم ، فتكون خاصة بأهل الكتاب ، وقيل إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه ، وتمسك المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى - ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم - وقيلوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك ، فهو جائز كما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من مهادنة قريش ، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك ، وكلام أهل العلم في هذه المسئلة معروف مقرر في مواطنه (وتوكل على الله) في جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم ، (فإنه) سبحانه (هو السميع) لما يقولون (العليم) بما يفعلون (وإن يريدوا أن يخذعوك) بالصلح ، وهم مضمرون الغدر والخدع (فإن حسبك الله) أي كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر ، وجملة (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) تعاليمية : أي لا تخف من خدعهم ومكرهم فإن الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى ، وهو يوم يدر هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث ، والمراد بالمؤمنين المهاجرون والأنصار ، ثم بين كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال (وألف بين قلوبهم) وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله . وقال جمهور المفسرين : المراد الأوس والخزرج ، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة فألف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار ، والحمل على العموم أولى ، فقد كانت العرب قبل البعثة الحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه ، حتى جاء الإسلام فصاروا يدا واحدة ، وذهب ما كان بينهم من العصبية ، وجملة (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) مقررّة لمضمون ما قبلها . والمعنى أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال ، ولو أنفق الطالب له جميع ما في الأرض لم يتم له ما طلبه من التأليف ، لأن أمرهم في ذلك قد تفاقم جدا (ولكن الله ألف بينهم) بعظيم قدرته

وبدیع صنعه (إنه عزيز) لا يغالبه مغالب . ولا يستعصى عليه أمر من الأمور (حكيم) في تدبيره ونفوذ نبيه وأمره . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (وإن جنحوا للسلم) قال : قريظة . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في الآية قال : نزلت في بني قريظة نسخها - فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم - إلى آخر الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : السلم الطاعة . وأخرج أبو الشيخ عنه في الآية قال : إن رضوا فارض . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : إن أرادوا الصلح فأرده . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : نسخها هذه الآية - قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر - إلى قوله - وهم صاغرون - . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ عن قتادة قال : ثم نسخ ذلك - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم - . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وإن يريدوا أن يخدعوك) قال : قريظة . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (وبالمؤمنين) قال : بالأنصار . وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال : مكتوب على العرش لا إله إلا الله ، أنا الله وحدي لا شريك لي ، ومحمد عبدي ورسولي أيده بعلمي . وذلك قوله (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) . وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والنسائي والبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود أن هذه الآية نزلت في المتحايين في الله (لو أنفقت ما في الأرض جميعا) الآية . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان ، واللفظ له عن ابن عباس قال : قرابة الرحم تقطع ، ومنة المنعم تكفر ، ولم تر مثل تقارب القلوب ، يقول الله (لو أنفقت ما في الأرض جميعا) الآية . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم والبيهقي عنه نحوه ، وليس في هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول ، ولكن الشأن في قول ابن مسعود رضي الله عنه : إن هذه الآية نزلت في المتحايين في الله مع أن الواقع قبلها (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) والواقع بعدها (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ومع كون الضمير في قوله (ما ألفت بين قلوبهم) يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة ، وكذلك الضمير في قوله (ولكن الله ألفت بينهم) فإن هذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خَرِّصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٥) أَلَمْ تَخَفْ اللَّهَ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٦) .

قوله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ليس هذا تكريرا لما قبله فإن الأول مقيد بإرادة

الكلدع - وإن يريدوا أن يخذلوك فلأن حسبك الله - فهذه كفاية خاصة ، وفي قوله (يا أيها النبي ، حسبك الله) كفاية هامة غير مقيدة : أي حسبك الله في كل حال ، والواو في قوله (ومن اتبعك) يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف . والمعنى : حسبك الله وحسبك المؤمنون : أي كافيك الله وكافيك المؤمنون . ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول : حسبك وزيدا درهم ، والمعنى : كافيك وكافي المؤمنين الله ، لأن عطف الظاهر على المنصغر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو ، وأجازه الكوفيون . قال القراء : ليس بكثير في كلامهم أن تقول حسبك وأخيك ، بل المستعمل أن يقال : حسبك وحسب أخيك بإعادة الجار . فلو كان قوله (ومن اتبعك) مجرورا لقليل : حسبك الله وحسب من اتبعك ، واختار للنصب على المفعول معه النحاس . وقيل يجوز أن يكون المعنى : ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فعذف الخبر . قوله (حرّض المؤمنين على القتال) أي حثهم وحضهم ، والتحريض في اللغة : المبالغة في الحث وهو كالتحفيز ، مأخوذ من الحرّض ، وهو أن يهيكه المرض ويتبالغ فيه حتى يشق على الموت كأنه ينسب إلى الملاك لو تخلف عن المأمور به ، ثم بشرهم تثبيتا لقلوبهم وتسكينا لخواطهم بأن الصابرين منهم في القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار ، فقال (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) ثم زاد هذا لإيضاحا مفيدا لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد ، بل هي جارية في كل عدد فقال (وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا) وفي هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال وقد وجد في الخارج ما يخالف ذلك . فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين ، بل مثل نصفهم بل مثلهم . وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا في الخارج لا يخالف ما في الآية لاحتمال أن لا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر : وقيل إن هذا الخبر الواقع في الآية هو في معنى الأمر كقوله تعالى - والوالدات يرضعن - والمطلقات يربصن - فالؤمنون كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم . ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال (فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) إلى آخر الآية . فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنتين من الكفار . وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ضعفا بفتح الضاد . وقوله (بأنهم قوم لا يفقهون) متعلق بقوله (يغلبوا) أي إن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم . وأنهم يقاتلون على غير بصيرة . ومن كان هكذا فهو مغلوب في الغالب . وقد قيل في نكتة التنصيص على غلب العشرين للمائتين ، والمائة للألف أن سراياه التي كان يبعثها صلى الله عليه وآله وسلم كان لا ينقص عددها عن العشرين ولا يجاوز المائة ، وقيل في التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين والألف للألفين على أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف . ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره لا بقوتهم وجلادتهم ، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين . وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به . وأنه من أعظم أسباب النجاح والقلاح والنصر والظفر ، لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه . وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم . وأنزل الله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أسلم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسعة وثلاثون رجلا وامرأة ، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت (يا أيها النبي حسبك الله) .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزهري في الآية قال : نزلت في الأنصار . وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي في قوله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) قال : حسبك الله وحسب من اتبعك . وأخرج البخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) فكتب عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة ، وأن لا يفرّ عشرون من مائتين . ثم نزلت (الآن خفف الله عنكم) الآية فكتب أن لا يفرّ مائة من مائتين قال سفيان وقال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا ، إن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم وأخرج البخاري والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة . فجاء التخفيف (الآن خفف الله عنكم) الآية قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٨) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩) .

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد . ومعنى (ما كان لنبي) ما صح له وما استقام ، قرأ أبو عمرو وسهيل ويعقوب ويزيد والمفضل أن تكون بالفوقية . وقرأ الباقر بالتحتية ، وقرأ أيضا يزيد والمفضل « أسارى » وقرأ الباقر « أسرى » والأسرى جمع أسير . مثل قتلى وقتيل ، وجرحى وجريح . ويقال في جمع أسير أيضا أسارى بضم الهمزة وفتحها . وهو مأخوذ من الأسر . وهو القيد ، لأنهم كانوا يشدون به الأسير . فسمى كل أخذ وإن لم يشد بالقيد أسيرا . قال الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته كما قيدت الأسرات الحمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون والأسارى هم الموثقون ربطا . والإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ، تقول العرب : أثخن فلان في هذا الأمر : أى بالغ فيه . فالمعنى : ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبلغ في قتل الكافرين ويستكثر من ذلك ، وقيل معنى الإثخان : التمكن ، وقيل هو القوة . أخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثرت المسلمون رخص الله في ذلك فقال : - فإما منا بعد وإما فداء - كما يأتي في سورة القتال إن شاء الله . قوله (تريدون عرض) الحياة (الدنيا) أى نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء ، وسمى عرضا لأنه سريع الزوال كما تزول الأعراض التى هى مقابل الجواهر (والله يريد الآخرة) أى يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب في الإثخان بالقتل . وقرأ « يريد الآخرة » بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله : أى والله يريد عرض الآخرة (والله عزيز) لا يغالب (حكيم) فى كل أفعاله . قوله (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذى سبق ما هو ؟ على أقوال : الأول ما سبق في علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم

والثاني أنه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر كما في الحديث الصحيح « إن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . القول الثالث هو أنه لا يعذبهم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم كما قال سبحانه - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - . القول الرابع أنه لا يعذب أحدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا . القول الخامس أنه ما قضاه الله من محو الصفات باجتناب الكبائر . القول السادس أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي ولم يتقدم نهى عن ذلك . وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلية تحت اللفظ وأنه يعمها (لمسكم) أى لحل بكم (فيما أخذتم) أى لأجل ما أخذتم من الفداء (عذاب عظيم) والفاء فى (فكلوا مما غنمتم) لترتيب ما بعدها على سبب مخوف : أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم ويحوز أن تكون عاطفة على مقدر مخوف : أى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره ، وقيل إن (ما) عبارة عن الفداء : أى كلوا من الفداء الذى غنمتم فإنه من جملة الغنائم التى أحلها الله لكم و (حللا طيبا) متصبان على الحال أو صفة المصدر المحلوف : أى أكلا حللا طيبا (واتقوا الله) فيما يستقبل فلا تقدموا على شيء لم يأذن الله لكم به (إن الله غفور) لما فرط منكم (رحيم) بكم فلذلك رخص لكم فى أخذ الفداء فى مستقبل الزمان .

وقد أخرج أحمد عن أنس قال : استشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر فقال : إن الله قد أمكنكم منهم . فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم . وإنما هم إخوانكم بالأمس ، فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم محاد فقال مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، فأنزل الله (لولا كتاب من الله سبق) الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جىء بالأسارى وفيهم العباس فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ؛ وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قد همهم فاضرب أعناقهم ؛ وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحمتك فدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ؛ وقال قوم : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال - من تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم - . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال - إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم - . ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال - رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا - ، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال - ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم - . أنتم عالة فلا ينفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ، فقال عبد الله : يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إلا سهيل بن بيضاء . فأنزل الله (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) الآية .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأسارى يوم بدر « إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتهم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم . فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استشهد باليامة » . وأخرج عبد الرزاق في مصنفه وابن أبي شيبة عن عبيدة بن جراح . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عمر قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسره ، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني لم أتم الليلة من أجل عمي العباس . وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه . فقال له عمر : فأتيتهم ؟ قال نعم . فأتى عمر الأنصار فقال : أرسلوا العباس . فقالوا : لا والله لا نرسله . فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضا ، قالوا : فإن كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضا فخذ ، فأخذه عمر . فلما صار في يده قال له : يا عباس أسلم ، فوالله إن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم يعجبه إسلامك ، قال : فاستشار رسول الله أبا بكر فقال أبو بكر : عشيرتك فارس لهم . فاستشار عمر فقال : اقتلهم ، فقادهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأنزل الله : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (حتى يشحن في الأرض) يقول حتى يظهر وا على الأرض . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : الإثخان هو القتل . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد أيضا في الآية قال : ثم نزلت الرخصة بعد . إن شئت فمن . وإن شئت فقاد . وأخرج ابن المنذر عن قتادة (تريدون عرض الدنيا) قال : أراد أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر الفداء فقادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة (تريدون عرض الدنيا) قال : الخراج . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (لولا كتاب من الله سبق) قال : سبق لهم المغفرة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : ما سبق لأهل بدر من السعادة . وأخرج النسائي وابن مردويه وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالمعصية . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سبق أن لا يعذب أحدا حتى يبين له ويتقدم إليه .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) .

اختلاف القراء في أسرى (١) والأسارى هو هنا كما سبق في الآية التي قبل هذه . خاطب الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا : أي قل لهؤلاء الأسرى الذين هم في أيديكم أسرتهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء (إن يعلم الله في قلوبكم خيرا) من حسن إيمان ، وصلاح نية . وخلص طوية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء : أي بموضعكم في هذه الدنيا رزقا خيرا منه ، وأنفع لكم ، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة (ويغفر لكم) (والله غفور رحيم) شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم ، ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه

خيرا ذكر من هو على ضد ذلك منهم فقال (وإن يريدوا خيانتك) بما قالوه لك بالسنتهم من أنهم قد آمنوا بك وصدّقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة ، بل هو مماكرة ومخادعة . فليس ذلك بمستبعد منهم فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه ، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظهر بهم . فكفروا به وقتلوا رسوله (فأمكن منهم) بأن نصرّك عليهم في يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت (والله عليم) بما في ضمائرهم (حكيم) في أفعاله بهم .

وقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فداء أبي العاص وبعثت فيه بقلادة . فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رق رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها ، وقال العباس : إني كنت مسلما يارسول الله . قال : الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فالله يجزيك ، فافد نفسك وإبني أخويك نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو ، قال : ما ذلك عندي يارسول الله ، قال : فأين المال الذي دفنت أنت وأم الفضل ؟ فقلت لها : إن أصبت فهذا المال لبني ؟ فقال : والله يارسول الله إن هذا لشيء ما علمه غيري وغيرها ، فاحسب لي ما أصبتم مني عشرون أوقية من مال كان معي ، قال : لا أفعل ، ففدى نفسه وإبني أخويه وحليفه ونزلت (قل لمن في أيديكم من الأسرى) الآية ، فأعطاني مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدا كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله . وأخرج ابن سعد والحاكم وصححه عن أبي موسى أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمال من البحرين ثمانين ألفا . فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مال أكثر منه ، فنشر على حصير . وجاء الناس فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطيهم . وما كان يومئذ عدد ولا وزن . فجاء العباس فقال : يارسول الله إني أعطيت فدائي وفداء عقيل يوم بدر أعطني من هذا المال ، فقال : خذ ، فحشا في خيسته ثم ذهب ينصرف فلم يستطع ، فرفع رأسه وقال : يارسول الله ارفع علي ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذهب وهو يقول : أما أحد الذين وعد الله فقد أنجزنا وما ندرى ما يصنع في الأخرى (قل لمن في أيديكم من الأسارى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم) فهذا خير مما أخذ مني ولا أدرى ما يصنع في المغفرة . والروايات في هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في الأسارى يوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث . وعقيل بن أبي طالب . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه في قوله (وإن يريدوا خيانتك) إن كان قولهم كذبا (فقد خانوا الله من قبل) فقد كفروا وقتلوك (فأمكن) لك الله (منهم) .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥).

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به ، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم ، لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلبا لما عند الله ، وإجابة لداعيه (والذين آووا ونصروا) هم الأنصار والإشارة بقوله (أولئك) إشارة إلى الموصول الأول والآخر ، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده ، ويجوز أن يكون (بعضهم) بدلا من اسم الإشارة ، والخبر (أولياء بعض) أى بعضهم أولياء بعض في النصرة والمعونة وقيل المعنى : إن بعضهم أولياء بعض في الميراث . وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) . قوله (والذين آمنوا) مبتدأ ، وخبره (ما لكم من ولايتهم من شيء) . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمة « من ولايتهم » بكسر الواو . وقرأ الباقون بفتحها : أى مالكم من نصرتهم وإعانتهم ، أو من ميراثهم ، ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم (حتى يهاجروا) فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة (وإن استنصروكم) أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا إذا طلبوا منكم النصرة لم على المشركين (فعليكم النصر) أى فواجب عليكم النصر (إلا) أن يستنصروكم (على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضى مدته . قال الزجاج : ويجوز فعليكم النصر بالنصب على الإغراء . قوله (والذين كفروا) مبتدأ خبره (بعضهم أولياء بعض) أى بعضهم ينصر بعضا ويتولاه في أموره ، أو يرثه إذا مات . وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا ينصرون الكفار ولا يتولونهم . قوله (إلا تفعلوه) الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور ، وترك موالة الكافرين «تكن فتنة في الأرض» أى تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك (وفساد كبير) أى مفسدة كبيرة في الدين والدنيا ، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار ، فقال (أولئك هم المؤمنون حقا) أى الكاملون في الإيمان ، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء ، والأول وارد في إيجاب الموالة والنصرة ، ثم أخبر سبحانه أن (لهم) منه (مغفرة) لذنوبهم في الآخرة (و) لهم في الدنيا (رزق كريم) خالص عن الكدر طيب مستلذ ، ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرته وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار فهو من جملتهم : أى من جملة المهاجرين الأولين والأنصار في استحقاق ما استحقوه من الموالة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم ، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم في الميراث ، والمراد بهم القرابات فيتناول كل قرابة ، وقيل المراد بهم هنا العصابات ، قللوا : ومنه قول العرب : وصلتك رحم فلانهم لا يريدون قرابة الأم . قالوا : ومنه قول قتيلة :

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

ولا يخف أنك أنه ليس في هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصابات ، وقد استدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام ، وهم من ليس بعصبة ولا ذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم الموارث ، والخلاف في ذلك معروف مقرر في موطنه ، وقد قيل إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالة والنصرة عند من فسر ماتقدم من قوله

(بعضهم أولياء بعض) وما بعده بالتوارث ، وأما من فسرها بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخباراً منه سبحانه وتعالى بأن القرابات (بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) أى في حكمه أو في اللوح المحفوظ أو في القرآن ، ويدخل في هذه الأولوية الميراث دخولاً أولاً لوجود سببه ، أعني القرابة (إن الله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه شيء من الأشياء كائناً ما كان ، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (إن الذين آمنوا وهاجروا) الآية قال : إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ثلاث منازل . منهم المؤمن المهاجر المبين لقومه . وفي قوله (والذين آووا ونصروا) قال : آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة وشهروا السيوف على من كذب وجحد . فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض . وفي قوله (والذين آمنوا ولم يهاجروا) قال : كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية في الدين . وكان الذي آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر ، فبرأ الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم . وهى الولاية التى قال (ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) كان حقاً على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم في الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ميثاق ، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذى لا ميثاق لهم . ثم أنزل الله بعد ذلك أن الحق كل دى رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا (والذين آمنوا ولم يهاجروا) فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيباً مفروضاً لقوله (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) الآية . وفي رواية لابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (لؤلؤك بعضهم أولياء بعض) قال : يعنى في الميراث جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء) مالكم من ميراثهم من شيء (حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين) يعنى إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لم فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) فنسخت الآية التى قبلها . وصارت الموارث لذوى الأرحام . وأخرج أبو عبيد وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في هذه الآيات قال : كان المهاجر لا يتولى الأعرابي ولا يرثه وهو مؤمن ، ولا يرث الأعرابي المهاجر . فنسختها هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضاً قال : قال رجل من المسلمين : لتورثن ذوى القربى منا من المشركين ، فنزلت (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) . وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والحاكم ومصححه عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «المهاجرون بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة ، والطلاقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة» . وأخرج الحاكم ومصححه وابن مردويه عن أسامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافراً مسلماً ، ثم قرأ (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) الآية» . وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم والحاكم ومصححه وابن مردويه عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله فينا خاصة معشر قريش (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) وذلك أنا معشر قريش لما قلعتنا المدينة قلعتنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان . فواخيناهم ووارثناهم فآخونا ، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخى عمر فلانا ، وآخى عثمان بن عفان رجلاً من بني زريق بن أسعد الزرقى ، قال الزبير : وآخيت لنا كعب بن مالك ، ووارثونا ووارثناهم . قلنا

كان يوم أحد قيل لي قد قتل أخوك كعب بن مالك . فجئته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقلته فيها يرى ، فوالله يابني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري . حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار فرجعنا إلى موارثنا . وأخرج أبو داود الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه وورث بعضهم من بعض ، حتى نزلت هذه الآية (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) فتركوا ذلك وتوارثوا بالتسب .

تفسير سورة براءة

هي مائة وثلاثون آية ، وقيل مائة وسبع وعشرون آية . ولها أسماء : منها سورة التوبة . لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وتسمى الفاضحة لأنه ما زال ينزل فيها : ومنهم . ومنهم حتى كادت أن لاتدع أحدا ، وتسمى بالبحوث لأنها تبحث عن أسرار المنافقين ، وتسمى المبعثرة ، والمبعثرة البحث ، وتسمى أيضا بأسماء آخر كالمقشقة . لكونها تقشش من التفاق : أي تبرى منه ، والخزبة لكونها أخزت المنافقين ، والمثيرة لكونها تثير أسرارهم ، والمخافة لكونها تخفر عنها ، والمنكلة لما فيها من التنكيل لم ، والمدممة لأنها تدمم عليهم .

وهي مدنية . قال القرطبي باتفاق . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : نزلت براءة بعد فتح مكة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : نزلت سورة التوبة بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحوه . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي شيبة والبغاري والنسائي وابن الضريس وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن البراء قال : آخر آية نزلت - يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة - وآخر سورة نزلت تامة براءة .

وقد اختلف العلماء في سبب سقوط البسمة من أولها على أقوال . الأول عن المبرد وغيره : أنه كان من شأن العرب إذا كان بينهم وبين قوم عهد ، فإذا أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسملة ، فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركون . بعث بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ابن أبي طالب فقرأها عليهم ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادة العرب . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : سألت علي بن أبي طالب لم لا تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان . وبراءة نزلت بالسيف . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المثني . فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولا . وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبين لنا أنها منها . فن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعها في السبع الطول . وأخرج أبو الشيخ عن

أبي رجاء قال : سألت الحسن بن الأنثالي وبراءة أسورتان أو سورة ؟ قال : سورتان . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن حليفة قال : يسمون هذه السورة سورة التوبة ، وهي سورة العذاب : وأخرج هؤلاء عن ابن عباس قال : في هذه السورة هي الفاضحة ما زالت تنزل ، ومنهم حتى ظننا أنه لا يبقى منا أحد إلا ذكرها . وأخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر سورة التوبة ، فقال ابن عمر : وأيتن سورة التوبة ، ثم قال : وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هي ؟ ما كنا ندعوها إلا الممشقة . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : يسمونها سورة التوبة ، وإنها لسورة عذاب . وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق قال : كانت براءة تسمى في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعده المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس . وأخرج أبو الشيخ عن عبيد الله بن عبيد بن عمير قال : كانت براءة تسمى المتقرة ففرت عما في قلوب المشركين وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب عن أبي عطية الحمداًني قال : كتب عمر بن الخطاب : تعلموا سورة براءة وعلّموا نساءكم سورة النور . ومن جملة الأقوال في حذف البسمة أنها كانت تعدل سورة البقرة أو قريباً منها ، وأنه لما سقط أولها سقطت البسمة ، روى هذا عن مالك بن أنس وابن عجلان . ومن جملة الأقوال في سقوط البسمة أنهم لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان اختلف الصحابة فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان ، فركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان ، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ، فرضى الفريقان . قاله خارجه وأبو عصمة وغيرهما . وقول من جعلهما سورة واحدة أظهر ، لأنهما جميعاً في القتال . وتعدان جميعاً سابعة السبع الطول .

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأُذِنَ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ
فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٣) .

قوله (براءة من الله ورسوله) برئت من الشيء أبرأ براءة ، وأنا منه برئ : إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه ، وبراءة مرتفعة على أنها خبر مبتدأ محذوف : أي هذه براءة ، ويجوز أن ترتفع على الابتداء لأنها نكرة موصوفة ، والخبر (إلى الذين عاهدتم) . وقرأ عيسى بن عمر (براءة) بالنصب على تقدير اسمعوا براءة ، أو على تقدير التزموا براءة ، لأن فيها معنى الإغراء ، وه من في قوله (من الله) لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وقع صفة : أي واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم . وقرأ روح وزيد بنصب رسوله ، وقرأ الباقر بالرفع . والعهد : العهد الموثق باليمين . والخطاب في عاهدتم للمسلمين ، وقد كانوا عاهدوا مشركي مكة وغيرهم بإذن من الله ومن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : الإغراء للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدة بسبب

ما وقع من الكفار من النقص ، فصار التنبذ إليهم بعهدهم واجبا على المعاهدين من المسلمين ، ومعنى براءة الله سبحانه وقروح الإذن منه سبحانه بالتنبذ من المسلمين لعهد المشركين بعد وقوع النقص منهم ، وفي ذلك من التضخيم لشأن البراءة والتهويل لها والتسجيل على المشركين بالذلّ والهوان ما لا يخفى . قوله (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) هذا أمر منه سبحانه بالسياحة بعد الإخبار بتلك البراءة ، والسياحة : السير . يقال ساج فلان في الأرض يسبح سياحة وسيوحا وسيحانا ، ومنه سيع الماء في الأرض وسيع الخيل . ومنه قول طرفة بن العبد :

لو خفت هذا منك ما نلتني حتى ترى خيلا أمامي تسبح

ومعنى الآية أن الله سبحانه بعد أن أذن بالتنبذ إلى المشركين بعهدهم أباح للمشركين الضرب في الأرض والذهاب إلى حيث يريدون والاستعداد للحرب هذه الأربعة الأشهر ، وليس المراد من الأمر بالسياحة تكليفهم بها . قال محمد بن إسماعيل وغيره : إن المشركين صنفان : صنف كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت أكثر من ذلك فقصر على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه ، وهو حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث يوجد ، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر ، فأما من لم يكن له عهد فلأنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم ، وذلك خمسون يوما : عشرون من ذي الحجة وشهر محرم . وقال الكلبي : إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد دون أربعة أشهر . ومن كان عهده أكثر من ذلك فهو الذي أمر الله أن يتم له عهده بقوله « فأتوا إليهم بعهدهم إلى مدتهم » ورجح هذا ابن جرير وغيره ، وسيأتي في آخر البحث من الرواية ما يتضح به معنى الآية (واعلموا أنكم غير معجزي الله) أي اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز ، ولكن لمصلحة ليتوب من تاب ، وفي ذلك ضرب من التهديد كأنه قيل : افعلوا في هذه المدة كل ما أمكنكم من إعداد الآلات والأدوات ، فإنكم لا تفوتون الله وهو غزيكم : أي مذكركم ومهينكم في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالعذاب ، وفي وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن سبب هذا الإخزاء هو الكفر ، ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا . قوله (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر) ارتفاع أذان على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه مبتدأ خبره ما بعده على ما تقدم في ارتفاع براءة ، والجملة هذه معطوفة على جملة براءة من الله ورسوله . وقال الزجاج : إن قوله « وأذان » معطوف على قوله براءة . واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لكن أذان محبر عنه بالخبر الأول ، وهو إلى الذين عاهدتم من المشركين ، وليس ذلك بصحيح . بل الخبر عنه هو إلى الناس ، والأذان بمعنى الإيذان وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء ، ومعنى قوله (إلى الناس) التعميم في هذا : أي أنه إيذان من الله إلى كافة الناس غير مختص بقوم دون قوم ، فهذه الجملة متضمنة للإخبار بوجوب الإعلام لجميع الناس ، والجملة الأولى متضمنة للإخبار بالبراءة إلى المعاهدين خاصة ، و (يوم الحج) ظرف لقوله وأذان ، ووصفه بالأكبر لأنه يجتمع فيه الناس ، أو لكون معظم أفعال الحج فيه .

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا اليوم المذكور في الآية ، فذهب جمع منهم على بن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة ومجاهد أنه يوم النحر . ورجحه ابن جرير . وذهب آخرون منهم عمر وابن عباس وطاوس أنه يوم عرفة . والأول أرجح . لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر من بعثه لإبلاغ هذا إلى المشركين أن يبلغهم يوم النحر . قوله (أن الله برىء من المشركين ورسوله) قرىء بفتح أن على تقدير بأن الله برىء من المشركين ، فحذفت الباء تخفيفا . وقرىء بكسرها ، لأن في الإيذان معنى القول ، وارتفاع رسوله على أنه معطوف

على موضع اسم أن ، أو على الضمير في برىء ، أو على أنه مبتدأ وخبره محذوف . والتقدير : ورسوله برىء ، منهم . وقرأ الحسن وغيره (ورسوله) بالنصب عطفا على لفظ اسم أن . وقرئ : ورسوله ، بالجر على أن الواو للقسم ، روى ذلك عن الحسن ، وهى قراءة ضعيفة جدا ، إذ لا معنى للقسم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ها هنا مع ما ثبت من النهى عن الحلف بغير الله ، وقيل إنه مجرور على الجوار . قوله (فإن توبتم) أى من الكفر . وفيه التفتت من الغيبة إلى الخطاب ، قيل وفائدة هذا الالتفات زيادة التهديد ، والضمير في قوله (فهو) راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم (خير لكم) مما أنتم فيه من الكفر (وإن توليتم) أى عرضتم عن التوبة وبقيتم على الكفر (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) أى غير فائزين عليه . بل هو مدرككم فجازيكم بأعمالكم . قوله (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) هذا تهكم بهم ، وفيه من التهديد ما لا يخفى .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ، ثم قال : إنه يحضر البيت مشركون بطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر وعليهما فطافا في الناس بذي الحجاز . وبأمكنهم التي كانوا يبيعون بها . أو بالموسم كله ، فأذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر ، وهى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر تملو من ربيع الآخر ، ثم لاعهد لهم وأذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا . وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي قال لما نزلت عشر آيات من براءة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا أبا بكر ليقراها على أهل مكة ، ثم دعاني فقال لي أدرك أبا بكر ، فحيثما لقيت فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة . فلحقته فأخذت الكتاب منه ، ورجع أبو بكر وقال : يا رسول الله نزل في شيء ، قال لا ، ولكن جبريل جاءني فقال : لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس نحوه . وأخرج ابن مردويه من حديث سعد بن أبي وقاص نحوه أيضا . وأخرج أحمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنت مع علي حين بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل مكة براءة ، فكنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد فإن أجله وأمدته إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف النبي صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن براءة فأذن علي في يوم النحر براءة : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وأخرج الترمذي وحسنه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا بكر وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، ثم أتبعه عليا وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ، فانطلقا فحجا ، فقام علي في أيام التشريق فنادى : إن الله برىء من المشركين ورسوله فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ولا يدخل الجنة إلا مؤمن : فكان علي ينادى ، فإذا أعيا قام أبو بكر ينادى بها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن المنذر والنحاس والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن زيد بن تبيع قال : سألت عليا بأي شيء بعثت مع أبي بكر في

الحج ٩ قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة . ولا يطوف بالبيت عريان . ولا يجتمع مؤمن وكافر بالمسجد الحرام بعد عامهم هذا . ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد فعده إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (براءة من الله ورسوله) الآية قال : حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاءوا ، وحدّ أجل من ليس له عهد انسلاخ الأربعة الأشهر الحرم من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم خمسين ليلة . فإذا انسلخ الأشهر الحرم أمره أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ونقض ما سمى لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول (إلا الذين ما عدهم عند المسجد الحرام) يعني أهل مكة . وأخرج النحاس عنه نحو هذا . وقال : ولم يعاهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذا أحدا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والنحاس عن الزهري (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) قال : نزلت في شوال فهي الأربعة أشهر : شوال . وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (وأذان من الله ورسوله) قال : هو إلام من الله ورسوله . وأخرج الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عليّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال : يوم النحر . وأخرجه ابن أبي شيبة والترمذي وأبو الشيخ عنه من قوله . وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن عبد الله بن قرط قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر » . وأخرج ابن مردويه عن ابن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « يوم الأضحى هذا يوم الحج الأكبر » . وأخرج البخاري تعليقا وأبو داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال : أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم النحر . قال : هذا يوم الحج الأكبر . وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك . ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر : يوم النحر . والحج الأكبر : الحج . وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر . فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع التي حج فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشرك . وأنزل الله في العام الذي نذ فيه أبو بكر إلى المشركين - يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس - الآية . وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال زمن الفتح « إن هذا عام الحج الأكبر » قال : اجتمع حج المسلمين وحج المشركين في ثلاثة أيام متتابعات ، واجتمع النصارى واليهود في ثلاثة أيام متتابعات ، فاجتمع حج المسلمين والمشركين والنصارى واليهود في ستة أيام متتابعات . ولم يجتمع منذ خلق السموات والأرض كذلك قبل العام . ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة . . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن أنه سئل عن يوم الحج الأكبر فقال : ما لكم وللحج الأكبر ؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر استخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحج بالناس . واجتمع فيه المسلمون والمشركون فلذلك سمي الحج الأكبر . ووافق عيد اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال : الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر ، ألم تر أن الإمام يخطب فيه . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المسور بن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر » . وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : الحج الأكبر يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عن أبي الصهباء البكري قال : سألت عليّ بن أبي طالب

عن يوم الحج الأكبر فقال : يوم عرفة . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن يوم عرفة يوم الحج الأكبر . وأخرج ابن جرير عن الزبير نحوه .

ولا يخفك أن الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هي ثابتة في الصحيحين وغيرهم من طرق ، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة . وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي أنه مثل : هذا الحج الأكبر ، فالحج الأصغر ؟ قال : عمرة في رمضان . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن إسحاق قال : سألت عبد الله بن شداد عن الحج الأكبر فقال : الحج الأكبر يوم النحر ، والحج الأصغر : العمرة . وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن مسعود قال : سئل مغيان بن عينة عن البشارة تكون في المكروه فقال : ألم تسمع قوله (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (١) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلٌّ مَّرْصِدٌ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٣)

الاستثناء بقوله (إلا الذين عاهدتم) . قال الزجاج : إنه يعود إلى قوله (براءة) والتقدير : براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين إلا الذين لم ينقضوا العهد منهم . وقال في الكشف : إنه مستثنى من قوله (فسيحوا) والتقدير : فقولوا لهم فسيحوا إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوا إليهم عهدهم . قال : والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين ، ولكن الذين لم ينكثوا فأتوا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجرام . وقد اعترض عليه بأنه قد تخلل الفاصل بين المستثنى والمستثنى منه ، وهو (وأذان من الله الخ) . وأجيب بأن ذلك لا يضر لأنه ليس بأجنبي ، وقيل إن الاستثناء من المشركين المذكورين قبله فيكون متصلاً وهو ضعيف . قوله (ثم لم ينقضوا شيئاً) أى لم يقع منهم أى نقص . وإن كان يسيراً ، وقرأ عكرمة وعطاء بن يسار « ينقضوكم » بالضاد المعجمة : أى لم ينقضوا عهدهم ، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده . ومنهم من ثبت عليه ، فأذن الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بنقض عهد من نقض ، وبإلفاء لمن لم ينقض إلى مدته (ولم يظاهروا عليكم أحداً) المظاهرة : المعاونة : أى لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم (فأتوا إليهم عهدهم) أى أدوا إليهم عهدهم تاماً غير ناقص (إلى مدتهم) التى عاهدتموهم إليها وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ، ولا تعاملوهم معاملة الناكثين من القتال بعد مضي المدة المذكورة سابقاً ، وهى أربعة أشهر أو خمسون يوماً على الخلاف السابق . قوله (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) انسلخ الشهر : تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضى كانسلخ الجلد عما يحويه ، شبه خروج المزمع من زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه ،

وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده . فاستعير لانقضاء الأشهر . يقال : سلخت الشهر تسليخه سليخا وسلوخا بمعنى خرجت منه . ومنه قول الشاعر :

إذا ما سلخت الشهر أهلت مثله كنى قاتلا سلعى الشهور وإهلالا

ويقال سلخت المرأة درعها : نزعته . وفي التنزيل - وآية لهم الليل نسلخ منه النهار -

وختلف العلماء في تعيين الأشهر الحرم المذكورة هاهنا . فقيل هي الأشهر الحرم المحروقة التي هي ذوالقعدة وذو الحجة . ومحرم . ورجب : ثلاثة سرد . وواحد فرد . ومعنى الآية على هذا وجوب الإمساك عن قتال من لاعهده من المشركين في هذه الأشهر الحرم . وقد وقع النداء والنبد إلى المشركين بعهدهم يوم النحر . فكان الباقى من الأشهر الحرم التي هي الثلاثة المسرودة خمسين يوما تنقضى بانقضاء شهر الحرم فأمرهم الله بقتل المشركين حيث يوجعون . وبه قال جماعة من أهل العلم منهم الضحاك والباقر . وروى عن ابن عباس واختاره ابن جرير . وقيل المراد بها شهور العهد المشار إليها بقوله (فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم) وسميت حرما لأن الله سبحانه حرّم على المسلمين فيها دماء المشركين والتعرض لهم . وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم منهم مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شعيب . وقيل هي الأشهر المذكورة في قوله (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) . وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة . ورجحه ابن كثير . وحكاه عن مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وسيأتى بيان حكم القتال في الأشهر الحرم الدائرة في كل سنة في هذه السورة إن شاء الله . ومعنى (حيث وجدتموهم) في أى مكان وجدتموهم من حل أو حرم . ومعنى (خذوهم) الأسر فإن الأنبياء هو الأسير . ومعنى الحصر منعهم من التصرف في بلاد المسلمين إلا بإذن منهم . والمرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدو . يقال رصدت فلانا أرصده : أى رقبته . أى اقلعوا لهم في المواضع التي ترتقبونهم فيها . قال عامر ابن الطفيل :

ولقد علمت وما إخالك عالما أن المنية للفنى بالمرصد

وقال النابغة : أعاذل إن الجهل من لذة الفنى وإن المنايا للنفوس بمرصد

وكل في (كل مرصد) منتصب على الظرفية وهو اختيار الزجاج . وقيل هو منتصب بنزع الخافض : أى في كل مرصد . وخطأ أبو علي الفارسي الزجاج في جعله ظرفا . وهذه الآية المتضمنة للأمر بقتل المشركين عند انسلاخ الأشهر الحرم عامة لكل مشرك لا يخرج عنها إلا من خصته الستة ، وهو المرأة والصبي والعاجز الذى لا يقاتل وكذلك يخصص بها أهل الكتاب الذين يعطون الجزية على فرض تناول لفظ المشركين لهم . وهذه الآية نسخت كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذاهم . وقال الضحاك وعطاء والسدي : هي منسوخة بقوله - فلما منا بعد وإما فداء - وأن الأسير لا يقتل صبورا بل يمن عليه أو يفادى . وقال مجاهد وقتادة : بل هي ناسخة لقوله - فلما منا بعد وإما فداء - وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل . وقال ابن زيد : الأبتان محكمتان . قال القرطبي : وهو الصحيح لأن المن والقتل والفداء لم تزل من حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم من أول حرب جاء بهم وهو يوم بدر . قوله (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى تابوا عن الشرك الذى هو سبب القتل وحققوا التوبة بفعل ما هو من أعظم أركان الإسلام . وهو إقامة الصلاة ، وهذا الركن اكتفى به عن ذكر ما يتعلق بالأبدان من العبادات لكونه رأسها . واكتفى بالركن الآخر المالى ، وهو إيتاء الزكاة عن كل ما يتعلق بالأموال من العبادات لأنه أعظمها (فخلوا سبيلهم) أى اتركوهم وشأنهم فلا تأسروهم ولا

نحصرهم ولا تقتلهم (إن الله غفور) لم (رحيم) بهم . قوله (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) ، يقال استجرت فلانا : أى طلبت أن يكون جارا : أى محاميا وحافظا من أن يظلمنى ظالم، أو يتعرض لى متعرض . وأحد مرتفع بفعل مقدّر يفسره المذكور بعده : أى وإن استجارك أحد استجارك ، وكرهوا الجمع بين المفسر والمفسر . والمعنى : وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتلهم فأجره : أى كن جارا له مؤمنا محاميا (حتى يسمع كلام الله) منك ويتدبره حتى تدبره ، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه (ثم أبلغه مأمنه) أى إلى الدار التى يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم ، ثم بعد أن تبلغه مأمنه قاتله فقد خرج من جوارك ورجع إلى ما كان عليه من إباحة دمه ، ووجوب قتله حيث يوجد ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من الأمر بالإجارة وما بعده (بأنهم قوم لا يعلمون) أى بسبب فقدانهم للعلم النافع المميز بين الخير والشر فى الحال والمآل .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (إلا الذين عاهدتم) قال : هم قريش . وأخرج أيضا عن قتادة قال : هم مشركو قريش الذين عاهدتم نبي الله زمن الحديبية ، وكان بقى من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر . فأمر نبيه أن يوفى بعهدهم هذا إلى مدتهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن عباد ابن جعفر فى قوله (إلا الذين عاهدتم) قال : هم بنو جذيمة بن عامر من بنى بكر بن كنانة . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم) قال : كان بقى لبنى مذحج وخزاعة عهد ، فهو الذى قال الله (فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم) . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله (إلا الذين عاهدتم من المشركين) قال : هؤلاء بنو ضمرة وبنو مدلج من بنى كنانة كانوا حلفاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فى غزوة العسيرة من بطن ينبع (ثم لم ينقصوكم شيئا) ثم لم ينقصوا عهدكم بغدر (ولم يظاهروا عليكم أحدا) قال : لم يظاهروا عدوكم عليكم (فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم) يقول : أجلهم الذى شرطتم لهم (إن الله يحب المتقين) يقول : الذين يتقون الله فيما حرم عليهم فيوفون بالعهد . قال : فلم يعاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد هؤلاء الآيات أحدا . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى فى قوله (فلذا أنسلخ الأشهر الحرم) قال : هى الأربعة عشرون من ذى الحجة والحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الأول ، وعشر من ربيع الآخر . قلت : مراد السدى أن هذه الأشهر تسمى حرما لكون تأمين المعاهدين فيها يستلزم تحريم القتال ، لأنها الأشهر الحرم المعروفة . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك فى الآية قال : هى عشر من ذى القعدة وذو الحجة والحرم ، سبعون ليلة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هى الأربعة الأشهر التى قال (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) . وأخرج ابن المنذر عن قتادة نحو قول السدى السابق . وأخرج أبو داود فى ناسخه عن ابن عباس فى قوله (فلذا أنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ثم نسخ واستثنى . فقال (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ، وقال (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) يقول : من جاءك واستمع ما تقول . واستمع ما أنزل إليك ، فهو آمن حين يأتيك فيسمع كلام الله حتى يبلغ مأمنه من حيث جاء . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد فى قوله (ثم أبلغه مأمنه) قال : إن لم يوافق ما يقص عليه ويخبر به فأبلغه مأمنه ، وهذا ليس بمنسوخ . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة فى قوله (حتى يسمع كلام الله) أى كتاب الله . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبي عروبة قال : كان الرجل يحس إذا سمع كتاب الله وأقر به وأسلم فذاك الذى دعى إليه ، وإن أنكر ولم يقر به رد مأمنه ، ثم نسخ ذلك . فقال - وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة - .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ
يُظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَاسِقُونَ (٨) أَشْتَرُوا بِآيَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصَلُ الْآيَةِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١).

قوله (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) الاستفهام هنا للتعجب المتضمن للإنكار ، وعهد
اسم يكون . وفي خبره ثلاثة أوجه : الأول أنه كيف ، وقدم للاستفهام ، والثاني للمشركين ، وعند على هذين
طرف للعهد ، أو ليكون ، أو صفة للعهد ، والثالث أن الخبر عند الله . وفي الآية إضمار . والمعنى : كيف يكون
للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه ، وقيل معنى الآية : محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم
مضمرين للغير فلا يطعموا في ذلك ولا يحدثوا به أنفسهم ، ثم استدرك ، فقال (إلا الذين عاهدتم عند المسجد
الحرام) أى لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ولم ينقضوا ولم ينكثوا فلا تقاتلوهم ، فاداموا مستقيمين لكم
على العهد الذى بينكم وبينهم (فاستقيموا لهم) قيل هم بنو بكر ، وقيل بنو كنانة وبنو ضمرة . وفى « ما » وجهان :
أحدهما أنها مصدرية زمانية . والثانى أنها شرطية ، وفى قوله (إن الله يحب المتقين) إشارة إلى أن الوفاء بالعهد
والإستقامة عليه من أعمال المتقين . فيكون تعليلا للأمر بالاستقامة . قوله (كيف وإن يظهروا عليكم) أعاد
الاستفهام التعجيبى للتأكيد والتقرير . والتقدير : كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ؟ والحال أنهم إن
يظهروا عليكم بالغلبة لكم (لا يرقبوا) أى لا يراعوا فيكم (إلا) : أى عهدا (ولا ذمة) . قال فى الصحاح : الإل
العهد والقرابة . ومنه قول حسان :

لمعرك أن إلك من قريش كإل السقب من رثل النعام

قال الزجاج : الإل عندى على ما توجه اللغة يدور على معنى الحدة . ومنه الإلة للحربة ، ومنه أذن مؤلة :
أى محددة . ومنه قوله طرفه بن العبد يصف أذنى ناقته بالحدة والانتصاب :

مؤللان يعرف العنق منهما كسامعى شاة بحومل مفرد

قال أبو عبيدة : الإل العهد ، والذمة والنديم . وقال الأزهري : هو اسم لله بالعبرانية . وأصله من الأليل .
وهو البريق ، يقال أل لونه يوتل إلا : أى صفا ولمع ، والذمة العهد . وجمعها ذمم . فمن قسر الإل بالعهد كان
التكرير للتأكيد مع اختلاف اللفظين . وقال أبو عبيدة : الذمة التذم . وقال أبو عبيد : الذمة الأمان كما فى قوله
صلى الله عليه وآله وسلم « ويسعى بذمتهم أدناهم » وروى عن أبي عبيدة أيضا أن الذمة ما يتذم به : أى ما يحتجب فيه
الذم . قوله (يرضونكم بأفواههم) أى يقولون بألسنتهم ما فيه جمالة ومحاسنة لكم طلبا لرضائهم وتطليب قلوبكم .

وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم . كما يفعله أهل النفاق وذوو الوجهين : ثم حكم عليهم بالفسق ، وهو التمرد والتجري ، والخروج عن الحق لنقضهم العهد . وعدم مراعاتهم للعقود . ثم وصفهم بقوله (اشترُوا بآيات الله ثمنا قليلا) أى استبدلوا بآيات القرآن التى من جملتها ما فيه الأمر بالوفاء بالعهود ثمنا قليلا حقيقيا . وهو ما آثروه من حطام الدنيا (فصدوا عن سبيله) أى فعدلوا وأعرضوا عن سبيل الحق : أو صرفوا غيرهم عنه قوله (لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) قال النحاس : ليس هذا تكريرا . ولكن الأول لجميع المشركين . والثانى لليهود خاصة . والدليل على هذا (اشترُوا بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى اليهود . وقيل هذا فيه مراعاة لحقوق المؤمنين على الإطلاق ، وفى الأول المراعاة لحقوق طائفة من المؤمنين خاصة (وأولئك هم المعتدون) أى المجاوزون للحلال إلى الحرام بنقض العهد . أو البالغون فى الشر والتمرد إلى الغاية القصوى (فإن تابوا) عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام (فلاخوانكم) أى فهم إخوانكم (فى الدين) أى فى دين الإسلام (ونفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها (لقوم يعلمون) بما فيها من الأحكام ويفهمونه . وخص أهل العلم لأنهم المتفهمون بها . والمراد بالآيات ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين على اختلاف أنواعهم .

وقد أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال : قريب وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل قال : كان النبی صلى الله عليه وآله وسلم عاهد أناسا من بنى ضمرة بنى بكر وكنانة خاصة . عاهدهم عند المسجد الحرام وجعل مدنتهم أربعة أشهر . وهم الذين ذكر الله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) يقول : ما وفوا لكم بالعهد ففوا لهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : هم بنو جذيمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) قال : هو يوم الحديبية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (إلا ولا ذمة) قال : الإل القرابة والذمة العهد . وأخرج الفريانى وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الإل الله عز وجل . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (اشترُوا بآيات الله ثمنا قليلا) قال : أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فإن تابوا) الآية يقول : إن تركوا اللات والعزى وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فلاخوانكم فى الدين . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : حرمت هذه الآية قتال أو دماء أهل الصلاة .

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَتَلُوهُمْ يَعَذَّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤)

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) .

قوله (وإن تكثروا) معطوف على : فإن تابوا . والنكت : النقض . وأصله نقض الخيط بعد إبرامه . ثم استعمل في كل نقض . ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة . ومعنى (من بعد عهدهم) أى من بعد أن عاهدوكم . والمعنى : أن الكفار إن تكثروا العهود التي عاهدوا بها المسلمين . ووثقوا لهم بها وضموا إلى ذلك الطعن في دين الإسلام . والقدح فيه فقد وجب على المسلمين قتالهم . وأثمة الكفر . جمع إمام . والمراد صناديد المشركين . وأهل الرئاسة فيهم على العموم . وقرأ حمزة أئمة . وأكثر النحويين يذهب إلى أن هذا لحن . لأن فيه الجمع بين هزتين في كلمة واحدة . وقرأ الجمهور يجعل الحمزة الثانية بين بين : أى بين مخرج الحمزة والياء . وقرأء بإخلاص الياء وهو لحن . كما قال الزمخشري . قوله (إنهم لا أيمان لهم) هذه الجملة تعليل لما قبلها . والأيمان : جمع يمين في قراءة الجمهور . وقرأ ابن عامر « لا إيمان لهم » بكسر الحمزة . والمعنى على قراءة الجمهور : أن أيمان الكافرين وإن كانت في الصورة يميناً فهي في الحقيقة ليست يمين . وعلى القراءة الثانية : أن هؤلاء الناكثين للأيمان الطاعنين في الدين ليسوا من أهل الإيمان بالله حتى يستحقوا العصمة لدعائهم وأموالهم . فقتالهم واجب على المسلمين . قوله (لعلمهم ينتهون) أى عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الإسلام . والمعنى : أن قتالهم يكون إلى الغاية هي الانتهاء عن ذلك .

وقد استدلت بهذه الآية على أن الذي إذا ضعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة . لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما نقض العهد . والثاني الطعن في الدين . وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنه إذا طعن في الدين قتل لأنه ينتقض عهده بذلك . قالوا : وكذلك إذا حصل من الذي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين فإنه يقتل . قوله (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) الحمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام التوبيخي مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحقيقه . والمعنى : أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبداءة بالقتال . فهو حقيق بأن لا يترك قتاله . وأن يوبخ من فرط في ذلك ثم زاد في التوبيخ فقال (أتخشونهم) فإن هذا الاستفهام للتوبيخ والتفريع : أى تخشون أن ينالكُم منهم مكروه فتتركون قتالهم لهذه الخشية . ثم بين ما يجب أن يكون الأمر عليه . فقال (فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) أى هو أحق بالخشية منكم . فإنه الضار النافع بالحقيقة . ومن خشيتكم له أن تقاتلوا من أمركم بقتاله . فإن قضية الإيمان توجب ذلك عليكم . ثم زاد في تأكيد الأمر بالقتال فقال (قاتلوهم) ورتب على هذا الأمر فوائد : الأولى تطهير الله للكفار بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر . والثانية إخزائهم . قيل بالأسر . وقيل بما نزل بهم من الذل والهوان . والثالثة نصر المسلمين عليهم وغلبتهم لهم . والرابعة أن الله يشق بالقتال صدور قوم مؤمنين ممن لم يشهد القتال ولا حضره . والخامسة أنه سبحانه يذهب بالقتال غيظ قلوب المؤمنين الذي نالهم بسبب ما وقع من الكفار من الأمور الجالبة للغيظ وجرح الصدر . فإن قيل شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب كلاهما بمعنى فيكون

تكرارا . قيل في الجواب : إن القلب أخص من الصدر . وقيل إن شفاء الصدر إشارة إلى الوعد بالفتح ، ولأرباب أن الانتظار لنجاز الوعد مع الثقة به فيهما شفاء للصدر . وأن إذهاب غيظ القلوب إشارة إلى وقوع الفتح ، وقد وقعت للمؤمنين والله الحمد هذه الأمور كلها ، ثم قال (ويتوب الله على من يشاء) وهو ابتداء كلام يتضمن الإخبار بما سيكون ، وهو أن بعض الكافرين يتوب عن كفره كما وقع من بعض أهل مكة يوم الفتح ، فلأنهم أسلموا وحسن إسلامهم ، وهذا على قراءة الرفع في يتوب ، وهي قراءة الجمهور . وقرئ بنصب يتوب بإضمار أن ، ودخول التوبة في جملة ما أجيب به الأمر من طريق المعنى . قرأ بذلك ابن أبي إسحاق وعيسى الثقفي والأعرج : فإن قيل : كيف تقع التوبة جزاء للمقاتلة ؟ وأجيب بأن القتال قد يكون سببا لها إذا كانت من جهة الكفار ، وأما إذا كانت من جهة المسلمين فوجهه أن النصر والظفر من جهة الله يكون سببا لخلوص النية والتوبة عن الذنوب . قوله (أم حسبتم أن تركوا) أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل . والهمزة والاستفهام للتوبيخ . وحرف الإضراب للدلالة على الانتحال من كلام إلى آخر . والمعنى : كيف يقع الحسبان منكم بأن تركوا على ما أنتم عليه . وقوله « أن تركوا » في موضع مفعول الحسبان عند سيويه . وقال المبرد : إنه حذف الثاني . والتقدير : أم حسبتم أن تركوا من غير أن تبطلوا بما يظهر به المؤمن والمنافق الظهور الذي يستحق به الثواب والعقاب . وجملة (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) في محل نصب على الحال . والمراد من نبي العلم نبي المعلوم . والمعنى كيف نحسبون أنكم تركون ولما يتبين المخلص منكم في جهاده من غير المخلص . وجملة (ولم يتخذوا) معطوفة على جاهدوا داخلة معه في حكم النفي واقعة في حيز الصلة . والوليعة من الولوج : وهو الدخول ، ولج يلج ولويجا : إذا دخل . فالوليعة : الدخيلة . قال أبو عبيدة : كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليعة . قال أبا ن بن ثعلب .

فبئس الوليعة للهاربي من المعتدين وأهل الريب

وقال الفراء : الوليعة البطانة من المشركين . والمعنى واحد : أي كيف تتخذون دخيلة أوبطانة من المشركين تفشون إليهم بأسراركم وتعلمونهم أموركم من دون الله (والله خير بما تعملون) أي بجميع أعمالكم . وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله (وإن نكثوا أيمانهم) قال : عهدهم . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يقول الله لنبيه وإن نكثوا العهد الذي بينك وبينهم فقاتلهم إنهم أئمة الكفر . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله أئمة الكفر قال : أبو سفيان بن حرب وأميرة بن خلف وعتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وسهيل بن عمرو . وهم الذين نكثوا عهد الله وهما بإخراج الرسول من مكة . وأخرج ابن عساكر عن مالك بن أنس مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (فقاتلوا أئمة الكفر) قال : رموس قريش . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : أبو سفيان بن حرب منهم . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنهم الديلم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة أنهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ما قوتل أهل هذه الآية بعد . وأخرج ابن مردويه عن علي بن نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن مردويه عن حذيفة قال : ما بقي من أهل هذه الآية إلا ثلاثة . ولا من المنافقين إلا أربعة ، فقال أعرابي : إنكم أصحاب محمد تخبروننا لاندري فما بال هؤلاء الذين ينقرون بيوتنا ويسترقون أعلاقنا ، قال : أولئك القساق . أجل لم يبق منهم إلا أربعة ، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده . والأولى أن الآية عامة في كل رؤساء الكفار من غير تقييد بزمن معين أو بطائفة معينة اعتبارا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ومما يفيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن

نفير أنه كان في عهد أبي بكر الصديق إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال : إنكم ستجدون قوماً مجوفة رءوسهم ، فاضربوا مقاعد الشيطان منهم بالسيوف . فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأن الله يقول (فقاتلوا أئمة الكفر) . وأخرج أبو الشيخ عن حذيفة لا إيمان لهم قال : لا عهد لهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمار مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم) قال : قتال قريش حلفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومهمهم بإخراج الرسول . زعموا أن ذلك عام عمرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في العام التابع للحديبية . نكثت قريش العهد عهد الحديبية . وجعلوا في أنفسهم إذا دخلوا مكة أن يخرجوا منها ، فذلك مهمهم بإخراجهم . فلم تتابعهم خزاعة على ذلك . فلما خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة قالت قريش لخزاعة : عيتمونا عن إخراجهم . فقاتلوهم فقتلوا منهم رجلاً . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : نزلت في خزاعة (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم) الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه أيضاً . وقد ساق القصة ابن إسحاق في سيرته . وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأوله :

يارب إني ناشد محمداً حلف أيينا وأبيه الأثلدا

وأخرج القصة البيهقي في الدلائل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الوليعة : البطانة من غير دينهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : وليعة أي خيانة .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يُعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ
آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ
هُمْ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) .

قرأ الجمهور (يعمرها) بفتح حرف المضارعة وضم الميم من عمر يعمر . وقرأ ابن السمين بضم حرف المضارعة من عمر يعمر : أي يعملون لها من عمرها . وقرأ ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وسهم ويعقوب « مسجد الله » بالإنفراد . وقرأ الباقر « مساجد » بالجمع . واختارها

أبو عبيدة . قال النحاس : لأنها أعم . والخاص يدخل تحت العام . وقد يَحْتَمِلُ أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة ، وهذا جائز فيما كان من أساء الأجناس كما يقال فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا قال : وقد أجمعوا على الجمع في قوله (إنما يعمر مساجد الله) وروى عن الحسن البصري أنه تعالى إنما قال « مساجد » والمراد المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها ، فعمره كعمر جميع المساجد . قال الفراء : العرب قد تضع الواحد مكان الجمع كقولهم : فلان كثير الدرهم وبالعكس كقولهم فلان يجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا ملكا واحدا والمراد بالعمارة إما المعنى الحقيقي أو المعنى المجازي ، وهو ملازمته والتعبد فيه ، وكلاهما ليس للمشركين . أما الأول فلأنه يستلزم المنة على المسلمين بعمارة مساجدهم ، وأما الثاني فلكون الكفار لا عبادة لهم مع نهيهم عن قربان المسجد الحرام ، ومعنى (ما كان للمشركين) ما صح لهم وما استقام أن يفعلوا ذلك . و (شاهدین على أنفسهم بالكفر) حال : أى ما كان لهم ذلك حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر بإظهار ما هو كفر من نصب الأوثان والعبادة لها وجعلها آلهة ، فإن هذا شهادة منهم على أنفسهم بالكفر وإن أبوا ذلك بأنفسهم . فكيف يجمعون بين أمرين متنافيين : عمارة المساجد التي هي من شأن المؤمنين ، والشهادة على أنفسهم بالكفر التي ليست من شأن من يتقرب إلى الله بعمارة مساجده . وقيل المراد بهذه الشهادة قولهم في طوائفهم : ليك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . وقيل شهادتهم على أنفسهم بالكفر : إن اليهودى يقول هو يهودى والنصراني يقول هو نصراني والصابي يقول هو صابي . والمشرک يقول هو مشرك (أولئك حبطت أعمالهم) التي يفتخرون بها ويظنون أنها من أعمال الخير : أى بطلت ولم يبق لها أثر (وفي النار هم خالدون) وفي هذه الجملة الاسمية مع تقديم الظرف المتعلق بالخبر تأكيد لمضمونها ثم بين سبحانه من هو حقيق بعمارة المساجد فقال (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وفعل ما هو من لوازم الإيمان من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (ولم يخش) أحدا (إلا الله) فمن كان جامعا بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد . لا من كان خاليا منها أو من بعضها ، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عده مما افترضه الله على عباده . لأن كل ذلك من لوازم الإيمان ، وقد تقدم الكلام في وجه جمع المساجد وفي بيان ماهية العمارة ، ومن جوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما ، وفي قوله (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) حسم لأطماع الكفار في الانتفاع بأعمالهم ، فإن الموصوفين بتلك الصفات إذا كان اعتدائهم مرجوا فقط . فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشيء من تلك الصفات ، وقيل عسى من الله واجبة : وقيل هي بمعنى خليف : أى فخلق أن يكونوا من المهتدين : وقيل إن الرجاء راجع إلى العباد ، والاستفهام في (أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) للإنكار ، والسقاية والعمارة مصدران كالسعاية والحماية ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : أجمعتم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد ، أو أهلها (كمن آمن) حتى يتفق الموضوع والمحمول أو يكون التقدير في الخبر : أى جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كعمل من آمن أو كإيمان من آمن . وقرأ ابن أبي وجرة السعدى وابن الزبير وسعيد بن جبيرة أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، جمع ساق وعامر ، وعلى هذه القراءة لا يحتاج إلى تقدير محذوف . والمعنى : أن الله أنكر عليهم التسوية بين ما كان عمله الجاهلية من الأعمال التي صورتها صورة الخير . وإن لم ينتفعوا بها وبين إيمان المؤمنين وجهادهم في سبيل الله . وقد كان المشركون يفتخرون بالسقاية والعمارة ويفضلونها على عمل المسلمين . فأنكر الله عليهم ذلك . ثم صرح سبحانه بالمفاضلة بين الفريقين وتفاوتهم وعدم استوائهم فقال (لا يستوون عند الله) أى لا تساوى تلك الطائفة الكافرة الساقية للحجيج العامرة للمسجد الحرام هذه الطائفة المؤمنة بالله واليوم الآخر المجاهدة في سبيله ، ودل سبحانه بنى الاستواء على تنى التفضيلة التي بدعها المشركون : أى

إذا لم تبلغ أعمال الكفار إلى أن تكون مساوية لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون، ثم حكم عليهم بالظلم وأنهم مع ظلمهم بما هم فيه من الشرك لا يستحقون الهداية من الله سبحانه، وفي هذا إشارة إلى الفريق المفضل، ثم صرح بالفريق الفاضل فقال (الذين آمنوا) إلى آخره: أي الجامعون بين الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس (أعظم درجة عند الله) وأحق بما لديه من الخير من تلك الطائفة المشركة المفتخرة بأعمالها المحيطة بالباطلة، وفي قوله (عند الله) تشریف عظيم للمؤمنين، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المتصفين بالصفات المذكورة (هم الفائزون) أي المختصون بالفوز عند الله، ثم فسر الفوز بقوله (يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم) والتكثير في الرحمة والرضوان والجنات للتعظيم، والمعنى أنها فوق وصف الواصفين وتصور المتصورين. والنعيم المقيم: الدائم المستمر الذي لا يفارق صاحبه، وذكر الأبد بعد الحوادث تأكيد له، وجملة (إن الله عنده أجر عظيم) مؤكدة لما قبلها مع تضمنها للتعليل: أي أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذي عنده عظيم يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله) وقال (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فبنى المشركين من المسجد (من آمن بالله) يقول: من وحد الله وآمن بما أنزل الله (وأقام الصلاة) يعني الصلوات الخمس (ولم يخش إلا الله) يقول: لم يعبد إلا الله (فعسى أولئك) يقول: أولئك هم المهتدون كقوله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم - عسى أن يعثرك ربك مقاماً محموداً - يقول إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً، وهي الشفاعة، وكل عسى في القرآن فهي واجبة. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن المنذر والبيهقي في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر). وقد وردت أحاديث كثيرة في استحباب ملازمة المساجد وعمارتها والتردد إليها للطاعات. وأخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، وقال آخر: بلى عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل جهاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله (لا يهدي القوم الظالمين). وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية، وذلك أن المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، فكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعمارته، فذكر الله سبحانه استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين - قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون - مستكبرين به سامراً تهجرون - يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم، وقال به سامراً كانوا به يسمرون ويهجون بالقرآن والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فخير الإيمان بالله والجهاد مع نبي الله على عمران المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به وإن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه قال الله (لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين) يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فساهم ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً، وفي إسناده العوفي وهو ضعيف. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن

أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني ، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية : يعني أن ذلك كان في الشرك فلا أقبل ما كان في الشرك . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا في الآية قال : نزلت في علي بن أبي طالب والعباس . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي قال : تفاخر علي والعباس وشيبة في السقاية والحجاجة فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية ، وقد روى معنى هذا من طرق .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) .

الخطاب للمؤمنين كافة ، وهو حكم باق إلى يوم القيامة يدل على قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقالت طائفة من أهل العلم : إنها نزلت في الحضر على الهجرة ورفض بلاد الكفر ، فيكون الخطاب لمن كان من المؤمنين بمكة وغيرها من بلاد العرب ، نهوا بأن يوالوا الآباء والإخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى البلاد الكفر إن استحبوا : أي أحبوا ، كما يقال استجاب بمعنى أجاب ، وهو في الأصل طلب المحبة ، وقد تقدم تحقيق المقام في سورة المائدة في قوله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء - ثم حكم على من يتولى من استحب الكفر على الإيمان من الآباء والإخوان بالظلم ، فدل ذلك على أن تولى من كان كذلك من أعظم الذنوب وأشدّها ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول لهم (إن كان آبائكم) إلى آخره ، والعشيرة : الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد ، وعشيرة الرجل قرابته الأدنون ، وهم الذين يعاشرونه وهي اسم جمع . وقرأ أبو بكر وهما (عشيرتكم) بالجمع . قال الأخفش : لا تكاد العرب تجمع عشيرة على عشيرات ، وإنما يجمعونها على عشائر . وقرأ الحسن (عشائركم) . وقرأ الباقر (عشيرتكم) والاقتراف : الاكتساب ، وأصله اقتطاع الشيء من مكانه ، والتركيب يدور على الدنو : والكاسب يدنو الشيء من نفسه ويدخله تحت ملكه ، والتجارة الأمتعة التي يشترونها ليربّحوا فيها ، والكساد عدم التفاق لقوات وقت بيعها بالهجرة ومفارقة الأوطان . ومن غرائب التفسير ما روى عن ابن المبارك أنه قال : إن المراد بالتجارة في هذه الآية البنات والأخوات إذا كسدن في البيت لا يجدن لمن مخاطبا ، واستشهد لذلك بقول الشاعر :

كسدن من الفقر في قومهن وقد زادهن مقامى كسادا

وهذا البيت وإن كان فيه إطلاق الكساد على عدم وجود المخاطب لمن غلبت فيه جواز إطلاق اسم التجارة طين ، والمراد بالمساكن التي يرضونها : المنازل التي تعجبهم وتميل إليها أنفسهم ويرون الإقامة فيها أحب إليهم من

المهاجرة إلى الله ورسوله . وأحب خبر كان : أى كانت هذه الأشياء المذكورة في الآية أحب إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد في سبيل الله (فتربصوا) أى انتظروا (حتى يأتي الله بأمره) فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم ؛ وقيل المراد بأمر الله سبحانه : القتال ؛ وقيل فتح مكة وفيه بعد ، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح . وفي هذا وعيد شديد ويؤكد إيهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتردد بين أنواع العقوبات (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته . النافرين عن امتثال أوامره ونواهي .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : أمروا بالهجرة فقال العباس ابن عبد المطلب : أنا أسنى الحاج . وقال طلحة أخو بنى عبد الدار : أنا أحب الكعبة فلا نهجر . فأنزلت (لا تتخلوا آباءكم وإخوانكم) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في هذه الآية قال : هى الهجرة . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (اقترفتوها) قال : أصبتموها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (حتى يأتي الله بأمره) قال : بالفتح في أمره بالهجرة ، هذا كله قبل فتح مكة . وأخرج البيهقي من حديث عبد الله بن شاذب قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الألهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله - لا تعبدوا ما لا تعبدون بالله واليوم الآخر - الآية . وهى تؤكد معنى هذه الآية ، وقد تقدم بيان حكم الهجرة في سورة النساء .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذِيرِينَ (٢٠) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢١) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

المواطن جمع موطن ، ومواطن الحرب : مقاماتها . والمواطن التى نصر الله المسلمين فيها هى يوم بدر وما بعد من المواطن التى نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين ، (ويوم حنين) معطوف على مواطن بتقدير مضاف : إما في الأول وتقديره في أيام مواطن ، أو في الثانى وتقديره وموطن يوم حنين ، لئلا يعطف الزمان على المكان . ورد بأنه لاستبعاد في عطف الزمان على المكان فلا يحتاج إلى تقدير ، وقيل إن يوم حنين منصوب بفعل مقدّر معطوف على (نصركم) أى ونصركم يوم حنين ، ورجع هذا صاحب الكشاف ، قال : وموجب ذلك أن قوله (إذ أعجبكم) يدل من يوم حنين ، فلو جعلت ناصبة هذا الظاهر لم يصح ، لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن . ولم يكونوا كثيرا في جميعها . ورد بأن العطف لا يجب فيه تشارك المتعاطفين في جميع ما ثبت للمعطوف ، كما تقول : جاعنى زيد وعمرو مع قومه ، أو في ثيابه أو على فرسه ، وقيل إن (إذ أعجبكم كثرتكم) ليس يدل من يوم حنين . بل منصوب بفعل مقدّر : أى اذكروا إذ أعجبكم كثرتكم ، وحنين : واد بين مكة والطائف . وانصرف على أنه اسم للمكان ، ومن العرب من يمتعه على أنه اسم للبقعة ، ومنه قول الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

ولما أعجب من أعجب من المسلمين بكثرتهم لأنهم كانوا اثني عشر ألفا ، وقيل أحد عشر ألفا . وقيل ستة عشر ألفا ، فقال بعضهم : لن تغلب اليوم من قلة ، فوكلوا إلى هذه الكلمة فلم تغن الكثرة شيئا عنهم ، بل انهزموا وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثبت معه طائفة يسيرة منهم عمه العباس وأبو سفيان بن الحارث . ثم تراجع المسلمون فكان النصر والظفر . والإغناء : إعطاء ما يدفع الحاجة : أى لم تعطكم الكثرة شيئا يدفع حاجتكم ولم تفدكم . قوله (بما رحبت) الرحب بضم الراء : السعة ، والرحب بفتح الراء : المكان الواسع ، والباء بمعنى مع ، وما مصدرية ، وعمل الجار والمجرور النصب على الحال . والمعنى : أن الأرض مع كونها واسعة الأطراف ضاقت عليهم بسبب ما حل بهم من الخوف والوجل ، وقيل إن الباء بمعنى على : أى على رحبها (ثم وليتم مدبرين) أى انهزمتم حال كونكم مدبرين : أى مولين أدباركم جاعلين لها إلى جهة عدوكم . قوله (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجترار على قتال المشركين بعد أن ولوا مدبرين . والمراد بالمؤمنين : هم الذين لم ينهزموا ، وقيل الذين انهزموا . والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا . قوله (وأنزل جنودا لم تروها) هم الملائكة .

وقد اختلف في عددهم على أقوال : قيل خمسة آلاف ، وقيل ثمانية آلاف ، وقيل ستة عشر ألفا ، وقيل غير ذلك ، وهذا لا يعرف إلا من طريق النبوة . واختلفوا أيضا هل قاتلت الملائكة في هذا اليوم أم لا ؟ وقد تقدم أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر ، وأنهم إنما حضروا في غير يوم بدر لتقوية قلوب المؤمنين . وإدخال الرعب في قلوب المشركين (وعذب الذين كفروا) بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية ، والإشارة بقوله (وذلك) إلى التعذيب المفهوم من عذب ، وسمى ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بد من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم وتعظيما له (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) أى من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام (والله غفور) يغفر لمن أذنب فتاب (رحيم) بعباده ينفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : حنين ما بين مكة والطائف . قاتل نبي الله هوازن وثقيف ، وعلى هوازن مالك بن عوف ، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفي . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا : الآن نقاتل حين اجتمعنا . فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم ، فالتفتوا فهزموا حتى ما يقوم أحد منهم على أحد حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينادى أحياء العرب : إلى إلى ، فوالله ما يرجع عليه أحد حتى أعزى موضعه . فالتفت إلى الأنصار وهم ناحية فناداهم : يا أنصار الله وأنصار رسوله : إلى عباد الله أنا رسول الله . فجهشوا يبكون وقالوا : يا رسول الله ورب الكعبة إليك والله ، فنكسوا رؤوسهم يبكون وقد موا أسياهم يضربون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى فتح الله عليهم . وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع أن رجلا قال يوم حنين : لن تغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فأنزل الله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) قال الربيع : وكانوا اثني عشر ألفا . منهم ألفان من أهل مكة . وأخرج الطبراني والحاكم ومصححه وأبونعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين . فولى عنه الناس وبقيت

معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار . فكنا على أقدامنا نحوا من ثمانين قدما ولم نولهم الدبر . وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بغلته البيضاء يمضي قدما ، فقال : ناولني كفا من تراب . فناولته فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم ترابا ، وولى المشركون أدبارهم . ووقعة حنين مذكورة في كتب السير والحديث بطولها وتفصيلها فلا نطول بذلك . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (وأنزل جنودا لم تروها) قال : هم الملائكة (وعذب الذين كفروا) قال : قتلهم بالسيف . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير قال : في يوم حنين أمد الله رسوله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ويومئذ سمي الله الأنصار مؤمنين قال : فأنزل سكينة على رسوله وعلى المؤمنين . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم قال : رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتلون مثل النجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم . فنظرت فإذا نمل أسود ميثوث قد ملأ الوادي . لم أشك أنها الملائكة . ولم تكن إلا هزيمة القوم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)
قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

النجس مصدر لا يثنى ولا يجمع . يقال رجل نجس . وامرأة نجس . ورجلان نجس . وامرأتان نجس . ورجال نجس . ونساء نجس . ويقال نجس بنجس بكسر الجيم وضمها . ويقال نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف من المحرك . قيل لا تستعمل إلا إذا قيل معه رجس . وقيل ذلك أكثرى لا كلى . والمشركون مبتدأ ، وخبره المصادر مبالغة في وصفهم بذلك حتى كأنهم عين النجاسة . أو على تقدير مضاف : أى ذوو نجس . لأن معهم الشرك وهو بمنزلة النجس . وقال قتادة ومعمر وغيرهما : إنهم وصفوا بذلك لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يتجنبون النجاسات .

وقد استدل بالآية من قال بأن المشرك نجس الذات كما ذهب إليه بعض الظاهرية والزيدية . وروى عن الحسن البصري وهو محكى عن ابن عباس . وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات . لأن الله سبحانه أحل طعامهم . وثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك من فعله وقوله ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم . فأكل في آنيهم وشرب منها وتوضأ فيها وأنزلهم في مسجده . قوله (فلا يقربوا المسجد الحرام) الفاء للتفريع . فعدم قربانهم للمسجد الحرام متفرع على نجاستهم . والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم . روى ذلك عن عطاء : فيمنعون عنده من جميع الحرم ، وذهب غيره من أهل العلم إلى أن المراد بالمسجد الحرام نفسه فلا يمنع المشرك من دخول سائر الحرم .

وقد اختلف أهل العلم في دخول المشرك غير المسجد الحرام من المساجد : فذهب أهل المدينة إلى منع كل مشرك عن كل مسجد . وقال الشافعي : الآية عامة في سائر المشركين خاصة في المسجد الحرام . فلا يمنعون من دخول غيره من المساجد . قال ابن العربي : وهذا جهود منه على الظاهر ، لأن قوله تعالى (إنما المشركون نجس)

نفيه على العلة بالشرك والنجاسة ، ويحجب عنه بأن هذا القياس مردود بربطه صلى الله عليه وآله وسلم لقائمة بين أمثال في مسجده ، وإنزال وفد ثقيف فيه . وروى عن أبي حنيفة مثل قول الشافعي ، وزاد أنه يجوز دخول الذي سائر المساجد من غير حاجة ، وقيد الشافعي بالحاجة . وقال قتادة : إنه يجوز ذلك للذي دون المشرك . وروى عن أبي حنيفة أيضا أنه يجوز لهم دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد . ونهى المشركين عن أن يقربوا المسجد الحرام هو نهى للمسلمين عن أن يمكنهم من ذلك ، فهو من باب قولهم : لا أرينك ها هنا . قوله (بعد عامهم هذا) فيه قولان : أحدهما أنه سنة تسع ، وهي التي حج فيها أبو بكر على الموسم . الثاني أنه سنة عشر قاله قتادة . قال ابن العربي : وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ ، ومن العجب أن يقال إنه سنة تسع ، وهو العام الذي وقع فيه الأذان ، ولو دخل غلام رجل داره يوما فقال له مولا : لا تدخل هذه الدار بعد يومك لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه انتهى . ويحجب عنه بأن الذي يعطيه مقتضى اللفظ هو خلاف ما زعمه ، فإن الإشارة بقوله (بعد علمهم هذا) إلى العام المذكور قبل اسم الإشارة وهو عام النداء . وهكذا في المثال الذي ذكره المراد النهي عن دخولها بعد يوم الدخول الذي وقع فيه الخطاب ، والأمر ظاهر لا يخفى . ولعله أراد تفسير ما بعد المضاف إلى عامهم ولا شك أنه عام عشر ، وأما تفسير العام المشار إليه بهذا ، فلا شك ولا ريب أنه عام تسع . وعلى هذا يحمل قول قتادة . وقد استدلل من قال بأنه يجوز للمشركين دخول المسجد الحرام وغيره من المساجد بهذا القيد . أغنى قوله (بعد عامهم هذا) قائلا إن النهي مختص بوقت الحج والعمرة ، فهم ممنوعون عن الحج والعمرة فقط لا عن مطلق الدخول . ويحجب عنه بأن ظاهر النهي عن القربان بعد هذا العام يفيد المنع من القربان في كل وقت من الأوقات الكائنة بعده . وتخصيص بعضها بالجواز يحتاج إلى مخصص . قوله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) العيلة الفقر ، يقال عال الرجل يعيل : إذا افتقر ، قال الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغني متى يعيل

وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عيلة » وهو مصدر كالقائلة والعاقبة ، وقيل معناه : خصلة شاقة ، يقال عالى الأمر يعولني : أى شق على واشتد . وحكى ابن جرير الطبري أنه يقال عال يعول : إذا افتقر . وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم وهم كانوا يجلبون إليه الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نعيش ؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) الآية . وقال عكرمة : أغناهم بإدراار المطر والنبات وخصب الأرض ، وأسلمت العرب فحملوا إلى مكة ما أغناهم الله به . وقيل أغناهم بالنى ، وفائدة التقييد بالمشيئة التعلم للعباد بأن يقولوا ذلك في كل ما يتكلمون به مما له تعلق بالزمن المستقبل . ولئلا يفترخوا عن الدعاء والتضرع (إن الله عليم) بأحوالكم (حكيم) في إعطائه ومنعه . ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . قوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) الآية ، فيه الأمر بقتال من جمع بين هذه الأوصاف . قال أبو الوفاء بن عقيل : إن قوله (قاتلوا) أمر بالعقوبة ، ثم قال (الذين لا يؤمنون بالله) فبين الذنب الذي توجبه العقوبة ، ثم قال (ولا باليوم الآخر) فأكد الذنب في جانب الاعتقاد . ثم قال (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) فيه زيادة للذنب في مخالفة الأحكام ، ثم قال (ولا يدينون دين الحق) فيه إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام ، ثم قال (من الذين أوتوا الكتاب) تأكيد للحجة عليهم لأنهم كانوا يملكونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، ثم قال (حتى يعطوا الجزية) فبين الغاية التي تمتد إليها العقوبة انتهى . قوله (من الذين أوتوا الكتاب) بيان

للموصول مع ما في حيزه وهم أهل التوراة والإنجيل. قوله (حتى يعطوا الجزية عن يد) الجزية ووزنها فعلة من جزي يجرى : إذا كافأ عما أسدى إليه . فكأنهم أعطوها جزاء عما منحوا من الأمن ؛ وقيل سميت جزية لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه : أي يقضوه ، وهي في الشرع ما يعطيه المعاهد على عهده ، و (عن يد) في محل نصب على الحال . والمعنى : عن يد موأية غير ممتعة وقيل معناه يعطونها بأيديهم غير مستنيين فيها أحدا ؛ وقيل معناه : نقد غير نسيئة ؛ وقيل عن قهر ؛ وقيل معناه : عن إناعم منكم عليهم . لأن أخذها منهم نوع من أنواع الإناعم عليهم ؛ وقيل معناه مذمومون . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم الشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه والثوري وأبو ثور إلى أنها لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب . وقال الأوزاعي ومالك : إن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائنا من كان . ويدخل في أهل الكتاب على القول الأول المجوس . قال ابن المنذر : لا أعلم خلافا في أن الجزية تؤخذ منهم .

واختلف أهل العلم في مقدار الجزية . فقال عطاء : لا مقدار لها . وإنما تؤخذ على ما صولحوا عليه . وبه قال يحيى بن آدم وأبو عبيد وابن جرير إلا أنه قال : أقلها دينار وأكثرها لا حد له . وقال الشافعي : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص منه شيء . وبه قال أبو ثور . قال الشافعي : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز . وإذا زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم . وقال مالك : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب . وأربعون درهما على أهل الورق . الغنى والفقير سواء . ولو كان مجوسيا لا يزيد ولا ينقص . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون . والكلام في الجزية مقرر في مواضعه : والحق من هذه الأقوال قد قررناه في شرحنا للمتنى وغيره من مؤلفاتنا . قوله (وهم صاغرون) في محل نصب على الحال . والصغار الذل . والمعنى : إن الذمى يعطى الجزية حال كونه صاغرا . قيل وهو أن يأتي بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم . والمتسلم قاعد . وبالجملة ينبغي للقبض للجزية أن يجعل المسلم لها حال قبضها صاغرا ذليلا .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله في قوله (إنما المشركون نجس) الآية قال : إلا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يدخل مسجدنا هذا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمكم . قال ابن كثير : تفرّد به أحمد مرفوعا . والموقوف أصح . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويحيئون معهم بالطعام يتجرون به . فلما نهوا عن أن يأتوا البيت . قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) قال : فأنزل الله عليهم المطر . وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم . وأخرج ابن مردويه عنه قال : فأغناهم الله من فضله وأمرهم بقتال أهل الكتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله (وإن خفتم عيلة) قال : الفاقة . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله (فسوف يغنيكم الله من فضله) قال : بالجزية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الضحاك مثله . وأخرج نحوه عبد الرزاق عن قتادة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله (إنما المشركون نجس) قال : قدر . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : من صافحهم فليتوضأ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من صافح مشركا فليتوضأ أو ليغسل كفيه » . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم

وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن مجاهد في قوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) قال : نزلت هذه الآية حين أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بغزوة تبوك . وأخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال : نزلت في كفار قريش والعرب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) وأنزلت في أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) الآية إلى قوله (حتى يعطوا الجزية) فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) يعني الذين لا يصدقون بتوحيد الله (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) يعني الخمر والحريير (ولا يدينون دين الحق) يعني دين الإسلام (من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون) يعني مذلولون . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (عن يده) قال : عن قهر . وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة في قوله (عن يده) قال : من يده ولا يبعث بها غيره . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي سنان في قوله (عن يده) قال : عن قدرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وهم صاغرون) قال : يمشون بها متلتلين . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : يلكزون . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سلمان في الآية قال : غير محمودين .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَمْ يَكُنْ يُؤْفَكُونَ (٢٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٢٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٢٣) .

قوله (وقالت اليهود عزير بن الله) كلام مبتدأ لبيان شرك أهل الكتابين ، وعزير مبتدأ وابن الله خبره ، وقد قرأ عاصم والكسائي « عزير » بالتنوين ، وقرأ الباقون بترك التنوين لاجتماع العجمة والعلمية فيه . ومن قرأ بالتنوين فقد جعله عربيا ، وقيل إن سقوط التنوين ليس لكونه ممتنعا بل لاجتماع الساكنين ، ومنه قراءة من قرأ - قل هو الله أحد الله الصمد - . قال أبو علي الفارسي وهو كثير في الشعر ، وأنشد ابن جرير الطبري :

• لتجدينى بالأمير برآ • وبالقناة لامرا مكرآ • إذا غطيت السلى فرآ •

وظاهر قوله (وقالت اليهود) إن هذه المقالة لجميعهم ، وقيل هو لفظ خرج على العموم ، ومعناه الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا البعض منهم . وقال النقاش : لم يبق يهودى يقولها ؟ بل قد انقرضوا ، وقيل إنه قال ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة منهم ، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود ، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم . قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله) قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب ، فكان ذلك سببا لهذه المقالة ، والأولى أن يقال : إنهم قالوا هذه المقالة لكون في الإنجيل وصفه تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان ، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الإنجيل ، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم ، أو لم

يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة : قيل : وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لالكلمهم . قوله (ذلك قولهم بأفواههم) الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة . ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم . بأن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرد دعوى . لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه ، غير مفيدة لفائدة يعتد بها . وقيل إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد كما في كتبت يدي ومشيت برجلي ، ومنه قوله تعالى - يكتبون الكتاب بأيديهم - . وقوله - ولا طائر يطير بجناحيه - . وقال بعض أهل العلم : إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً كقوله - يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم - ، وقواه - كبرت كلمة تخرج من أفواههم - . وقوله - يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم - . قوله (يضاهئون قول الذين كفروا) المضاهاة : المشابهة . قيل ومنه قول العرب امرأة ضياء . وهي التي لا تحيض لأنها شابهت الرجال . قال أبو علي الفارسي : من قال (يضاهئون) مأخوذ من قولهم امرأة ضياء فقوله خطأ . لأن الهمزة في ضاهاً أصلية . وفي ضياء زائدة كحمراء ، وأصله يضاهئون وامرأة ضياء . ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم : الأول أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم واللات والعزى ومناة بنات الله . القول الثاني أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين : إن الملائكة بنات الله . الثالث أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيز ابن الله وأن المسيح ابن الله . قوله (قاتلهم الله) دعاء عليهم بالهلاك . لأن من قاتله الله هلك : وقيل هو تعجب من شناعة قولهم : وقيل معنى قاتلهم الله : لعنهم الله . ومنه قول أبان بن ثعلب :

قاتلها الله تلحاني وقد علمت أني لنفسي إفسادي وإصلاحى

وحكى النقاش أن أصل قاتل الله : الدعاء . ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء ، وأنشد الأصمعي :

يا قاتل الله ليلي كيف تعجبنى وأخبر الناس أنى لا أباليها

(أنى يوفكون) أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل . قوله (اتخذوا أحياراً ورهبانهم أرباباً من دون الله) الأحيار : جمع حبر . وهو الذى يحسن القول . ومنه ثوب حبر : وقيل جمع حبر بكسر الحاء . قال يونس : لم أسمعه إلا بكسر الحاء . وقال الفراء : الفتح والكسر لفتان . وقال ابن السكيت : الحبر بالكسر العالم . والحبر بالفتح العالم . والرهبان جمع أهب مأخوذ من الرهبة . وهم علماء النصارى كما أن الأحيار علماء اليهود . ومعنى الآية أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب . قوله (والمسيح ابن مريم) معطوف على رهبانهم : أى اتخذ النصارى رباً معبوداً . وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيز رباً معبوداً . وفي هذه الآية ما يزرع من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله . وتأثير ما يقوله الأسلاف على مافى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فإن طاعة المذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبيأوه . هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحيار والرهبان أرباباً من دون الله . للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرّموا ما حرّموا وحلّوا ما حلّوا ، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة . وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة . والتمرة بالتمرة . والماء بالماء . فباعباد الله وبإتباع محمد بن عبد الله ما بالكم تركم الكتاب والسنة جانباً . وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطليه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده . فعلم بما جاموا به من الآراء التي لم تعد

بهماد الحق ، ولم تعضد بعض الدين ونصوص الكتاب والسنة ، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ونيابته ، فأعزموها آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأفهما مريضة ، وعقولا مهیضة ، وأذهانا كليلة . وخواطر غيلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله وإياي كتبها لكم الأموات من أسلافكم ، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدكم ومتعبدكم ومعبودكم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأثمتكم وما جاءوكم به من الرأى بأقوال إمامكم وإمامهم وقتوتكم وقتوتهم ، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آبن في دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال ، مرشد التائه ، موضح السبيل ، اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب ، وأوضح لنا منهج الهداية . قوله (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) هذه الجملة في محل نصب على الحال : أى اتخلوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ، والحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده ، أو وما أمر الذين اتخلوهم أربابا من الأحبار والرهبان إلا بذلك ، فكيف يصلحون لما أهلهم له من اتخاذهم أربابا . قوله (لا إله إلا هو) صفة ثانية لقوله إلها (سبحانه عما يشركون) أى تزيها له عن الإشراك في طاعته وعبادته . قوله (يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم) هذا كلام يتضمن ذكر نوع آخر من أنواع ضلالهم وبعدهم عن الحق وهو ما راموه من إبطال الحق بأقوالهم الباطلة التى هى مجرد كلمات ساذجة ومجادلات زائفة ، وهذا تمثيل لحالهم في محاولة إبطال دين الحق ونبوة نبي الصدق ، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم قد أنارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفثه ويذهب أضواءه (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) أى دينه القويم ، وقد قيل كيف دخلت إلا الاستثنائية على يأبى ، ولا يجوز كرهت أو بغضت إلا زيدا . قال القراء : إنما دخلت لأن في الكلام طرفا من الحمد . وقال الزجاج : إن العرب تحذف مع أبى . والتقدير ويأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره . وقال على بن سليمان : إنما جاز هذا في أبى ، لأنها منع أو امتناع فصارت النفي . قال النحاس : وهذا أحسن كما قال الشاعر :

وهل لى أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن أكون لها ابنا

وقال صاحب الكشاف : إن أبر قد أجزى مجرى لم يرد : أى ولا يريد إلا أن يتم نوره . قوله (ولو كره الكافرون) معطوف على جملة قبله مقدره : أى أبى الله إلا أن يتم نوره ولو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوا ، ثم أكد هذا بقوله (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) أى بما يهذى به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التى شرعها الله لعباده (ودين الحق) وهو الإسلام (ليظهره) أى ليظهر رسوله ، أو دين الحق بما اشتمل عليه من الحجج والبراهين ، وقد وقع ذلك والله الحمد (ولو كره المشركون) الكلام فيه كاللحام في - ولو كره الكافرون - كما قد متنا ذلك :

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف تبهلك وقت تركت قبلتنا وأنت لا ترم أن عزيزاً ابن الله ؟ فألزل الله (وقالت اليهود عزيز ابن الله) الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عنه قال : كن نساء بنى إسرائيل يحتمن بالليل فيصليين ويعزلن ويدكرن ما فضل الله به بنى إسرائيل وما أعطاهم ، ثم سلط عليهم شر خلقه مختصر ، فحرق التوراة وحرب بيت المقدس ، وهزبر

يومئذ غلام ، فقال عزيز : أو كان هذا ؟ فلقق بالحيال والوحش فجعل يتعبد فيها ، وجعل لا يخالط الناس ، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهي تبكي ، فقال : يا أمه اتقي الله واحتسبي واصبري أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت ؟ فقالت : يا عزيز أتهاني أن أبكي وأنت قد خلفت بني إسرائيل ولحقت بالحيال والوحش ؟ ثم قالت : إني لست بامرأة ولكني الدنيا ، وإنه سينبع في مصلاك عين وتنبت شجرة ، فأشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة ، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا ، فلما كان من القد نبعت العين ونبتت الشجرة ، فشرب من ماء العين وأكل من ثمر الشجرة ، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فألهمه الله التوراة ، فجاء فأمله على الناس ، فعند ذلك قالوا عزيز ابن الله . تعالى الله عن ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا فذكر قصة وفيها : أن عزيز سأل الله بعد ما أنسى بني إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم أن يرد الذي نسخ من صدره ، فبينما هو يصلي نزل نور من الله عز وجل فدخل جوفه ، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة ، فأذن في قومه فقال : يا قوم قد آتاني الله التوراة وردّها إلي . وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال : دعا عزيز ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى في قلبه ، فأنزلها الله عليه ، فبعد ذلك قالوا : عزيز ابن الله . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ثلاث أشك فيهن : فلا أدري عزيز كان نبيا أم لا ؟ ولا أدري ألن تبع أم لا ؟ قال : ونسيت الثالثة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (يضاهئون) قال : يشبهون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (قاتلهم الله) قال : لعنهم الله وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن . وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم قال : أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة (اتخلوا أحيارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم . ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه . وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه . وأخرجه أيضا أحمد وابن جرير . وأخرج عبد الرزاق والفرياني وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن أبي البحرى قال : سألت رجلا حليفة فقال : رأيت قوله (اتخلوا أحيارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) أكانوا يعبدونهم ؟ قال : لا ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه . وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : أحيارهم قراؤهم ، ورهبانهم علماءهم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : الأحيار من اليهود ، والرهبان من النصارى . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله . وأخرج أيضا عن الفضيل بن عياض قال : الأحيار العلماء ، والرهبان العباد . وأخرج أيضا عن السدي في قوله (يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم) قال : يريدون أن يطفثوا الإسلام بأفواههم . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله (يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم) يقول : يريدون أن يهلكوا دماءهم وأصهارهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج أبو الشيخ عن السدي (هو الذي أرسل رسوله بالهدى) يعني بالتوحيد والإسلام والقرآن .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُفُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَلَوْ قُومُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٢٥) .

لما فرغ سبحانه من ذكر حال أتباع الأحبار والرهبان المتخذين لهم أربابا ذكر حال المتبوعين فقال (إن كثيرا من الأحبار) إلى آخره ، ومعنى أكلهم لأموال الناس بالباطل أنهم يأخذونها بالوجوه الباطلة كالرشوة . وأثبت هذا للكثير منهم ، لأن فيهم من لم يتلبس بذلك ، بل بقى على ما يوجب دينه من غير تحريف ولا تبديل ولا ميل إلى حطام الدنيا ، ولقد اقتدى بهؤلاء الأحبار والرهبان من علماء الإسلام من لا يأتى عليه الحصر فى كل زمان . فإله المستعان . قوله (ويصدون عن سبيل الله) أى عن الطريق إليه وهو دين الإسلام ، أو عن ما كان حقا فى شريعته قبل نسخها بسبب أكلهم لأموال الناس بالباطل . قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) قيل هم المتقدم ذكرهم من الأحبار والرهبان ، وإنهم كانوا يصنعون هذا الصنع ؛ وقيل هم من يفعل ذلك من المسلمين . والأولى حمل الآية على عموم اللفظ فهو أوسع من ذلك . وأصل الكنز فى اللغة الضم والجمع . ولا يختص بالذهب والفضة . قال ابن جرير : الكنز كل شئ مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها انتهى . ومنه ناقة كناز : أى مكتنزة اللحم ، واكنز الشئ : اجتمع .

واختلف أهل العلم فى المال الذى أدبت زكاته هل يسمى كنزا أم لا ؟ فقال قوم : هو كنز . وقال آخرون : ليس بكنز . ومن القائلين بالقول الأول أبو ذر . وقيد بما فضل عن الحاجة . ومن القائلين بالقول الثانى عمر بن الخطاب وابن عمر وابن عباس وجابر وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو الحق لما سأتى من الأدلة المصرحة بأن ما أدبت زكاته فليس بكنز . قوله (ولا ينفقونها فى سبيل الله) اختلف فى وجه إيراد الضمير مع كون المذكور قبله شيئين ، هما الذهب والفضة ، فقال ابن الأنبارى : إنه قصد إلى الأعم الأغلب وهو الفضة قال : ومثله قوله تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة - رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم . ومثله قوله - وإذا رآوا تجارة أو هوا انفضوا إليها - أعاد الضمير إلى التجارة ، لأنها الأهم ؛ وقيل إن الضمير راجع إلى الذهب والفضة معطوفة عليه ، والعرب توثت الذهب وتذكره ؛ وقيل إن الضمير راجع إلى الكنوز المدلول عليها بقوله (يكنزون) وقيل إلى الأموال ، وقيل للزكاة ، وقيل إنه اكتفى بضمير أحدهما عن ضمير الآخر مع فهم المعنى . وهو كثير فى كلام العرب ، وأنشد سيويه :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضى والرأى مختلف

ولم يقل راضون ، ومثله قول الآخر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى برىا ومن أجل الطوى رمانى

ولم يقل بريين ، ومثله قول حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الأب ود ما لم يعاض كان جنونا

ولم يقل يعاضا ، وقيل إن أفراد الضمير من باب الذهاب إلى المعنى دون اللفظ ، لأن كل واحد من الذهب والفضة جملة وافية . وعدة كثيرة ، ودنانير ودرهم . فهو كقوله - وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا - وإنما خص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال لكونهما أثمان الأشياء . وغالب ما يكنز وإن كان غيرهما له حكمهما فى تحريم الكنز . قوله (فبشرهم بعذاب أليم) هو خير الموصول . وهو من باب التهكم بهم كما فى قوله : نحية بينهم ضرب وجيع . وقيل إن البشارة هى الخبر الذى يتغير له لون البشرة لتأثيره فى القلب . سواء كان من الفرح أو من الغم . ومعنى (يوم يحسب عليها فى نار جهنم) أن النار توقد عليها وهى ذات حمى وحر شديد .

ولو قال يوم نحشى : أى الكنوز لم يعط هذا المعنى . فجعل الإحماء للنار مبالغة . ثم حذف النار وأسند الفعل إلى الجمل كما تقول رفعت القصة إلى الأمير . فإن لم تذكر القصة قلت رفع إلى الأمير . وقرأ ابن عامر « نحشى » بالمشنة الفوقية . وقرأ أبو حيو « فيكوى » بالتحية . وخص الجباه والجنوب والظهور لكون التألم بكيا أشد لما في داخلها من الأعضاء الشريفة ؛ وقيل ليكون الكى فى الجهات الأربع : من قدام . وتحلف . وعن يمين ، وعن يسار ؛ وقيل لأن الجمال فى الوجه ، والقوة فى الظهر والخصين ، والإنسان إنما يطلب المال للجمال والقوة ؛ وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تكلف . قوله (هذا ما كنزتم لأنفسكم) أى يقال لم هذا ما كنزتم لأنفسكم : أى كنزتموه لتنفعوا به فهذا نفعه على طريقة التهكم والتوبيخ (فلو قوا ما كنتم تكزون) ما مصلرية أو موصولة : أى ذوقوا وبالاه . وسوء عاقبته . وقبح مغبته ، وشؤم فائدته .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (إن كثيرا من الأحبار والرهبان) يعنى علماء اليهود والنصارى (لياكلون أموال الناس بالباطل) والباطل كتب كتبها لم ينزلها الله فأكلوا بها أموال الناس . وذلك قول الله تعالى - قويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله - . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون الزكاة من أموالهم . وكل مال لا تؤدى زكاته كان على ظهر الأرض أو فى بطنها فهو كنز . وكل مال أدّيت زكاته فليس بكنز . كان على ظهر الأرض أو فى بطنها ؛ وأخرجه عنه ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ من وجه آخر . وأخرج مالك وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه مرفوعا . وأخرج ابن عدى والخطيب عن جابر نحوه مرفوعا أيضا . وأخرجه ابن أبى شيبة عنه موقوفا . وأخرج أحمد فى الزهد والبخارى وابن ماجه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عمر فى الآية قال : إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال : ثم قال : ما أبالى لو كان عندى مثل أحد ذهباً أعلم عدده وأزكيه وأعمل فيه بطاعات الله ؟ وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب قال : ليس بكنز ما أدّيت زكاته . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أم سلمة مرفوعا نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة فى مسنده وأبو داود وأبو يعلى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) كبر ذلك على المسلمين ، وقالوا : ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يانبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية ، فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض الموارث من أموال تبقّى بعدكم ، فكبر عمر ، ثم قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته . وقد أخرجه أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجه عن سالم بن أبى الجعد من غير وجه عن ثوبان . وحكى البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) قال : هم أهل الكتاب ، وقال : هى خاصة وعامة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة وما فوقها كنز . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة قال : حلية السيوف من الكنوز ما أحدثكم إلا ما سمعت . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز أنهما قالاه فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) إنها نسختها الآية الأخرى - نخذ من أموالهم صدقة - الآية . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال

• ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤتي زكاتها إلا جعل لها يوم القيامة صفائح ، ثم أحى عليها في نلر جهنم . ثم يكرى بها جنباه وجهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، إما إلى الجنة ، وإما إلى النار . وأخرج ابن أبي شيبة والبخارى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذر بالزبدة فقلت : ما أتلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية ، فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا في أهل الكتاب ، قلت : إنها لقينا وفيهم .

إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٢٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٧) .

قوله (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نوع آخر من قبائح الكفار وذلك أن الله سبحانه لما حكم في كل وقت بحكم خاص غيروا تلك الأوقات بالنسيء والكيسة فأخبرنا الله بما هو حكمه فقال (إن عدة الشهور) أى عدد شهور السنة عند الله في حكمه وقضائه وحكمته اثنا عشر شهرا . قوله (في كتاب الله) أى فيما أثبتته في كتابه . قال أبو على الفارسي : لا يجوز أن يتعلق في كتاب الله بقوله : عدة الشهور . للفصل بالأجنبي وهو الخبر : أعني اثنا عشر شهرا ، فقوله : في كتاب الله ، وقوله : يوم خلق بدل من قوله من عند الله ، والتقدير : إن عدة الشهور عند الله في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، وفائدة الإبدالين تقرير الكلام في الأذهان لأنه يعلم منه أن ذلك العدد واجب عند الله في كتاب الله . وثابت في علمه في أول ما خلق الله العالم . ويجوز أن يكون في كتاب الله صفة اثنا عشر : أى اثنا عشر مثبتة في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ . وفي هذه الآية بيان أن الله سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على هذا الترتيب المعروف يوم خلق السموات والأرض ، وأن هذا هو الذى جاءت به الأنبياء ونزلت به الكتب . وأنه لا اعتبار بما عند العجم والروم والتبسط من الشهور التى يصطلحون عليها ويعملون بعضها ثلاثين يوما ، وبعضها أكثر . وبعضها أقل . قوله (منها أربعة حرم) هى ذى القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب : ثلاثة سرد . وواحد فرد ، كما ورد بيان ذلك في السنة المطهرة . قوله (ذلك الدين القيم) أى كون هذه الشهور كذلك ، ومنها أربعة حرم هو الدين المستقيم . والحساب الصحيح ، والعدد المستوفى . قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى في هذه الأشهر الحرم بإيقاع القتال فيها والهلاك لحرمتها ، وقيل إن الضمير يرجع إلى الشهور كلها الحرم وغيرها ، وإن الله نهى عن الظلم فيها ، والأول أولى . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ لهذه الآية ، ولقوله - يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام - ولقوله - فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين - الآية .

وقد ذهب جماعة آخرون إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بآية السيف . ويجب عنه بأن الأمر

بقتل المشركين ومقاتلتهم مقيد بانسلاخ الأشهر الحرم كما في الآية المذكورة ، فتكون مائرا لآيات المخصصة للأمر بالقتال مقيدة بما ورد في تحريم القتال في الأشهر الحرم . كما هي مقيدة بتحريم القتال في الحرم للأدلة الواردة في تحريم القتال فيه . وأما ما استدلوا به من أنه صلى الله عليه وآله وسلم حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، فقد أجيب عنه أنه لم يبتد محاصرتهم في ذي القعدة بل في شوال ، والمحرم إنما هو ابتداء القتال في الأشهر الحرم لا إتمامه . وبهذا يحصل الجمع . قوله (وقاتلوا المشركين كافة) أي جميعا ، وهو مصلر في موضع الحال . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر كعامة وخاصة لا يثنى ولا يجمع (كما يقاتلونكم كافة) أي جميعا . وفيه دليل على وجوب قتال المشركين . وأنه فرض على الأعيان إن لم يتم به البعض (واعلموا أن الله مع المتقين) أي ينصرهم ويثبتهم ، ومن كان الله معه فهو الغالب . وله العاقبة والغلبة . قوله (إنما النسي زيادة في الكفر) قرأ نافع في رواية ورش عنه النسي بياء مشددة بدون همز . وقرأ الباقون بياء بعدها همزة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع هذه القراءة إلا ورش وحده . وهو مشتق من نساء وأنساء : إذا أخره ، حكى ذلك الكسائي . قال الجوهري : النسيء فعل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشيء فهو منسوء : إذا أخرته . ثم تحول منسوء إلى نسيء كما تحول مقتول إلى قتل . قال ابن جرير : في النسيء بالهمزة معنى الزيادة يقال نسا نسا : إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمزة إلا من النسيان كما قال تعالى - نسوا الله فسيهم - ، وروى نافع قراءة . وكانت العرب تحرم القتال في الأشهر الحرم المذكورة ، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها قاتلوا فيها وحرّموا غيرها ، فإذا قاتلوا في المحرم حرّموا بدله شهر صفر : وهكذا في غيره ، وكان الذي يحملهم على هذا أن كثيرا منهم إنما كانوا يعيشون بالغارة على بعضهم البعض ، ونهب ما يمكنهم نهبه من أموال من يغفرون عليه ، ويقع بينهم بسبب ذلك القتال . وكانت الأشهر الثلاثة المسرودة يضرّ بهم تواليا وتشتد حاجتهم وتعظم فاقتهم ، فيحللون بعضها ويحرّمون مكانه بقدره من غير الأشهر الحرم ، فهذا هو معنى النسيء الذي كانوا يفعلونه . وقد وقع الخلاف في أول من فعل ذلك فقيل هو رجل من بني كنانة يقال له حذيفة بن عتيذ . ويلقب القلمس ، وإليه يشير الكعبيت بقوله :
ألسنا الناسئين على معدّ شهر الحل نجعلها حراما

وفيه يقول قائلهم . ومنا ناسي الشهر القلمس . وقيل هو عمرو بن لحي ، وقيل هو نعيم بن ثعلبة من بني كنانة . وسمى الله سبحانه النسيء زيادة في الكفر لأنه نوع من أنواع كفرهم ، ومعصية من معاصيهم المنضمة إلى كفرهم بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر . قوله (يفضل به الذين كفروا) قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وابن عامر (يفضل) على البناء للمعلوم . وقرأ الكوفيون على البناء للمجهول . ومعنى القراءة الأولى أن الكفار يفضلون بما يفعلونه من النسيء ، ومعنى القراءة الثانية ، أن الذي سنّ لهم ذلك يجعلهم ضالين بهذه السنة السيئة ، وقد اختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد . وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب (يفضل) بضم الياء وكسر الصاد على أن فاعله الموصول ومفعوله محذوف . ويجوز أن يكون فاعله هو الله سبحانه ومفعوله الموصول . وقرئ بفتح الياء والصاد من ضلّ يفضل . وقرئ « نضل » بالنون . قوله (يحلون عاما ويحرّمونه عاما) الضمير راجع إلى النسيء : أي يحلون النسيء عاما ويحرّمونه عاما ، أو إلى الشهر الذي يؤخرونه ويقاثلون فيه : أي يحلون عاما بإبداله بشهر آخر من شهر الحل . ويحرّمون عاما : أي يحافظون عليه فلا يحلون فيه القتال ، بل يقفونه على حرمة . قوله (ليواطئوا عدة ما حرم الله) أي لكي يواطئوا ، والمواطأة الموافقة . يقال تواطأ القوم على كذا : أي توافقوا عليه واجتمعوا . والمعنى : إنهم لم يحلوا شهرا إلا حرّموا شهرا لتبقى الأشهر الحرم أربعة .

قال قطرب : معناه عملوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم وقرنوه بالمحرم في التحريم . وكذا قال الطبري . قوله (فيحطوا ما حرم الله) أي من الأشهر الحرم التي أبدلوها بغيرها (زين لهم سوء أعمالهم) أي زين لهم الشيطان الأعمال السيئة التي يعملونها ، ومن جعلها النسيء . وقرئ على البناء للفاعل (والله لا يهدي القوم الكافرين) أي المصيرين على كفرهم المستمرين عليه فلا يهديهم هداية توصلهم إلى المطلوب . وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب في حجة فقال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » . وأخرج نحوه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث ابن عمر . وأخرج نحوه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث ابن عباس . وأخرج نحوه أيضا البزار وابن جرير وابن مردويه من حديث أبي هريرة . وأخرجه أحمد وابن مردويه من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه مرفوعا مطولا . وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس (منها أربعة حرم) قال : المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : إنما سمين حرما لثلاث يكون فيهن حرب . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله) ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرما ، وعظم حرمتهم ، وجعل الدين فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قال : في كلهن (وقاتلوا المشركين كافة) يقول جميعا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل في قوله (وقاتلوا المشركين كافة) قال : نسخت هذه الآية كل آية فيها رخصة . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كانت العرب يحلون عاما شهرا وعاما شهرين . ولا يصيبون الحج إلا في كل سنة وعشرين سنة مرة ، وهي النسيء الذي ذكره الله في كتابه ، فلما كان عام حج أبو بكر بالناس وافق ذلك العام ، فسماه الله الحج الأكبر . ثم حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من العام المقبل . واستقبل الناس الأهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعقة فقال : إنما النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يفضل به الذين كفروا يحلون عاما ويحرمونه عاما ، فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ، ويحرمون صفر عاما ويستحلون المحرم ، وهي النسيء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان جنادة بن عوف الكتاني يوافق الموسم كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يخاب ولا يعاب ، ألا وإن صفر الأول العام حلال فيحله للناس . فيحرم صفر عاما . ويحرم المحرم عاما . فذلك قوله تعالى (إنما النسيء زيادة في الكفر) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : المحرم كانوا يسمونه صفر . وصفر يقولون صفران الأول والآخر . يحل لهم مرة الأول . ومرة الآخر . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كانت النساء حتى من بنى مالك من كنانة من بنى ققيم ، فكان يحرم رجلا يقال له القلمس ، وهو الذي أنسا المحرم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ
أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٢٨) إِلَّا
تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (٢٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي
الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ
تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٠)
أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٣١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ
الْمُشَقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ (٣٢)

قوله (يا أيها الذين آمنوا) لما شرح معاني أولئك الكفار عاد إلى ترويض المؤمنين في قتالهم ، والاستغفار في
(مالككم) للإنكار والتوبيخ : أي أي شيء يمنعكم عن ذلك ، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً لمن تخلف عن
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، والنفر : هو
الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث . قوله (انتقلتم إلى الأرض) أصله تناقلتم أدعيت التاء في التاء
لقربها منها ، وجيء بالف الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن ، ومثله : ادأركوا ، واطيرتم ، واطيروا .
وأشدد الكسائي :

توالى الضجيج إذا ما اشتاقها حضرا عذب المذاق إذا ما اتابع القبل

وقرأ الأعمش (تناقلتم) على الأصل ، ومعناه تباطأتم ، وعدت إلى بلدي لتضمنه معنى الميل والإخلاد ؛ وقيل
معناه : ملتم إلى الإقامة بأرضكم والبقاء فيها وقرئ : (انتقلتم) على الاستغفار ، ومعناه التوبيخ والعامل في الظرف
ما في (مالككم) من معنى الفعل ، كأنه قيل ما يمنعكم ، أو ماتصنعون إذا قيل لكم ؟ و (إلى الأرض) متعلق بـ (انتقلتم)
وكما مر . قوله (أرضيتم بالحياة الدنيا) أي بنعيمها بدلا من الآخرة كقوله تعالى - ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة
في الأرض يخلفون - أي بدلا منكم ، ومثله قول الشاعر :

قلبت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان

أي بدلا من ماء زمزم ، والطهيان عود ينصب في ناحية الدار للهواء يعلق عليه الماء ليبرد ، ومعنى (في الآخرة)
أي في جنب الآخرة ، وفي مقابلتها (إلا قليل) أي إلا متاع حقير لا يعبا به ، ويجوز أن يراد بالقليل العدم . إذ

لا نسبة للمتأهلي الزائل إلى غير المتأهلي الباقي ، والظاهر أن هذا التناقل لم يصدر من الكل ، إذ من البعيد أن يطبقوا جميعاً على التباطيء والتناقل ، وإنما هو من باب نسبة ما يقع من البعض إلى الكل ، وهو كثير شائع . قوله (إلا تنفروا يعذبكم) هذا تهديد شديد ، ووعيد مؤكد لمن ترك النفر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يعذبكم عذاباً أليماً) أي يهلككم بعذاب شديد مؤلم ؛ قيل في الدنيا فقط . وقيل هو أعم من ذلك . قوله (ويستبدل قوماً غيركم) أي يجعل لرسوله بدلاً منكم ممن لا يتباطأ عند حاجتهم إليهم .

واختلف في هؤلاء القوم من هم ؟ فقيل أهل اليمن ، وقيل أهل فارس ، ولا وجه للتعيين بدون دليل . قوله (ولا تنفروا شيئاً) معطوف على (يستبدل) ، والضمير قيل لله ، وقيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي ولا تنفروا الله بترك أمثال أمره بالنفر شيئاً ، أو لا تنفروا رسول الله بترك نصره والنفر معه شيئاً (والله على كل شيء قدير) ومن جملة مقلوباته تعذيبكم والاستبدال بكم . قوله (إلا تنفروا فقد نصره الله) أي إن تركتم نصره فالله متكفل به ، فقد نصره في موطن القلة ، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر ؛ أو فسبغ نصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له حال كونه (ثاني اثنين) أي أحد اثنين ، وهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه . وقرئ بسكون الياء . قال ابن جني : حكاه أبو عمرو بن العلاء ، ووجهها أن تسكن الياء تشبيهاً بالألف . قال ابن عطية : فهي كقراءة الحسن ما بقي من الربا ، وكقول جرير :

هو الخليفة فارضوا ما رضى لكم ماضى العزيمة ما في حكمه جنف

قوله (إذ هما في الغار) بدل من (إذ أخرجه) بدل بعض ، والغار : ثقب في الجبل المسمى ثورا ، وهو المشهور بغار ثور ، وهو جبل قريب من مكة : وقصة خروجه صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر ودخولهما الغار مشهورة مذكورة في كتب السير والحديث . قوله (إذ يقول لصاحبه) بدل ثان : أي وقت قوله لأبي بكر (لا تحزن إن الله معنا) أي دع الحزن فإن الله بنصره وعونه وتأيدته معنا ، ومن كان الله معه فلن يغلب ، ومن لا يغلب فيحق له أن لا يحزن ، قوله (فأنزل الله سكينته عليه) السكينة : تسكين جأشه وتأمينه حتى ذهب روعه وحصل له الأمن . على أن الضمير في (عليه) لأبي بكر ، وقيل هو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ويكون المراد بالسكينة النازلة عليه عصمته عن حصول سبب من أسباب الخوف له ، ويؤيد كون الضمير في (عليه) للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الضمير في (وأيده) فإنه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه المؤيد بهذه الجنود التي هي الملائكة كما كان في يوم بدر ؛ وقيل إنه لا محذور في رجوع الضمير من (عليه) إلى أبي بكر ومن (وأيده) إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن ذلك كثير في القرآن وفي كلام العرب (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) أي كلمة الشرك ، وهي دعوتهم إليه . ونداؤهم للأصنام (وكلمة الله هي العليا) قرأ الأحمش ويعقوب بنصب كلمة حملا على جعل ، وقرأ الباقر برفعها على الاستئناف . وقد ضعف قراءة النصب الفراء وأبو حاتم ، وفي ضمير الفصل ، أعني (هي) تأكيداً لفضل كلمته في العلو وأنها المختصة به دون غيرها ، وكلمة الله هي كلمة التوحيد ، والدعوة إلى الإسلام (والله عزيز حكيم) أي غالب قاهر لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب ، ثم لما توعد من لم ينفر مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وضرب له من الأمثال ما ذكره عقبه بالأمر الجرم فقال (انفروا خفافاً وثقالاً) أي جاك كونكم خفافاً وثقالاً ، قيل المراد منفردين أو مجتمعين ، وقيل نشاطاً وغير نشاط ، وقيل فقراء وأغنياء ، وقيل شباباً وشيوخاً ، وقيل رجالاً وفرساناً ، وقيل من لا عيال له ومن له

عيال ، وقيل من يسبق إلى الحرب كالطلائع ، ومن يتأخر كالخيش ، وقيل غير ذلك . ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعاني ، لأن معنى الآية : انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت . قيل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى - ليس على الضعفاء ولا على المرضى - ، وقيل الناسخ لما قوله - فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة - الآية . وقيل هي محكمة وليست بمنسوخة ، ويكون إخراج الأعمى والأعرج بقوله - ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج - وإخراج الضعيف والمريض بقوله - ليس على الضعفاء ولا على المرضى - من باب التخصيص . لا من باب النسخ على فرض دخول هؤلاء تحت قوله (خفافاً وثقالاً) والظاهر عدم دخولهم تحت العموم . قوله (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد ، فالفقر له يجاهدون بأنفسهم ، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم . والجهاد من آكد الفرائض وأعظمها ، وهو فرض كفاية مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو وبدفعه ، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض أو أقطار وجب عليهم ذلك وجوب عين . والإشارة بقوله (ذلكم) إلى ما تقدم من الأمر بالنفير والأمر بالجهاد (خير لكم) أي خير عظيم في نفسه ، وخير من السكون والدعة (إن كنتم تعلمون) ذلك وتعرفون الأشياء الفاضلة وتميزونها عن المفضولة . قوله (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك) . قال الزجاج : لو كان المدعو إليه فحذف للدلالة ما تقدم عليه ، والعرض : ما يعرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنمة قريبة غير بعيدة (وسفراً قاصداً) عطف على ما قبله : أي سفراً متوسطاً بين القرب والبعد . وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد (ولكن بعدت عليهم الشقة) قال أبو عبيدة وغيره : إن الشقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال منه شقة شاقة . قال الجوهري : الشقة بالضم من الثياب ، والشقة أيضاً : السفر البعيد ، وربما قالوه بالكسر . والمراد بهذا غزوة تبوك فإنها كانت سفرة بعيدة شاقة . وقرأ عيسى بن عمر « بعدت عليهم الشقة » بكسر العين والشين (وسيحلفون بالله) أي المتخلفون عن غزوة تبوك حال كونكم قائلين (لو استطعنا لخرجنا معكم) أي لو قدرنا على الخروج ووجدنا ما نحتاج إليه فيه مما لا بد منه (لخرجنا معكم) هذه الجملة سادة مسددة جواب القسم والشرط . قوله (يهلكون أنفسهم) هو بدل من قوله (سيحلفون) لأن من حلف كاذباً فقد أهلك نفسه أو يكون حالاً : أي مهلكين أنفسهم موقعين لها موقع الهلاك (والله يعلم إنهم لكاذبون) في حلفهم الذي سيحلفون به لكم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا) الآية . قال هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح ، وحين أمرهم بالنفير في الصيف وحين خرفت النخل وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج ، فأنزل الله (انفروا خفافاً وثقالاً) وأخرج أبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استنفر حياً من أحياء العرب فتأقلوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) وقد كان تخلف عنه أناس في البو يفتقون قومهم ، فقال المؤمنون : قد بقي لاس في البوادي وقالوا هلك أصحاب البوادي ، فنزلت (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) . وأخرج أبو داود وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله (إلا تنفروا) الآية قال : نسخها - وما كان المؤمنون لينفروا كافة - . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (إلا تنفروا فقد نصره الله) قال : ذكر ما كان من أول شأنه حين بعث ، يقول : فأننا فاعل

فلك به ، وناصره كما نصرته إذ ذاك وهو ثاني اثنين . وأخرج أبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن شهاب وعروة : أنهم ركبوا في كل وجه يعنى المشركين يطلبون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرهم ويجعلون لهم الحمل العظيم ، وأتوا على ثور الجبل الذى فيه الغار والذى فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى طلوعوا فوقه ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر أصواتهم ، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه الهمة والخوف ، فعند ذلك يقول له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا تحزن إن الله معنا) ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فزلت عليه السكينة من الله فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين الآية . وأخرج ابن شاهين وابن مردويه وابن عساكر عن حبشى بن جنادة قال : قال أبو بكر : يا رسول الله لو أن أحدا من المشركين رفع قدمه لأبصرنا ، فقال « يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا » . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري في قوله (إذ هما في الغار) قال : هو الغار الذى فى الجبل الذى يسمى ثورا وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس في قوله (فأنزل الله سكينة عليه) قال : على أبي بكر لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم تزل معه السكينة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر غار حراء ، فقال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإياك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم « ما ظنك باثنين الله ثالثهما يا أبا بكر ؟ إن الله أنزل سكينة عليك وأيدني بجنود لم يروها » . وأخرج الخطيب في تاريخه عن حبيب بن أبي ثابت (فأنزل الله سكينة عليه) قال : على أبي بكر ، فأما النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كانت عليه السكينة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) قال : هى الشرك بالله (وكلمة الله هى العليا) قال : لا إله إلا الله . وأخرج القرطبي وأبو الشيخ عن أبي الضحى قال : أول ما أنزل من براءة (انفروا خفافا وثقالا) ثم نزل أولها وآخرها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي مالك نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (خفافا وثقالا) قال : نشاطا وغير نشاط . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحكم في الآية قال : مشاغيل وغير مشاغيل . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : فى العسر واليسر وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال : فتيانا وكهولا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة قال : شبابا وشيوخا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : قالوا إن فينا الثقيل وإذا الحاجة والضبيعة والشغل فأنزل الله (انفروا خفافا وثقالا) وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا ، وعلى ما كان منهم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي قال : جاء رجل زعموا أنه المقداد ، وكان عظيما سمينا ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى ، فزلت (انفروا خفافا وثقالا) فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها فنسخها الله ، فقال - ليس على الضعفاء ولا على المرضى - الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل له : ألا تغزوني الأصفر لعلك أن تصيب ابنة عظيم الروم ؟ فقال رجلان : قد علمت يا رسول الله أن النساء فتنة فلا تفتننا بهن فأذن لنا ، فأذن لهما ، فلما انطلقنا قال أحدهما : إن هر إلا شحمة لأول آكل ، فسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينزل عليه شيء فى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق نزل عليه وهو على بعض المناة (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك) ونزل عليه - عفا الله عنك لم أذنت لهم - ونزل عليه - إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر - ونزل عليه - إنهم رجس وماؤهم جهم جزاء بما كانوا يكسبون - وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (لو كان عرضا قريبا) قال : غنيمة قريية ، (ولكن بعدت عليهم الشقة)

قال المسير وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (والله يعلم إنهم لكاذبون) قال : لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطة من عند أنفسهم وزهادة في الجهاد .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ (١٢)
لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١) إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (١٠) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ
انْبِعَاثَهُمْ فَشَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٩) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٨) لَقَدْ
ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونِ (٧)
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنْنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٦)

الاستفهام في (عفا الله عنك لم أذنت لهم) للإنكار من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حيث وقع منه الإذن لما استأذنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه . ومن هو كاذب فيه . وفي ذكر العفو عنه صلى الله عليه وآله وسلم ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى ، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه . وقيل إن هذا عتاب له صلى الله عليه وآله وسلم في إذنه للمنافقين بالخروج معه . لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج . والأول أولى . وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله - فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم - ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب . والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات والله أعلم . وقيل إن قوله (عفا الله عنك) هي افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا ، وكذا حكاه مكي والنحاس والمهدوي . وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك ، وعلى التأويل الأول لا يحسن . ولا يخفك أن التفسير الأول هو المطابق لما يقنضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي . وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وآله وسلم ، والمسألة مدونة في الأصول ، وفيها أيضا دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة والاعتراض بظواهر الأمور ، وهـ حتى ، في (حتى يتبين لك الذين صدقوا) للغاية ، كأنه قيل : لم سارعت إلى الإذن لهم ؟ وهـ لا تأنيث حتى يتبين لك صادق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه ، وكذب من هو كاذب منهم في ذلك ؟ ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القعود عن الجهاد ، بل كان من عادتهم أنه صلى الله عليه وآله وسلم إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك . فقال (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا) وهذا على أن معنى الآية

أن لا يجاهدوا حل حذف حرف النون : وقيل المعنى : لا يستأذنك المؤمنون في التخلف كراهة الجهاد : وقيل : إن معنى الاستئذان في الشيء الكراهة له ، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى : لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منك فضلا عن أن يستأذنوك في التخلف : قال الزجاج : أن يجاهدوا في موضع نصب بإضمار في : أى في أن يجاهدوا (والله عليم بالمتقين) وهم هؤلاء الذين لم يستأذنوا (إنما يستأذنك) في القعود عن الجهاد ، والتخلف عنه (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) وهم المنافقون ، وذكر الإيمان بالله أولا ، ثم باليوم الآخر ثانيا في الموضعين ، لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله . قوله (وارتأبت قلوبهم) عطف على قوله (الذين لا يؤمنون) وجاء بالماضى للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم . وهو الشك . قوله (فهم في ريبهم يترددون) أى في شكهم الذى حلّ بقلوبهم يتحيزون ، والتردد التحيز . والمعنى : هؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق . قوله (ولو أرادوا الخروج لأعدوا لهم عدة) أى لو كانوا صادقين فيما يدّعون ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك . ولكن لم يكن معهم من العدة للجهاد ما يحتاج إليه لما تركوا إعداد العدة وتخصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعدّ لذلك المؤمنون ، معنى هذا الكلام : أنهم لم يريدوا الخروج أصلا ولا استعدادا للغزو . والعدة ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح . قوله (ولكن كره الله انبعاثهم) أى ولكن كره الله خروجهم فتبطوا عن الخروج . فيكون المعنى : ما خرجوا ولكن تبطوا ، لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تبططهم . عن الخروج ، والانبعاث الخروج : أى حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم ، لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين . وقيل المعنى : لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن ما أرادوه لكراهة الله له قوله (وقيل اقلعوا مع القاعددين) قيل القائل لهم هو الشيطان بما يلقى إليه من الوسوسة ، وقيل قاله بعضهم لبعض . وقيل قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غضبا عليهم ، وقيل هو عبارة عن الخذلان : أى أوقع الله في قلوبهم القعود خذلانا لهم . ومعنى (مع القاعددين) أى مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان ، وفيه من الذمّ لهم والإضرار عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى . قوله (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين عن تخلف المنافقين ، والخبال : الفساد والنجاسة وإيقاع الاختلاف والأراجيف . قيل هذا الاستثناء منقطع : أى ما زادوكم قوة ، ولكن طلبوا الخبال ، وقيل المعنى : لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأى إلا خبالا فيكون متصلا ، وقيل هو استثناء من أعمّ العام : أى ما زادوكم شيئا إلا خبالا . فيكون الاستثناء من قسم المتصل . لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء . قوله (ولا أوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة) الإيضاع : سرعة السير ، ومنه قوله ورقة بن نوفل :

ياليتنى فيها جذع أخبّ فيها وأضع

يقال أوضع البعير : إذا أسرع السير ، وقيل الإيضاع سير الخبب ، والتحليل الفرجة بين الشيتين ، والجمع الخلال : أى الفرج التى تكون بين الصفوف . والمعنى : لسعوا بينكم بالإفساد بما يخلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والفائم الموجبة لفساد ذات البين . قوله (بيغونكم الفتنة) يقال بغيته كذا : طلبته له ، وأبغيته كذا : أعتته على طلبه . والمعنى : يطلبون لكم الفتنة في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد ، وقيل الفتنة هنا الشرك . وجملة - وفيكم سماعون لم - في محل نصب على الحال : أى والحال أن فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فيقتله إليكم فيأثر من ذلك الاختلاف بينكم ، والفساد لإخوانكم (والله عليم بالظالمين) وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم ، فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم . وكره انبعاثهم معكم : ولا بنائى حالم هذا

لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماتقدم من عتابه على الإذن لهم في التخلف ، لأنه سارع إلى الإذن لهم ، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل ، فعوتب صلى الله عليه وآله وسلم على تسرعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب . ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة - فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا - الآية ، وقال في سورة الفتح - سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم - إلى قوله - قل لن تتبعونا - . قوله (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) أى لقد طلبوا الإفساد والخيال وتفريق كلمة المؤمنين وتشيت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها . كما وقع من عبد الله بن أبي وغيره - ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون - . قوله (وقلوا لك الأمور) أى صرّفوها من أمر إلى أمر . ودبروا لك الحيل والمكائد ، ومنه قول العرب « حوّل قلب » إذا كان دائرا حول المكائد والحيل يدير الرأي فيها ويتدبره . وقرئ « وقلوا » بالتخفيف (حتى جاء الحق) أى إلى غاية هي مجيء الحق ، وهو النصر لك والتأييد (وظهر أمر الله) بإعزاز دينه وإعلاء شرعه وقهر أعدائه ، وقيل الحق القرآن (وهم كارهون) أى والحال أنهم كارهون لمجيء الحق وظهور أمر الله . ولكن كان ذلك على رغم منهم (ومنهم) أى من المنافقين (من يقول) لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ائذن لي) في التخلف عن الجهاد (ولا تفتني) أى لا توقعني في الفتنة : أى الإثم إذا لم تأذن لي فتخلفت بغير إذنك : وقيل معناه : لا توقعني في الهلكة بالخروج (ألا في الفتنة سقطوا) أى في نفس الفتنة سقطوا . وهي فتنة التخلف عن الجهاد ، والاعتذار الباطل . والمعنى : أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون في الفتنة . وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة . وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل ، وذلك أشد من مجرد الدخول في الفتنة . ثم توعدهم على ذلك فقال (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها ملخصا ، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال .

وقد أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن جرير عن عمرو بن ميمون قال : اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى ، فأنزل الله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله قال : سمعت بمعاوية أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة ، فقال (عفا الله عنك لم أذنت لهم) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (عفا الله عنك) الآية قال : ناس قالوا استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . وأخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) الثلاث الآيات ، قال : نسخها - فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم - . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه عنه في قوله (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله) الآية قال : هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد بغير عذر ، وعذر الله المؤمنين فقال - فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم - . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عنه أيضا في قوله (لا يستأذنك) الآيتين قال : نسخها الآية التي في سورة النور - إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - إلى - إن الله غفور رحيم - فجعل الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأعلى النظيرين في ذلك ، من غزا غزا في فضيلة ، ومن قعد قعد في غير حرج إن شاء الله . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله (ولكن كره الله انبعاثهم) قال : خروجهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فنهطهم) قال : حبسهم . وأخرج

ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) قال : هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (ولا أوضعوا خلالكم) قال : لأسرعوا بينكم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولا أوضعوا خلالكم) قال : لأرفضوا (ييغونكم الفتنة) يبطونكم عبد الله بن نبتل ، وعبد الله بن أبي ابن سلول ، ورفاعة بن ثابت ، وأوس بن قيطي (وفيكم سماعون لهم) محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين . وهم عيون للمنافقين . وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس قال : لما أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرج إلى غزوة تبوك قال بلحدي بن قيس : يا جدي بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء ، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتن ، فأذن لي ولا تفتني ، فأئزل الله (ومنهم من يقول ائذن لي) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج ابن مردويه عن عائشة نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا تفتني) قال : لا تخرجني (ألا في الفتنة سقطوا) يعني في الخروج . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ولا تفتني) قال : لا تؤثمني (ألا في الفتنة) قال : ألا في الإثم ، وقصة تبوك مذكورة في كتب الحديث والسيرة فلا تطول بذكرها .

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرُسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) .

قوله (إن تصيبك حسنة) أي حسنة كانت بأي سبب اتفق كما يفيد وقوعها في حيز الشرط ، وكذلك القول في المصيبة ، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيد السياق دخولا أوليا ، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة النعمة والظفر . ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة الحية والانزاع ، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضماير

المنافقين وسوء العالم . والإخبار بعظيم عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين ، فإن المسامة بالحسنة . والفرح بالمصيبة من أعظم ما يولد على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية ، ومعنى (تولوا) رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ومواطن التحدث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين ، ومعنى قولهم (قد أخذنا أمرنا من قبل) أى احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحزم . فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نألم ما نألم من المصيبة . ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيب عليهم بقوله (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى فى اللوح المحفوظ . أو فى كتابه المنزل علينا . وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدره الله كائن . وأن كل ما ناله من خير أو شر إنما هو بقدر الله وقضائه هانت عليه المصائب . ولم يجد مرارة شمانية الأعداء وتشقى الحسدة (هو مولانا) أى ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ومظهر دينه على جميع الأديان . والتوكل على الله تفويض الأمور إليه . والمعنى : أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصا بالله سبحانه لا يتوكلون على غيره . وقرأ طلحة بن مصرف (يصيبنا) بتشديد الياء . وقرأ أعين قاضى الرى « يصيبنا » ينون مشددة . وهو لحن لأن الخبر لا يؤكده . ورد بمثل قوله تعالى - هل يذهب كيد ما يعيق - . وقال الزجاج : معناه لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصرة عليكم أو الشهادة . وعلى هذا القول يكون قوله (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) تكريرا لغرض التأكيد . والأول أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مقيدا لفائدة غير فائدة الآخر . والتأسيس خير من التأكيد . ومعنى (هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحصلتين الحسنتين : إما النصرة أو الشهادة . وكلاهما مما يحسن لدينا . والحسنى تأنيث الأحسن . ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ (ونحن نربص بكم) إحدى المساءتين لكم : إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) أى قارعة نازلة من السماء فيسحقكم بعذابه . (أو) بعذاب لكم (بأيدينا) أى بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والتهب والسبي . والفاء فى فتر بصوا فصيحة . والأمر للتهديد كما فى قوله - ذق إنك أنت العزيز الكريم - أى تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا فنحن معكم نربصون ما هو عاقبتكم فستنظرون عند ذلك ما يسرنا ويسوءكم . وقرأ البزى وابن قليح « هل تربصون » بإظهار اللام وتشديد التاء . وقرأ الكوفيون بإدغام اللام فى التاء . وقرأ الباكون بإظهار اللام وتخفيف التاء . قوله (قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم) هذا الأمر معناه الشرط والجزاء . لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم . والتقدير : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم . وقيل هو أمر فى معنى الخبر : أى أنفقتم طوعا أو كرها لن يتقبل منكم . فهو كقوله - استغفر لهم أولا تستغفر لهم - وفيه الإشعار بتساوى الأمرين فى عدم القبول . وانتصاب طوعا أو كرها على الحال فهما مصدران فى موقع المشتقين : أى أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله أو مكرهين بأمر منهما . وسعى الأمر منهما إكراها لأنهم منافقون لا يأترون بالأمر . فكانوا بأمرهم الذى لا يأترون به كالمكرهين على الإنفاق . أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم . وجملة (إنكم كنتم قوما فاسقين) تعليل لعدم قبول إنفاقهم . والفسق : التمرّد والعنوّ . وقد سبق بيانه لغة وشرعا . ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال (وما معهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أى كفرهم بالله وبرسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور : الأول الكفر . الثانى أنهم لا يصلون فى حال من الأحوال إلا فى حال الكسل والتناقل . لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظاهرا بالإسلام الذى يبطنون خلافه . والثالث أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون . ولا ينفقونها طوعا لأنهم يعدّون إنفاقها وضعا لها فى مضیعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله . قوله (فلا تمجبت أموالهم ولا أولادهم) الإعجاب بالشئ : أن يسر به سرورا راض به

متعجب من حسنه ، قيل مع نوع من الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره مايساويه ، والمعنى : لاتستحسن ما معهم من الأموال والأولاد (إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) بما يحصل معهم من الغم والحزن عند أن يقنمها المسلمون وبأخذوها قسرا من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرّة أعينهم ، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك ، وترك مايجب عليهم من الزكاة فيها ، والتصدق بما يحق التصديق به وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فلاتعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون . قوله (وترهق أنفسهم وهم كافرون) الزهوق : الخروج بصعوبة ، والمعنى : أن الله يريد أن ترهق أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل ، وتصيبهم على الكفر وتماديهم في الضلالة ، ثم ذكر الله سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين فقال (ويخلفون بالله إثمهم لمنكم) أى من جعلتكم في دين الإسلام والانتقباد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكتاب الله سبحانه (وما هم منكم) في ذلك إلا بمجرد ظواهرهم دون بواطنهم (ولكنهم قوم يفرقون) أى يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركون من القتل والسبي ، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة (لو يجدون ملجأ) يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره (أو مغارات) جمع مغارة ، من غار يغير . قال الأنضس : ويموز أن يكون من أغار يغير ، والمغارات : الغيران والسراديب ، وهى المواضع التى يستتر فيها ، ومنه غار الماء وغارت العين ، والمعنى : لو وجدوا أمكنة يغيون فيها أشخاصهم هربا منكم (أو مدخلا) من الدخول : أى مكانا يدخلون فيه من الأمكنة التى ليست مغارات . قال النحاس : الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالا ، وقيل أصله مدخل . وقرأ أبى « متدخلا » وروى عنه أنه قرأ « متدخلا » بالنون . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وابن هيصن « أو مدخلا » بفتح الميم وإسكان الدال . قال الزجاج : ويقرأ « أو مدخلا » بضم الميم وإسكان الدال . وقرأ الباقر بتشديد الدال مع ضم الميم (لولوا إليه) أى لالتجئوا إليه وأدخلوا أنفسهم فيه (و الحال أنهم يمححون) أى يسرعون إسراعا لا يردم شيء ، من جمع الفرس : إذالم يردّه اللجام ، ومنه قول الشاعر :

سبوح جموح وإحضارها كعمعة السعف الموقد

والمعنى : لو وجدوا شيئا من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هربا من المسلمين .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبار السوء يقولون : إن محمدا وأصحابه قد جهلوا في سفرهم وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي وأصحابه ، فسأهم ذلك فأنزل الله (إن تصيبك حسنة تسوهم) الآية . وأخرج سنيد وابن جرير عن ابن عباس (إن تصيبك حسنة تسوهم) يقول : إن يصيبك في سفرك هذه الغزوة تبوك حسنة تسوهم قال : الجحد وأصحابه ، يعنى الجحد بن قيس . وأخرج أبو الشيخ عن السدى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) قال : إلا ما قضى الله لنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال (هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) قال : فتح أو شهادة . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (أو بأيدينا) قال : القتل بالسيوف وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال الجحد بن قيس إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتن ولكن أعينك بحالى ، قال : فقه نزلت (قل أنفقوا طوعا أو كرها) الآية . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (فلا تعجبك أموالهم) قال : هذه من تقديم الكلام ، يقول : لاتعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : إنما يريد الله ليعذبهم بها

في الآخرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (وتزهد أنفسهم وهم كفرون) قال : تزهد أنفسهم في الحياة الدنيا (وهم كفرون) قال : هذه آية فيها تقديم وتأخير . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله (فلا تعجبك) يقول : لا يغرك (وتزهد) قال : تخرج أنفسهم ، قال في الدنيا وهم كفرون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (لو يحملون مبلغاً) الآية قال : المبلغ الحرز في الجبال ، والمقارنات : الغيران ، والمدخل : السرب . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي (وهم يجمعون) قال : يسرعون .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

قوله (ومنهم من يلمزك) هذا ذكر نوع آخر قبائحهم ، يقال لمزه يلمزه : إذا عابه . قال الجوهري : اللمز العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يلمزه ويلمزه ، ورجل لماز : ولمزه : أي عيابه . قال الزجاج : لمزت الرجل ألمزه وألمزه : بكسر الميم وضمها : إذا عبته ، وكذا همزته . ومعنى الآية : ومن المنافقين من يعيبك في الصدقات : أي في تفريقها وقسمتها . وروى عن مجاهد أنه قال : معنى (يلمزك) يرزوك ويسألك ، والقول عند أهل اللغة هو الأول كما قال النحاس . وقرئ يلمزك بضم الميم ، ويلمزك بكسرها مع التشديد . وقرأ الجمهور بكسرها مخففة (فإن أعطوا منها) أي من الصدقات بقدر ما يريدون (رضوا) بما وقع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعيروه ، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا . وليسوا من الدين في شيء (وإن لم يعطوا منها) أي من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه (إذا هم يسخطون) أي وإن لم يعطوا فاجثوا السخط ، وفائدة إذا الفجائية أن الشرط مفاجيء للجزاء وهاجم عليه . وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أي ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصدقات ، وجواب لو محذوف : أي لكان خيراً لهم فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل (وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله) أي قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هو لهم : أي كفانا الله ، سيعطينا من فضله ويعطينا رسول الله بعد هذا ما نرجوه ونؤمله (إنا إلى الله راغبون) في أن يعطينا من فضله ما نرجوه . قوله (إنما الصدقات للفقراء) لما لمز المنافقون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قسمة الصدقات بين الله لهم مصرفها دفعاً لطعنهم وقطعاً لشغبهم . و (إنما) من صيغ القصر ، وتعريف الصدقات للجنس : أي جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها ، بل هي لهم لا لغيرهم .

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية ، أو يجوز صرفها إلى البعض

دون فلهض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة ؟ فذهب إلى الأول الشافعي وجماعة من أهل العلم ، وذهب إلى الثاني مالك وأبو حنيفة ، وبه قال عمر وخديفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران . قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم : احتج الأولون بما في الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال : أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فبايعته . فأتى رجل فقال : أعطني من الصدقة ، فقال له : إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف . فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك . وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف . لا لوجوب استيعاب الأصناف ، وبأن في إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف . وما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى - إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم - والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المستحقة . وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردأها في فقرائكم » . وقد ادعى مالك الإجماع على القول الآخر . قال ابن عبد البر : يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالف منهم . قوله (للفقراء) قدمهم لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقهم وحاجتهم .

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال : فقال يعقوب بن السكيت والقتبي ويونس ابن حبيب : إن الفقير أحسن حالا من المسكين ، قالوا : لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه . والمسكين الذي لا شيء له ، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة . وقال آخرون بالعكس . فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير ، واحتجوا بقوله تعالى - أما السفينة فكانت لمساكين - فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملة من المال ، ويؤيده تعوذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الفقر مع قوله « اللهم آحيني مسكينا وأمتني مسكينا » وإلى هذا ذهب الأصمعي وغيره من أهل اللغة . وحكاها الطحاوي عن الكوفيين . وهو أحد قول الشافعي وأكثر أصحابه . وقال قوم : إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قول الشافعي . وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، وبه قال أبو يوسف . وقال قوم : الفقير المحتاج المتعفف . والمسكين السائل . قاله الأزهري ، واختاره ابن شعبان . وهو مروي عن ابن عباس . وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتد بها . والأولى في بيان ماهية المسكين ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمران ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه . ولا يسأل الناس شيئا » . قوله (والعاملين عليها) أي السعاة والجبالة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة فإنهم يستحقون منها قسطا .

وقد اختلف في القدر الذي يأخذونه منها ، فقيل الثمن ، روي ذلك عن مجاهد والشافعي . وقيل على قدر أعمالهم من الأجرة ، روي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه . وقيل يعطون من بيت المال قدر أجرتهم . روي ذلك عن مالك ، ولا وجه لهذا ، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيبا من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها ؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشميا أم لا ؟ فمنه قوم . وأجازه آخرون . قالوا : ويعطى من غير الصدقة . قوله (والمؤلفة قلوبهم) هم قوم كانوا في صدر الإسلام . فقيل : هم الكفار الذين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتألفهم ليسلموا ، وكانوا لا يدخلون في الإسلام بالقهر والسيف . بل بالعطاء . وقيل : هم قوم أسلموا في الظاهر

ولم يحسن إسلامهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتألفهم بالعطاء ؛ وقيل هم من أسلم من اليهود والنصارى ؛ وقيل : هم قوم من عظماء المشركين لم أتباع أعطاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليتألفوا أتباعهم على الإسلام . وقد أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة ممن أسلم ظاهرا كأبي سفيان بن حرب والحريث بن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك ، وأعطى آخرين دونهم .

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا ؟ فقال عمر والحسن والشعبي : قد انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي ؛ وقد ادعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك . وقال جماعة من العلماء : سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام . وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين قال يونس : سألت الزهري عنهم فقال : لا أعلم نسخ ذلك وعلى القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف . قوله (وفي الرقاب) أى فى فك الرقاب بأن يشتري رقابا ثم يعتقها . روى ذلك عن ابن عباس وابن عمر ؛ وبه قال مالك وأحمد بن حنبل وإسحاق وأبو عبيد . وقال الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد : إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة ، وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي ورواية عن مالك ، والأولى حمل ما فى الآية على القولين جميعا لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه ، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة . قوله (والغارمين) هم الذين ركبهم الذنوب ولا وفاء عندهم بها ، ولا خلاف فى ذلك إلا من لزمه دين فى سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب . وقد أعان النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها . قوله (وفى سبيل الله) هم الغزاة والمرابطون يعطون من الصدقة ما ينفقون فى غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء . وهذا قول أكثر العلماء . وقال ابن عمر : هم الحجاج والعمار . وروى عن أحمد وإسحاق أنهما جعلوا الحج من سبيل الله . وقال أبو حنيفة وصاحباؤه : لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيرا منقطعا به . قوله (وابن السبيل) هو المسافر . والسبيل الطريق ، ونسب إليها المسافر لئلا يمتد إليها ، والمراد الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره فإنه يعطى منها وإن كان غنيا فى بلده . وإن وجد من يسلفه . وقال مالك : إذا وجد من يسلفه فلا يعطى . قوله (فريضة من الله) مصدر مؤكّد ، لأن قوله - إنما الصدقات للفقراء - معناه : فرض الله الصدقات لهم . والمعنى : أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته (والله عليم) بأحوال عباده (حكيم) فى أفعاله ؛ وقيل إن « فريضة » منتصبة بفعل مقدّر : أى فرض الله ذلك فريضة . قال فى الكشف : فإن قلت لم عدل عن اللام إلى « فى » فى الأربعة الآخرة ؟ قلت : للإيذان بأنها أرسخ فى استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره ؛ وقيل التكتة فى العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى ينصرفوا به كما شاءوا ، وفى الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم . بل يصرف إلى جهات الحاجات المعبرة فى الصفات التى لأجلها استحقوا سهم الزكاة ، كذا قيل .

وقد أخرج البخارى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم قسما إذا جاءه ابن ذى الحويصرة النبى فقال : أعلل يا رسول الله ، فقال : ويحك ، ومن يعدل إذا لم أعلل ؟ فقال عمر بن الخطاب : انذنى لي فأضرب عنقه فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يَمْشُونَ مِنْ

الذين كما يبرق السهم من الرمية ، والحديث حتى قال : وفيهم نزلت (ومنهم من يلزمك في الصدقات) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ومنهم من يلزمك) قال : يرزؤك يسألك . وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : يطعن عليك . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : لما قسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه لقسمة ما أريد بها الله ، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكرت ذلك له ، فقال : رحمة الله على موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر ، ونزل (ومنهم من يلزمك في الصدقات) ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخت هذه الآية كل صدقة في القرآن (إنما الصدقات للفقراء) الآية . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن حذيفة في قوله (إنما الصدقات للفقراء) الآية قال : إن شئت جعلتها في صنف واحد من الأصناف الثمانية التي سمي الله أو صنفين أو ثلاثة . وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي العالية والحسن وعطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن المنذر والنحاس عن ابن عباس قال : الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين الطوائفون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ عن قتادة قال : الفقير الذي به زمانة ، والمساكين المحتاج الذي ليس به زمانة ، وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر في قوله (إنما الصدقات للفقراء) قال : هم زمني أهل الكتاب . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (والعاملين عليها) قال : السعاة أصحاب الصدقة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (والمؤلفة قلوبهم) قال : هم قوم كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أسلموا ، وكان يرضخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيرا قالوا : هذان دين صالح ، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه . وأخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : بعث علي بن أبي طالب من اليمن إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذهبية فيها تربتها ، فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري ، وعيينة بن بدر الفزاري ، وزيد الخيل الطائي ، فقالت قريش والأنصار : يقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنما أنا لفهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الزهري أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال : من أسلم من يهودي أو نصراني ، قلت : وإن كان موسرا ؟ قال : وإن كان موسرا . وأخرج هؤلاء عن أبي جعفر قال : ليس اليوم مؤلفة قلوبهم . وأخرج هؤلاء أيضا عن الشعبي مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله (وفي الرقاب) قال : هم المكاتبون . وأخرج ابن المنذر عن النخعي نحوه . وأخرج أيضا عن عمر بن عبد الله قال : سهم الرقاب نصفان : نصف لكل مكاتب ممن يدعى الإسلام ، والنصف الآخر يشتري به رقاب ممن صلى وصام وقدم إسلامه من ذكر وأنثى يعتقدون الله . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان لا يرى بأسا أن يعطى الرجل من زكاته في الحج وأن يعتق منها رقبة . وأخرج ابن أبي شيبة عن الزهري أنه سئل عن الغارمين قال : أصحاب الدين . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر في قوله (والغارمين) قال : هو الذي يسأل في دم أو جائحة تصيبه (وفي سبيل الله) قال : هم المجاهدون (وابن السبيل) قال : المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل هو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تحل الصدقة لغنى إلا الخمسة : العامل عليها ، أو للرجل اشتراها بماله ، أو غارم . أو غاز في سبيل الله . أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها لغنى وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر عز

النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا تحمل الصدقة لغنى ولا لدى مرة سوى . وأخرج أحمد عن رجل من بني هلال قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عدي بن الحيار قال : أخبرني رجلان أنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها . فرفع فبنا البصر وخفضه فرآنا جليدين . فقال : إن شئنا أعطيتكما ولا حظ فيهما لغنى ولا لقوى مكتسب .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (١٢) أَلَمْ
يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (١٣)
يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنْ أَلَّفَ
مُخْرَجٌ مَا تَحْذَرُونَ (١٤) وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (١٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ
مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (١٦)

قوله (ومنهم) هذا نوع آخر بما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم . وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على وجه الطعن والذم هو أذن . قال الجوهري : يقال رجل أذن : إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوى فيه الواحد والجمع ومرادهم . أقامهم الله . أنهم إذا آذوا النبي وبسطوا فيه ألسنتهم . وبلغه ذلك اعتدوا له وقبل ذلك منهم ، لأنه يسمع كل ما يقال له فيصدقه ، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدقه أنه أذن مبالغة ، لأنهم سمعوا بالخارجة التي هي آلة السماع ، حتى كأن جملته أذن سامعة . ونظيره قولهم للريثة عين ، وإبداؤهم له هو قولهم (هو أذن) لأنهم نسبوه إلى أنه يصدق كل ما يقال له ولا يفرق بين الصحيح والباطل اغترارا منهم بحلمه عنهم وصفحته عن جثاياتهم كرما وحلما وتغاضيا ، ثم أجاب الله عن قولهم هذا ، فقال (قل أذن خير لكم) بالإضافة على قراءة الجمهور . وقرأ الحسن بالتثنية ، وكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه . كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الأذن هو لكونه أذن خير لكم وليس بأذن في غير ذلك ، كقولهم رجل صدق ، يريدون الجودة والصلاح . والمعنى أنه يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ « أذن » بسكون الذال وصمها . ثم فسر كونه أذن خير بقوله (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أي يصدق بالله ويصدق للمؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان ، فتكون اللام في (للمؤمنين) للتقوية ، كما قال الكوفيون ، أو متعلقة بمصدر محذوف ، كما قال المبرد . وقرأ الجمهور ورحمة ، بالرفع عطفا على أذن . وقرأ حمزة بالخفض عطفا على خير . والمعنى على القراءة

الأولى . هو أنه أذن خير وأنه هو رحمة للمؤمنين ، وعلى القراءة الثانية : أنه أذن خير وأذن رحمة . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد . يعنى قراءة الجرح لأنه قد تباعد بين الاسمين . وهذا يفتح في المحفوظ . والمعنى : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن خير للمنافقين (ورحمة) لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم . فكأنه قال : هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء . فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسرته بما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا أقصدوا به المذمة والتقصير بفطنته : ومعنى (للذين آمنوا منكم) أى الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة (والذين يؤذون رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم بما تقدم من قولهم : هو أذن . ونحو ذلك بما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لهم عذاب أليم) أى شديد الألم . وقرأ ابن أبي عمير « ورحمة للمؤمنين » بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف : أى ورحمة لكم بأذن لكم ، ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الإيمان الكاذبة ، فقال (يخلفون بالله لكم ليرضوكم) والخطاب للمؤمنين . وذلك لأن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين وعلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهقه الإيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين فبنى الله ذلك عليهم . وقال (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالإيمان الكاذبة ، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم . وإفراد الضمير في يرضوه إما للتعظيم للجناب الإلهي بإفراده بالذكر أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله . فأرضاء الله إرضاء لرسوله : أو المراد : الله أحق بأن يرضوه ورسوله كذلك كما قال سيبويه . ووجه النحاس : أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد : أو الضمير راجع إلى المذكور : وهو يصدق عليهما . وقال القراء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه . والله افتتاح كلام كما تقول ما شاء الله وشئت . وهذه الجملة أعني (والله ورسوله أحق أن يرضوه) في محل نصب على الحال . وجواب (إن كانوا مؤمنين) محذوف : أى إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله . قوله (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم) . قرأ الحسن وابن هرمز ألم تعلموا بالفوقية . وقرأ الباقر بالتحتية : والمحادة وقوع هذا في حد . وذلك في حد كالمشاقفة : يقال حاد فلان فلانا : أى صار في حد غير حده (فإن له نار جهنم) قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف : أى فحق أن له نار جهنم . وقال الخليل وسيبويه : إن « أن » الثانية مبدلة من الأولى . وورغم المبرد أن هذا القول مردود ، وأن الصحيح ما قال الجرمي أن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام . وقال الأخفش : المعنى فوجب النار له ، وأنكره المبرد وقال : هذا خطأ من أجل أن « أن » المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر . وقرئ بكسر الهمزة . قال سيبويه ، وهى قراءة جيدة . وأنشد :

وإني إذا ملت ركابي سآخها فلاني على حظي من الأمر جامع

وانتصاب خالدا على الحال . والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما ذكر من العتاب . وهو مبتدأ وخبره (الجرمي العظيم) أى الجرمي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره ، وهو الذل والهوان . قوله (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة) قيل هو خبر وليس بأمر . وقال الزجاج : معناه ليحذر . فالمعنى على القول الأول : أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم ، وعلى الثاني : الأمر لهم بأن يحذروا ذلك ، وأن تنزل في موضع نصب : أى من أن تنزل . ويجوز على قول سيبويه أن يكون في موضع خفض على تقدير من وإعمالها . ويجوز أن يكون النصب على المنعولة وقد أجاز سيبويه حذرت زيدا ، وأنشد :

حذر أمورا لاتصير وآمن . ما ليس ينحيه من الأقدار

ومنع من انتصب على المفعولية المبرد . ومعنى (عليهم) أى جلى المؤمنين فى شأن المنافقين ، على أن الضمير للمؤمنين ، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين : أى فى شأنهم (تنبيه) أى المنافقين (بما فى قلوبهم) مما يسرونه فضلا عما يظهرونه ، وهم وإن كانوا عالمين بما فى قلوبهم فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما فى قلوبهم ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم ، فقال (قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون) هو أمر تهديد : أى افعلوا الاستهزاء إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون ، إما بإنزال سورة ، أو بإخبار رسوله بذلك أو نحوه ذلك . قوله (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) أى ولئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين وثلث المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ويطلعك الله عليه ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، ولم نكن فى شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين . ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون) والاستهزاء للتقريع والتوبيخ ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعأ بإنكارهم ، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكار ، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به ، والباء لحرف النفي ، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ، ثم قال (لا تعتذروا) نهيهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة ، فإن ذلك غير مقبول منهم . وقد نقل الواحدى عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب وقطعه ، من قولهم اعتذر المنزل إذا درس ، واعتذرت المياه إذا انقطعت (فقد كفرتم) أى أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور (بعد إيمانكم) أى بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر (إن نعت عن طائفة منكم) وهم من أخلص الإيمان وترك النفاق وتاب عنه . قال الزجاج : الطائفة فى اللغة الجماعة . قال ابن الأنبارى : ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب (نعتب طائفة) سبب (أنهم كانوا مجرمين) مصرين على النفاق لم يتوبوا منه ، قرئ (١) نعتب بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجلس إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم : إنما محمد أذن ، من حديثه بشيء صدقه ، فأنزل الله فيه (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم خلاص بن سويد بن صامت وعنشى بن حمير ووديع بن ثابت ، فأرادوا أن يقيموا فى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فنهى بعضهم بعضا وقالوا : إنما نخاف أن يبلغ محمد أفيع بكم ، فقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا ، فنزل (ومنهم الذين يؤذون النبى) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (هو أذن) يعنى أنه يسمع من كل أحد . قال الله تعالى (أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) يعنى يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وأخرج الطبرانى وابن عساكر وابن مردويه عن عمير بن سعد قال : فى أنزلت هذه الآية (ويقولون هو أذن) وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة ، فيأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد وكرهوا مجالسته . وقال (هو أذن) فأنزلت فيه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقا لم شر من الحمير ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شر من الحمير ، فسمى بها الرجل إلى نبى الله صلى الله عليه وآله

(١) صوابه قرنا بالنون على البناء للفاعل ، وبالباء التعتبة والتاء الفوقية على البناء للمفعول اهـ صحيح القرآن .

وآله وسلم فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : ما حملك على الذي قلت ؟ فجعل يلتمن ويخلف بالله ما قال
 ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله في ذلك (يخلفون بالله لكم
 ليضلوكم) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله ، وصحى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار . وأخرج
 أبو الشيخ عن الضحاك (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) يقول : يعادى الله ورسوله . وأخرج ابن أبي شيبة
 وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (يحذر المنافقون) الآية قال : يقولون القول فيما بينهم .
 ثم يقولون عسى الله أن لا يفتني علينا هذا . وأخرج أبو نعيم في الحلية عن شريح بن عبيد أن رجلا قال لأبي الدرداء :
 يا معشر القراء ما بالكُم أجبن منا وأجمل إذا سئلتم وأعظم لقما إذا أكلتم ؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه بشيء .
 فأخبر بذلك عمر بن الخطاب ، فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك ، فقال بثوبه وخنقه وقاده إلى النبي صلى
 الله عليه وآله وسلم ، فقال الرجل : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم (ولئن
 سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله
 ابن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ، لا أرغب بطونا ولا أكذب
 ألسنة ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل في المجلس : كذبت ولكنك منافق . لأتخبرن رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزل القرآن . قال عبد الله : فأتانا رأيت متعلقا بحقب ناقة
 رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأحجار تنكبه وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . والنبي صلى
 الله عليه وآله وسلم يقول (أبا الله وآبائه ورسوله كنتم تستهزئون) . وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي في
 التصانيف وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب في رواية مالك عن ابن عمر : رأيت عبد الله بن أبي وهب يشتد
 قد أم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأحجار تنكبه وهو يقول : يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبي صلى
 الله عليه وآله وسلم يقول (أبا الله وآبائه ورسوله كنتم تستهزئون) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ
 عن قتادة في الآية قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين ،
 فقالوا : أخرجوا هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيئات هيئات ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال
 نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم : اخبروا على هؤلاء الركب . فأتاهم فقال : قلتم كذا ، قالوا : يابى الله إنما
 كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون . وقد روى نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن
 أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن نغف عن طائفة) قال : الطائفة الرجل والنفر .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
 وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
 وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 مُقِيمٌ (١٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ
 فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٦) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٧).

قوله (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) ذكر هاتين جملتين أحوال المنافقين ، ولأن ذكرهم في ذلك كإتائهم ، وأنهم متناهون في النفاق والبعد عن الإيمان . وفيه إشارة إلى أن يكونوا من المؤمنين ، ورد لقولهم - ويخلفون بالله إنهم لمنكم - . ثم فصل ذلك الجمل ببيان مضادة حالهم لحال المنافقين فقال : (يأمرون بالمنكر) وهو كل قبيح عقلا أو شرعا (وينهون عن المعروف) وهو كل حسن عقلا أو شرعا قال الزجاج : هذا متصل بقوله - ويخلفون بالله إنهم لمنكم - أي ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض : أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف (ويقبضون أيديهم) أي يشحون فيما ينبغي إيجاره من المال في الصدقة والصلة والجهاد فالقبض كناية عن الشح ، كما أن البسط كناية عن الكرم . والنسيان الترك : أي تركوا ما أمرهم به ، فتركهم من رحمة وقضله . لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه . وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان ، ثم حكم عليهم بالفسق : أي الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه ، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق . ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه (نار جهنم) و (خالدين فيها) - قال مقدرة : أي مقدرين الخلود ، وفي هذه الآية دليل على أن وعد يقال في الشر كما يقال في الخير (هي حسبي) أي كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها ، (و) مع ذلك فقد (لعنهم الله) أي طردهم وأبعدهم من رحمته (ولم عذاب مقيم) أي نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم . قوله (كالذين من قبلكم) شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب ، والكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف : أي أنتم مثل الذين من قبلكم ، أو محلها نصب : أي فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأثم . وقال الزجاج : التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعدا كما وعد الذين من قبلكم : وقيل المعنى : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فحذف المضاف . ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم ، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (قوة) وأكثر أموالا وأولادا فاستمعوا) أي تمتعوا (بخلافهم) أي نصيبهم الذي قدره الله لهم من ملاذ الدنيا (فاستمتعتم) أنتم (بخلافكم) أي نصيبكم الذي قدره الله لكم (كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم) أي انضعتم به كما انتضعوا به . والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله . وقد قيل ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ، ثم في حق المنافقين ثانيا . ثم تكريره في حق الأولين ثالثا ؟ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا . وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ . فلما قرّر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية في المبالغة . قوله (وخضتم كالذي خاضوا) معطوف على ما قبله : أي كالقوج الذي خاضوا . أو كالخوض الذي خاضوا . وقيل أصله كالذين فحذفت النون . والأولى أن يقال إن الذي اسم موصول مثل من

وما ، يعبر به عن الواحد والجمع ، يقال : خفضت الماء أخوصه غوصا وخياضا ، والموضع مخاضة ، وهو ما جاز
لشأن فيه مشاة وركبانا ، وجمعها الخاض والخاض ، ويقال منه خاض القوم في الحديث وتجاوزوا فيه أى تفاوضوا فيه
واشتموا ، وخضم في أسباب الدنيا والله واللعب ، وقيل في أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكذب : أى دخلتم في
ذلك ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين ، والمشبه بهم (حبطت أعمالهم) أى
بطلت ، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو في صورة طاعة ، لاهذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصي : ومعنى
(في الدنيا والآخرة) أنها باطلة على كل حال : أما بطلانها في الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل
يصير ما يرجونه من القنى فقرا ، ومن العز ذلا ، ومن القوة ضعفا ، وأما في الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب
النار ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة (وأولئك هم الخاسرون) أى المتمكنون في
الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة (ألم بأنهم) أى المنافقين (نبأ الذين من قبلهم) أى خبرهم الذي له شأن ،
وهو ما فعلوه وما فعل بهم ، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال في المشبه بهم ذكر منهم ههنا ست طوائف
قد سمع العرب أخبارهم ، لأن بلادهم وهى الشام قريبة من بلاد العرب ، فالاستفهام للتقرير ، وأولهم قوم نوح
وقد أهلكوا بالإغراق ، وثانيهم قوم عاد وقد أهلكوا بالريح العقيم ، وثالثهم قوم ثمود وقد أخذوا بالصيحة ،
ورابعهم قوم إبراهيم وقد سلط الله عليهم البعوض ، وخامسهم أصحاب مدين وهم قوم شعيب وقد أخذتهم الرجفة ،
وسادسهم أصحاب الموفكات وهى قرى قوم لوط وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة ، وسميت موفكات
لأنها انقلبت بهم حتى صار عليها سافلها ، والانتفاك الانقلاب (أنهم رسلهم بالبينات) أى رسل هذه الطوائف
الست ، وقيل رسل أصحاب الموفكات لأن رسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولا ، والفاء فى (فما
كان الله ليظلمهم) للعطف على مقدّر يدل عليه الكلام : أى فكذبوهم فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ، لأنه قد بعث
إليهم رسلا فأنزلوهم وحذروهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بسبب ما فعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد
لأنبيائه ، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمرا .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (يأمرؤن بالمنكر) قال : هو التكذيب ، قال : وهو أنكر
المنكر (وينهون عن المعروف) شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما أنزل الله ، وهو أعظم المعروف ، وأخرج ابن
أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ويقبضون أيديهم) قال : لا يسطونها بنفقة فى
فى حق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (نسوا الله فسيهم) قال : تركوا الله فتركهم من
كرامته وثوابه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (كالذين من قبلكم) قال : صنع الكفار كالكفار .
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة (كالذين من
قبلكم كانوا أشد منكم قوة) إلى قوله (وخضم كالذى خاضوا) هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذي نفسى بيده
لتبغهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخضموه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله (بخلاقهم)
قال : بدينهم . وأخرج أيضا عن أبى هريرة قال الخلاق : الدين . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله
(فاستمتعوا بخلاقهم) قال : بنصبيهم فى الدنيا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى قوله (وخضم
كالذى خاضوا) قال : لعبهم كالذى لعبوا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة
فى قوله (والموفكات) قال : قوم لوط المصكت بهم أرضهم ، فجعل عليها سافلها .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

قوله (بعضهم أولياء بعض) أى قلوبهم متحدة فى التوادد والتحابب والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر
الدين وضمهم من الإيمان بالله . ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال (يأْمُرُونَ
بِالمَعْرُوفِ) أى بما هو معروف فى الشرع غير منكر . ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره (وينهون عن
المنكر) أى عما هو منكر فى الدين غير معروف . وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات
لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال ، وقد تقدم معنى هذا (ويطيعون الله) فى صنع ما أمرهم
بفعله أو نهاهم عن تركه . والإشارة بـ (أولئك) إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف . والسين فى
(سيرحمهم الله) للمبالغة فى إنجاز الوعد (إن الله عزيز) لا يغالب (حكيم) فى أقواله وأفعاله . ثم ذكر تفصيل
ما يدخل تحت الرحمة إجمالاً باعتبار الرحمة فى الدار الآخرة فقال (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها
الأنهار) والإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير ، ومعنى جرى الأنهار من تحت الجنات أنها تجري تحت أشجارها
وغرفها ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة (ومسكن طيبة) أى منازل يسكنون فيها من الدر والياقوت . و (جنات
عدن) يقال عدن بالمكان : إذا أقام به . ومنه المعدن : قيل هى أعلى الجنة ، وقيل أوسطها ، وقيل قصو من
ذهب لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهيد . وصف الجنة بأوصاف : الأول جرى الأنهار من تحتها ، والثانى أنهم
فيها خالدون ، والثالث طيب مساكنها ، والرابع أنها دار عدن : أى إقامة غير منقطعة ، هذا على ما هو معنى عدن
لغة ، وقيل هو علم ، والتذكير فى رضوان للتحقير : أى (ورضوان) حقير بستر (من) رضوان (الله أكبر)
من ذلك كله الذى أعطاهم الله إياه ، وفيه دليل على أنه لا شئ من النعم وإن جلت وعظمت بمائل رضوان الله
سبحانه ، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شئ من اللذات الجسمانية وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية ،
اللهم ارض عنا رضا لا يشوبه مخط ولا يكدره نكد ، يامن بيده الخير كله دقه وجله . والإشارة بقوله (ذلك)
إلى ما تقدم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات (هو الفوز العظيم) دون كل فوز مما بعدة الناس فوزاً .

وقد أخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) قال : يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله
والنفاق فى سبيل الله وما كان من طاعة الله (وينهون عن المنكر) عن الشرك والكفر قال : الأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (بعضهم أولياء
بعض) قال : إخوانهم فى الله يتحابون بحلال الله والولاية لله . وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن
قال : سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى (ومسكن طيبة فى جنات عدن) قال : على الخير

سقطت ، سألتنا عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : قصر من لؤلؤة في الجنة ، في ذلك القصر سبعون دلوًا من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتًا من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريرًا . على كل سرير سبعون فراشًا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الخمر العنبر ، في كل بيت سبعون مائدة . في كل مائدة سبعون لونًا من كل طعام ، في كل بيت سبعون وصيفًا ووصيفة فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (جنات عدن) قال : معدن الرجل الذي يكون فيه . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : معدنهم فيها أبدًا . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة في قوله (ورضوان من الله أكبر) يعني : إذا أخبروا أن الله عنهم راضٍ ، فهو أكبر عندهم من التحف والتسليم . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أحلّ عليكم رضواني . فلا أضبط عليكم بعده أبدًا .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧١) .

الأمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الجهاد أمر لأمة من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى تسلموا ، وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله . وقال الحسن : إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، واختاره قتادة . قيل في توجيهه إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود . قال ابن العربي : إن هذه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائمًا لا بما تلبس به الجوارح ظاهرا ، وأخبار المحدثين تشهد بسياقها أنهم لم يكونوا منافقين . قوله (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) الغلط : تقيض الرأفة ، وهو شدة القلب وعشونة الجانب ، قيل وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح ، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة ، فقال (يحلفون بالله ما قالوا) .

وقد اختلف أئمة التفسير في سبب نزول هذه الآية ، فقيل نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت ووديعه بن ثابت ، وذلك أنه لما كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين وذمهم ، فقالا : لئن كان محمد صادقًا على إنعواننا للذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس : أجل والله إن محمدًا لصادق صادق ، وإنك لشر من الحمير ، وأخبر عامر بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاء الجلاس فحلف بالله إن عامرًا لكاذب ، وحلف عامر لقد قال . وقال : اللهم أنزل على نبيك شيئًا فنزلت . وقيل إن الذي سمع ذلك

عاصم بن عدى ، وقيل حذيفة ، وقيل بل سمعه ولد امرأته : أى امرأة الجلاس ، واسمه عمير بن سعد . فهم الجلاس بقتله لثلاثين بخبر بخبره . وقيل إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبى رأس المنافقين لما قال : ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » ، و - لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل - فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فجاء عبد الله بن أبى فحلف أنه لم يقله . وقيل إنه قول جميع المنافقين وأن الآية نزلت فيهم . وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هى باعتبار موافقة من لم يقل ولم يخلف من المنافقين لمن قد قال وحلف . ثم رد الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذبا ، فقال (ولقد قالوا كلمة الكفر) وهى ما تقدم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة (وكفروا بعد إسلامهم) أى كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام وإن كانوا كفارا فى الباطن . والمعنى : أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم . قوله (وهموا بما لم ينالوا) قيل هو منهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة فى غزوة تبوك ، وقيل هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبى ، وقيل هو هم الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قوله (وما تقوموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء . وهو إغناء الله لهم من فضله ، والاستثناء مفرغ من أعم العام . وهو من باب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيفهم بين قول من قراع الكتاب

ومن باب قول الشاعر :

ما تقوموا من بنى أمية إلا أنهم يعلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم . وقد كان هؤلاء المنافقون فى ضيق من العيش ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة اتسعت معيشتهم وكثرت أموالهم . قوله (فإن يتوبوا بك خيرا لهم) أى فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذى فعلوه من التوبة خيرا لهم فى الدين والدنيا . وقد تاب الجلاس بن سويد وحسن إسلامه . وفى ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر .

وقد اختلف العلماء فى قبولها من الزنديق ، فتع من قبولها مالك وأتباعه ، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو فى كل حين يظهر التوبة والإسلام (وإن يتولوا) أى يعرضوا عن التوبة والإيمان (يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا) بالقتل والأسر ونهب الأموال (و) فى (الآخرة) يعذاب النار (وما لهم فى الأرض من ولى) يوالىهم (ولا نصير) ينصرهم وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير ، فسمعها عمير بن سعد ، فقال والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندى أثرا وأعزهم على أن يدخل عليه شئ يكرهه . ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحك ، ولئن سكنت عنها لتهلكنى ، وإلحداهما أشد على من الأخرى ، فغشى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر له ما قال الجلاس ، فحلف بالله ما قال ولكن كذب على عمير ، فأنزل الله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك قال : سمع زيدا بن أرقم رجلا من المنافقين يقول والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب : إن كل هذا صادقا لنحن شر من الحمير ، قال زيد : هو والله صادق وأنت شر من الحمير ، فرفع ذلك إلى النبي صلى الله

عليه وآله وسلم فمحمد القاتل ، فأنزل الله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية . وأخرج ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا في ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق . فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم ، وأنزل الله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا ، أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الغفاري على الجهني ، فقال عبد الله بن أبي لأوس : انصروا أخاكم ، والله بما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القاتل ه سمن كلبك يأكلك ، والله - لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل - فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله (يحلفون بالله) الآية . وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية ، وفيما ذكرناه كفاية . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وهموا بما لم ينالوا) قال : هم رجل يقال له الأسود بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (وهموا بما لم ينالوا) قال : أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي بن جراح . وأخرج ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : قتل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل دبه اثني عشر أثرا ، وذلك قوله (وما تقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) قال : يأخذهم الدية .

وَمِنْهُمْ مَنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ (٧٥)
فَلَمَّا آتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ
اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ (٧٧) اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ
يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلَّامُ الْغُيُوْبِ (٧٨) الَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوْعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ
فِي الصَّدَقٰتِ وَالَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ اِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ اَلِيْمٌ (٧٩)

اللام الأولى . وهي (لئن آتانا) الله (من فضله) لام القسم ، واللام الثانية ، وهي (لنصدقن) لام الجواب للقسم والشرط . ومعنى (لنصدقن) لنخرج الصدقة ، وهي أعم من المفروضة وغيرها (ولنكونن من الصالحين) أي من جماعة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدين التاركين لمحرمانه (فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون) أي لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به : أي بما آتاهم من فضله فلم يتصدقوا بشيء منه كما حلفوا به (وتولوا) أي أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله ، (و) الحال أنهم معرضون (في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده . قوله (فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى

يوم يلقونه) الفاعل هو الله سبحانه : أى فأعقبهم الله بسبب البخل الذى وقع منهم والإعراض نفاقا كائنا فى قلوبهم ، متمكنا منها : مستمرا فيها (إلى يوم يلقون) الله عز وجل . . . وقيل إن الضمير يرجع إلى البخل ، أى فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقا كائنا فى قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم : أى جزاء بخلهم . ومعنى (فأعقبهم) أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن فى قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل . والباء فى (بما أخلفوا الله ما وعدوه) للسببية : أى بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصديق والصلاح . وكذلك الباء فى (وبما كانوا يكذبون) أى وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم أنكر عليهم فقال (ألم يعلموا) أى المنافقون . وقرئ بالفوقية خطابا للمؤمنين (أن الله يعلم سرهم ونجواهم) أى جميع ما يسرونه من النفاق وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أصحابه . وعلى دين الإسلام (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شئ من الأشياء الخفية كائنا ما كان . ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين . قوله (الذين يلمزون المطوعين) الموصول محله نصب . أو الرفع على الذم . أو الجزاء بدلا من الضمير فى سرهم ونجواهم ومعنى (يلمزون) يعيرون . وقد تقدم تحقيقه . والمطوعين : أى المتطوعين . والتطوع : التبرع . والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيرون المسلمين إذا تطوعوا بشئ من أموالهم وأخرجوه للصدقة فكأنوا يقولون : ما أغنى الله عن هذا . ويقولون : ما فعلوا هذا إلا رياء . ولم يكن لله خالصا . و (فى الصدقات) متعلق بيلمزون : أى يعيرونهم فى شأنها . قوله (والذين لا يجدون إلا جهدهم) معطوف على المطوعين : أى يلمزون المتطوعين . ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم : وقيل معطوف على المؤمنين : أى يلمزون المتطوعين من المؤمنين . ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم ، وقرئ « جهدهم » بفتح الجيم . والجهد بالضم الطاقة . وبالفتح المشقة . وقيل هما لغتان ومعناها واحد وقد تقدم بيان ذلك . والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيرون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدقون بما فضل عن كفايتهم . قوله (فيسخرون منهم) معطوف على يلمزون : أى يستهزئون بهم لحقارة ما يخرجونه فى الصدقة مع كون ذلك جهدا مقل و غاية ما يقدر عليه ويتمكن منه . قوله (يسخر الله منهم) أى جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم . والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما فى غيره . وقيل هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين (ولهم عذاب أليم) أى ثابت مستمر شديد الألم . وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والعسكرى فى الأمثال والطبرانى وابن منبده والبارودى وأبو نعيم وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : ويلك يا ثعلبة قليل تؤدنى شكره خير من كثير لا تطيقه . قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : ويحك يا ثعلبة : أما تحب أن تكون مثلى : فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معى ذهباً لسارت . فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا . فوالذى بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : يا رسول الله ادع الله تعالى . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم ارزقه مالا : قال : فاتخذ غنما فنمت كما تنمو اللهود حتى ضاقت بها المدينة . فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يشهد بها بالليل . . . ثم نمت كما تنمو اللهود فتنحى بها . فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ثم نمت . كما تنمو اللهود فضاقت بها مكانه ، فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يتلقى الركبان ويسألم عن الأخبار ،

وقد روى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأل عنه . فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب : ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات ، وأنزل - خذ من أموالهم صدقة - الآية ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلين ، رجلا من جهينة ورجلا من بني سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها وجوهها ، وأمرهما أن يمرآ على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بني سليم ، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة ، فقال : أرياني كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية انطلقا حتى تفرغا ثم مرآ إلى ، فانطلقا ، وسمع بهما السلمي فاستقبلهما بخيار إبله ، فقالا : إنما عليك دون هذا ، فقال ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالي ، فقبلا . فلما فرغا مرآ بثعلبة . فقال : أرياني كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي . فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رأهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قبل أن يكلمهما : ويح ثعلبة بن حاطب ، ودعا للسلمي بالبركة . وأنزل الله (ومنهم من عاهد الله) الثلاث الآيات ، قال : فسمع بعض أقارب ثعلبة ، فأتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا ، قال : فقدم ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله قد منعني أن أقبل منك ، فجعل يبكي ويمشي التراب على رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني ، فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر : أقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلي من الأنصار ، فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقبلها ؟ فلم يقبلها أبو بكر ، ثم ولي عمر بن الخطاب فأتاه فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين أقبل مني صدقتي ، قال : ويشقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال عمر : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟ فأبى أن يقبلها ، ثم ولي عثمان فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، فهلك في خلافة عثمان ، وفيه نزلت (الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) قال : وذلك في الصدقة ، وهذا الحديث هو مروى من حديث معاذ بن رفاعة عن علي بن زيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد ابن معاوية عن أبي أمامة الباهلي ، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (ومنهم من عاهد الله) الآية ، وذلك أن رجلا كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلسا فاشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه ، وتصدقت منه ، وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله فأتاه من فضله فأخلف ما وعده ، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه في القرآن . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلا من الأنصار هو الذي قال هذا ، فأتاه ابن عمر له فورث منه مالا فبخل به ولم يف بما عاهد الله عليه ، فأعقبه بذلك نفاقا في قلبه إلى أن يلقاه . قال ذلك (بما أخلفوا الله ما وعده وبما كانوا يكذبون) . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل تصدق بشيء كثير ، فقالوا : مرأ ؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع ، فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا ، فنزلت (الذين يلزمون المطوعين) الآية ، وفي الباب روايات كثيرة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله (الذين يلزمون المطوعين) أي يطعنون على المطوعين :

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ
خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا
فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا
كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَشَذَّنُوكَ
لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ
مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ (٨٣)

أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء . وذلك
لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره صلى الله عليه وآله وسلم ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم ، فهو كقوله تعالى - قل أنفقوا
طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم - . ثم قال (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وفيه بيان لعدم المغفرة من
الله سبحانه للمنافقين وإن أكثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الاستغفار لهم ، وليس المراد من هذا أنه لو زاد
على السبعين لكان ذلك مقبولاً كما في سائر مفاهيم الأعداد ، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول . فقد كانت
العرب تجرى ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير ، والمعنى : أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم
استغفاراً بالغاً في الكثرة غاية المبالغ . وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة
عليه . ويدل لذلك ما سيأتي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : لأزيدن على السبعين . وذكر بعضهم
لتخصيص السبعين وجهاً فقال : إن السبعة عدد شريف . لأنها عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم
والنجوم السيارة والأعضاء وأيام الأسبوع ، فصار كل واحد من السبعة إلى عشرة . لأن الحسنة بعشر أمثالها .
وقيل خصت السبعون بالذكر لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كبر على عمه الحمزة سبعين تكبيرة ، فكانه قال : إن
تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة . وانتصاب سبعين على المصدر كقولهم : ضربته عشرين ضربة .
ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) أي ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله (والله
لا يهدي القوم الفاسقين) أي المتمردين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحدودها . والمراد هنا الهداية الموصلة إلى
المطلوب . لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق . ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين فقال (فرح
المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) المخلفون المتركون . وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
من المنافقين . فأذن لهم وخلقهم بالمدينة في غزوة تبوك . أو الذين خلفهم الله وثبطهم ، أو الشيطان أو كسلهم أو
المؤثنون ، ومعنى (بمقعدهم) أي بقعودهم يقال قعد قعوداً ومقعداً : أي جلس . وأقعدته غيره : ذكر معناه
الجوهري فهو متعلق بفرح : أي فرح المخلفون بقعودهم ، وخلاف رسول الله منتصب على أنه ظرف لمقعدهم .
قال الأخفش ويونس : الخلاف بمعنى الخلف : أي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك أن جهة

الإمام التي يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف . وقال قطرب والزجاج : معنى خلاف رسول الله مخالفة الرسول حين سار وأقاموا ، كانتصايه على أنه مفعول له : أى قعدوا لأجل المخالفة ، أو على الحال مثل وأرسلها العراك : أى مخالفتين له ، ويؤيد ما قاله الأنخس ويونس قراءة أبى حنيفة خلف رسول الله . قوله (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) سبب ذلك الشغ بالأموال والأنفس . وعدم وجود باعث الإيمان وداعى الإخلاص ووجود الصارف عن ذلك ، وهو ما هم فيه من النفاق ، وفيه تعريض للمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لوجود الداعى معهم وانتفاء الصارف عنهم (وقالوا لا تنفروا فى الحر) أى قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم وكسراً لنشاطهم وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم (نار جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون) والمعنى : أنكم أيها المنافقون كيف تفرون من هذا الحرّ البسير ، ونار جهنم التي ستدخلونها محالدين فيها أبداً أشدّ حرّاً مما قررتم منه فإنكم إنما قررتم من حرّ يسير فى زمن قصير ، ووقعتم فى حرّ كثير فى زمن كبير ، بل غير مثناه أبداً الأبدى ودمر الداهرين .

فكنت كالساعى إلى مثعب موائلا من سبل الراءد

وجواب لوفى (لو كانوا يفقهون) مقدّر : أى لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما قعدوا ما فعلوا : قوله (قليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) هذان الأمران معانما الخبر ، والمعنى : فسيضحكون قليلا ويبكون كثيرا . وإنما جىء بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره . وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية : أى ضحكا قليلا وبكاء كثيرا . أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا (جزاء بما كانوا يكسبون) أى جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصى . وانتصاب جزاء على المصدرية : أى يجزون جزاء (فإن رجعت الله إلى طائفة منهم) الرجوع متعد كالرد والرجوع لازم . والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها وإنما قال (إلى طائفة) لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لم أعلل صحبة ، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له . ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وناب الله عليهم كالثلاثة الذين خلقوا ، وسيأتى بيان ذلك . وقيل إنما قال : إلى طائفة . لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف (فاستأذنوك للخروج) معك فى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه (فقل) لهم (لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا) أى قل لهم ذلك عقوبة لهم ، ولما فى استصحابهم من الفساد كما تقدم فى قوله - لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالا - . وقرئ بفتح الياء من معى فى الموضعين . وقرئ بسكونها فيهما ، وجملة (إنكم رضيتم بالعود أول مرة) للتعليل : أى لن تخرجوا معي ولن تقاتلوا لأنكم رضيتم بالعود والتخلف أول مرة ، وهى غزوة تبوك ، والفاء فى (فاقعدوا مع الخالفين) لتفريع ما بعدها على ما قبلها . والخالفين جمع خالف كأنهم خالفوا الخارجين ، والمراد بهم من تخلف عن الخروج . وقيل المعنى : فاقعدوا مع الفاسدين . من قولهم فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسدا فيهم . من قولك خلف اللبن : أى فسد بطول المكث فى السقاء . ذكر معناه الأصمى . وقرئ (فاقعدوا مع الخالفين) وقال القراء : معناه المخالفين .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة أن عبد الله بن أبى قال : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل - ليخرجن الأعز منها الأذل - . فأنزل الله (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لأزيدن على السيعين ، فأنزل الله - سبحانه عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم - .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه . وأخرج أحمد
والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن
ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبدالله بن أبي دعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصلاة عليه
فقام عليه ، فلما وقف قلت : أعلی علو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه .
ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبسم حتى إذا أكثرت قال : يا عمر أخر عني ، إني قد خبرت ، قد قيل لي
(استغفر لم أو لا تستغفر لم إن تستغفر لم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له
لزدت عليها . ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه .
فعجبت لي ولجرائي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى
نزلت هاتان الآيتان (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم على منافق بعد حتى قبضه الله عز وجل . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (فرح المخلفون)
الآية قال : عن غزوة تبوك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم أمر الناس أن يتبعثوا معه ، وذلك في الصيف ، فقال رجال : يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع
الخروج فلا تنفروا في الحر ، فقال الله (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) فأمره بالخروج . وأخرج ابن
مردويه عن جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فليضحكوا
قليلًا وليبكوا كثيرا) قال : هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا . يقول الله : فليضحكوا قليلا
في الدنيا وليبكوا كثيرا في الآخرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (فإن رجعت
الله إلى طائفة منهم) قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلا من المنافقين وفيهم قيل ما قيل . وأخرج ابن المنذر
وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (فاقعدوا مع الخائفين) قال : هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ
رَسُولِهِ أَسْتَشْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ
يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) .

قوله (مات) صفة لأحد ، و (أبدا) ظرف لتأييد النفي . قال الزجاج : معنى قوله (ولا تقم على قبره) أن
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا دفن الميت وقف على قبره ودعاه فنع هاهنا منه : وقيل معناه : لا تقم
بمحرمات إصلاح قبره بجملة (إنهم كفروا) تعليل للنهي ، وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ، لأن
الكافر قد يكون عدلا في دينه ، والكذب والتناق والحداق والخبث مستقبحة في كل دين . ثم نهى رسوله
عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم . وهو تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه : وقيل إن الآية المتقدمة

في قوم ، وهذه في آخرين ، وقيل هذه في اليهود ، والأولى في المنافقين ؛ وقيل غير ذلك . وقد تقدم في الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه في تفسير هذه الآية ، ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين ، فقال (وإذا أنزلت سورة) أي من القرآن ، ويجوز أن يراد بعض السورة ، وأن يراد تمامها ؛ وقيل هي هذه السورة : أي سورة براءة . و« أن » في « أن آمنوا بالله » مفسرة لما في الإنزال من معنى القول ؛ أو مصدرية حذف منها الجار : أي بأن آمنوا ، وإنما قدم الأمر بالإيمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان (استأذنك أولوا الطول منهم) أي ذوو الفضل والسعة . من طال عليه طولا ، كذا قال ابن عباس والحسن ؛ وقال الأصم : الرؤساء والكبراء المنظور إليهم . وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم ، إذ لا عذر لهم في القعود (وقالوا ذرنا) أي اتركنا (نكن مع القاعد) أي المتخلفين عن الغزو من المعذورين كالضعفاء والزمنى ، والحوالف : النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت . جمع خالفة ، وجوز بعضهم أن يكون جمع خالف . وهو من لا خير فيه (وطبع على قلوبهم) هو كقوله - حتم الله على قلوبهم - وقد مر تفسيره (فهم لا يفقهون) شيئا مما فيه نفعهم وضرهم ، بل هم كالأنعام .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه . ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : إن ربي خيرني وقال - استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم - وسأزید علی السبعین ، فقال : إنه منافق ، فصلى عليه فأنزل الله (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية ، فترك الصلاة عليهم . وأخرج ابن ماجه والبخاري وابن جرير وابن مردويه عن جابر قال : مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن يكفنه في قميصه . فجاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك ، فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره . فأنزل الله (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (أولوا الطول) قال : أهل الغنى . وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) قال : مع النساء . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : رضوا بأن يفعلوا كما فعلت النساء . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الخوالف النساء .

لَكِنَّ الرُّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) .

المقصود من الاستدراك بقوله (لكن الرسول) إلى آخره الإشعار بأن تخلف هؤلاء غير ضائر ، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله - فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين - . وقد تقدم بيان الجهاد بالأموال والأنفس . ثم ذكر منافع الجهاد فقال (وأولئك لهم الخيرات) وهي جمع خير فيشمل منافع الدنيا والدين ؛ وقيل المراد به : النساء الحسان كقوله تعالى - فيهن خيرات حسان - ومفرده

خيرة بالتشديد ثم خفت مثل هينة وهينة . وقد تقدم معنى الفلاح والمراد به هنا الفائزون بالمطلوب وتكرير اسم الإشارة لتضخيم شأنهم وتعظيم أمرهم ، والجنات : البساتين . وقد تقدم بيان جرى الأنهار من تحتها ، وبيان الخلود والفوز ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما تقدم من الخيرات والفلاح ، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة ، ووصف الفوز بكونه عظيما يدل على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز . وقد أخرج القرطبي في تفسيره عن الحسن أنه قال الخيرات : من النساء الحسان .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠)

قرأ الأعرج والضحاك (المعذرون) بالتخفيف . من أعذر . ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم ، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس . قال في الصحاح : وكان ابن عباس يقرأ (وجاء المعذرون) مخففة من أعذر . ويقول : والله هكذا أنزلت . قال النحاس : إلا أن مدارها على الكلبي . وهي من أعذر : إذا بالغ في العذر ، ومنه : من أنذر فقد أعذر ، أي بالغ في العذر . وقرأ الجمهور المعذرون بالتشديد فيه وجهان ، أحدهما أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء في الدال ، وهم الذين لم عذر ، ومنه قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا : هم المحقون في اعتذارهم . وقد روى هذا عن القراء والزجاج وابن الأنباري ، وقيل هو من عذر ، وهو الذي يعتذر ولا عذر له . يقال عذر في الأمر : إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر ، ذكره الجوهري وصاحب الكشاف ، فالمعذرون على هذا : هم المبطلون ، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها . وروى عن الأخفش والقراء وأبي حاتم وأبي عبيد أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للانباع . والمعنى : أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين لأجل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتخلف عن الغزو . وطائفة أخرى لم يعتذروا ، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ولم يؤمنوا ولا صدقوا ، ثم توعدهم الله سبحانه ، فقال (سيصيب الذين كفروا منهم) أي من الأعراب ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذبوا بالله ورسوله (عذاب أليم) أي كثير الألم فيصدق على عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (وجاء المعذرون من الأعراب) أي أهل العذر منهم . وروى ابن أبي حاتم عنه نحو ذلك . وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عنه أيضا أنه كان يقول : لعن الله المعتذرين ، ويقر بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعتذر بالتشديد : هو المظهر للعذر اعتلالا من غير حقيقة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن إسحاق في قوله (وجاء المعذرون من الأعراب) قال : ذكر لي أنهم نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا ، منهم خفاف بن إيماء ، وقيل لم رط عامر بن الطفيل قالوا : إن نزعونا معك أغلرت أعراب طي على أهاليها ومواسيتها .

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا
نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ
إِذَا مَا أُنْفِقُوا قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
حِزْنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (١٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا
بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣).

لما ذكر سبحانه المعتبرون ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو . وبدأ بالعتذر في أصل الحلقة .
فقال (ليس على الضعفاء) وهم أرباب الزمانة والمزم والعمى والعرج ونحو ذلك ، ثم ذكر العذر العارض فقال
(ولا على المرضى) والمراد بالمرض : كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعا ، وقيل إنه يدخل في المرضي الأعمى
والأعرج ونحوهما . ثم ذكر العذر الراجع إلى المال لا إلى البدن فقال (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) أى
ليست لهم أموال ينفقوها فيها يحتاجون إليه من التجهز للجهاد . فتنى سبحانه عن هؤلاء الحرج . وأبان أن الجهاد
مع هذه الأعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم مقيدا بقوله (إذا نصحوا لله ورسوله) وأصل النصح إخلاص
العمل من الغش . ومنه التوبة النصوح . قال فطويه نصح الشيء : إذا خلص ، ونصح له القول : أى أخلصه له .
والنصح لله : الإيمان به والعمل بشريعته . وترك ما يحالفها كائنا ما كان ، ويدخل تحته دخولا أوليا نصح عباده .
وعبة المجاهدين في سبيله وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد ، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه ، ونصيحة
لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : التصديق ببيوته وبما جاء به . وطاعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه . وموالاته
من وآله ومعاذته من عباديه ، ومحبة وتعظيم سنته ، وإحيائها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة . وقد ثبت في الحديث
المتنبيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الذين النصيحة ثلاثا . قالوا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله
ولأئمة المسلمين وعلمتهم » . وجملة (ما على المحسنين من سبيل) مقررّة لمضمون ما سبق : أى ليس على المعتذرين
الناصحين من سبيل : أى طريق عقاب ومواخذة . ومن مزية التأكيد ، وعلى هذا فيكون لفظ (المحسنين)
موضوعا في موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا . أو يكون المراد : ما على جنس المحسنين من سبيل
وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم . فتكون الجملة تعليلية ، وجملة (والله غفور رحيم) تذييلية . وفي معنى هذه
الآية قوله تعالى - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها - . وقوله - ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على
المريض حرج - . وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعتذرين لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذى عذرهم الله
عنه مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه ، ومنه حديث أنس عند أبى داود وأحمد ، وأصله في الصحيحين أن
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « لقد تركتم بعدكم قوما ما سرتهم من مسير ولا ألقمهم من نفقة ولا قطعتم
وأديا إلا وهم معكم فيه » . قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فقال : حبسهم العذر . . وأخرجه
أحمد ومسلم من حديث جابر . ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعتذرين من نقصه قوله (ولا على الذين إذا ما أتوك
لتنصليهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه) والعطف على جملة - ما على المحسنين - أى ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره

من سبيل ، ويجوز أن تكون عطفا على الضعفاء : أى ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج . والمعنى : أن من جملة
المعلورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو فلم نجد ذلك الذى طلبوه منك . قيل وجملة
(لا أجد ما أحملكم عليه) في محل نصب على الحال من الكاف في أتوك بإضمار قد : أى إذا ما أتوك قائلا لا أجد ،
وقيل هى بدل من أتوك : وقيل جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، والأول أولى . وقوله (تولوا) جواب إذا ،
وجملة (وأعينهم تفيض من الدمع) في محل نصب على الحال : أى تولوا عنك لما قلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه
حال كونهم باكين ، و (حزنا) منصوب على المصدرية ، أو على العلية ، أو الحالية ، و (أن لا يجدوا) مفعول له ،
وناصبه (حزنا) وقال الفراء : أن لا بمعنى ليس : أى حزنا أن ليس يجدوا ، وقيل المعنى : حزنا على أن لا يجدوا ،
وقيل المعنى حزنا أنهم لا يجدون ما ينفقون لا عند أنفسهم ولا عندك . ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من
المتخلفين فقال (إنما السبيل) أى طريق العقوبة والمواخذة (على الذين يستأذنونك) في التخلف عن الغزو ، و (و)
الحال أنهم أغنياء) أى يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به ، وجملة (رضوا بأن يكونوا مع الخوالم) مستأنفة
كأنه قيل ما يلزم استأذنونهم أغنياء . وقد تقدم تفسير الخوالم قريبا . وجملة (وطبع الله على قلوبهم) معطوفة
على (رضوا) أى سبب الاستئذان مع الغنى أمران : أحدهما الرضا بالصفقة الخاسرة ، وهى أن يكونوا مع الخوالم
والثانى الطبع من الله على قلوبهم (فهم) بسبب هذا الطبع (لا يعلمون) ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه
الخسر .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والدارقطنى في الأفراد وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم فزلت براءة ، فكنت أكتب ما أنزل عليه ، فإني لو اضع القلم عن أذنى إذ أمرنا بالقتال ،
فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟
فزلت (ليس على الضعفاء) الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال :
أنزلت هذه الآية في عابد بن عمر المزنى . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : نزل من عند قوله - عفا الله عنك
إلى قوله - ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم - في المنافقين . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قواه
(ما على المحسنين من سبيل) قال : ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحووا لله ورسوله ولم يطبقوا الجهاد ، فعذرهم
الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين ، ألم تسمع أن الله يقول - لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى
الضرر - فجعل الله للذين عذر من الضعفاء ، وأولى الضرر ، والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل
للمجاهدين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ما على المحسنين من سبيل) قال : والله) لأهل الإساءة
(غفور رحيم) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ولا على الذين إذا ما أتوك) الآية ، قال : أمر رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزنى ،
فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال : والله ما أجد ما أحملكم عليه . فتولوا ولم يكاء وعزيز عليهم أن يجلسوا عن
الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا ، فأنزل الله عذرهم (ولا على الذين إذا ما أتوك) الآية . وأخرج ابن سعد وابن
أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : إني لا أجد الرهط الذين ذكر الله (ولا على الذين إذا ما أتوك
لتحملهم) الآية : وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : هم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سلم بن عمرو ،
ومن بنى واقف حرم بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليل . ومن بنى الحفل
سلمان بن صخر ، ومن بنى حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبله ، ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو

الخرق . وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة . واختلفوا في البعض ولا يأتي التطويل في ذلك بكثير فائدة .
وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن
قناة وغيرهم أن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم البكاعون . وهم سبعة نفر من
الأنصار وغيرهم ، ثم ذكروا أسماءهم ، وفيه فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وكانوا أهل حاجة .
قال (لا أجد ما أحلكم عليه) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن قال : كان معقل بن يسار من البكائين
الذين قال الله (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) الآية . وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك في قوله
(لا أجد ما أحلكم عليه) قال : الماء والزاد . وأخرج ابن المنذر عن علي بن صالح قال : حدثني مشيخة من
جهينة : قالوا : أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحملان ، فقالوا : ما سألناه إلا الحملان
على النعال . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم عن حدثه في قوله (ولا على الذين إذا ما أتوك
لتحملهم) قال : ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن صالح في الآية قال :
استحملوه النعال . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (إنما السبيل على الذين يستأذنونك) قال :
هي وما بعدها إلى قوله (إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) في المنافقين .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنسَبُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩١) سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا يُبِهُمُ جَهَنَّمَ إِزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٢) يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا
عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٣) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا
وِنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٤) وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ (٩٥) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ
وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ إِلَّا إِنْهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٦) .

قوله (يعتذرون إليكم) إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا
رجعوا من الغزو ، وهذا كلام مستأنف ، وإنما قال (إليهم) أي إلى المعتذرين بالباطل ولم يقل إلى المدينة ، لأن
محل الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة ، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها . ثم
نحضر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بما يجيب به عليهم ، فقال (قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم) فقام
لولا عن الاعتذار بالباطل . ثم حله بقوله (لن تؤمن لكم) أي لن نصدقكم ، كأنهم ادعوا أنهم صادقون

في اعتذارهم ، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيها يعتذر به ، فإذا عرف أنه لا يصدق ترك الاعتذار ، وجملة (قد نأنا الله من أخباركم) تعليلية التي قبلها : أي لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصديق اعتذاركم ، وإنما يخص الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب عليهم . فقال (قل لا تعتذروا) مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم رأسهم ، والمتولى لما يرد عليهم من جهة الغير ، ويحتمل أن يكون المراد بالضمير في قوله (إليكم) هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على التأويل المشهور في مثل هذا . قوله (وسيرى الله عملكم) أي ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشر أم تبقون عليه ؟ . وقوله (ورسوله) معطوف على الاسم الشريف . ووسط مفعول الروية إيذاناً ، بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شر هي التي يدور عليها الإثابة أو العقوبة . وفي جملة (ثم تردون إلى عالم الغيب) إلى آخرها تخويف شديد ، لما هي مشتملة عليه من التهديد . ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المصمر ، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به . وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه ، ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكلون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو . وغرضهم من هذا التأكيد هو أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يوبخونهم ولا يواخضونهم بالتخلف ويظهرون الرضا عنهم كما يفيد ذكر الرضا من بعد . وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدل عليه . وهو اعتذارهم الباطل . وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به تركهم والمهاجرة لهم . لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم . كما يفيد جملة (إنهم رجس) الواقعة علة للأمر بالإعراض . والمعنى : أنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة . فكانها قد صيرت ذواتهم رجسا . أو أنهم ذوو رجس : أي ذوو أعمال قبيحة . ومثله - إنما المشركون نجس - . وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير والتحذير من الشر . فليس لهم إلا الترك . وقوله (وماوأم جهنم) من تمام التعليل ؛ فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير . والمأوى كل مكان يأوى إليه الشيء ليلاً أو نهاراً . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أو يابوا . و (جزاء) منصوب على المصدرية . أو على العلية . والباء في (بما كانوا يكسبون) للسببية ، وجملة (يخلفون لكم) بدل مما تقدم . وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق . والمحلوف عليه مثل ما تقدم . وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم ، ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل . فقال (فإن ترضوا عنهم) كما هو مطلوبهم مساعدة لهم (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) وإذا كان هذا هو ما يريد الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة . فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لاتفعلوا خلاف ذلك بل واجب عليكم أن لاترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتد به ولا مفيد لهم . والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم نهى المؤمنين عن ذلك لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن . قوله (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً) لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب . وبين أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم ، لأنهم أقسى قلباً وأغظ طبعاً وأجنى قولاً ، وأبعد عن سماع كتب الله وما جاءت به رسله . والأعراب : هم من سكن البوادي بخلاف العرب ، فإنه عام لهذا النوع من بني آدم سواء سكنوا البوادي أو القرى . هكذا قال أهل اللغة ، ولهذا قال سيويه : إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب . قال النيسابوري : قال أهل اللغة : رجل عربي إذا كان نسيباً إلى العرب ثابتاً ، وجمعه عرب كالجوسى والجبوس . واليهودى واليهود ، فالأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح ، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب . وذلك أن من استوطن

للقري العربية فهو عربي . ومن نزل البادية فهو أعرابي ، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعرا ب .
 وإنما هم عرب . قال : قيل إنما سمي العرب عربا لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشثوا بالعرب ، وهي من تهامة
 فنسبوا إلى بلدهم ، وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم ؛ وقيل لأن ألسنهم معربة عما في
 ضمائرهم ، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة انتهى (وأجدر) معطوف على أشد ، ومعناه أخلق . يقال فلان
 جدير بكذا : أي خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدر أو جديرون ، وأصله من جدر الحائط .
 وهو رفعه بالبناء . والمعنى : أنهم أحق وأخلق به (أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله) من الشرائع والأحكام . لبعدهم
 عن مواطن الأنبياء وديار التنزيل (والله عليم) بأحوال مخلوقاته على العموم ، وهؤلاء منهم (حكيم) فيما يجازيهم
 به من خير وشر . قوله (ومن الأعرا ب من يتخذ ما ينفق مغرما) هذا تنويع لجنس إلى نوعين ، الأول هؤلاء
 هو الثاني (ومن الأعرا ب من يؤمن بالله) والمغرم الغرامة والخسران ، وهوثاني مفعولى يتخذ ، لأنه بمعنى الجعل .
 والمعنى : اعتقد أن الذى ينفقه فى سبيل الله غرامة وخسران ، وأصل الغرم والغرامة ما ينفقه الرجل وليس بلازم
 له فى اعتقاده ولكنه ينفقه للرياء والتقيد ، وقيل أصل الغرم الزوم كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبثق له
 النفس . و (الدوائر) جمع دائرة ، وهى الحالة المتقلبة عن النعمة إلى البلية ، وأصلها ما يحيط بالشئ ، ودوائر
 الزمان : ثوبه وتصاريفه ودوله ، وكأنها لا تستعمل إلا فى المكروه . ثم دعا سبحانه عليهم بقوله (عليهم دائرة
 السوء) وجعل ما دعا به عليهم ممثلا لما أرادوه بالمسلمين ، والسوء بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه
 الدائرة للملازمة كتولك رجل صدق . وقرأ أبو عمرو وابن كثير بضم السين ، وهو المكروه . قال الأخفش :
 أى عليهم دائرة الهزيمة والشر . وقال القراء (عليهم دائرة السوء) العذاب والبلاء . قال : والسوء بالفتح مصدر
 سوته سوما ومساءة ، وبالضم اسم لا مصدر ، وهو كقولك دائرة البلاء والمكروه (والله سميع) لما يقولونه (عليم)
 بما يضمرونه . قوله (ومن الأعرا ب من يؤمن بالله واليوم الآخر) هذا النوع الثانى من أنواع الأعرا ب كما تقدم :
 أى بصدق بهما (ويتخذ ما ينفق) أى يجعل ما ينفقه فى سبيل الله (قربات) وهى جمع قربة ، وهى ما يتقرب به
 إلى الله سبحانه ، تقول منه قربت لله قربانا ، والجمع قرب وقربات . والمعنى : أنه يجعل ما ينفقه سببا لحصول
 القربات (عند الله و) سببا ل (صلوات الرسول) أى لدعوات الرسول لهم ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو
 للمتصدقين ، ومنه قوله (وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم) ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم صل
 على آل أبى أوفى ، ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعرا ب تقربا إلى الله مقبول واقع على الوجه الذى
 أرادوه فقال (ألا إنها قربة لهم) فأخبر سبحانه بقبولها خبرا مؤكدا باسمية الحملة وحر فى التنبيه والتحقيق ، وفى هذا
 من التطيب لخواطرهم والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره مع ما يتضمنه من النعى على من يتخذ ما ينفق مغرما ،
 والتوبيخ له بأبلغ وجه ، والضمير فى إنها راجع إلى « ما » فى ما ينفق وتأنيته باعتبار الخبر . وقرأ نافع ، فى رواية عنه
 « قربة » بضم الراء ، وقرأ الباقون بسكونها تخفيفا ، ثم فسر سبحانه القربة بقوله (سيدخلهم الله فى رحمته) والسين
 لتحقيق الوعد .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (قد نبأنا الله من أخباركم) قال : أخبرنا أنكم لو
 خرجتم ما زدتونا إلا خيالا ، وفى قوله (فأعرضوا عنهم) قال : لما رجع النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال
 للمؤمنين لا تكلموهم ولا تجالسوهم ، فأعرضوا عنهم كما أمر الله . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك فى قوله (لتعرضوا
 عنهم) قال : لتجاوزوا عنهم . وأخرج أبو الشيخ عنه فى قوله (الأعرا ب أشد كفرا ونفاقا) قال : من منافق

المدينة (وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) يعني القرائض وما أمر به من الجهاد. وأخرج أبو الشيخ عن الكلبي أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان. وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن» وإسناده أحمد هكذا: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكره. قال في التقریب: وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة، وهم من قال إنه إسرائيل بن موسى. وقال الترمذي بعد إخراجها: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري. وأخرج أبو داود والبيهقي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل». ومن أتى أبواب السلطان التفت، وما ازداد أحد من سلاطانه قربا إلا ازداد من الله بعدا». وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرما) قال: يعني بالمفرم أنه لا يرجو له ثوابا عند الله ولا مجازاة. وإنما يعطى من يعطى من الصدقات كرها (ويترقب بكم الدوائر) الهلكات. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال: هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مفرما. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ومن الأعراب من يؤمن بالله) قال: لهم بنو مقرن من مزينة، وهم الذين قال الله - ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم - الآية. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معقل قال: كنا عشرة ولد مقرن، فنزلت فينا (ومن الأعراب من يؤمن بالله) الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وصلوات الرسول) يعني استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِمِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

لما ذكر سبحانه أمتاف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار . وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة . وأن منهم التابعين لهم . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قرأ (والأنصار) بالرفع عطفا على (والسابقون) وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجر . قال الأخفش : الخفض في الأنصار الوجه ، لأن السابقين منهم يدخلون في قوله (والسابقون) وفي الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا القبلتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة ، أول الذين شهدوا بيعة الرضوان . وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي . أو أهل بدر في قول محمد بن كعب وعطاء بن يسار . ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها . قال أبو منصور البغدادى : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم للخلفاء الأربعة . ثم الستة السابقون . ثم البدريون . ثم أصحاب أحد . ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية . قوله (والذين اتبعوهم بإحسان) قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه (الذين اتبعوهم) مخوف الواو وصفا للأنصار على قراءته برفع الأنصار . فراجعته في ذلك زيد بن ثابت . فسأل أبا بن كعب فصدق زيداً فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه . ومعنى الذين اتبعوهم بإحسان : الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة ، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً . وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية . فتكون « من » في قوله (من المهاجرين) على هذا للتبعض ، وقيل إنها للبيان ، فيتناول المدح جميع الصحابة ويكون المراد بالتابعين من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة . وقوله (بإحسان) قيد للتابعين : أى والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأولين . قوله (رضى الله عنهم) خبر للمبتدأ وما عطف عليه . ومعنى رضاه سبحانه عنهم : أنه قبل طاعتهم وتجاوز عنهم ولم يسخط عليهم (ورضوا عنه) بما أعطاهم من فضله . ومع رضاه عنهم فقد (أعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار) في الدار الآخرة . وقرأ ابن كثير (تجري من تحتها الأنهار) بزيادة من . وقرأ الباقر بخذفها والنصب على الظرفية ، وقد تقدم تفسير جرى الأنهار من تحت الجنات وتفسير الخلود والقور . قوله (ومن حولكم من الأعراب منافقون) هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة ومن يقرب منها من الأعراب . ومن حولكم خبر مقدم ، ومن الأعراب بيان ، وهو في محل نصب على الحال ، ومنافقون هو المبتدأ ، قيل وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم جهينة ومزينة وأشجع وغفار . وجملة (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) معطوفة على الجملة الأولى عطف جملة على جملة . وقيل إن من أهل المدينة عطف على الخبر في الجملة الأولى . فعلى الأول يكون المبتدأ مقدراً : أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، وعلى الثاني يكون التقدير : ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا ، ولكون جملة مردوا على النفاق مستأنفة لا محل لها ، وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة والتجرد ، فكانهم تجردوا للنفاق ، ومنه غصن أمرد : لا ورق عليه ، وفرس أمرد : لا شعر فيه ، وغلام أمرد : لا شعر بوجهه ، وأرض مرداء : لا نبات فيها ، وصرح ممرّد : مجرّد ، فالعنى : أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم يتثنوا عنه . قال ابن زيد : معناه لجوا فيه وأتوا غيره ، وجملة (لاتعلمهم) مبينة للجملة الأولى ، وهى مردوا على النفاق : أى ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ومهروا فيه حتى خنى أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف سائر المؤمنين ؟ والمراد عدم علمه صلى الله عليه وآله وسلم بأعيانهم لا من حيث الجملة ، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وجملة (نحن نعلمهم) مقررّة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه على وجه يخفى على البشر . ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى وما تجتبه الضمائر وتنطوى عليه السرائر ، ثم توعدهم سبحانه فقال (سنعذبهم مرتين) قيل المراد بالمرتين : عذاب الدنيا بالقتل والنسي . وعذاب

الآخرة : وقيل الفضيحة بانكشاف نفاقهم . والعذاب في الآخرة : وقيل المصائب في أموالهم وأولادهم . وحذاب القبر : وقيل غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه . والظاهر أن هذا العذاب المكرر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب ، وأنهم يعذبون مرة بعد مرة : ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة ، وهو المراد بقوله (ثم يردون إلى عذاب عظيم) ومن قال إن العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة قال معنى قوله (ثم يردون إلى عذاب عظيم) أنهم يردون بعد عذابهم في النار كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها : أو أنهم يعذبون في النار عذابا خاصا بهم دون سائر الكفار . ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار . ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخاطبون في دينهم فقال (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) وهو معطوف على قوله متفقون : أي ومن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون . ويجوز أن يكون آخرون مبتدأ ، واعترفوا بذنوبهم صفة . وخطبوا عملا صالحا وآخر سيئا خبره . والمعنى : أن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك . ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون . بل تابوا واعترفوا بالذنب ورجعوا أن يتوب الله عليهم . والمراد بالعمل الصالح : ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن . والمراد بالعمل السيئ : هو تخلفهم عن هذه الغزوة . وقد أتبعوا هذا العمل السيئ عملا صالحا . وهو الاعتراف به والتوبة عنه . وأصل الاعتراف الإقرار بالشيء . ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال . وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتي بيانه إن شاء الله . ومعنى الخلط : أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء : ويجوز أن تكون الواو بمعنى الهاء كقولك بعت الشاة شاة وردها : أي بدرهم . وفي قوله (عسى الله أن يتوب عليهم) دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة . أو أن مقدمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة . وحرف الترجي وهو عسى هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع . لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين (إن الله غفور رحيم) أي يغفر الذنوب ويفضل على عباده . قوله (خذ من أموالهم صدقة) اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها : فقيل : هي صدقة الفرض . وقيل هي مخصوصة بهذه الطائفة المعروفة بذنوبها ، لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت هذه الآية : (من) للتبعض على التفسيرين ، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة . والصدقة مأخوذة من الصدق . إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه . قوله (تطهرهم وتزكهم بها) الضمير في الفعلين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي تطهرهم وتزكهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم . وقيل الضمير في تطهرهم للصدقة : أي تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم . والضمير في تزكهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي تزكهم يا محمد بالصدقة المأخوذة . والأول أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضمير بين الفعلين المتعاطفين : وعلى الأول فالفعلان متصبان على الحال ، وعلى الثاني فالفعل الأول صفة لصدقة . والثاني حال منه صلى الله عليه وآله وسلم . ومعنى التطهير إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب . ومعنى التزكية : المبالغة في التطهير . قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي فلنك يا محمد تطهرهم وتزكهم بها على القطع والاستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر . والمعنى : أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم . وقد قرأ الحسن بجزم تطهرهم . وعلى هذه القراءة فيكون (وتزكهم) على تقدير مبتدأ : أي وأنت تزكهم بها . قوله (وصل عليهم) : أي ادع لهم بعد اخذك لتلك الصدقة من أموالهم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه أن الصلاة في كلام العرب الدعاء . ثم علل سبحانه أمره لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال (إن صلواتك سكن

لهم (قرأ حفص وحزرة والكسائي « صلاتك » بالتوحيد . وقرأ الباقر بالجمع ، والسكن ما تسكن إليه النفس وتطمئن به . قوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقا . قال الله (ألم يعلموا) أى غير التائبين ، أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل صدقاتهم (أن الله هو يقبل التوبة) لاستغفاله عن طاعة المطيعين ، وعدم مبالاته بمعصية العاصين . وقرئ (ألم تعلموا) بالفوقية ، وهو إما خطاب للتائبين ، أو لجماعة من المؤمنين ، ومعنى (وبأخذ الصدقات) : أى يتقبلها منهم ، وفى إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأخذها تشرىف عظيم لهذه الطاعة ولمن فعلها . وقوله (وأن الله هو التواب الرحيم) معطوف على قوله (أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه : أى أن هذا شأنه سبحانه . وفى صيغة المبالغة فى التواب وفى الرحيم مع توسيط ضمير الفصل . والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا ينجى . قوله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فيه تخويف وتهديد : أى إن عملكم لا ينجى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل ، وفيه أيضا ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا ينجى سواء كان خيرا أو شرا رغب إلى أعمال الخير ، وتجنب أعمال الشر ، وما أحسن قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تحق على الناس تعلم

والمراد بالروية هنا العلم بما يصدر منهم من الأعمال ، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال (وستردون إلى عالم الغيب والشهادة) أى وستردون بعد الموت إلى الله سبحانه الذى يعلم ما تسرونه وما تعلنونه وما تخفونه وما تبدونه . وفى تقديم الغيب على الشهادة إشعار بسعة علمه عز وجل ، وأنه لا ينجى عليه شئ ويستوى عنده كل معلوم . ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردّهم إليه فقال (فينبئكم) أى يخبركم (بما كنتم تعملون) فى الدنيا ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويفضل على من يشاء من عباده . قوله (وآخرون مرجون لأمر الله) ذكر سبحانه ثلاثة أقسام فى المتخلفين : الأول المنافقون الذين مردوا على النفاق ، والثانى التائبون المعترفون بذنوبهم ، الثالث الذين بقى أمرهم موقوفا فى تلك الحال ، وهم المرجون لأمر الله ، من أرجيته وأرجأته : إذا أخرته . قرأ حزرة والكسائي ونافع وحفص (مرجون) بالواو من غير همز : وقرأ الباقر بالهمزة المضمومة بعد الجيم : والمعنى : أنهم مؤخرون فى تلك الحال لا يقطع لهم بالتوبة ولا بعدمها ، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه فى شأنهم (إما يعذبهم) إن بقوا على ما هم عليه ولم يتوبوا (وإما يتوب عليهم) إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصا تاما ، والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير (وآخرون مرجون لأمر الله) حال كونهم ، إما مطايعين ، وإما متوهابين عليهم (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فيما يفعله بهم من خير أو شر .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم فى المعرفة عن أبي موسى أنه سئل عن قوله (والسابقون الأولون) فقال : هم الذين صلوا القبليتين جميعا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن سعيد بن المسيب مثله . وأخرج ابن المنذر وأبو نعيم عن الحسن ومحمد بن سيرين مثله أيضا . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أبو بكر وعمر وعلى وسلمان وعمار بن ياسر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم فى المعرفة عن الشعبي قال : هم من أدرك بيعة الرضوان وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة فى قوله (والذين اتبعوهم بإحسان) قال : التابعون . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : هم من بقى من أهل الإسلام إلى أن تقدم الساعة . وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن أبي صخر حميد بن

زياد قال : قلت لعمد بن كعب القرظي : أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما أريد القتل ، قال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم ، قلت له : وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه ؟ قال : ألا تقرعون قوله تعالى (والسابقون الأولون) الآية أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطا لم يشترطه فيهم - قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان . يقول : يقتلون بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتلون بهم في غير ذلك . قال أبو حمزة : فوالله لكأنى لم أقرأها قبل ذلك وما عرفت تفسيرها حتى قرأها على بن كعب . وأخرج ابن مردويه عن طريق الأوزاعي قال : حدثني يحيى بن أبي كثير والقاسم ومكحول وعبد بن أبي لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقولون لما أنزلت هذه الآية (والسابقون الأولون) إلى قوله (ورضوا عنه) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هذا لأمتي كلهم ، وليس بعد الرضا بخط . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ومن حولكم من الأعراب) الآية ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الجمعة خطيبا ، فقال : قم يا فلان فأخرج فلانك منافق ، أخرج يا فلان فلانك منافق ، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له ، فلقبهم عمر وهم يخرجون من المسجد فاختابا منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن الناس قد انصرفوا ، واختبئوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا ، فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم ، فهو العذاب الأول ، والعذاب الثاني عذاب القبر . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله (ومن حولكم من الأعراب) قال : جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (مردوا على النفاق) قال : أقاموا عليه ولم يتوبوا ككتاب آخرون . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : ماتوا عليه : عبد الله بن أبي ، وأبو عامر الراهب ، والحداد بن قيس . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (سنعذبهم مرتين) قال : بالجوع والقتل . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك قال : بالجوع وعذاب القبر . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن قتادة قال : عذاب في القبر ، وعذاب في النار . وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين ، والظاهر ما قدمنا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا) قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه وآله وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد . وكان عمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رجع عليهم فلما رآهم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعلمهم ، قال : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا ، فنزلت (عسى الله أن يتوب عليهم) وعسى من الله واجب ، فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإطلقهم وعذرهم . فجاءوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عني واستغفر لنا ، قال : ما أمرت أن آخذ أموالكم ، فأنزل الله عز وجل (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم) يقول : استغفر لهم (إن صلواتك سكن لهم) يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم ، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم

بالسوارى فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنزل الله عز وجل - لقد تاب الله على النبي - إلى قوله - وعلى الثلاثة الذين خلفوا إلى قوله ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم - يعنى : إن استقاموا . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله سواء . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى في الدلائل عن مجاهد في قوله (اعترفوا بذنوبهم) قال : هو أبو لبابة إذ قال لقريظة ما قال ، وأشار إلى حلقه بأن محمدا يذبحكم إن نزلتم على حكمه ، والقصة مذكورة في كتب السير . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى في قوله (خلطوا عملا صالحا) قال غزوه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وآخر سيئا) قال : تخلفهم عنه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (وصل عليهم) قال : استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها (إن صلواتك سكن لهم) قال : رحمة لهم . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتى بصدقة قال اللهم صل على آل فلان ، فأتاه أبى بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى ، وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) قال : هذا وعيد من الله عز وجل . وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والبيهقى في الشعب وابن أبى الدنيا والضياء في المختارة عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لو أن أحدكم يعمل في حفرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس كأننا ما كان . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله (وآخرون مرجون لأمر الله) قال : هم الثلاثة الذين خلفوا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : هم هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك من الأوس والخزرج . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله (إما يعذبهم) يقول : يمتهم على معصية (وإما يتوب عليهم) فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال - وعلى الثلاثة الذين خلفوا - .

الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَنُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

لما ذكر الله أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة عطف على ماسبق هذه الطائفة منهم ، وهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ، فيكون التقدير : ومنهم الذين اتخذوا على أن الذين مبتدأ ، وخبره منهم الخنوف ، والجملة معطوفة على ماتقدمها ، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على الذم . وقرأ المدنيون وابن عامر (الذين اتخذوا) بغير واو ، فتكون قصة مستقلة ، الموصول مبتدأ ، وخبره (لاتقم) قاله الكسائى . وقال النحاس : إن الخبر هو (لا يزال بنيانهم الذى بنوا) وقيل الخبر مخوف ، والتقدير يعذبون ، وسيأتى بيان هؤلاء البائين لمسجد الضرار ،

و (ضراراً) منصوب على المصدرية ، أو على العلية (وكفراً وتفريقاً وإرصاداً) معطوفة على (ضراراً) . فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لم على بناء هذا المسجد أمور أربعة : الأول الضرار لغيرهم ، وهو المضاررة . الثاني الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا بينائهم تقوية أهل النفاق . الثالث التفريق بين المؤمنين ، لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقتل جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى . الرابع الإرصاد لمن حارب الله ورسوله : أى الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله . قال الزجاج : الإرصاد الانتظار . وقال ابن قتيبة : الإرصاد الانتظار مع العداوة . وقال الأثريون : هو الإعداد ، والمعنى متقارب ، يقال أرصدت لكذا : إذا أعددت مرتقباً له به . وقال أبو زيد : يقال رصدته وأرصدته فى الخير ، وأرصدت له فى الشر . وقال ابن الأعرابي : لا يقال إلا أرصدت ، ومعناه ارتقبت ، والمراد بمن حارب الله ورسوله : المنافقون ، ومنهم أبو عامر الراهب : أى أعدوه لهؤلاء وارتقبوا به وصولهم وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين ، وقوله (من قبل) متعلق باتخذوا : أى اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء ويبينوا مسجد الضرار ، أو متعلق بحارب : أى لمن وقع منه الحرب لله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار . قوله (وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى) أى ما أردنا إلا الحسنة الحسنى ، وهى الرفق بالمسلمين ، فرد الله عليهم بقوله (والله يشهد إنهم لكاذبون) فيما حلفوا عليه ، ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة فى مسجد الضرار ، فقال (لا تقم فيه أبداً) أى فى وقت من الأوقات ، والنهى عن القيام فيه يستلزم النهى عن الصلاة فيه . وقد يعبر عن الصلاة بالقيام ، يقال فلان يقوم الليل : أى يصلى ، ومنه الحديث الصحيح « من قام رمضان إيماناً به واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . ثم ذكر الله سبحانه علة النهى عن القيام فيه بقوله (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) واللام فى (المسجد) لام القسم ، وقيل لام الابتداء ، وفى ذلك تأكيد لمضمون الجملة ، وتأسيس البناء : تثبيته ورفع . ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التى تنقى بها العقوبة .

واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء كما روى عن ابن عباس والضحاك والحسن والشعبي وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم . والأول أرجح لما سيأتى قريباً إن شاء الله ، و (من أول يوم) متعلق بأسس : أى أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه . قال بعض النحاة : إن (من) هنا بمعنى منذ : أى منذ أول يوم ابتدئ بينائهم ، وقوله (أحق أن تقوم فيه) خبر المبتدأ . والمعنى : لو كان القيام فى غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله ، لكونه أسس على التقوى من أول يوم ، ولكون (فيه) رجال يحبون أن يتطهروا) وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه صلى الله عليه وآله وسلم فيه : أى كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل فهو أولى من جهة الحال فيه ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال : أى حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد . ومعنى محبتهم للتطهر : أنهم يوثقون عليه عند عروض موجب ، وقيل معناه : يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار . والأول أولى . وقيل يحبون أن يتطهروا بالحصى المطهرة من الذنوب فحموا جميعاً ، وهذا ضعيف جداً . ومعنى محبة الله لهم الرضا عنهم ، والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه . ثم بين سبحانه أن بين الفريقين بونا بعيداً ، فقال (أفمن أسس بنيانه) والهمزة للإنكار التقريرى ، والبنيان مصدر كالعمران ، وأريد به المبنى ، والجملة مستأنفة . والمعنى : أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى تقوى الله ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضد ذلك ، وهو الباطل والنفاق ، والموصول مبتدأ ، وخبره خير ، وقرئ « أسس بنيانه » على

بناء الفعل للفاعل ، ونصب بنيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقرئ "على البناء للمجهول ، وقرئ" أساس بنيانه " بإضافة أساس إلى بنيانه ، وقرئ "أس بنيانه" والمراد : أصول البناء ، وحكى أبو حاتم قراءة أخرى ، وهي "أساس بنيانه" على الجمع ، ومنه :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهايل من يتي العباس

والشفا : الشفير ، والجرف : ما يجرف بالسيول ، وهي الجوانب التي تنجرف بالماء ، والاجتراف : اقتلاع الشيء من أصله ، وقرئ بضم الراء من جرف وبإسكانها . والهار : الساقط ، يقال هار البناء : إذا سقط ، وأصله هائر كما قالوا : شاك السلاح وشائك كذا قال الزجاج . وقال أبو حاتم : إن أصله هاور . قال في شمس العلوم : الجرف ما جرف السيل أصله ، وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهاراه ، جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحل بسرعة ، ثم قال (فانهار به في نار جهنم) وفاعل فانهار ضمير يعود إلى الجرف : أي فانهار الجرف بالبنیان في النار ، ويجوز أن يكون الضمير في (به) يعود إلى من ، وهو الباني . والمعنى : أنه طاح الباطل بالبناء ، أو الباني في نار جهنم . وجاء بالانبياء الذي هو للجرف ترشيحاً للمجاز : وسبحان الله ما يبلغ هذا الكلام ، وأقوى تراكيبه ، ولوقع معناه ، وأفصح مبناه . ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم . واستمرار ترددهم وشكهم فقال (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) أي شكاً في قلوبهم ونفاقاً . ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وقيل معنى الريبة : الحسرة والندامة ، لأنهم ندموا على بنيانه . وقال المبرد : أي حرارة وغیظا . وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم . ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفاقاً وتصميماً على الكفر ، ومقتاً للإسلام لما أصابهم من الغیظ الشديد والغضب العظيم بهدمه ، ثم ذكر سبحانه ما يدل على استمرار هذه الريبة ودوامها ، وهو قوله (إلا أن تقطع قلوبهم) أي لا يزال هذا إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً ، وتتفرق أجزاء : إما بالموت أو بالسيف ، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ماداموا أحياء ، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة . وقيل معناه : إلا أن يتوبوا توبة تقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم . وقرأ ابن عامر وحمة وحفص ويعقوب وأبو جعفر بفتح حرف المضارعة . وقرأ الجمهور بضمها . وروى عن يعقوب أنه قرأ " تقطع " بالتخفيف ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم . وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود " ولو تقطعت قلوبهم " . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم " إلى أن تقطع " على الغاية . أي لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً) قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر الراهب : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم . فأتى بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه ؛ فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلي فيه ويدعو بالبركة ، فأنزل الله (لاتقم فيه أبداً) . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه قال : لما بنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجداً قباء خرج رجال من الأنصار منهم يجحد عبد الله بن حنيفة ووديع بن حزام ومجمع بن جارية الأنصاري فبنوا مسجد النفاق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبجحد : وبلك يا بجحد ما أردت إلى ما أرى ، فقال : يا رسول الله والله ما أردت إلا الحسنى وهو كاذب ، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأراد أن يعذره ، فأنزل الله تعالى (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً

وكفرا وتفرقوا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله) يعنى رجلا يقال له أبو عامر كان محاربا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان قد انطلق إلى هرقل ، وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلى فيه ، وكان قد خرج من المدينة محاربا لله ولرسوله . وأخرج ابن إسحاق وابن مردويه عنه أيضا قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مالك بن الدخشم ، فقال مالك لعاصم : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه ، وخرج أهله فتفرقوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية . ولعل فى هذه الرواية حذفان قول صلى الله عليه وآله وسلم دعا رسول الله مالك بن الدخشم وبين قوله فقال مالك لعاصم ، ويبين ذلك ما أخرجه ابن إسحاق وابن مردويه عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفارى ، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزل بذى أوان : بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك . فقالوا يا رسول الله إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة واليلة الشاتية واليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، قال : إني على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى ، وأخاه عاصم بن عدى أحد بنى العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم زهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان ، وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) إلى آخر القصة . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلا ، وذكر أسماءهم . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقى في الدلائل عن أبي سعيد الخدرى قال : اختلف رجلان : رجل من بنى خلرة ، وفى لفظ : تمريت أنا ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال الخدرى : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال العمري : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا المسجد لمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال فى ذلك خير كثير ، يعنى مسجد قباء . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والزيير بن بكار فى أخبار المدينة وأبو يعلى وابن حبان والطبرانى والحاكم فى الكنى ، وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى نحوه . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب والفضياء فى المختارة عن أبي بن كعب قال « سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى قال : هو مسجدى هذا » . وأخرج الطبرانى والفضياء المقدسى فى المختارة عن زيد بن ثابت مرفوعا مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والطبرانى من طريق عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال : المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال عروة : مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم خير منه ، إنما أنزلت فى مسجد قباء . وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : المسجد الذى أسس على التقوى : مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج المذكوران عن أبي سعيد الخدرى مثله . وقد روى عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنه مسجد قباء . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله . ولا يخف أنك أن النبي صلى

الله عليه وآله وسلم قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى ، وجزم بأنه مسجده صلى الله عليه وآله وسلم كما
لله من الأحاديث الصحيحة ، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ولا غيرهم ولا يصح لإيراده
في مقابلة ما قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا فائدة في إيراده ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء ،
فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى ، على أن ما ورد في فضائل مسجده صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء بلا شك ولا شبهة تم . وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو الشيخ
وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء (فيه رجال
يحبون أن يتطهروا) قال : وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ، وفي إسناده يونس بن الحارث ، وهو
ضعيف . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (فيه رجال
يحبون أن يتطهروا) بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عويم بن ساعدة فقال : ما هذا الطهور الذي أثنى
الله عليكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، أو قال : مقعدته ، فقال
النبي صلى الله عليه وآله وسلم : هو هذا . وأخرج أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم وابن مردويه عن عويم
ابن ساعدة الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء
في الطهور في قصة مسجدهم ، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به ؟ قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئا إلا أنه كان
لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا . رواه أحمد عن حسن بن محمد . حدثنا
أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة فذكره . وقد أخرجه ابن خزيمة في صحيحه . وأخرج ابن ماجه وابن
المنذر وابن أبي حاتم وابن الجارود في المتن والدارقطني والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن طلحة بن نافع
قال : حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت (فيه رجال يحبون أن يتطهروا)
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يامعشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم هذا ؟
قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، قال : فهل مع ذلك غيره ؟ قالوا : لا ، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط
أحب أن يستنجي بالماء ، قال : هو ذاك فعليكموه . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في تاريخه وابن جرير
والبخاري في معجمه والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال :
لما أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد الذي أسس على التقوى مسجد قباء فقال : إن الله قد أثنى عليكم
في الطهور خيرا أفلا تخبروني ؟ يعني قوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فقالوا :
يا رسول الله إنا لنجلده مكتوبا علينا في التوراة الاستنجاء بالماء ، ونحن نفعله اليوم . وإسناده أحمد في هذا الحديث
هكذا : حدثنا يحيى بن آدم حدثني مالك يعني ابن مغول سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن
عبد الله بن سلام . وقد روى عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا . ولا يخفك أن بعض هذه
الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله ، وبعضها ضعيف ، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على
التقوى هو مسجد قباء ، وعلى كل حال لا تقاوم تلك الأحاديث المصروفة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو
مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في محتها وصراحها . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله
(فتأهروا به في نار جهنم) قال : يعني قواعده في نار جهنم . وأخرج مسدد في مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن
أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار
حيث أنهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس

في قوله (لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم) قال : يعني الشك (إلا أن تقطع قلوبهم) يعني الموت . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن حبيب بن أبي ثابت في قوله (ريبة في قلوبهم) قال : غيظا في قلوبهم (إلا أن تقطع قلوبهم) قال : إلى أن يموتوا . وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله (إلا أن تقطع قلوبهم) قال : إلا أن يتوبوا .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ الْحِمْدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) .

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، وذكر أقسامهم ، وفرع على كل قسم منها ما هو لائق به عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه ، وذكر الشراء تمثيل كما في قوله - أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى - مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء ، وأصل الشراء بين العباد هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها للمؤمنين : أي بأن يكونوا من جملة أهل الجنة ، ومن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم ، وهي أنفس الاعلاق ، والجهود بها غاية الجود :

يجود بالنفس إن ضن الجبان بها والجهود بالنفس أقصى غاية الجود

وجاد الله عليهم بالجنة ، وهي أعظم ما يطلبه العباد ، ويتوسلون إليه بالأعمال ، والمراد بالأنفس هنا أنفس المجاهدين ، وبالأموال ما ينفقونه في الجهاد . قوله (يقاتلون في سبيل الله) بيان للبيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ؟ فقيل يقاتلون في سبيل الله ، ثم بين هذه المقاتلة في سبيل الله بقوله (فيقتلون ويقتلون) والمراد أنهم يقدمون على قتل الكفار في الحرب ويبدلون أنفسهم في ذلك ، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة ، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء في الجهاد والتعرض للموت بالإقدام على الكفار . قرأ الأعمش والنخعي وحزمة والكسائي « وخلف » بتقديم المبنى للمفعول على المبنى للفاعل . وقرأ الباقر بتقديم المبنى للفاعل على المبنى للمفعول . وقوله (وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن) إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله في التوراة والإنجيل كما وقع في القرآن ، وانتصاب وعدا وحقا على المصدرية أو الثاني نعت للأول ، وفي التوراة متعلق بمحذوف : أي وعدا ثابتا فيها . قوله (ومن أوفى بعهده من الله) في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد ، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال ما لا يخفى فإنه أولا أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وجاء بهذه العبارة الفخيمة ، وهي كون الجنة قد صارت ملكا لهم ، ثم أخبر ثانيا بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزلة ، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق لا بد من حصول الموهود به فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه ، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد ، ثم زادهم سرورا وجورا ، فقال .

(فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) أى أظهروا السرور بذلك ، والبشارة هى إظهار السرور ، وظهوره يكون فى بقرة الوجه ، ولذا يقال أسارى الوجه : أى التى يظهر فيها السرور . وقد تقدم إيضاح هذا ، والقاء لترتيب الاستبشار على ما قبله . والمعنى : أظهروا السرور بهذا البيع الذى بايعتم به الله عز وجل فقد ربحتم فيه ربما لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى الجنة ، أو إلى نفس البيع الذى ربحوا فيه الجنة ، ووصف الفوز وهو الفوز بالمطلوب بالعظم يدل على أنه فوز لا فوز مثله . قوله (التائبون) خبر مبتدأ محذوف : أى هم التائبون ، يعنى المؤمنون ، والتائب الراجع : أى هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة . وقال الزجاج : الذى عنده أن قوله (التائبون العابدون) رفع بالابتداء وخبره مضمرة : أى التائبون ومن يعلمهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا . قال : وهذا أحسن ، إذ لو كانت هذه أوصافا للمؤمنين المذكورين فى قوله (اشترى من المؤمنين) لكان الواحد خاصا بمجاهدين وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين ، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين فى الآية الأولى ، وأنها على جهة الشرط : أى لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه الأوصاف . وفى مصحف عبد الله بن مسعود : التائبين العابدون إلى آخرها - وفيه وجهان : أحدهما أنها أوصاف للمؤمنين . الثانى أن النصب على المدح . وقيل إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير يقاتلون ، وجوز صاحب الكشف أن يكون التائبون مبتدأ ، وخبره العابدون ، وما بعده أخبار كذلك : أى التائبون من الكفر على الحقيقة الجاهلون لهذه الحاصل ، وفيه من البعد ما لا يخفى ، والعابدون القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص ، و (الحاملون) الذين يحملون الله سبحانه على السراء والضراء ، و (الصائمون) قيل : هم الصائمون ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى - عابدات سائحات - وإنما قيل للصائم سائح ، لأنه يترك الذات كما يتركها السائح فى الأرض ، ومنه قول أبى طالب بن عبد المطلب :

وبالصائحين لا يلبثون فطرة لربهم والراكذات العوامل

وقال آخر : تراه يصلى ليله ونهاره يظل كثير الذكر لله سائحا

قال الزجاج : ومذهب الحسن أن الصائحين هاهنا هم الذين يصومون الفرض ، وقيل إنهم الذين يديعون الصيام . وقال عطاء : الصائمون المجاهدون . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الصائمون المهاجرون . وقال عكرمة : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم . وقيل هم الجائلون بأفكارهم فى توحيد ربهم وملكوته وما خلق من العبر . والسياحة فى اللغة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء ، وهى مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر فى مخلوقات الله سبحانه ، و (الراكعون الساجدون) معناه المصلون ، و (الآمرون بالمعروف) القائمون بأمر الناس بما هو معروف فى الشريعة (والناهون عن المنكر) القائمون بالإنكار على من فعل منكرا : أى شيئا ينكره الشرع (والحافظون لحدود الله) القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه وعلى لسان رسوله ، وإنما أدخل الواو فى الوصفين الآخرين ، وهما (والناهون عن المنكر والحافظون) الخ ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة ، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه ، وقيل إن العطف فى الصفات يسمى بالواو وبغيرها كقوله - غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ، وقيل إن الواو زائدة ، وقيل هى الواو الحافظة المعروفة عند النحاة ، كما فى قوله تعالى - ثبات وأبكرا - ، وقوله - وفتحت أبوابها - ، وقوله

- سبعة وثامنهم كلهم - ، وقد أنكروا والتمانية أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه (وبشر المؤمنين) الموصوفين بالصفات السابقة .

وقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : « قال عبد الله بن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قال : وبيع البيع لا نقبل ولا نستقبل ، فنزلت (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية ، . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) فكبر الناس في المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي ودائه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم ، فقال الأنصاري : بيع ربيع لا نقبل ولا نستقبل . وقد أخرج ابن سعد عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اشترط في بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار : أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا ينازعوا في الأمر أهله . ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهلهم ، قالوا : نعم ، قال قائل الأنصار : نعم ، هذا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ قال : الجنة . وأخرجه ابن سعد أيضا من وجه آخر وليس في قصة العقبة ما يدل على أنها سبب نزول الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : من مات على هذه التسعة فهو في سبيل الله (التائبون العابدون) إلى آخر الآية . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن المنذر عن ابن عباس قال : الشهيد من كان فيه التسعة الخصال المذكورة في هذه الآية . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : العابدون الذين يقيمون الصلاة . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أول من يدعى إلى الجنة المحمادون الذين يحمدون الله على البراء والضراء وأخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن السائحين فقال : هم الصائمون . وأخرج القرطبي وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عبيد بن عمير عن أبي هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار من طريق أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا مثله . وقد روى عن أبي هريرة موقوفا ، وهو أصح من المرفوع من طريقه ، وحديث عبيد بن عمير مرسل ، وقد أسنده من طريق أبي هريرة في الرواية الثانية . وقد روى من قول جماعة من الصحابة مثل هذا : منهم عائشة عند ابن جرير وابن المنذر ، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ ، ومنهم ابن مسعود عند هؤلاء المذكورين قبله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة أن رجلا استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السياحة فقال : « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » وصححه عبد الحق . وأخرج أبو الشيخ عن الربيع في هذه الآية قال : هذه أعمال قال فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيدا ، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله . وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : الشهيد من لومات على فراشه دخل الجنة . قال : وقال ابن عباس من مات وفيه تسعة فهو شهيد . وقرأ هذه الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في

قوله (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) يعنى بالجنة ، ثم قال (التائبون) إلى قوله (والحافظون لحدود الله) يعنى القاطنين على طاعة الله ، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد ، وإذا وفوا لله بشرطه وفى لهم بشرطهم .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٢) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٣)

لما بين الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين وللمنافقين واجبة بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً ، وصرح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولى قربي . وأن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها . وقد ذكر أهل التفسير أن « ما كان » في القرآن يأتي على وجهين : الأول على النفي نحو - ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله - . والآخر على معنى النهي نحو - ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله - و (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاتة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم . والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً ، ولا ينافي هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون ربابيته وشجوا وجهه : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين . وعلى فرض أنه قد كان بلغه كما يفيد سبب النزول ، فإنه قبل يوم أحد بمدة طويلة ، وسيأتي ، فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عن تقدمه من الأنبياء كما في صحيح مسلم عن عبد الله ، قال : كآني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، وفي البخاري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر نبيا قبله شجبه لقومه ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخبر عنه بأنه قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . قوله (من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار . والمعنى أن هذا التبين موجب لقطع الموالاتة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة لأنهم ماتوا على الشرك . وقد قال سبحانه - إن الله لا يغفر أن يشرك به - فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعده الله ووعيده . قوله (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية : ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه أنه كان لأجل وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدل على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار ، ومن أعداء الله ، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين أنه كيف خفى ذلك على إبراهيم فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصر على الكفر ومات عليه ، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدو لله . فإن ثبوت هذه العداوة تدل على الكفر ، وكذلك لم يعلم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بنحرهم ذلك إلا بعد أن أخبره الله بهذه الآية ، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل . وقيل المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه إلى الإسلام ، وهو ضعيف جداً . وقيل المراد بالاستغفار في هذه الآية النهي عن الصلاة على بجنات الكفار ، فهو كقوله - ولا تصل على أحد منهم مات أبداً - ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجئ إلى ذلك ، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء للعظيم على إبراهيم ، فقال (إن إبراهيم لأواه) وهو كثير التأوه كما تدل على ذلك حقيقة المبالغة .

وقد اختلف أهل العلم في معنى الأواه . فقال ابن مسعود وعبيد بن عمير : إنه الذي يكثر الدعاء . وقال الحسن وقتادة : إنه الرحيم بعباد الله . وروى عن ابن عباس : أنه المؤمن بلفظ الحبشة . وقال الكلبي : إنه الذي يذكر الله في الأرض القفر . وروى مثله عن ابن المسيب . وقيل الذي يكثر الذكر لله من غير تقييد . روى ذلك عن عقبة بن عامر . وقيل هو الذي يكثر التلاوة ، حكى ذلك عن ابن عباس . وقيل إنه الفقيه . قاله مجاهد والنخعي . وقيل المتضرع الخاضع ، روى ذلك عن عبد الله بن شداد بن الهاد . وقيل هو الذي إذا ذكر خطاياه استغفر لها ، روى ذلك عن أبي أيوب . وقيل هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى . وقيل إنه المعلم للخير . وقيل إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله قاله عطاء . والمطابق لمعنى الأواه لغة أن يقال إنه الذي يكثر التأوه من ذنوبه . فيقول مثلاً : آه من ذنوبي آه مما أعاقب به بسببها ونحو ذلك . وبه قال القراء . وهو مروي عن أبي ذر . ومعنى التأوه هو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء . قال في الصحاح : وقد أوه الرجل تأويها ، وتأوه تأوها إذا قال أوه . والاسم منه آهة بالمد ، قال :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

و (الحليم) الكثير الحلم كما تفيد صيغة المبالغة ، وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى ، وقيل الذي لا يعاقب أحداً قط إلا الله .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاندانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأني أن يقول لا إله إلا الله . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لاستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فنزلت (ما كان للنبي) الآية وأنزل الله في أبي طالب - إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء . - وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والضياء في المختارة عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت (ما كان للنبي) الآية . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن علي قال : أخبرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم بموت أبي طالب ، فبكى ، فقال : اذهب ففسله وكفنه ووارده غفر الله له ورحمه . ففعلت ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه (ما كان للنبي) الآية . وقد روى كون سبب نزول الآية استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي طالب من طرق كثيرة : منها عن محمد بن كعب عند ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وهو مرسل . ومنها عن عمرو بن دينار عند ابن جرير وهو مرسل أيضاً . ومنها عن سعيد بن المسيب عند ابن جرير ، وهو مرسل أيضاً . ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد وأبي الشيخ وابن عساكر . ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساكر وهو مرسل . وروى أنها نزلت بسبب زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقبر أمه واستغفاره لها من طريق ابن عباس عند الطبراني وابن مردويه ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل . وعن يريدة عند ابن مردويه وما في الصحيحين مقدم على ما لم يكن فيهما على فرض أنه صحيح . فكيف وهو ضعيف

غالبه . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله - وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه - إلى قوله - كما ريباني صغيرا - قال : ثم استثنى فقال (ما كان للنبي) إلى قوله (إلا من موعدة وعدما إياه) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (فلما تبين له أنه عدو لله) قال : تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه . وأخرج الثريائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو بكر الشافعي في فوائده والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه . وأخرج ابن مردويه عن جابر أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : دعه فإنه أواه . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل يقال له ذو النجادين : إنه أواه ، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء . وأخرجه أيضا أحمد قال : حدثنا موسى بن لميعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر فذكره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : قال رجل : يا رسول الله ما الأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع الدعاء . وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأواه ، وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدثني الثني ، حدثني الحجاج بن منهل ، حدثنا عبد الحميد بن بهرام ، حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد فذكره . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (إن إبراهيم لأواه حليم) قال : كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله .

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

لما نزلت الآية المتقدمة في النهي عن الاستغفار للمشركين ، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار ، فأنزل الله سبحانه (وما كان الله ليضل قوما) الخ : أي أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ، ولا يسيبهم ضلالا بعد أن هداهم إلى الإسلام ، والقيام بشرائعه ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن تبين لهم أنه محرم ، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به ، ومعنى (حتى يبين لهم ما يتقون) حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرمات الشرع (إن الله بكل شيء عليم) مما يحل لعباده ويحرم عليهم ، ومن سائر الأشياء التي خلقها ، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك مشارك ، ولا يتنازعه

منازع يتصرف في ملكه بما شاء من التصرفات التي من جلتها أنه يحبي من قضت مشيئته بإحيائه ، ويميت من قضت مشيئته بإماتته ، وما لعباده من دونه من ولي يواليهم ولا نصير ينصرهم ، فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي ، فإن القرابة لا تنفع شيئا ولا تؤثر أثرا ، بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده . قوله (لقد تاب الله على النبي) فيما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من الإذن في التخلف ، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين ، وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله ، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار . وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق كما في قوله - عفا الله عنك لم أذنت لهم - ، ويجوز أن يكون ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا عما قد لا ينسوه منها ، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار فيما قد اقترفوه من الذنوب . ومن هذا القبيل ما صرح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله « إن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يتخلفوا عنه ، وساعة العسرة هي غزوة تبوك ، فإنهم كانوا في عسرة شديدة ، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة ، ولم يرد ساعة بعينها ، والعسرة صعوبة الأمر . قوله (من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم) في كاد ضمير الشأن ، وقلوب مرفوع بزيغ عند سيوييه . وقيل هي مرفوعة بكاد . ويكون التقدير من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ . وقرأ الأعمش وحمة وحنص « يزيغ » بالتحية . قال أبو حاتم : من قرأ بالياء التحتية ، فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد . قال النحاس : والذي لم يجهز جائر عند غيره على تذكير الجمع ، ومعنى (تزيغ) تتلف بالجهد والمشقة والشدة ، وقيل معناه : تميل عن الحق وترك المناصرة والممانعة ، وقيل معناه : هم بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدة العظيمة . وفي قراءة ابن مسعود « من بعد ما زاغت » وهم المتخلفون على هذه القراءة ، وفي تكرير التوبة عليهم بقوله (ثم تاب عليهم ليتوبوا) تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها ، هذا إن كان الضمير راجعا إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار . قوله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أي وتاب على الثلاثة الذين خلفوا : أي أخرؤا ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . قال ابن جرير : معنى خلفوا تركوا ، يقال خلفت فلانا فارقته . وقرأ عكرمة بن خالد « خلفوا » بالتخفيف : أي أقاموا بعد نهوض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين إلى الغزو . وقرأ جعفر بن محمد « خالفوا » وهؤلاء الثلاثة : هم كعب بن مالك . ومرارة بن الربيع أو ابن ربيعة العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ، وكلهم من الأنصار لم يقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم توبتهم حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم ، وقيل معنى خلفوا فسلوا ، مأخوذ من خلوف النعم . قوله (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) معناه : أنهم أخرؤا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية ، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وما مصدرية : أي برحبها ، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالتهم من كل أحد ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي الناس أن يكالمهم ، والرحب : الواسع ، يقال : منزل رحب ورحيب ورحاب . وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديبا لهم لينزجروا عن المعاصي . ومعنى ضيق أنفسهم عليهم : أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الخنوة ، وعبر بالظن في قوله (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) عن العلم : أي علموا أن لا ملجأ يدعون إليه قط إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار . قوله (ثم تاب عليهم ليتوبوا) أي رجع عليهم بالقبول والرحمة ، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وقفهم للتوبة لما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع

منهم (إن الله هو التواب) أي الكثير القبول لتوبة التائبين . (الرحيم) أي الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده . قوله (وكونوا مع الصادقين) هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله ، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم) قال : نزلت حين أخطوا القداء من المشركين يوم الأسارى . قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم ، ولكن ما كان الله ليعطب قوماً بذنب أذنبوه (حتى يبين لهم ما يتقون) قال : حتى ينهاهم قبل ذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه طاعته ومعصيته غامض ما فعلوا أو تركوا . وأخرج ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي والفضياء في المختارة عن ابن عباس أنه قال لعمر بن الخطاب : حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله إلى تبوك في قيظ شديد ، فزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعبره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فأهطلت ثم سكبت ، فأتوا مأمعهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر . وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن منده وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله في قوله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية . ومرارة بن الربيع . وكلهم من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس مثله . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة غزاهما قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدنا تخلف عنها ، إنما أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر . وإن كانت بدر أذكر منها في الناس وأشهر ، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة في كتب الحديث والسير ، وهي معلومة عند أهل العلم فلا أطول بذكرها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال : يعني خلفوا عن التوبة لم يقب عليهم حين تاب الله على أبي لبابة وأصحابه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن عساكر عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن نافع في قوله (وكونوا مع الصادقين) قال : نزلت في الثلاثة الذين خلفوا ، قيل لم كونوا مع محمد وأصحابه . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة في قوله (وكونوا مع الصادقين) قال : مع أبي بكر وعمر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الضحاك في الآية قال : مع أبي بكر وعمر وأصحابهما . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : مع علي بن أبي طالب . وأخرج ابن عساكر عن أبي جعفر قال : مع الثلاثة الذين خلفوا .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١).

في قوله (ما كان لأهل المدينة الخ) زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتحريم التخلف عنه : أى ماصح وما استقام لأهل المدينة (ومن حولهم من الأعراب) كزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار (أن يتخلفوا عن رسول الله) صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ، وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيشحون بها ويصونونها ، ولا يشحون بنفس رسول الله ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها ، يقال رغبت عن كذا : أى ترفعت عنه ، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق ، ويبدلوا أنفسهم دون نفسه ، وفي هذا الإنخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيد إرادته على هذه الصيغة من التوبيخ لهم والتفريع الشديد ، والتهيج لهم ، والإزراء عليهم . والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما يفيد السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أى ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد . والظما : العطش . والنصب : التعب . والمخصة : المجاعة الشديدة التى يظهر عندها ضمور البطن . وقرأ عبيد بن عمير « ظماء » بالمد . وقرأ غيره بالقصر . وهما لغتان مثل خطأ وخطاء ، و (لا) في هذه المواضع زائدة للتأكيد ، ومعنى (في سبيل الله) في طاعة الله . قوله (ولا يبطئون موطئا يغيظ الكفار) أى لا يدومون مكانا من أمكنة الكفار بأقدامهم أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف راحلهم ، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار . والموطئ : اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدرا (ولا ينالون من عدو نيلا) أى يصيبون من عدوهم قتيلا أو أسرا أو هزيمة أو غنيمة ، وأصله من نلت الشيء أنال : أى أصيب . قال الكسائى : هو من قولهم أمر منيل منه . وليس هو من التناول ، إنما التناول من نلته بالعطية . قال غيره : نلت أنول من العطية ، ونلته أناله : أدركته . والضمير في (به) يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة ، والعمل الصالح : الحسنة المقبولة : أى إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها ، وجملة (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ويصدق على المذكورين هنا صدقا أوليا . قوله (ولا ينفقون نفقة) معطوف على ما قبله : أى ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب وإن كان شيئا صغيرا يسيرا (ولا يقطعون واديا) وهو فى الأصل كل متفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل . والعرب تقول : واد وأودية على غير قياس . قال النحاس : ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة (إلا كتب لهم) أى كتب لهم ذلك الذى عملوه من النفقة والسفر في الجهاد (ليجزيهم الله) به (أحسن ما كانوا يعملون) أى أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال ، ويجوز أن يكون في قوله (إلا كتب لهم) ضمير يرجع إلى عمل صالح . وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها وهى قوله (وما كان للمؤمنون لينفروا كافة) فلانها تدل على جواز التخلف من البعض مع القيام بالجهاد من البعض ، وسيأتى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمر بن مالك عن بعض الصحابة قال : لما نزلت (ما كان لأهل المدينة)

الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «والذى بعثنى بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها» . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (ما كان لأهل المدينة) قال هذا حين كان الإسلام قليلا لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) . وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وإبراهيم بن محمد الفزاري وعيسى بن يونس السبيعي أنهم قالوا في قوله تعالى (ولا ينالون من عدو نيلا) قالوا : هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) .
اختلف المفسرون في معنى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد . لأنه سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد والانتداب إلى القزو كان المسلمون إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية من الكفار ينفرون جميعا ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك : أى ماصح لهم ولا استقام أن ينفروا جميعا ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ويبقى من عدا هذه الطائفة النافرة . قالوا : ويكون الضمير في قوله (ليتفقها) عائدا إلى الفرقة الباقية . والمعنى : أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى القزو . ومن بقى من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من القزو ، أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذى يجدون فيه من يتعلمون منه ليأخذوا عنه الفقه في الدين وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم . وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد ، وهى حكم مستقل بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم والتفقه في الدين . جعله الله سبحانه متصلا بما دل على إيجاب الخروج إلى الجهاد ، فيكون السفر نوعين : الأول سفر الجهاد ، والثاني السفر لطلب العلم . ولأشك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر . والفقه : هو العلم بالأحكام الشرعية ، وبما يتوصل به إلى العلم بها من لغة ونحو وصرف وبيان وأصول . ومعنى (فلولوا نفر) فهلا نفر . والطائفة في اللغة الجماعة . وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين ، وإنذار من لم يتفقه . فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين ، وهما تعلم العلم وتعليمه ، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين ، فهو طالب لغرض دنيوى لا لغرض دينى ، فهو كما قلت :

وطالب الدنيا يعلم للدين أى بائس كمن غدا لنعله بمسح بالقلانس

ومعنى (لعلمهم يحذرون) الترجى لوقوع الحذر منهم عن التفریط فيما يجب فعله فيترك ، أو فيما يجب تركه فيفعل ، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار ، وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة والجهاد واجب لكل الكفار ، وإن كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم أهم وأقدم ، ثم الأقرب فالأقرب ، ثم أخبرهم الله بما يقوى عزائمهم ويثبت أقدامهم فقال (واعلموا أن الله مع المتقين) أى بالنصرة لهم وتأيدهم على عدوهم ومن كان الله معه لم يقم له شئ .

وقد أخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخ هؤلاء الآيات - انفروا خفافا وثقالا - و- إن لا تنفروا يعذبكم - قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول : لتنفرا طائفة وتمكث طائفة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما كثون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم الذين يتخفون في الدين وينفرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، ولعلمهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عنه نحوه من طريق أخرى بسياق آتم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في هذه الآية قال : ليست هذه الآية في الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مضر بالسنين أجذبت بلادهم . فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يخلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأجهلهم ، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين . فردمهم إلى عشائهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) وفي الباب روايات عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قال : الأدنى ، فالأدنى . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قال : الروم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (وليجدوا فيكم غلظة) قال : شدة .

وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنََّّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) .

قوله (وإذا ما أنزلت سورة) حكاية منه سبحانه لبقية فضائح المنافقين : أي إذا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم سورة من كتابه العزيز فن المنافقين (من يقول) لإخوانه منهم (أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ) السورة النازلة (إِيْمَانًا) يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين . ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن

الإسلام وتزهدهم فيه ، وأيكم مرطوح بالابتداء وخيره زادته . وقد تقدم بيان معنى السورة . ثم حكى الله سبحانه بعد مقالهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيماناً إلى إيمانهم ، والحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحي وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية (وأما الذين في قلوبهم مرض) وهم المنافقون (فزادتهم) السورة المنزلة (رجساً إلى رجسهم) أى خبثاً إلى خبثهم الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد ، وإظهار غير ما يضمرونه وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفاراً منافقين ، والمراد بالمرض هنا الشك والتناقض ؛ وقيل المعنى : زادتهم إيماناً إلى إيمانهم . قوله (أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) قرأ الجمهور « يرون » بالتحية . وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطاباً للمؤمنين . وقرأ الأعشى « أولم يروا » . وقرأ طلحة بن مصرف « أولاترى » خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهى قراءة ابن مسعود . ومعنى (يفتنون) يختبرون ، قاله ابن جرير وغيره أو يبتليهم الله سبحانه باللمحط والشدة ، قاله مجاهد . وقال ابن عطية بالأمراض والأوجاع . وقال قتادة والحسن بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويرون ما وعد الله من النصر (ثم لا يتوبون) بسبب ذلك (ولا هم يذكرون) وهم لعطف ما بعدها على يرون ، والهمزة في أو لا يرون للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر : أى لا ينظرون ولا يرون ، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق وإهمالهم للنظر والاعتبار ، ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه ، فقال (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض) أى نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين (هل يراكم من أحد) من المؤمنين لتصرف عن المقام الذى ينزل فيه الوحي ، فإنه لا صبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك ، وقيل المعنى : وإذا أنزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين وغايبهم قال بعض من يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للبعض الآخر منهم : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم . وحكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال (نظر) فى هذه الآية موضوع موضع قال : أى قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد . قوله (ثم انصرفوا) أى عن ذلك المجلس إلى منازلهم ، أو عن ما يقتضى الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والتناقض ، ثم دعا الله سبحانه عليهم ، فقال (صرف الله قلوبهم) أى صرفها عن الخير وما فيه الرشد لهم والهداية ، وهو سبحانه مصرف القلوب ومقلبها ، وقيل المعنى : أنه خنطهم عن قبول الهداية ، وقيل هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه كقولهم : قاتله الله . ثم ذكر سبحانه السبب الذى لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية ، أو السبب الذى لأجله استحقوا للدعاء عليهم بقوله - صرف الله قلوبهم - فقال (بأنهم قوم لا يفقهون) ما يسمعون له عدم تدبرهم وإنصافهم ، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما بهون عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة ، فقال (لقد جاءكم) يامعشر العرب (رسول) أرسله الله إليكم له شأن عظيم (من أنفسكم) من جنسكم فى كونه عربياً وإلى كون هذه الآية خطاباً للعرب ذهب جمهور المفسرين . وقال الزجاج : هى خطاب لجميع العالم . والمعنى (لقد جاءكم رسول من) جنسكم فى البشرية (عزيز عليه ما عنتم) ما مصدرية . والمعنى : شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ومبعوثاً لهدايتكم ، والعنت : التعب لم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه ، أو بعذاب الآخرة بالنار ، أو بمجموعهما (حريص عليكم) أى شحيح عليكم بأن تدخلوا النار ، أو حريص على إيمانكم . والأول أولى ، وبه قال القراء . والرموف : الرحيم ، قد تقدم بيان معناها : أى هذا الرسول (بالمؤمنين) منكم

أيها العرب أو الناس (وعوف رحيم) ثم قال مخاطبا لرسوله ومسلينا له . ومرشدا له إلى ما يقوله حدثنا ابن عيسى (إن تولوا) أي أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه (فقل) يا محمد (حسبي الله) أي كافي الله سبحانه المظهر بالالوهية (عليه توكلت) أي فوّضت جميع أموري (وهو رب العرش العظيم) وصفه بالعظم ، لأنه أعظم المخلوقات . وقد قرأ الجمهور بالجر على أنه صفة لعرش . وقرأ ابن عيصن بالرفع صفة لرب . وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا) قال : كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيمانا وتصديقا وكانوا بها يستبشرون . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (رجسا إلى رجسهم) قال : شككا إلى شكهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (أولوا يرون أنهم يفتنون) قال : يقتلون . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه وقال : بالسنة والجوع . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : بالعدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : بالغزو في سبيل الله . وأخرج أبو الشيخ عن بكار بن مالك قال : يمرضون في كل عام مرة أو مرتين . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة قال : كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين ، فيفضل بها فتام من الناس كثير . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (نظر بعضهم إلى بعض) قال : هم المنافقون . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لا تقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوما انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة . وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر نحوه . وأقول الانصراف يكون عن الخير كما يكون عن الشر . وليس في إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعددة إذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع عن أهل الخير كالرجوع والذهاب والدخول والخروج والقيام والقعود . واللازم باطل بالإجماع ، فاللزم مثله . ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى . وأخرج عبد بن حميد والحاثر بن أبي أسامة في مسنده وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في دلائل النبوة وابن عساكر عن ابن عباس في قوله (فقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم مضربا وزبيعا ويمانيا . وأخرج ابن سعد عنه في قوله (من أنفسكم) قال : قد ولدتموه يامعشر للعرب . وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وهذا فيه انقطاع ، ولكنه قد وصله الحافظ الراهبرمزي في كتابه الفاصل بين الراوى والواعى ، فقال : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هرون بن زياد ، حدثنا ابن أبي عمير ، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبي يحدث عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي » . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) فقال علي بن أبي طالب : يا رسول الله ما معنى من أنفسكم ؟ قال : نسبا وصهرا وحسبا ، ليس في ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح » . وأخرج الحاكم عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) يعني من أعظمكم قدرا » . وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث علي الأول . وأخرج الطبراني عنه أيضا نحوه . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة نحوه . وفي الباب أحاديث بمعناه ، ويؤيد ما في صحيح مسلم وغيره من حديث وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » وفي الباب أحاديث . وأخرج ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي لفظ : آخر ما أنزل من القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر الآية ، وروى عنه نحوه من طريق أخرى أخرجهما عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن الضريس في فضائله ، وابن أبي داود في المصاحف وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والخطيب في تلخيص المتشابه والضياء في المختارة . وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة جاءته جهينة فقالوا له : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال : ولم سألتكم هذا ؟ قالوا : نطلب الأمن ، فأنزل الله هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فإن تولوا فقل حسبي الله) يعني الكفار تولوا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه ، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته وقدره .

وإلى هنا انتهى الثالث الأول من التفسير المسمى « فتح القدير » الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير بقلم مؤلفه : محمد بن علي الشوكاني ، غفر الله لهما . وكان تمام هذا الثالث في نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرم سنة ١٢٢٧ هـ

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

الحمد له : انتهى سماعا على مؤلفه . أطال الله مدته في شهر جمادى الأولى من عام سنة ١٢٣٥ هـ

يحيى بن علي الشوكاني

غفر الله لهما آمين

تفسير سورة يونس

هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله - فإن كنت في شك - إلى آخرهن ، هكذا روى القرطبي في تفسيره عن ابن عباس . وحكى عن مقاتل أنها مكية إلا آيتين ، وهي قوله - فإن كنت في شك - لأنها نزلت في المدينة . وحكى عن الكلبي أنها مكية إلا قوله - ومنهم من لا يؤمن به - لأنها نزلت بالمدينة . وحكى عن الحسن وعكرمة وعطاء وجابر أنها مكية من غير استثناء . وأخرج النحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة يونس بمكة . وأخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال : كانت سورة يونس بعد السابعة . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الله أعطاني الرأيات إلى الطواسين مكان الإنجيل » وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن الأصمعي قال : صليت خلف عمر غداة فقرأ يونس وهود وغيرهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٥) .

قوله (الرّ) قد تقدم الكلام مستوفى على هذه الحروف الواقعة في أوائل السور في أول سورة البقرة فلا نعيده ، ففيه ما يغني عن الإعادة . وقد قرأ بالإمالة أبو عمرو وحمة وخلف وغيرهم . وقرأ جماعة من غير إمالة ، وقد قيل إن معنى (الرّ) أنا الله أرى . قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ، لأن سيويه قد حكى مثله عن العرب ، وأنشد : بالخير خيرات وإن شرافا . أي وإن شرافا فشر . وقال الحسن وعكرمة (الرّ) قسم ، وقال سعيد عن قتادة (الرّ) اسم للسورة ، وقيل غير ذلك مما فيه تكلف لعلم ما استأثر الله بعلمه ، وقد اتفق القراء على أن (الرّ) ليس بآية ، وعلى أن طه آية ، وفي مقنع أبي عمرو للداني أن العاديين لطف آية هم الكوفيون فقط ، قيل ولعل الفرق أن (الرّ) لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده ، والإشارة بقوله (تلك) إلى ما تضمنته السورة من الآيات . والتباعد للتعظيم ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ما بعده . وقال مجاهد وقاتادة : أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب

المتقدمة ، فإن تلك إشارة إلى غائب مؤنث ، وقيل (تلك) بمعنى هذه : أى هذه آيات الكتاب الحكيم ، وهو القرآن ، ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يجر للكتب المتقدمة ذكر ، وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره ، و (الحكيم) المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ، قاله أبو عبيدة وغيره ؛ وقيل الحكيم معناه الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل كقوله - وأترل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه - ؛ وقيل الحكيم بمعنى المحكوم فيه فهو فعيل بمعنى مفعول : أى حكم الله فيه بالعدل والإحسان ، قاله الحسن وغيره ؛ وقيل الحكيم ذو الحكمة لاشتماله عليها والاستفهام في قوله (أكان للناس عجباً) لإنكار العجب مع ما يفيد من التقرير والتوبيخ . واسم كان (أن أوحينا) وخبرها (عجباً) أى أكان لإحساننا عجباً للناس . وقرأ ابن مسعود « عجب » على أنه اسم كان ، على أن كان تامة ، و (أن أوحينا) بدل من عجب . وقرئ بإسكان الجيم من « رجل » في قوله (إلى رجل منهم) أى من جنسهم وليس في هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضى العجب فإنه لا يلبس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه إلا من كان من جنسه ، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن ويتعذر المقصود حينئذ من الإرسال ، لأنهم لا يأنسون إليه ولا يشاهدونه . ولو فرصنا تشككه لم وظهوره ، فلما أن يظهر في غير شكل النوع الإنساني . وذلك أوحش لقلوبهم وأبعد من أنسهم . أو في الشكل الإنساني فلا بد من إنكارهم لكونه في الأصل غير إنسان ، هذا إن كان العجب منهم لكونه من جنسهم ، وإن كان لكونه يتباً أو فقيراً ، فذلك لا يمنع من أن يكون من كان كذلك جامعاً من خصال الخير والشرف ما لا يجمعه غيره وبالعاقبة كمال الصفات إلى حد يقصر عنه من كان غنياً ، أو كان غير يتيم ، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يصطفيه الله بإرساله من خصال الكمال عند قريش ما هو أشهر من الشمس وأظهر من النهار ، حتى كانوا يسمونه الأمين . قوله (أن أنذر الناس) في موضع نصب بنزع الخافض : أى بأن أنذر الناس ، وقيل هي المفسرة لأن في الإيحاء معنى القول ، وقيل : هي المخففة من الثقلة . قوله (قدم صدق) أى منزل صدق ، وقال الزجاج : درجة عالية ، ومنه قول ذي الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العالى طمنت على البحر

وقال ابن الأعرابي : القدم المتقدم في الشرف . وقال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قدم ؛ يقال : لقان قدم في الإسلام ، وله عندى قدم صدق ؛ وقدم خير ، وقدم شر ؛ ومنه قول العجاج :

زلّ بنو العوام عند آل الحكم وتركوا الملك الملك ذى قدم

وقال ثعلب : القدم كل ما قدمت من خير . وقال ابن الأنباري : للمقدم كناية عن العمل الذي لا يقع فيه تأخير ولا إبطاء . وقال قتادة : سلف صدق ، وقال الربيع : ثواب صدق . وقال الحسن : هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال الحكيم الترمذي : قدمه صلى الله عليه وآله وسلم في المقام الحمود ، وقال مقاتل : أعمالاً قدّموها واختاره ابن جرير ، ومنه قول الواضح :

صل لدى العرش واتخذ قدما ينجيك يوم الحصام والزلل

وقيل غير ما تقدم مما لا حاجة إلى التطويل بإيراده . قوله (قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) . قرأ ابن كثير وعاصم وحمة والكسائي وخلف والأعمش وابن محيصن « لساحر » على أنهم أرادوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسم الإشارة . وقرأ الباقون « لسحر » على أنهم أرادوا القرآن ، وقد تقدم معنى السحر في البقرة ، وجملة (قال الكافرون) مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب ؛ وقال القفال : فيه إضمار ، والتقدير : فلما أنذرهم قال

الكافرون ذلك . ثم إن الله سبحانه جاء بكلام يبطل به العجب الذي حصل للكفار من الإيحاء إلى رجل منهم فقال (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) أى من كان له هذا الاقتدار العظيم الذى تضيئ العقول عن تصوره كيف يكون إرساله لرسول إلى الناس من جنسهم محلا للعجب مع كون الكفار يعترفون بذلك ، فكيف لا يعترفون بصحة هذه الرسالة بهذا الرسول ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في الأعراف في قوله - إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش - فلا نعيده هنا ، ثم ذكر ما يدل على مزيد قدرته وعظيم شأنه فقال (يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وترك العاطف ، لأن جملة يدبر كالتفسير والتفصيل لما قبلها ، وقيل هى في محل نصب على الحال من ضمير استوى ، وقيل مستأنفة جواب سؤال مقدر ، وأصل التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول . وقال مجاهد : يقضيه ويقدره وحده ، وقيل يبعث الأمر ، وقيل ينزل الأمر ، وقيل يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب ، واشتقاقه من الدبر ، والأمر الشأن ، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق . قال الزجاج : إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون إن الأصنام شفعائنا عند الله ، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه ، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب . وقد تقدم معنى الشفاعة في البقرة ، وفي هذا بيان لاستبداده بالأمور في كل شيء سبحانه وتعالى ، والإشارة بقوله (ذلكم) إلى فاعل هذه الأشياء من الخلق والتدبير : أى الذى فعل هذه الأشياء العظيمة (الله ربكم) واسم الإشارة مبتدأ وخبره الاسم الشريف ، وربكم بدل منه أو بيان له أو خبر ثان ، وفي هذه الجملة زيادة تأكيد لقوله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض) ثم أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن بين لهم أنه الحقيق بها دون غيره لبدیع صنعته وعظيم اقتداره ، فكيف يعبدون الحمادات التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تنصر ؟ والاستفهام في قوله (أفلا تذكرون) للإنكار والتوبيخ والتفريع ، لأن من له أدنى تذكر وأقل اعتبار يعلم بهذا ولا يخفى عليه ، ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا ، فقال (إليه مرجعكم جميعا) وفي هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى ، وانتصاب (وعد الله) على المصدر ، لأن في قوله (إليه مرجعكم جميعا) معنى الوعد أو هو منصوب بفعل مقدر ، والمراد بالمرجع الرجوع إليه سبحانه إما بالموت أو بالبعث أو بكل واحد منهما ، ثم أكد ذلك الوعد بقوله (حقا) فهو تأكيد لتأكيد فيكون في الكلام من الوكادة ما هو الغاية في ذلك . وقرأ ابن أبي عملة (وعد الله حق) على الاستئناف ، ثم علل سبحانه ما تقدم بقوله (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى إن هذا شأنه يتبدى خلقه من التراب ثم يعيده إلى التراب ، أو معنى الإعادة الجزاء يوم القيامة . قال مجاهد : ينشئه ثم يميت ، ثم يحييه للبعث ، وقيل ينشئه من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد بن القعقاع : أنه يبدأ الخلق بفتح الهزة ، فتكون الجملة في موضع نصب بما نصب به وعد الله : أى وعدكم أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق ، وأجاز الفراء أن تكون وأن في موضع رفع فتكون اسما . قال أحمد بن يحيى بن ثعلب يكون التقدير حقا لإبداؤه الخلق ، ثم ذكر غاية ما يترتب على الإعادة فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل الذى لا جور فيه (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) يحصل أن يكون الموصول الآخر معطوفا على الموصول الأول : أى ليجزى الذين آمنوا ويجزى الذين كفروا وتكون جملة (لهم شراب من حميم) في محل نصب على الحال هى وما عطف عليها : أى وعذاب أليم ويكون التقدير هكذا ويجزى الذين كفروا حال كون لهم هذا الشراب وهذا العذاب ، ولكن يشكل على ذلك أن هذا الشراب وهذا العذاب الأليم هما من الجزاء ، ويمكن أن يقال : إن الموصول في (والذين كفروا) مبتدأ وما بعده خبره ، فلا يكون معطوفا

على الموصول الأول . والباء في (بما كانوا يكفرون) للسيئة : أى بسبب كفرهم ، والحميم : الماء الحار ، وكل مسخن عند العرب فهو حميم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله (الر) قال : فواتح أسماء من أسماء الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات وابن النجار في تاريخه عنه قال : في قوله (الر) أنا الله أرى . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك مثله أيضا . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله (تلك آيات الكتاب) قال : يعنى هذه . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (تلك آيات الكتاب) قال : الكتب التي خلت قبل القرآن . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم : فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، فأنزل الله (أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم) الآية - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم - الآية ، فلما كرر الله سبحانه عليهم الحج قالوا : وإذا كان بشرا . فغير محمد كان أحق بالرسالة - فلولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - يقول : أشرف من محمد . يعنون الوليد بن المغيرة من مكة : ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل الله ردّا عليهم - أمهم يتسمون رحمة ربك - الآية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) قال : ماسبق لهم من السعادة في الذكر الأول . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : أجرا حسنا بما قدّموا من أعمالهم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : القدم هو للعمل الذي قدّموا . قال الله سبحانه - من كتب ما قدّموا وآثارهم - والآثار ممشاهم . قال : مشى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال : هذا أثر مكتوب . وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري في قوله (قدم صدق) قال : محمد صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لهم . وأخرج ابن مردويه عن علي بن ابن أبي طالب مثله . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال : سلف صدق . والروايات عن التابعين وغيرهم في هذا كثيرة ، وقد قدّمنا أكثرها . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (يدبر الأمر) قال : يقضيه وحده . وفي قوله (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) قال : يحيه ثم يميتة ثم يحيه .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) .

ذكر هاهنا بعض نعمه على المكلفين . وهي مما يستدل به على وجوده ووحدته وقدرته وعلمه وحكمته بإتقان صنعه في هذين الثبرين المتعاقبين على الدوام بعد ما ذكر قبل هذا إبداعه للسموات والأرض ، واستواءه على العرش وغير ذلك . والضياء قيل جمع ضوء كالسياط والحياض . وقرأ قبيل عن ابن كثير « ضياء » يجعل الباء همزة مع الهمزة . ولا وجه له لأن ياءه كانت واوا مفتوحة : وأصله « ضواء » فقلبت ياء لكسر ما قبلها . قال الملهوي :

ومن قرأ ضياء بالهمزة فهو مقلوب قدّمت الهمزة التي بعد الألف ، فصارت قبل الألف ، ثم قلبت الياء لهمزة ، والأولى أن يكون ضياء مصدرا لاجما ، مثل قام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، ولا بدّ من تقدير مضاف : أى جعل الشمس ذات ضياء والقمر ذا نور إلا أن يحمل على المبالغة ، وكأنهما جملا نفس الضياء والنور ، قيل الضياء أقوى من النور ، وقيل الضياء هو ما كان بالذات ، والنور ما كان بالعرض ، ومن هنا قال الحكماء : إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس . قوله (وقدّره منازل) أى قدر مسيره في منازل ، أو قدره ذا منازل ، والضمير راجع إلى القمر . ومنازل القمر : هي المسافة التي يقطعها في يوم وليلة بحركته الخاصة به ، وجملة ثمانية وعشرون وهي معروفة . ينزل القمر في كل ليلة منها منزلا لا يتخطاه ، فيبدو صغيرا في أول منزله ، ثم يكبر قليلا قليلا حتى يبدو كاملا . وإذا كان في آخر منزله رق واستقوس ، ثم يستر ليلتين إذا كان الشهر كاملا . أو ليلة إذا كان ناقصا ، والكلام في هذا يطول ، وقد جمعنا فيه رسالة مستقلة جوابا عن سؤال أو رده علينا بعض الأعلام . وقيل إن الضمير راجع إلى كل واحد من الشمس والقمر ، كما قيل في قوله تعالى - وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها - ، وفي قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقد قدّمنا تحقيق هذا فيما سبق من هذا التفسير والأولى رجوع الضمير إلى القمر وحده ، كما في قوله تعالى - والقمر قدّره منازل - ، ثم ذكر بعض المنافع المتعلقة بهذا التقدير ، فقال (لتعلموا عدد السنين والحساب) فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى ، وفي العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يحصى ، ولولا هذا التقدير الذي قدّره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم . والسنة تحصل من اثني عشر شهرا ، والشهر يتحصل من ثلاثين يوما إن كان كاملا ، واليوم يتحصل من ساعات معلومة هي أربع وعشرون ساعة لليل والنهار قد يكون لكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة في أيام الاستواء ، ويزيد أحدهما على الآخر في أيام الزيادة وأيام النقصان ، والاختلاف بين السنة الشمسية والقمرية معروف ، ثم بين سبحانه أنه ما خلق الشمس والقمر واختلاف تلك الأحوال إلا بالحق والصواب دون الباطل والعبث ، فالإشارة بقوله (ذلك) إلى المذكور قبله ، والاستثناء مفرّغ من أعم الأحوال ، ومعنى تفصيل الآيات تبينها . والمراد بالآيات التكوينية أو التزيلية أو مجموعهما ، وتدخل هذه الآيات التكوينية المذكورة هنا دخولا أوليا في ذلك . قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب « يفصل » بالتحية . وقرأ ابن السميع « تفصل » بالفوقية على البناء للمفعول . وقرأ الباقر والنون . واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الأولى ، ولعل وجه هذا الاختيار أن قبل هذا الفعل (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وبعده (وما خلق الله في السموات والأرض) ثم ذكر سبحانه المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وما خلق في السموات والأرض من تلك المخلوقات ، فقال (إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) أى الذين يتقون الله سبحانه ويحتنبون معاصيه وخصهم بهذه الآيات لأنهم الذين يمعنون النظر والتفكر في مخلوقات الله سبحانه حذرا منهم عن الوقوع في شيء مما يخالف مراد الله سبحانه ونظرا لعاقبة أمرهم ، وما يصلحهم في معادهم . قال القفال : من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لبقاء الناس فيها ، وأن خالقها وخالقهم ما أمهلهم بل جعلها لهم دار عمل ، وإذا كان كذلك فلا بدّ من أمر ونهى .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله تعالى (جعل الشمس ضياء والقمر نورا) قال : لم يجعل الشمس كهينة القمر لكي يعرف الليل من النهار ، وهو قوله (فخونا آية الليل) الآية . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : وجوههما إلى السموات . وأقبيتها إلى الأرض . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو مثله . وأخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدى قال : لو أن الله تبارك وتعالى لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد ، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فكل شيء وغطى كل شيء ، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فحاشا سلطان الليل ، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض ، وفي النجوم ، وفي الشتاء والصيف . فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاؤِهِمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَنكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

شرح الله سبحانه في شرح أحوال من لا يؤمن بالمعاد ، ومن يؤمن به ، وقدم الطائفة التي لم تؤمن ، لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون بما لا عجب فيه ، ويهملون النظر والتفكير فيما لا ينبغي إهماله مما هو مشاهد لكل حتى طول حياته ، فينسب عن إهمال النظر ، والتفكير الصادق : عدم الإيمان بالمعاد ، ومعنى الرجاء هنا الخوف ، ومنه قول الشاعر .

إذا سمعته النحل لم يرج لنعها وخالفها في بيت نوب عواسل

وقيل يرجون : يطعمون ، ومنه قول الشاعر :

أترجونني مروان سمعي وطاعني وقوى نعيم والفلاة ورائيا

فالمعنى على الأول لا يخافون عقابا ، وعلى الثاني لا يطعمون في ثواب إذا لم يكن المراد باللقاء حقيقته ، فإن كان المراد به حقيقته كان المعنى : لا يخافون رؤيتنا أو لا يطعمون في رؤيتنا ، وقيل المراد بالرجاء هنا التوقع فيدخل تحته الخوف والطمع ، فيكون المعنى (لا يرجون لقاءنا) لا يتوقعون لقاءنا فهم لا يخافونه ولا يطعمون فيه (ورضوا بالحياة الدنيا) أي رضوا بها عرضا عن الآخرة . فعملوا لها (واطمأنوا بها) أي سكنت أنفسهم إليها وفرحوا بها (والذين هم عن آياتنا غافلون) لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها (أولئك ماؤاهم) أي مثواهم ومكان إقامتهم النار ، والإشارة إلى المنتصفين بالصفات السابقة من عدم الرجاء ، وحصول الرضا والاطمئنان ، والغفلة (بما كانوا يكسبون) أي بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد فهذا حال الذين لا يؤمنون بالمعاد ، وأما حال الذين يؤمنون به فقد بينه سبحانه بقوله (إن الذين آمنوا) أي فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم بسبب ما وقع منهم

من التفكير والاعتبار فيها تقدم ذكره من الآيات (وعللوا الصالحات) التي يقتضيها الإيمان ، وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين (يهدىهم ربهم بالإيمان) أي يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المقصوم إليه العمل الصالح فيصلون بذلك إلى الجنة ، وجملة (تجربى من تحتهم الأنهار) مستأنفة أو خبر ثان أوفى عمل نصب على الحال . ومعنى من تحتهم : من تحت بسايتهم أو من بين أيديهم لأنهم على سرر مرفوعة . وقوله (في جنات النعيم) متعلق بتجربى أو يهدىهم أو خبر آخر أو حال من الأنهار . قوله (دعواهم) أي دعاؤهم وندائهم ، وقيل الدعاء العبادة كقوله تعالى - وأعزلكم وما تدعون من دون الله - وقيل معنى دعواهم هنا الادعاء الكائن بين المتخاصمين . والمعنى : أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعايب والإقرار له بالإلهية . قال القفال : أصله من الدعاء لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما ، وقيل معناه : طريقهم وسيرتهم ، وذلك أن المدعى للشئ مواظب عليه فيمكن أن يجعل الدعوى كناية عن الملازمة وإن لم يكن في قوله (سبحانك اللهم) دعوى ولا دعاء ، وقيل معناه : تمنىهم كقوله - ولهم ما يدعون - وكان تمنىهم في الجنة ليس إلا تسبيح الله وتقديسه ، وهو مبتدأ وخبره سبحانه اللهم ، و (فيها) أي في الجنة . والمعنى على القول الأول : أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسبيح الله وتقديسه . والمعنى : تسبحك يا الله تسبيحا . قوله (وتحييهم فيها سلام) أي تحية بعضهم لبعض ، فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل . أو تحية الله أو الملائكة لهم ، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول . وقد مضى تفسير هذا في سورة النساء . قوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين . قال النحاس : مذهب الخليل أن «أن» هذه مخففة من الثقيلة . والمعنى : أنه الحمد لله . وقال محمد بن يزيد المبرد : ويجوز أن تعملها خفيفة عملها ثقيلة . والرفع أقيس . ولم يحك أبو عبيد إلا التخفيف . وقرأ ابن عبيص بتشديد «أن» ونصب الحمد .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (ورضوا بالحياة الدنيا) قال : مثل قوله - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها - الآية . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضا في قوله (يهدىهم ربهم بالإيمان) قال : يكون لهم نور يمشون به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (يهدىهم ربهم بالإيمان) قال : حدثنا الحسن قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة وريح طيبة ، فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إني لأراك عين امرئ صدق ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نورا وقالدا إلى الجنة ؛ وأما الكافر فإذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيقول له : ما أنت ؟ فوالله إني لأراك عين امرئ سوء ، فيقول له : أنا عملك . فينطلق به حتى يندخل النار » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إذا قالوا سبحانك اللهم أنام ما اشتبهوا من الجنة من ربهم» وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي الهذيل قال : الحمد أول الكلام وآخر الكلام ، ثم تلا (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَرُ الَّذِينَ

لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا
أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ
فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَإِذَا تَثَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ
تِلْقَائِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ (١٥)
قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (١٦) .

لما ذكر الله سبحانه الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد ، ذكر أن هذا العذاب من حقه أن يتأخر عن هذه الحياة
الدنيا . قال القفال : لما وصفهم بالغفلة أكد ذلك بأن من غاية غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب .
فبين الله سبحانه أنه لا مصلحة في إيصال الشر إليهم ، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلاهم من يؤمن ، قيل معنى
(ولو يعجل الله للناس الشر استعجلهم بالخير) : لو عجل الله للناس العقوبة كما يتعجلون بالثواب والخير (لقضى
إليهم أجلهم) أى ماتوا ، وقيل المعنى : لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في
إجابته إلى الخير لأهلكهم ، وقيل الآية خاصة بالكفار الذين أنكروا البعث وما يترتب عليه . قال في الكشف :
وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته وإسعافه بطلبهم حتى كأن استعجالهم بالخير
تعجيل له . والمراد أهل مكة وقولهم - فأمطر علينا حجارة من السماء - الآية . قيل والتقدير : ولو يعجل الله لهم الشر
عند استعجالهم به تعجيلاً مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به ، فحذف ما حذف لدلالة الباقي عليه . قال أبو علي
الفارسي : في الكلام حذف ، والتقدير (واو يعجل الله للناس للشر) تعجيلاً مثل (استعجالهم بالخير) ، ثم حذف
تعجيلاً وأقام صفته مقامه ، ثم حذف صفته وأقام المضاف إليه مقامه قال : هذا مذهب الخليل وسيبويه . وهو
قول الأنخس والفراء ، قالوا : وأصله كاستعجالهم : ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء : كما تقول ضربت
زيداً ضربك : أى كضربك ، ومعنى (لقضى إليهم أجلهم) لأهلكوا . ولكنه سبحانه لم يعجل لهم الشر فأهلوا .
وقيل معناه : أميتوا . وقرأ ابن عامر « لقضى » على البناء للفاعل ، وهى قراءة حسنة لمناسبة ذلك لقوله (ولو يعجل
الله) . قوله (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون) الفاء للعطف على مقدر يدل عليه الكلام ، لأن
قوله (ولو يعجل الله) يتضمن نفي التعجيل ، فكأنه قيل : لكن لا يعجل لهم الشر ولا يقضى إليهم أجلهم فنذرهم
الخ : أى فتركهم وتمهلهم ، والطنبان : التناول . وهو العلو والارتفاع . ومعنى (يعمهون) يتحiron : أى

تركهم يتحIRON في تطاولهم وتكبرهم وعدم قبولهم للحق استدراجا لهم منه سبحانه وخذلانا : ثم بين الله سبحانه أنهم كاذبون في استعجال الشر ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع فقال (وإذا مس الإنسان الضر) أى هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل الضرر به (دعانا لجنبه) اللام للوقت كقوله جثته لشهر كذا ، أو في محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدة أو قائما عليه ، وتكون اللام بمعنى على : أى دعانا مضطجعا (أوقاعدا أو قائما) وكأنه قال : دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخص بالذكر لأنها الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود ، وقاعدة غير قادر على القيام ، وقائما غير قادر على المشي ، والأول أولى . قال للزجاج : إن تعديل أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرة . لأنه إذا كان داعيا على الدوام ، ثم نسي في وقت الرخاء كان أعجب . قوله (فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره) أى فلما كشفنا عنه ضره الذى مسه كما تفيد الفاء مضى على طريقته التى كان عليها قبل أن يمس الضر ونسي حالة الجهد والبلاء . أو مضى عن موقف الدعاء والتضرع ليرجع إليه كأنه لا عهد له به كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضر إلى كشف ذلك الضر الذى مسه . وقيل معنى (مر) استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ . قال الأخفش : « أنه في (كأن لم يدعنا) هي المخففة من الثقيلة . والمعنى : كأنه انتهى . والجملة التشبيهية في محل نصب على الحال . وهذه الحالة التى ذكرها الله سبحانه للداعى لا تختص بأهل الكفر . بل تنفق لكثير من المسلمين تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون به . فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع . وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم الله بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع منازلهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه . وهذا مما يدل على أن الآية نعم المسلم والكافر كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان . اللهم أوزعنا شكر نعمك : وأذكرنا الأحوال التى مننت علينا فيها بإجابة الدعاء . حتى نستكثر من الشكر الذى لا ينطق سواه ولا نقدر على غيره . وما أغناك عنه وأخرجنا إليه . لئن شكرتم لأزيدنكم . والإشارة بقوله (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مر غير مرة أى مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم . والمسرف في اللغة : هو الذى ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس . ومحل كذلك النصب على المصدرية . والتزيين هو إمام من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم . أو من طريق الشيطان بالوسوسة . أو من طريق النفس الأمارة بالسوء . والمعنى : أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات . ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الردع والزجر عما صنعته هؤلاء فقال (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) يعنى الأمم الماضية من قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أى أهلكناهم من قبل زمانكم . وقيل الخطاب لأهل مكة على طريق الالتفات للمبالغة في الزجر . و (لما) ظرف لأهلكنا : أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالكذب . والتجارى على الرسل . والتطاول في المعاصي من غير تأخير لإهلاكهم كما أخرنا إهلاككم . والواو في (وجاءتهم رسلهم بالبينات) للحال باضمار قد : أى وقد جاءتهم رسلهم الذين أرسلناهم إليهم بالبينات : أى بالآيات البينات الواضحات الدلالة على صدق الرسل . وقيل الواو للعطف على (ظلموا) والأول أولى : وقيل المراد بالظلم هنا هو الشرك . والواو في (وما كانوا ليؤمنوا) للعطف على ظلموا . أو الجملة اعتراضية . واللام لتأكيد النفي : أى وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا لعدم استعدادهم لذلك وسلب الألفاف عنهم (كذلك نجزي القوم المجرمين) أى مثل ذلك الجزاء نجزي القوم المجرمين . وهو الاستئصال الكلى لكل مجرم . وهذا وعيد شديد لمن كان في عصره من الكفار .

أو لكفار مكة على الخصوص . ثم خاطب سبحانه الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (ثم جعلناكم خلائف) أى استخلفناكم فى الأرض بعد تلك القرون التى تسمعون أخبارها وتنظرون آثارها ، والخلائف جمع خليفة ، وقد تقدم الكلام عليه فى آخر سورة الأنعام ، واللام فى (لتنظر كيف تعملون) لام كى : أى لكى تنظر كيف تعملون من أعمال الخير أو الشر ، و (كيف) فى محل نصب بالفعل الذى بعده : أى لتنظر أى عمل تعملونه ، أو فى محل نصب على الحالية : أى على أى حالة تعملون الأعمال الالاقفة بالاستخلاف ، ثم حكى الله سبحانه نوعا ثالثا من تعنتهم وتلاعبهم بآيات الله فقال (وإذا تلى عليهم آياتنا بينات) وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم ، والمراد بالآيات الآيات التى فى الكتاب العزيز : أى وإذا تلا التالى عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حال كونها بينات : أى واضحات الدلالة على المطلوب (قال الذين لا يرجون لقاءنا) وهم المنكرون للمعاد ، وقد تقدم تفسيره قريبا : أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (انت بقرآن غير هذا أو بدله) طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سمعوا ما غاظهم فيما تلاه عليهم من القرآن من ذم عبادة الأوثان ، والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن مع بقاء هذا القرآن على حاله ، وإما تبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم ، فأمره الله أن يقول فى جوابهم (ما يكون لى) أى ما ينبغى لى ولا يحل لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، فتنى عن نفسه أحد القسمين ، وهو التبديل لأنه الذى يمكنه لو كان ذلك جائزا ، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر ، فإن ذلك ليس فى وسعه ولا يقدر عليه . وقيل إنه صلى الله عليه وآله وسلم تنى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على نى أصعبهما بالطريق الأولى ، وهذا منه صلى الله عليه وآله وسلم من باب مجازاة السفهاء ، إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سبحانه بذلك . وهو أعلم بمصالح عباده وبما يدفع الكفار عن هذه الطلبات الساوقة والسؤالات الباردة ، و (تلقاء) مصدر استعمل ظرفا ، من قبل نفسى . قال الزجاج : سأله إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ، وقيل سأله أن يسقط ما فيه من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، وقيل سأله أن يحول الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ، ثم أمره أن يؤكد ما أجاب به عليهم من أنه ما صح له ولا استقام أن يبدله من تلقاء نفسه بقوله (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) أى ما أتبع شيئا من الأشياء إلا ما يوحى إلى من عند الله سبحانه من غير تبديل ولا تحويل ولا تحريف ولا تصحيف ، فقصر حاله صلى الله عليه وآله وسلم على اتباع ما يوحى إليه ، وربما كان مقصد الكفار بهذا السؤال التعريض للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن القرآن كلامه وأنه يقدر على الإتيان بغيره والتبديل له ، ثم أمره الله سبحانه أن يقول لهم تكميلا للجواب عليهم (إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) فإن هذه الجملة كالتعليل لما قدمه من الجواب قبلها . واليوم العظيم هو يوم القيامة : أى (إني أخاف إن عصيت ربي) بفعل ما تطلبون على تقدير إمكانه عذاب يوم القيامة ، ثم أكد سبحانه كون هذا القرآن من عند الله وأنه صلى الله عليه وآله وسلم إنما يبلغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه لا يقدر على غير ذلك ، فقال (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) أى أن هذا القرآن المتلو عليكم هو بمشيئة الله وإرادته ولو شاء الله أن لا أتله عليكم ولا أبلغكم إياه ما تلوته ، فالأمر كله متوط بمشيئة الله ليس لى فى ذلك شيء . قوله (ولا أدراكم به) معطوف على ما تلوته ، ولو شاء الله ما أذركم بالقرآن : أى ما أعلمكم به على لسانى يقال : دريت الشيء وأدرانى الله به . هكذا قرأ الجمهور بالألف من أدراه يدره أعلمه يعلمه . وقرأ ابن كثير (ولا أدراكم به) بغير ألف بين اللام والهمزة ، والمعنى : ولو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتله عليكم . فتكون اللام لام

التأكيد دخلت على ألف أفعل . وقد قرئ « أدرككم » بالهمزة فقل هي متقلبة عن الألف لكونهما من واد واحد . ويحتمل أن يكون من درأته إذا دفعته . وأدراؤه إذا جعلته حاريا . والمعنى : لأجعلكم بتلاوته خصباء تدرعونني بالجدال وتكذبونني . وقرأ ابن عباس والحسن (ولا أدراكم به) قال أبو حاتم : أصله ولا أدريتمكم به . فأبدل من الياء ألفا . قال النحاس : وهذا غلط . والرواية عن الحسن « ولا أدراكم » بالهمزة . قوله (فقد ابشت فيكم عمرا من قبله) تعليل لكون ذلك بمشيئة الله ولم يكن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا التبليغ : أي قد أقمت فيما بينكم عمرا من قبله : أي زمانا طويلا ، وهو أربعون سنة من قبل القرآن تعرفونني بالصدق والأمانة . لست ممن يقرأ ولا ممن يكتب (أفلا تعقلون) الهمزة للتقريع والتوبيخ : أي أفلا تنجرون على ما يقتضيه العقل من عدم تكذيبى لما عرفتم من العادة المستمرة إلى المدة الطويلة بالصدق والأمانة . وعدم قراءتى للكتب المنزلة على الرسل وتعلمى لما عند أهلها من العلم . ولا طلبى لشيء من هذا الشأن ولا حرصى عليه . ثم جئتكم بهذا الكتاب الذى عجزتم عن الإتيان بسورة منه . وقصرتم عن معارضته وأنتم العرب المشهود لهم بكمال الفصاحة المعترف لهم بأنهم البالغون فيها إلى مبلغ لا يتعلق به غيركم ؟

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولو يعجل الله الناس الشر) الآية . قال : هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم : اللهم لاتبارك فيه والعنه (لقضى إليهم أجلهم) قال : لأهلك من دعا عليه وأمانته . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في الآية قال : قول الرجل للرجل : اللهم العنه . اللهم اخزه . وهو يجب أن يستجاب له . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له . وحكى القرطبي في تفسيره عن ابن إسحاق ومقاتل في الآية قالا : هو قول النضر بن الحارث - اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء - فلو عجل لهم هذا لهلكوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله (دعانا لجنبه) قال : مضطجعا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله (دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) قال : على كل حال . وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال ادع الله يوم سرائك يستجاب لك يوم ضرائك .

وأقول أنا : أكثر من شكر الله على السراء يدفع عنك الضراء . فإن وعده للشاكرين بزيادة النعم مؤذن بدفعه عنهم النقم لذهاب حلاوة النعمة عند وجود مرارة النعمة : اللهم اجمع لنا بين جلب النعم وسلب النقم ، فانا نشكرك عدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان . ونحمدك عدد ما حمدك الحامدون بكل لسان في كل زمان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ثم جعلناكم خلائف في الأرض) الآية ، قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية فقال : صدق ربنا ما جعلنا خلائف في الأرض إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله خير أعمالكم بالليل والنهار والسر والعانية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : (خلائف في الأرض) لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (انت بقرآن غير هذا أو بدله) قال : هذا قول مشركى أهل مكة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ولا أدراكم به) أهلكم به . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : (ولا أدراكم به) ولا أشركم به . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ولا أنذرتكم به) . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى في قوله (فقد ابشت فيكم عمرا من قبله) قال : لم أتل عليكم ولم أذكر . وأخرج جاحضه قال : لبث أربعين سنة قبل أن يرحى إليه

ورأى الرويا سنتين ، وأوحى الله إليه عشر سنين بمكة ، وعشرا بالمدينة . وتوفي وهو ابن اثنتين وستين سنة . وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري والترمذي عن ابن عباس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأربعين سنة ، فكث بمكة ثلاثة عشر يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)
وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) .

قوله (فمن أظلم) استفهام فيه معنى الجحد أى لا أحد أظلم (ممن افترى على الله) الكذب وزيادة (كذبا) مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لبيان أن هذا مع كونه افتراء على الله هو كذب في نفسه ، وربما يكون الافتراء كذبا في الإسناد فقط . كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو . ذكر معنى هذا أبو السعود في تفسيره . قيل وهذا من جملة رده صلى الله عليه وآله وسلم على المشركين لما طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن . أو يبدله . فبين لهم أنه لو فعل ذلك لكان من الافتراء على الله . ولا ظلم بمائل ذلك . وقيل المفتري على الله الكذب هم المشركون ، والمكذب بآيات الله هم أهل الكتاب (إنه لا يفلح المجرمون) تعليل لكونه لا أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته : أى لا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ، والضمير في (إنه) للشأن : أى إن الشأن هذا . ثم نعى الله سبحانه عليهم عبادة الأصنام ، وبين أنها لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدها فقال (ويعبدون من دون الله) أى متجاوزين الله سبحانه إلى عبادة غيره . لا بمعنى ترك عبادته بالكلية (ما لا يضرهم ولا ينفعهم) أى ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع ، ومن حق المعبود أن يكون مثيلا لمن أطاعه معاقبا لمن عصاه ، والواو لعطف هذه الجملة على جملة (وإذا تتلى عليهم آياتنا) و (ما) في (ما لا يضرهم) موصوأة أو موصوفة ، والواو في (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) للعطف على (ويعبدون) زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله فلا يعذبهم بدنوبهم ، وهذا غاية الجهالة منهم حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجبونه نفع ولا ضرر في الحال : وقيل أرادوا بهذه الشفاعة إصلاح أحوال دنياهم ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يجيب عنهم فقال (قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض) قرأ أبو السمال العدوي (تنبئون) بالتخفيف من أنبا ينبيء . وقرأ من عداه بالتشديد من نبا ينبيء . والمعنى : أنخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد ، أو أنخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكا ولا شفيعا بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سمواته وفي أرضه ؟ وهذا الكلام حاصله عدم وجود من هو كذلك أصلا ، وفي هذا من التهمم بالكفار ما لا يحصى ، ثم نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم ، وهو محتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب به عليهم ، وبمحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم جوابا عليهم . قرأهمزة والكسائي

(عما يشركون) بالتحية . وقرأ الباقون بالفوقية . واختار القراءة الأولى أبو عبيد . قوله (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) قد تقدم تفسيره في البقرة . والمعنى : أن الناس ما كانوا جميعا إلا أمة واحدة موحدة لله سبحانه مؤمنة به : فصار البعض كافرا وبقى البعض الآخر مؤمنا فخالف بعضهم بعضا . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك . وقال : كل مولود يولد على الفطرة : فاختلفوا عند البلوغ : والأول أظهر . وليس المراد أن كل طائفة أحدثت ملة من ملل الكفر مخالفة للآخرى ، بل المراد كفر البعض وبقى البعض على التوحيد كما قدمنا (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي أنه سبحانه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا يوم القيامة (لقضى بينهم) في الدنيا (فيما) هم (فيه يختلفون) لكنه قد امتنع ذلك بالكلمة التي لا تتخلف . وقيل معنى (لقضى بينهم) بإقامة الساعة عليهم . وقيل لفرغ من هلاكهم . وقيل الكلمة إن الله أمهل هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا : وقيل الكلمة أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة . وهي إرسال الرسل كما قال تعالى - وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا - . وقيل الكلمة قوله « سبقت رحمتي غضبي » . وقرأ عيسى بن عمر « لقضى » بالبناء للفاعل . وقرأ من عداه بالبناء للمفعول .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قال النضر : إذا كان يوم القيامة شفتى اللات والعزى ، فأنزل الله (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ، ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) الآية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) قال ابن مسعود : كانوا على هدى . وروى أنه قرأ هكذا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وما كان الناس إلا أمة واحدة) قال : آدم وحده (فاختلفوا) قال : حين قتل أحد ابني آدم أخاه . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : كان الناس أهل دين واحد على دين آدم فكفروا ، قلولا أن ربك أجلهم إلى يوم القيامة لقضى بينهم .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْئِهِمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأَبْرُ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَيْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

قوله (ويقولون) ذكر سبحانه هاهنا نوعا رابعا من مخازيهم ، وهو معطوف على قوله (ويعجلون) وجاء بالمضارع لاستحضار صورة ما قالوه . قيل والقائلون هم أهل مكة ، كأنهم لم يعتدوا بما قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة التي لو لم يكن منها إلا القرآن لكنى به دليلا بينا ومصدقا قاطعا : أى هلا أنزلت عليه آية من الآيات التي تقترحها عليه ونطلبها منه كإحياء الأموات وجعل الجبال ذهبا ونحو ذلك ؟ ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم فقال (قل إنما الغيب لله) أى أن نزول الآية غيب ، والله هو المختص بعلمه ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لكم ولا لسائر مخلوقاته (فانتظروا) نزول ما اقترحتموه من الآيات (إني معكم من المنتظرين) لنزولها ، وقيل المعنى : انتظروا قضاء الله بينى وبينكم بإظهار الحق على الباطل . قوله (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لم مكر في آياتنا) لما بين سبحانه في الآية المتقدمة أنهم طلبوا آية عنادا ومكرا وبحاجا ، وأكد ذلك بما ذكره هنا من أنه سبحانه إذا أذاقهم رحمة منه من بعد أن مستهم الضراء فعلوا مقابل هذه النعمة العظيمة المكر منهم في آيات الله ، والمراد بإذاقهم رحمة سبحانه أنه وسع عليهم في الأرزاق ، وأدر عليهم النعم بالمطر وصلاح الثمار بعد أن مستهم الضراء بالجدب وضيق المعاش ، فما شكروا نعمته ولا قدروها حتى قدرها ، بل أضافوها إلى أصنامهم التي لا تنفع ولا تضر ، وطعنوا في آيات الله واحتالوا في دفعها بكل حيلة ، وهو معنى المكر فيها . وإذا الأولى شرطية ، وجوابها إذا لم مكر ، وهى فجائية ، ذكر معنى ذلك الخليل وسيبويه . ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عنهم فقال (قل الله أسرع مكر) أى أعجل عقوبة ، وقد دلّ أفعل التفضيل على أن مكروهم كان سريعا ، ولكن مكر الله أسرع منه . وإذا الفجائية يستفاد منها السرعة ، لأن المعنى أنهم فاجتوا المكر : أى أوقعوه على جهة الفجاءة والسرعة ، وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرا من باب المشاكلة كما قرّر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) قرأ يعقوب في رواية وأبو عمرو في رواية «يمكرون» بالتحية ، وقرأ الباقر بالفوقية . والمعنى : أن رسل الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار لا يخفى ذلك على الملائكة الذين هم الحفظة ، فكيف يخفى على العليم الخبير ؟ وفى هذا وعيد لم شديد ، وهذه الحملة تطيلية للجملة التي قبلها ، فإن مكروهم إذا كان ظاهرا لا يخفى ، فعقوبة الله كائنة لا محالة ، ومعنى هذه الآية قريب من معنى الآية المتقدمة وهى - وإذا مس الإنسان الضر - وفى هذه زيادة ، وهى أنهم لا يقتصرون على مجرد الإعراض ، بل يطلبون الفوائل لآيات الله بما يدبرونه من المكر (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) ضرب سبحانه لهؤلاء مثلا حتى ينكشف المراد انكشافا تاما ، ومعنى تسيرهم فى البر أنهم يمشون على أقدامهم التي خلقها لهم لينتفعوا بها ويركبون ما خلقه الله لركوبهم من الدواب ، ومعنى تسيرهم فى البحر : أنه ألهمهم لعمل السفائن التي يركبون فيها فى بلج البحر ويسر ذلك لهم ودفع عنهم أسباب الهلاك . وقد قرأ ابن عامر (وهو الذى ينشركم فى البحر) بالنون والشين المعجمة من النشر كما فى قوله - فانتشروا فى الأرض - أى ينشرهم سبحانه فى البحر فينجى من يشاء ويفرق من يشاء (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) الفلك يقع على الواحد والجمع ويذكر ويؤنث ، وقد تقدّم تحقيقه (وجرين) أى السفن بهم : أى بالراكبين عليها ، وحتى لانتهاى الغاية والغاية مضمون الحملة الشرطية بكاملها ، فالقيود المعتبرة فى الشرط ثلاثة : أولها الكون فى الفلك ، والثانى جريها بهم بالريح الطيبة التي ليست بعاصفة ، وثالثها فرحهم . والقيود المعتبرة فى الجزاء ثلاثة : الأول - جاءتها - أى جاءت الفلك ريح عاصف أو جاءت الريح الطيبة : أى تلقى ريح عاصف ، والعصوف شدة هبوب الريح ، والثانى - وجاءهم الموج من كل مكان - أى من جميع الجوانب للفلك والمراد جاء الراكبين فيها ، والموج ما ارتفع من الماء فوق البحر ، والثالث - ظنوا أنهم أحبط

بهم - أى غلب على ظنونهم الهلاك . وأصله من إحاطة العدو بقوم أو ببلد ، فجعل هذه الإحاطة مثلاً في الهلاك وإن كان بغير العدو كما هنا ، وجواب إذا في قوله (إذا كنتم في الفلك) قوله (جاءتها) إلى آخره ويكون قوله (دعوا الله) بدلاً من ظنوا لكون هذا الدعاء الواقع منهم إنما كان عند ظن الهلاك وهو الباعث عليه ، فكان بدلاً منه بدل اشتمال لاشتماله عليه . ويمكن أن يكون جملة دعوا مستأنفة كأنه قيل : ماذا صنعوا ؟ فقيل دعوا الله ، وفي قوله (وجريهم) التفات من الخطاب إلى الغيبة . جعل الفائدة فيه صاحب الكشف المبالغة . وقال الرازي : الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقت والتبعيد كما أن عكس ذلك في قوله - إياك نعبد - دليل الرضا والتقريب . وانتصاب مخلصين على الحال : أى لم يشوبوا دعاءهم بشيء من الشوائب كما جرت عادتهم في غير هذا الوطن أنهم يشركون أصنامهم في الدعاء . وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده ، بل لأجل أن ينجيهم مما شافوه من الهلاك لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه . وفي هذا دليل على أن الخلق جعلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد . وأن المضطرَّ يحاج دعاءه وإن كان كافراً . وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما يشابهها ، فباعبوا لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات ؟ فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع ، فانظر هناك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها ، وإلى أين رى بهم الشيطان . وكيف اقتادهم وتسلط عليهم ؟ حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الأوثان ، فلنا لله وإنا إليه راجعون . واللام في (لن أنجيئنا من هذه) هي اللام الموطئة للقسم : أى قائلين ذلك ، والإشارة بقوله (من هذه) إلى ما وقعوا فيه من مشافة الهلاك في البحر . واللام في (لنكونن) جواب القسم : أى لنكونن في كل حال ممن يشكر نعمك التي أنعمت بها علينا ، منها هذه النعمة التي نحن بصدد سؤالك أن تفرجها عنا وتنجيننا منها . وقيل إن هذه الجملة مفعول دعوا (فلما نجاهم) الله من هذه المحنة التي وقعوا فيها ، وأجاب دعاءهم لم يفوا بما وعدوا من أنفسهم ، بل فعوا ففعل الجاحدين لا فعل الشاكرين ، وجعلوا البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر . وإذا في (إذا هم يبغون) هي الفجائية : أى فاجنوا البغي في الأرض بغير الحق ، والبغي : هو الفساد ، من قولهم بغي الجرح : إذا ترامى في الفساد ، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض ، والبغي وإن كان ينافى أن يكون بحق ، بل لا يكون إلا بالباطل ، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم . بل تمردوا وعنادا ، لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة . قوله (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) لما ذكر سبحانه أن هؤلاء المتقدم ذكرهم يبغون في الأرض بغير الحق ذكر عاقبة البغي وسوء مغيبته . قرأ ابن إسحاق وحفص والمفضل بنصب متاع ، وقرأ الباقر بالرفع . فن قرأ بالنصب جعل ما قبله جملة تامة : أى بغيكم وبال على أنفسكم ، فيكون بغيكم مبتدأ وعلى أنفسكم خبره ، ويكون متاع في موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا ، ويكون المصدر مع الفعل المقدّر استثناء ، وقيل إن متاع على قراءة النصب ظرف زمان نحو مقدم الحاج : أى زمن متاع الحياة الدنيا ، وقيل هو مفعول له : أى لأجل متاع الحياة الدنيا ، وقيل منصوب بنزع الخافض : أى كمتاع ، وقيل على الحال على أنه مصدر بمعنى المفعول : أى متمعين ، وقد نوقش غالب هذه الأقوال في توجيه النصب . وأما من قرأ برفع متاع فجعله خبر المبتدأ : أى بغيكم متاع الحياة الدنيا ، ويكون على أنفسكم متعلق بالمصدر ، والتقدير : إنما بغيكم على

أمثالكم والذين جنسهم جنسكم متاع الحياة الدنيا ومنفعها التي لا بقاء لها . فيكون المراد بأنفسكم على هذا الوجه أبناء جنسهم ، وعبر عنهم بالأنفس لما يدركه الجنس على جنسه من الشفقة . وقيل الارتفاع متاع على أنه خبر ثان . وقيل على أنه خبر لمبتدأ محذوف : أي هو متاع . قال النحاس : على قراءة الرفع يكون بغيركم مرتفعاً بالابتداء ، وخبره متاع الحياة الدنيا ، وعلى أنفسكم مفعول البغي . ويجوز أن يكون خبره على أنفسكم ويقتصر مبتدأ : أي ذلك متاع الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا انتهى . وقد نوقش أيضاً بعض هذه الوجوه المذكورة في توجيه الرفع بما يطول به البحث في غير طائل . والحاصل أنه إذا جعل خبر المبتدأ على أنفسكم . فالمعنى : أن ما يقع من البغي على الغير هو بغي على نفس الباغى باعتبار ما يؤول إليه الأمر من الانتقام منه مجازاة على بغيه ، وإن جعل الخبر متاع فالمراد أن بغي هذا الجنس الإنساني على بعضه بعضاً هو سريع الزوال قريب الاضمحلال ، كسائر أمتعة الحياة الدنيا فإنها ذاهبة عن قرب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى . ثم ذكر سبحانه ما يكون على ذلك البغي من المجازاة يوم القيامة مع وعيد شديد فقال (ثم إلينا مرجعكم) وتقديم الخبر للدلالة على القصر . والمعنى : أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله فيجازى المسىء بإساءته والحسن بإحسانه (فنلبثكم بما كنتم تعملون) في الدنيا : أي فنخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير وشر والمراد بذلك المجازاة كما تقول لمن أساء : سأخبرك بما صنعت . وفيه أشد وعيد وأفظع تهديد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) قال : خوفهم عذابه وعقوبته وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آبائنا) قال : استهزاء وتكذيب . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (وظنوا أنهم أحيط بهم) قال : هلكوا . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود واللساني وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص ما حاصله : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أهدر يوم الفتح دم جماعة . منهم عكرمة بن أبي جهل . هرب من مكة وركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : اخلصوا فإن آلهتكم لا تنقذ عنكم شيئاً ، فقال عكرمة : لأن لم ينجنني في البحر إلا خلاص ما ينجنني في البر غيره . اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلا يجدنه عفواً كريماً ، فجاء فأسلم . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس عن أسس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من رواجع على أهلها : المكر . والنكث . والبغي . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم - ولا يحق المكر السيء إلا بأهله - ومن نكث فلنما ينكث على نفسه) » وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تبغ ولا تكن باغياً . فإن الله يقول : إنما بغيكم على أنفسكم » . وأخرج أبو الشيخ عن مكحول قال : ثلاث من كن فيه كن عليه : المكر ، والبغي ، والنكث . قال الله سبحانه (إنما بغيكم على أنفسكم) .

أقول أنا : وينبغي أن يلحق بهذه الثلاث التي دل القرآن على أنها تعود على قاعلها : الخدع . فإن الله يقول - يخادعون الله والذين آمنوا وما يحذون إلا أنفسهم - . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لو بغي جبل على جبل لذلك الباغى منهما » . وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر مثله .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ

النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُم قَدِرُونَ عَلَيْهَا
 أَتَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)
 لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ
 اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ (٢٤) وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
 فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٥) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ (٢٦) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا
 إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٧).

لما ذكر الله سبحانه ما تقدم من منافع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها ، وأنها تعود
 بعد أن تملأ الأعين بروقتها . وتجلب النفوس بيهجتها . وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا . ويهتكوا
 حرمة حبا لها وعشقا لحما لها الظاهرى ، وتكالبوا على التمتع بها ، وتهاافتا على نيل ما تشتهى الأنفس منها بضرب من
 التشبيه المركب ، فقال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى آخر الآية . والمعنى : أن مثلها في سرعة
 الذهاب والانصاف بوصف بضاد ما كانت عليه وبيانه . مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه
 وذهاب بهجته وسرعة تقضيته . بعد أن كان غضا محضرا طريا قد تعانقت أغصانه المتمايلة ، وزمت أوقافه المتصافحة .
 وتلاأت أنوار نوره . وحاكت الزهر أنواع زهره . وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله (كماء أنزلناه من
 السماء) بل ما يفهم من الكلام ، والباء في (فاختلط به نبات الأرض) للسببية : أى فاختلط بسببه نبات الأرض
 بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حد الكمال . ويحتمل أن يراد أن النبات كان في أول بروزه ومبدأ حلوله
 غير مهتر ولا مترعر فإذا نزل الماء عليه اهتز ورجا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض (مما يأكل الناس والأنعام)
 من الحبوب والثمار والكلأ والتين وأخذت الأرض زخرفها ، قال في الصحاح للزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل
 موه مزور اقترهى . والمعنى : أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه لبعضه للون الذهب ، وبعضه للون الفضة ،
 وبعضه للون الياقوت ، وبعضه للون الزمرد . وأصل ازينت : تزييت أدغمت التاء في الزاى وجيء بألف الوصل لأن
 الحرف المدغم مقام حرفين أولهما ساكن ، وللساكن لا يمكن الابتداء به . وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب « وتزييت »
 على الأصل . وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية « وأزينت » على وزن أفعلت : أى أزينت بالزينة التى عليها ،
 شبهها بالعروس التى تلبس الثياب الجميدة المتلونة الزاى كثيرة . وقال عوف بن أبى جميلة : قرأ أشياخنا « وازيانت »

هل وزن اسودت . وفي رواية المسمى « وازانت » والأصل فيه تزاينت على وزن تفاعلت . وقرأ الشعبي وقتادة « أزيئت » ، ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) أى غلب على ظنونهم أو تيقنوا أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها ، والضمير فى عليها للأرض ، والمراد النبات الذى هو عليها (أتاها أمرنا) جواب إذا . أى جاءها أمرنا بإهلاكها واستئصالها وضربها ببعض العاهات (فجعلناها حصيدا) أى جعلنا زرعها شبيها بالمحصول فى قطعه من أصوله . قال أبو عبيدة : الحصيد المستأصل (كأن لم تغن بالأمس) أى كأن لم يكن زرعها موجودا فيها بالأمس مخضرا طريا ، من غنى بالمكان بالكسر يغنى بالفتح إذا أقام به . والمراد بالأمس الوقت القريب ، والمغنى فى اللغة المنازل . وقال قتادة : كأن لم تنعم . قال لبيد :

غنيت سنيما قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

وقرأ قتادة (كأن لم يغن) بالتحية بإرجاع الضمير إلى الزخرف . وقرأ من عده (تغن) بالفوقية بإرجاع الضمير إلى الأرض (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل البديع (نفصل الآيات) القرآنية التى من حملها هذه الآية (لعلمهم يتذكرون) فيها اشتملت عليه ، ويجوز أن يراد الآيات التكوينية . قوله (والله يدعوا إلى دار السلام) لما نفر عباده عن الميل إلى الدنيا بما ضربه لهم من المثل السابق رغبهم فى الدار الآخرة بإخبارهم بهذه الدعوة منه عز وجل إلى دار السلام ، قال الحسن وقتادة : السلام هو الله تعالى . وداره الجنة . وقال الزجاج : المعنى والله يدعوا إلى دار السلامة . ومعنى السلام والسلامة واحد كالرضاع والرضاعة . ومنه قول الشاعر :

تحى بالسلامة أم بكر وهل لك بعد قومك من سلام

وقيل أراد دار السلام الذى هو التحية . لأن أهلها ينالون من الله السلام بمعنى التحية كما فى قوله - تحيتهم فيها سلام - ؛ وقيل السلام اسم لأحد الجنان السبع : أحدها دار السلام . والثانية دار الجلال . والثالثة جنة عدن . والرابعة جنة المأوى ، والخامسة جنة الخلد ، والسادسة جنة الفردوس ، والسابعة جنة النعيم . وقيل المراد دار السلام الواقع من المؤمنين بعضهم على بعض فى الجنة . وقد اتفقوا على أن دار السلام هى الجنة . وإنما اختلفوا فى سبب التسمية بدار السلام (ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) جعل سبحانه الدعوة إلى دار السلام عامة . والهداية خاصة بمن يشاء أن يهديه تكميلا للحجة وإظهارا للاستغناء عن خطفه ، ثم قسم سبحانه أهل الدعوة إلى قسمين . وبين حال كل طائفة فقال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال والكف عما نهاهم عنه من المعاصي ، والمراد بالحسنى المثوبة الحسنى . قال ابن الأنبارى : العرب توقع هذه اللفظة على الحصلة المحبوبة المرغوب فيها . ولذلك ترك موصوفها ؛ وقيل المراد بالحسنى الجنة ، وأما الزيادة فقيل المراد بها ما يزيد على المثوبة من التفضل كقوله - ليوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله - وقيل الزيادة النظر إلى وجهه الكريم ؛ وقيل الزيادة هى مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها ؛ وقيل الزيادة غرفة من لؤلؤ . وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان ؛ وقيل هى أنه سبحانه يعطيهم فى الدنيا من فضله ما لا يحاسبهم عليه . وقيل غير ذلك مما لا فائدة فى ذكره ، وسيأتى بيان ما هو الحق فى آخر البحث (ولا يرهق وجوههم فتر ولا ذلة) معنى يرهق يلحق . ومنه قيل : غلام مراهم إذا لحق بالرجال . وقيل يعلو ، وقيل يغشى . والمعنى متقارب ؛ والقتر : الغبار ، ومنه قول الفرزدق :

متوج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والقرا

وقرأ الحسن « قتر » بإسكان المثناة . والمعنى واحد ، قاله النحاس . وواحد القتر قرة ، والذلة : ما يظهر على

الوجه من الخضوع والإنكسار والهوان ، والمعنى : أنه لا يعلو وجوههم غيرة ولا يظهر فيها هوان ، وقيل القدر الكآبة ، وقيل سواد الوجوه ، وقيل هو دخان النار (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) الإشارة إلى المتصفين بالصفات السابقة هم أصحاب الجنة الخالدون فيها المتنعمون بأنواع نعمتها (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) هذا الفريق الثاني من أهل الدعوة ، وهو معطوف على (للذين أحسنوا) كأنه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، أو يقدر جزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها : أى يجازى سيئة واحدة بسيئة واحدة لا يزداد عليها . وهذا أولى من الأول لكونه من باب العطف على معمولى عاملين مختلفين : والمراد بالسيئة إما الشرك أو المعاصى التى ليست بشرك ، وهى ما يتلبس به العصاة من المعاصى : قال ابن كيسان : الباء زائدة ، والمعنى : جزاء سيئة مثلها : وقيل الباء مع ما بعدها الخبر ، وهى متعلقة بمحذوف قامت مقامه : والمعنى : جزاء سيئة كائن بمثلها كقولك إنما أنا بك ، ويجوز أن يتعلق بجزاء والتقدير جزاء سيئة بمثلها كائن فحذف خبر المبتدأ ، ويجوز أن يكون (جزاء) مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة فيكون مثل قوله - فعدة من أيام أخر - أى فعلية عدة . والباء على هذا التقدير متعلقة بمحذوف كأنه قال لم جزاء سيئة ثابت بمثلها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة . قوله (ترهقهم ذلة) أى يغشاهم هوان وخزي . وقرئ « يرهقهم » بالتحية (ما لهم من الله من عاصم) أى لا يعصمهم أحد كائنا من كان من سخط الله وعذابه ، أو ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ، والأول أولى ، والجملة فى محل نصب على الحالية ، أو مستأنفة (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمة) قطعا جمع قطعة ، وعلى هذا يكون مظلمة منتصبا على الحال من الليل : أى أغشيت وجوههم قطعا من الليل فى حالة ظلمته . وقد قرأ بالجمع جمهور القراء . وقرأ الكسائى وابن كثير (قطعا) بإسكان الطاء ، فيكون مظلمة على هذا صفة لقطعا ، ويجوز أن يكون حالا من الليل . قال ابن السكيت : القطع طائفة من الليل (أولئك) أى الموصوفون بهذه الصفات الذميمة (أصحاب النار هم فيها خالدون) وإطلاق الخلود هنا مقيد بما تواتر فى السنة من خروج عصاة الموحدين : قوله (ويوم نحشرهم جميعا) الحشر الجمع ، وجميعا منتصب على الحال (ويوم) منصوب بمحضر : أى أنذرهم يوم نحشرهم ، والجملة مستأنفة لبيان بعض أحوالهم القبيحة . والمعنى : أن الله سبحانه يحشر العابد والمعبود لسؤالهم (ثم نقول للذين أشركوا) فى حالة الحشر ووقت الجمع تقريرا لهم على رموس الأشهاد ، وتوبيخا لهم مع حضور من يشاركونهم فى العبادة وحضور معبوداتهم (مكانكم) أى الزموا مكانكم واثبتوا فيه وقفوا فى موضعكم (أنتم وشركاؤكم) هذا الضمير تأكيد للضمير الذى فى مكانكم لسد مسد الزموا ، وشركاؤكم معطوف عليه . وقرئ « بنصب شركاؤكم على أن الواو واو مع . قوله (فزيلنا بينهم) : أى فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا : يقال زينته فزيل : أى فرقته ففترق ، والمزيلة المفارقة ، يقال زايله مزيلة وزايلا إذا فارقه ، والزاييل التباين قال القراء : وقرأ بعضهم (فزايلا) والمراد بالشركاء هنا الملائكة ، وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام ، وإن الله سبحانه ينطقها فى هذا الوقت . وقيل المسيح ، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائنا ما كان : وجملة (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) فى محل نصب على الحال بتقدير قد ، والمعنى : وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه ما كنتم إيانا تعبدون ، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم وشياطينكم الذين أغوكم ، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه ، لكونهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم فهم شركاؤهم فى أموالهم من هذه الحيثية ، وقيل لكونهم شركاؤهم فى هذا الخطاب ، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفا لما قد وقع من المشركين من عبادتهم . فعناء إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لم بالعبادة (فكفى بالله شييدا بيننا وبينكم)

إن كنا أمرناكم بعبادتنا أو رخصنا ذلك منكم (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) إن هي الخففة من الثقلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والقائل لهذا الكلام هم المعبودون . قالوا لمن عبدهم من المشركين : إننا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين ، والمراد بالغفلة هنا : عدم الرضا بما فعله المشركون من العبادة لهم ، وفي هذا دليل على أن هؤلاء المعبودين غير الشياطين لأنهم يرضون بما فعله المشركون من عبادتهم ، ويمكن أن يكونوا من الشياطين ، ويحمل هذا الجحد منهم على أنهم لم يجبروهم على عبادتهم ولا أكرهوهم عليها (هناك تلو كل نفس ما أسلفت) أي في ذلك المكان وفي ذلك الموقف ، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل ، فعنى (تبلو) تذوق وتختبر ، وقيل تعلم ، وقيل تتبع ، وهذا على قراءة من قرأ « تبلو » بالمشناة الفوقية بإسناد الفعل إلى كل نفس ، وأما على قراءة من قرأ « تبلو » بالنون ، فالمعنى : أن الله يتلى كل نفس ويختبرها ، ويكون ما أسلفت بدلا من كل نفس . والمعنى : أنه يعاملها معاملة من يختبرها ويتفقد أحوالها . قوله (وردوا إلى الله مولاهم الحق) معطوف على (زبلنا) ، والضمير في ردوا عائد إلى الذين أشركوا : أي ردوا إلى جزائهم ، وما أعد لهم من عقابه ، ومولاهم : وبهم ، والحق صفة له : أي الصادق الربوبية دون ما اتخلوه من المعبودات الباطلة ، وقرئ « الحق » بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أي ضاع وبطل ما كانوا يفترون من أن الآلهة التي لهم حقيقة بالعبادة لتشفع لهم إلى الله وتقربهم إليه . والحاصل أن هؤلاء المشركين يرجعون في ذلك المقام إلى الحق ، ويعترفون به ، ويقررون بطلان ما كانوا يعبدونه ويجعلونه إلهاء ، ولكن حين لا ينفعهم ذلك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فاختلط به نبات الأرض) قال : اختلط قُتِبَت بالماء كل لون (مما يأكل الناس) كالحنطة والشعير ، وسائر حبوب الأرض والبقول والثمار ، وما تأكله الأنعام والبهائم من الحشيش والمراعى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وازينت) قال : أنبت وحسنت ، وفي قوله (كان لم تغن بالأمس) قال : كان لم تعش كان لم تنعم . وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب وابن عباس ومروان بن الحكم أنهم كانوا يقرءون بعد قوله (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) وما كان الله ليهلكها إلا يندوب أهلها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه كان يقرأ وما أهلكناها إلا يندوب أهلها (كذلك تفصل الآيات) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي مجلز قال : كان مكتوب في سورة يونس إلى حيث هذه الآية (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) إلى (يتذكرون) ، ولو أن لابن آدم واديين من مال لمتنى واديا ثالثا ، ولا يشبع نفس ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب ، فحيت . وأخرج أبو نعيم والديماطي في معجمه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (والله يدعوا إلى دار السلام) يقول : يدعوا إلى عمل الجنة . والله : السلام ، والجنة : داره . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة لمجوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله (ويهدي من يشاء) قال : يهديهم للمخرج من الشبهات والفتن والضلالات . وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما من يوم طلعت شمسُه إلا وكل يجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فاقبلوا وكفى خيرا مما كثر وألهمي . ولا آيت شمسُه إلا وكل يجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غور الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا . والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلَّى

إلى قوله - للعسرى - . وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ وتلا (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فقال : حدثني جابر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك . إنما مثلك ومثل أمثك مثل ملك اتخذ داراً . ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مائدة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه . فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من ترك . فإله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول . فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها ، وقد روى معنى هذا من طرق . وأخرج أحمد في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (والله يدعو إلى دار السلام) قال : ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً : يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر أتقه . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنه كان إذا قرأ (والله يدعو إلى دار السلام) قال : لبيك ربنا وسعديك . وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرهم عن صهيب « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة . وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ونحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه . ولا أقر لأعينهم » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني في الرواية وابن مردويه عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم : إن الله وعدكم الحسنى وزيادة » فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن . وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الرواية عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : الزيادة النظر إلى وجه الرحمن . وأخرج هؤلاء والدارقطني وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : الذين أحسنوا : أهل التوحيد ، والحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً نحوه . وأخرج أبو الشيخ والدارقطني وابن مردويه والبيهقي عن أبي بكر الصديق في الآية قال : الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن مردويه من طريق الحرث عن عليّ بن أبي طالب في الآية مثله . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والدارقطني والبيهقي عن حذيفة في الآية قال : الزيادة النظر إلى وجه الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والدارقطني والبيهقي عن أبي موسى نحوه . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم واللالكائي عن ابن مسعود نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن عليّ قال : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب غرفها وأبوابها من لؤلؤة واحدة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (وزيادة) قال : هو مثل قوله - ولدينا مزيد - يقول يجزيهم بعملهم ، ويزيدهم من فضله . وقال - من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها - . وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في تفسير الزيادة غالبها

أنها النظر إلى وجه الله سبحانه . وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يبق حينئذ لقاتل مقال ، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المت مذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به ، فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم ، والله المستعان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يرهق وجوههم) قال لا يغشاهم (قتر) قال : سواد الوجوه . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في الآية قال : القتر سواد الوجه . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : يخزي . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) قال : بعد نظرهم إليه عز وجل . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (والذين كسبوا السيئات) قال : الذين عملوا الكبائر (جزاء سيئة بمثلها) قال : النار (كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً) القطع : السواد نسخها الآية في البقرة - بلى من كسب سيئة - الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (وترهقهم ذلة) قال : تغشاهم ذلة وشدة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله (ما لهم من الله من عاصم) بقوله : من مانع . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ويوم نحشرهم) قال : الحشر الموت . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (فرزينا بينهم) قال : فرقنا بينهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : تنصب الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فيقول : هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله ؟ فيقولون نعم هؤلاء الذين كنا نعبد ، فتقول لهم الآلهة : والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا تعلم أنكم كنتم تعبدوننا . فيقولون : بلى والله لإياكم كنا نعبد . فتقول لهم الآلهة (فكني بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يمثل لهم يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله ، فيتبعونهم حتى يؤدّوهم النار ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هناك تبلو كل نفس ما أسلفت) » وأخرج أبو الشيخ عن السدي (هناك تبلو) يقول تتبع . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال (تبلو) تختبر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد (تبلو) قال : تعاین (كل نفس ما أسلفت) ما عملت (وخل عنهم ما كانوا يفترون) ما كانوا يدعون معه من الأنداد . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (وردوا إلى الله مولاهم الحق) قال : فسخها قوله - الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم - .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٢٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٢٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي

إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٢٠) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي
مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٢١) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٢)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (٢٣) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ
بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٢٥) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ
مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٦).

لما بين فضائح المشركين أتبعها بإيراد الحجج الدامغة من أحوال الرزق والحواس والموت والحياة والابتداء
والإعادة والإرشاد والهدى ، وبني سبحانه الحجج على الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسئولين ليكون أبلغ في
إلزام الحجة وأوقع في النفوس ، فقال (قل) يا محمد للمشركين احتجاجا لحقبة التوحيد وبطلان ما هم عليه من
الشرك (من يرزقكم من السماء والأرض) من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن ، فإن اعترفوا حصل
المطلوب ، وإن لم يعترفوا فلا بد أن يعترفوا بأن الله هو الذي خلقهما (أم من يملك السمع والأبصار) أم هي
المنقطعة ، وفي هذا انتقال من سؤال إلى سؤال ، وخص السمع والبصر بالذكر لما فيهما من الصنعة العجيبة والقدرة
الباهرة العظيمة : أي من يستطيع ملكهما وتسويتهما على هذه الصفة العجيبة والحلقة الغريبة حتى ينتفعا بهما هذا
الانتفاع العظيم ، ويحصلون بهما من القوائد ما لا يدخل تحت حصر الحاصرين ، ثم انتقل إلى حجة ثالثة ، فقال
(ومن يخرج الحي من الميت) الإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، والنبات من الحبة ، أو المؤمن من الكافر
(ويخرج الميت من الحي) أي النطفة من الإنسان أو الكافر من المؤمن ، والمراد من هذا الاستفهام عن يحيى ويميت
ثم انتقل إلى حجة رابعة ، فقال (ومن يدبر الأمر) أي يقدره ويقضيه ، وهذا من عطف العام على الخاص لأنه
قد عم ما تقدم وغيره (فيقولون الله) أي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهامات إن الفاعل لهذه الأمور هو
الله سبحانه إن أنصفوا وعملوا على ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم ، وارتفاع الاسم الشريف على أنه خير
مبتدأ مخوف أو مبتدأ خبره مخوف ، أي الله يفعل ذلك ، ثم أمره الله سبحانه بعد أن يجيبوا بهذا الجواب أن يقول
لهم (أفلا تتقون) والاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر : أي تعلمون ذلك أفلا تتقون وتفعلون ما يوجبه
هذا العلم من تقوى الله الذي يفعل هذه الأفعال (فذلكم الله ربكم الحق) أي فذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو
ربكم المتصف بأنه الحق لا ما جعلتموه شركاء له ، والاستفهام في قوله (فماذا بعد الحق إلا الضلال) للتصريح
والتوبيخ إن كانت ما استفهامية ، لا إن كانت نافية كما يحتمل الكلام ، والمعنى : أي شيء بعد الحق إلا الضلال ،
فإن ثبوت ربوبية الرب سبحانه حق بإقرارهم فكان غيره باطلا لأن واجب الوجود يجب أن يكون واحدا في ذاته

وصفاته (فأني تصرفون) أي كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال إذ لا واسطة بينهما ؟
 فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر ، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب (كذلك حقت كلمة ربك على
 الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) أي كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق كذلك
 حقت كلمة ربك : أي حكمه وقضاؤه على الذين فسقوا : أي خرجوا من الحق إلى الباطل وتمرّدوا في كفرهم
 عنادا ومكابرة ، وجملة (أنهم لا يؤمنون) بدل من للكلمة . قاله الزجاج : أي حقت عليهم هذه الكلمة . وهي عدم
 إيمانهم ، ويجوز أن تكون الجملة تعليلية لما قبلها بتقدير اللام : أي لأنهم لا يؤمنون . وقال القراء : إنه يجوز إنهم
 لا يؤمنون بالكسر على الاستئناف ، وقد قرأ نافع وابن عامر (كلمات ربك) بالجمع . وقرأ الباقون بالافراد . قوله
 (قل هل من شركائكم من يبدؤوا الخلق ثم يعيده) أورد سبحانه في هذا حجة خامسة على المشركين . أمر نبيه صلى
 الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم . وهم وإن كانوا لا يعترفون بالمعاد . لكنه لما كان أمرا ظاهرا بينا . وقد أقام الأدلة
 عليه في هذه السورة على صورة لا يمكن دفعها عند من أنصف ولم يكابر كان كالمسلم عندهم الذي لا جحد له ولا
 إنكار فيه ، ثم أمره سبحانه أن يقول لهم (قل الله يبدؤوا الخلق ثم يعيده فأني توفكون) أي هو الذي يفعل ذلك لا غيره
 وهذه القول الذي قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله سبحانه له هو نياية عن المشركين في الجواب . إما
 على طريق التلقين لهم وتعريفهم كيف يجيبون وإرشادهم إلى ما يقولون . وإما لكون هذا المعنى قد بلغ في الوضوح
 إلى غاية لا يحتاج معها إلى إقرار الخصم ومعرفة ما لديه . وإما لكون للمشركين لا ينطقون بما هو الصواب في هذا
 الجواب فرارا منهم عن أن تلزمهم الحجة أو أن يسجل عليهم بالعناد والمكابرة إن حادوا عن الحق . ومعنى (فأني
 توفكون) فكيف توفكون : أي تصرفون عن الحق وتنقلبون منه إلى غيره . ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة
 سادسة فقال (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق) والاستفهام هاهنا كالاستفهامات السابقة . والاستدلال
 بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيرا في القرآن كقوله - الذي خلقني فهو يهدين - وقوله - الذي أعطى كل
 شيء خلقه ثم هدى - وقوله - الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى - وفعل الهداية يجيء متعديا باللام وإلى ،
 وهما بمعنى واحد . روى ذلك عن الزجاج . والمعنى : قل لهم يا محمد هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام
 ويدعو الناس إلى الحق ؟ فإذا قالوا لا ، فقل لهم : الله يهدي للحق دون غيره . ودليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على
 اختصاصه سبحانه بهذا . وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات . وإرساله
 للرسل وإنزاله للكتب ، وخلق لما يتوصل به للعباد إلى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار . والاستفهام
 في قوله (أفن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي) للتقرير وإلزام الحجة .

وقد اختلف القراء في (لا يهدي) فقرأ أهل المدينة إلا نافعاً يهدي ، بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فجمعوا
 في قراءتهم هذه بين ساكنين . قال النحاس : والجمع بين ساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد : لا بد
 لمن رام مثل هذا أن يحرك حركة خفيفة إلى الكسر ، وسيبويه يسمي هذا اختلاسا . وقرأ أبو عمرو وقالون في رواية
 بين الفتح والإسكان . وقرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن عيصن بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . قال النحاس
 هذه القراءة بينة في العربية ، والأصل فيها يهتدى ، أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها إلى الهاء . وقرأ حفص
 ويعقوب والأعمش مثل قراءة ابن كثير إلا أنهم كسروا الهاء ، قالوا لأن الكسر هو الأصل عند التقاء الساكنين .
 وقرأ أبو بكر عن عاصم (يهدي) بكسر الياء والهاء وتشديد الدال وذلك للاتباع . وقرأ حمزة والكسائي وحلف
 ويحيى بن وثاب (يهدي) بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال من هدى يهدي . قال النحاس : وهذه القراءة لها

وجهان في العربية . وإن كانت بعيدة : الأول أن الكسائي والقراء قالوا : إن يهدى بمعنى يهتدى ، الثاني أن أبا العباس قل : إن التقدير أم من لا يهدى غيره ، ثم تم الكلام وقال بعد ذلك (إلا أن يهدى) أى لكنه يحتاج أن يهدى . فهو استثناء منقطع كما نقول فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع : أى لكنه يحتاج أن يسمع . والمعنى على القراءات المتقدمة : ألن يهدى الناس إلى الحق : وهو الله سبحانه أحق أن يتبع ويقتدى به . أم الأحق بأن يتبع ويقتدى به من لا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره فضلا عن أن يهدى غيره ؟ والاستثناء على هذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال . قوله (فما لكم كيف تحكمون) هذا تعجيب من حالم باستفهامين متواليين : أى أى شيء لكم كيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله . وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخ ، وكيف في محل نصب بتحكون ، ثم بين سبحانه . ولأنه عليه في أمر دينهم . وعلى أى شيء بنوه . وبأى شيء اتبعوا هذا الدين الباطل ، وهو الشرك فقال (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) وهذا كلام مهتدأ غير داخل في الأوامر السابقة . والمعنى : ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله . وجعلهم له أندادا إلا مجرد الظن والتخمين والحدس . ولم يكن ذلك عن بصيرة . بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تقربهم إلى الله . وأنها تشفع لهم . ولم يكن ظنه هذا المستند قط . بل مجرد خيال مختل وحدس باطل . ولعل تنكير الظن هنا للتحقير : أى إلا ظنا ضعيفا لا يستند إلى ما تستند إليه سائر الظنون . وقيل المراد بالآية إنه ما يتبع أكثرهم في الإيمان بالله والإقرار به إلا ظنا . والأول أولى . ثم أخبرنا الله سبحانه بأن مجرد الظن لا يغنى من الحق شيئا . لأن أمر الدين إنما يبنى على العلم . وبه يتضح الحق من الباطل . والظن لا يقوم مقام العلم . ولا يدرك به الحق . ولا يغنى عن الحق في شيء من الأشياء . ويجوز انتصاب شيئا على المضدرية أو على أنه مفعول به ، ومن الحق حال منه والجملة مستأنفة لبيان شأن الظن وبطلانه (إن الله عليم بما يفعلون) من الأفعال القبيحة الصادرة لاعن برهان . قوله (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) لما فرغ سبحانه من دلائل التوحيد وحججه شرع في تثبيت أمر النبوة : أى وما صح وما استقام أن يكون هذا القرآن المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة يفترى من الخلق من دون الله . وإنما هو من عند الله عز وجل ، وكيف يصح أن يكون مفترى ، وقد عجز عن الإتيان بسورة منه القوم الذين هم أفصح العرب لسانا وأدقهم أذهانا (ولكن) كان هذا القرآن (تصديق للذي بين يديه) من الكتب المنزلة على الأنبياء . ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة ، لأن أفاضل موافقة لما في الكتب المتقدمة . مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يطلع على ذلك ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك ، وانتصاب تصديق على أنه خبر لكان المقترنة بعد لكن . ويجوز أن يكون انتصابه على العلية لفعل محذوف : أى لكن أنزله الله تصديق الذي بين يديه . قال القراء : ومعنى الآية : وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى كقوله - وما كان لنبي أن يغفل - وما كان المؤمنون لينفروا كافة - . وقيل إن « أن » بمعنى اللام : أى وما كان هذا القرآن ليفترى : وقيل بمعنى لا : أى لا يفترى . قال الكسائي والقراء : إن التقدير في قوله (ولكن تصديق) ولكن كان تصديق . ويجوز عندهما الرفع أى ولكن هو تصديق : وقيل المعنى : ولكن القرآن تصديق (الذي بين يديه) من الكتب : أى أنها قد بشرت به قبل نزوله فجاء مصداقا لها : وقيل المعنى : ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن . وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم شاهدوه قبل أن يسمعوها منه القرآن . قوله وتفصيل الكتاب (عطف على قوله (ولكن تصديق الذي بين يديه) فيجىء فيه الرفع والنصب على الوجهين المذكورين في تصديق . والتفصيل : التبيين . أى يبين ما في كتب الله المتقدمة . والكتاب للجنس : وقيل أراد ما بين في القرآن من الأحكام . فيكون المراد بالكتاب : القرآن . قوله (لا ريب فيه) الضمير عائد إلى القرآن . وهو

فالمحل في حكم الاستدراك خبر ثالث ، ويجوز أن تكون هذه الحملة في محل نصب على الحال من الكتاب ويجوز أن تكون الحملة استثنائية لاجل لها ، و (من رب العالمين) خبر رابع : أى كائن من رب العالمين ، ويجوز أن يكون حالا من الكتاب ، أو من ضمير القرآن في قوله (لاريب فيه) أى كائنا من رب العالمين ، ويجوز أن يكون متعلقا بتصديق وتفصيل ، وجملة (لاريب فيه) معترضة . قوله (أم يقولون افتراه) الاستفهام للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة ، وأم هي المنقطعة التي بمعنى أبل والهمزة : أى بل يقولون افتراه واختلقه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو : أى ويقولون افتراه ، وقيل الميم زائدة ، والتقدير : يقولون افتراه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ . ثم أمره الله سبحانه أن يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال (قل فأتوا بسورة مثله) أى إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدا افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة ، وجودة الصناعة ، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام (وادعوا) بمظاهريكم ومعاونيكم (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ، ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله . وقوله (من دون الله) متعلق بادعوا : أى ادعوا من سوى الله من خلقه (إن كنتم صادقين) في دعواكم أن هذا القرآن مفترى .

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول ، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية ، قال لهم : هذا الذي نسبتموه إلى وأنا واحد منكم ليس عليكم إلا أن تأتوا وأنتم الجمع الجمل بسورة مماثلة لسورة من سوره ، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم . أو من غيرهم من بقى آدم ، أو من الجن ، أو من الأصنام ، فإن فعلتم هذا بعد التثنية والتي فأنتم صادقون فيما نسبتموه إلى والصفتموه بى . فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة . بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة ، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل ، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدى البالغ (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) فأضرب عن الكلام الأول ، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه ، وهكذا صنع من تصلب في التقليد ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف ، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه ، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه ويعلم مبناه ، كما تراه عيانا وتعلمه وجدانا . والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة والبرهان الواضح قبل أن يحيط بعلمه ، فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب إلا بمجرد كونه جاهلا لما كذب به غير علم به ، فكان بهذا التكذيب مناديا على نفسه بالجهل بأعلى صوت ، ومسجلا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل ، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء :

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

قوله (ولما يأتهم تأويله) معطوف على (لم يحيطوا بعلمه) أى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وبما لم يأتهم تأويله ، أو هذه الحملة في محل نصب على الحال : أى كذبوا به حال كونهم لم يفهموا تأويل ما كذبوا به ولا بلغت عقولهم . والمعنى : أن التكذيب منهم وقع قبل الإحاطة بعلمه . وقبل أن يعرفوا ما يؤول إليه من صدق ما اشتمل عليه من حكاية ماسلف من أخبار الرسل المتقدمين والأمم السابقين ، ومن حكايات ما سيحدث من الأمور المستقبلية التي أخبر عنها قبل كونها ، أو قبل أن يفهموه حق الفهم وتتقوله عقولهم ، فإنهم لو تدبروه كلية التدبر لفهموه كما ينبغي ، وعرفوا ما اشتمل عليه من الأمور الدالة بأبلغ دلالة على أنه كلام الله ، وعلى هذا فعنى تأويله ما يؤول إليه

لمن تدبره من المعاني الرشيقة واللطائف الأنيفة . وكلمة التوقع أظهر في المعنى الأول . كذلك كذب الذين من قبلهم (أى مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه . فلاتهم كذبوا به قبل أن يحيطوا بعلمه . وقبل أن يأتيهم تأويله) فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (من الأمم السالفة من سوء العاقبة بالخسف والمسح ونحو ذلك من العقوبات التي حلت بهم كما حكى ذلك القرآن عنهم . واشتملت عليه كتب الله المنزلة عليهم . قوله (ومنهم من يؤمن به) أى ومن هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن من يؤمن به في نفسه ويعلم أنه صدق وحق . ولكنه كذب به مكابرة وعتادا : وقيل المراد : ومنهم من يؤمن به في المستقبل وإن كذب به في الحال . والموصول مبتدأ . وخبره منهم (ومنهم من لا يؤمن به) ولا يصدق في نفسه . بل كذب به جهلا كما مر تحقيقه . أو لا يؤمن به في المستقبل . بل يبقى على جحوده وإصراره . وقيل الضمير في الموضعين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقد قيل إن هذا التقسيم خاص بأهل مكة . وقيل عام في جميع الكفار (وربك أعلم بالمفسدين) فيجازيهم بأعمالهم . والمراد بهم : المصرون المعاندون . أو بكلا الطائفتين . وهم الذين يؤمنون به في أنفسهم ويكذبون به في الظاهر . والذين يكذبون به جهلا . أو الذين يؤمنون به في المستقبل . والذين لا يؤمنون به . ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول لهم إن أصرّوا على تكذيبه واستمروا عليه (لى عملى ولكم عملكم) أى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم فقد أبلغت إليكم ما أمرت بإبلاغه . وليس على غير ذلك . ثم أكد هذا بقوله (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) أى لا تؤاخذون بعملى : ولا تؤاخذ بعلمكم . وقد قيل إن هذا منسوخ بآية السيف كما ذهب إليه جماعة من المفسرين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (كذلك حقت كلمة ربك) يقول : سبقت كلمة ربك . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : صدقت . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (أم من لا يهدى إلا أن يهدى) قال : الأوثان . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (وإن كذبوك فقل لى عملى) الآية . قال : أمره بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (١٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (١٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١٤) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٥) وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ فإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (١٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (١٩)

قوله (ومنهم من يستمعون) الخ بين الله سبحانه في هذا أن في أولئك الكفار من بلغت حاله في النفرة والعداوة إلى هذا الحد ، وهي أنهم يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأ القرآن وعلم الشرائع في الظاهر ، ولكنهم لا يسمعون في الحقيقة لعدم حصول أثر السماع ، وهو حصول القبول والعمل بما يسمعون ولهذا قال (أفأنت تسمع الصم) يعني أن هؤلاء وإن استمعوا في الظاهر فهم صم ، والصم مانع من سماعهم ، فكيف تطمع منهم بذلك مع حصول المانع ، وهو الصم ، فكيف إذا انضم إلى ذلك أنهم لا يعقاون ، فإن من كان أصم غير عاقل لا يفهم شيئا ولا يسمع ما يقال له . وجمع الصمير في يستمعون حملا على معنى من ، وأفرده في (ومنهم من ينظر) حملا على لفظه . قيل والنكته : كثرة المستمعين بالنسبة إلى الناظرين ، لأن الاستماع لا يتوقف على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحائل وانفصال الشعاع : والنور الموافق لنور البصر . والتقدير في قوله (ومنهم من يستمعون - ومنهم من ينظر) ومنهم ناس يستمعون ، ومنهم بعض ينظر ، والهمزتان في (أفأنت تسمع - أفأنت تهدي) للإنكار والفاء في الموضعين للعطف على مقدرك أنه قيل أستمعون إليك أفأنت تسمعهم ؟ أينظرون إليك أفأنت تهديهم ؟ والكلام في (ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون) كالكلام في (ومنهم من يستمعون) الخ ، لأن العمى مانع فكيف يطمع من صاحبه في النظر . وقد انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة ، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يكون له من الخدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهما يقوم مقام النظر . وكذلك الأصم العاقل قد يتحدس تحداً ما يفهمه بعض فائدة ، بخلاف من جمع له بين عمى البصر والبصيرة فقد تعذر عليه الإدراك . وكذا من جمع له بين الصم وذهاب العقل فقد انسدت عليه باب الهدى ، وجواب لو في الموضعين محذوف دل عليهما ما قبلهما ، والمقصود من هذا الكلام تسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فإن الطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أصلاً أعرض عنه واستراح من الاشتغال به . قوله (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ذكر هذا عقب ما تقدم من عدم الاهتداء بالأسماع والأبصار لبيان أن ذلك لم يكن لأجل نقص فيما خلقه الله لهم من السمع والعقل والبصر والبصيرة . بل لأجل ما صار في طبائعهم من التعصب والمكابرة للحق ، والمجادلة بالباطل ، والإصرار على الكفر ، فهم الذين ظلموا أنفسهم بذلك ، ولم يظلمهم الله شيئا من الأشياء ، بل خلقهم وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك ، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون ، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم . وخلق بينهم وبين مصالحهم الدينية ، فعلى نفسها براقش نجى . وقرأ حمزة والكسائي (ولكن الناس) بتخفيف النون ورفع الناس ، وقرأ الباقون بتشديد ها ونصب الناس . قال النحاس : زعم جماعة من النحويين منهم الفراء ، أن العرب إذا قالت « ولكن » بالواو شددوا النون ، وإذا حذفوا الواو خففوها . قيل والنكته في وضع الظاهر موضع المضمرة زيادة التعيين والتقرير ، وتقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر ، أو لجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة . قوله (ويوم نحشرهم) الظرف منصوب بمحضر : أي واذكر يوم نحشرهم (كأن لم يلبثوا) أي كأنهم لم يلبثوا ، والجملة في محل نصب على الحال : أي مشبهين من لم يلبث (إلا ساعة من النهار) أي شيئا قليلا منه ، والمراد باللبث هو اللبث في الدنيا ، وقيل في القبور ، استقلوا المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا ، فجعلوا وجودها كالعدم ، أو استقصروها للدهش والحيرة . أو لطول وقوفهم في المحشر ، أو لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن . ومثل هذا قولهم - لبثنا يوما أو بعض يوم - وجملة (يتعارفون بينهم) في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة . والمعنى : يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلا ، وذلك عند خروجهم من القبور . ثم تنقطع التعاريف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة

للعقول المذهلة للأفهام . وقيل إن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتفريع ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني لاتعارف شفقة ورافة كما قال تعالى - ولا يسأل حيم حيم - وقوله - فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون - فيجمع بأن المراد بالتعارف : هو تعارف التوبيخ ، وعليه يحمل قوله - ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول - ، وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) هذا تسجيل من الله سبحانه عليهم بالخسران ، والجملة في محل النصب على الحال ، والمراد ببقاء الله يوم القيامة عند الحساب والجزاء ، ونفى عنهم أن يكونوا من جنس المهتدين لجهلهم وعدم طلبهم لما ينجيهم وينفعهم . قوله (وإما نرينك بعض الذي نعدهم) أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط وزيدت نون التأكيد ، والمعنى إن حصلت منا الإراءة لك بعض الذي وعدناهم من إظهار دينك في حياتك بقتلهم وأسرهم ، وجواب الشرط محذوف ، والتقدير فراه ، أو فذاك ، وجملة (أو نتوفيك) معطوفة على ما قبلها ، والمعنى : أو لانرينك ذلك في حياتك بل نتوفيك قبل ذلك (فإلينا مرجعهم) فعند ذلك نعذبهم في الآخرة فترك عذابهم فيها ، وجواب (أو نتوفيك) محذوف أيضا ، والتقدير : أو نتوفيك قبل الإراءة فنحن نريك ذلك في الآخرة ، وقيل إن جواب (أو نتوفيك) هو قوله (فإلينا مرجعهم) لدلالته على ما هو المراد من إراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعذيبهم في الآخرة ، وقيل العدول إلى صيغة المستقبل في الموضعين لاستحضار الصورة ، والأصل أريناك أو توفيناك ، وفيه نظر فإن إراءته صلى الله عليه وآله وسلم لبعض ما وعد الله المشركين من العذاب لم تكن قد وقعت كالوفاة . وحاصل معنى هذه الآية : إن لم تنتقم منهم عاجلا انتقمنا منهم آجلا . وقد أراه الله سبحانه قتلهم وأسرهم وذلم وذهاب عزهم وانكسار سورة كبرهم بما أصابهم به في يوم بدر وما بعده من المواطن ، فله الحمد . قوله (ثم الله شهيد على ما يفعلون) جاء بـ ثم الدالة على التباعد مع كون الله سبحانه شهيدا على ما يفعلونه في الدارين للدلالة على أن المراد بهذه الأفعال ما يترتب عليها من الجزاء أو ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة ، فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم كما ذكره النيسابوري (ولكل أمة) من الأمم الحالية في وقت من الأوقات (رسول) يرسله الله إليهم ، ويبين لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة (فإذا جاء رسولهم) إليهم وبلغهم ما أرسله الله به فكذبوه جميعا (قضى بينهم) أي بين الأمة ورسولها (بالقسط) أي العدل فنجا الرسول وهلك المكذبون له كما قال سبحانه - وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا - ويجوز أن يزداد بالتفسير في بينهم الأمة على تقدير أنه كذبهم بعضهم وصدقه البعض الآخر ، فهلك المكذبون وبنجوا المصدقون (وهم لا يظلمون) في ذلك القضاء فلا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤخذون بغير حجة ، ومنه قوله تعالى - وجيء بالنبیین والشهداء وقضى بينهم - وقوله - فكيف إذا جئنا من كل أمة شهيد - والمراد المبالغة في إظهار العدل والتصفة بين العباد ، ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى من شبه الكفار ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان كلما هددهم بنزول العذاب كانوا يقولون متى هذا الوعد) والاستفهام منهم للإتكار والاستبعاد وللقدح في النبوة (إن كنتم صادقين) مخاطبا منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين ، وجواب الشرط محذوف بدل عليه ما قبله ، ويحتمل أن يراد بالقائلين هذه المقالة جميع الأمم الذين لم يسلموا أرسلهم الله إليهم ، ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم بما يحسم مادة الشبهة ويقطع اللجاج فقال (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) أي لا أقدر على جلب نفع لها ولا دفع ضرر عنها ، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري ، وقد تم الضر ، لأن السياق لإظهار المعجز

من حضور الوعد الذي استعجلوه واستعجلوه ، والاستثناء في قوله (إلا ما شاء الله) منقطع كما ذكره أئمة التفسير أي ولكن ما شاء الله من ذلك كان ، فكيف أقدر على أن أملك لنفسي ضراً أو نفعاً . وفي هذه أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيره المنادة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاستغاثة به عند نزول التوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فإن هذا مقام رب العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع ؟ وحسبك بما في هذه الآية موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده : لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزله لا يبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره . فباعجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله . ومدلول - قل هو الله أحد - ؟ وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ما هو أشد منها فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق ائحي الميت الضار النافع . وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقرئين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذي الجلال ، وكفاك من شر سماعه والله ناصر دينه ومظهر شريعته من أوصار الشرك وأدناس الكفر . ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه وينالج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة - وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - إنا لله وإنا إليه راجعون - ثم بين سبحانه أن لكل طائفة حداً محدوداً لا يتجاوزونه فلا وجه لاستعجال العذاب فقال (لكل أمة أجل) فإذا جاء ذلك الوقت أنجز وعده وجازى كلا بما يستحقه ، والمعنى : أن لكل أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم ، أو بين بعضهم البعض أجلاً معيناً ووقتاً خاصاً يحل بهم ما يريد الله سبحانه لهم عند حلوله (إذا جاء أجلهم) أي ذلك الوقت المعين ، والضمير راجع إلى كل أمة (فلا يستأخرون) عن ذلك الأجل المعين (ساعة) أي شيئاً قليلاً من الزمان (ولا يستقدمون) عليه . وجملة لا يستقدمون معطوفة على جملة لا يستأخرون . ومثله قوله تعالى - ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون - والكلام على هذه الآية المذكورة هنا قد تقدم في تفسير الآية التي في أول الأعراف فلا نعيده .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (يتعارفون بينهم) قال : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه لا يستطيع أن يكلمه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وإما نرينك) الآية ، قال : سوء العذاب في حياتك (أو نؤفئك) قبل (فلينا مرجعهم) وفي قوله (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم) قال : يوم القيامة .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهْرًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا

عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥١) وَيَسْتَنْبِثُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي
وَرَأَيْ إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٢) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ
لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٣)
أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٤)
هُوَ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٥) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ
لِمَا فِي الصُّلُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٦) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا
هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) .

قوله (قل أرايتم ان أتاكم عذابه) هذا منه سبحانه تزييف لرأى الكفار في استعجال العذاب بعد التزييف
الأول : أى أخبروني إن أتاكم عذاب الله (بيانا) أى وقت ييات . والمراد به الوقت الذى يبيتون فيه وينامون
ويغفلون عن التحرز . والبيات بمعنى التبييت اسم مصدر . كالسلام بمعنى التسليم . وهو منتصب على الظرفية .
وكذلك نهرا : أى وقت الاشتغال بطلب المعاش والكسب . والضمير فى منه راجع إلى العذاب ، وقيل راجع إلى
الله . والاستفهام فى (ماذا يستعجل منه المجرمون) للإنكار المتضمن للنهى كما فى قوله - أئى أمر الله فلا تستعجلوه
ووجه الإنكار عليهم فى استعجالهم أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطباع فما المقتضى لاستعجالهم له ؟
والجملة المصدرة بالاستفهام جواب الشرط بحذف الفاء : وقيل إن الجواب محذوف ، والمعنى : تندموا على
الاستعجال . أو تعرفوا الخطأ منكم فيه : وقيل إن الجواب قوله (أثم إذا ما وقع) وتكون جملة (ماذا يستعجل منه
المجرمون) اعتراضا . والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان . والأول أولى ، وإنما قال
يستعجل منه المجرمون ولم يقل يستعجلون منه للدلالة على ما يوجب ترك الاستعجال ، وهو الإجرام ، لأن من حق
المجرم أن يخاف من العذاب بسبب إجرامه . فكيف يستعجله ؟ كما يقال لمن يستوخم أمرا إذا طلبه : ماذا تهجن على
نفسك . وحكى النحاس عن الزجاج أن الضمير فى (منه) إن عاد إلى العذاب كان لك فى (ماذا) تقديران :
أحدهما أن تكون ماني موضع رفع بالابتداء ، وهذا بمعنى الذى . وهو خبر ما ، والعائد محذوف . والتقدير الآخر
أن يكون (ماذا) اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء . والخبر ما بعده ، وإن جعل الضمير فى (منه) عائدا إلى
الله تعالى كان (ماذا) شيئا واحدا فى موضع نصب يستعجل . والمعنى : أى شيء يستعجل منه المجرمون : أى
من الله عز وجل . ودخول الهزة الاستفهامية فى (أثم إذا ما وقع آمنتم به) على ثم كدخولها على الواو والفاء .
وهى لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان وذلك بعد نزول العذاب ، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم وتفضيع
ما فعلوه فى غير وقته مع تركهم له فى وقته الذى يحصل به النفع والدفع ، وهذه الجملة داخلة تحت القول للمأمور به
وجيء بكلمة ثم التى للتراخي دلالة على الاستبعاد ، وجيء بإذا مع زيادة ما للتأكيد دلالة على تحقق وقوع الإيمان
منهم فى غير وقته ليكون فى ذلك زيادة استعجال لم ، والمعنى : أبعد ما وقع عذاب الله عليكم ، وحل بكم ضلته

وانقامه آمنم حين لا ينفعكم هذا الإيمان شيئاً . ولا يدفع عنكم ضرراً : وقيل إن هذه الحملة ليست داخلية تحت القول للمأمور به ، وأنها من قول الملائكة استهزاء بهم ، وإذراء عليهم . والأول أولى . وقيل إن ثم هاهنا هي بفتح ثاء فهكونه ظرفية بمعنى هناك . والأول أولى . قوله (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) قيل هو استئناف بتقدير القول غير داخل تحت القول الذي أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم : أى قبل لم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب : آلآن آمنتم به وقد كنتم به تستعجلون : أى بالعذاب تكذبوا منكم واستهزاء ، لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والاستهزاء ، ويكون المقصود بأمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم هذا القول التوبيخ لهم والاستهزاء بهم والإذراء عليهم . وجملة (وقد كنتم به تستعجلون) في محل نصب على الحال . وقرئ « آلآن » بحذف الهزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام . قوله (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) معطوف على الفعل المقدر ، قيل آلآن ، والمراد منه : التقرير والتوبيخ لهم : أى قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وعدم الإيمان : إن هذا الذي تطلبونه ضرر محض ، عار عن النفع من كل وجه ، والعاقلة لا يطلب ذلك ، ويقال لهم على سبيل الإهانة لهم : ذوقوا عذاب الخلد : أى العذاب الدائم الذي لا ينقطع ، والقائل لهم هذه المقالة والتي قبلها قيل هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ، ولا يبعد أن يكون القائل لذلك هم الأنبياء على الخصوص ، أو المؤمنون على العموم (هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) في الحياة من الكفر والمعاصي . والاستهزاء بالتقرير . وكأنه يقال لهم هذا القول عن استغاثتهم من العذاب وحلول العقوبة . ثم حكى الله سبحانه عنهم بعد هذه البيانات البالغة ، والجوابات عن أقوالهم الباطلة : أنهم استفهموا تارة أخرى عن تحقق العذاب ، فقال (يستنبئونك أحق هو) أى يستخبرونك عن جهة الاستهزاء منهم والإنكار أحق ما نعدنا به من العذاب في العاجل والآجل . وهذا السؤال منهم جهل محض . وظلمات بعضها فوق بعض . فقد تقدم ذكره عنهم مع الجواب عليه ، فصنيعهم في هذا التكرير صنيع من لا يعقل . ويقول ولا ما يقال له : وقيل المراد بهذا الاستخبار منهم هو عن حقيقة القرآن ، وارتفاع حق على أنه خبر مقدم . والمبتدأ هو الضمير الذي بعده . وتقديم الخبر للاهتمام . أو هو مبتدأ ، والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر . والجملة في موضع نصب يستنبئونك ، وقرئ « ألحق هو » على أن اللام للجنس ، فكأنه قيل أهو الحق لا الباطل . قوله (قل إى وربى إنه لحق) أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم هذه المقالة جواباً عن استفهامهم الخارج مخرج الاستهزاء : أى قل لهم يا محمد غير ملتفت إلى ما هو مقصودهم من الاستهزاء : إى وربى إنه لحق : أى نعم وربى إن ما أعدكم به من العذاب لحق ثابت كائن لا محالة . وفي هذا الجواب تأكيد من وجوه : الأول القسم مع دخول الحرف الخاص بالقسم الواقع موقع نعم : الثانى دخول إن المؤكدة : الثالث اللام في لحق : الرابع إسمية الجملة ، وذلك يدل على أنهم قد بلغوا في الإنكار والتمرد إلى الغاية التي ليس وراءها غاية ، ثم توعدهم بأشد تواعد ، ورهبهم بأعظم تهريب ، فقال (وما أنتم بمعجزين) أى فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً ، وهذه الجملة إما معطوفة على جملة جواب القسم ، أو مستأنفة لبيان عدم خلوصهم من عذاب الله بوجه من الوجوه : ثم زاد في التأكيد ، فقال (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به) أى ولو أن لكل نفس من الألفس المتصفة بأنها ظلمت نفسها بالكفر بالله وعدم الإيمان به ما في الأرض من كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها من الأموال النفيسة واللخائر الفائقة لافتدت به : أى جعلته فدية لها من العذاب ، ومثله قوله تعالى - إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار قلن يقبل من أحد ملء الأرض ذهباً ولو أخطى به - وقد تقدم . قوله (وأسروا النمامة لما رأوا العذاب) الضمير راجع إلى الكفار الذين سياق الكلام معهم

وقيل راجع إلى الأنفس المندلول عليها بكل نفس . ومعنى أسروا : أخفوا : أى لم يظهروا الندامة بل أخفوها لما قد شاهدوه في ذلك الوطن مما سلب عقولهم . وذهب بتجلدهم . ويمكن أنه بقى فيهم وهم على تلك الحالة عرق ينزعهم إلى العصبية التي كانوا عليها في الدنيا ، فأسروا الندامة لئلا يشمت بهم المؤمنون ؛ وقيل أسرها الرؤساء فيما بينهم دون أتباعهم خوفا من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضلوا بينهم وبين الإسلام . ووقوع هذا منهم كان عند رؤية العذاب ، وأما بعد الدخول فيه فهم الذين - قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا - وقيل معنى أسروا : أظهروا ، وقيل وجدوا ألم الحسرة في قلوبهم ، لأن الندامة لا يمكن إظهارها ، ومنه قول كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى برداً جمال عاضرة النادى

وذكر المبرد في ذلك وجهين : الأول أنها بدت في وجوههم أسرة الندامة ، وهى الإنكسار ، واحدا سرار . وجمعها أسارىر . والثاني ما تقدم . وقيل معنى (أسروا الندامة) أخلصوها ، لأن إخفاءها لإخلاصها . و (لما) في قوله (لما رأوا العذاب) ظرف بمعنى حين منصوب بأسروا ، أو حرف شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه (وقضى بينهم بالقسط) أى قضى الله بين المؤمنين وبين الكافرين أو بين الرؤساء والأتباع ، أو بين الظالمين من الكفار والمظلومين ؛ وقيل معنى القضاء بينهم : إزال العقوبة عليهم ، والقسط : العدل . وجملة (وهم لا يظلمون) فى محل نصب على الحال : أى لا يظلمهم الله فيما فعله بهم من العذاب الذى حل بهم فإنه بسبب ما كبوا . وجملة (ألا إن لله ما فى السموات والأرض) مسوقة لتقرير كمال قدرته لأن من ملك ما فى السموات والأرض تصرف به كيف يشاء . وغلب غير العقلاء لكونهم أكثر المخلوقات . قيل لما ذكر سبحانه اقتداء الكفار بما فى الأرض لو كان لهم ذلك بين أن الأشياء كلها لله . وليس لهم شيء يتمكنون من الاقتداء به ؛ وقيل لما أقسم على حقية ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يصحب ذلك بدليل البرهان البين بأن ما فى العالم على اختلاف أنواعه ملكه يتصرف به كيف يشاء ، وفى تصدير الجملة بحرف التثنية تنبيه للغافلين . وإيقاظ للذاهلين . ثم أكد ما سبق بقوله (ألا إن وعد الله حق) أى كائن لا محالة ، وهو عام يندرج فيه ما استعجلوه من العذاب اندراجاً أولياً . وتصدير الجملة بحرف التثنية كما قلنا فى التى قبلها مع الدلالة على تحقق مضمون الحملتين (ولكن أكثر الناس) أى الكفار (لا يعلمون) ما فيه صلاحهم فيعملون به . وما فيه فسادهم فيجتنبونه (هو يحيى ويميت) يهب الحياة ويسلبها (وإليه ترجعون) فى الدار الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه . ويتفضل على من يشاء من عباده . قوله (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم) يعنى القرآن فيه ما يتعظ به من قرأه وعرف معناه ، والوعظ فى الأصل : هو التذكير بالعواقب سواء كان بالترغيب أو التهيب ، والواعظ هو كالطبيب ينهى المريض عما يضره . ومن فى (من ربكم) متعلقة بالفعل ، وهو جاءكم ، فتكون ابتدائية ، أو متعلقة بمحذوف . فتكون تبعيضية (وشفاء لما فى الصدور) من الشكوك التى تعترى بعض المرتابين لوجود ما استفاد منه فيه من العقائد الحققة ، واشتماله على تزييف العقائد الباطلة ، والهدى : الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه إلى الطريق الموصلة إلى الجنة . والرحمة : هى ما يوجد فى الكتاب العزيز من الأمور التى يرحم الله بها عباده ، فيطلبها من أراد ذلك حتى ينالها . فالقرآن العظيم مشتمل على هذه الأمور . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل الخطاب معه بعد خطابه للناس على العموم . فقال (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده فى الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم . وروى عن ابن عباس أنه قال فضل الله : القرآن . ورحته : الإسلام . وروى عن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة أن فضل الله : الإيمان ، ورحته : القرآن .

والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم . ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولا أوليا . وأصل الكلام : قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، ثم حذف هذا الفعل للدلالة الثاني في قوله (فبذلك فليفرحوا) عليه . قبل والقاء في هذا الفعل المخلوف ذاتلة في جواب شرط مقدّر كأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوا فضل الله ورحمته بالفرح . وتكرير الباء في برحمته للدلالة على أن كل واحد من الفضل والرحمة سبب مستقل في الفرح . والفرح : هو اللذة في القلب بسبب إدراك المطلوب ، وقد ذم الله سبحانه الفرح في مواطن كقوله - لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين - وجوزّه في قوله - فرحين بما آتاهم الله من فضله - وكما في هذه الآية ، ويجوز أن تتعلق الباء في « بفضل الله وبرحمته » بقوله (جاءكم) ، والتقدير : جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك : أي فبمجئها فليفرحوا . وقرأ يزيد بن القعقاع وينقيب « فلتفرحوا » بالفوقية ، وقرأ الجمهور بالتحنية ، والضمير في « هو خير » راجع إلى المذكور من الفضل والرحمة ، أو إلى المجهى على الوجه الثاني ، أو إلى اسم الإشارة في قوله (فبذلك) والمعنى : أن هذا خير لهم مما يجمعونه من حطام الدنيا . وقد قرئ بالتاء الفوقية في (يجمعون) مطابقة للقراءة بها في (فلتفرحوا) . وقد تقرر في العربية أن لام الأمر تحذف مع الخطاب إلا في لغة قبلية جاءت هذه القراءة عليها . وقرأ الجمهور بالثناة التحنية في يجمعون كما قرءوا في فليفرحوا . وروى عن ابن عامر أنه قرأ بالفوقية في يجمعون . والتحنية في فلتفرحوا .

وقد أخرج الطبراني وأبو الشيخ عن أبي الأحوص قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال : إن أخى يشتكى بطنه ، فوصف له الخمر . فقال : سبحان الله ! ما جعل الله في رجس شفاء ، إنما الشفاء في شيء من القرآن والعسل ، فهما شفاء لما في الصدور وشفاء للناس . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال « إن الله جعل القرآن شفاء لما في الصدور . ولم يجعله شفاء لأمراضكم » . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إني أشتكى صدري ، فقال : اقرأ القرآن ، يقول الله : شفاء لما في الصدور » . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع أن رجلا شكى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجع حلقه قال : « عليك بقراءة القرآن والعسل . فالقرآن شفاء لما في الصدور . والعسل شفاء من كل داء » . وأخرج أبو داود والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتاء يعني الفوقية ، وقد روى نحو هذا من غير هذه الطريق . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قل بفضل الله وبرحمته) قال : بفضل الله القرآن ، وبرحمته أن جعلكم من أهله . وأخرج الطبراني في الأوسط عن البراء مثله من قوله . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري مثله . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال : بكتاب الله وبالإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عنه قال : فضله الإسلام ، ورحمته القرآن . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عنه أيضا قال : بفضل الله القرآن ، وبرحمته حين جعلهم من أهله . وقد روى عن جماعة من التابعين نحو هذه الروايات المتقدمة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس هو خير مما يجمعون من الأموال والحرف والأنعام .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥١) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ

عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (١٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (١١) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٤)

أشار سبحانه بقوله (قل أرايتم ما أنزل الله) الخ إلى طريق أخرى غير ما تقدم في إثبات النبوة ، وتقرير ذلك ما حاصله أنكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض ، فإن كان بمجرد التشهي والهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم ، وإن كان لا اعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله . ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده ، ومعنى أرايتم : أخبروني . و (ما) في محل نصب بأرايتم المتضمن لمعنى أخبروني - وقيل إن « ما » في محل الرفع بالابتداء وخبرها « آله أذن لكم » . و « قل » في قوله (قل آله أذن لكم) تكرير للتأكيد والربط محذوف . ومجموع المبتدأ والخبر في محل نصب بأرايتم والمعنى : أخبروني الذي أنزل الله إليكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، آله أذن لكم في تحليله وتحريمه (أم على الله تفترون) وعلى الوجهين . فمن في منه حراما للتبعض ، والتقدير : فجعلتم بعضه حراما وجعلتم بعضه حلالا وذلك كما كانوا يفعلونه في الأنعام حسبما سبق حكاية ذلك عنهم في الكتاب العزيز ، ومعنى إنزال الرزق : كون المطر ينزل من جهة العلو ، وكذلك يقضى الأمر في أرزاق العباد في السماء على ما قد ثبت في اللوح المحفوظ من ذكره سبحانه وتعالى لكل شيء فيه . وروى عن الزجاج أن « ما » في موضع نصب بأنزل ، وأنزل بمعنى خلق كما قال - وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج - وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد - وعلى هذا القول والقول الأول يكون قوله (قل آله أذن لكم) مستأنفا ، قيل ويجوز أن تكون الهزة في (آله أذن لكم) للإنكار ، وأم منقطعة بمعنى : بل أنفرون على الله ، وإظهار الاسم الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال الافتراء . وفي هذه الآية الشريفة ما يبعث مسامح المتصدين للإفتاء لعباد الله في شريعته ، بالتحليل والتحريم والجواز وعدمه . مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ، ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي ، وبلغهم من العلم بالحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قللوه في دينهم ، وجعلوه شارعا مستقلا ، ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم ، وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه ، أو فهمه وأخطأ الصواب في اجتنبه وترجيحه ، فهو في حكم التسويع عندهم المرفوع حكمه عن العباد ، مع كون من قللوه متعبدا بهذه الشريعة كما هم متبعون بها ومحكوم ما عليه بأحكامها كما هو محكوم عليهم بها ، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه . وقار بأجرين مع الإصابة وأجر مع الخطأ ، إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة ، ودليلا معمولا به ، وقد أخطأوا في هذا خطأ يبتلى ، وغلطوا غلطا فاحشا ، فإن الترخيص للمجتهد في اجتنب رأيه يخصه وحده . ولا قائل من أهل الإسلام للعتد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليدا له واقتداء به ، وما جاء به المقلدة في تقوم هذا الباطل . فهو من الجهل العاقل . اللهم كما

من العلم ما عجز به بين الحق والباطل ، فارتقتا من الإنصاف ما نظفر عنده بما هو الحق عندك يا واهب الخير .
ثم قال (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى أى شيء ظنهم في هذا اليوم ، وما يصنع بهم فيه ،
وهذه الحملة الاستهلامية المتضمنة لتعظيم الوعيد لم غير داخلية تحت القول الذى أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله
وسلم أن يقوله لهم ، بل مبتدأة مسوقة لبيان ما سيحل بهم من عذاب الله ، و« يوم القيامة » منصوب بالظن ،
وذكر الكذب بعد الافتراء ، مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لزيادة التأكيد . وقرأ عيسى بن عمر « وما ظن » على
أنه فعل (إن الله للذي فضل على الناس) يتفضل عليهم بأنواع النعم في الدنيا والآخرة (ولكن أكثرهم لا يشكرون)
الله على نعمه الواصلة إليهم منه سبحانه في كل وقت من الأوقات ، وطرفة من الطرقات . قوله (وما تكون في شأن)
الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما نافية ، والشأن : الأمر بمعنى القصد ، وأصله الهمز ، وجمعه
شئون . قال الأخفش : تقول العرب : ما شئت شأنه : أى ما عملت عمله (وما تتلوا منه من قرآن) قال الفراء
والزجاج : الضمير في منه يعود على الشأن ، والجار والمجرور صفة لمصدر محذوف : أى تلاوة كائنة منه ، إذ
التلاوة للقرآن من أعظم شؤونه صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى : أنه يتلو من أجل الشأن الذى حدث القرآن
فيعلم كيف حكمه ، أو يتلو القرآن الذى ينزل في ذلك الشأن . وقال ابن جرير الطبري : الضمير عائد في منه إلى
الكتاب : أى ما يكون من كتاب الله من قرآن ، وأعاده تفخيما له كقوله - إني أنا الله - ، والخطاب في (ولا
تعملون من عمل) لرسول الله وللأمة ، وقبل الخطاب لكفار قريش (إلا كنا عليهم شهودا) استثناء مفرغ من أعم
الأحوال للمخاطبين : أى شهودا عليكم بعمله منكم ، والضمير . في فيه من قوله (تفيضون فيه) عائد على العمل ،
يقال : أفاض فلان في الحديث والعمل : إذا اندفع فيه . وقال الضحاك : الضمير في فيه عائد على القرآن ،
والمعنى : إذ تشيعون في القرآن الكذب . قوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء) قرأ
الكسائي « يعزب » بكسر الزاي ، وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان فصيحتان . ومعنى يعزب : يغيب . وقيل يبعد .
وقال ابن كيسان : يذهب ، وهذه المعاني متقاربة ، ومن في (من مثقال) زائدة للتأكيد : أى وما يغيب عن ربك
وزن ذرة : أى غلة حمراء ، وعبر بالأرض والسماء مع أنه سبحانه لا يغيب عنه شيء لافيهما ولا فيما هو خارج
عنهما ، لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات . وقدّم الأرض على السماء لأنها محل استقرار
العالم فهم يشاهدون ما فيها من قرب ، والواو في (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) للعطف على لفظ مثقال ، وانتصبا
لكونهما ممتنعين ، ويجوز أن يكون العطف على ذرة ، وقيل انتصبا بهما بلائى لنفى الجنس ، والواو للاستئناف ،
وليس من متعلقات وما يعزب ، وخير لا (إلا في كتاب) والمعنى : ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منه إلا
وهو في كتاب مبين فكيف يغيب عنه ؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر . ووجه ذلك أنه معطوف على محل
من مثقال ، وعمله الرفع ، وقد أورد على توجيه نصب والرفع على العطف على لفظ مثقال وعمله . أو على لفظ
ذرة إشكال ، وهو أنه يصير تقدير الآية : لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب . ويلزم منه
أن يكون ذلك الشيء الذى في الكتاب خارجا عن علم الله وهو محال . وقد أجيب عن هذا الإشكال بأن الأشياء
المخلوقة قسمان : قسم أوجده الله ابتداء من غير واسطة كخلق الملائكة والسموات والأرض ، وقسم آخر أوجده
بواسطة القسم الأول من حوادث عالم الكون والفساد ، ولا شك أن هذا القسم الثانى متباعد في سلسلة العلية عن
مرتبة الأول ، فالمراد من الآية أنه لا يبعد عن مرتبة وجوده سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب
مبين أئيت فيه صورة تلك المعلومات ، والفرض : الرد على من يزعم أنه غير عالم بالجزئيات . وأجيب أيضا بأن

الاستثناء منقطع : أى لكن هو فى كتاب مبین . وذكر أبو على الجرجاني أن إلا بمعنى الواو . هل أن الكلام قد
ثم عند قوله (ولا أكبر) ثم وقع الابتداء بقوله (إلا فى كتاب مبین) أى وهو أيضا فى كتاب مبین . والعرب قد
نضع إلا موضع الواو . ومنه قوله تعالى - إني لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم - يعنى ومن ظلم ، وقوله - لئلا
يكون الناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا - أى والذين ظلموا ، وقدّر هو بعد الواو التى جاءت إلا بمعناها كما
فى قوله - وقولوا حطة - أى هى حطة ، ومثله - ولا تقولوا ثلاثة - وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى
ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبین - . وقال الزجاج : إن الرفع على الابتداء فى قراءة من قرأ
بالرفع ، وخبره (إلا فى كتاب) واختاره صاحب الكشاف ، واختار فى قراءة النصب التى قرأ بها الجمهور أنها
منصوبان بلا التى لنى الجنس . واستشكل العطف بنحو ما قدّمنا . ثم لما بين سبحانه إحاطته بجميع الأشياء ،
وكان فى ذلك تقوية لقلوب المطيعين ، وكسر لقلوب العاصين ذكر حال المطيعين . فقال (ألا إن أولياء الله
لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الولي فى اللغة : القريب . والمراد بأولياء الله : خالص المؤمنين كأنهم قربوا من الله
سبحانه بطاعته واجتناب معصيته . وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله (الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى يؤمنون
بما يجب الإيمان به ، ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصى الله سبحانه . والمراد بنى الخوف عنهم أنهم لا يخافون
أبدا كما يخاف غيرهم ، لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم ، وانتهوا عن المعاصى التى نهاهم عنها . فهم على ثقة من
أنفسهم وحسن ظنّ بربهم ، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب ، لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله
وقدره فيسلمون للقضاء والقدر ، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر ، فصدورهم منشرحة ، وجوارحهم نشطة .
وقلوبهم مسرورة . وعمل الموصول النصب على أنه بدل من أولياء أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو هو
مبتدأ وخبره لم البشرى ، فيكون غير متصل بما قبله ، أو النصب أيضا على المدح أو على أنه وصف لأولياء . قوله
(لم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) تفسير لمعنى كونهم أولياء الله : أى لم البشرى من الله ماداموا فى الحياة
بما يوحىه إلى أنبيائه ، وينزله فى كتبه : من كون حال المؤمنين عنده هو إدخالهم الجنة ورضوانه عنهم . كما وقع
كثير من البشارات للمؤمنين فى القرآن الكريم ، وكذلك ما يحصل لهم من الرؤيا الصالحة ، وما يتفضل الله به عليهم
من إجابة دعائهم . وما يشاهدونه من التبشير لهم عند حضور آجالهم بتزل الملائكة عليهم قائلين لهم : لا تخافوا ولا
تحننوا وأبشروا بالجنة ، وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة لهم مبشرين بالفوز بالنعيم والسلامة من العذاب .
والبشرى مصدر أريد به المشر به . والظرفان فى محل نصب على الحال : أى حال كونهم فى الدنيا وحال كونهم
فى الآخرة ، ومعنى (لا تبديل لكلمات الله) لا تغيير لأقواله على العموم ، فيدخل فيها ما وعد به عباده الصالحين
دخولا أوليا ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى المذكور قبله من كونهم مبشرين بالبشارتين فى الدارين (هو الفوز
العظيم) الذى لا يقادر قدره ولا يماثله غيره ، والجملةتان : أعنى (لا تبديل لكلمات الله) و (ذلك هو الفوز العظيم)
اعتراض فى آخر الكلام عند من يجوز . وقائدتها تحقيق البشر به وتعظيم شأنه ، أو الأولى اعتراضية ، والثانية
تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله (قل أرأيتم
ما أنزل الله لكم من رزق) قال : هم أهل الشرك كانوا يحلون من الأنعام والحرث ماشاءوا ويحرمون ما شاءوا .
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى قوله (إذ تفيضون فيه) قال : إذ تفعلون . وأخرج القرطبي
وابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى فى قوله (وما يعزب عن ربك) قال : لا يغيب عنه

وزن ذرة (ولا تصغر من ذلك ولا تكبر إلا في كتاب مبین) قال : هو الكتاب الذي عند الله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (ألا إن أولياء الله) قيل من هم يارب ؟ قال : هم الذين آمنوا وكانوا يتقون . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : هم الذين إذا رويوا ذكر الله . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس مرفوعا وموقوفا قال : هم الذين إذا رويوا يذكر الله لرويتهم . وأخرج عنه ابن المبارك والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه مرفوعا مثله . وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير مرفوعا وهو مرسل . وروى نحوه من طرق أخرى مرفوعا وموقوفا . وأخرج أحمد والحكيم الترمذي عن عمرو بن الجهم أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : لا يحق العبد حق الإيمان حتى يحب لله ويخضع لله . فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاء من الله ، وإن أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يذكر الله بذكرى وأذكر بذكرهم . وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم : خيار عباد الله الذين إذا رويوا ذكر الله ، وشرار عباده المشامون بالنجاسة المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العنت . وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : خياركم من ذكركم الله رؤيته . وزاد في علمكم منطلقه . ورغبكم في الآخرة عمله . وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس مرفوعا نحوه . وأخرج الحاكم ومصححه عن ابن عمر مرفوعا : إن الله عبادا ليسوا بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة بقربهم ومجلسهم منه ، فجثا أعرابي على ركبتيه فقال : يا رسول الله صفهم لنا حلهم لنا ؟ قال : قوم من ألقاه الناس من نزاع القبائل . تصافوا في الله وتحابوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم . يخاف الناس ولا يخافون . هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر نحوه . قال ابن كثير : وإسناده جيد . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي مالك الأشعري مرفوعا نحوه . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله (ألا إن أولياء الله) الآية فقال : الذين يتحابون في الله . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعا مثله . وقد ورد في فضل المتحابين في الله أحاديث ليس فيها أنهم المرادون بالآية . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والحكيم في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر قال : سألت أبا النرداء عن معنى قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا) فقال : ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ما سألتني عنها أحد غيرك منذ أنزلت علي : هي الرويا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، فهي بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة . وفي إسناده هذا الرجل المجهول . وأخرج أبو داود الطيالسي وأحمد والدارقطني والترمذي وابن ماجه والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ والحاكم ومصححه وابن مردويه والبيهقي عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا) قال : هي الرويا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له . وأخرج أحمد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا) قال : الرؤيا الصالحة يبشر بها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبر بها الحديث . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفي الآخرة الجنة . وأخرج ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده من طريق أبي جعفر عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسر البشرى في الحياة الدنيا بالرؤيا الحسنة ، وفي الآخرة بشارة المؤمن عند الموت : إن الله قد غفر لك ولمن حملك إلى قبرك . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا مثل حديث جابر . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعا الشطر الأول من حديث جابر . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن ابن عباس مثله . وقد وردت أحاديث صحيحة بأن الرؤيا الصالحة من المبشرات وأنها جزء من أجزاء النبوة ، ولكنها لم تقيد بتفسير هذه الآية . وقد روى أن المراد بالبشرى في الآية هي قوله - وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا - أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مقسم أنها قوله - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - . وأخرج ابن جرير والحاكم والبيهقي عن نافع قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير بذلك كتاب الله ، فقال ابن عمر : لا تستطيع ذلك أنت ولا ابن الزبير ، لا تبديل لكلمات الله .

وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٥) أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (١٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أُنْقُلُون عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٨) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١٩) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ مُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢٠)

قوله (ولا يحزنك قولهم) نهي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الحزن من قول الكفار المتضمن للظن عليه وتكذيبه والقدح في دينه ، والمقصود التسلية له والتبشير . ثم استأنف سبحانه الكلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مطلقا لما ذكره من النهي لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (إن العزة لله جميعا) أي الغلبة والقهر له في مملكته وسلطانه ليست لأحد من عباده ، وإذا كان ذلك كله له فكيف يقدر على عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئا . وقرئ «يحزنك» من أحزنه . وقرئ «أن العزة» بفتح المعزة على معنى . لأن العزة لله ، ولا ينافي ما في هذه الآية من جعل العزة جميعها لله تعالى قوله سبحانه - فله العزة ورسوله وللمؤمنين لأن كل عزة بالله فهي كلها لله ، ومنه قوله - كتب الله لأهلينا أنا ورسلي - إنا لننصر رسلنا - (ألا إن الله من في السموات ومن في الأرض) ومن جعلهم هؤلاء المشركون المعاصرون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا كانوا

في ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء . فكيف يستطيعون أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما لا ياذن الله به
وطلب العقلاء على غيرهم لكونهم أشرف . وفي الآية نفي على عباد البشر والملائكة والحمادات ، لأنهم عبدوا
المملوك وتركوا المالك ، وذلك مخالف لما يوجب العقل . ولهذا عقبه بقوله (وما يتبع الذين يدعون من دون الله
شركاء) والمعنى : أنهم وإن سموا معبوداتهم شركاء لله فليست شركاء له على الحقيقة . لأن ذلك محال . لو كان
فيهما آلهة إلا الله لفسدنا . وما في وما يتبع ثافية وشركاء مفعول يتبع ، وعلى هذا يكون مفعول يدعون محذوفا ،
والأصل وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء في الحقيقة : إنما هي أسماء لامسميات لها ، فحذف
أحدهما لدلالة المذكور عليه . ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ، وحذف مفعول يتبع لدلالة المذكور
عليه ، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، ويكون على هذا الوجه
شركاء منصوبا يدعون ، والكلام خارج مخرج التوبيخ لهم والإزراء عليهم . ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة
على من في السموات : أي الله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء .
والمعنى : أن الله مالك لعبوداتهم لكونها من جملة من في السموات ومن في الأرض . ثم زاد سبحانه في تأكيد الرد
عليهم والدفع لأقوالهم فقال (إن يتبعون إلا الظن) أي ما يتبعون بيقين إنما يتبعون ظنا ، والظن لا يغني عن الحق
شيئا (إن هم إلا يخرون) أي يقدر أنهم شركاء تقديرا باطلا وكذبا بحتا ، وقد تقدمت هذه الآية في الألعام ثم
ذكر سبحانه طرفا من آثار قدرته مع الامتنان على عباده ببعض نعمه فقال (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه
والنهار مبصرا) أي جعل لعباده الزمان منتقسما إلى قسمين : أحدهما مظلم وهو الليل لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة
والنصب ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب ، والآخر مبصر لأجل يسعون فيه بما يعود على نفهم وتوفير
معاشهم ، ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضى منير ، لا يخفى عليهم فيه كبير ولا حقير ، وجعله سبحانه
للنهار مبصرا مجاز . والمعنى : أنه مبصر صاحبه كقولهم : نهاره صائم ، والإشارة بقوله (إن في ذلك) إلى الجعل
المذكور (آيات) عجيبة كثيرة (تقوم يسمعون) أي يسمعون ما يتلى عليهم من الآيات التنزيلية المنبهة على الآيات
التكوينية مما ذكره الله سبحانه ها هنا منها ومن غيرها مما لم يذكره ، فعند السماع منهم لذلك يتفكرون ويعتبرون .
فيكون ذلك من أعظم أسباب الإيمان . قوله (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى) هذا نوع آخر من أباطيل
المشركين التي كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولدا . فرد ذلك عليهم بقوله (سبحانه هو
الغنى) فنزه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين . وبين أنه غني عن ذلك وأن الولد إنما يطلب للحاجة .
والغنى المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها . وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد . وأيضا إنما يحتاج إلى الولد
من يكون يصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه ، والأزلي القديم لا يفتقر إلى ذلك . وقد تقدم تفسير الآية في البقرة .
ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان ، فقال (له ما في السموات وما في الأرض) ، وإذا كان الكل له وفي ملكه
فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولدا له لانهفاة بين الملك والبنوة والأبوة . ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا
دليل فقال (إن عندكم من سلطان بهذا) أي عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذي تم لونه . و « من » في (من
سلطان) زائدة للتأكيد : والجار والمجرور في (بهذا) متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان ، أو متعلق بما
عندكم لما فيه من معنى الاستقرار . ثم ونجهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال (أتقولون
على الله ما لا تعلمون) ، ويستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء ، بل من الجهل المحض
ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم قولاً يبدل على أن ما قالوه كذب ، وأن من كذب على الله

لا يفلح فقال (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أى كل مفتر هذا شأنه . ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا . وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز . والمعنى : أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب . ثم بين سبحانه أن هذا الافتراء وإن فاز صاحبه بلىء من المطالب العاجلة فهو متاع قليل في الدنيا ، ثم يتعقبه الموت والرجوع إلى الله . فيعذب المفترى عذابا مؤبدا . فيكون متاع خبير مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة لبيان أن ما يحصل للمفترى بافترائه ليس بفائدة يعتد بها ، بل هو متاع يسير في الدنيا يتعقبه العذاب الشديد بسبب الكفر الحاصل بأسباب من جعلها الكذب على الله . وقال الأخفش : إن التقلير لهم متاع في الدنيا ، فيكون المحذوف على هذا هو الخبر . وقال الكسائي : التقدير ذلك متاع أو هو متاع ، فيكون المحذوف على هذا هو المبتدأ .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال في قوله تعالى (ولا يحزنك) لما لم ينتفعوا بما جاءهم من الله وأقاموا على كفرهم كبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فجاءه من الله فيما يعاتبه (ولا يحزنك) قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم) يسمع ما يقولون ويعلمه ، فلو شاء بعزته لانتصر منهم . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (والنهار مبصرا) قال : منيرا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله (إن عندكم من سلطان بهذا) يقول : ما عندكم سلطان بهذا .

وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي أُلْفِكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) .

لما بالغ سبحانه في تقرير البراهين الواضحة ودفع الشبهة المنهارة : شرع في ذكر قصص الأنبياء لما في ذلك من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وائل عليهم) أى على الكفار المعاصرين لك المعارضين لما جئت به بأقوالهم الباطلة (نبأ نوح) أى خبره ، والنبأ هو الخبر الذى له خطر وشأن ، والمراد : ما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعله كفار قريش وأمثالهم (إذ قال لقومه) أى وقت قال لقومه ، والظرف منصوب بنبا أو بدل منه بدل ، واللام في (لقومه) لام التبليغ (يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي) أى عظيم وثقل . والمقام بفتح الميم : الموضع الذى يقام فيه . وبالمضم الإقامة . وقد اتفق القراء على الفتح ، وكفى بالمقام عن نفسه كما يقال فعلته لمكان فلان . أى لأجله . ومنه : ولحق خاف مقام ربه . أى يخاف ربه . ويجوز أن يراد بالمقام المكث :

أفليس عليكم سكتى بين أظهركم . ويجوز أن يراد بالمقام القيام . لأن الواعظ يقوم حال وعظه . والمعنى : إن كان كبير عليكم قياماً بالوعظ في مواطن اجتماعكم ، وكبير عليكم تذكيري لكم (بآيات الله) للتكوينية والتزيينية (فعلى الله توكلت) هذه الجملة جواب الشرط ، والمعنى : إني لا أقابل ذلك منكم إلا بالتوكل على الله . فإن ذلك دأبى للذى أنا عليه كديماً وحديثاً . ويجوز أن يريد إحداث مرتبة مخصوصة عن مراتب التوكل ، ويجوز أن يكون جوابه الشرط (فاجمعوا) وجملة (فعلى الله توكلت) اعتراض كقولك : إن كنت أنكرت على شيتنا فالله حسبي . ومعنى (فاجمعوا أمركم) اعزموا عليه ، من أجمع الأمر : إذا نواه وعزم عليه قاله القراء : وروى عن القراء أنه قال : أجمع الشيء : أحده . وقال مؤرج السبوسى : أجمع الأمر أفصح من أجمع عليه ، وأنشد :

يألت شمرى والمقى لا تنفع هل أغلن يوماً وأمرى مجمع

وقال أبو الهيثم : أجمع أمره : جعله جميعاً بعد ما كان متفرقاً ، وتفرقه أن تقول مرةً أفعل كذا ، ومرةً أفعل كذا ، فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه : أى جعله جميعاً ، فهذا هو الأصل في الإجماع ، ثم صار بمعنى العزم . وقد اتفق جمهور القراء على نصب « شركاءكم » وقطع الهزمة من أجمعوا . وقرأ يعقوب وعاصم الجحدوى بهزة وصل في أجمعوا على أنه من جمع يجمع جمعاً . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق ويعقوب « وشركاؤكم » بالرفع . قال النحاس : وفي نصب الشركاء على قراءة الجمهور ثلاثة أوجه : الأول بمعنى وادعوا شركاءكم . قاله الكسائى والقراء : أى ادعهم لنصرتكم ، فهو على هذا منصوب بفعل مضمر . وقال محمد بن يزيد المبرد : هو معطوف على للمنى كما قال الشاعر :

يألت زوجك فى الوغى متقلداً سيفاً ورماحاً

والرمح لا يتقلد به ، لكنه محمول كالسيف . وقال الزجاج : المعنى مع شركائكم ، قالوا على هذا واو مع . وأما على قراءة أجمعوا بهزة وصل فالعطف ظاهر : أى اجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم . وأما توجيه قراءة الرفع . فعلى عطف الشركاء على الضمير المرفوع في أجمعوا ، وحسن هذا العطف مع عدم التأكيد بمنفصل كما هو المعتبر في ذلك أن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة بعيدة لأنه لو كان شركاءكم مرفوعاً لرسم في المصحف بالواو ، وليس ذلك موجوداً فيه . قال المهلوى : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء ، والخبر محذوف : أى وشركاؤكم ليجمعوا أمرهم . ونسبة ذلك إلى الشركاء مع كون الأصنام لا تعقل لقصد التوبيخ والتفريع لمن عبدها . وروى عن أبى أنه قرأ : « وادعوا شركاءكم » بإظهار الفعل . قوله (ثم لا يكتن أمركم عليكم نعمة) النعمة : العطية من قولهم ، غم الحلال : إذا استتر : أى ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى على بغيمة نهارى ولا ليل على بسرمد

هكذا قال الزجاج . وقال الهيثم : معناه لا يكتن أمركم عليكم مبهماً . وقيل إن النعمة : ضيق الأمر كذا روى عن أبى هبيلة . والمعنى : لا يكتن أمركم عليكم بمصاحبتى والمجاملة لى ضيقاً شديداً . بل ادفعوا هذا الضيق والشدة بما شتمتكم وقدرتم عليه ، وعلى الوجهين الأولين يكون المراد بالأمر الثانى هو الأمر الأول ، وعلى الثالث يكون المراد به غيره . قوله (ثم اقضوا إلى ولا تنظرون) أى ذلك الأمر الذى تريدونه بى . وأصل اقضوا من القضاء ، وهو الإحكام . والمعنى : أحكموا ذلك الأمر . قال الأخفش والكسائى : هو مثل - وقضينا إليه ذلك الأمر - أى أنهيناها إليه وأبلغناه إياه ، ثم لا تنظرون : أى لا تعجلون . بل جعلوا أمركم واصنعوا ما بدا لكم ؛ وقيل معناه : ثم امضوا

إلى ولا تؤخرون . قال النحاس : هذا قول صحيح في اللغة . ومنه قضى الميت : مضى . وحكى القراء عن بعض القراء أنه قرأ ثم « أفضوا » بالفاء وقطع الهمزة : أى توجهوا . وفي هذا الكلام من نوح عليه السلام ما يدل على وثوقه بنصر ربه وعدم مبالاته بما يتوعد به قومه . ثم بين لهم أن كل ما أتى به إليهم من الإعذار والإنذار وتبليغ الشريعة عن الله ليس هو لطمع دنيوى ، ولا لغرض خسيس . فقال (فإن توليتم فاسألتكم من أجر) أى إن أعرضتم عن العمل بنصحي لكم وتذكيرى إياكم . فاسألتكم في مقابلة ذلك من أجر تؤدونه إلى حتى تهملوني فيما جئت به . والفاء في (فإن توليتم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والفاء في (فاسألتكم) جزائية (إن أجرى إلا على الله) أى ما توالي في النصيح والتذكير إلا عليه سبحانه فهو يثبني آمتم أو توليتم . قرأ أهل المدينة وأبو عمر وابن عامر وحنس بتحريك الباء من أجرى . وقرأ الباقر بالسكون (وأمرت أن أكون من المسلمين) المتقادين لحكم الله الذين يجعلون أعمالهم خالصة لله سبحانه لا يأخذون عليها أجرا ولا يطمعون في عاجل . قوله (فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك) أى استمروا على تكذيبه وأصبروا على ذلك . وليس المراد أنهم أحدثوا تكذيبه بعد أن لم يكن . والمراد بمن معه من قد أجابه وصار على دينه . والخلائف جمع خليفة . والمعنى : أنه سبحانه جعلهم خلفاء يسكنون الأرض التي كانت للمهلكين بالغرق ويخلفونهم فيها (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) من الكفار المعاندين لنوح الذين لم يؤمنوا به أغرقهم الله بالطوفان (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) فيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتهديد للمشركين وتهويل عليهم (ثم بعثنا من بعده) أى من بعد نوح (رسلا) كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب (فجاءوهم بالبينات) أى بالمعجزات وبما أرسلهم الله به من الشرائع التي شرعها الله لقوم كل نبي (فما كانوا ليؤمنوا) أى فما أحدثوا الإيمان بل استمروا على الكفر وأصروا عليه . والمعنى : أنه ما صح ولا استقام لقوم من أولئك الأقوام الذين أرسل الله إليهم رسله أن يؤمنوا في وقت من الأوقات (بما كذبوا به من قبل) أى من قبل تكذيبهم الواقع منهم عند مجيء الرسل إليهم . والمعنى : أن كل قوم من العالم لم يؤمنوا عند أن أرسل الله إليهم الرسول المبعوث إليهم على الخصوص بما كانوا مكذبين به من قبل مجيئه إليهم . لأنهم كانوا غير مؤمنين بل مكذبين بالدين ولو كانوا مؤمنين لم يبعث إليهم رسولا . وهذا مبنى على أن الضمير في (فما كانوا ليؤمنوا) وفي (بما كذبوا) راجع إلى القوم المذكورين في قوله (إلى قومهم) وقيل ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح : أى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب به قوم نوح من قبل أن يأتي هؤلاء الأقوام الذين جاءوا من بعدهم (وجاءهم رسلاهم بالبينات) وقيل إن الباء في بما كذبوا به من قبل للسببية : أى فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بسبب ما اعتادوه من تكذيب الحق من قبل مجيئهم . وفيه نظر . وقيل المعنى : بما كذبوا به من قبل : أى في عالم الذر فإن فيهم من كذب بقلبه . وإن آمنوا ظاهرا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل إنه لقوم بأعيانهم (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى مثل ذلك الطبع العظيم نطبع على قلوب المتجاوزين للحد المعهود في الكفر . وقد تقدم تفسير هذا في غير موضع .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الأعرج في قوله (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) يقول : فأحكموا أمركم وادعوا شركاءكم . وأخرج أيضا عن الحسن في الآية . أى فليجمعوا أمركم معكم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ثم لا يكن أمركم عليكم نعمة) قال : لا يكبر عليكم أمركم (ثم أفضوا) ما أنتم قاضون . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ثم أفضوا) قال : انهضوا (إلى ولا تنظرون) يقول : ولا تؤخرون .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَثْبُتَانِ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السُّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

قوله (ثم بعثنا من بعدهم) معطوف على قوله (ثم بعثنا من بعده رسلاً) والضمير في من بعدهم راجع إلى الرسل المتقدم ذكرهم ، وخص موسى وهارون بالذكر مع دخولهما تحت الرسل لمزيد شرفهما وخطر شأن ماجرى بينهما وبين فرعون ، والمراد بالملأ الأشراف . والمراد بالآيات : المعجزات ، وهي التسع المذكورة في الكتاب العزيز (فاستكبروا) عن قبولها ولم يتواضعوا لها ويدعوا لما اشتملت عليه من المعجزات الموجبة لتصديق ما جاء بها (وكانوا قوماً مجرمين) أي كانوا ذوي إجمام عظام وآثام كبيرة ، فبسبب ذلك اجترعوا على ردها . لأن الذنوب تحول بين صاحبها وبين إدراك الحق وإبصار الصواب . قيل وهذه الحملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها . قوله (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) أي فلما جاء فرعون وملاؤه الحق من عند الله وهو المعجزات لم يؤمنوا بها بل حملوها على السحر مكابرة منهم ، فرد عليهم موسى قائلاً (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) قيل في الكلام حذف ، والتقدير : أتقولون للحق أسحر فلا تقولوا ذلك ، ثم استأنف إنكاراً آخر من جهة نفسه فقال : (أسحر هذا) فحذف قولهم الأول لكفاء بالثاني ، والمجئ إلى هذا أنهم لم يستفهموه عن السحر حتى يحكي ما قالوه بقوله (أسحر هذا) بل هم قاطعون بأنه سحر . لأنهم قالوا (إن هذا لسحر مبين) فحينئذ لا يكون قوله

(أعمر هذا) من قولهم ، وقال الأنخس : هو من قولهم ، وفيه نظر لما قدمنا ، وقيل معنى (أقولون) أنميون الحق وتطعن فيه وكان عليكم أن تذهبنوا له ، ثم قال أعمر هذا منكرا لما قالوه ، وقيل إن مفعول (أقولون) مخوف ، وهو ما دل عليه قولهم (إن هذا السحر) والتقدير : أتقولون ما تقولون ، يعنى قولهم إن هذا لسحرمين ثم قيل أعمر هذا ، وعلى هذا التقدير والتقدير الأول فتكون جملة (أعمر هذا) مستأنفة من جهة موسى عليه السلام . والاستغناء للتفريع والتوبيخ بعد الجملة الأولى المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ماذا قال لم موسى لما قالوا إن هذا لسحرمين ؟ فقيل : قال أتقولون للحق لما جاءكم ، على طريقة الاستغناء الإنكارى ، والمعنى : أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحرمين ، وهو أبعد شئ من السحر . ثم أنكر عليهم وقرعهم ووبخهم فقال (أعمر هذا) فجاء موسى عليه السلام بإنكار بعد إنكار وتوبيخ بعد توبيخ وتجهيل بعد تجهيل ، وجملة (ولا يفلح الساحرون) فى محل نصب على الحال : أى أتقولون للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح الساحرون فلا يظفرون بمطلوب ولا يفوزون بخير ولا ينجون من مكروه ، فكيف يقع فى هذا من هو مرسل من عند الله ، وقد أبدى بالمعجزات والبراهين الواضحة ؟ وجملة (قالوا أجتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ما قال ؟ وفى هذا ما يدل على أنهم انقطعوا عن الدليل وعجزوا عن إبراز الحجة ، ولم يمحذوا ما يوجبون به عما أورده عليهم ، بل لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الجهل والبلادة ، وهو الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم من الكفر ، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم للحق وجحودهم للآيات البينة ، وهو الرياضة الدنيوية التى خافوا عليها وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا ، وكم بقى على الباطل ، وهو يعلم أنه باطل بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم فى سابق الدهر ولا حقه ، فثم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة ، وإلى الرواية الصحيحة من الرأى البحت ، يقال لفته لفتا : إذا صرفه عن الشئ ولواه عنه ، ومنه قول الشاعر :

تلفت نحو الحق حتى رأيتنى وجعت من الإصغاء لينا وأخذنا

أى تريد أن تصرفنا عن الشئ الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، والمراد بالكبرياء الملك . قال الزجاج : سعى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وقيل سعى بملك لأن الملك يتكبر .

والحاصل أنهم عللوا عدم قبولهم دعوة موسى بأمرين : التمسك بالتقليد للآباء والحرص على الرياضة الدنيوية ، لأنهم إذا أجابوا النبى وصداقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ولم يبق للملك رئاسة تامة ، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات ، ثم قالوا (وما نحن لكما بمؤمنين) تصريحاً منهم بالتكذيب وقطعا للطمع فى إيمانهم ، وقد أفرد الخطاب لموسى فى قولهم : أجتنا لتلفتنا ، ثم جمعوا بينه وبين هارون فى الخطاب فى قولهم (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) ووجه ذلك أنهم أسندوا الهوى والصرف عن طريق آباؤهم إلى موسى ، لكونه المقصود بالرسالة المبلغ عن الله ما شرعه لهم ، وجمعوا بينهما فى الضميرين الآخرين ، لأن الكبرياء شامل لهما فى زعمهم ولكون ترك الإيمان بموسى يستلزم ترك الإيمان بهارون ، وقد مرّت القصة فى الأعراف قوله (وقال فرعون اثونى بكل ساحر عليم) قال هكذا لما رأى اليد البيضاء والعصا ، لأنه اعتقد أنهما من السحر ، فأمر قومه بأن يأتوه بكل ساحر عليم ، هكذا قرأ حمزة والكسائى وابن وثاب والأعمش . وقرأ الباقون : ساحر . وقد تقدم الكلام على هذا فى الأعراف . والسحر صيغة مبالغة : أى كثير السحر كثير العلم بعمله وأنواعه (فلما

جاء السحرة) في الكلام حلف ، والتقدير يهكذا : وقال فرعون اتوني بكل سحر حليم فاتوا بهم إليه ، فلما جاء السحرة ، فتكون الفاء للعطف على المقدّر المحذوف . قوله (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) أى قال لهم هذه اللقاة بعد أن قالوا له : إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقون : أى اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم (فلما ألقوا) ما ألقوه من ذلك (قال) لهم (موسى ما جئتم به السحر) أى الذى جئتم به السحر على أن ما موصولة مبتدأ والخبر السحر ؛ والمعنى أنه سحر ، لا أنه آية من آيات الله . وأجاز القراء نصب السحر بجئتم ، وتكون ما شرطية ، والشرط جئتم ، والجزاء (إن الله سيبطله) على تقدير الفاء : أى فإن الله سيبطله ؛ وقيل إن السحر مستصحب على المصدر : أى ما جئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام فلا يحتاج على هذا إلى حذف الفاء ، واختاره النحاسي . وقال : حذف الفاء في المجازاة لا يميزه كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر . وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر (ألسحر) على أن الميمزة للاستفهام ، والتقدير : أهو السحر فتكون ما على هذه القراءة استفهامية . وقرأ أبى (ما أتيتكم به سحر) إن الله سيبطله ، أى سيمحقه فيصير باطلا بما يظهره على يدى من الآيات المعجزة (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) أى عمل هذا الجنس ، فيشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد ويدخل فيه السحر والسحرة دخولا أوليا ، والواو في (ويحق الله الحق) للعطف على سيبطله : أى يبينه ويوضحه (بكلماته) التى أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين (ولو كره المجرمون) من آل فرعون أو المجرمون على العموم ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أوليا ، والإجرام الآثام . قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) الضمير يرجع إلى موسى : أى من قوم موسى ، وهم طائفة من ذرارى بنى إسرائيل ؛ وقيل المراد طائفة من ذرارى فرعون فيكون الضمير عائدا على فرعون ؛ قيل ومنهم مؤمن آل فرعون وامراته وماشطة ابنته وامرأة خازنه ؛ وقيل هم قوم آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل ، روى هذا عن القراء (على خوف من فرعون وملائهم) الضمير لفرعون ، وجمع لأنه لما كان جبارا جمعوا ضميره تعظيما له ؛ وقيل إن قوم فرعون سموا بفرعون مثل ثمود ، فرجع الضمير إليهم بهذا الاعتبار ، وقيل إنه عائدا على مضاف محذوف ، والتقدير : على خوف من آل فرعون ، وروى هذا عن القراء . ومنع ذلك الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما قامت هند وأنت تريد غلامها . وروى عن الأخفش أن الضمير يعود على الذرية ، وقواه النحاسي (أن يفتنهم) أى يصرفهم عن دينهم بالعذاب الذى كان ينزله بهم ، وهو بدل اشتمال . ويجوز أن يكون في موضع نصب بالمصدر (وإن فرعون لعال في الأرض) أى عات متكبر متغلب على أرض مصر (وإنه لمن المسرفين) المجاوزين للحد في الكفر وما يفعله من القتل والصلب وتنويع العقوبات . قوله (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) قيل إن هذا من باب التكرير للشرط ، فشرط في التوكل على الله الإيمان به والإسلام : أى الاستسلام لقضائه وقدره ؛ وقيل إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل ، والمشرط بالإسلام وجوده ؛ والمعنى : أن يسلموا أنفسهم لله : أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها لأن التوكل لا يكون مع التخليط . قال في الكشف : ونظيره في الكلام إن ضربك زيد فاضربه إن كانت لك به قوة (فقالوا) أى قوم موسى مجيبين له (على الله توكلنا) ثم دعوا الله مخلصين فقالوا (ربنا لا تجعلنا فتنة) أى موضع فتنة (للقوم الظالمين) والمعنى : لا تسلطهم علينا فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا ، ولا تجعلنا فتنة لم يفتنونا بنا غيرنا فيقولون لهم : لو كان هؤلاء على حق لما سلطنا عليهم وعذبناهم ، وعلى المعنى الأول تكون الفتنة بمعنى المفتون . ولما قدّموا التضرع إلى الله سبحانه في أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال عصمة أنفسهم فقالوا (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة

أنفسهم . قوله (وأوحينا إلى موسى ، وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا) أن هي المقصورة لأن في الإيحاء معنى القول أن تبوأ : أى اتخذنا تمومكما بمصر بيوتا ، يقال بوأ زيدا مكانا وبوأ زيدا مكانا ، والمبوأ : المنزل للزوم ، ومنه بوأه الله منزلا : أى ألزمه إياه وأسكنه فيه ، ومنه الحديث : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومنه قول الراجز :

نحن بنو عدنان ليس شك تبوأ الجسد بنا والملك

قيل ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية ، وقيل هي مصر المروقة لا الإسكندرية (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى متوجهة إلى جهة القبلة ، قيل والمراد بالبيوت هنا المساجد ، وإليه ذهب جماعة من السلف ، وقيل المراد بالبيوت التي يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوها منا قبلة ، والمراد بالقبلة على القول الأول هي جهة بيت المقدس ، وهو قبلة اليهود إلى اليوم ، وقيل جهة الكعبة ، وأنها كانت قبلة موسى ومن معه ، وقيل المراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرا ثلاثا يصيبهم من الكفار معرفة بسبب الصلاة ، ومما يؤيد هذا قوله (وأقيموا الصلاة) أى التي أمركم الله بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة إما في المساجد أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة ، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون ، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة) ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك ، فقال (وبشر المؤمنين) لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء ، ثم جعل عاما في استقبال القبلة وإقامة الصلاة ، لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء ، ثم جعل خاصا بموسى لأنه الأصل في الرسالة وهارون تابع له ، فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشرين بها ، وقيل إن الخطاب في وبشر المؤمنين لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض ، والأول أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (لتلفتنا) قال : لتلوتنا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي قال : لتصدتنا عن آلهتنا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وتكون لكما الكبرياء في الأرض) قال : العظمة والملك والسلطان . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية) قال : الذرية القليل . وأخرج هؤلاء عنه في قوله (ذرية من قومه) قال : من بني إسرائيل . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كانت الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون ومومن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ونعيم بن حماد في الفتن وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال في تفسير الآية : لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على الحق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنون بنا . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي قلابة في الآية قال : سأل ربه أن لا يظهر علينا عدونا فيحسبون أنهم أولى بالعدل فيفتنون بذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي مجلز نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله (وأوحينا إلى موسى وأخيه) الآية ، قال ذلك حين منعهم فرعون الصلاة ، فأمروا أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم وأن يوجهوها نحو القبلة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (أن تبوأ

لقومكما بمصر) قال : مصر الإسكندرية . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : كانوا لا يصلون إلا في البيع حتى خافوا من آل فرعون فأمروا أن يصلوا في بيوتهم . وأخرج القرطبي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : أمروا أن يتخللوا في بيوتهم مساجد . وأخرج أبو الشيخ عن أبي سنان قال : القبلة الكعبة ، وذكر أن آدم فن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال : يقابل بعضها بعضا .

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُخْلِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلَنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَبَدْنِكَ لِنَتَّكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ (٩٢) .

لما بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات وإقامة الحجج البينات ، ولم يكن لذلك تأثير في من أرسل إليهم دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجنود والعناد ، فقال ميثا للسبب أولا (ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا في الحياة الدنيا) قد تقدم أن الملائم الأشراف ، والزينة : اسم لكل ما يزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك ، ثم كرر النداء للتأكيد فقال (ربنا ليضلوا عن سبيلك) .

وقد اختلف في هذه اللام الداخلة على الفعل ، فقال الخليل وسيبويه : إنها لام العاقبة والصيرورة . والمعنى : أنه لما كان عاقبة أمرهم الضلال صار كأنه سبحانه أعطاهم ما أعطاهم من النعم ليضلوا ، فتكون اللام على هذا متعلقة بآتيت ، وقيل إنها لام كي : أي أعطيتهم لكي يضلوا . وقال قوم : إن المعنى أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا . فحذفت لا كما قاله سبحانه - بين الله لكم أن تضلوا - . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن إلا أن العرب لا تحذف لا إلا مع أن ، فوه صاحب هذا التأويل بالاستدلال بقوله - بين الله لكم أن تضلوا - ، وقيل اللام للدعاء عليهم . والمعنى : ابتليهم بالهلاك عن سبيلك ، واستدل هذا القائل بقوله سبحانه بعد هذا : اطمس واشدد . وقد أطل صاحب الكشف في تقرير هذا بما لا طائل تحته ، والقول الأول هو الأول . وقرأ الكوفيون « ليضلوا » بضم حرف المضارعة : أي يوقعوا الإضلال على غيرهم . وقرأ الباقون بالفتح : أي يضلون في أنفسهم (ربنا اطمس على أموالهم) . قال الزجاج : طمس الشيء إذهابه عن صورته ، والمعنى : الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس (واشدد على قلوبهم) أي اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ولا تنشرح للإيمان ،

بوله (فلا يؤمنوا) قال المبرد والزجاج : هو معطوف على ليضلوا ، والمعنى : آتيتهم النعم ليضلوا ولا يؤمنوا ، ويكون ما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراضا . وقال القراء والكسائي وأبو عبيدة : هو دعاء بلفظ النهي ، والتقدير : اللهم فلا يؤمنوا ، ومنه قول الأعشى :

فلا ينبسط من بين عينيك ما تزوى ولا تلقني إلا وأنفك راغم

وقال الأخفش : إنه جواب الأمر : أي اطمس واشدد فلا يؤمنوا ، فيكون منصوبا . وروى هذا عن القراء أيضا ، ومنه :

ياناق سيري عنقا فسيحا إلى سليمان فستريحا

(حتى يروا العذاب الأليم) أي لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاناة لما يعصمهم الله به . وعند ذلك لا ينفع إيمانهم . وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء ، وقال : إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم . وأجيب بأنه لا يجوز لنبى أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه ، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن ، ولهذا لما أعلم الله نوحا عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، قال - رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا - . (قال قد أجيب دعوتكما فاستقيما) جعل الدعوة هاهنا مضافة إلى موسى وهارون ، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده ، ف قيل إن هارون كان يؤمن على دعاء موسى فسمى هاهنا داعيا ، وإن كان الداعي موسى وحده ، ففي أول الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي ، وهاهنا أضافه إليهما تنزيلا للمؤمن منزلة الداعي . ويجوز أن يكونا جميعا داعيين . ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أول الكلام لأصالته في الرسالة . قال النحاس : سمعت علي بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لهما قول موسى ربنا ولم يقل رب . وقرأ علي والسلمي « دعاؤكما » وقرأ ابن السيف « دعواكما » والاستقامة : الثبات على ما هما عليه من الدعاء إلى الله . قال القراء وغيره : أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل معنى الاستقامة : ترك الاستعجال ولزوم السكينة والرضا والتسليم لما يقضى به الله سبحانه . قوله (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) بتشديد النون للتأكيد وحركت بالكسر لكونه الأصل ولكونهما أشبهت نون التثنية . وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النون لا على النهي . وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من تتبعان . والمعنى : النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعبادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلا وتأجيلا . قوله (وجاوزنا بيني إسرائيل البحر) هو من جاوز المكان : إذا خلفه وتخطاه ، والباء للتعدي : أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط ، لأن الله سبحانه جعل البحر بينا فرؤا فيه حتى خرجوا منه إلى البر . وقد تقدم تفسير هذا في سورة البقرة في قوله سبحانه - وإذا فرقنا بكم البحر - وقرأ الحسن « وجوزنا » وهما لغتان (فأتبعهم فرعون وجنوده) يقال تبع وأتبع بمعنى واحد : إذا لحقه . وقال الأصمعي : يقال أتبعه بقطع الألف : إذا لحقه وأدركه ، وأتبعه بوصل الألف : إذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه . وكذا قال أبو زيد . وقال أبو عمرو : إن أتبعه بالوصل : اقتلنى به ، وانتصاب بغيا وعميوا على الحال ، والبغى : الظلم ، والعدو : الاعتداء ، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة : أي للبغى والعدو . وقرأ الحسن « وعدوا » بضم العين والdal وتشديد الواو مثل علا يعلوا علوا ، وقيل إن البغى : طلب الاستعلاء في القوة بغير حق ، والعدو : الفعل (حتى إذا أدركه الفرق) أي ناله ووصله وألحمه . وذلك أن موسى خرج بيني إسرائيل على حين غفلة من

فرعون ، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده ، ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ، فشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر ، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التي كان عليها عند مضى موسى ومن معه ، فلما تكامل وغمر جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا كما حكى الله سبحانه ذلك (قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) أى صدقت أنه بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه ، فحذفت الباء ، والقسم للشأن ، وقرئ بكسر إن على الاستئناف ، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف : أى آمنت ، فقلت إنه ولم يفته هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الفرق كله كما تقدم في النساء ، ولم يقل للعين آمنت بالله أو برب العالمين ، بل قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية . قوله (وأنا من المسلمين) أى المستسلمين لأمر الله المتقادين له الذين يوحدونه ويتفنون ماسواه ، وهذه الجملة إما في محل نصب على الحال أو معطوفة على آمنت . قوله (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) هو مقول قول مقدر مطوف على قال آمنت : أى فليل له أتؤمن الآن ؟

وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة ؟ فليل هي من قول الله سبحانه ، وقيل من قول جبريل ، وقيل من قول ميكائيل ، وقيل من قول فرعون ، قال ذلك في نفسه لنفسه . وجملة وقد عصيت قبل في محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدر بعد القول المقدر ، وهو أتؤمن الآن ، والمعنى : إنكار الإيمان منه عند أن أبحه الفرق . والحال أنه قد عصى الله من قبل ، والمقصود التوبيخ والتوبيخ له . وجملة وكنت من المفسدين معطوفة على عصيت داخلة في الحال : أى كنت من المفسدين في الأرض بضلالتك عن الحق وإضلالك لغيرك . قوله (قالهم تنجيكم بيدك) قرئ « تنجيكم » بالتخفيف ، والجمهور على التثنية . وقرأ اليزيدي : « تنجيكم » بالحاء المهملة من التنحية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ، ومعنى تنجيكم بالجم : نلقبكم على نجوة من الأرض ، وذلك أن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأننا من ذاك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه ، وقيل المعنى : نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب في قعر البحر ونجعلك طافيا لشاهدوك ميتا بالفرق ، ومعنى تنجيكم بالمهملة : نطرحك على ناحية من الأرض . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ « بأيدائك » .

وقد اختلف المفسرون في معنى بيدك ، فليل معناه : يجسلك بعد سلب الروح منه ، وقيل معناه : يدركك ، والذرع يسمى بلدا ، ومنه قول كعب بن مالك :

تري الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا

أراد بالأبدان الذروع ، وقال عمرو بن معدى كرب :

ومضى نساؤهم بكل مضاضة جدلاء سايغة وبالأبدان

أى بذروع سايغة وذروع قصيرة : وهى التي يقال لها أبدان كما قال أبو عبيدة . وقال الأخفش : وأما قول من قال بترحك فليس بشيء ، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد . قوله (لتكون لمن خلقت آية) هذا تعطيل لشهية يدينه ، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لاسوى ، والمراد بالآية العلامة : أى لتكون لمن خلقت من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنت لست كما تدعى وينتفع عنهم الشاء في كونك قد صرت

مبتا بالفرق ، وقيل المراد ليكون طرحك على الساحل وحلك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله ، يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه ، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية واستمر على ذلك دهرًا طويلا كانت له هذه الآية القبيحة . وقرئ « لمن خلفك » على صيغة الفعل الماضي أى لمن يأتى بعلمك من القرون أو من خلفك في الرئاسة أو في السكون في المسكن الذي كنت تسكنه (وإن كثيرا من الناس عن آياتنا) التي توجب الاعتبار والتفكر وتوقف من سنة الغفلة (لغافلون) عما توجه الآيات ، وهذه الجملة تذييلية .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ربنا اطمس على أموالهم) يقول : دمر على أموالهم وأهلكها (واشدد على قلوبهم) قال : اطبع (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وهو الفرق . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : سألت عمر بن عبد العزيز عن قوله (ربنا اطمس على أموالهم) فأخبرته أن الله طمس على أموال فرعون وآل فرعون حتى صارت حجارة ، فقال عمر : كما أنت حتى آتيتك ، فدعا بكيس مختوم ففكه ، فإذا فيه الفضة مقطوعة كأنها الحجارة والدنانير والدراهم وأشباه ذلك من الأموال حجارة كلها . وقد روى أن أموالهم تحولت حجارة من طريق جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قد أجبت دعوتكما ، قال : فاستجاب له وحال بين فرعون وبين الإيمان . وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمين هارون على دعائه يقول آمين . قال أبو هريرة : وهو اسم من أسماء الله ، فذلك قوله (قد أجبت دعوتكما) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب القرظي نحوه أيضا . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله . وأخرج الحكيم الترمذي عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فاستقيا فامضيا لأمرى ، وهى الاستقامة . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : العلو والعتو والعلو في كتاب الله التجهر . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما خرج آخر أصحاب موسى ودخل آخر أصحاب فرعون أوحى الله إلى البحر أن انطبق عليهم ، فخرجت أصبع فرعون بلا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، قال جبريل : فعرفت أن الرب رحيم وحنيف أن تدركه الرحمة ، فرمته بجناحي وقلت : آلا إن وقد عصيت قبل ؟ فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف من قوم فرعون : ما غرق فرعون ولا أصحابه ، ولكنهم في جزائر البحر يتصيدون ، فأوحى الله إلى البحر أن اللفظ فرعون عريانا ، فلفظه عريانا أصلع أخينس قصيرا فهو قوله (فاليوم ننجيك بيدناك لتكون لمن خلفك آية) لمن قال : إن فرعون لم يفرق ، وكان نجاة غيره لم تكن نجاة عافية ، ثم أوحى الله إلى البحر أن اللفظ ما فيك فلفظهم على الساحل ، وكان البحر لا يلفظ غريقا في بطنه حتى يأكله السمك ، فليس يقبل البحر جريفا إلى يوم القيامة . وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أغرق الله فرعون فقال (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال لي جبريل : يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة » وقد روى هذا الحديث الترمذي من غير وجه ، وقال حسن صحيح غريب ، وصححه أيضا الحاكم . وروى عن ابن عباس مرفوعا من طرق أخرى . وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « قال لي جبريل : ما كان على الأرض شيء أبغض إلى من فرعون ، فلما آمن جعلت أحشواؤه حاة وأنا أخطه »

عشية أن تلوكه الرحمة . وأخرج ابن جرير والبيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً نحوه . وأخرج ابن مردويه عن
ابن عمر مرفوعاً نحوه أيضاً . وأخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة مرفوعاً نحوه أيضاً ، وفي إسناد حديث أبي هريرة
رجل مجهول ، وباقى رجاله ثقات . والعجب كل العجب ممن لا علم له بفن الرواية من المفسرين ، ولا يكاد يميز
بين أصح الصحيح من الحديث وأكذب الكذب منه ، كيف يتجارى على الكلام في أحاديث رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم والحكم ببطالان ماصح منها ، ويرسل لسانه وقلمه بالجهل البحت ، والقصور الفاضح الذى يضحك
منه كل من له أدنى ممارسة لفن الحديث ، فيامسكين مالك ولهذا الشأن الذى لست منه فى شيء ؟ ألا تستر نفسك
وتفزع على ضلعتك ، وتعرف بأنك بهذا العلم من أجهل الجاهلين ، وتشتغل بما هو علمك الذى لا تجاوزه ، وحاصلك
الذى ليس لك غيره ، وهو علم اللغة وتوابعه من العلوم الآلية ، ولقد صار صاحب الكشف رحمه الله بسبب
ما يتعرض له فى تفسيره من علم الحديث الذى ليس هو منه فى ورد ولا صدر فخرة للساخرين وعبرة للمعتبرين ،
فتارة يروى فى كتابه الموضوعات وهو لا يدري أنها موضوعات ، وتارة يتعرض لرد ما صح ، ويجزم بأنه من
الكذب على رسول الله واليه عليه ، وقد يكون فى الصحيحين وغيرهما مما يلتحق بهما من رواية جماعة من الصحابة
بأسانيد كلها أئمة ثقات أثبات حجج ، وأدنى نصيب من عقل بحجر صاحبه عن التكلم فى علم لا يعلمه ولا يدري
به أقل جواب ، وإن كان ذلك العلم من علوم الاصطلاح التى يتواضع عليها طائفة من الناس ، ويصطلحون على
أمر فيها بينهم ، فما بالك بعلم السنة الذى هو قسم كتاب الله ، وقائله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وراويه
عنه غير القرون ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته يثبت بها شرع
عام لجميع أهل الإسلام . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (فالיום ننجيك بيدك) قال : أنجى الله
فرعون بنى إسرائيل من البحر فنظروا إليه بعد ما غرق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنبارى
وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : يمسلك . قال : كذب بعض بنى إسرائيل بموت فرعون . فالتى على ساحل
البحر حتى يراه بنو إسرائيل أحمر قصيرا كأنه ثور . وأخرج ابن الأنبارى عن محمد بن كعب فى قوله (فالיום
ننجيك بيدك) قال : يدركك ، وكان درعه من لؤلؤة يلقى فيها الحروب .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِنْ كُنْتَ فِي
شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ
آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ
يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠).

قوله (ولقد بوأنا) هذا من جملة ما عده الله سبحانه من النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل ، ومعنى بوأنا :
أسكننا ، يقال بوأت زيدا منزلا : أسكنته فيه ، والمبوء اسم مكان أو مصدر ، وإضافته إلى الصدق على ما جرت
عليه قاعدة العرب ، فإنهم كانوا إذا ملحوا شيئا أضافوه إلى الصدق ، والمراد به هنا المنزل المحمود المختار ، قيل
هو أرض مصر ، وقيل الأردن وفلسطين ، وقيل للشام (ورزقناهم من الطيبات) أى المستلذات من الرزق (فما
اختلفوا) فى أمر دينهم وتشعبوا فيه شعبا بعد ما كانوا على طريقة واحدة غير مختلفة (حتى جاءهم العلم) أى لم
يقع منهم الاختلاف فى الدين إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها ، وما أسست عليه من
الأخبار بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم - وقيل المعنى : أنهم لم يختلفوا حتى جاءهم العلم ، وهو القرآن النازل
على نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم ، فاختلفوا فى نعتة وصفته ، وآمن به من آمن منهم وكفر به من كفر . فيكون
المراد بالمتخلفين على القول الأوّل هم اليهود بعد أن أنزلت عليهم التوراة وعلموا بها ، وعلى القول الثانى هم اليهود
المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيجازى
المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، والمحقّ بعمله بالحق والمبطل بعمله بالباطل (فإن كنت فى شكّ مما أنزلنا إليك)
الشكّ فى أصل اللغة : ضمّ الشئ بعضه إلى بعض ، ومنه شكّ الجوهر فى العقد ، والشاكّ كأنه يضمّ إلى ما يتوهمه
شيئا آخر خلافاً فيتردّد ويتحير ، والمحطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد غيره كما ورد فى القرآن فى غير
موضع ، قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد : سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان : معنى (فإن كنت فى شكّ)
أى قل يا محمد للكافر فإن كنت فى شكّ (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) يعنى مسلمى أهل الكتاب
كعبد الله بن سلام وأمثاله ، وقد كان عبدة الأوثان يعترفون لليهود بالعلم ويقرّون بأنهم أعلم منهم ، فأمر الله سبحانه
نبيه أن يرشد الشاكين فيما أنزل الله إليه من القرآن أن يسألوا أهل الكتاب الذين قد أسلموا ، فإنهم سيخبرونهم بأنه
كتاب الله حقا ، وأن هذا رسوله ، وأن التوراة شاهدة بذلك ناطقة به ، وفى هذا الوجه مع حسنة مخالفة للظاهر .
وقال القتيبي : المراد بهذه الآية من كان من الكفار غير قاطع بتكذيب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا بتصديقه ،
بل كان فى شكّ . وقيل المراد بالخطاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره ، والمعنى : لو كنت ممن يلحقه الشكّ
فما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأراوا عنك الشكّ ، وقيل الشكّ هو ضيق الصدر : أى إن ضاق صدرك
بكفر هؤلاء فاصبر واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك بصبر من قبلك من الأنبياء على أذى قومهم .
وقيل معنى الآية : الفرض والتقدير ، كأنه قال له : فإن وقع لك شكّ مثلاً وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا ،
فاسأل الذين يقرءون الكتاب ، فإنهم سيخبرونك عن نبوتك وما نزل عليك ، ويعترفون بذلك لأنهم يحملونه
مكتوبا عندهم ، وقد زال فيمن أسلم منهم ما كان مقتضيا لكم عندهم . قوله (لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن
من الممتريّن) فى هذا بيان ما يقطع الشكّ من أصله ويذهب به بحملته ، وهو شهادة الله سبحانه بأن هذا الذى وقع

الشك فيه حل اختلاف التفسير في الشاك هو الحق الذي لا يخالطه باطل ولا تشويه شبهة . ثم عقبه بالنهي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الامتراء فيما أنزل الله عليه . بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك . ويمكن أن يكون هذا النهي له تعمرهما لغيره كما في مواطن من الكتاب العزيز ، وهكذا القول في نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن التكذيب بآيات الله . فإن الظاهر فيه التعريض ولا سيما بعد تعقيبه بقوله - فتكون من الخاسرين - وفي هذا التعريض من الزجر للمخترين والمكذبين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم ، لأنه إذا كان بحيث ينهى عنه من لا يتصور صدوره عنه ، فكيف بمن يمكن منه ذلك . قوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) قد تقدم مثله في هذه السورة ، والمعنى : أنه حق عليهم قضاء الله وقدره بأنهم يصرون على الكفر ويموتون عليه لا يقع منهم الإيمان بحال من الأحوال ، وإن وقع منهم ما صورته صورة الإيمان كمن يؤمن منهم عند معاينة العذاب فهو في حكم العلم (ولو جاءتهم كل آية) من الآيات التكوينية والتزيلية ، فإن ذلك لا ينفعهم لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم (حتى يروا العذاب الأليم) فيقع منهم ما صورته صورة الإيمان وليس بإيمان . ولا يترتب عليه شيء من أحكامه . قوله (فلو كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) لولا هذه هي التحضيضية التي بمعنى هلا كما قال الأنخس والكسائي وغيرهما ، وبديل على ذلك ما في مصحف أبي وابن مسعود « فهلا قرية » والمعنى : فهلا قرية واحدة من هذه القرى التي أهلكناها آمنت إيماناً معتداً به . وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ولم يؤخره كما أخره فرعون ، والاستثناء بقوله (إلا قوم يونس) منقطع . وهو استثناء من القرى لأن المراد أهلها : والمعنى : لكن قوم يونس (لما آمنوا) إيماناً معتداً به قبل معاينة العذاب أو عند أول المعاينة قبل حلوله بهم (كشفنا عنهم عذاب الخزي) وقد قال بأن هذا الاستثناء منقطع جماعة من الأئمة منهم الكسائي والأنخس والفراء ، وقيل يجوز أن يكون متصلاً ، والجملة في معنى النفي . كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى المهلكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء . وقرئ بالرفع على البدل . وقال الزجاج في توجيه الرفع : يكون المعنى خير قوم يونس ، ولكن حلت إلهيا وتعذر جعل الإعراب عليها ، فأعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير . قال ابن جرير : خص قوم يونس من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب . وحكى ذلك عن جماعة من المفسرين . وقال الزجاج : إنه لم يقع العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب . ولورأوا عين العذاب لما نفهم الإيمان ، وهذا أولى من قول ابن جرير . والمراد بعذاب الخزي الذي كشفه الله عنهم . وهو العذاب الذي كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه ، أو الذي قد رأوا علاماته دون عينه (ومتعناهم إلى حين) أي بعد كشف العذاب عنهم متعناهم الله في الدنيا إلى حين معلوم قدره لهم . ثم بين سبحانه أن الإيمان وضده كلاهما بمشيئة الله وتقديره . فقال (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم) بحيث لا يخرج عنهم أحد (جميعاً) مجتمعين على الإيمان لا يفرقون فيه ويختلفون ، ولكنه لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للمصلحة التي أرادها الله سبحانه . وانتصاب جميعاً على الحال كما قال سيبويه . قال الأنخس : جاء بقوله جميعاً بعد كلهم للتأكيد كقوله - لا تتخذوا إلهين اثنين - ولما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً على إيمان جميع الناس أخبره الله بأن ذلك لا يكون . لأن مشيئة الجارية على الحكمة البالغة والمصالح الراجعة لا تقتضي ذلك ، فقال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) لأن ذلك ليس في وسعك يا محمد ولا داخل تحت قدرتك ، وفي هذا تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ودفع لما يفتق به صدره من طلب صلاح الكل ، الذي لو كان لم يكن صلاحاً محققاً بل يكون إلى الفساد أقرب . والله الحكيم البالغة . ثم بين سبحانه ما تقدم بقوله (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) أي ما صبح وما استقام لنفس

من الأنفس أن تؤمن بالله إلا ياذنه : أى بتسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك فلا يقع غير ما يشاؤه كائنا ما كان (ويجعل
الرجس على الذين لا يعقلون) أى العذاب أو الكفر أو الخذلان الذى هو سبب العذاب . وقرأ الحسن وأبو بكر
والمفضل « ونجعل » بالنون . وفى الرجس لغتان ضم الزاء وكسرها . والمراد بالذين لا يعقلون : هم الكفار للذين
لا يتعقلون حجج الله ولا يتفكرون فى آياته ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن قتادة فى قوله (ولقد بوأنا
بنى إسرائيل ميواً صدق) قال : بوأهم الله الشام وبيت المقدس . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم
وأبو الشيخ عن الضحاك قال : منازل صدق مصر والشام . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله
(فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) قال : العلم كتاب الله الذى أنزله وأمره الذى أمرهم به . وقد ورد فى الحديث أن
اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة . وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة . وستفترق هذه الأمة على
ثلاث وسبعين فرقة . وهو فى الستين والمسايد ، والكلام فيه يطول . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه
والصبياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله (فإن كنت فى شك) الآية ، قال : لم يشك رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم ولم يسأل . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله
 وسلم قال : لا أشك ولا أسأل . وهو مرسل . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (فاسأل الذين
 يقرءون الكتاب من قبلك) قال : التوراة والإنجيل الذين أدركوا محمداً من أهل الكتاب وآمنوا به ، يقول :
 سلمهم إن كنت فى شك بأنك مكتوب عندهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم
 وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) قال : حق عليهم بخط الله بما عصوه .
 وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك فى قوله (فلو لا كانت قرية آمنت) يقول لما كانت قرية آمنت . وأخرج ابن
 جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : لم يكن هذا فى الأمم قبل قوم يونس لم ينفع
 قرية كفرت ثم آمنت حين عاينت العذاب إلا قوم يونس ، فاستثنى الله قوم يونس . قال : وذكر لنا أن قوم
 يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل . فلما فقلوا بينهم قذف الله فى قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح وأخرجوا
 المواشى وفرقوا بين كل بهيمة وولدها . فعجوا إلى الله أربعين صباحاً . فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة
 والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد ما تلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل . وأخرج
 ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن يونس دعا قومه . فلما أبوا أن يحيوه
 وعدم العذاب . فقال : إنه يأتيكم يوم كذا وكذا . ثم خرج عنهم . وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب
 خرجت . فلما أظلمهم العذاب ففرقوا بين المرأة وولدها . وبين السخلة وولدها . وخرجوا يعججون إلى
 الله ، وعلم الله منهم الصدق فتاب عليهم وصرف عنهم العذاب ، وقعد يونس فى الطريق يسأل عن الخير . فمر به
 رجل فقال : ما فعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا ، فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبهم . وانطلق مغاضباً :
 يعنى مراغماً . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة قال
 غشى قوم يونس العذاب كما يغشى القبر بالثوب إذا دخل فيه صاحبه ومطرت السماء دماً . وأخرج أحمد فى الزهد
 وابن جرير عن ابن عباس أن العذاب كان هبط على قوم يونس لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ، فلما دهوا
 كشفه الله عنهم . وأخرج أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الجلد قال : لما غشى قوم
 يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بنية علمائهم . فقالوا له ما ترى ؟ قال : قولوا يا حى حين لا حى ، ويا حى حين

الموتى ، وبأحق لا إله إلا أنت ، فقالوا فكشف عنهم العذاب : وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ويجعل الرجس) قال : السخط . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : الرجس : الشيطان ، والرجس العذاب .

قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)
فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ (١٠٩) .

قوله (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) لما بين سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله أمر بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية ، والمراد بالنظر : التفكير والاعتبار : أى قل يا محمد لا تكفار تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته . وماذا مبتدأ ، وخبره في السموات والأرض . أو المبتدأ ما ، وذا بمعنى الذى ، وفي السموات والأرض صلته ، والموصول وصلته خبر المبتدأ : أى أى شيء الذى في السموات والأرض ، وعلى التقديرين فالجملة في محل نصب بالفعل الذى قبلها . ثم ذكر سبحانه أن التفكير والتدبر في هذه الدلائل لا ينفع في حق من استحسنت شقاوته فقال (وما تغني الآيات والدور) أى ما تنفع على أن ما نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية : أى أى شيء ينفع ، والآيات هى التى عبر عنها بقوله (ماذا في السموات والأرض) والنذر جمع نذير ، وهم الرسل أو جمع إنذار وهو المصدر (عن قوم لا يؤمنون) في علم الله سبحانه ، والمعنى : أن من كان مكذبا لا يجدى فيه شيء ولا يدفعه عن الكفر دافع قوله (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) أى فهل ينتظر هؤلاء الكفار المعاصرون لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا مثل وقائع الله سبحانه بالكفار الذين خلوا من قبل هؤلاء ، فقد كان الأنبياء المتقدمون

يقولون كفار زمانهم بأيام مشتملة على أنواع العذاب . وهم يكذبونهم ويضمنون على الكفر حتى ينزل الله عليهم عذابه ويحل بهم انتقامه ، ثم قال (قل) يا محمد هؤلاء الكفار المعاصرين لك (فانتظروا) أى تربصوا لوعده ربكم إني معكم من المتربصين لوعدي ، وفي هذا تهديد شديد ، ووعيد بالغ بأنه سينزل بهؤلاء ما نزل بأولئك من الإهلاك ، وثم في قوله (ثم تنجي رسائنا) للعطف على مقدار يدل عليه ما قبله كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا رسائنا المرسلين إليهم . وقرأ يعقوب ثم « تنجي » مخففا . وقرأ كذلك أيضا في (حقا علينا ننج المؤمنين) . وروى كذلك عن الكسائي وحفص في الثانية . وقرأ الباقر بالتشديد ، وهما لغتان فصيحتان : أنجي ينجي لإنجاء ، ونجي ينجي تنجية بمعنى واحد (والذين آمنوا) معطوف على رسائنا : أى نجيناهم ونجينا الذين آمنوا ، والتعبير بلفظ الفعل المستقبل لاستحضار صورة الحال الماضية تهويلا لأمرها (كذلك حقا علينا) أى حق ذلك علينا حقا . أو إنجاء مثل ذلك الإنجاء حقا (ننج المؤمنين) من عذابنا للكفار ، والمراد بالمؤمنين : الجنس ، فيدخل في ذلك الرسل وأتباعهم ، أو يكون خاصا بالمؤمنين وهم أتباع الرسل ، لأن الرسل داخلون في ذلك بالأولى . قوله (قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني) أمر سبحانه رسوله بأن يظهر التباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطبا لجميع الناس ، أو للكفار منهم ، أو لأهل مكة على الخصوص بقوله : إن كنتم في شك من ديني الذى أنا عليه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . ولم تعلموا بحقيقته ولا عرفتم صمته . وأنه الدين الحق الذى لا دين غيره . فاعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فى حال من الأحوال (ولكن أعبد الله الذين يتوفاكم) أى أخصه بالعبادة لا أعبد غيره من معبوداتكم من الأصنام وغيرها ، وخص صفة المتوفى من بين الصفات لما فى ذلك من التهديد لهم : أى أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفضل من العذاب الشديد ، ولكونه يدل على الخلق أولا ، وعلى الإعادة ثانيا ، ولكونه أشد الأحوال مهابة فى القلوب ، ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة ، فكأنه قال : أعبد الله الذى وعدنى بإهلاككم . ولما ذكر أنه لا يعبد إلا الله بين أنه مأمور بالإيمان فقال (وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى بأن أكون من جنس من آمن بالله وأخلص له الدين ، وجملة (وأن أقم وجهك للدين) معطوفة على جملة (أن أكون من المؤمنين) ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر لأن المقصود من « أن » الدلالة على المصدر . وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية ، أو يكون المعطوف عليه فى معنى الإنشاء ، كأنه قيل : كن مؤمنا ثم أقم ، والمعنى : أن الله سبحانه أمره بالاستقامة فى الدين والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال . وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء ، أو أمره باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم التحول عنها . وحنيفا حال من الدين ، أو من الوجه : أى مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام . ثم أكد الأمر المتقدم للنهى عن ضده فقال (ولا تكونن من المشركين) وهو معطوف على أقم ، وهو من باب التعريض لغيره صلى الله عليه وآله وسلم . قوله (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) معطوف على - قل - يا أيها الناس - غير داخل تحت الأمر ، وقيل معطوف على « ولا تكونن » أى لا تدع من دون الله على حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرك بشئ من النفع والضرر إن دعوته ، ودعاء من كان هكذا لا يطلب نفعاً ، ولا يقدر على ضرر ضائع لا يفعله عاقل على تقدير أنه لا يوجد من يقدر على النفع والضرر غيره ، فكيف إذا كان موجودا ؟ فإن العبدول عن دعاء القادر إلى دعاء غير القادر أقبح وأقبح (فإن فعلت) أى فإن دعوت ، ولكنه كنى عن القول بالفعل (فإنك إذا من الظالمين) هذا جزء الشرط : أى فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإنك فى عداد الظالمين لأنفسهم . والمقصود من هذا الخطاب التعريض بغيره صلى الله عليه وآله وسلم . وجملة (وإن

بمسك الله بضر) إلى آخرها مقررّة لمضمون ما قبلها . والمعنى أن الله سبحانه هو الضار النافع . فإن أنزل بعبد
ضرا لم يستطع أحد أن يكشفه كائنا من كان ، بل هو المختص بكشفه كما اختص بإنزاله (وإن يردك بخير) أى خير كان
لم يستطع أحد أن يدفعه منك ويحول بينك وبينه كائنا من كان . وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل
على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم . قال الواحدى : إن قوله (وإن يردك بخير) هو من القلب . وأصله وإن يرد بك
الخير ، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر . قال النيسابورى : وفى
تخصيص الإرادة بجانب الخير ، والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات . والشر
بالعرض . قلت : وفى هذا نظر فإن المس هو أمر وراء الإرادة فهو مستلزم لها . والضمر فى بصيب به راجع
إلى فضله : أى يصيب بفضله من يشاء من عباده . وجملة (وهو الغفور الرحيم) تذييلية ثم ختم هذه السورة بما
يستدل به على قضاائه وقدره . فقال (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) أى القرآن (فمن اهتدى فإنما
يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها) أى منفعة اهتدائه مختصة به . وضرر كفره مقصور عليه لا يتعداه .
وليس لله حاجة فى شيء من ذلك ، ولا غرض يعود إليه (وما أنا عليكم بوكيل) أى بحفيظ يحفظ أموركم وتوكل
إليه : إنما أنا بشير ونذير . ثم أمره الله سبحانه أن يتبع ما أوحاه إليه من الأوامر والنواهي التى بشرعها الله له ولأمته
ثم أمره بالصبر على أذى الكفار وما يلاقه من مشاق التبليغ وما يعانیه من تلون أخلاق المشركين وتعجزهم .
وجعل ذلك الصبر ممثدا إلى غاية هى قوله (حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) أى يحكم الله بينه وبينهم فى الدنيا
بالنصر له عليهم ، وفى الآخرة بعدابهم بالنار وهم يشاهدونه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأمته . المتبعون له
المؤمنون به ، العاملون بما يأمرهم به . المنتهون عما ينهاهم عنه . يتقلبون فى نعيم الجنة الذى لا يتفد ، ولا يمكن وصفه .
ولا يوقف على أدنى مزاجه .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله (وما تنقى الآيات والنذر عن قوم) يقول : عند قوم (لا يؤمنون)
نسخت قوله - حكمة بالغة فاتت النذر - . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (فهل
ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) قال : وقائع الله فى الذين خلوا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود .
وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع فى الآية قال : خوفهم عنايه وتقمته وعقوبته . ثم أخبرهم أنه إذا وقع
من ذلك أمر نجي الله رسله والذين آمنوا . فقال (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) الآية . وأخرج أبو الشيخ عن
السدى فى قوله (وإن يردك بخير) يقول : بعافية . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عامر بن قيس قال : ثلاث
آيات فى كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق : أولهنّ (وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن
يردك بخير فلا راد لفضله) ، والثانية - ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا يرسل له - . والثالثة
- وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها - . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد
فى قوله (فلا راد لفضله) قال : هو الحق المذكور فى قوله (قد جاءكم الحق من ربكم) . وأخرج ابن جرير
وابن أبي حاتم فى قوله (واصبر حتى يحكم الله) قال : هذا منسوخ ، أمره بجهادهم والغلظة عليهم .

تفسير سورة هود

هي مكة في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية وهي قوله - وأقم الصلاة طرفي النهار - وأخرج النحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة هود بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وأخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر والبيهقي في الشعب عن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقرءوا هود يوم الجمعة » . وأخرج ابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر من طريق مسروق عن أبي بكر الصديق قال « قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب ، فقال : شيتني هود . والواقعة . والمرسلات ، وعم يتساءلون . وإذا الشمس كورت » . وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعا بلفظ « قلت يا رسول الله عجل إليك الشيب . قال : شيتني هود وأخوانها . والواقعة . والحاقة . وعم يتساءلون ، وهل أذاك حديث الغاشية » . وأخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه عن أنس قال : « قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لقد عجل إليك الشيب ، فقال : شيتني هود وأخوانها من المفصل » . وأخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور من طريق عكرمة عن ابن عباس قال « قال أبو بكر : يا رسول الله قد شبت . قال : شيتني هود . والواقعة . والمرسلات . وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » . وأخرج ابن عساكر من طريق عطاء عنه أن الصحابة قالوا : « يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب ، قال : أجل شيتني هود وأخوانها » . قال عطاء : وأخوانها : اقتربت الساعة . والمرسلات ، وإذا الشمس كورت . وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال « قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله أسرع إليك الشيب ، قال : شيتني هود وأخوانها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « شيتني هود وأخوانها : الواقعة . والحاقة . وإذا الشمس كورت » . وأخرجا أيضا عن ابن مسعود « أن أبا بكر قال : يا رسول الله ماشيك ؟ قال : هود والواقعة » . وفي إسناده عمرو بن ثابت وهو متروك . وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن عتبة بن عامر « أن رجلا قال : يا رسول الله قد شبت ، قال : شيتني هود ، وإذا الشمس كورت وأخوانها » . وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو يعلى والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبي جحيفة قال « قالوا : يا رسول الله نراك قد شبت ، قال : شيتني هود وأخوانها » . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عمران بن حصين « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له أصحابه : قد أسرع إليك الشيب . قال : شيتني هود وأخوانها من المفصل » . وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « شيتني هود وأخوانها وما فعل بالأمم قبل » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ آيَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ (٢) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣) أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صَلَواتَهُمْ
لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّلُوفِ (٤) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ
شَيْءٍ مُّبِينٌ (٥) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى
الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ
لَيَقُولَنَّ مَا يَخِيسُهُ إِلَّا يَوْمَ يُأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٨)

قوله (الر) إن كان مسرودا على سبيل التعديد كما في سائر فواتح السور فلا محل له ، وإن كان اسما للسورة
فهو في محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف ، و (كتاب) يكون على هذا الوجه خبرا لمبتدأ
محذوف : أي هذا كتاب وكذا على تقدير أن (الر) لا محل له ، ويجوز أن يكون (الر) في محل نصب بتقدير
فعل يناسب المقام نحو : اذكر ، أو اقرأ ، فيكون كتاب على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف ، والإشارة في المبتدأ
المقدر إما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن ، ومعنى (أحكمت آياته) صارت محكمة متقنة لانقاص فيها ولا
نقص لها كالبناء المحكم ، وقيل معناه : إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فيكون هذا الوصف
للكتاب باعتبار الغالب ، وهو المحكم الذي لم ينسخ ، وقيل معناه : أحكمت آياته بالأمر والنهاي ، ثم فصلت بالوعد
والوعيد والثواب والعقاب ، وقيل أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام ، وقيل أحكمت جملته ، ثم
فصلت آياته ، وقيل جمعت في الألواح المحفوظة ثم فصلت بالوحي ، وقيل أبدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها
من عند الله ، وقيل معنى إحكامها أن لا فساد فيها ، أخذنا من قولهم أحكمت الدابة : إذا وضعت عليها الحكمة تمنعها
من الجملح ، و (ثم فصلت) معطوف على أحكمت ، ومعناه ما تقدم ، والتراخي المستفاد من ثم إما زمانى إن فسر
التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح ، وإما رتبى إن فسر بغيره مما تقدم ، والجمل في محل رفع على أنها صفة
لكتاب أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف ، وفي قوله (من لدن حكيم خبير) لف ونشر ، لأن للنفى :
أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور . قوله (ألا تعبدوا إلا الله) مفعول له حذف منه اللام : كذا في
الكشاف ، وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلن ، وقيل أن هي المفسرة لما في التفصيل من معنى القول ، وقيل
هو كلام مبتدأ متقطع عما قبله محكما على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال الكسائي والقراء : للتقدير
أحكمت بأن لا تعبدوا إلا الله . وقال الزجاج : أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله ، ثم أخبرهم رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم بأنه نذير وبشير فقال (إنتى لكم منه نذير وبشير) أى ينذرهم ويخوفهم من عذابه لمن عصاه ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه ، والضمير فى منه راجع إلى الله سبحانه : أى إنتى لكم نذير وبشير من جهة الله سبحانه ، وقيل هو من كلام الله سبحانه كقوله - ويحذركم الله نفسه - . قوله (وأن استغفروا ربكم) معطوف على ألا تعبدوا ، والكلام فى أن هذه كالكلام فى التى قبلها . وقوله (ثم توبوا إليه) معطوف على استغفروا ، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة إليها ، وقيل إن التوبة من متممات الاستغفار ، وقيل معنى استغفروا توبوا . ومعنى توبوا : أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، وقيل استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها ، وقيل استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة . قال القراء : ثم ما هنا بمعنى الواو : أى وتوبوا إليه لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هى الاستغفار ، وقيل إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها . وما كان آخر فى الحصول كان أولاً فى الطلب ، وقيل استغفروا فى الصغائر وتوبوا إليه فى الكبائر ؛ ثم رتب على ما تقدم أمرين الأول (يمتعكم متاعاً حسناً) أصل الإمتاع الإطالة ومنه أمتع الله بك ، فعنى الآية : بطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش (إلى أجل مسمى) إلى وقت مقدّر عند الله وهو الموت ، وقيل القيامة ، وقيل دخول الجنة ، والأول أولى . والأمر الثانى قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله) أى يعط كل ذى فضل فى الطاعة والعمل فضله ؛ أى جزاء فضله إما فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعاً ، والضمير فى فضله راجع إلى كل ذى فضل ، وقيل راجع إلى الله سبحانه على معنى أن الله يعطى كل من فضلت حسنة فضله الذى يتفضل به على عباده . ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال (وإن تولوا) أى تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص فى العبادة والاستغفار والتوبة (فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) وهو يوم القيامة ، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال ، وقيل اليوم الكبير يوم بدر . ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله (إلى الله مرجعكم) أى رجوعكم إليه بالموت . ثم البعث ، ثم الجزاء ، لا إلى غيره (وهو على كل شىء قدير) ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها . ثم أخبر الله سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعيد ينفع فيهم ، ولا لانت له قلوبهم ، بل هم مصرون على العناد مصممون على الكفر . فقال مصدرها لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم ، وأنه أمر ينبغي أن يتنبه له العقلاء ويفهموه (ألا إنهم يثنون صدورهم) يقال ثنى صدره عن الشىء : إذا زور عنه وانحرف منه ، فيكون فى الكلام كناية عن الإعراض ، لأن من أعرض عن الشىء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ، وقيل معناه : يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق . فيكون فى الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقده من الكفر كما كان دأب المنافقين . والوجه الثانى أولى ، ويؤيده قوله (ليستخفوا منه) أى ليستخفوا من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين ، أو ليستخفوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ ثم كرر كلمة التنبيه مبيناً للوقت الذى يثنون فيه صدورهم فقال (ألا حين يستغشون ثيابهم) أى يستخفون فى وقت استغشاء الثياب ، وهو التغطى بها ، وقد كانوا يقولون إذا أغلقنا أبوابنا واستغشنا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فن يعلم بنا ؟ وقيل معنى حين يستغشون : حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم ، وقيل إنه حقيقة وذلك أن بعض الكفار كان إذا مر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لتلا يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجملة (يعلم ما يسرون وما يعلنون) مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم فى الاستخفاء ، لأن الله سبحانه يعلم ما يسرونه فى أنفسهم أو فى ذات بينهم وما يظهرونه ، فالظاهر والباطن عنده سواء ، والسر والظهر سيات ، وجملة (إنه عليم بلمات الصدور) تعليل لما قبلها وتقرير له ،

وفات الصدور هي الضمائر التي تشتمل عليها الصدور ، وقيل هي القلوب ، والمعنى : إنه عليم بجميع الضمائر ، أو عليم بالقلوب وأحوالها في الإسرار والإظهار ، فلا يخفى عليه شيء من ذلك ، ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الإحسان فقال (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) أي الرزق الذي تحتاج إليه من الغذاء اللاتق بالحيوان على اختلاف أنواعه تفضيلا منه وإحسانا ، وإنما جرى به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة « على » اعتبارا بسبق الوعد به منه ، ومن زائدة للتأكيد ، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن الله سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق ، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله ، والدابة كل حيوان يذب (ويعلم مستقرها) أي محل استقرارها في الأرض أو محل قرارها في الأصلاب (ومستودعها) موضعها في الأرحام ، وما يجري مجراها كالبيضه ونحوها . وقال القراء : مستقرها حيث تأوى إليه ليلا ونهارا ، ومستودعها موضعها الذي تموت فيه ، وقد مر تمام الأقوال في سورة الأنعام ، ووجه تقدم المستقر على المستودع على قول القراء ظاهر . وأما على القول الأول فلعل وجه ذلك أن المستقر أنسب باعتبار ما هي عليه حال كونها دابة . والمعنى : وما من دابة في الأرض إلا يرزقها الله حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة وقبل كونها دابة . وذلك حيث نكون في الرحم ونحوه ، ثم ختم الآية بقوله (كل في كتاب مبين) أي كل من مات قدم ذكره من الدواب ومستقرها ومستودعها ورزقها في كتاب مبين . وهو اللوح المحفوظ : أي مثبت فيه . ثم أكد دلائل قدرته بالتعرض للذكر خلق السموات والأرض ، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) قد تقدم بيان هذا في الأعراف . قيل والمراد بالأيام الأوقات : أي في ستة أوقات كما في قوله - ومن يولم يومئذ دبره - وقيل مقدار ستة أيام ، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة ، وهي المقابلة لليالي ، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء وليس اليوم إلا عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض ، وكان خلق السموات في يومين والأرضين في يومين وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد في يومين كما سبأني في حم السجدة . قوله (وكان عرشه على الماء) أي كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدم خلق العرش والماء على السموات والأرضين . قوله (ليلوكم أيكم أحسن عملا) اللام متعلقة بخلق : أي خلق هذه المخلوقات ليعتدل عبادته بالاعتبار والتفكير والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملا فيما أمر به ونهى عنه ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره ، ويدخل في العمل الاعتقاد ، لأنه من أعمال القلب ، وقيل المراد بالأحسن عملا الآتم عقلا ، وقيل الأزهد في الدنيا . وقيل الأكثر شكرا ، وقيل الأتقى لله . قوله (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره ، والمعنى : لئن قلت لهم يا محمد على ما توجه قضية الابتلاء إنكم مبعوثون من بعد الموت فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ليقولن الذين كفروا من الناس إن هذا الذي تقول يا محمد إلا باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه . ويجوز أن تكون الإشارة بهذا إلى القرآن ، لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث . وقرأ حمزة والكسائي (إن هذا إلا ساحر) يعنون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكسرت إن من قوله (إنكم) لأنها بعد القول . وحكى سيبويه الفتح على تضمين قلت معنى ذكرت ، أو على أن بمعنى عل : أي ولئن قلت لعلكم مبعوثون ، على أن الرجاء باعتبار حال مخاطبين : أي توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بإنكاره (ولئن أخرجنا عنهم العذاب) أي الذي تقدم ذكره في قوله (عذاب يوم كبير) وقيل عذاب يوم القيامة وما بعده ، وقيل يوم بدر (إلى أمة معدودة) أي إلى طائفة من الأيام قليلة ، لأن ما يحصره العدد قليل ،

والأمة اشتقاقها من الأم : وهو القصد ، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب ؛ وقيل هي في الأصل الجماعة من الناس ، وقد يسمى الحين باسم ما يحصل فيه كقولك كنت عند فلان صلاة العصر : أى في ذلك الحين ، فالمراد على هذا إلى حين تنقضى أمة معدودة من الناس (ليقولن ما يجبهه) أى أى شئ يمنع من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب ، فأجابهم الله بقوله (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم) أى ليس محبوسا عنهم ، بل واقع بهم لا محالة ، ويوم منصوب بمصروفا (وحقا بهم ما كانوا به يستهزمون) أى أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزمون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه فكانه قد حاق بهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قرأ (الرأ كتاب أحكمت آياته) قال : هي كلها محكمة بمعنى سورة هود (ثم فصلت) قال : ثم ذكر محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فحكم فيها بينه وبين من خالفه وقرأ مثل الفريقين الآية كلها ، ثم ذكر قوم نوح ثم هود ، فكان هذا تفصيل ذلك ، وكان أوله محكما قال : وكان أى يقول ذلك ، يعنى زيد بن أسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله (كتاب أحكمت آياته) قال : أحكمت بالأمر والنهي . وفصلت بالوعد والوعيد وأخرج هؤلاء عن مجاهد (فصلت) قاله : فسرت . وأخرج هؤلاء أيضا عن قتادة في الآية قال : أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه ، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وفي قوله (من لدن حكيم) يعنى من عند حكيم ، وفي قوله (يمتعكم متاعا حسنا) قال : فأنتم في ذلك المتاع فخذوه بطاعة الله ومعرفة حقه . فإن الله منعم يحب الشاكرين وأهل الشكر فيزيد من الله ، وذلك قضاؤه الذي قضاء : وفي قوله (إلى أجل مسمى) يعنى الموت ، وفي قوله (يؤت كل ذى فضل فضله) أى في الآخرة . وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد في قوله يؤت كل ذى فضل فضله : أى في الآخرة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : يؤت كل ذى فضل في الإسلام فضل الدرجات في الآخرة . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله) قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده أعشاره . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس في قوله (ألا إنهم يثنون صبورهم) الآية قال : كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فزل ذلك فيهم . قال البخارى - وعن ابن عباس (يستغشون) يغطون رموسهم . وروى البخارى أيضا عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ، يعنى به الشك في الله ، وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهما : أى أنهم كانوا يثنون صبورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل (يعلم ما يسرون) من القول (وما يعلنون) . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن شداد بن الهاد في قوله (ألا إنهم يثنون صبورهم) قال : كان المنافقون إذا مر أحدكم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه ، فزلت . وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله (ألا حين يستغشون ثيابهم) قال : في ظلمة الليل في أجواف بيوتهم . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رزين في الآية قال : كان أحدهم يخفى ظهره ويستغشى بثوبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله . قال تعالى (ألا حين

يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون) وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أخفى ظهره واستغشى بثوبه وأضر همه في نفسه ، فإن الله لا يخفى عليه ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال في الآية : يكتُمون ما في قلوبهم إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (وما من دابة) الآية قال : يعني كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وما من دابة) الآية قال : يعني ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً ، ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ويعلم مستقرها) قال : حيث تأوى ، ومستودعها قال : حيث تموت . وأخرج ابن أبي حاتم عنه (ويعلم مستقرها) قال : يأتيها رزقها حيث كانت . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها في الأرحام ومستودعها حيث تموت . ويؤيد هذا التفسير الذي ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض أتاحت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعني . وأخرج عبد الرزاق في المصنف والفریابی وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله (وكان عرشه على الماء) على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وقد وردت أحاديث كثيرة في صفة العرش وفي كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية (ليلوكم أيكم أحسن عملاً) فقال : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال : ليلوكم أيكم أحسن عملاً ، ثم قال : وأحسنكم عقلاً أروعكم عن محارم الله وأعملكم بطاعة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : إنكم أتم عقلاً . وأخرج أيضاً عن سفيان قال : أزهذكُم في الدنيا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نزلت - اقرب للناس حسابهم - قال ناس : إن الساعة قد اقربت ففتناها ، فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء ، فأنزل الله - أتى أمر الله فلا تستعجلوه - فقال ناس من أهل الضلال : هذا أمر الله قد أتى . فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله (إلى أمة معدودة) قال : إلى أجل معدود . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (ليقولن ما يجبهه) يعني أهل النفاق . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله (وحق بهم ما كانوا به يستهزون) يقول : وقع بهم للعذاب الذي استهزؤا به .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ

نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَشَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ

صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ

مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا

أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَلَا تَمُوتُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧).

اللام في (ولئن أذقنا الإنسان) هي الموطنة لتقسم ، والإنسان الجنس ، فيشمل المؤمن والكافر . ويدل على ذلك الاستثناء بقوله (إلا الذين صبروا) وقيل المراد جنس الكفار ، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام في الغالب . وقيل المراد بالإنسان الوليد بن المغيرة ، وقيل عبد الله بن أمية المهزومي : والمراد بالرحمة هنا : النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن (ثم نزعناها منه) أن سلبناه إياها (إنه ليتوس) أي آيس من الرحمة شديد القنوط من عودها وأمثالها ، والكفور : عظيم الكفران وهو الجحود بها قاله ابن الأعرابي ، وفي إيراد صيغتي المبالغة في (ليتوس كفور) ما يدل على أن الإنسان كثير اليأس ، وكثير الجحود عند أن يسلبه الله بعض نعمه فلا يرجو عودها ، ولا يشكر ما قد سلف له منها . وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه ، لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم ، والنعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه ، والضرراء ظهور أثر الإضرار على من أصيب به . والمعنى : أنه إن أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة ، والغنى بعد أن كان في ضرر من فقر أو مرض أو خوف ، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه ، بل يقول ذهب السيئات : أي المصائب التي ساءته من الضر والفقر والخوف والمرض عنه وزال أثرها غير شاكر لله ولا مثن عليه بنعمه (إنه لفرح فخور) أي كثير الفرح بطرا وأشرا ، كثير الفخر على الناس والتطاول عليهم بما يتفضل الله به عليه من النعم ، وفي التعبير عن ملابسة الضر له بالمس مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة ، فإن كلاهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقة ، كما تقدم (إلا الذين صبروا) فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن ، والشكر عند حصول المن . قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأول : أي ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالي النعمة والمحنة . وقال القراء ، هو استثناء من لئن أذقناه : أي من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ، فهو استثناء متصل ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى الوصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر) يؤجرون به لأعمالهم الحسنة (كبير) متناه في الكبر . ثم سلى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال (قل لك تارك بعض ما يوحى

إليك) أى فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب ، واقترح الآيات التى يقترحونها عليه على حسب هواهم وتعتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله الله عليك وأمرك بتبليغه ، مما يشق عليهم سماعه أو يستشقون العمل به ، كسب آلهتهم وأمرهم بالإيمان بالله وحده . قيل وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام : أى هل أنت تارك ؟ وقيل هو فى معنى النفي مع الاستبعاد : أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم جميع ما أنزل الله عليك ، أحبوا ذلك أم كرهوه ، شاموا أم أبوا (وضائق به صدرك) معطوف على تارك ، والضمير فى به راجع إلى ما أو إلى بعض . وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم (أن يقولوا) أى كراهة أن يقولوا ، أو مخافة أن يقولوا أو لئلا يقولوا (لولا أنزل عليه كنز) أى هلا أنزل عليه كنز : أى مال مكتوز مخزون ينتفع به (أو جاء معه ملك) يصدقه ويبين لنا صحة رسالته ، ثم بين سبحانه أن حاله صلى الله عليه وآله وسلم مقصور على النذارة ، فقال (إنما أنت نذير) ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم (والله على كل شئ وكيل) يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل . قوله (أم يقولون افتراه) أم هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة : وأضرب عما تقدم من تهاونهم بالوحى . وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة ، وشرع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد من ذلك . وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه ، والاستفهام للتوبيخ والتفريع ، والضمير المستتر فى افتراه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والبارز إلى ما يوحى . ثم أمره الله سبحانه أن يجب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم فقال (قل فأتوا بعشر سور مثله) أى مماثلة له فى البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعاني ووصف السور بما يوصف به المفرد . فقال مثله ، ولم يقل أمثاله ، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور ، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه ، ومذاره المماثلة فى شئ واحد ، وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة فى الجمع والتثنية والإفراد شرط . ثم وصف السور بصفة أخرى ، فقال (مفتريات وادعوا) للاستظهار على المعارضة بالعشر السور (من استطعتم) دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الإنسانى ، ومن تعبدونه وتجعلونه شريكا لله سبحانه . وقوله (من دون الله) متعلق بادعوا : أى ادعوا من استطعتم متجاوزين الله تعالى (إن كنتم صادقين) فيما تزعمون من افتراى له (فإن لم يستجيبوا لكم) أى فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحديتهم به من الإتيان بعشر سور مثله ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم ويكون الضمير فى لكم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين أو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده وجمع تعظيما وتفعيلا (فاعلموا) أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين أو للرسول وحده على التأويل الذى سلف قريبا . ومعنى أمرهم بالعلم أمرهم بالثبات عليه لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله ، أو المراد بالأمر بالعلم الأمر بالازدياد منه إلى حد لا يشوبه شك ولا تخالط شبهة وهو علم اليقين ، والأول أولى . ومعنى (إنما أنزل بعلم الله) أنه أنزل متلبسا بعلم الله المختص به ، الذى لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الأفهام ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طرق البشر (وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أن الله هو المتفرد بالألوهية لا شريك له ، ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه . ثم ختم الآية بقوله (فهل أنتم مسلمون) أى ثابتون على الإسلام مخلصون له مردادون من الطاعات ، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه وبصيرة زائدة ، وإن كنتم مسلمين من قبل . هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم . وقيل إن الضمير فى (فإن لم يستجيبوا) للموصول فى من استطعتم . وضمير لكم للكفار الذين تحداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك ضمير فاعلموا - والمعنى : فإن

لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم . ويزعمون أنهم يضرون وينفعون . فاعلموا أن هذا القرآن الذي أنزله الله على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذي تتقاصر دونه قوة المخلوقين ، وأنه أنزل بعلم الله الذي لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأفهام ، واعلموا أنه المنفرد بالألوهية لا شريك له ، فهل أنتم بعد هذا مسلمون ؟ أى داخلون فى الإسلام متبعون لأحكامه مقتلون بشرائعه . وهذا الوجه أقوى من الوجه الأول من جهة وأضعف منه من جهة ، فأما جهة قوته فلا تنساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها إلى تأويل ، وأما ضعفه فلما فى ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعواهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى تكلف . وهو أن يقال : إن عدم استجابة من دعواهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم ومعاصدتهم ومباغتهم فى عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر يقيد حصول العلم لهؤلاء الكفار بأن هذا القرآن من عند الله ، وأن الله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له . وذلك يوجب دخولهم فى الإسلام . واعلم أنه قد اختلف التحدى للكفار بمعارضة القرآن ، فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله - قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله - وبعشر سور كما فى هذه الآية . وذلك لأن العشرة أول عقد من العقود ، وبسورة منه كما تقدم وذلك لأن السورة أقل طائفة منه ، ثم إن الله سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها) قال القراء : إن كان هذه زائدة ، ولهذا جزم الجواب . وقال الزجاج : « من كان » فى موضع جزم بالشرط . وجوابه نوف إليهم : أى من يكن يريد .

والختلف أهل التفسير فى هذه الآية . فقال الضحاك : نزلت فى الكفار واختاره النحاس بدليل الآية التى بعدها - أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار - وقيل الآية واردة فى الناس على العموم كافهم ومسلمهم . والمعنى أن من كان يريد بعمله حظ الدنيا يكافأ بذلك ، والمراد بزینتها : ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وارتفاع الحظ ونفاذ القول ونحو ذلك . وإدخال « كان » فى الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ، ولهذا قيل إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعدّون فى الآخرة لأنهم جردوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة . وظاهر قوله (نوف إليهم أعمالهم فيها) أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزء الدنيوى ولا محالة ، ولكن الواقع فى الخارج يخالف ذلك . فليس كل متمن ينال من الدنيا أمينته وإن عمل لها وأرادها ، فلا بد من تقييد ذلك بمشيئة الله سبحانه . قال القرطبي : ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة . وكذلك الآية التى فى الشورى - من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها - ، وكذلك - من كان يريد ثواب الدنيا نؤته منها - قيدتها وفسرتها التى فى سبحان - من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد - قوله (وهم فيها لا يبخسون) أى وهؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها : أى فى الدنيا لا يبخسون : أى لا يتقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها ، وذلك فى الغالب وليس بمطرد ، بل إن قصت به مشيئة سبحانه ، ورجحته حكمته البالغة . وقال القاضى : معنى الآية : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وأهية كاملة من غير بخس فى الدنيا ، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والمنافع ، فخص الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا . قوله (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار) الإشارة بالمريدين المذكورين ، ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشئ من الأعمال المعتد بها الموجبة للجزء الحسن فى الدار الآخرة ، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدم (وحبط ما صنعوا) أى ظهر فى الدار الآخرة

حروط ما صنعوه من الأعمال التي كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروي ، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم ، وعدم الخلوص ، وإرادة ما عند الله في دار الجزاء ، بل قصرُوا ذلك على الدنيا وزينتها ، ثم حكم سبحانه ببطالان عملهم فقال (وباطل ما كانوا يعملون) أي أنه كان عملهم في نفسه باطلاً غير معتد به ، لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ، ويترتب عليه ما يترتب على العمل الصحيح . قوله (أفن كان على بينة من ربه) بين سبحانه أن بين من كان طالباً للدنيا فقط ، ومن كان طالباً للآخرة تفاوتاً عظيماً ، وتبايناً بعيداً ، والمعنى : أفن كان على بينة من ربه في اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان بالله كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ وقيل المراد بمن كان على بينة من ربه النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي أفن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل ، وقد بشرت به الكتب السالفة ، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها . ومعنى البينة : البرهان الذي يدل على الحق ، والضمير في قوله (ويتلوه شاهد) راجع إلى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان ، والضمير في منه راجع إلى القرآن ، لأن قد تقدم ذكره في قوله - أم يقولون افتراء - أو راجع إلى الله تعالى . والمعنى : ويتلو البرهان الذي هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن ، أو من الله سبحانه . والشاهد : هو الإعجاز الكائن في القرآن ، أو المعجزات التي ظهرت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن . وقال القراء قال بعضهم : ويتلوه شاهد منه الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ، والماء في منه لله عز وجل ؟ وقيل المراد بمن كان على بينة من ربه : هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه . قوله (ومن قبله كتاب موسى) معطوف على شاهد ، والتقدير : ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى ، فهو وإن كان متقدماً في النزول فهو يتلو الشاهد في الشهادة ، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخراً في الوجود لكونه وصفاً لازماً غير مفارق ، فكان أغرق في الوصفية من كتاب موسى . ومعنى شهادة كتاب موسى ، وهو التوراة أنه بشر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخبر بأنه رسول من الله . قال الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم موصوف في كتاب موسى يحملونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ (ومن قبله كتاب موسى) بالنصب ، وحكاها المهدوي عن الكلبي فيكون معطوفاً على الماء في يتلوه . والمعنى : ويتلو كتاب موسى جبريل ، وانتصاب إماماً ورحمة على الحال . والإمام : هو الذي يؤتم به في الدين ويقتدى به ، والرحمة : النعمة العظيمة التي أنعم الله بها على من أنزله عليهم وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن ، والإشارة بقوله (أولئك) إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة ، وهو الكون على البينة من الله ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره (يؤمنون به) أي يصدقون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بالقرآن (ومن يكفر به من الأحزاب) أي بالنبي أو بالقرآن . والأحزاب المتحزبون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل مكة وغيرهم ، أو المتحزبون من أهل الأديان كلها (فالنار موعده) أي هو من أهل النار لا محالة ، وفي جعل النار موعداً إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أهان العذاب ، ومثله قول حسان :

أوردتموها حياض الموت صاحبة فالنار موعدها والموت لاقيا

(فلا تلك في مرية منه) أي لا تلك في شك من القرآن ، وفيه تعريض بغيره صلى الله عليه وآله وسلم لأنه معصوم عن الشك في القرآن ، أو من الموحدة (إنه الحق من ربك) فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال (ولكن أكثر

الناس لا يؤمنون) بذلك مع وجوب الإيمان به ، وظهور الدلائل الموجبة له . ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا . أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فهل أنتم مسلمون) قال : لأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس في قوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) قال : نزلت في اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن معبد قال : قام رجل إلى علي فقال : أخبرنا عن هذه الآية (من كان يريد الحياة الدنيا) إلى قوله (وباطل ما كانوا يعملون) قال : وبحك . ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة . وأخرج النحاس عن ابن عباس (من كان يريد الحياة الدنيا) أي ثوابها (وزينتها) ما لها (نواف إليهم) نوفر لهم بالصحة والسرور في الأهل والمال والولد (وهم فيها لا يبخسون) لا ينقصون ثم نسخها - من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء - الآية . وأخرج أبو الشيخ عن السدي مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : من عمل صالحا : التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجد بالليل لا يعمل إلا التماس الدنيا . يقول الله أو فيه الذي التمس في الدنيا وحبط عمله الذي كان يعمل ، وهو في الآخرة من الخاسرين . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نزلت هذه الآية في أهل الشرك . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في قوله (نواف إليهم أعمالهم) قال : طيباتهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (وحبط ما صنعوا فيها) قال : حبط ما عملوا من خير وبطل في الآخرة ليس لهم فيها جزاء . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : هم أهل الرياء . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب قال : ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن ، فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود (أفن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينة من ربه وأنا شاهد منه . وأخرج ابن عساكر وابن مردويه من وجه آخر عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أفن كان على بينة من ربه) أنا ، ويتلوه شاهد منه : علي . وأخرج أبو الشيخ عن أبي العالية في قوله (أفن كان على بينة من ربه) قال : ذاك محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ عن محمد بن علي بن أبي طالب قال : قلت لأبي : إن الناس يزعمون في قول الله سبحانه (ويتلوه شاهد منه) أنك أنت التالي ، قال : وددت ألي أنا هو . ولكنه لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : جبريل فهو شاهد من الله بالذي يتلوه من كتاب الله الذي أنزل على محمد (ومن قبله كتاب موسى) قال : ومن قبله التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الحسن بن علي في قوله (ويتلوه شاهد منه) قال : محمد هو الشاهد من الله . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم (ومن قبله كتاب موسى) قال : ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة (ومن يكفر به من الأحزاب) قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال (ومن يكفر به من الأحزاب) قال : من اليهود والنصارى .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَغْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) .

قوله (ومن أظلم ممن أقترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا بقولهم لأصنامهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقولهم : الملائكة بنات الله ، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره : واللفظ وإن كان لا يقتضى إلا نفي وجود من هو أظلم منهم كما يفيد الاستفهام الإنكارى ، فالمقام يفيد نفي المساوى لهم فى الظلم . فالمعنى على هذا : لا أحد مثلهم فى الظلم فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم : والإشارة بقوله أولئك إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ ، وهو مبتدأ ، وخبره يعرضون على ربهم فيحاسبهم على أعمالهم ، أو المراد بعرضهم : عرض أعمالهم (ويقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) الأَشْهَاد : هم الملائكة الحفظة ، وقيل المرسلون ، وقيل الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه . وقيل جميع الخلائق . والمعنى : أنه يقول هؤلاء الأَشْهَاد عند العرض : هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرحوا بما كذبوا به كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف . قوله (ألا لعنة الله على الظالمين) هذا من تمام كلام الأَشْهَاد أى يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ويقولون : ألا لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه قاله بعد ما قال الأَشْهَاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . والأَشْهَاد جمع شهيد ، ورجحه أبو على بكثرة ورود شهيد فى القرآن كقوله - ويكون الرسول عليكم شهيدا . فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا - ، وقيل هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب . والفائدة فى قول الأَشْهَاد بهذه المقالة المبالغة فى فضيحة الكفار . والتقرير لهم على رؤوس الأَشْهَاد . ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم (الذين يصدون عن سبيل الله) أى يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه (ويبغونها عوجا) أى يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها . أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر ، يقال بغيتك شرا : أى طلبته لك (و) الحال أنهم بالآخرة هم كافرون (أى يصفونها بالعوج . والحال أنهم بالآخرة غير مصدقين فكيف يصدون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت ؟ وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به . حتى كأن كفر غيرهم غير معتد به بالنسبة إلى عظيم كفرهم (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات (لم يكونوا معجزين فى الأرض) أى ما كانوا يعجزون الله فى الدنيا إن أراد عقوبتهم (وما كان لهم من دون الله

من أولياء) يدفعون عنهم ما يريد الله سبحانه من عقوبتهم وإنزال بأسه بهم ، وجملة (يضاعف لهم العذاب) مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والترحال عن تعجيله لم ليكون عذاباً مضاعفاً . وقرأ ابن كثير وابن عامر ويزيد ويعقوب « يضاعف » مشدداً (ما كانوا يستطيعون السمع) أى أفرطوا في إغراضهم عن الحق وبغضهم له ، حتى كأنهم لا يقدرّون على السمع ولا يقدرّون على الإبصار لفرط تعاميمهم عن الصواب . ويجوز أن يراد بقوله (وما كان لهم من دون الله من أولياء) أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك ، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعاً أو يدفعون عنهم ضرراً ، ويجوز أن تكون « ما » هى المدية . والمعنى : أنه يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والبصر . قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه . قال اسحاس : هذا معروف في كلام العرب ، يقال فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان ؛ إذا كان ثقيلاً عليه (أولئك) المتصفون بتلك الصفات (الذين خسروا أنفسهم) بعبادة غير الله . والمعنى : اشترؤا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسارهم في تجارتهم أعظم خسران (وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب وصاع ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدعون أنها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم إلا الخسران قوله (لا جرم) قال الخليل وسيبويه : « لا جرم » بمعنى حق فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة ، وبه قال الفراء . وروى عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك لا بدّ ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً . وقال الزجاج : إن جرم بمعنى كسب : أى كسب ذلك الفعل لم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، وأن منصوبة بجرم . قال الأزهري : وهذا من أحسن ما نقل في هذه اللغة . وقال الكسائي : معنى لا جرم : لا صدّ ولا منع عن أنهم في الآخرة هم الأخسرون . وقال جماعة من النحويين : إن معنى لا جرم لا قطع قاطع (أنهم في الآخرة هم الأخسرون) قالوا : والجرم القطع ، وقد جرم النخل واجترمه : أى قطعه ، وفي هذه الآية بيان أنهم في الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ إليه . وهذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفي المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وبين من كان على بينة من ربه (إن الذين آمنوا) أى صدّقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الإيمان (وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) أى أنابوا إليه ، وقيل خشعوا ، وقيل خضعوا ، قيل وأصل الإخبات الاستواء في الخبث : وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان . قال الفراء : إلى ربهم ، ولربهم واحد (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات الصالحة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . قوله (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، على أن كل فريق شبه شئئين ، أو شبه بمن جمع بين الشئئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم ، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر ، وعلى هذا تكون الواو في « والأصم » ، وفي « والسميع » لعطف الصفة على الصفة ، كما في قول الشاعر :

• إلى الملك القرم وابن الهمام • والاستفهام في قوله (هل يستويان) للإنكار : يعنى الفريقين ، وهذه الجملة مقرّرة لما تقدّم من قوله (أفن كان على بينة من ربه) وانتصاب مثلاً على التمييز من فاعل يستويان : أى هل يستويان حالاً وصفة (أفلا تذكرون) في عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذي لا يخفى على من له تذكر ، وعنده تفكير وتأمل ، والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (ومن أظلم) قال : الكافر والمنافق (أولئك يعرضون

على ربهم (فبسالهم عن أعمالهم) ويقول (الأَشهاد) الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) شهدوا به عليهم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : الأَشهاد الملائكة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه ، وفي الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الله يلقى المؤمن حتى يضع كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا . أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسنة . وأما الكافر والمنافق فيقول الأَشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . . . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (الذين يصدون عن سبيل الله) قال : هو محمد يعني سبيل الله . صدت قريش عنه الناس . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله (ويبغونها عوجا) يعني يرجون بمكة غير الإسلام ديناً . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض) الآية قال : أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فإنه قال (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وأما في الآخرة فإنه قال - ولا يستطيعون خاشعة - . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (ما كانوا يستطيعون السمع) قال : ما كانوا يستطيعون أن يسموا خيراً فينتفعوا به . ولا يبصروا خيراً فيأخذوا به . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (أختبوا) قال خافوا . وأخرج ابن جرير عنه قال : الإخبات الإنابة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ قال الإخبات : الخشوع والتواضع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : اطمأنوا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (مثل الفريقين كالأعمى والأصم) قال : الكافر (والبصير والسميع) قال : المؤمن .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٠) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢١) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَذِبِينَ (٢٢) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَيْتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مُكْثُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ (٢٣) وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٤) وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٥) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٢٦)

قَالُوا يَتُوحُّ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْشَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢)
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٢٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ
أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤).

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس ، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن في الكلام ، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين ، والقبول أتم ، فقال (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الهزة على تقدير حرف الجر : أي أرسلناه بأني : أي أرسلناه متلبسا بذلك الكلام ، وهوائي لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول : أي قائلا إني لكم ، والواو في ولقد للابتداء . واللام هي الموطئة للقسم . واقتصر على النذارة دون البشارة . لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار ، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به . وجملة (أن لا تعبدوا إلا الله) بدل من إني لكم نذير مبين : أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله ، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا . أو بنذير . أو بمبين . وجملة (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليلية . والمعنى : نهينكم عن عبادة غير الله لأنني أخاف عايكم . وفيها تحقيق لمعنى الإنذار ، واليوم الأليم : هو يوم القيامة . أو يوم الطوفان . ووصفه بالأليم من باب الإسناد المجازي مبالغة . ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم في نبوته من ثلاث جهات فقال (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأ الأشراف كما تقدم غير مرة ، ووصفهم بالكفر ذما لهم ، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة (ما نراك إلا بشرا مثلنا) هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته : أي نحن وأنت مشتركون في البشرية فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا . والجهة الثانية (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) ولم يتبعك أحد من الأشراف ، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك . والأراذل جمع أرذل وأرذل جمع رذل مثل أكالب وأكلب وكلب ، وقيل الأراذل جمع الأرذل كالأساود جمع أسود . وهم السفلة . قال النحاس : الأراذل : الفقراء والذين لا حسب لهم ، والحسب الصناعات . قال الزجاج : نسبهم إلى الحياكة . ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الديانة . وقال ثعلب عن ابن الأعرابي : السفلة هو الذي يصلح الدنيا بدينه ، قيل له فمن سفلة السفلة ؟ قال : الذي يصلح دنيا غيره بفساد دينه . والظاهر من كلام أهل اللغة أن السفلة هو الذي يدخل في الحرف الدنية ، والرؤية في الموضعين إن كانت القلبية فبشرا في الأول واتبعك في الثاني هما المفعول الثاني ، وإن كانت البصرية فهما متصبان على الحال وانتصاب بادى الرأي على الظرفية والعامل فيه اتبعك . والمعنى : في ظاهر الرأي من غير تعمق ، يقال بدا يبدو : إذا ظهر . قال الأزهري : معناه فيما يبدو لنا من الرأي . والوجه الثالث من جهات قدحهم في نبوته (وما نرى لكم علينا من فضل) مخاطبوه في الوجهين الأولين منفردا وفي هذا الوجه مخاطبوه مع متبعيه أي : ما نرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به وتستحقون مائدة عونه ، ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية . فقالوا (بل نظنكم كاذبين) فيما تدعونه . ويموز أن يكون هذا خطابا للأراذل وحدهم ، والأول أولى . لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له . ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم . فقال (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) أي أخبروني إن كنت على برهان من ربي في النبوة بدل على صحتها وبوجوب عليكم قبولها مع كون

ما جعلتموه قادحا ليس بقادح في الحقيقة ، فإن المساواة في صفة البشرية لا تمنع المقارنة في صفة النبوة ، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوة فإنهم مثلكم في البشرية والعقل والفهم ، فاتباعهم لي حجة عليكم لا لكم ، ويجوز أن يريد بالبيئة المعجزة (وآتاني رحمة من عنده) هي النبوة ، وقيل الرحمة المعجزة ، والبيئة النبوة . قيل ويجوز أن تكون الرحمة هي البيئة نفسها ، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به البيئة ، والإفراد في (فعميت) على إرادة كل واحدة منهما ، أو على إرادة البيئة ، لأنها هي التي تظهر لمن تفكر وتحقق على من لم يتفكر ، ومعنى عميت خفيت ، وقيل الرحمة هي على الخلق ، وقيل هي الهداية إلى معرفة البرهان ، وقيل الإيمان ، يقال عميت عن كذا ، وعمى على كذا : إذا لم أفهمه . قيل وهو من باب القلب ، لأن البيئة أو الرحمة لا تعمى وإنما يعى عنها فهو كقولهم : أدخلت القلنسوة رأسي . وقرأ الأعمش وحزة والكسائي وحفص « فعميت » بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول : أي فعماها الله عليكم . وفي قراءة أبي (فعماها عليكم) والاستفهام في (أنلزمكموها) للإنكار : أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها والحال أنكم لها كارهون ، والمعنى : أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة للدلالة على صحة نبوتي إلا أنها خافية عليكم أي يمكننا أن نضطركم إلى العلم بها ، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها ، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل . وحكى الكسائي والقراء إسكان الميم الأولى في أنلزمكموها تخفيفا كما في قول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحطب إنما من الله ولا واغل

فإن إسكان الباء في أشرب للتخفيف . وقد قرأ أبو عمرو كذلك . قوله (وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة ما لا حتى يكون بذلك محلا للهمة ، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادعى ما ادعى طلبا للدنيا ، والضمير في عليه راجع إلى ما قاله لم فيما قبل هذا . وقوله (وما أنا بطارد الذين آمنوا) كالجواب عما يفهم من قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه ، وقيل إنهم سألوهم طردهم تصريحاً لا تلميحاً ، ثم علل ذلك بقوله (إنهم ملاقوا ربهم) أي لا أطردهم ، فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا بإيمانهم ما عنده سبحانه . وكأنه قال هذا على وجه الإعظام لهم ، ويحتمل أنه قاله خوفاً من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم : ثم بين لهم ما هم عليه في هذه المطالب التي طلبوها منه والعلل التي اعتلوا بها عن إجابته فقال (ولكني أراكم قوماً تجهلون) كل ما ينبغي أن يعلم ، ومن ذلك استرذالم للذين اتبعوه وسؤالهم له أن يطردهم . ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله (وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم) أي من يمنعني من عذاب الله وانتقامه إن طردتهم ؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان والإجابة إلى الدعوة التي أرسل الله رسوله لأجلها ظلم عظيم لا يقع من أنبياء الله المؤيدين بالعصمة ، ولو وقع ذلك منهم فرضاً وتقديراً لكان فيه من الظلم مالا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس . وقوله (أفلا تدكرون) بمعطوف على مقدر ، كأنه قيل : أتسترون على ما أنتم عليه من الجهل بما ذكر أفلا تدكرون من أحوالهم ما ينبغي تذكرة وتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ ، وما هم عليه من الصواب . قوله (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تبليغ الرسالة ، كذلك لا يدعى أن عنده خزائن الله حتى يستدلوا بعدمها على كذبه ، كما قالوا (وما نرى لكم علينا من فضل) والمراد بخزائن الله : خزائن رزقه (ولا أعلم الغيب) أي ولا أدعى إلى أعلم بغير الله ، بل لم أقل لكم إلا أني نذير مبين . إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم (ولا أقول) لكم (إني

ملك) حتى تقولوا ما نراك إلا بشرا مثلكا. وقد استدلل بهذا من قال إن الملائكة أفضل من الأنبياء. والأدلة في هذه المسئلة مختلفة ، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة ، فليست مما كلفنا الله بعلمه (ولا أقول للذين تزدري أعينكم) أى تحتقر ، والأزدراء مأخوذ من أزرى عليه : إذا عابه ، وزرى عليه : إذا احتقره . وأنشد القراء :

يباعده الصديق وتزدريه خليلته وينهره الصغير

والمعنى : إني لا أقول لهؤلاء المتبعين لى المؤمنين بالله الذين تعيبنهم وتحتقروهم (لن يوتيهم الله خيرا) بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة ورافعهم فى الدنيا إلى أعلى محل . ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئا (الله أعلم بما فى أنفسهم) من الإيمان به والإخلاص له فمجازيهم على ذلك ، ليس لى ولا لكم من أمرهم شيء (إني إذا لمن الظالمين) لهم إن فعلت ما تريدونه بهم ، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم ، ثم جاوبوه بغير ما تقدم من كلامهم وكلامه عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة وانقطاعا عن المباراة بقولهم (يأنوح قد جادلنا فأكثر جدالنا) أى خاصمتنا بأنواع الخصام ، ودفعتنا بكل حجة لها مدخل فى المقام . ولم يبق لنا فى هذا الباب مجال ، فقد ضاقت علينا المسالك وانسدَّت أبواب الحيل (فأتنا بما تعدنا) من العذاب الذى تخوفنا منه وتخافه علينا (إن كنت من الصادقين) فيما تقولنا ، فأجاب بأن ذلك ليس إليه وإنما هو بمشيئة الله وإرادته ، و (قال إنما يأتىكم به الله إن شاء) فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم ، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره (وما أنتم بمعجزين) بفائتين عما أراده الله بكم بهرب أو مدافعة (ولا ينفعكم نصيحى) الذى أبذله لكم وأستكثر منه قياما منى بحق النصيحة لله بإبلاغ رسالته ، ولكم بإيضاح الحق وبيان بطلان ما أنتم عليه (إن أردت أن أنصح لكم) وجواب هذا الشرط محذوف ، والتقدير : إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصيحى ، كما يدل عليه ما قبله (إن كان الله يريد أن يغويكم) أى إن كان الله يريد إغواءكم فلا ينفعكم النصيح منى . فكان جواب هذا الشرط محذوفا كالأول . وتقديره ما ذكرنا ، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدم الجزء على الشرط ، وأما على مذهب من يجيزه ، فجزاء الشرط الأول ولا ينفعكم نصيحى . وجزاء الشرط الثانى الجملة الشرطية الأولى ويجزاؤها . قال ابن جرير : معنى يغويكم يهلككم بعذابه ، وظاهر لغة العرب أن الإغواء الإضلال ؛ فعنى الآية : لا ينفعكم نصيحى إن كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ويخذلكم عن طريق الحق . وحكى عن طى أصبح فلان غاويا : أى مريضا ، وليس هذا المعنى هو المراد فى الآية . وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك . ومنه - فسوف يلقون غيا - وهو غير ما فى هذه الآية (هو زبكم) فلا به الإغواء وإليه الهداية (وإليه ترجعون) فيجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله (وما تراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأى) قال : فيها ظهر لنا . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله (إن كنت على بينة من ربى) قال : قد عرفتها وعرفت بها أمره . وأنه لا إله إلا هو ، (وآتانا رحمة من عنده) قال : الإسلام الهدى والإيمان والحكم والنبوة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (أنلزمكموها) قال : أما والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه . ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه كان يقرأ « أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال فى قراءة أبي « أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن

جرير وابن المنذر عن أبي بن كعب أنه قرأ « أنلزمكموها من شطر قلوبنا » . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (وما أنا بطارد الذين آمنوا) ، قال : قالوا له يانوح إن أحببت أن تتبعك فاطردهم . وإلا فلن ترضى أن نكون نحن وهم في الأرض سواء . وفي قوله (إنهم ملاقوا ربهم) قال : فيسألهم عن أعمالهم (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) التي لا يفنيها شيء ، فأكون إنما دعوتكم لتبعوني عليها ، لا أعطيك بملكه لي عليها (ولا أعلم الغيب) لا أقول : انهووني على علمي بالغيب (ولا أقول إني ملك) نزلت من السماء برسالة ، ما أنا إلا بشر مثلكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد (ولا أقول للذين تزددى أعينكم) ، قال : حقرتموهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (لن يؤتيهم الله خيرا) قال : يعني إيمانا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (فأتينا بما تعدنا) قال : تكذيبا بالطالب وأنه باطل .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٢٠) وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٢١) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ (٢٢) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٢٣) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٢٤) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٢٥) وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيهَا وَمَرْسِيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٦) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٢٧) قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَّغْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٢٨) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيُسْمَأْءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٩) .

قوله (أم يقولون افتراه) أنكر سبحانه عليهم قولهم : إن ما أوحى إلى نوح مفترى ، فقال (أم يقولون افتراه) ثم أمره أن يجيب بكلام متصف ، فقال (قل إن افتريته فعلى إجماعي) بكسر الهمزة على قراءة الجمهور ، مصدر أجم : أى فعل ما يوجب الإثم ، وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس ، والمعنى : فعلى إثمى أو جزاء كسبى . ومن قرأ بفتح الهمزة . قال : هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا (وأنا برىء مما تجرمون) أى من إجرامكم بسبب ما نسبوه

إلى من الافتراء : قيل وفي الكلام حذف والتقدير : لكن ما افتريته : فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم وأنا بىء منه : وقد اختلف المفسرون في هذه الآية : فقيل إنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه : وقيل هي حكاية عن المحاوراة الواقعة بين نبيينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكفار مكة . والأول أولى ، لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام . قوله (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) أنه لن يؤمن في محل رفع على أنه نائب الفاعل الذي لم يسم . ويجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير الباء : أى بأنه ، وفي الكلام تأييس له من إيمانهم . وأنهم مستمرّون على كفرهم : مصممون عليه ، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) البؤس : الحزن ، أى فلا تحزن : والبائس : المستكين ، فهنا الله سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن في استكانة . ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أو حميم رزته فلم أبتئس والرزء فيه جليل

ثم إن الله سبحانه لما أخبرهم أنهم لا يؤمنون ألته عرفه وجه إهلاكهم ، وألمه الأمر الذي يكون به خلاصه وخلاص من آمن معه . فقال (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى اعمل السفينة متلبساً بأعيننا : أى بمراى متاً ، والمراد بعراستنا لك وحفظنا لك . وعبر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية ، والرؤية هي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب : وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير ، وقيل المعنى (بأعيننا) أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ؛ وقيل (بأعيننا) بعلمنا : وقيل بأمرنا . ومعنى بوحينا : بما أوحينا إليك من كيفية صنعها (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) أى لا تطلب إمهالم ، فقد حان وقت الانتقام منهم ، وجملة (إنهم مفرقون) للتعليل : أى لا تطلب منا إمهالم : لأنه محكوم منا عليهم بالفرق وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخير ، وقيل : المعنى ولا تخاطبني في تعجيل عقابهم لأنهم مفرقون في الوقت المضروب لذلك ، لا يتأخر إغراقهم عنه ، وقيل المراد بالذين ظلموا أمرأتهم وأبنائهم (ويصنع الفلك) أى وطقق يصنع الفلك ، أو وأخذ يصنع الفلك ، وقيل هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ، وجملة (وكلما مرّ عليه ملا من قومه سخرّوا منه) في محل نصب على الحال : أى استهزؤا به لعمله السفينة . قال الأخفش والكسائي : يقال سخرت به ومنه . وفي وجه سخرتهم منه قولان : أحدهما أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة . فيقولون يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً . والثاني أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة ، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك . قالوا : ياتوح ما تصنع بها ؟ قال : أمشي بها على الماء فمجبوا من قوله ، وسخرّوا به . ثم أجاب عليهم بقوله (إن تسخرّوا منا فلنا نسخر منكم كما تسخرون) وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل : فإذا قال لم ؟ والمعنى : إن تسخرّوا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم فلنا نسخر منكم غداً عند الفرق . ومعنى السخرية هنا : الاستجهال . أى إن تستجهلونا فلنا نستجهلكم كما تستجهلون ، واستجهاله لم باعتبار إظهاره لم ومشافهتهم . وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده . والتشبيه في قوله (كما تسخرون) لمجرد التحقق والوقوع . أو التجدد والتكرّر . والمعنى : إنا نسخر منكم بخيرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك . أو متجددة متكررة كما تسخرون منا كذلك . وقيل معناه : نسخر منكم في المستقبل بخيرية مثل سخرتكم إذا وقع عليكم الفرق . وفيه نظر فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية إذ هم في شغل شاغل عنها ، ثم هدّاهم بقوله (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الفرق في الدنيا (ويحلّ عليه عذاب مقيم) وهو عذاب النار الدائم ، ومعنى يحلّ : يجعل المؤجل حالا . مأخوذ من حلول الدين المؤجل . ومن موصولة في محل نصب . ويجوز أن

تكون استهامة في محل رفع : أي أبنا يأتيه عذاب يخزيه ، وقيل في موضع رفع بالابتداء ، وبأية الخبر ، ويخزيه صفة لعذاب . قال الكسائي : إن ناسا من أهل الحجاز يقولون سوف تعلمون : قال : ومن قال ستعلمون أسقط الواو والفاء جميعا ، وجوز الكوفيون « سوف تعلمون » ومنعه البصريون ، والمراد بعذاب الخزي : العذاب الذي يخزي صاحبه ويحل عليه العار . قوله (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) حتى هي الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله : واصنع الفلك بأعيننا .

والتنور اختلف في تفسيرها على أقوال : الأول أنها وجه الأرض والعرب تسمى وجه الأرض تنورا . روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة . الثاني أنه تنور الخبز الذي يخبزونه فيه ، وبه قال مجاهد وعطية والحسن ، وروى عن ابن عباس أيضا . الثالث أنه موضع اجتماع الماء في السفينة ، روى عن الحسن . الرابع أنه طلوع الفجر ، من قولهم تنور الفجر ، روى عن علي بن أبي طالب . الخامس أنه مسجد الكوفة ، روى عن علي أيضا ومجاهد ، قال مجاهد : كان ناحية التنور بالكوفة . السادس أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة ، قاله قتادة . السابع أنه العين التي بالجزيرة المسماة عين الوردية ، روى ذلك عن عكرمة . الثامن أنه موضع بالهند ، قال ابن عباس : كان تنور آدم بالهند . قال التحاسي : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن الله سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض ، قال - ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا - فهذه الأقوال تجتمع في أن فلك كان علامة ، هكذا قال ، وفيه نظر ، فإن القول الرابع ينافي هذا الجمع ، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء . إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخر . وقد ذكر أهل اللغة أن الفور : الغليان ، والتنور : اسم عجمي حرته العرب ، وقيل معنى فار التنور : التمثيل بحضور العذاب كقولهم : حمى الوطيس : إذا اشتد الحرب ، ومنه قول الشاعر :

تركتم قدركم لأشياء فيها وقدر القوم حامية تفور يريد الحرب
قوله (قلنا اعمل فيها من كل زوجين اثنين) أي قلنا يانوح اعمل في السفينة من كل زوجين مما في الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا وأنثى . وقرأ حفص « من كل » بتكوين كل : أي من كل شيء زوجين ، والزوجان للثنين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ويطلق على كل واحد منهما زوج كما يقال للرجل زوج والمرأة زوج ، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلا للفرد ، ويطلق الزوج على الضرب والصنف ، ومثله قوله تعالى - وأثبتت من كل زوج بهيج - ، ومثله قول الأعشى :

وكل ضرب من الديباج يلبسه أبو حذافة غبوت بذاك معا

أراد كل صنف من الديباج (وأهلك) عطف على زوجين ، أو على اثنين على قراءة حفص ، وعلى محل كل زوجين ، فإنه في محل نصب باعمل ، أو على اثنين على قراءة الجمهور ، والمراد : امرأته وبنوه ونساؤهم (إلا من سبق عليه القول) أي من تقدم الحكم عليه بأنه من المفرقين في قوله (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) على الاختلاف السابق فيهم ، فن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة (اعمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك) ومن قال المراد بهم ولده كنعان وامرأته واهله أم كنعان جعل الاستثناء من أهلك ، ويكون متصلا إن أريد بالأهل ما هو أعم من المسلم والكافر منهم ، ومنقطعا إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط . قوله (ومن آمن) معطوف على أهلك : أي واهل في السفينة من آمن من قومك ، وأفرد الأهل منهم لمزيد العناية

بهم ، أولاستثناء منهم على القول الآخر . ثم وصف الله سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به فقال
(وما آمن معه إلا قليل) قيل هم ثمانون إنساناً : منهم ثلاثة من بنيه ، وهو سام ، وحام ، ويافث ، وزوجاتهم ،
ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين . وهي موجودة بئاحية الموصل ، وقيل كانوا عشرة ، وقيل
سبعة ، وقيل كانوا اثنين وسبعين ، وقيل غير ذلك . قوله (وقال اركبوا فيها) القائل نوح ، وقيل الله سبحانه .
والأول أولى لقوله (إن ربي لغفور رحيم) والركوب : العلو على ظهر الشيء حقيقة نحو ركب الدابة ، أو مجازاً
نحو ركب الدين ، وفي الكلام حلف : أي اركبوا الماء في السفينة فلا يرد أن ركب يتعدى بنفسه ، وقيل إن
القائدة في زيادة (في) أنه أمرهم بأن يكونوا في جوف السفينة لأهل ظهرها ، وقيل إنها زبدت لرهاية جانب المحلة
في السفينة كما في قوله - فإذا ركبوا في الفلك - ، وقوله - حتى إذا ركبوا في السفينة - قيل ولعل نوحاً قال هذه
المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج . كأنه قيل : فحمل الأزواج وأدخلها في الفلك ، وقال للمؤمنين ،
ويمكن أن يقال إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين . ولا يمتنع أن يفهم خطابه
من لا يعقل من الحيوانات ، أو يكون هذا على طريقة التغليب . قوله (بسم الله) متعلق بركبوا ، أو حال من
فاعله : أي مسمين الله ، أو قائلين (بسم الله مجراها ومرساها) قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من
شد منهم على أنهما اسم زمان ، وهما في موضع نصب على الظرفية : أي وقت مجراها ومرساها ، ويموز أن يكونا
مصدرين : أي وقت إجرائها وإرسائها . وقرأ الأعمش وحمة والكسائي وحفص « مجراها » بفتح الميم ، ومرساها
بضمها ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما . وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبو رجاء العطاردي
« مجريها ومرسيها » على أنهما وصفان لله ، ويموز أن يكونا في موضع رفع باضمار مبتدأ : أي هو مجريها ومرسيها
(إن ربي لغفور) للذنوب (رحيم) بعباده ، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلاً منه لبقاء هذا الجنس الحيواني ،
وعدم استنصاله بالفرق . قوله (وهي تجري بهم في موج كالجبال) هذه الجملة منصلة بجملة محلوفة دل عليها
الأمر بالركوب . والتقدير : فركبوا مسمين وهي تجري بهم ، والموج جمع موجة ، وهي ما ارتفع عن جملة الماء
الكثير عند اشتداد الريح ، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض . قوله (ونادى نوح ابنه) هو كنعان ، قيل وكان
كافراً ، واستبعد كون نوح ينادي من كان كافراً مع قوله - رب لا تلنر على الأرض من الكافرين دياراً - ،
وأجيب بأنه كان منافقاً فظن نوح أنه مؤمن ، وقيل حملته شفقة الأبوة على ذلك ، وقيل إنه كان ابن امرأته ولم يكن
بابنه ، ويؤيده ما روى أن علياً قرأ ونادى نوح ابنها ، وقيل إنه كان لغير رشدة ، وولد على فراش نوح . ورد
بأن قوله (ونادى نوح ابنه) ، وقوله (إن ابني من أهلي) يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوة (وكان
في معزل) أي في مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقربائه بحيث لم يبلغه قول نوح : اركبوا فيها ، وقيل في معزل من
دين أبيه ، وقيل من السفينة ، قيل وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الفرق ، بل كان في أول فور التنور . قوله
(يا بني اركب معنا) قرأ عاصم بفتح الياء ، والباقون بكسرها ، فأما الكسر فلجعله بدلاً من ياء الإضافة ، لأن
الأصل يا بني ، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفاً لخفة الألف ، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدل عليه . قال
النحاس : وقراءة عاصم مشكلة . وقال أبو حاتم : أصله يا بنياء ثم تحذف ، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين ،
وللكسر وجهين . أما الفتح فالوجه الأول ما ذكرناه ، والوجه الثاني أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين . وأما
الكسر فالوجه الأول ما ذكرناه ، والثاني أن تحذف لالتقاء الساكنين كذا حكى عنه النحاس . وقرأ أبو هرير
والكسائي وحفص (اركب معنا) بادغام الباء في الميم لالتقائهما في الخرج . وقرأ الباقر بعدم الإدغام (ولا تكن

مع الكافرين) نهاء عن الكون مع الكافرين : أى خارج السفينة ، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم ، ثم حكى الله سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال (قال سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء) أى بمنعى بارئاه من وصول الماء إلى ، فأجاب عنه نوح بقوله (لا عاصم اليوم من أمر الله) أى لا مانع فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه ، نفي جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الفرق في ذلك اليوم اندراجا لوليا، وعبر عن الماء أو عن الفرق بأمر الله سبحانه تفحيا لشأنه وتهويلا لأمره . والاستثناء قال الزجاج : هو منقطع : أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه ، فيكون (من رحم) فى موضع نصب ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون عاصم بمعنى معصوم : أى لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله : مثل - ماء دافق - وعيشة راضية - ومنه قول الشاعر :

دع المكارم لا تنهض لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى المطعم المكسور ، واختار هذا الوجه ابن جرير ، وقيل العاصم بمعنى ذى العصمة . كلاهين وتامر ، والتقدير : لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله وهو السفينة ، وحيث فلا يرد ما يقال : إن معنى من رحم من رحمه الله . ومن رحمه الله هو معصوم ، فكيف يصح استثناءه عن العاصم . لأن فى كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال . وقرئ (إلا من رحم) على البناء للمفعول (وحال بينهما الموج) أى حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الفرق ؛ وقيل بين ابن نوح وبين الجبل ، والأول أولى ، لأن تفرع (فكان من المفرقين) عليه يدل على الأول لا على الثانى ، لأن الجبل ليس بعاصم . قوله (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) يقال : بلع الماء يبلعه مثل شئ يمنع . وبلع يبلع مثل حمد محمد لغتان حكاهما الكسائى والقراء : والبلع الشرب ، ومنه البالوعة ، وهى الموضع الذى يشرب الماء ، والازدرداد ، يقال : بلع ما فى فيه من الطعام إذا ازدردده ، واستعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج (ويأسأأ ألقى) الإقلاع الإمساك ، يقال ألقط المطر إذا انقطع . والمعنى : أمر السماء بامساك الماء عن الإرسال ، وقدم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها (وغيض الماء) أى نقص ، يقال غاض الماء وغضته أنا (وقضى الأمر) أى أحكم وفرغ منه : يعنى أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام (واستوت على الجودى) أى استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودى ، وهو جبل بقرب الموصل ، وقيل إن الجودى اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقيلنا سبح الجودى والحمد

ويقال إنه من جبال الجنة فلذا استوت عليه (وقيل بعدا للقوم الظالمين) القائل هو الله سبحانه ليتناسب صدر الآية ، وقيل هو نوح وأصحابه . والمعنى : وقيل هلاكاً للقوم الظالمين . وهو من الكلمات التى تختص بدعاء للسوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك . وللإيماء إلى قوله - ولا تخاطبني فى الذين ظلموا - . وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من النصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف ، ونضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة ، الثابتين الأقدام فى علم البيان ، الراشحين فى علم اللغة . المطلعين على ما هو ملون من خطب مصابيح خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم . المتراضين بدقائق علوم العربية وأسرارها . وقد تعرض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فاطالوا وأطابوا ، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله (فعلى إجرى) قال على (وأنا برىء مما تجرمون) أى مما تعملونه

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) وذلك حين دعا عليهم نوح قال - لا تنبر على الأرض من الكافرين ديارا - . وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن قال : إن نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه ، فانقطع عند ذلك رجاءه منهم فدعا عليهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله (فلا تبئس) قال : فلا تحزن . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عنه في قوله (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) قال : بعين الله ووحيه . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم ، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول أعملها سفينة فيسخرُونَ منه ويقولون يعمل سفينة في البر ، وكيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون ، فلما فرغ منها وقار التنور وكثر الماء في السكك خشيته أم الصبي عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل . فلما بلغ الماء رقبته رفعت يديها حتى ذهب بها الماء ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي ، وقد ضعفه الذهبي في مستدركه على مستدرك الحاكم . وقد روى في صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس في ذكرها هنا كثير فائدت . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله (من يأتيه عذاب يخزيه) قال : هو الفرق (ويحل عليه عذاب مقيم) قال : هو الخلود في النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه عنه قال : كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة ، وكان فار التنور بالهند وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعا . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : التنور العين التي بالجزيرة عين الوردية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن أبي طالب قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة . وقد روى عنه نحو هذا من طرق . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : التنور وجه الأرض . قيل له إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك . والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي (وفار التنور) قال : طلع الفجر قيل له إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك . وقد روى في تفسير التنور غير هذا ، وقد قدما الإشارة إلى ذلك . وروى في صفة القصة وما حمله نوح في السفينة ، وكيف كان الفرق ، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها في تفسير كلام الله سبحانه . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (بسم الله مجراها ومرساها) قال : حين يركبون ويمشون ويرسون . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كان إذا أراد أن ترسى قال بسم الله فأرست . وإذا أراد أن تجرى قال بسم الله فجرت . وأخرج أبو يعلى والطبراني وابن السني وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أمان لأمتي من الفرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن ، بسم الله مجراها ومرساها ، إن ربي لغفور رحيم ، وما قدروا الله حق قدره إلى آخر الآية » . وأخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وأخرجه أيضا أبو الشيخ عنه مرفوعا من طريق أخرى . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان اسم ابن نوح الذي غرق كنعان . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه في النية والعمل . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله

(لا حاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) قال : لا ناج إلا أهل السفينة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن القاسم بن أبي برة في قوله (وحال بينهما الموج) قال : بين ابن نوح وإبل . وأخرج ابن المنذر عن بكرمة في قوله (يا أرض ابلعي) قال : هو بالحشية . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه في ابلعي قال بالحشية : أى ازددية . وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : معناه اشربي بلغة الهند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله . أقول : وثبت لفظ البلع وما يشتق منه في لغة العرب ظاهر مكشوف ، فالنا والحبشة والهند .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ (١٠) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ (١٢) قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّمْ سَمِيعَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٣) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ (١٤)

معنى (ونادى نوح ربه) دعاه ، والمراد أراد دعاءه بدليل الفاء في (فقال رب إن ابني من أهلي) وعطف الشيء على نفسه غير سائغ ، فلا بد من التقدير المذكور . ومعنى قوله (إن ابني من أهلي) أنه من الأهل الذين وعدتني بتنجيهم بقولك : وأهلك . فإن قيل كيف طلب نوح عليه السلام لإنجاز ما وعده الله بقوله (وأهلك) وهو المستثنى منه ، وترك ما يفيد الاستثناء ، وهو (إلا من سبق عليه القول) ؟ فيجيب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول ، فإنه كان يظنه من المؤمنين (وإن وعدك الحق) الذي لا خلف فيه ، وهذا منه (وأنت أحكم الحاكمين) أى أنتن المتقين لما يكون به الحكم ، فلا يتطرق إلى حكمك نقض ، وقيل أراد بأحكم الحاكمين أعلمهم وأعدلهم : أى أنت أكثر علما وعدلا من ذوى الحكم : وقيل إن الحاكم بمعنى ذى الحكمة كدارع ، ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل ، وأنه خارج بقيد الاستثناء (فقال يا نوح إنه ليس من أهلك) الذين آمنوا بك وتابعوك وإن كان من أهلك باعتبار القرابة ، ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال (إنه عمل غير صالح) قرأ الجمهور عمل على لفظ المصدر . وقرأ ابن عباس وعكرمة والكسائي ويعقوب عمل على لفظ الفعل ، ومعنى القراءة الأولى المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل ، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل ، كذا قال الزجاج وغيره . ومعنى القراءة الثانية ظاهر : أى إنه عمل عملا غير صالح ، وهو كفره وتركه لم تابعة أبيه ، ثم نهاء عن مثل هذا السؤال ، فقال (فلا تسألن ما ليس لك به علم) لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله فرج على ذلك انتهى عن السؤال ، وهو وإن كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب ،

فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوليا ، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع . وسمى دعاءه
سؤالا لتضمنه معنى السؤال (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) أي أحذرك أن تكون من الجاهلين كقوله
- يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا - وقيل المعنى : أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من
الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين . ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق
الواقع . وأن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه بإدر إلى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة . فقال رب إلى
أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم (أي أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لي بصحته وجوازه . (وإن لا تغفر لي)
ذنب مادعوت به على غير علم مني (وترحمني) برحمتك التي وسعت كل شيء فتقبل توبتي (أكن من الخاسرين)
في أعمالى فلا أربح فيها . القائل هو الله . أو الملائكة (قيل يأنوح اهبط) أي انزل من السفينة إلى الأرض . أو من
الجليل إلى المنخفض من الأرض فقد بلغت الأرض ماءها وجفت (بسلام منا) أي بسلامة وأمن . وقيل بتحية
(وبركات) أي نعم ثابتة . مشتق من برك الحمل وهو ثبوته . ومنه للبركة لثبوت الماء فيها ، وفي هذا الخطاب له
دليل على قبول توبته ومغفرة زلته (وعلى أم من معك) أي ناشئة من معك . وهم المتشعبون من ذرية من كان معه
في السفينة . وقيل أراد من في السفينة . لأنهم أم مختلفة وأنواع من الحيوانات متباينة . قيل أراد الله سبحانه
بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمنا من ذريتهم . وأراد بقوله (وأم سمنتهم ثم يمسه منا عذاب أليم)
من صار كافرا من ذريتهم إلى يوم القيامة . وارتفاع أم في قوله (وأم سمنتهم) على أنه خبر مبتدأ محذوف :
أي ومنهم أم ؛ وقيل على تقدير : ويكون أم . وقال الأخفش : هو كما تقول : كلمت زيدا وعمرو جالس ،
وأجاز القراء في غير القراءة وأما سمنتهم : أي ونمت أمتا ؛ ومعنى الآية : وأم سمنتهم في الدنيا بما فيها من
المتاع ، ونعطيهم منها ما يعيشون به ، ثم يمسه منا في الآخرة عذاب أليم ؛ وقيل يمسه إما في الدنيا أو في الآخرة .
والإشارة بقوله (تلك) إلى قصة نوح . وهي مبتدأ والجمل بعده أخبار (من أنباء الغيب) من جنس أنباء الغيب .
والأنباء جمع نبأ وهو الخبر : أي من أخبار الغيب التي مرت بك في هذه السورة ، والضمير في (نوحيا إليك)
راجع إلى القصة ، والحجى بالمضارع لاستحضار الصورة (ما كنت) يا محمد (تعلمها أنت ولا) يعلمها (قومك)
بل هي مجهولة عندكم من قبل الوحي . أو من قبل هذا الوقت (فاصبر) على ما تلاقيه من كفار زمانك . والقاء
لتفريع ما بعدها على ما قبلها (إن العاقبة) المحمودة في الدنيا والآخرة (للمتقين) لله المؤمنين بما جاءت به رسله ،
وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتبشير له بأن الظفر للمتقين في عاقبة الأمور . ولا اعتبار بمباديه .
وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : نادى نوح ربه فقال : رب إن ابني من أهلي . وإنك
قد وعدتني أن تنجي لي أهلي . وإن ابني من أهلي . وأخرج عبد الرزاق والفرياني وابن المنذر وابن أبي حاتم
وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال « ما يفت امرأة نبي قط » . وقوله (إنه ليس من أهلك) يقول :
ليس من أهلك الذين وعدت أن أنجيهم معك . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال : إن نساء الأنبياء
لا يزنين . وكان يقرؤها (إنه عمل غير صالح) يقول : مسألتك إياي يأنوح عمل غير صالح لا أرضاه لك ؛
وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فلا تسألني ما ليس لك به علم) قال : بين الله للنوح أنه ليس
بأبنة . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (يأنوح اهبط بسلام منا) قال : اهبطوا والله عنهم راض . وأخرج
ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : دخل في ذلك السلام والبركات
كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة . ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة . وأخرج ابن

جرير عن الضحاك (وعلى أمم ممن معك) يعنى ممن لم يولد . أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم فى علم الله من السعادة (وأمم سمنتهم) يعنى متاع الحياة الدنيا (ثم يمسه من عذاب أليم) لما سبق لهم فى علم الله من الشقاوة . وأخرج أبو الشيخ قال : ثم رجع إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها ولا قومك) يعنى العرب (من قبل هذا) القرآن .

وإلى عاد أخاهم هوداً قال يقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون (٥٠) يقوم لا أسئلكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون (٥١) ويقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين (٥٢) قالوا يهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين (٥٣) إن نقول إلا اعتريك بغض آلِهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أئني برىء مما تشركون (٥٤) من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون (٥٥) إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بماصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٥٦) فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرؤنه شيئاً إن ربي على كل شىء حفيظ (٥٧) ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيتهم من عذاب غليظ (٥٨) وتلك عاد جحدوا بآيت ربهم وعصوا رسله وأتبعوا أمر كل جبار عنيد (٥٩) وأتبعوا في هذه الدنيا لغنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود (٦٠) .

قوله (وإلى عاد أخاهم هوداً) معطوف على وأرسلنا نوحاً : أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم : أى واحداً منهم . وهوداً عطف بيان وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا فى الأعراف . وقيل هم عاد الأولى وعاد الأخرى . فهؤلاء هم عاد الأولى وعاد الأخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكوران فى قوله - إرم ذات العماد - : وأصل عاد : اسم رجل ثم صار اسماً للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما (ما لكم من إله غيره) قرئ غيره بالجر على اللفظ . وبالرفع على محل من إله ، وقرئ بالنصب على الاستثناء (إن أنتم إلا مفترون) أى ما أنتم باتخاذ إله غير الله إلا كاذبون على الله عز وجل ثم خاطبهم فقال (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً) أى لا أطلب منكم أجراً على ما أبلغه إليكم وأنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة الله وحده وأنه لا إله لكم سواه . فالضمير راجع إلى مفسون هذا الكلام . وقد تقدم معنى هذا فى قصة نوح (إن أجرى إلا على الذى فطرني) أى ما أجرى للذى أطلب إلا من الذى فطرني :

أى خلقنى فهو الذى يثبني على ذلك (أفلا تعقلون) أن أجر الناصحين إنما هو من رب العالمين ، قيل إنما قال فما تقدم فى قصة نوح : مالا . وهنا قال : أجرا لذكر الخرائن بعده فى قصة نوح ، ولفظ المال بها أليق ، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة . والمعنى : اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم ثم توسلوا إليه بالتوبة . وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح . ثم رغبهم فى الإيمان بالخير للعاجل . فقال (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدرور . وهو منصوب على الحال ، درت السماء تدر وتدر فهى مدرار . وكان قوم هود أهل بساتين وزرع وعمارة . وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن (ويزدكم قوة إلى قوتكم) معطوف على يرسل : أى شدة مضافة إلى شدتكم ، أو خصبا إلى خصبكم . أو عزّا إلى عزكم . قال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم (ولا تتولوا مجرمين) أى لاتعرضوا عما أدعوكم إليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه . والإجرام : الآثام كما تقدم . ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم . وعظيم غياوتهم ، فقالوا يا يهود ما جئتنا ببينة (أى بحجة واضحة نعمل عليها ، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عنادا وبعدا عن الحق) وما نحن بتاركى آلهتنا (التى نعبدها من دون الله . ومعنى (عن قولك) صادرين عن قولك ، فالظرف ل عمل نصب على الحال (وما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدقين فى شيء مما جئت به (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أى ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التى تعيبها وتسفه رأينا فى عبادتها بسوء يحنون ، حتى نشأ عن جنونك ما نقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها . يقال عراه الأمر واعتراه : إذا ألمّ به ، فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه . وأنهم لا يقدرون على شيء مما يريد الكفار به ، بل الله سيحانه هو الضار النافع (قال إني أشهد الله واشهدوا) أنتم (بأنى برىء مما تشركون) به (من دونه) أى من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطانا (فكيدونى جميعا) أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بى وأنها اعترتنى بسوء (ثم لاتنظرون) أى لاتتمهلونى ، بل عاجلونى واصنعوا ما بدا لكم ، وفى هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التى يعبدونها ما يصبك مسامعهم . ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شيء (إني توكلت على الله ربي وربكم) فهو يعصمنى من كيدكم . وإن بلغتكم فى تطلب وجوه الإضرار بى كل مبلغ ، فمن توكل على الله كفاه . ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم . وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل دابة من دواب الأرض بيده ، وفى قبضته وتحت قهره . وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل . وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه ، والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره . قال الفراء : معنى آخذ بناصيتها مالكتها والقادر عليها . وقال القتيبي : قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته . والناصية قصاص الشعر من مقدم الرأس ، ثم علل ما تقدم بقوله (إن ربي على صراط مستقيم) أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على (فإن تولوا) أى تتولوا فحذفت إحدى التاءين ، والمعنى فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر (فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) ليس على إلا ذلك . وقد لزمتمكم الحجة (ويستخلف ربي قوما غيركم) جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك : أى يستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين . ويجوز أن يكون عطفا على فقد أبلغتكم . وروى حفص عن عاصم أنه قرأ « ويستخلف » يألزم حملا على موضع فقد أبلغتكم (ولا تضرّونه شيئا) أى بتوليكم ، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير (إن ربي على كل شيء حفيظ) أى رقيب مهيم عليه يحفظه من كل شيء . قيل وعلى بمعنى اللام . فيكون المعنى : لكل شيء حفيظ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا الذى

هو إهلاك عاد (نجينا هودا والذين آمنوا معه) من قومه (برحمة منا) أى برحمة عظيمة كائنة منا لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله ، وقيل هى الإيمان (من عذاب غليظ) أى شديد قيل وهو السموم التى كانت تدخل أنوفهم (وتلك عاد) مبتدأ وخبر ، وأنت الإشارة اعتبارا بالقبيلة . قال الكسائى : إن من العرب من لا يصرف عاد ويعمله اسما للقبيلة (جحدوا بآيات ربهم) أى كفروا بها وكذبوها وأنكروا المعجزات (وعصوا رسله) أى هودا وحده ، لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ، وإنما جمع هنا لأن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل ؛ وقيل إنهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل ، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلا متعددين لكذبوهم (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) الجبار المتكبر ، والعنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيدة : العنيد العنود والعاند والمعاند . وهو المعارض بالخلاف منه ، ومنه قيل للعرق الذى يتفجر بالدم عاند . قال الراجز : . إني كبير لا أطيق العندا . (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) أى ألحقوها ، وهى الإبعاد من الرحمة والطرده من الخير ، والمعنى أنها لازمة لهم لا يفارقهم ماداموا فى الدنيا (و) أتبعوها (يوم القيامة) فلعنوا هنالك كما لعنوا فى الدنيا (ألا إن عادا كفروا ربهم) أى برهم . وقال القراء : كفروا نعمة ربهم ، يقال كفرته وكفرت به : مثل شكرته وشكرت له (ألا بعدا لعاد قوم هود) أى لازالوا مبعدين من رحمة الله ، والبعد : الهلاك ، والبعد : التباعد من الخير ، يقال بعد يبعد بعدا : إذا تأخر وتباعد ، وبعد يبعد بعدا : إذا هلك ، ومنه قول الشاعر :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العدا وآفة الجزر

وقال النابغة :

فلا تبعدن إن المنية منهل وكل امرئ يوما به الحال زائل

ومنه قول الشاعر :

ما كان ينفعنى مقال نسايم وقتلت دون رجالم لا تبعد

وقد تقدم أن العرب تستعمله فى الدعاء بالهلاك :

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (إلا على الذى فطرني) أى خلقتني . وأخرج ابن عساكر عن الضحاك قال : أمسك الله عن عاد القطر ثلاث سنين ، فقال لهم هود (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا) فأبوا إلا تماديا . وأخرج أبو الشيخ عن هارون التيمي فى قوله (يرسل السماء عليكم مدرارا) قال : المطر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) قال : شدة إلى شدتكم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) قال : ولد الولد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله (إن نقول إلا اعتراك بعض آلنا بسوء) قال : أصابتك بالجنون . وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن سعيد قال : مامن أحد يخاف لصا عاديا ، أو سبعا ضاريا ، أو شيطانا ماردا فيتلو هذه الآية إلا صرفه الله عنه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (إن ربى على صراط مستقيم) قال : الحق . وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك فى قوله (عذاب غليظ) قال : شديد . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله (كل جبار عنيد) قال : المشرك . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : العنيد المشاق . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة)

قال : لم يبعث نبي بعد عاد إلا لعنت على لسانه . وأخرج ابن المنذر عن قتادة في الآية قال : تابعت عليهم لعتان من الله : لعنة في الدنيا ، ولعنة في الآخرة .

وإلى ثمود أخاهم صلحاً قال يقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (٦١) قالوا يصلح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهينا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب (٦٢) قال يقوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتيني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيلونني غير تخسير (٦٣) ويقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) فلما جأ أمرنا نجينا صلحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصبحة فأصبحوا في ديارهم جثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود (٦٨) .

قوله (وإلى ثمود أخاهم صلحاً) معطوف على ما تقدم ، والتقدير : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صلحاً ، والكلام فيه ، وفي قوله (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) كما تقدم في قصة هود . وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب وإلى ثمود ، بالتنوين في جميع المواضع . واختلف سائر القراء فيه فصرفوه في موضع ولم يصرفوه في موضع ، فالصرف باعتبار التأويل بالحى ، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة ، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان ، وأنشد سيويه في التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة :

غلب المساميح الوليد جماعة وكفى قريش المضلات وسادها

(هو أنشأكم من الأرض) أى ابتداء خلقكم من الأرض : لأن كل بنى آدم من صلب آدم ، وهو مخلوق من الأرض (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارها وسكانها ، من قولهم أعمر فلان فلاناً داره فهي له عمرى ، فيكون استعمل بمعنى أفل : مثل استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : معناه أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثائة إلى ألف ، وقيل معناه أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار (فاستغفروه) أى سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام (ثم توبوا إليه) أى ارجعوا إلى عبادته (إن ربي قريب مجيب) أى قريب الإجابة لمن دعاه ، وقد تقدم القول فيه في البقرة عند قوله تعالى - فإني قريب أجيب دعوة الداعي - (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) أى كنا نرجو أن تكون فينا سيذا مطاعاً ننزع برأيك ، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذى أظهرته من

ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد ؛ وقيل كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجائنا منك ، والاستغناء في قوله (أتئنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) للإنكار أنكروا عليه هذا النهي ، وأن نعبد في محل نصب بحذف الجار : أي بأن نعبد ، ومعنى ما يعبد آباؤنا : ما كان يعبد آباؤنا . فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة (وإننا لنرى شك مما تدعوننا إليه مريب) من أربته فأنا أريبه : إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة ، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ، أو من أرب الرجل : إذا كان ذا ريبة ، والمعنى : إننا لنرى شك مما تدعوننا إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان موقع في الريب (قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي) أي حجة ظاهرة وبرهان صحيح (وآتاني منه) أي من جهته (رحمة) أي نبوة ، وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع . لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين ، لأنهم في شك من ذلك ، كما وصفوه عن أنفسهم (فمن ينصرني من الله) استغناء معناه النفي : أي لا ناصر لي يمنعني من عذاب الله (إن عصيته) في تبليغ الرسالة وراقبتكم وفرت عما يجب على من البلاغ (فما تريدونني) بتشبيطكم إياي (غير تخسير) بأن تجعلوني خاسرا بإبطال عملي ، والتعرض لعقوبة الله لي . قال القراء : أي تضليل وإبعاد من الخير . وقيل المعنى : فما تريدونني باحتياجكم بدين آياتكم غير بصيرة بخسارتكم . قوله (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية) قد مر تفسير هذه الآية في الأعراف ، ومعنى لكم آية : معجزة ظاهرة ، وهي منتصب على الحال ، ولكم في محل نصب على الحال من آية مقدمة عليها ، ولولا تأخرت لكانت صفة لها ، وقيل إن ناقة الله بذلك من هذه ، والخبر لكم . والأول أولى ، وإنما قال ناقة الله لأنه أخرجهما لم من جبل على حسب اقتراحهم ؛ وقيل من حفرة صماء (فذروها تأكل في أرض الله) أي دعوها تأكل في أرض الله مما فيها من المراعى التي تأكلها الحيوانات . قال أبو إسحاق الزجاج : ويجوز رفع تأكل على الحال والاستئناف ، ولعله يعني في الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا في الآية . فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة (ولا تمسوها بسوء) قال القراء : بعقر ، والظاهر أن النهي عما هو أعم من ذلك (فياخذكم عذاب قريب) جواب النهي : أي قريب من عقرها ، وذلك ثلاثة أيام (فعقروها) أي فلم يمثلوا الأمر من صالح ولا النهي ، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها (فقال) لهم صالح (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) أي تمتعوا بالعيش في منازلكم ثلاثة أيام ، فإن العقاب نازل عليكم بعدها ؛ قيل إنهم عقروها يوم الأربعاء ، فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد ، والإشارة بقوله (ذلك) إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام (وعد غير مكذوب) أي غير مكذوب فيه ، فحذف الجار اتساعا ، أو من باب المجاز كأن الوعد إذا وفي به صدق ولم يكذب ، ويجوز أن يكون مصدرا : أي وعد غير كذب (فلما جاء أمرنا) أي عذابنا ، أو أمرنا بوقوع العذاب (نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) قد تقدم تفسير هذا في قصة هود (ومن خزي يومئذ) أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة ، والخزي : الذل والمهانة ؛ وقيل من عذاب يوم القيامة ، والأول أولى . وقرأ نافع والكسائي بفتح يوم على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه . وقرأ الباقون بالكسر (إن ربك هو القوى العزيز) القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أي في اليوم الرابع من عقر الناقة ، صبح بهم فأتوا ، وذكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقي ؛ قيل صيحة جبريل ، وقيل صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا ، وتقدم في الأعراف . فأخذتهم الرجفة . قيل ولعلها وقعت عقب الصيحة (فأصبحوا في ديارهم جائعين) أي ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت (كان لم يغنوا فيها) أي كأنهم لم يقيموا في بلادهم أو ديارهم ، وبالجملة

في محل نصب على الحال والتقدير : مماثلين لمن لم يوجد ولم يبق في مقام قط (ألا إن ثمودا كفروا ربهم) وضع الظاهر موضع المصمر لزيادة البيان ، وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله (ألابعثا ثمود) وقرأ الكسائي بالتثنية . وقد تقدم تفسير هذه القصة في الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما في إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدي (هو أنشأكم من الأرض) قال : خلقكم من الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (واستعمركم فيها) قال : أعمركم فيها . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد (واستعمركم فيها) قال : استخلفكم فيها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (فما تزيلونني غير تخسير) يقول : ما تزدادون أنتم إلا خسارا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراساني نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله (فأصبحوا في ديارهم جائمين) قال : ميتين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (كأن لم يغنوا فيها) قال : كأن لم يعيشوا فيها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه ، قال : كأن لم يعمرؤا فيها . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كأن لم ينعموا فيها .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَمِيدٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ (٧٠) وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَوِئِلَتَى آلِ دَاوُدَ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) .

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام . وكانت قرى لوط بنواحي الشام وإبراهيم ببلاد فلسطين . فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه . وكان مروهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة ، فظنهم أضيافا ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل كانوا تسعة ، وقيل أحد عشر ، والبشرى التي بشره بها هي بشارته بالولد ، وقيل بإهلاك قوم لوط . والأولى أولى (قالوا سلاما) منصوب بفعل مقدر : أي سلمنا عليك سلاما (قال سلام) ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي أمركم سلام ، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير : عليكم سلام (فما لبث) أي إبراهيم (أن جاء بعجل حميد) قال أكثر النحويين (أن) هنا بمعنى حتى : أي فما لبث حتى جاء ، وقيل

إنها في محل نصب بسقوط حرف الجر ، والتقدير فما لبث عن أن جاء : أي ما أبطل إبراهيم عن مجيئه بعجل وما نافية قاله سيويه . وقال الفراء فما لبث مجيئه أي ما أبطل مجيئه ، وقيل إن ما موصولة وهي مبتدأ والخبر أن جاء بعجل حنيد والتقدير : فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل حنيد ، والحنيد : المشوى مطلقا ، وقيل المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار ، يقال حنذ الشاة يحنذها : جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهي حنيد ، وقيل معنى حنيد : صين ، وقيل الحنيد هو السميطة ، وقيل النضيج ، وهو فعل بمعنى مفعول ، وإنما جاءهم بعجل ، لأن البقر كانت أكثر أمواله (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه) أي لا يمدونها إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل (نكرهم) يقال : نكرته وأنكرته واستنكرته : إذا وجدته على غير ما تعهد ، ومنه قول الشاعر :

فأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع بين اللغتين ، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد

وقيل يقال : أنكرت لما تراه بعينك ، ونكرت لما تراه بقلبك ، قيل وإنما استنكر منهم ذلك ، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشر (وأوجس منهم) أي أحس في نفسه منهم (خيفة) أي خوفا وفزعا ، وقيل معنى أوجس : أضمر في نفسه خيفة ، والأول ألصق بالمعنى اللغوي ، ومنه قول الشاعر :

جاء البريد بقرطاس يحث به فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

وكانه ظن أنهم قد نزلوا به لأمرينكره ، أو لتعذيب قومه (قالوا لا تخف) قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف ، بل أوجس ذلك في نفسه ، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه ، أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس في نفسه من الخيفة قولاً يدل على الخوف كما في قوله في سورة الحجر - قال إنا منكم وجلون - ، ولم يذكر ذلك ها هنا اكتفاء بما هنالك ، ثم عللوا نبيه عن الخوف بقولهم (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) أي أرسلنا إليهم خاصة ، ويمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه - قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين - ، وجملة (وامرأته قائمة فضحكت) في محل نصب على الحال ، قيل كانت قائمة عند تحاورهم وراء السر ، وقيل كانت قائمة تخدم الملائكة وهو جالس ، والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور . وقال مجاهد وعكرمة : إنه الخيف ، ومنه قول الشاعر :

وإني لآتي العرس عند طهورها وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقال الآخر :

وضحك الأرناب فوق الصفا كمثل دم الخوف يوم اللقا

والعرب تقول ضحكت الأرناب : إذا حاضت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت (فبشرناها بإسحاق) ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير . والمعنى : فبشرناها فضحكت سرورا بالولد . وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة فضحكت بفتح الحاء ، وأنكره

المهدوى (ومن وراء إسحاق يعقوب) قرأ حزة وابن عامر وحفص بنص يعقوب على أنه مفعول فعل دل عليه
فبشرناها ، كأنه قال : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب . وأجاز الكسائي والأخفش وأبو حاتم أن يكون يعقوب
في موضع جر . وقال الفراء : لا يجوز الجر إلا بإعادة حرفه . قال سيويه : ولو قلت مررت بزيد أول من أمس ،
وأمس عمر كان قبيحا خبيثا ، لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه كما يفرق بين الحار والمجرور . وقرأ الباقر
برفع يعقوب على أنه مبتدأ وخبره الظرف الذي قبله : وقيل الرفع بتقدير فعل محذوف : أى ويحدث لها . أو
وثبت لها . وقد وقع التبشير هنا لها ، ووقع لإبراهيم في قوله تعالى - فبشرناه بغلام حليم - وبشروه بغلام عليم - .
لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما ، وجملة (قالت ياويلتا) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه
قيل فماذا قالت ؟ قال الزجاج : أصلها ياويلتى ، فأبدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة . وهى لم ترد
الدعاء على نفسها بالويل . ولكنها كلمة تقع كثيرا على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، وأصل الويل :
الحزى . ثم شاع في كل أمر فظيع . والاستفهام في قولها (وألد وأنا عجوز) للتعجب : أى كيف ألد وأنا شيخوخة
قد طعنت في السن . يقال عجزت تعجز مخففا ومثقلا عجزا وتعجيرا : أى طعنت في السن . ويقال عجوز
وعجوزة ، وأما عجزت بكسر الجيم : فعناه عظمت عجيزتها ، قيل كانت بنت تسع وتسعين . وقيل بنت
تسعين (وهذا بعلى شيخا) أى وهذا زوجى إبراهيم شيخا لا تحبل من مثله النساء : وشيخا منتصب على الحال ،
والعامل فيه معنى الإشارة . قال النحاس : وفى قراءة أبى وابن مسعود شيخ بالرفع على أنه خبر المبتدأ . أو خبر بعد
خبر . أو خبر مبتدأ محذوف : وعلى الأول يكون « بعلى » بدلا من اسم الإشارة : قيل كان إبراهيم ابن مائة وعشرين
سنة . وقيل ابن مائة . وهذه المبشرة هى سارة امرأة إبراهيم . وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل ،
فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها ، فبشرها الله به على لسان ملائكته (إن هذا لشيء عجيب)
أى ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها في هذه السن العالية التى لا يولد لمثلها شيء يقضى منه
العجب . وجملة (قالوا أتعجبين من أمر الله) مستأنفة جواب سؤال مقدر . والاستفهام فيها للإنكار : أى
كيف تعجبين من قضاء الله وقدره . وهو لا يستحيل عليه شيء ، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من
خوارق العادة لأنها من بيت النبوة . ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه . ولهذا قالوا (رحمة الله
وبركاته عليكم أهل البيت) أى الرحمة التى وسعت كل شيء والبركات وهى النمو والزيادة وقيل الرحمة : النبوة ،
والبركات : الأسباط من بنى إسرائيل لما فيهم من الأنبياء . وانتصاب أهل البيت على المدح أو الاختصاص ،
وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم (إنه حميد) أى يفعل موجبات حمده من عباده على
سبيل الكثرة (مجيد) كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات ، والجملة تعليل لقوله « رحمة الله
وبركاته عليكم أهل البيت » . قوله (فلما ذهب عن إبراهيم الروح) أى الخيفة التى أوجسها في نفسه ، يقال ارتاع
من كذا : إذا خاف ، ومثله قول النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف ومن حذر

(وجاءته البشرى) أى بالولد ، أو بقولهم لا تخف . قوله (يجادلنا في قوم لوط) . قال الأخفش والكسائي : إن
يجادلنا في موضع جادلنا . فيكون هو جواب لما . لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضى لا بالمستقبل . قال
النحاس : جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضى مكان المستقبل في الشرط . وقيل إن الجواب محذوف . ويجادلنا
في موضع نصب على الحال قاله الفراء . وتقديره : فلما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال

كونه يجادلنا : أى يجادل رسلنا ، وقيل إن المعنى : أخذ يجادلنا ، ومجادلته لم قبل إنه لما سمع قولهم - إنا مهلكوا أهل هذه القرية - قال : أرايتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا لا - قال فأربعون ؟ قالوا لا ، قال فمئرون ؟ قالوا لا ، ثم قال فمئرة فخمسة ؟ قالوا لا . قال فواحد ؟ قالوا لا - قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله - الآية ، فهذا معنى مجادلته في قوم لوط : أى في شأنهم وأمرهم . ثم أثنوا على إبراهيم . أو أثنى الله عليه فقال (إن إبراهيم لحليم) أى ليس بعجول في الأمور ، ولا بموقع لها على غير ما ينبغي . والآواه : كثير التأوه . والمنيب : الراجع إلى الله . وقد تقدم في براءة الكلام على الآواه . قوله (يا إبراهيم أعرض عن هذا) هذا قول الملائكة له : أى أعرض عن هذا الجدل في أمر قد فرغ منه ، وجف به القلم . وحق به القضاء (إنه قد جاء أمر ربك) الضمير للشأن . ومعنى مجيء أمر الله : مجيء عذابه الذي قدره عليهم . وسبق به قضاؤه (وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود) أى لا يردّه دعاء ولا جدال ، بل هو واقع بهم لا محالة . ونازل بهم على كل حال ليس بمصرف ولا مدفوع .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عثمان بن محصن في ضيف إبراهيم قال : كانوا أربعة : جبريل . وميكائيل . وإسرافيل . ورافئيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (بعجل حنيد) قال : نصيج . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : مشوى . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : سميط . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الحنيد الذي أنضج بالحجارة . وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي يزيد البصري في قوله (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه) قال : لم يزل أيديهم ففكروهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (نكروهم) قال : كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير . وأنه يحدث نفسه بشر ، ثم حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه فضحكت امرأته . وأخرج ابن المنذر عن المغيرة قال : في مصحف ابن مسعود « وامرأته قائمة وهو جالس » . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد (وامرأته قائمة) قال : في خدمة أضياف إبراهيم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : لما أوجس إبراهيم في نفسه خيفة حدثوه عند ذلك بما جاءوا فيه . فضحكت امرأته تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة . ومما أتاهم من العذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (فضحكت) قال : فحاضت وهي بنت ثمان وتسعين سنة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (فضحكت) قال : حاضت وكانت ابنة بضع وتسعين سنة . وكان إبراهيم ابن مائة سنة . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : حاضت . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ومن وراء إسحاق يعقوب) قال : هو ولد الولد . وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء عن حسان بن أبيجر قال : كنت عند ابن عباس فجاء رجل من هذيل ، فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟ قال : مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من وراء . فقال ابن عباس (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) قال : ولد الولد . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وأبو الشيخ والبيهقي في الشعب عن طرق عن ابن عباس أنه كان ينهى عن أن يزاد في جواب التحية على قولهم : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ويتلو هذه الآية (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) . وأخرج البيهقي عن ابن عمر نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (فلما ذهب عن إبراهيم الروح) قال : للفرق (يجادلنا قوم لوط) قال : بخاصتنا . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة في تفسير المجادلة قال : إنه قال لم يومئذ :

أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين ؟ قالوا : إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم ، قال أربعون ؟ قالوا وأربعون ، قال ثلاثون ؟ قالوا وثلاثون حتى بلغوا عشرة . قالوا : إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم ، قال : ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير ؟ قال قتادة : إنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان ، أو ما شاء الله من ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن ميمون قال : الأواء الرحيم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : المنيب المقبل إلى طاعة الله . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : المنيب المخلص .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)
وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقُومُ هَؤُلَاءِ
بِنَاقِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨)
قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَدِي
قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ
مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَهُمْ نُنَادَيْنَا عَلَيْهَا فَاغْلِبْهَا وَامْطَرْنَا
عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣).

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ جاءوا إلى لوط ، فلما رأاهم لوط وكانوا في صورة غلمان حسان مرد (سوء بهم) أي ساءه مجيئهم ، يقال ساءه يسوءه ، وأصل سوء بهم سوءهم نقلت حركة الواو إلى السين فقلت الواو ياء ، ولما خفت الهمة أقيت حركتها على الياء . وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو عمرو بإشمام السين الضم (وضاق بهم ذراعاً) قال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة ، وأصله أن البعير يلزع بيده في سيره على قدر سعة خطوه : أي يبسطها ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك ، فجعل قصيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر ، وقيل هو من ذرعه التي : إذا غلبه وضاق عن حبسه . والمعنى أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة في تلك الصورة خوفاً عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط (وقال هذا يوم عصيب) أي شديد . قال الشاعر :

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب

يقال عصيب وعصيب وعصوب على التكثير : أي يوم مكروه يجتمع فيه الشر ، ومنه قيل عصبة وعصابة : أي مجتمع الكلمة ، ورجل معصوب : أي مجتمع الخلق (وجاءه قومه يهرعون إليه) أي جاءوا لوطاً ، بالجملة في محل نصب على الحال . ومعنى يهرعون إليه : يسرعون إليه . قال الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة :

لا يكون الإهرام إلا إسراعاً مع رعدة ، يقال أهرع الرجل إهراعاً : أى أسرع فى رعدة من برد أو غضب أو حمى ، قال مهلهل :

فجاءوا يهرعون وهم أسارى نهودهم على رغم الأنوف

وقيل يهرعون : يهرولون وقيل هو مشى بين الهرولة والعدو . والمعنى : أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة فى تلك الصورة أسرعوا إليه ، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) أى ومن قبل مجيء الرسل فى هذا الوقت كانوا يعملون السيئات ؛ وقيل ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات : أى كانت عادتهم إتيان الرجال ، فلما جاءوا إلى لوط ، وقصدوا أضيافه لذلك العمل ، قام إليهم لوط مدافعاً (وقال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) أى تزوجوهن ، ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافى ، وقد كان له ثلاث بنات ، وقيل اثنتان ، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهن بهن فيمتنع لخبثهم ، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه ، وقيل أراد بقوله (هؤلاء بناتى) النساء جملة ، لأن نبي القوم أب لهم ، وقالت طائفة : إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة . ومعنى (هن أطهر لكم) أى أحل وأتزه ، والتظهر : التزه عما لا يحل ، وليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل ، بل هى مثل «الله أكبر» . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر بنصب أطهر ، وقرأ الباقون بالرفع ، ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره بناتى ، وهن ضمير لفصل ، وأطهر حال . وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا ، لأن ضمير الفصل الذى يسمى عماداً إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيقى) أى اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم ، ولا تذلونى وتجلبوا على العار فى ضيقى ، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، لأنه فى الأصل مصدر ، ومنه قول الشاعر :

لأنعدى الدهر شفار الجازر للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ، والأول أكثر . يقال خزى الرجل خزاية : أى استحيا أو ذل أو هان ، وخزى خزياً : إذا افتضح ، ومعنى فى ضيقى : فى حق ضيقى ، فخرى الضيف خزى للمضيف ، ثم وبخهم فقال (أليس منكم رجل وشيد) يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمتنعكم منه ، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به ، وأرشدهم إليه بقولهم (مالنا فى بناتك من حق) أى مالنا فيهم من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق . ومعنى مانسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الخبيثة كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء ؛ ويمكن أن يريدوا : أنه لاحق لنا فى نكاحهن ، لأنه لا ينكحهن ويتزوج بهن إلا مؤمن ونحن لا نؤمن أبداً ، وقيل إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم ، وكان من سنتهم أن من خطب فرداً فلا تحل المخطوبة أبداً (وإنك لتعلم ما نريد) من إتيان الذكور ، ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه (قال لو أن لى بكم قوة) وجواب لو محذوف ، والتقدير : للدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ، وهذا منه عليه السلام على طريق التمنى : أى لو وجدت معينا وناصرا ، فسمى ما يفتوى به قوة (أو آوى إلى ركن شديد) عطف على ما بعده لما فيه من معنى الفعل ، والتقدير : لو قويت على دفعكم أو آويت إلى ركن شديد . وقرئ «أو آوى» بالنصب عطفاً على قوة كأنه قال : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ، ومراده بالركن الشديد : المشيرة ، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه ، وقيل أراد بالقوة :

الولد ، وبالركن الشديد : من ينصره من غير ولده ، وقيل أراد بالقوة : قوته في نفسه . ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعهم (قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) أخبروه أولاً أنهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم (لن يصلوا إليك) وهذه الجملة موضحة لما قبلها ، لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوه إليه ولم يقتلوا عليه ؛ ثم أمروه أن يخرج عنهم فقالوا له (فأسر بأهلك بقطع من الليل) قرأ نافع وابن كثير بالوصل ، وقرأ غيرهما بالقطع ، وهما لغتان فصيحتان . قال الله تعالى - والليل إذا يسر - وقال - سبحانه الذي أسرى - وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال :

حي النضير وربة الخدر أسرت عليه ولم تكن تسرى

وقيل إن أسرى للمسير من أول الليل ، وسرى للمسير من آخره ، والقطع من الليل : الطائفة منه . قال ابن الأعرابي : بقطع من الليل : بساعة منه ، وقال الأخفش : ينجح من الليل ، وقيل بظلمة من الليل ، وقيل بعد هلو من الليل . قيل إن السرى لا يكون إلا في الليل ، فواجه زيادة بقطع من الليل ؟ قيل لو لم يقل بقطع من الليل لحاز أن يكون في أوله قبل اجتماع الظلمة ، وليس ذلك بمراد (ولا يلتفت منكم أحد) أي لا ينظر إلى ما وراءه ، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره . قيل وجه النهي عن الالتفات أن لا يروا عذاب قومهم ، وهول منازل بهم فيرحومهم ويرقوا لهم ، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات ، فإنه لا بد للملتفت من فترة في سيره (إلا امرأتك) بالنصب على قراءة الجمهور ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالرفع على البدل ، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله (فأسر بأهلك) أي أسر بأهلك جميعاً إلا امرأتك فلا تسربها ، (فإنه مصيبها ما أصابهم) من العذاب ، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة ؛ وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال : لا يصح ذلك إلا برفع يلتفت ويكون نعتاً ، لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيع لها الالتفات وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا العمل من أبي عبيد وغيره على مثل أبي عمرو مع جلالة ومجده من العريية لا يجب أن يكون ، والرفع على البدل له معنى صحيح ، وهو أن يكون استثناء من النهي عن الالتفات : أي لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فلأنها تلتفت وتهلك ؛ وقيل إن الرفع على البدل من أحد ، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف ، فكانه قال : ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك ، فإنها تتخلف ، والملمجى إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين ، والضمير في (إنه مصيبها ما أصابهم) للشأن ، والجملة خبر إن (إن موعدهم الصبح) هذه الجملة تقليل لما تقدم من الأمر بالإسراء والنهي عن الالتفات ، والمعنى : أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة ، والاستفهام في (أليس الصبح بقريب) للإنكار التقريري ، والجملة تأكيد للتعليل . وقرأ عيسى بن عمر (أليس الصبح) بضم الباء وهي لغة ، ولعل جعل الصبح ميقانا هلاكهم لكون النفوس فيه أسكن والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم (فلما جاء أمرنا) أي الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه ، أو المراد بالأمر نفس العذاب (جعلنا عاليها سافلها) أي على قري قوم لوط سافلها ، والمعنى : أنه قلبها على هذه الهيئة ، وهي كون عاليها صار سافلها وسافلها صار عاليها ، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) قيل إنه يقال أمطرنا في العذاب وأمطرنا في الرحمة ؛ وقيل هما لغتان ، يقال مطرت السماء وأمطرت حكى ذلك الهروي ؛ والسجيل : الطين المتحجر بطبخ أو غيره ؛ وقيل هو الشديد الصلب من الحجارة ؛ وقيل السجيل الكثير ؛ وقيل إن السجيل لفظة غير عربية ، أصله سج وجبل ، وهما

بالتقاربة حجروطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا ، وقيل هو من لغة العرب . وذكر المروى : أن السجيل اسم لسماء الدنيا . قال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود ، وقيل هو بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض ، وقيل هي جبال في السماء . وقال الزجاج : هو من التسجيل لم : أى ما كتب لم من العذاب فهو في معنى معين ، ومنه قوله تعالى - وما أدراك ما معين . كتاب مرقوم - وقيل هو من أسجلته إذا أعطيته ، فكأنه عذاب أعطوه ، ومنه قول الشاعر :

من يساجلنى يساجل ماجدا يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ومعنى (منضود) أنه تضد بعضه فوق بعض ، وقيل بعضه في أثر بعض ، يقال تضدت المتاع : إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود وتضيد ، والمسوامة : المعلمة أى التى لها علامة : قيل كان عليها أمثال الخواتيم ، وقيل مكتوب على كل حجر اسم من رى به . وقال القراء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في يابس . فذلك تسويمها ، ومعنى (عند ربك) في خزائنه (وما هي من الظالمين ببعيد) أى وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد ، أو ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ببعيد ، فهم لظلمهم مستحقون لها . وقيل (وما هي) أى قرى (من الظالمين) من كفر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم (ببعيد) فإنها بين الشام والمدينة . وفي إسطار الحجارة قولان : أحدهما أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . والثاني أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجا عنها . ولقد كبر البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجراء له على موصوف مذكر : أى شيء بعيد ، أو مكان بعيد ، أو لكونه مصدرا كالزفير والصهيل ، والمصادر يستوى في الوصف بها المذكر والمؤنث .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا) قال : ساء ظنا بقومه ، وضاق ذرعا بأضيافه (وقال هذا يوم عصيب) يقول : شديد . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله (يهرعون إليه) قال : يسرعون (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) قال : يأتون الرجال . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا قال (يهرعون إليه) يستمعون إليه . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا في قوله (هؤلاء بناتي) قال : ماعرض لوط بناته على قومه لاسفاحا ولا نكاحا ، إنما قال هؤلاء نسلككم ، لأن النبي إذا كان بين ظهري قوم فهو أبوهم ، قال الله تعالى في القرآن - وأزواجه أمهاتهم وهو أبوهم - في قراءة أبي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لم تكن بناته ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن السدي نحوه . قال : وفي قراءة عبد الله - النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم - وأخرج ابن أبي حاتم عن حذيفة بن اليمان قال : عرض عليهم بناته تزويجا ، وأراد أن يبي أضيافه بتزويج بناته . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله (ولا تخزون في ضيقي) قال : لا تنفضحوني . وأخرج ابن أبي حاتم عن أنى مالك (أليس منكم رجل رشيد) قال : رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس (أليس منكم رجل رشيد) قال : واحد يقول لا إله إلا الله . وأخرج أبو الشيخ عن هكرمة مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي (ولأنك لتعلم ما تريد) قال : إنما نريد الرجال (قال) لوط (لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) يقول : إلى جند شديد لمقاتلتكم . وأخرج ابن أبي حاتم

عن ابن عباس أو آوى إلى ركن شديد قال : عشيرة . وقد ثبت في البخارى وغيره من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : يغفر الله للوط إن كان يأوى إلى ركن شديد ، وهو مروى في غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس (بقطع من الليل) قال : جوف الليل . وأخرج عنه قال : بسواد الليل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : بطائفة من الليل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله (ولا يلتفت منكم أحد) قال : لا يتخلف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد في قوله (ولا يلتفت منكم أحد) قال : لا ينظر وراءه أحد (إلا امرأتك) . وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن هارون قال : في حرف ابن مسعود « فأمر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك » . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) قال : لما أصبحوا عدا جبريل على قريبهم فقلعها من أركانها ، ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوائى جناحه بما فيها ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم قلبها ، فكان أول ماسقط منها سرادقها ، فلم يصب قوما ما أصابهم ، ثم إن الله طمس على أعينهم ، ثم قلبت قريبهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل . وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا في كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة ، وليس في ذكرها فائدة لاسيما وبين من قال بشيء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له في مثله إسناد صحيح ، وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب ، وحالم في الرواية معروف . وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم ، فأعرف هذا ، فهو الوجه في حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة في قصص الأنبياء وقومهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وما هي من الظالمين بعباد) قال : يرهب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى في الآية قال : من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبى حاتم عن قتادة قال : من ظلمى هذه الأمة .

وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرِىكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨١) وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَلَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٢) بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٣) قَالُوا يَشُعَيْبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ نَفْعَلْ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٤) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَرَزَقْنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٥) وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ

بِيعِيدِ (٨١) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أَغْرُ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جُثِيمٍ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ (٩٥) .

أى وأرسلنا إلى مدین وهم قوم شعيب أخاهم فی النسب شعيبا ، وسموا مدین باسم أبيهم ، وهو مدین بن إبراهيم ، وقيل باسم مدینتهم . قال النحاس : لا ينصرف مدین لأنه اسم مدینة ، وقد تقدم الکلام علی هذا فی الأعراف بأبسط مما هنا ، وقد تقدم تفسیر (قال یا قوم اعبدوا الله ما لکم من إله غیره) فی أول السورة ، وهذه الجملة مستأنفة ، كأنه قيل : ماذا قال لهم شعيب لما أرسله الله إليهم ؟ وقد كان شعيب علیه السلام یسمى خطیب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، أمرهم أولا بعبادة الله سبحانه الذی هو الإله وحده لا شریک له ، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المکیال والمیزان ، لأنهم كانوا مع کفرهم أهل تطعيف ، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بکیل زائد وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد ، وإذا باعوا باعوا بکیل ناقص ووزن ناقص ، وجملة (إني أراکم بخیر) تعلیل للنهی : أى لا تنقصوا المکیال والمیزان لأنی أراکم بخیر : أى بثروة وسعة فی الرزق فلا تغيروا نعمة الله علیکم بمعصيته والإضرار بعباده ، ففی هذه النعمة ما یغنیکم عن أخذ أموال الناس بغیر حقها ، ثم ذکر بعد هذه العلة علة أخرى ، فقال (وإني أخاف علیکم عذاب یوم محیط) فهذه العلة فیها الإذکار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فیها الإذکار لهم بنعيم الدنيا ، ووصف الیوم بالإحاطة والمراد العذاب ، لأن العذاب واقع فی الیوم ، ومعنی إحاطة عذاب الیوم بهم أنه لا یشد منهم أحد عنه ولا یجدون منه ملجأ ولا مهربا ، والیوم هو یوم القيامة ، وقيل هو یوم الانتقام منهم فی الدنيا بالصيحة ، ثم أكد النهی عن نقص الکیل والوزن بقوله (ویأقوم أوفوا المکیال والمیزان بالقسط) والإیفاء هو الإتمام ، والقسط العدل ، وهو عدم الزیادة والنقص وإن كان الزیادة علی الإیفاء فضل وخیر ، ولكنها فوق ما یفیده اسم العدل ، والنهی عن النقص وإن كان یستلزم الإیفاء فی تعاضد الداللتین مبالغة بلیغة وتأکید حسن ، ثم زاد ذلك تأکیداً فقال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) قد مر تفسیر هذا فی الأعراف ، وفیه النهی عن البخس علی العموم ، والأشياء أعم مما یکال ویوزن فیدخل البخس بتطعيف الکیل والوزن فی هذا دخولا أولیا ، وقيل البخس المكس خاصة ، ثم قال (ولا تعثوا فی الأرض مفسدین) قد مر أيضا تفسیره فی البقرة ، والعثی فی الأرض یشمل کل ما یقع فیها من الإضرار بالناس فیدخل فیها ما فی السیاق من نقص المکیال والمیزان ، وقیده بالحال وهو قوله (مفسدین) لیخرج ما كان صورته من العثی فی الأرض ، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر فی السفينة (بقیت الله خیر لکم) أى ما یبقیه لکم من

الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الأرض ، ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين . وقال مجاهد : بقية الله طاعته . وقال الربيع : وصيته . وقال القراء : مراقبته ، وإنما قيد ذلك بقوله (إن كنتم مؤمنين) لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر ، أو المراد بالمؤمنين هنا المصدقون لشعيب (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من الوقوع في المعاصي من التطفيف والبخس وغيرهما . أو أحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها ، وجملة (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل فإذا قالوا لشعيب ؟ وقرئ (أصلاتك) بالإنفراد ، وأن نترك في موضع نصب . وقال الكسائي : موضعها خفض على إضمار الباء ، ومرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان ، والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به ، لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذي يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتذليل صعوبته كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لا يناسب الصواب : أصدقتك أمرتك بهذا ، وقيل المراد بالصلاة هنا القراءة ، وقيل المراد بها الدين ، وقيل المراد بالصلوات أتباعه ، ومنه المصل الذي يتلو السابق ، وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لم بعبادة الله وحده ، وقولهم (أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن ، ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العشى في الأرض ، وهذه الجملة معطوفة على « ما » في ما يعبد آباؤنا . والمعنى : أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وتأمرك أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والزيادة والنقص . وقرئ (تفعل ما تشاء) بالفوقية فيهما . قال النحاس : فتكون أو على هذه القراءة للعطف على أن الأولى ، والتقدير : أصلواتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء . وقرئ « تفعل » بالنون وما تشاء بالفوقية ، ومعناه : أصلواتك تأمرك أن تفعل نحن في أموالنا ما تشاء أنت وتدع ما تشاء نحن وما يجرى به التراضى بيننا ، ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا (إنك لأنك الحليم الرشيد) على طريقة التهنئة به ، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما ، أو يريدون إنك لأنك الحليم الرشيد عند نفسك وفي اعتقادك ، ومعناهم : أن هذا الذي نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما نعتقد في نفسك من الحلم والرشد ، وقيل إنهم قالوا ذلك لأعلى طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك ، وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم . ولقد تقدم تفسير الحلم والرشد ، وجملة (قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي) مستأنفة كالجمل التي قبلها ، والمعنى : أخبروني إن كنت على حجة واضحة من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه (ورزقني منه) أي من فضله وخزائنه ملكه (رزقا حسنا) أي كثيرا واسعا حلالا طيبا ، وقد كان عليه السلام كثير المال ، وقيل أراد بالرزق النبوة ، وقيل الحكمة وقيل العلم ، وقيل التوفيق ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره : أترك أمركم ونهيكم أو أقولون في شأن ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أي وما أريد بنهيكم عن التطفيف والبخس أن أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله دونكم ، يقال خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه ، وخالفته عن كذا في عكس ذلك (إن أريد إلا الإصلاح) أي ما أريد بالإصلاح والنهي إلا الإصلاح لكم ودفع الفساد في دينكم ومعاملاتكم (ما استطعت) ما بلغت إليه استطاعتي ، وتمكنت منه طاقتي (وما توفيتي إلا بالله) أي ما صرت موقفا هاديا نبيا مرشدا إلا بتأييد الله سبحانه وإقداري عليه ومنحي إياه (عليه توكلت) في جميع أمورى التي منها أمركم ونهيكم (وإليه أنيب) أي أرجع في كل ما نابني من الأمور وأفوض جميع أمورى إلى ما يختاره لي من قضائه وقدره . وقيل معناه : وإليه أرجع في الآخرة . وقيل إن الإنابة الدعاء ، ومعناه : وله أدهوا . قوله (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى) قال الزجاج : معناه لا يكسبنكم شقاقا إصابة العذاب

إياكم كما أصاب من كان قبلكم ، وقيل معناه : لا يحملنكم شقاي ، والشقاق العداوة ، ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ عني رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق

و (أن يصيبكم) في محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الفرق (أو قوم هود) من الربيع (أو قوم صالح) من الصبيحة ، وقد تقدم تفسير يجرمنكم وتفسير الشقاق (وما قوم لوط منكم بعيد) يحتمل أن يريد ليس مكانهم بعيد من مكانكم ، أو ليس زمانهم بعيد من زمانكم أو ليسوا بعيد منكم في السبب الموجب لعقوبتهم ، وهو مطلق الكفر ، وأفرد لفظ (بعيد) لمثل ما سبق في (وما هي من الظالمين بعيد) ثم بعد ترهيبهم بالعلاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم وودود) وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه في أول السورة ، وتقدم تفسير الرحيم ، والمراد هنا أنه عظيم الرحمة للتائبين ، والودود المحب . قال في الصحاح : وددت الرجل أودّه ودّا : إذا أحببته ، والودود المحب ، والودّ والودّ : الودّ : المحبة ، والمعنى هنا : أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يودّه من اللطف به وشوق الخير إليه ودفع الشر عنه . وفي هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة ، وجملة (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) مستأنفة كالجمل السابقة ، والمعنى : أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفقه ذلك : أي نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة . فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازا ، وقيل قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم ، فلا يكون نفي الفقه حقيقة بل مجازا ، يقال فقه يفقه : إذا فهم فقهها وفقها ، وحكى الكسائي فقهانا ، ويقال فقه فقها : إذا صار فقها (وإنا لراك فينا ضعيفا) أي لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا . وقيل المراد أنه ضعيف في بدنه قاله علي بن عيسى : وقيل إنه كان مصابا ببصره . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف : أي قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له ضرير : أي قد ضرّ بذهاب بصره ، وقيل الضعيف المهين ، وهو قريب من القول الأول (ولولا رهطك لرجمناك) رهط الرجل عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم ، ومنه الراهط بالحجر اليربوع ، لأنه يتوثق به ويحبا فيه ولده ، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة ، وإنما جعلوا رهطه مانعا من إنزال الضرر به مع كونهم في قلة والكفار ألوف مؤلفة . لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراماً لم لا خوفا منهم ، ثم أكلوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم (وما أنت علينا بعزيز) حتى نكفّ عنك لأجل عزتك عندنا ، بل تركنا رجمك لغزة رهطك علينا ، ومعنى لرجمناك لقتلناك بالرجم وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة وقيل معنى لرجمناك لشتمنناك ، ومنه قول الجعدي :

تراجنا بمرّ القول حتى نصير كأننا فرسا رهان

ويطلق الرجم على اللعن ، ومنه الشيطان الرجيم ، وجملة (قال يا قوم أرهطى أعزّ عليكم من الله) مستأنفة ، وإنما قال أعزّ عليكم من الله ، ولم يقل أعزّ عليكم مني ، لأن نفي العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إلقاء الضمير حرف النفي استهانة به ، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل . فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعزّ عليه من الله ، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه وألزمهم مالا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام . وفي هذا من قوة الحاجة ووضوح المجادلة وإلقاء الخصم الحجر ما لا يخفى ، ولأمر ما سمى شعيب خطيب الأنبياء ، والضمير في (واتخذتموه) راجع إلى الله سبحانه . والمعنى : واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه

الذي أرسله إليكم (وراءكم ظهريا) أى منبوذا وراء الظهر لاتبالون به ، وقيل المعنى : واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم ، وهو ما جئتمكم به وراء ظهوركم ، يقال : جعلت أمره بظهر : إذا قصرت فيه . و (ظهريا) منسوب إلى الظهر ، والكسر لتغيير النسب (إن ربى بما تعملون محيط) لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون) لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم ، وعدم تأثير الموعظة فيهم توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكثهم ونهاية استطاعتهم ، يقال مكن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن . وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له ، ثم بالغ في التهديد والوعيد بقوله (سوف تعلمون) أى عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده ، وقد تقدم مثله في الأنعام (من يأتيه عذاب يخزيه) من في محل نصب بتعلمون : أى سوف تعلمون من هو الذي يأتيه العذاب الخزي الذي يتأثر عنه اللذات والقضيحة والعار (ومن هو كاذب) معطوف على من يأتيه ، والمعنى : ستعلمون من هو الملعذب ومن هو الكاذب ؟ وفيه تعريض بكذبهم في قولهم : « لولا رمطك لرجناك وما أنت علينا بعزير » ، وقيل إن من مبتدأ وما بعدها صلها ، والخبر محذوف ، والتقدير : من هو كاذب فسيعلم كذبه ويلوق وبال أمره . قال القراء : إنما جاء به في « من هو كاذب » لأنهم لا يقولون من قائم : إنما يقولون من قام ، ومن يقوم ، ومن القائم ، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قول الشاعر :

من رسولى إلى الثريا فلانى ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

(وارتقبوا إني معكم رقيب) أى انتظروا إني معكم منتظر لما يقضى به الله بيننا (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه) أى لما جاء عذابنا أو أمرنا بعذابهم نجينا شعيبا وأتباعه الذين آمنوا به (برحمة منا) لهم بسبب إيمانهم ، أو برحمة منا لهم : وهى هدايتهم للإيمان (وأخذت الذين ظلموا) غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر (الصبيحة) التى صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم ، وفي الأعراف - فأخذتهم الرجفة - وكذا في العنكبوت . وقد قدمنا أن الرجفة الزلزلة ، وأنها تكون تابعة للصبيحة لتتوَج الهوى المفضى إليها (فأصبحوا في ديارهم جائعين) أى ميتين . وقد تقدم تفسيره وتفسير (كأن لم يغنوا فيها) قريبا ، وكذا تفسير (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ (كما بعدت ثمود) بضم العين . قال المهدوى : من ضم العين من بعدت فهى لغة يستعمل في الخير والشر ، وبعدت بالكسر على قراءة الجمهور يستعمل في الشر خاصة ، وهى هنا بمعنى اللعنة .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (إني أراكم بخير) قال : رخص السعر (وإني أخاف عليكم عذاب يوم محبط) قال : غلاء السعر . وأخرج ابن جرير عنه (بقية الله) قال : رزق الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (بقية الله خير لكم) يقول : حظكم من ريبكم خير لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : طاعة الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الأعمش في قوله (أصلواتك تأمرك) قال : أقرأئك . وأخرج ابن عساکر عن الأحنف : أن شعيبا كان أكثر الأنبياء صلاة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله (أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء) قال : نهاهم عن قطع هذه الدناتير والدراهم فقالوا : إنما هى أموالنا نفعل فيها ما نشاء ، إن شئنا قطعناها ، وإن شئنا أحرقناها ، وإن شئنا طرحناها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن

كعب نحوه . وأخرجنا عن زيد بن أسلم نحوه أيضا . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن المنذر وأبو الشيخ وعبد بن حميد عن سعيد بن المسيب نحوه أيضا . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال : يقولون إنك لست بحليم ولا رشيد . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : استهزاء به . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله (ورزقني منه رزقا حسنا) قال : الحلال . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) قال : يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر ولركبته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (وإليه أنيب) قال : إليه أرجع . وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عليّ قال : قلت : يا رسول الله أوصني ، قال : قل الله ربّي ثم استقم ، قلت : ربّي الله وما توفّقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، قال : ليبتك العلم أبا الحسن ، لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا ، وفي إسناده محمد بن يوسف الكديمي . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (لا يجرمنكم شقاق) لا يحملنكم فراق . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : شقاق عداوتي . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السديّ قال : لا تحملنكم عداوتي . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (وما قوم لوط منكم يبيعد) قال : إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وثمود . وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير (وإنا لئراك فينا ضعيفا) قال : كان أعمى ، وإنما عُمي من بكائه من حبّ الله عزّ وجلّ . وأخرج الواحدي وابن عساكر عن شدّاد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « بكى شعيب عليه السلام من حبّ الله حتى عُمي » . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس في قوله (وإنا لئراك فينا ضعيفا) قال : كان ضريب البصر . وأخرج أبو الشيخ عن أبي صالح مثله . وأخرج أبو الشيخ عن سفيان في قوله (وإنا لئراك فينا ضعيفا) قال : كان أعمى ، وكان يقال له خطيب الأنبياء . وأخرج أبو الشيخ عن السديّ قال : معناه إنما أنت واحد . وأخرج أبو الشيخ عن عليّ بن أبي طالب أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب (وإنا لئراك فينا ضعيفا) قال : كان مكفوقا ، فنسبوه إلى الضعف (ولولا رهطك لرجمناك) قال عليّ : فوالله الذي لا إله غيره ماهابوا جلال ربهم ماهابوا إلا العشيرة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (واتخذتموه وراءكم ظهريا) قال : نبذتم أمره . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال في الآية : لا تخافونه . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : نهاونتم به .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرُ
فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ
الْمُرْوَدُ (٩٨) وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا
أَخَذَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ
تَتَّبِعِ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَلِيلَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٢) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعْتَدٍ (١٠١) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) .

المراد بالآيات التوراة ، والسلطان المبين : المعزات ، وقيل المراد بالآيات هي التسع المذكورة في غير هذا الموضع ، والسلطان المبين : العصا ، وهي وإن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر ، وقيل المراد بالآيات ما يفيد الظن ، والسلطان المبين ما يفيد القطع بما جاء به موسى ، وقيل هما جميعا عبارة عن شيء واحد : أي أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية ، وكونه سلطانا مبينا ، وقيل إن السلطان المبين : ما أورده موسى على فرعون في المحاورة بينهما (إلى فرعون وملاته) أي أرسلناه بذلك إلى هؤلاء . وقد تقدم أن الملائكة أشرف القوم ، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم ، لأنهم أتباع لهم في الإصدار والإيراد ، وخص هؤلاء الملائكة دون فرعون بقوله (فاتبعوا أمر فرعون) أي أمره لم بالكفر ، لأن حال فرعون في الكفر أمر واضح ، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره ، ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه وطريقته فيم الكفر وغيره (وما أمر فرعون برشيد) أي ليس فيه رشد قط ، بل هو غي وضلال ، والرشيد بمعنى المرشد ، والإسناد مجازي ، أو بمعنى ذي رشد ، وفيه تعريض بأن الرشد في أمر موسى (يقدم قومه يوم القيامة) من قلعه بمعنى تقدمه : أي يصير متقدما لهم يوم القيامة سابقا لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدمهم في الدنيا (فأوردتهم النار) أي إنه لا يزال متقدما لهم وهم يتبعونه حتى يوردتهم النار ، وعبر بالماضي تنبيها على تحقق وقوعه ، ثم ذم الورد الذي أوردتهم إليه ، فقال (وبئس الورد المورود) لأن الوارد إلى الماء الذي يقول له الورد ، إنما يرد ليطلق حر العطش ، وينهب ظمأه ، والنار على ضد ذلك ، ثم ذمهم بعد ذم المكان الذي يردونه ، فقال (وأتبعوا في هذه لعنة) أي أتبع قوم فرعون مطلقا ، أو الملائكة خاصة ، أوهم وفرعون في هذه الدنيا لعنة عظيمة : أي طردا وإبعادا (ويوم القيامة) أي وأتبعوا لعنة يوم القيامة بلعنهم أهل المحشر جميعا ، ثم إنه جعل اللعنة رفدا لهم على طريقة التكلم ، فقال (بئس الرفد المرفود) . قال الكسائي وأبو عبيدة : رفدته أرفده رفدا : أمته وأعطيته ، واسم العطية الرفد : أي بئس العطاء ، والإهانة ما أعطوهم إياه ، وأعانوهم به ، والمخصوص بالذم محذوف : أي رفدتم ، وهو اللعنة التي أتبعوها في الدنيا والآخرة كأنها لعنة بعد لعنة تمتد الأخرى الأولى وتؤيدها . وذكر الماوردي حكاية عن الأصمعي أن الرفد بالفتح : القدح ، وبالكسر : مافيه من الشراب فكانه ذم ما يستقونه في النار ، وهذا أنسب بالمقام ، وقيل إن الرفد الزيادة : أي بئس ما يرفدون به بعد الغرق ، وهو الزيادة قاله الكلبي ، والإشارة بقوله (فلك من أنباء القرى نقصه عليك) أي ناقصه الله سبحانه في هذه السورة من أخبار الأمم السالفة وما فعلوه مع أنبيائهم : أي

هو مقصود عليك خبر بعد خبر ، وقد تقدم تحقيق معنى القصص ، والضمير في منها عائد إل القرى : أى من القرى قائم ، ومنها حصيد ، والقائم : ما كان قائماً على عروشه ، والحصيد : ما لا أثر له ، وقيل القائم : العامر ، والحصيد : الخراب ، وقيل القائم : القرى الخاوية على عروشها ، والحصيد : المستأصل بمعنى محصود . شبه القرى بالزرع القائم على ساقه والمقطوع . قال الشاعر :

والناس في قسم المنية بينهم كالزرع منه قائم وحصيد

(وما ظلمناهم) بما فعلنا بهم من العذاب (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي (فما أغنت عنهم آلهم) أى فما دفعت عنهم أصنامهم التى يعبدونها من دون الله شيئاً من العذاب (لما جاء أمر ربك) أى لما جاء عذابه (وما زادوهم غير تنبيب : الهلاك والخسران : أى ما زادتهم الأصنام التى يعبدونها إلا هلاكاً وخسراناً ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع (وكذلك أخذ ربك) قرأ الجحدري وطلحة بن مصرف : وأخذ ، على أنه فعل ، وقرأ غيرهما : أخذ ، على المصدر (إذا أخذ القرى وهى ظلمة) أى أهلها وهم ظالمون (إن أخذه) أى عقوبته للكافرين (أليم شديد) أى موجه غليظ (إن فى ذلك لآية) أى فى أخذ الله سبحانه لأهل القرى ، أو فى القصص الذى قصه على رسوله لعبرة وموعظة (لمن خاف عذاب الآخرة) لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ، ويتعظون بالمواعظ . والإشارة بقوله (ذلك يوم مجموع له الناس) إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة (وذلك) أى يوم القيامة (يوم مشهود) أى يشهده أهل المحشر ، أو مشهود فيه الخلائق ، فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول (وما تؤخره إلا لأجل معدود) أى وما تؤخر ذلك اليوم إلا لانهاء أجل معدود معلوم بالعدد ، قد عين الله سبحانه وقوع الجزاء بعده (يوم يأت) قرأ أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بإثبات الياء فى الدرج ، حذفها فى الوقف . وقرأ أبى وابن مسعود بإثباتها وصلوا ووقفوا . وقرأ الأعمش بحذفها فيهما . ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائي أن الفعل السالم يوقف عليه كالحزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة . ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رسم المصحف كذلك ، وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول لا أدر ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر ، وأنشد القراء فى حذف الياء :

كفك كف ما تليق درهما جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما

قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء ، وللعنى : حين يأتى يوم القيامة (لا تكلم نفس) أى لا تتكلم حلفت إحدى التامين تخفيفاً : أى لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام ، وقيل لا تكلم بحجة ولا شفاعاً (إلا بإذنه) سبحانه لها فى التكلم بذلك ، وقد جمع بين هذا وبين قوله - هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون - باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة . وقد تكرر مثل هذا الجمع فى مواضع (فمنهم شقى وسعيد) أى من الأنفس شقى ومنهم سعيد ، فالشقى من كتب عليه الشقاوة ، والسعيد من كتبت له السعادة ، وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام تحذير (فأما الذين شقوا فى النار لم فيها زفير وشهيق) أى فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فستقرّون فى النار لم فيها زفير وشهيق . قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين ، وهو المرتفع جداً . قال : وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير ، والشهيق بمنزلة آخره ، وقيل الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف ، وقيل الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : رد النفس ، وقيل الزفير من الصدر ، والشهيق من الحلق ، وقيل الزفير : ترديد النفس من شدة الخوف . والشهيق : النفس الطويل الممتد ،

والحملة إما مستأنفة كأنه قيل ما حالهم فيها ؟ أو في محل نصب على الحال (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) أى مدة دوامهما .

وقد اختلف العلماء في بيان معنى هذا التوقيت ، لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأييد عذاب الكفار في النار وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أيضا أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فقالت طائفة : إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة في دوام الشيء ، قالوا : هو دائم مادامت السموات والأرض . ومنه قولهم : لا آتيك ما جنّ ليل . وما اختلف الليل والنهار ، ومانح الحمام ونحو ذلك . فيكون معنى الآية : أنهم خالدون فيها أبدا لا انقطاع لذلك ولا انتهاء له ؛ وقيل إن المراد سموات الآخرة وأرضها ، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضا غير هذه الموجودة في الدنيا ، وهى دائمة بدوام دار الآخرة ، وأيضا لا بدّ لهم من موضع يقلمهم وآخر يظلمهم ، وهما أرض وسما . قوله (إلا ما شاء ربك) قد اختلف أهل العلم في معنى هذا الاستثناء على أقوال : الأول أنه من قوله (ففى النار) كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك . روى هذا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدرى . [الثانى أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين ، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله سبحانه (فأما الذين شقوا) عاما في الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من خالدين ، وتكون ما بمعنى من . وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم . الثالث أن الاستثناء من التقيير والشيق : أى لم فيها زفير وشيق (إلا ما شاء ربك) من أنواع العذاب غير الزفير والشيق قاله ابن الأنبارى . الرابع أن معنى الاستثناء : أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض لا يموتون إلا ما شاء ربك ، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا ، ثم يجدّد الله خلقهم ؛ روى ذلك عن ابن مسعود . الخامس أن إلا بمعنى سوى . والمعنى مادامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود ، كأنه ذكر في خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه . ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له حكاه الزجاج . السادس ما روى عن الفراء وابن الأنبارى وابن قتيبة من أن هذا لا ينافى عدم المشيئة كقولك : والله لأضربه إلا أن أرى غير ذلك ، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التى شاء الله . فالمشيئة قد حصلت جزما . وقد حكى هذا القول الزجاج أيضا . السابع أن المعنى : خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم في قبوركم وللحساب حكاه الزجاج أيضا . الثامن أن المعنى : خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم ، حكاه أيضا الزجاج ، واختاره الحكيم الترمذى . التاسع أن إلا بمعنى الواو قاله الفراء ؛ والمعنى وما شاء ربك من الزيادة ؛ قال مكى : وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو . العاشر أن إلا بمعنى الكاف . والتقدير : كما شاء ربك ، ومنه قوله تعالى - ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف - أى كما قد سلف . الحادى عشر أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذى تدب إليه الشارع في كل كلام فهو على حدّ قوله - لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين - روى نحو هذا عن أبي عبيد ، وهذه الأقوال هى جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم . وقد نوقش بعضها بمناقشات ، ودفعت بدقوعات . وقد أوضحت ذلك في رسالة مستقلة جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام . (وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض) قرأ الأعمش وحفص وحزّة والكسائي سعدوا ، بضم السين ، وقرأ الباقر بفتح السين . واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال سيوريه : لا يقال سعد فلان كما لا يقال شق فلان لكونه مما لا يتعدى

قال النحاس : ورأيت علي بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائي بضم السين مع علمه بالعربية ، وهذا لحن لا يجوز ، ومعنى الآية كما مر في قوله (فأما الذين شقوا) . قوله (إلا ما شاء ربك) قد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه (عطاء غير مجلود) أي يعطيهم الله عطاء غير مجلود ، والمجلود : المقطوع ، من جذه يجلده إذا قطعه ، والمعنى : أنه ممتد إلى غير نهاية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (يقدم قومه يوم القيامة) يقول : أصلهم فلوردهم النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : فرعون يمضي بين أيدي قومه حتى يهجم بهم على النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله (فلوردهم النار) قال : الورود الدخول . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (ينس الولد المرفود) قال : لعنة الدنيا والآخرة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه (منها قائم وحصيد) يعني قرى عامرة وقرى خاملة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة : منها قائم يرى مكانه ، وحصيد لا يرى له أثر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج : منها قائم خاو على عروشه ، وحصيد ملصق بالأرض . وأخرج أبو الشيخ عن أبي حاتم (لما أخت عنهم) قال : ماتفت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عمر في قوله (وما زادهم غير تنيب) أي هلكة . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : تخسير . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة معناه . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله سبحانه وتعالى ليمل للظلم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) يقول : إنا سوف نرى لهم بما وعدناهم في الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا نصرهم . وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) قال : يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (يوم يأت) قال : ذلك اليوم . وأخرج الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : « لما نزلت (فمنهم شقي وسعيد) قلت : يا رسول الله فعلام نعمل على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ؟ قال : بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام ياعمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له » . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : هاتان من المصائب قول الله - فمنهم شقي وسعيد - و- يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا - أما قوله (فمنهم شقي وسعيد) فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم ، ثم يأذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة ، فسماهم أشقياء حين عذبهم في النار (وأما الذين شقوا في النار لم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) حين أذن في الشفاعة لهم وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم (وأما الذين سعدوا) يعني بعد الشقاء الذي كانوا فيه (في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) يعني الذين كانوا في النار . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة أنه تلا هذه الآية (فأما الذين شقوا) فقال : حدثنا أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء : إن من دخلها يقي فيها » . وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فأما الذين شقوا) إلى قوله (إلا ما شاء ربك) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن شاء الله أن يخرج أناسا من

الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن خالد بن معدان في قوله (إلا ما شاء ربك) قال : إنها في التوحيد من أهل القبلة . وأخرج عبد الرزاق وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله . أو عن أبي سعيد الخدري أو رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله (إلا ما شاء ربك) قال : هذه الآية قاضية على القرآن كله . يقول حيث كان في القرآن خالدين فيها تأتي عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن أبي نضرة قال : انتهى القرآن كله إلى هذه الآية (إن ربك فعال لما يريد) . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله (مادامت السموات والأرض) قال : لكل جنة سماء وأرض . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج البيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس في قوله (إلا ما شاء ربك) قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء في النار وأن يخلد هؤلاء في الجنة . وأخرج ابن جرير عنه في قوله (إلا ما شاء ربك) قال : استثنى الله من النار أن تأكلهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدي في الآية قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها . فأنزل بالمدينة - إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا - إلى آخر الآية ، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها . وأوجب لهم خلود الأبد . وقوله (وأما الذين سعدوا) الآية . قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها . فأنزل بالمدينة - والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات - إلى قوله - ظلا ظليلا - فأوجب لهم خلود الأبد . وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر : لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه . وأخرج إسحق بن راهويه عن أبي هريرة قال : سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد ، وقرأ (فأما الذين شقوا) الآية . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال : ما في القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) . قال : وقال ابن مسعود « ليأتين عليها زمان تحقق أبوابها » . وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : « جهنم أسرع الدارين عمرا » وأسرعهما خرابا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله (إلا ما شاء ربك) قال الله أعلم بتثنيته على ما وقعت . وقد روى عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر وأبو هريرة وابن مسعود كابن عباس وعبد الله بن عمر وجابر وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما من التابعين . وورد في ذلك حديث في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي . وإسناده ضعيف . ولقد تكلم صاحب الكشاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة . وفي السكوت عنه غنى ، فقال : ولا يحد عنك قول الهجرة إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار . فإن الاستثناء الثاني ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم ، وما ظنك بقوم يلدوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثوابت عن ابن عمرو : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد . ثم قال : وأقول ما كان لابن عمرو في سيفه ومقاتلته بهما على بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى .

وأقول : أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار . فالقائل بذلك يمسكين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما صبح عنه في دواوين الإسلام التي هي دقاتر السنة المطهرة . وكما صبح عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر ؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة . وأتى مانع من حمل الاستثناء على هذا الذي جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف ؛ وأما ما ظننته من أن الاستثناء الثاني ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا

متابعة ولا مخالفة ، وأى مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمة . فالاستثناء الأول يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من خروج العصاة من هذه الأمة من النار ، والاستثناء الثاني يحمل على معنى إلا ما شاء ربك من عدم خلودهم في الجنة كما يخلد غيرهم ، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التي لبثوا فيها في النار ؛ وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره ، وبه قال ابن عباس حبر الأمة . وأما الطعن على صاحب رسول الله وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضى الله عنه ، فإلى أين يا محمود ، أتدرى ما صنعت ، وفي أى واد وقعت ، وعلى أى جنب سقطت ؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيدك القصيرة ورجلك المرجاء ، أما كان لك في مكسرى طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لاتعرف والتكلم بما لاتدرى ، فيالله العجب ما يفعل القصور في علم الرواية والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَغْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) .

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء ، سلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بشرح أحوال الكفرة من قومه في ضمن النهى له عن الامتراء في أن ما يعبدونه غير نافع ولا ضار ولا تأثير له في شيء . وحذف التون في لا تلك ، لكثرة الاستعمال ، والمرية : الشك ، والإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل المعنى : لا تلك في شك من بطلان ما يعبد هؤلاء ، وقيل لا تلك في شك من سوء عاقبتهم . ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني ، وهذا النهى له صلى الله عليه وآله وسلم هو تعريض لغيره ممن يداخله شيء من الشك ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يشك في ذلك أبدا . ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كعبودات آبائهم ، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل ، وفي هذا استثناء تعليل للنهى عن الشك . والمعنى : أنهم سواء في الشرك بالله وعبادة غيره . فلا يكن في صدرك حرج مما تراه من قومك ، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك ، وجاء بالمضارع في كما يعبد آبائهم لاستحضار الصورة . ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال (وإنا لموقفهم نصيبهم) من العذاب كما وفينا آبائهم لا ينقص من ذلك شيء . وانتصاب غير الحال . والتوفية لاستلزام عدم

النقص . فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص كما يجوز أن يوفى وهو كامل ؛ وقيل المراد نصيبهم من الرزق . وقيل ما هو أعم من الخير والشر (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف فيه) أى فى شأنه وتفصيل أحكامه . فأمن به قوم وكفر به آخرون . وعمل بأحكامه قوم . وترك العمل ببعضها آخرون . فلا يضيق صبرك يا محمد بما وقع من هؤلاء فى القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) أى لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح لقضى بينهم : أى بين قومك : أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين . فأثيب الحق وعذب المبطل ؛ أو الكلمة هى أن رحمة سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك ؛ وقيل إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ثم وصفهم بأنهم فى شك من الكتاب فقال (وإنهم لى شك منه مريب) أى من القرآن إن حمل على قوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم . أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام ، والمريب : الموقع فى الريبة . ثم جمع الأولين والآخرين فى حكم توفية العذاب لهم ، أو هو والثواب فقال (وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم) قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر « وإن » بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقلية وعملت فى كلا النصب ، وقد جوز عملها الخليل وسيبويه . وقد جوز البصريون تخفيف إن مع إعمالها ، وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شيء قرئ « وإن كلا » ؟ وزعم الفراء أن انتصاب كلا بقوله ليوفينهم ، والتقدير وإن ليوفينهم كلا ، وأنكر ذلك عليه جميع النحويين . وقرأ الباقر بتشديد « إن » ونصبوا بها كلا . وعلى كلا القراءتين فالتنوين فى كلا عوض عن المضاف إليه : أى وإن كل المختلفين . وقرأ عاصم وحمة وابن عامر « لما » بالتشديد ، وخففها الباقر . قال الزجاج : لام لما لام إن ، وما زائدة مؤكدة ، وقال الفراء : ما بمعنى من كقوله - وإن منكم لمن ليبطئن - أى وإن كلا لمن ليوفينهم ؛ وقيل ليست بزائدة بل هى اسم دخلت عليها لام التوكيد ، والتقدير : وإن كلا لمن خلق . قيل وهى مركبة ، وأصلها لمن ما ، فقلبت النون ميما واجتمعت ثلاث ميات فحذفت الوسطى حكى ذلك النحاس عن النحويين . وزيف الزجاج هذا وقال : من اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون . وذهب بعض النحويين إلى أن لما هذه بمعنى إلا ، ومنه قوله تعالى - إن كل نفس لما عليها حافظ - وقال المازنى : الأصل لما المخففة ثم ثقلت . قال الزجاج : وهذا خطأ ، إنما يخفف المثل ولا يثقل الخفف . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : يجوز أن يكون التشديد من قولهم لمت الشيء ألمه : إذا جمعته ، ثم بنى منه فعلى كما قرئ - ثم أرسلنا رسلنا تترى - وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية . وقد روى ذلك عن الخليل وسيبويه وجميع البصريين ورجحه الزجاج ويؤيده أن فى حرف أبى « وإن كلا إلا ليوفينهم » كما حكاه أبو حاتم عنه . وقرئ بالتنوين : أى جميعا . وقرأ الأعشى « وإن كل لما » بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما ، وتكون إن على هذه القراءة نافية (إنه بما يعملون) أيها المختلفون (خير) لا يخفى عليه منه شيء ، والجملة تعليل لما قبلها ، ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال (فاستقم كما أمرت) أى كما أمرك الله ، فدخل فى ذلك جميع ما أمر به وجميع ما نهاه عنه ، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه ، كما أمره بفعل ما تعبد به بفعله ، وأمره أسوته فى ذلك ، ولهذا قال (ومن تاب معك) أى رجع من الكفر إلى الإسلام وشاركك فى الإيمان . وهو معطوف على الضمير فى فاستقم ، لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد : أى وليستقم من تاب معك وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها ، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة والنوات المقدسة ، ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم « شيتنى هود » كما تقدم (ولا تطغوا) الطغيان

وأيضا الحد ، لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الخلوة في العبادة والإفراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حدّه والمقدار الذي قدره ممنوع منه منهي عنه ، وذلك كمن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل ولا ينام ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه ، ولهذا يقول الصادق المصنوق فيما صح عنه : أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأنكح النساء ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني . والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأئمة تخطبوا لحاكم على حاله ، أو النهي عن الطغيان خاص بالأئمة (إنه بما تعملون بصير) يجازيكم على حسب ما تستحقون ، والجملة تعليل لما قبلها بقوله (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) . قرأ الجمهور بفتح الكاف . وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة وغيرهما (تركنوا) بضم الكاف . قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . قال أبو عمرو : وقراءة الجمهور هي لغة أهل الحجاز ، قال : ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف . وهم يكسرون حرف المضارعة في كل ما كان من باب علم يعلم . وقرأ ابن أبي عمير بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه . قال في الصحاح : ركن إليه يركن بالضم . وحكى أبو زيد ركن إليه بالكسر يركن ركونا فيهما : أي مال إليه وسكن قال الله تعالى - ولا تركنوا إلى الذين ظلموا . وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فلأنما هو على الجمع بين اللغتين انتهى . وقال في شمس العلوم : الركون السكون يقال ركن إليه ركونا ، قال الله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) انتهى . وقال في القاموس : ركن إليه كنصر وعلم ومنع ركونا : مال وسكن انتهى ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشف حيث قال : فإن الركون هو الميل اليسير ، وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشف ؛ ومن المفسرين من ذكر في تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة . قال القرطبي في تفسيره : الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به . ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوي . فروى عن قتادة وعكرمة في تفسير الآية أن معناها : لا تؤدبهم ولا تطيعوهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية : الركون هنا الإدهان . وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم : وقال أبو العالية : معناه لا ترضوا أعمالهم .

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين في هذه الآية هل هي خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقليل خاصة . وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين ، وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فإن قلت : وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عند التواتر الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثبوتا لا يفتي على من له أدلى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد في بعض ألفاظ الصحيح : أطيعوا السلطان وإن كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة . وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة ، وما لم يظهر منهم الكفر البواح ، وما لم يأمرؤا بمعصية الله . وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا في الظلم إلى أعلى مراتبه ، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح ، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرؤن به تولى الأعمال لهم ، والدخول في المناصب الدينية التي ليس الدخول فيها من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرؤن به الجهاد . وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا ، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم ، وإقامة الحدود على من وجبت عليه ؛ وبالحملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم في كل ما يأمرؤن به مما لم يكن من معصية الله ، ولا بد في مثل

ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم . ونحو ذلك مما لا بد منه . ولا يحصى عن هذا الذى ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيد المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به ، بل قد ورد به الكتاب العزيز - وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم - بل ورد أنهم يعطون الذى لهم من الطاعة ، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما فى بعض الأحاديث الصحيحة ، أعطوهم الذى لهم ، وأسألوا الله الذى لكم ، بل ورد الأمر بطاعة السلطان ، وبإلغ فى ذلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى قال : « وإن أخذ مالك وضرب ظهرك » . فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فجرد هذه الطاعة للأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هى ميل وسكون : وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهى فى هذه الآية من مال إليهم فى الظاهر لأمر يقتضى ذلك شرعا كالطاعة ، أو للتقية ومخافة الضرر منهم ، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة ، إذا لم يكن له ميل إليهم فى الباطن ولا محبة ولا رضا بأفعالهم . قلت : أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن فى معصية الله ، فهى على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهى عنه بأدلتها التى قدّمنا الإشارة إليها ، ولا شك فى هذا ولا ريب ، فكل من مروء ابتداء أن يدخل فى شيء من الأعمال التى أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه ، فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائز له . وأما ما ورد من النهى عن الدخول فى الإمارة ، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلطين والأمراء جمعا بين الأدلة ، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به كما ورد تعليل النهى عن الدخول فى الإمارة بذلك فى بعض الأحاديث الصحيحة ، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم ، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا ، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد . والأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى ، ولا تحق على الله خافية ، وبالحملة فمن ابتلى بمخالطة من نيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتى وما يذر بميزان الشرع ، فإن زاغ عن ذلك فعلى نفسه براقش تجنى ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهنم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له والأليق به .

يامالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وقونا على ذلك وبسره لنا ، وأعنا عليه . قال القرطبي فى تفسيره : وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار انتهى . وقال النيسابورى فى تفسيره : قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة ، أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ، ومشاركتهم فى شيء من تلك الأبواب : فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخله فى الركون . قال : وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية - أليس الله بكاف عبده - انتهى .

قوله (فتمسك النار) بسبب الركون إليهم ، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار ، أو كالنار ، ومصاحبة النار توجب لامحالة مس النار ، وجملة (وما لكم من دون الله من أولياء) فى محل نصب على الحال من قوله : فتمسك النار . والمعنى : أنها تمسككم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها (ثم لاتنصرون) من جهة الله سبحانه ، إذ قد سبق فى علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذى نهىم عنه فلم تنتهوا عنادات وتمردا . قوله (وأقم الصلاة طرفى النهار) لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان ، وانتصاب طرفى النهار على الظرفية . والمراد صلاة الغداة والعشى . وهما الفجر والعصر ، وقيل الظهر موضع العصر ، وقيل الطرفان الصبح والمغرب . وقيل هما الظهر والعصر . ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب . قال : والدليل عليه إجماع

لجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب (وزلفا من الليل) أى فى زلف من الليل ، وزلف : الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما « زلفا » بضم اللام جمع زليف ، ويجوز أن يكون واحده زلفة . وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام . وقرأ مجاهد « زلنى » مثل فعلى . وقرأ الباقر « زلفا » بفتح اللام كغرفة وغرف . قال ابن الأعرابي : الزلف الساعات واحدها زلفة . وقال قوم : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس . قال الأخفش : معنى زلفا من الليل : صلاة الليل (إن الحسنات يذهبن السيئات) أى إن الحسنات على العموم ، ومن جعلها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم ؛ وقيل المراد بالسيئات : الصفات ، ومعنى يذهبن السيئات : يكفرنّها حتى كأنها لم تكن ، والإشارة بقوله (ذلك ذكرى للذاكرين) إلى قوله (فاستقم) وما بعده ؛ وقيل إلى القرآن ذكرى للذاكرين : أى موعظة للمتغطين (واصبر) على ما أمرت به من الاستقامة وعدم الطغيان والركون إلى الذين ظلموا ، وقيل إن المراد الصبر على ما أمر به دون مانهيه عنه ، لأنه لا مشقة فى اجتنابه وفيه نظر ، فإن المشقة فى اجتناب المنهى عنه كائنة ، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى يوفيه أجورهم ولا يضيع منها شيئا فلا يهمله ولا يبخسه بنقص .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله (وإنا لو فهم نصيبهم غير منقوص) قال : ما قدر لهم من خير أو شر . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : من العذاب . وأخرج ابن أبي العالبة . قال من الرزق . وأخرج أيضا عن قتادة فى قوله (فاستقم كما أمرت) قال : أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره ، ولا يطفى فى نعمته ، وأخرج أبو الشيخ عن سفيان فى الآية قال : استقم على القرآن . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية (فاستقم كما أمرت) قال : شمروا شمروا فاروى صاحبكم . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (ومن تاب معك) قال : آمن . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن العلاء بن عبد الله بن بدر فى قوله (ولا تطفوا) قال : لم يرد أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم إنما عني الذين يميثون من بعدهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس (ولا تطفوا) يقول : لا تظلموا . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : الطغيان : خلاف أمره وارتكاب معصيته . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قال : يعنى الركون إلى الشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه (ولا تركنوا) قال : لا تميلوا . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال (ولا تركنوا) لا تدهنوا . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : أن تطيعوهم أو تودوهم أو تصطنعوهم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله (وأقم الصلاة طرفى النهار) قال : صلاة المغرب والغداة (وزلفا من الليل) قال : صلاة العتمة . وأخرج ابن الحسن قال الفجر والعصر (وزلفا من الليل) قال : هما زلفتان : صلاة المغرب وصلاة العشاء . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « هما زلفتا الليل » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الطرفين قال : صلاة الفجر ، وصلاتى العشى : يعنى الظهر والعصر (وزلفا من الليل) قال : المغرب والعشاء . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (وزلفا من الليل) قال : ساعة بعد ساعة ، يعنى صلاة العشاء الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء ، ويقرأ زلفا من الليل . وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) قال : الصلوات الخمس .

وأخرج عبد الرزاق والفريري وابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس (إن الحسنات يذهبن السيئات) قال : الصلوات الخمس ، والباقيات الصالحات : الصلوات الخمس . وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود : أن رجلاً أصاب من امرأة قبله ، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ، فأنزلت عليه (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) فقال الرجل : يا رسول الله إلى هذه ؟ قال : هي لمن عمل بها من أمتي . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أبي أمامة أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أقم في حدة الله مرة أو مرتين ، فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ قال : أين الرجل ؟ قال : أنا ذا . قال أتممت الوضوء وصليت معنا آتفاً ؟ قال نعم . قال : فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد ، وأنزل الله حينئذ على رسوله (وأقم الصلاة طرفي النهار) . وفي الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ، ووردت أحاديث أيضاً « إن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن » . وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله (ذلك ذكرى للذاكرين) قال : هم الذين يذكرون الله في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والعافية والهلاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزع النذى قبل المرأة تذكر فذلك قوله (ذكرى للذاكرين) .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ (١٢١) وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) .

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد . فقال (فلولا) أي فهلا (كان من القرون) الكائنة (من قبلكم أولوا بقية) من الرأي والعقل والدين (ينهون) قومهم (عن الفساد في الأرض) ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل ، وقوة الدين ، وفي هذا من التوبيخ للكفار ما لا يحصى . والبقية في الأصل لما يستبقه الرجل مما يخرج .

وهو لا يحقني إلا أجوده وأفضله ، نصار لفظ البقية مثلاً في الجوده . والاستثناء في (إلا قليلاً) منقطع : أي لكن قليلاً (ممن أنجبنا منهم) ينهون عن الفساد في الأرض - وقيل هو متصل لأن في حرف التحضيض معنى النفي ، فكأنه قال : ما كان في القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم . ومن في ممن أنجبنا بيانية لأنه لم ينج إلا الناهون ، قيل هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر - إلا قوم يونس - وقيل هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم (واتباع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) معطوف على مقدر يقتضيه الكلام .

تفسيره : إلا قليلاً ممن أنجبنا منهم نهوا عن الفساد ، والمعنى : أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم النهي عنه ما أترفوا فيه . والمترف : الذي أبطره النعمة ، يقال صبي مترف : منعم البدن ، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق ، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغفروا أهلهم في الشهوات النفسانية ، وقيل المراد بالذين ظلموا تاركوا النهي . ورد بأنه يستلزم خروج مباشرى الفساد عن اللين ظلموا وهم أشد ظلماً ممن لم يباشروا ، وكان ذنبه ترك النهي . وقرأ أبو عمرو في رواية عنه : واتباع الذين ظلموا ، على البناء المفعول ، ومعناه : أتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ، وجملة (وكانوا مجرمين) متضمنة لبيان سبب إهلاكهم ، وهي معطوفة على أترفوا : أي وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين ، والإجرام الأثام . والمعنى : أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها . ويجوز أن تكون جملة (وكانوا مجرمين) معطوفة على واتباع الذين ظلموا : أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) أي ماصح ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك ، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم في تعاطي الحقوق لا يظلمون الناس شيئاً . والمعنى : أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد في الأرض ، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكبال والميزان وبخس الناس أشياءهم ، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء ، وقيل إن قوله (بظلم) حال من الفاعل . والمعنى : وما كان الله ليهلك القرى ظالماً لم حال كونهم مصلحين غير مفسدين في الأرض . ويكون المراد بالآية تزييه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجب على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه . وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها ، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد . قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه ، وإن كان على نهاية الصلاح لأن تصرفه في ملكه . دليله قوله تعالى - إن الله لا يظلم الناس شيئاً - وقيل المعنى : وما كان ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون : أي مخلصون في الإيمان . فالظلم للمعاصي على هذا (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أي أهل دين واحد ، إما أهل ضلالة ، أو أهل هدى ، وقيل معناه : جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه ، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن ، ولهذا قال (ولا يزالون مختلفين) في ذات بينهم على أديان شتى ، أو لا يزالون مختلفين في الحق أو دين الإسلام ، وقيل مختلفين في الرزق : فهذا غنى ، وهذا فقير (إلا من رحم ربك) بالهداية إلى الدين الحق ، فإنهم لم يختلفوا ، أو إلا من رحم ربك من المختلفين في الحق أو دين الإسلام ، بهدايته إلى الصواب الذي هو حكم الله ، وهو الحق الذي لا حق غيره ، أو إلا من رحم ربك بالقناعة . والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالجمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء في (إلا من رحم ربك) واضحاً غير محتاج إلى تكلف (ولذلك) أي لما ذكر من الاختلاف (خلقهم) أو ولحمته خلقهم . وصح تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقي . والتفسير في خلقهم راجع إلى الناس ، أو إلى من في من رحم ربك ، وقيل الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف

والرحمة ، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما في قوله - عوان بين ذلك . وابتغ بين ذلك سيلا - ليهلك
فليفروا . قوله (وتمت كلمة ربك) معنى تمت ثبتت كما قدره في أزله . وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل
وقيل الكلمة هي قوله (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى ممن يستحقها من الطائفتين ، والتنوين في (وكلا)
للتعويض عن المضاف إليه ، وهو منصوب بنقص . والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقص عليك :
أى نخبرك به . وقال الأخفش (كلا) حال مقدّمة كقولك : كلا ضربت القوم . والأنباء الأخبار (ما ثبت به
فؤادك) أى مانع من به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ووفور طمأنينته . لأن تكرار الأدلة أثبت
للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم ، وجملة (ما ثبت) بدل من أنباء الرسل . وهو بيان لكلا . ويجوز أن
يكون (ما ثبت) مفعولا لنقص . ويكون كلا مفعولا مطلقا ، والتقدير : كل أسلوب من أساليب الاختصاص
نقص عليك ما ثبت به فؤادك (وجاءك في هذه الحق) أى جاك في هذه السورة ، أو في هذه الأنباء البراهين
القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد (وموعظة) يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين (وذكرى) يتذكر بها من تفكر
فيها منهم . وخص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر ، وقيل المعنى : وجاءك في هذه الدنيا الحق ، وهو
النبوة ، وعلى التفسير الأول يكون تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور
لقصد بيان أشغالها على ذلك ، لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها (وقل للذين لا يؤمنون) بهذا الحق ولا يتعظون
ولا يتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على تمكنكم وحالككم وجهتكم ، وقد تقدّم تحقيقه (إنا عاملون) على مكانتنا
وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق والاتعاظ والتذكر . وفي هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم . وكذلك قوله (وانتظروا
إنا مستظرون) فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى . والمعنى : انتظروا عاقبة أمرنا فلما منتظرون عاقبة أمركم وما يحل
بكم من عذاب الله وعقوبته (والله غيب السموات والأرض) أى علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما ، وخص
الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود ، كما يعلم بما هو مغيب ، لكونه من العلم الذى لا يشاركه فيه غيره ، وقيل إن
غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض ، والأول أولى . وبه قال أبو على
الفارسي وغيره . وأضاف الغيب إلى المفعول توسعا (وإليه يرجع الأمر كله) أى يوم القيامة فيجازى كلا بعمله .
وقرأ نافع وحفص « يرجع » على البناء للمفعول . وقرأ الباقون على البناء للفاعل (فاعبدوه وتوكل عليه) فإنه كافيك
كل ما تكره ، ومعطيك كل ما تحب ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة ، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى
الله سبحانه (وما ربك بغافل عما تعملون) بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وقرأ
أهل المدينة والشام وحفص (تعملون) بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله (فلولا) قال : فهلا . وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب
قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية وأحلام يهنون عن
الفساد في الأرض . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج (إلا قليلا ممن أنجينا منهم) يستقلهم الله من كل قوم .
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) قال : في
ملكهم ونجبرهم وتركهم الحق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج قال : قال ابن
عباس : أترفوا فيه أبطروا فيه . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير قال « سمعت رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم يسئل عن تفسير هذه الآية (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فقال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وأهلها ينصف بعضهم بعضا » . وأخرجه ابن أبي حاتم والخراطي في مساوي

الأخلاق موقفا على جرير . وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) قال :
أهل دين واحد أهل ضلالة أو أهل هدى . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس (ولا يزالون مختلفين) قال : أهل
الحق وأهل الباطل (إلا من رحم ربك) قال : أهل الحق (ولذلك خلقهم) قال : للرحمة . وأخرج عبد الرزاق
وابن المنذر عنه (إلا من رحم ربك) قال : إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون . وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال :
لا يزالون مختلفين في الأهواء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء بن أبي رباح (ولا يزالون
مختلفين) أي اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية . وهم الذين رجم ربك الحنيفية . وأخرج هؤلاء عن الحسن في
الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك ، فمن رحم ربك غير مختلف (ولذلك خلقهم) قال :
للاختلاف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد (ولا يزالون مختلفين) قال : أهل الباطل (إلا من رحم ربك)
قال : أهل الحق (ولذلك خلقهم) قال : للرحمة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة بنحوه . وأخرج عن
الحسن قال : لا يزالون مختلفين في الرزق . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ولذلك خلقهم قال :
خلقهم فريقين فريقا يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يرحم يختلف ، فذلك قوله - فمنهم شقي وسعيد - . وأخرج ابن
جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) لتعلم
يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أمهم . وأخرج عبد الرزاق والفريري وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر
وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال (وجاءك في هذه الحق) قال : في هذه
السورة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ
عن سعيد ابن جبير مثله أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ
عن قتادة قال في هذه الدنيا . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة (اعملوا على مكانتكم) أي
منازلكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج (وانتظروا إنا مستظرون) قال : يقول انتظروا مواعيد
الشیطان إياكم على ما يزين لكم ، وفي قوله (وإليه يرجع الأمر كله) قال : فيقضى بينهم بحكم العدل . وأخرج
عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن الضريس في فضائل القرآن وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب قال : فاتحة
التوراة فاتحة الأنعام ، وخاتمة التوراة خاتمة هود (والله غيب السموات والأرض) إلى آخر الآية .

بحمد الله تعالى تم طبع الجزء الثاني ، ويليه الجزء الثالث

وأوله : تفسير سورة يوسف عليه السلام

فهرس

الجزء الثاني من فتح القدير

صفحة	صفحة
٣٠	٣
الكلام في ابني آدم وقتل أحدهما أخاه	سورة المائدة
٣٢	هل المائدة آخر سورة نزلت ؟
الكلام على قاتل النفس والمتسبب في إحيائها ، والكلام على البغاة	٤
٣٧	ما المنسوخ من المائدة ، والتنبية على حديث موضوع في فضلها
٣٩	حادثة فيلسوف في معارضة القرآن . ما هي العقود المأمور بالوفاء بها ؟
٤٠	٧
المنافقون واليهود ، وتسليية الرسول عن مسارعتهم في الكفر ، وشيء من أخلاق اليهود وأحكامهم	ما هي بهيمة الأنعام ، وما الشعائر التي نهينا عن إحلالها ، وما معنى الإجماع ؟
٤٥	٨
من من الحكام المحكوم عليه بالظلم والفسق والكفر إذا لم يحكم بما أنزل الله ؟ ومعنى الظلم والفسق والكفر هنا	المحرّم علينا من الحيوان
٤٥	١١
أحكام القصاص في النفس والجوارح ، والحق في شرع من قبلنا هل هو شرع لنا	هل للمضطّر أن يأكل من الحيوان المحرّم
٤٩	١٢
حكم موالة غير المسلمين ووصف المنافقين والمؤمنين حقاً في هذه الموالة ، ومن هو وليّ المؤمنين الولاية الصحيحة	ماذا أحلّ لنا ؟ والكلام على الصيد
٥٣	١٤
وصف قوم نهينا عن موالاتهم أيضاً ، ووصف شرّ منهم	هل يحلّ لنا طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم ؟
٥٧	١٦
قول اليهود يد الله مغلولة ، وجزاؤهم على ذلك وماذا كان يفعل الله بأهل الكتاب لو أقاموا التوراة والإنجيل	الكلام بسعة في الوضوء والتيمم
٥٩	٢٢
استواء أهل البيت بجميع الناس في التبليغ لم يختصوا وحدهم بشيء من الدين	ما نقيباء بني إسرائيل وبماذا بعثوا ؟ وماذا فعل الله ببني إسرائيل لما نقضوا العهد ؟
	٢٣
	هل كان أهل الكتاب يخفون من كتبهم شيئاً
	٢٤
	الردّ على النصارى في قولهم إن الله هو المسيح ، وعلى اليهود والنصارى معا في دعواهم أنهم أبناء الله وأحبّاءه
	٢٥
	الكلام في الفترة التي بين رسولنا صلى الله عليه وسلم وسيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم
	٢٦
	تذكير سيدنا موسى لقومه ، ودعوتهم للجهاد وتمردهم عليه ، وعقابهم على ذلك

صيفة	صيفة
٨٣ ماذا كان لمن سألوها قبل المنهين ؟	٦٠ حظ العلماء المخلصين من العصمة من الناس إذا قاموا ببيان حجج الله
٨٤ ما البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ؟	٦١ استغناء الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحراس لما وعد بالعصمة من الناس
٨٥ هل يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله تعالى (عليكم أنفسكم) الآية ؟	٦٢ تخريج (والصائبون) المرفوع المعطوف على المنصوب
٨٦ آيات ثلاث هي أصعب ما في القرآن والكلام عليها	٦٣ حكم من قال إن الله هو المسيح ، ومن قال إن الله ثالث ثلاثة
٩٠ الجواب عن نبي الرسل علمهم بما أجيبوا به من أهمهم	٦٤ حقيقة سيدنا المسيح وأمه
٩٢ الجواب عن الحوارين في قولهم هل يستطيع ربك	٦٥ لماذا لعن الكفار من بني إسرائيل
٩٣ هل نزلت المائدة وماذا كان عليها ؟	٦٧ من أشد الناس عداوة للمؤمنين ، ومن أقربهم مودة لهم ؟
٩٥ هل للتوفي معان متعددة ، وما معنى توفي الله تعالى لسيدنا عيسى	٦٩ بحث نفيس في تحريم العوام على أنفسهم بعض ما أحل الله لهم ، وأنه ليس من الدين في شيء لو ترك ترك هذا
٩٦ سورة الأنعام	٧١ ما هو اللغو من الإيمان ، وما كفارة المنعقدة وما غلط الغموس
٩٨ فضل سورة الأنعام ، وهو فضل عظيم ما هي الظلمات والنور . ومعنى ثم في قوله : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)	٧٤ تحريم الخمر ، وسر تحريمها بالتدريج ومضارها الدنيوية والأخروية
١٠٠ ما الأجل الذي قضاه الله والأجل المسمى عنده إلى أي حد بلغ تصلب الكفار في تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم	٧٥ الكلام في الميسر والرد ، وسواهما من الألاعيب
١٠٣ حجج على وحدانية الله تعالى	٧٦ ابتلاء المؤمنين بتحريم الصيد وهم حرم ، وجزاؤهم الآخرون إن خالفوا
١٠٥ مبلغ رحمة ربنا عز وجل	٧٧ ما الجزاء الدنيوي لقاتل الصيد
١٠٨ فيمن نزل قوله تعالى (وهم يهون عنه وينأون عنه)	٧٨ إباحة صيد البحر للمحرم
١١٣ في أي شيء مثلنا الحيوانات	٧٩ ما معنى كون الكعبة والأشهر الحرم والمهدى والقلائد قياما للناس
١١٥ تحريض شديد على التضرع إلى الله تعالى ، وهل في الرخاء والسعة خير والمرء مقيم على المعاصي غافل ؟	٨١ ما الخبيث والطيب ومعنى عدم استوائهما ولو كثر الخبيث وأعجب الناظر
١١٨ إنكار للمفسر على من يشتغل بالمفاضلة بين الملائكة والأنبياء	النهي عن مسائل بسوء التكليف بها

صحيفة

- ١٢٣ حملة على الدجالين الذين يدعون علم الغيب وما هي مفاتيح الغيب
- ١٢٤ أين تكون الروح إذا نام الإنسان ، وما معنى (فوق عباده) ؟
- ١٢٨ النهي عن مجالسة أهل الأهواء الباطلة ونسخ الترخيص في ذلك أولا
- ١٣٢ إنكار سيدنا إبراهيم على أبيه في عبادة غير الله
- ١٣٥ الحججة التي أوتيتها سيدنا إبراهيم على قومه
- ١٤٠ ما يكون للظالمين وهم في غمرات الموت
- ١٤٢ عدة حجج على أنه تعالى الإله الواحد
- ١٤٨ هل رأى محمد ربه ، وما معنى (لاتدركه الأبصار)
- ١٥٠ هل يترك النهي عن المنكر إذا خيف أن يترتب عليه أشد منه ؟ وجملته شديدة جدا على معاندى الشرائع
- ١٥٢ حل الإشكال في قوله تعالى : (وما يشرككم أنها إذا جاءت) الخ بفتح همزة أنها
- ١٥٤ الجن والشياطين هل بينهما اختلاف ؟ ومتى يموت كل منهما ؟
- ١٥٥ ما المراد بأكثر أهل الأرض الذين يصدون من أطاعهم عن سبيل الله ؟
- ١٥٧ الكلام على ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح
- ١٥٩ هل يسمى المؤمن حيا والكافر ميتا ؟
- ١٦٠ هل للهداية والضلال علامة ، وما هي ؟
- ١٦٢ هل يسلط الله على الظالم ظالما بسبب ظلمه ؟
- ١٦٥ كيف يرجع المشركون أصنامهم على رب العالمين
- ١٦٦ هل كان المشركون يحللون ويحرمون اقتراء على الله ؟
- ١٦٩ هل نسخ قول ربنا : (وأتوا حقه يوم حصاده)
- ١٧٠ هل في طاعة الله تعالى إسراف والرد على المحرمين بعض الحيوانات بقوله تعالى (ثمانية أزواج) الخ

صحيفة

- ١٧٢ ما زيد من المحرمات على ما تضمنه قوله تعالى : (قل لا أجد) الخ
- ١٧٣ ماذا حرم ربنا على اليهود لما بغوا
- ١٧٥ احتجاج المشركين بمشينة الله على جواز إشراكهم والرد عليهم
- ١٧٦ الوصايا العشر التي وصانا الله بها
- ١٧٨ ما ورد في هذه الوصايا ، هل هذه الوصايا هي التي في التوراة ؟ وإزالة إشكال
- ١٨١ ما الذي ينتظره من لم يؤمن ؟
- ١٨٢ أى آية التي إذا كانت لا ينفع نفسا إيمانها
- ١٨٤ كيف يكون جبراء الحسنات والسيئات
- ١٨٧ سورة الأعراف
- ١٨٨ الجواب الحاسم عما يكون منقيا تارة ومثبتا أخرى يوم القيامة
- ١٩٠ كيف توزن الأعمال ، والبحث في حقائق أنكرها قوم
- ١٩١ هل الطين أفضل من النار ، ولماذا ؟
- ١٩٢ بناء على أى شيء قال إبليس : (ولا نجد أكثرهم شاكرين)
- ١٩٧ هل تدل آية : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) أنا لانرى الشياطين
- ١٩٨ كلام جليل مع المقلدين
- ٢٠٠ هل ترك ما أحل الله تعالى يقال له زهد ويمدح
- ٢٠٢ حل إشكال الأجل إذا جاء كيف لا يتقدم وقد جاء
- ٢٠٤ الكلام في زيادة العمر ونقصه
- ٢٠٥ ما معنى كون أبواب السماء لا تفتح للكفار
- ٢٠٦ رد مفهم للمفسر على الزمخشري
- ماذا يقول الكافرون حين يرون منازلهم في الجنة . وماذا يقول المؤمنون حين يرون منازلهم في النار

صفحة

- ٢٠٧ مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار
ما الحجاب الذى بين أهل الجنة وأهل النار
وما الأعراف ومن أهله ؟
- ٢٠٩ نداء أهل النار أن يفيض أهل الجنة عليهم
من الماء ، والرد عليهم
- ٢١١ الاختلاف فى استواء الله تعالى على العرش ،
والحق فى ذلك
- ٢١٢ فضل جليل جداً لعشرين آية من القرآن
- ٢١٣ معنى التضرع ، والاعتداء فى الدعاء ، ومعنى
الفساد فى الأرض ، والإصلاح فيها
- ٢١٥ قصة سيدنا نوح مع قومه
- ٢١٧ قصة سيدنا هود مع قومه
- ٢١٩ قصة سيدنا صالح مع قومه
- ٢٢١ قصة سيدنا لوط مع قومه
- ٢٢٣ قصة سيدنا شعيب مع قومه
- ٢٢٧ سياسة الله تعالى مع كل الأمم قبل إهلاكهم
وماذا كان يفعل الله مع أهل القرى المالكين
لو آمنوا واتقوا
- ٢٢٩ تهديد هذه الأمة أن يفعل معها الله كما فعل
بالأمم السابقة إن لم تؤمن
- ٢٣٠ قصة سيدنا موسى مع فرعون وملئه وآيات
عظيمة لم يؤمن برويتها فرعون وقومه
- ٢٤٠ أوضح برهان على بله بنى إسرائيل
- ٢٤٢ جواب ظاهر عن قوله تعالى (فمّ ميقات ربه
أربعين ليلة)
- ٢٤٣ الصدع بالحق فى رؤية الله تعالى يوم القيامة
- ٢٤٦ ما هى دار الفاسقين ، وما جزاء الذين يتكبرون
فى الأرض بغير الحق
- ٢٤٨ هل كان العجل الذى اتخذوه بنو إسرائيل لها
ذالحم ودم ؟

صفحة

- ٢٥١ رجفة السبعين الذين اختارهم سيدنا موسى
ولإيضاح كلامه صلى الله عليه وسلم مع ربه
- ٢٥٦ قصة أصحاب السبت
- ٢٥٧ هل الأمر بالمعرف ينجى من السوء ؟
- ٢٦٢ الحق فى أخذ ذرية بنى آدم من ظهورهم
- ٢٦٥ من الذى آتاه الله آياته فانسلك منها ؟
- ٢٦٧ هل هناك آدمية أضل من الأنعام ؟
- ٢٧٠ كم نوع الإلحاد فى أسماء الله ، وكم أسماء الله
تعالى ؟
- ٢٧١ كيف يكون الاستدراج ؟
- ٢٧٢ هل يعلم متى تقوم الساعة أحد غير الله ؟
- ٢٧٥ اعتراف سيد العالمين أنه لا يعلم الغيب
- ٢٧٦ الكلام على قول الله تعالى : (جعلنا له شركاء
فما آتاهما)
- ٢٧٧ صفات للأصنام نبين قدرها حق البيان
- ٢٧٨ كيف يتولى الله الصالحين ؟
- ٢٨٠ هل يجب سماع القرآن فى كل حال
- ٢٨٢ سورة الأنفال
- ٢٨٣ بحث فى الأنفال أول الأمر
- ٢٨٥ من هم المؤمنون حقاً ؟
- ٢٨٦ أوائل غزوة بدر
- ٢٨٩ هل مدّ المؤمنون بملائكة يوم بدر بشرى لهم
- ٢٩٠ ماذا فعل الله لطمأنة المؤمنين ونصرهم يوم بدر
- ٢٩٣ الوعيد على الفرار من الزحف
- ٢٩٤ متى كان الرمي فى قوله تعالى (وما رميت إذ
رميت)
- ٣٠٣ بماذا تأمر الكفار على النبي صلى الله عليه وسلم
ونجاه الله منهم
- ٣٠٥ هل أنزل الله أمانين لهذه الأمة : ذهب أمان
وبنى أمان

صحيفة

٣٠٨ كيف تقسم الغنائم ؟

٣١٣ تثبيت قلوب المؤمنين ببدر برويا رسول الله المنامية وبروية المؤمنين للكفار قليلين لبطوا فيهم

٣١٤ وصايا تضمن النصر للمؤمنين إن راعوها

٣٢٣ تكليف الله للمؤمن أن يحرم عليه أن يفر من عشرة أول الأمر وتخفيف الله ذلك عنهم وجعل الفرار المحرم الفرار من اثنين فقط

٣٢٧ الكلام في فداء الأسرى يوم بدر

٣٢٨ المعاني التي كان بها التناصر بين المؤمنين والموالاة ، والمعاني التي كان بها الإعراض عن بعض المؤمنين ، والمعاني التي كانت بها المعادة سورة براءة

أسماء سورة براءة ، وسبب سقوط البسمة من أولها

٣٣٢ براءة الله ورسوله من المشركين لنقضهم العهد وضرب مدة لهم يستعدون فيها للحرب والنداء يوم الحج الأكبر بهذه البراءة وبأشياء معها ، وبيان ماهو الحج الأكبر

٣٣٦ استثناء من لم ينقضوا عهدهم من تلك البراءة ، والأمر بإتمام عهدهم إليهم

٣٣٧ ماهي الأشهر الحرم التي أمر المؤمنون أن يقاتلوا المشركين إذا انسلخت

٣٣٩ المعاني التي من أجلها لم يحترم عهد المشركين الذين لم يستقيموا على عهدهم

٣٤٣ بيان أن عمارة مساجد الله إنما تصح وتليق بالمؤمنين فقط

٣٤٦ تحريم موالاة الآباء والإخوان إذا لم يؤمنوا ، والوعيد الشديد عليها

٣٤٧ ما كان يوم حنين ؟

صحيفة

٣٤٩ منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، والخلاف في دخولهم غيره

٣٥٠ الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، والخلاف في مقدار هذه الجزية رأى المفسر في مقلدى المذاهب الأربعة

٣٥٢ لماذا قال اليهود عزيز ابن الله

٣٥٥ وعيد من يكتزون الذهب والفضة ، وبيان أن كل ما أدبت زكاته فليس يكتز

٣٥٨ هل نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم أم لا يزال باقيا ، وما هو النسيء ؟

٣٦١ التحريض الشديد على النفر في سبيل الله والوعيد العظيم لمن لم ينفر

٣٦٥ كلام الله مع رسوله لإذنه للمنافقين أن يتخلفوا عن الجهاد

٣٧١ مصارف الزكاة

٣٨٤ قصة ثعلبة المنافق الذي عاهد الله ولم يف

٣٨٧ لماذا لا ينفع استغفار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمنافقين

تخلف المنافقين عن غزوة تبوك وجزاؤهم على ذلك دنيا وأخرى

٣٨٩ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، ولماذا ذلك ؟

٣٩٠ ما جزاء من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله

٣٩١ من هم المعذرون الذين جاعوا رسول الله ليأذن لهم في التخلف عن الجهاد

٣٩٢ رفع الحرج عن أرباب الأعذار الصحيحة إذا تخلفوا عن الجهاد ومن يؤاخذ بالعقوبة لتخلفه عن الغزو

٣٩٤ اعتذار المنافقين وحلفهم - وجزاؤهم على ذلك

صفحة

- ٣٩٥ هل الأهراب أشد كفرا ونفاقا ، وهل من الأهراب قسم مؤمن يتقرب إلى الله بنفاقته خلاف القسم الذي يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بالمؤمنين الدوائر
- ٣٩٧ ما جزاء السابقين الأولين من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان
- ٣٩٨ عود إلى شرح حال المنافقين الذين بالمدينة وما حولها وما جزاؤهم
- ٣٩٩ طائفة أخرى خلطت عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم
- ٣٩٩ الاختلاف في الصدقة المأمور بأخذها منهم ، أمى الفرض أم لا ؟
- ٤٠٠ التحريض على التوبة
- طائفة أخرى أرجئ أمرهم لم يقطع لهم بالتوبة ولا بعلمها
- ٤٠٢ مسجد الضرار ومن اتخذوه ، وحكمهم عند الله تعالى ، والمسجد الذى أسس على التقوى وأهله وحكمهم
- ٤٠٧ فضل المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وصفاتهم
- ٤١٠ النهى عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربي ، والجواب عن استغفار خليل الله لأبيه
- ٤١١ ما هو الأواه ؟
- ٤١٣ الكلام على قوله تعالى (لقد تاب الله على النبي) الآيات
- ٤١٤ تحريم التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو ، وبيان ما للمجاهدين من ثواب في كل حال

صفحة

- ٤١٦ تعليم المؤمنين أن تكون طائفة منهم تغزو ، وطائفة منهم تتعلم العلم ليرشدوا من لم يتعلم وتعليم المؤمنين أن يبتدثوا بالأدنى في جهادهم
- ٤١٧ بقية من فضائح المنافقين
- ٤١٨ الكلام على قوله تعالى (لقد جاءكم رسول) الآيتين .
- ٤٢١ سورة يونس
- ٤٢٢ إنكار عجب الكفار من إرسال الله تعالى لرسوله المنذر المبشر ، وذكر آيات جلية على قدرته تعالى حتى لا يكون هناك محل لتعجب أولئك الكفار من إرساله للرسول صلى الله عليه وسلم
- ٤٢٣ شرح حال من يؤمن بالمعاد ومن لا يؤمن ، وجزاء كل منهما
- ٤٢٦ صفات للكفار يتخللها تهديد ووعد لهم
- ٤٣٦ مثل الدنيا
- ٤٣٨ الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات ، وجزاء كل
- ٤٤٢ حجج دامغة على توحيده تعالى وبيان أن المشركين لا يتبعون إلا ظنا
- ٤٤٥ الحجج على أن القرآن حق
- ٤٤٧ صفات للكفار وتهديد لهم
- ٤٥٠ رأى المفسر فيمن يستغيث برسول الله وإخوانه الأنبياء وأتباعهم الصالحين
- ٤٥٦ إحاطة علم ربنا بكل شيء
- ٤٥٧ ما هي بشرى الأولياء في الدنيا ؟
- ٤٦١ قصة سيدنا نوح صلى الله عليه وسلم مع قومه
- ٤٦٤ قصة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم مع قومه
- ٤٧٣ الكلام على قوله تعالى (فإن كنت في شك) الآيتين

صفحة	صفحة
٥١٧ قصة سيدنا شعيب صلى الله عليه وسلم مع مدين	٤٧٤ اختصاص قوم سيدنا يونس بنجاتهم من العذاب بعد أن عاينوه
٥٢٢ قصة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم مع قومه	٤٧٨ هل الضار النافع ربنا فقط ؟
٥٢٤ كيف أخذ ربنا إذا أخذ القرى وهي ظالمة ؟	٤٧٩ سورة هود
الأشقياء والسعداء وجزاء كل	ما ورد في هود من الأحاديث
٥٢٥ ما معنى الاستثناء في قوله تعالى (إلا ما شاء ربك) وإزالة هذا الإشكال	٤٨٠ معنى لإحكام آيات الكتاب وتفصيلها
٥٢٩ هل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شيتنى هود وأخوانها » مرتبط بقول ربنا عز وجل له : (فاستقم) الآية ؟	٤٨١ ما جزاء من استغفر ربه وتاب إليه ، وما جزاء من لم يفعل ذلك ؟
٥٣٠ الكلام على قوله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا)	شئ من صفة المنافقين
٥٣٢ هل الأعمال الصالحة تكفر صغائر المحرمات ؟	٤٨٤ هل خلق العرش كان قبل السموات والأرض
٥٣٣ هل سبب استئصال الأمم السابقة بالعذاب كان بسبب أنه لم يكن فيهم من ينهون عن الفساد في الأرض	٤٨٥ الكلام على قوله تعالى (فلعلك تارك) الآية
٥٣٤ هل لا يهلك الله أهل القرى بظلم يتلبسون به وأهلها مصلحون	٤٨٦ الجواب عن قول الكفار إن القرآن افتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم
٥٣٥ لم قص الله تعالى على رسوله ما قص في هذه السورة ؟	٤٨٧ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط وجزاؤه
تهديد شديد للكافرين	٤٩١ الكافرون والمؤمنون وجزاء كل ، ومثل كل
٥٣٦ هل خاتمة التوراة خاتمة هود ؟	٤٩٢ قصة سيدنا نوح صلى الله عليه وسلم مع قومه
	٥٠٤ قصة سيدنا هود صلى الله عليه وسلم مع قومه
	٥٠٧ قصة سيدنا صالح صلى الله عليه وسلم مع قومه
	٥٠٩ قصة سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم مع الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم سيدنا لوط
	٥١٣ قصة سيدنا لوط صلى الله عليه وسلم مع قومه